تأليف

الشيخ العارف بالله تعالى

أبي محمد صدر الدين روزبهان بن أبي نصر البقلي

المتوفى ٦٠٦ هـ

تحقيق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الجزء الأول

المحتوى:

أول سورة الفاتحة - إلى آخر سورة الأنفال

Title : ʿArāʾis al-Bayān
fī Ḥaqāʾiq al-Qurʾān
classification: *Exegesis of the Qur'an*

Author	: Rūzbahān al-Baqli
Editor	: Aḥmad Farīd al-Mizyadi
Publisher	: Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Pages	: 1664 (3 volumes)
Year	: 2008
Printed in	: Lebanon
Edition	: 1st

الكتاب: عرائس البيان
في حقائق القرآن

التصنيف	: تفسير قرآن
المؤلف	: الشيخ العارف بالله روزبهان البقلي
المحقق	: الشيخ أحمد فريد المزيدي
الناشر	: دار الكتب العلميـــة – بيروت
عدد الصفحات:	1664 (3 أجزاء)
سنة الطباعة	: 2008
بلد الطباعة	: لبنان
الطبعة	: الأولى (لونان)

ISBN 2-7451-5743-4 (10 dig)
ISBN 978-2-7451-5743-X (13 dig)
9 782745 157430 90000

الطبعة الأولى
٢٠٠٨م - ١٤٢٩هـ
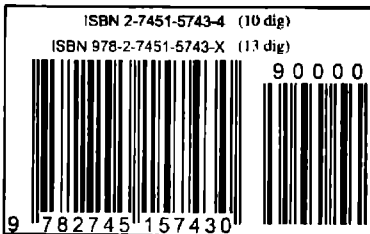
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications **Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah**

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax:+961 5 804813
P.o.Box:11-9424 Beirut-lebanon
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون ، القبة
مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨١٠/١١/١٢ ٨٠٤ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت لبنان
رياض الصلح - بيروت ١١٠٧ ٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
sales @al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم

الحمد لله المنعم المحسن الدَّيان، الملك القدوس العزيز الرحمن، المحمود بكل لسان، في كل حالٍ وسائر الزمان، الذي خلق الإنسان وعلمه البيان، ورزقه قلبًا مدركًا للأشياء بالحجة والبرهان، ثم كرمه بمواهب فضله من الخلافة والعرفان، وفضله بعرائس العقائد الحقة من محجة الإسلام والإيمان، التي لم يطمثهن قبل أصناف الملائكة ولا طوائف الجان، وأوضح الحق بكتابه المجيد، وخطابه الحميد الفرقان كلامًا يحق الباطل بين يديه ويزهق منه الشيطان، وله في كشف الحقائق والتبيان شأن لا تكتنهه الأفكار والأذهان حيث لا توازيه الزبر، ولا تساويه الكتب في الفصاحة والبيان.

ومهَّد للطائعين من عباده المتقين بالجنان الجنان، وبشرهم بأكبر من ذلك وأجل الأكوان الرضوان، وهدد المعاندين الطاغين بالقهر والنيران، لجهة الكفر والكفران، وهيَّأ لهم أنواع النكبة من المذلة وسوء الخسران، وحين حدثت في الشوارع والطرائق صعاب المزالق والمضايق، وخلطت الشرائع بأوهام مموهة وكلام زاهق، بعث الرسول ﷺ إلى أهل المغارب والمشارق بالآيات البينة، والخوارق النيرة التي تضيء الآن كالبدر، ولم تكسف مع تراكم ليالي العوائق من الحوائج والطوارق.

فبيَّن لهم جهارًا أسرار الحقائق، وصدع بكشف القناع عن وجوه الدقائق، من دون أن يفرق بين المخالف والموافق، ويخصص المؤمن الصادق من الكافر والمنافق، صلى الله البارئ الخالق عليه، وعلى آله وصحبه المتنسبين إليه بخير العلائق، ما أظلم الظلام، وأشرقت المشارق، ويميز الجيد من الزائف، والردى من الرائق، وما ابتسمت الأزهار بالرياح في الحدائق، وتنسمت الرياحين والشقائق على عوالي الأعلام والشواهق.

وبَعْد .. فلما كان علم التفسير أحسن العلوم الإلهية كلها، وأعز من سائر الفنون وأجلها إذ هو للعقائد الدينية أقدم الأصول وأهمها، ولإدراك المسائل الفقيهة رأس المباني وأمها، ولاستنباط الأحكام الظاهرة الشرعية بناء وأساس، ولاكتساب المعارف الباطنة من الطريقة والحقيقة، والمعرفة مصباح ونبراس، وإلى الأول منهما قد التفت أكثر الناس قديمًا وحديثًا، وتوجهوا نحو التفسير على وجه الشريعة تصنيفًا وتأليفًا، ولم يتعرضوا للثاني إلا قليلًا، فإنه مسلك أدق وخطب جليل، إذ هو بحر لا يدرك ساحله، وصراط قلَّ من أن يسلم سالكه، ولا يعبّره إلا من أتى الله بقلب سليم أو وفق من الله العظيم، لهذا الأمر الجسيم.

كان كتاب «عرائس البيان في حقائق القرآن» أجلَّ ما صنف في هذا الباب، من مؤلفات نخبة أولي الألباب، المستغرق في بحار الأنوار، المشاهد للستر وسر الأسرار، الباقي بربه والفاني عن نفسه، العارف بالرمز الخفي والجلي ، الشيخ «أبو نصر بن روزبهان البقلي الشيرازي» -قدس الله سره- من فاز بالجاه المتكاثر والمناقب والمفاخر، وأوتي مناصب الدنيا بحسن الأخلاق، وخير المآثر، المستجمع لأصناف الفرح والسرور، المستغني عن التعرض بالاسم والرسم لغاية الظهور، أدام الله فيضه على مر الدهور والشهور.

فإليك أيها المحب الصوفي المتعطش لنهر الحقائق المتدفق بمعاني الوجد الرائق، فتنتهل من درر الأسرار والأنوار الفوائق.

قد قمت بتحقيقه وتخريجه والتعليق عليه، من معين المحقيقين المتحقيقين بأسرار الذكر الحكيم، وتلك خصوصية الغارقين الذي في بحر الشهود غارقين، هائمين.

كتبه

العبد الفقير الحقير إلى الله السميع البصير

الرَّاجي عفو الله العلي الكبير

بجاه سيدنا البشير النذير ﷺ

تراب أقدام أصحاب الوراثة النبوية

أحمد فريد المزيدي

ترجمة الشيخ المصنف

هو الشيخ الإمام العلامة المتكلم المفسر الفقيه الصوفي المحقق، شطَّاح فارس:

أبو محمد روزبهان بن أبى نصر البقلي ، الفسوي، الشيرازي المصري؛ المتوفى سنة ٦٠٦ هجرية.

أصله من «شيراز» زار مصر، فقضى في القاهرة والإسكندرية زمنًا، حتى عرف باسم «روزبهان المصري» ثم عاد إلى شيراز، واستمر بالوعظ والتذكير خمسين سنة في الجامع العتيق بمدينة شيراز، واشتهر في هذه السنوات الخمسين الأخيرة بلقب شطاح فارس.

ويعد روزبهان من أعظم صوفية الإسلام، واعتبره الفرس من مفاخر إقليم فارس، ومن مقدسات شيراز!

وقد ترك الشيخ روزبهان العديد من المؤلفات، منها:

- تفسير القرءان بعنوان «عرائس البيان في حقائق القرآن»، (كتابنا هذا).
- منطق الأسرار في بيان الأنوار وهو «شرح الشطحيات» بالعربية والفارسية.
- شرح كتاب «الطواسين» للحلاج، بالعربية والفارسية.
- الأنوار في كشف الأسرار.
- سير الأرواح -المصباح لمكاشفة الأرواح- مشرب الأرواح.
- كتاب القدسية.
- مكنون الحديث.
- حقائق الأخبار.
- تقسيم الخواطر (بتحقيقنا).
- الموشح في المذاهب الأربعة وترجيح قول الشافعي بالدليل.
- كتاب العقائد.
- عبر العاشقين.
- رباعيات من الشعر الفارسي.

ويقول الشيخ في الفصل الحادي والثلاثين من «عبر العاشقين»: بعنوان كمال

المعشوق ما نصه: إن الله سبحانه وتعالى ذاته القديمة موصوفة أزلاً وأبدًا بصفاته القديمة، ومن جملة صفات الحق: (الأول، العشق) وقد عشق ذاته بذاته، فهو العشق والعاشق والمعشوق، فصار العشق واحد، صفة له قائمة به لا تغير فيها؛ بل هو عاشق بنفسه لا يجوز له التغير الحدثاني وأعرف محبة الحق في أن يكون علمه لم يزل محبًا بنفسه لنفسه؛ كمال المحبة، فالمحبة صفة الحق، فلا تخطئ في الاسم، فإن العشق والمحبة أمر! إنه لم يزل علماً بنفسه وناظرًا إلى نفسه بنفسه، لا يوجد انقسام في أحديته، ولما أراد - تعالى - أن يفتح كنز الذات بمفتاح الصفات، تجلى على أرواح العارفين بجمال العشق، وظهر لهم بصفات خاصة، وأنهم حصلوا في كل صفة لباسًا، فمن العلم علمًا، ومن القدرة قدرة، ومن السمع سمعًا، ومن البصر بصرًا، ومن الكلام كلامًا، ومن الإرادة إرادة، ومن الحياة حياةً، ومن الجمال جمالاً، ومن العظمة عظمةً، ومن البقاء بقاءً، ومن المحبة محبةً ومن العشق عشقاً؛ كانت كل هذه (هو) فيهم، وأثرت الصفات فيهم، والصفة قائمة بالذات، فأصبحت صفتهم قائمة من أثر ذلك؛ لا يوجد من (الحلول) شيء في العالم: العبدُ عبدٌ والربُّ ربٌّ.

فأصل العشق قديم، وعشاق الحق قدماء! عشقهم بالروح، والعشق لألباب الأرض القديمة الذي التف حول شجرة روح العاشق، والعشق سيف يقطع رأس الحدوث من العاشق، وهو ذروة قاعدة الصفات، فما وصلتها روح العاشق إلا واستسلمت للعشق، وكل من صار معشوقًا للحق، وعاشقًا للحق، لا يستطيع النزول من تلك الذروة، ويصير في العشق متحدا بالعشق؛ ولما اتحد العاشق والمعشوق صار العاشق والمعشوق بلونٍ واحد، وعندئذٍ يصبح العاشق حاكمًا في إقليم الحق، فعندما غلب عليه الحق، أصبح قالب صورته جنانيًّا، ونفسه روحانية، وروحه ربانية.

العشق كمال من كمال الحق، فإذا اتصل بالعاشق، تحول من الحدوث المحض إلى الجلال الإلهي، ويصبح باطنه ربانيًا ويطلب معدن الأصل، ولا يتغير من حوادث الدهور وصروف الزمان وتأثير المكان؛ فإذا بلغ عين الكمال، تزول ستائر الربوبية! والعاشق الرباني يذهب بالمعدن الأصلي، وليس في العشق مقصود، فالعشق مع المقصود ليس بموجود:

العشـــق والمقصـــود كفـــر و العاشـق بريء من روحـــه

وليس للصورة مكان في العالم العشق؛ لأن العقل والنفس ليسا معًا في طريق

العشق، فالعشق هو الطائر الطاهر للروح – والعشق والروح، كالحمام والصقر:

العــشق لا يقــبل الــنفس الحــية و الــصقر لا يــصطاد الفــأرة الميتة

الأمر والنهي منسوخان في طريق العشق!

والكفر والدين حجبا عن سراي العشق!

والآفاق محترقة بإشراق العشق!

والكون مضمحل تحت حافر فرس العشق!

عــند مــن كــان العــشق مرشــده يكــون الكفــر والدين ستار بابه

وجوهرة العشق عجنت من الأزل، ولم يكن في ذلك العالم للروح والعقل من طريق؛ كل من ظهر له طريق العشق، يخطف جوهر أوصافه من هذه التربة:

أم كان في الكائنات من جزء وكل هــي أطــواق قناطــر العــشق

العــشق أرقــى مــن العقل والروح «لي مــع الله» هــو وقت الرجال

وليس في العشق مجوسية ولا كفر، ولا شراسة ولا بلاهة، وصفة العشاق كمال الحيرة.. والخضوع صفة المتيمن.

يجعــل حِمْلُ العشق الطفلَ شيخًا ويجعل العشق البَاشِق صَيَّادَ البَعُوضة

و الجنة مأوى الزاهدين، والحضرة مأوى العاشقين! ليس في العشق فجاجة، وليس في طريقه عجز ولا ضعف.

وكل ما قلناه ليس من صفة العشق العاشق .. ونهاية العشق بداية المعرفة.. والعشق في المعرفة مبني على الكمال؛ وإذا اتحد العاشق بالمعشوق، بلغ مقام التوحيد. وإذا تحير في المعرفة، فقد أحرز مقام المعرفة.. ونهاية العشق إلى هذين المقامين؛ فإذا صار عارفًا، تبدو صفات الحق من صفاته.

ذاك الذي تكلم بالشطحيات، إنما أراد أن يقول الحديث السبحاني (ما في الجبة) وسر (أنا الحق) وإذا لم تعرف ذلك، فاستمع إلى قول أسد مرج التوحيد وفارس ميدان التجريد أبي بكر الشبلي –رحمه الله– فإنه وجد رمز ذلك الحديث ذات يوم في مجلس الموحدين، وحيث إنهم بلغوا ذلك العالم؛ صار قلبهم ربانيًّا، وقولهم أزليًا وأبديًا.. كما قال أبو سعيد الخراز– رحمه الله تعالى–: للعارفين خزائن أودعوها علومًا غريبة، وأنباءً عجيبة، يتكلمون فيها بلسان الأبدية، ويختبرون عنها بعبارات الأزلية.

من مصادر الترجمة:

- شذ الإزار المعروف بهزار مزار للشيرازي (٢٤٣، ٢٤٧).
- تاريخ التصوف لقاسم غانم (ص٥٦٧).
- مقدمة فوائح الجمال، يوسف زيدان (ص٤٩).
- معجم المؤلفين لكحالة (٤/ ١٧٥).

❁❁❁

نماذج من صور المخطوط

بسم الله الرحمن الرحيم رب وفق للاتمام

الحمد لله الذى كان فى ازل الازال موجودا بوجوده وذاته كنوز صفاته وصفاته معادن جوده تقدس ذاته
بذاته عن الاضداد وتنزه صفاته بصفاته عن الانداد قدمه متعال عن الكون والفساد وازله سرمد
الى ابد الاباد تفرد بوحدانيته عن الاماكن والاكوان وتوحد بجلاله عن المشابهة بالحدثان علم فى القدم
ما يبين بارادته من العدم واجرى بمقاديره القلم واثبت على اللوح المحفوظ ما شاء وشاء لم يزل متكلما بكلامه
القديم وعالما بعلمه الازلى الكريم فاوجد جوهر النبوة بقوته القدمية وكلماته الازلية فى فضاء القدرة وابدع
منه فطرة الخليقة واخرج من اديان القدرة المقدورات بصنع الالوهية ولباس العبودية واصطفى من تلك الجوهرة
وطينة الازلية فطرة ادم على جميع العالم وعلمه الاسماء كلها وجعله من جميع البرية اصلها واخرج من عنصر الارواح
والاشباح واختار منها صفوة الانبياء والرسل والاولياء بالرسالة والولاية وخاطبهم بخطاب الازلى وكلامه الابدى
ليدعوا به عباده الى خدمته وشوقهم الى مشاهدته واجتبى من بينهم فى الازل روح المصطفى صلوات الله عليه واله
بافضل الدرجات واكرم المناجاة واصطفاه المقام المحمود وكمال الكرم والجود وخاطبه باشرف كلامه واكرم فرقانه
وقرانه الذى فيه بيان مكنون اسرار ذاته والوان صفاته وعجائب علومه الغيبية وغرائب اياته الازلية وارسله
الى كافة البرية ليهديهم به الى الحق والحقيقة ثم اعطى ازمته الظاهرة الى يد اهل الظاهر من العلماء والحكماء حتى
شرعوا فى احكامها وحدود رسومها وشرائعها وجعل خالصة اهل صفوته غيبة اسرار خطابه ولطائف
مكنون اياته وتجلى من كلامه بنعت الكشف والعيان والبيان لقلوبهم وارواحهم وعقولهم واسرارهم واعلمهم علوم
حقائقه ونوادر دقائقه وصفى بروح عقولهم بكشوف انوار جماله وقدس فهومهم بسناء جلاله وجعلها مواضع ودائع خفيات
خطابه واودع كتابه من غوامض اسراره ولطيف اشاراته من علوم المتشابهات ومشكلات الايات وترجم معانى ما اخفاه

صورة الصفحة الأولى من المخطوط

مقدمة المصنف

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي كان في أزل الآزال، موجودًا بوجوده، وذاته كنوز صفاته، وصفاته معادن جوده ، تقدَّست ذاته بذاته عن الأضداد، وتنـزَّهت صفاته بصفاته عن الأنداد، قدمه متعالٍ عن الكون والفساد، وأزله مسرمد إلى أبد الآباد، تفرَّد بوحدّانيته عن الأماكن والأكوان، وتوحد بجلاله عن المشابهة بالحدثان، علم في القدم ما يبيِّن بإرادته من العدم، وأجرى بمقاديره القلم، ورقَّم على اللوح المحفوظ ما قضى وقسم، لم يزل متكلِّمًا بكلامه القديم، وعالمًا بعلمه الأزلي الكريم، فأوجد جوهر البسيط بقوته القدمية، وكلماته الأزلية في فضاء القدرة، وأبدع منه فطرة الخليقة، وأخرج من أديان القدر المقدورات بصنع الألوهية، ولباس العبودية، واصطفى من تلك الجوهرة، وطبيعة الأولية فطرة آدم ﷺ على جميع العالم، وعلَّمه الأسماء كلَّها، وجعله من جميع البريّة أصلها، وأخرج من عنصر الأرواح والأشباح، واختار منها صفوة الأنبياء والرسل والأولياء بالرسالة والولاية، وخاطبهم بخطابه الأزلي، وكلامه الأبدي؛ ليدعو به عباده إلى خدمته، وشوَّقهم إلى مشاهدته، واجتبى من بينهم في الأزل روح المصطفى ﷺ بأفضل الدرجات، وأكرم المداناة، واصطفاه المقام المحمود، وكمال الكرم والجود، وخاطبه بأشرف كلامه، وأكرم فرقانه وقرآنه، الذي فيه بيان مكنون أسرار ذاته، وألوان صفاته، وعجائب علومه الغيبية، وغرائب آياته الأزلية، وأرسله إلى كافة البريّة؛ ليهديهم به إلى الحق والحقيقة.

ثم أعطى أزمته الظاهرة إلى يد أهل الظاهر من العلماء والحكماء؛ حتى شرعوا في أحكامها وحدودها ورسومها وشرائعها، وجعل خالصة أهل صفوته غيبة أسرار خطابه، ولطائف مكنون آياته، وتجلّي من كلامه، بنعت الكشف والعيان والبيان لقلوبهم وأرواحهم وعقولهم وأسرارهم، وأعلمهم علوم حقائقه، ونوادر دقائقه، وصفّى دروج عقولهم بكشوف أنوار جماله، وقدَّس فهومهم لسناء جلاله، وجعلها مواضع ودائع خفي رموز خطابه، وما أودع كتابه من غوامض أسراره، ولطيف إشاراته من علوم المتشابهات ومشكلات الآيات، وعرَّفهم معاني ما أخفاه في القرآن بنفسه حتى عرفوا بتعريفه إياهم، وكحَّلهم بنور قربه ووصاله، وأطلعهم على غيبيات عرائس الحكم والمعارف والكواشف، ومعاني فهم الفهم، وسر السر الذي ظاهره في القرآن حكم، وفي باطنه إشارةٌ وكشفٌ، الذي استأثره الحقّ

لأصفيائه، وأكابر أوليائه، وغرباء أحبائه من الصدِّيقين والمقرَّبين، وستر هذه الأسرار والعجائب على غيرهم من علماء الظاهر، وأهل الرسوم الذين هم في حظٍّ وافرٍ من الناسخ والمنسوخ والفقه والعلم، ومعرفة الحلال والحرام، والحدود والأحكام.

وتلك الصفوة الصادقة الذين فتح الله على قلوبهم من لطائف دقائق كتابه، وما كتم على أسرار غيرهم من سنيٍّ فضائل مكاشفاته، نطقوا على حسب مقاماتهم بين يدي جبروته، وقدَّر سيرانهم في ميادين ملكوته بإشارات شافية، وعبارات كافية من قلوب صافية، وعقول راسخة، وأرواح عاشقة، وأسرار مقدسة، وهم في إدراك إشارات القرآن بالتفاوت، كتفاوتهم في درجات المعاينات، والمكاشفات، والحالات، والمداناة، ورؤية المغيَّبات، وما لاح لأسرارهم من أنوار الأزليات والأبديات، وما بلغوا فيها نطقوا، وأخبروا قعر بحار القرآن؛ لأنه صفات الرحمن ، ولا يدرك جميع حقائقه أهل الحدثان.

وصلى الله على سيدنا محمدٍ ﷺ السفير الأعلى، وسيد أهل الآخرة والأولى، وشفيع الورى الذي سافر بيداء الآزال والآباد، ودنا من القدم حتى لم يبق بينه وبين الحق؛ إلا قاب قوسين أو أدنى، عليه التحية الأسنى والبركات الأنمى، وعلى آله نجوم الهدى، وأصحابه مصابيح الدُّجى.

أما بعد ...

فإن أطيار أسراري لمّا فرغت من الطيران في المقامات والحالات، وارتفعت من ميادين المجاهدات والمراقبات، ووصلت إلى بساتين المكاشفات والمشاهدات، وجلست على أغصان ورد المداناة، وشربت شراب الوصال، وسكرت برؤية الجمال، ووهت في أنوار الجلال، وصحت من مقام القدس بذوق الأنس، وتلقفت من فلق الغيب شقائق دقائق القرآن، ولطائف حقائق العرفان، فطارت بأجنحة العرفان، وترنَّمت بألحان الجنان في أحسن البيان بهذا اللسان في رموز الحق التي أخفاها على فهوم أهل الرسوم.

وما تَصدَّيْتُ لهذا الأمر إلا بعد خاطري بالمعرفة والحكمة الربانية، واقتديت بالصدر الأول من المشايخ الكرام في تفسير حقائق الكلام، ولمّا وجدت أن كلامه الأزلي لا نهاية له في الظاهر والباطن، ولم يبلغ أحد من خلق الله إلى كماله، وغاية معانيه؛ لأن تحت كل حرفٍ من حروفه بحرًا من بحار الأسرار؛ ونهرًا من أنهار الأنوار؛ لأنه وصف القِدم.

وكما لا نهاية لذاته، لا نهاية لصفاته، قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمان:٢٧]، وقال: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي﴾ [الكهف:

١٩].

وعن أبي جُحيفة، قال: سألت عليًّا ﷺ وكرّم الله وجهه: هل عندكم من رسول الله ﷺ شيءٌ من الوحي سوى القرآن! قال: لا فالذي فلق الحبّة، وبرأ النسمة إلا أن يعطي الله عبدًا فهمًا في كتابه[1].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «إن القرآن سبعة أحرفٍ لكلِّ آيةٍ منها ظهر وبطن، ولكلِّ حرفٍ حَدٌّ ومَطلع»[2].

وقال جعفر بن محمد: كتاب الله على أربعة أشياء: العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق؛ فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء.

وقال أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه: ما من آية إلا ولها أربعة معانٍ: ظاهر، وباطن، وحد، ومطلع؛ فالظاهر: التلاوة، والباطن: الفهم، والحدُّ: هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو: مراد الله من العبد بها.

قيل: القرآن عبارةٌ، وإشارةٌ، ولطائفٌ، وحقائق، فالعبارة للسمع، والإشارة للعقل، واللطائف للمشاهدة، والحقائق للاستسلام.

وقال الجنيد: كلام الله على أربعة معانٍ: ظاهر، وباطن، وحق، وحقيقة.

وقال جعفر الصادق: يقرأ القرآن على تسعة أوجهٍ: الحق، والحقيقة، والتحقُّق، والحقائق، والعقود، والعهود، والحدود، وقطع العلائق، وإجلال المعبود.

وقال الجريري: كلام الله متصل بعبده، والعبد متوقع المزيد من ربه في كل حال.

وقال جعفر الصادق: أنزل القرآن على سبعة أنواع: على التعريف، والتكليف، والتعطيف، والتشريف، والتأليف، والتخويف، والتكفيف، ثم نزَّل أمرًا ونهيًا، ووعدًا ووعيدًا، ورخصًا وتأسيسًا، وتمحيصًا، ثم نزَّل داعيًا، وراعيًا، وشاهدًا، وحافظًا، وشافيًا، ودافعًا، ونافعًا، فتعرَّضتُ أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات، والإشارات الأبديات التي تقصر عنها أفهام العلماء، وعقول الحكماء، اقتداءً بالأولياء، وأسوةً بالخلفاء، وسنةً للأصفياء، وصنَّفتُ في حقائق القرآن كتابًا موجزًا مخففًا لا إطالة فيه ولا إملال، وذكرت ما سنح لي من حقيقة القرآن، ولطائف البيان، وإشارة الرحمن في القرآن بألفاظ لطيفة، وعبارة شريفة، وربّما ذكرتُ تفسير آيةٍ لم يفسرها المشايخ، ثم أردفتُ بعد قولي

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٧١)، والنسائي (١٤/ ٣٧٣)، والطبراني في «الأوسط» (٦/ ١١٠).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٧٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٣/ ٣٥٨)، والطبراني في «الأوسط» (١/ ٢٣٦).

أقوال مشايخي مما عبارتها ألطف، وإشارتها أظرف ببركاتهم، وتركتُ كثيرًا منها؛ ليكون كتابي أخفَّ محملاً، وأحسن تفصيلاً، واستخرتُ الله تعالى في ذلك، واستعنتُ به؛ ليكون موافقًا لمراده، ومواظبًا لسنة رسوله ﷺ وأصحابه وأولياء أمته، وهو حسبي وحسب كل ضعيفٍ، وسمَّيتها: بـ«عرائس البيان في حقائق القرآن».

وما أصبتُ ذلك؛ فهو بتأييد الله ونصرته، وما أخطأت فيه؛ فهو لازم لي، وأنا أستغفر الله تعالى من ذلك، إنه غفورٌ حليمٌ، جوَّادٌ كريمٌ، رءوفٌ رحيمٌ.

سورة فاتحة الكتاب

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ١﴾

سُمِّيت الفاتحة فاتحةً؛ لأنها مفتاح أبواب خزائن أسرار الكتاب؛ ولأنها مفتاح كنوز لطائف الخطاب، بانجلائها ينكشف جميع القرآن لأهل البيان؛ لأن من عرف معانيها يفتح بها أقفال المتشابهات، ويقتبس بسنائها أنوار الآيات.

﴿بِسۡمِ﴾: «الباء»: كشف البقاء لأهل الفناء، و«السين»: كشف سناء القدس لأهل الأنس، و«الميم»: كشف الملكوت لأهل النعوت، و«الباء»: بِرُّه للعموم، و«السين»: سرُّه للخصوص، و«الميم»: محبته لخصوص الخصوص، و«الباء»: بدء العبودية، و«السين»: سرُّ الربوبية، و«الميم»: منةٌ في أزليته على أهل الصفوة.

و«الباء» من بسم أي: ببهائي بقاء أرواح العارفين في بحار العظمة.

و«السين» من بسم أي: بسنائي سمت أسرار السابقين في هواء الهوية.

و«الميم» من بسم أي: بمجدي وردت المواجيد قلوب الواجدين من أنوار المشاهدة.

وروي عن النبي ﷺ: «إن الباء بهاؤه، والسين سناؤه، والميم مجده»[1].

وقيل في ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾: بالله ظهرت الأشياء، وبه فنيت، وبتجلّيه حَسُنت المحاسن، وباستناره فُتحت المفاتح.

وحكي عن الجنيد أنه قال: إن أهل المعرفة نفوا عن قلوبهم كلّ شيءٍ سوى الله، فقال: لهم قولوا: ﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ﴾ أي: بي فتسمّوا، ودَعوا انتسابكم إلى آدم عليه السلام.

وقيل: إن « بِسۡمِ» يبقى به كل الخلق، فلو افتتح كتابه باسمه؛ لذابت تحته حقيقة الخلائق، إلا مَنْ كان محفوظًا من نبيٍّ، أو وليٍّ.

وروى علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر بن محمد قال: «بسم»: «الباء» بقاؤه، و«السين» أسماؤه، و«الميم» مُلكه، فإيمان المؤمن ذكره ببقائه، وخدمة المريد ذكره بأسمائه، والعارف فناؤه عن المملكة بالمالك لها.

وأما «ٱللَّه»: فإنه اسم الجمع لا ينكشف إلا لأهل الجمع، وكل اسم يتعلق بصفة من صفاته إلا الله؛ فإنه يتعلق بذاته وجميع صفاته لأجل ذلك، وهو اسم الجمع أخبر الحق عن

---

(١) رواه الطبري في التفسير (١/ ٨٨).

نفسه باسمه الله، فما يعرفه إلا هو، ولا يسمعه إلا هو، ولا يتكلم به إلا هو؛ لأن الألف إشارة إلى الأنانية والوحدانية، ولا سبيل للخلق إلى معرفتها إلا الحق تعالى.

وفي اسمه «ٱلله» لامان: الأولى: إشارة إلى الجمال، والثانية: إشارة إلى الجلال، والصفتان لا يعرفها إلا صاحب الصفات، و«الهاء»: إشارة إلى هويته، وهويته لا يعرفها إلا هو، والخلق معزولون عن حقائقه، فيحتجبون بحروفه عن معرفته «بالألف»: تجلِّي الحق من أنانيته لقلوب الموحدين، فتوحدوا به، و«باللام الأولى»: تجلِّي الحق من أزليته لأرواح العارفين، فانفردوا بانفراده، و«باللام الثانية»: تجلِّي الحق من جمال مشاهدته لأسرار المحبين، فغابوا في بحار حبِّه، و«بالهاء»: تجلِّي الحق من هويته لفؤاد المقرَّبين، فتاهوا في بيداء التحيُّر من سطوات عظمته.

قال الشبليُّ: ما قال الله أحدٌ سوى الله، فإن كان من قاله بحظٍّ، وأنَّى يدرك الحقائق بالحظوظ.

وقال الشبليُّ: الله، فقيل له: لِمَ لا تقول: لا إله إلا الله؟ فقال: لا أُبقي به ضدًّا.

وقيل في قوله: «ٱلله»: هو المانع الذي يمنع الوصول إليه، كما امتنع هذا الاسم عن الوصول إليه حقيقةً، كأن الذات أشد امتناعًا، عجزهم في إظهار اسمه لهم؛ ليعلموا بذلك عجزهم عن درك ذاته.

وقيل في قوله: ﴿ٱللهِ﴾: «الألف»: إشارةٌ إلى الوحدانية، و«اللام الأولى»: إشارةٌ إلى محو الإشارات، و«اللام الثاني»: إشارةٌ إلى محو المحو في كشف الهاء.

وقيل: الإشارة في «الألف» هي قيام الحق بنفسه، وانفصاله عن جميع خَلْقه، فلا اتصال له بشيءٍ من خَلقه؛ كامتناع «الألف» أن تتصل بشيءٍ من الحروف ابتداءً، بل تتصل الحروف بها على حدِّ الاحتياج إليها، واستغنائها عنهم.

وقيل: ليس من أسماء الله اسمٌ يبقى على إسقاط كل حرفٍ منه إلا الله، فإنه الله، فإذا أسقطت منه «الألف» يكون «لله»، فإذا أسقطت أحد لاميه يكون «له»، فإذا أسقطت اللامين بقيت الهاء، وهو غاية الإشارة.

وقال بعضهم: «الباء»: باب خزانة الله، و«السين»: سين الرسالة، و«الميم»: مُلك الولاية.

وقال بعضهم: بالله سَلِمت قلوب أولياء الله من عذاب الله، وبشفقته تطرَّقت أسرار أصفياء الله إلى حضرته، وبرحمته تفرَّدت أفئدة خواص عباده معه.

وقال بعضهم: بالله تحيَّرت قلوب العارفين في علم ذات الله، وبشفقته توصلت علوم

العالمين في صفات الله، وبرحمته أدركت عقول المؤمنين شواهد ما أشهدهم الله من بيان الله.

وقيل بإلهيته تفرَّدت قلوب عباد الله، وبتعطُّفِه صَفت أرواح محبيه، وبرحمته ذُكرت نفوس عابديه.

وقيل: ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ﴾: ترياق أُعطِي للمؤمنين، يدفع الله به عنهم سمَّ الدنيا وضررها.

وقال جعفر الصادق: «بسم»: للعامة، و«الله»: لخاص الخاص.

وقال سهل: «الله»: هو اسم الله الأعظم الذي حوى الأسماء والأسامي كلها، وبين الألف واللام منه حرفٌ مكنّي غيبٌ من غيب إلى غيبه، وسرٌّ من سرٍّ إلى سرِّه، وحقيقةٌ من حقيقةٍ إلى حقيقته، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس، الآخذ من الحلال قوامًا لضرورة الإيمان.

وقيل: من قال بالحروف، فإنه لم يقل الله؛ لأنه خارجٌ عن الحروف والحسوس، والأوهام، والأفهام، ولكن رضي منَّا بذلك؛ لأنه لا سبيل إلى توحيده من حيث لا حال ولا قال.

وحُكي أن أبا الحسن النوري بقي في منزله سبعة أيام لم يأكل، ولم يشرب، ولم ينم، ويقول في ولهةٍ ودهشةٍ: الله الله، وهو قائمٌ يدور؛ فأخبر الجُنيد، قال: انظروا محفوظًا عليه أوقاته، فقيل: إنه يصلي الفرائض، فقال: الحمد لله الذي لم يجعل للشيطان له سبيلاً، ثم قال: قوموا حتى نزوره إما أن نستفيد منه، أو نفيده، فدخل عليه وهو في وَلَهه، فقال: يا أبا الحسن، ما الذي ولهك؟ قال: أقول: الله، الله، زيدوا عليَّ؛ فقال له الجنيد: انظر هل قولك الله الله، أم قولك: إن كان كنت القائل الله الله، فلست القائل له، وإن كنت تقوله بنفسك، وأنت مع نفسك، فما معنى الوَلَه؟ قال: نعم المؤدب كنت، وسكن من ولهه.

أما قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ رَحِم على أوليائه باسمه الرحمن، بتعريف نفسه لهم؛ حتى عرفوا به أسماءه، وصفاته، وجلاله، وجماله، وبه خرجت جميع الكرامات للأبدال والصدِّيقين، وبه تهيأت أسرار المقامات للأصفياء والمقرَّبين، وبه تجلَّت أنوار المعارف للأتقياء والعارفين؛ لأن اسم ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ مخبرٌ عن خلق الخلق، وكرمه على جميع الخلق، وفي اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ ترويحُ أرواح الموحدين، ومزيد أفراح العارفين، وتربية أشباح العالمين، وفيه نزهة المحبين، وبهجة الشائقين، وفرحة العاشقين، وأمان المذنبين، ورجاء الخائفين.

وقال بعضهم: اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ حلاوةُ المنَّةِ، ومشاهدةُ القربةِ، ومحافظةُ الحرمةِ.

وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿ ٱلرَّحْمَـٰنِ ﴾ عونه ونصرته.

وقوله ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: موهبة الخاص لأهل الخاص، وهو مستندٌ لذوي العثرات،

ومسرةٌ لأهل القربات.

و﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾: مطيّة السالكين، تسير بهم إلى معدن العناية، و﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ : حبل الحق للمجذوبين تجذبهم به إلى حجال الوصلة.

باسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أمِنَهم من العقاب، وباسمه ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ أتاهم من نفائس الثواب؛ الأول: مفتاح المكاشفة، والآخر: مرقاة المشاهدة.

باسمه ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾: فتحَ لهم الغيوب، وباسمه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾: غفرَ لهم الذنوب.

وقال ابن عطاء: في اسمه ﴿ ٱلرَّحِيمِ ﴾ مودةٌ ومحبةٌ.

وعن جعفر بن محمد في قوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ إنه قال: هو واقعٌ على المريدين والمرادين؛ فاسم ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾: للمرادين؛ لاستغراقهم في أنوار الحقائق، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: للمريدين؛ لبقائهم مع أنفسهم، واشتغالهم بالظاهر.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1] شكرَ نفسه للعباد؛ لأنه عَلِمَ عجزهم عن شكره، وأيضًا: أدَّب الخَلق بتقدم حمده امتنانه عليهم على حمدهم نفسه.

ولسان الحمد ثلاثةٌ: لسانُ الإنسانيِّ، ولسانُ الروحانيِّ، ولسانُ الربانيِّ، أما «اللسانُ الإنسانيُّ»: فهو للعوام، وشُكره بالتحدث بإنعام الله وإكرامه، مع تصديق القلب بأداء الشكر.

---

(١) لم يقل تعالى: الحمد لرب العالمين الله؛ لكون الربوبية تلو الأُلوهية دون العكس؛ فإن الأُلوهية كالسلطنة، والربوبية كالوزارة، فالسلطان مُظهر الاسم الله؛ لكمال جمعيته، والوزير مُظهر الاسم الرب؛ لكونه في مقام التربية للعالمين؛ كالروح والعقل، فإن القوى والأعضاء إنما تقومان بهما، وبهما كمال ترتيبهما، فكما أن تعيُّن الروح قبل تعيُّن ما دونه؛ فكذا تعيُّن الأُلوهية، ونظير ذلك الشمس مع القمر، فإن الشمس أقدم في الوجود؛ كتقدُّم الأب على الابن.

والحاصل: إن الأُلوهية باطن الربوبية، فالأولى مظهر الاسم الباطن، والثانية مظهر الاسم الظاهر، وكذا الحق باطن الخلق، والشمس باطن القمر، والأب باطن الابن، والروح باطن الجسم، فالظاهر مرآة الباطن في كل ذلك؛ وإنما جعلوا الرب الاسم الأعظم أيضًا، وفي مرتبة الجلال من حيث جمعيته؛ لأن الأُلوهية والربوبية لا تختصان بألوهية بعض دون بعض، وبربوبية بعض دون بعض، وباسم دون اسم، وبلطف دون قهر وبالعكس، فللسلطان الجمال والجلال، وللوزير التربية بكل من اللطف والقهر، فجمعية السلطان إنما تظهر في المراتب التي دون السلطنة فاعرف ذلك.

وأما «اللسانُ الروحانيُّ»: فهو للخواص، وهو ذِكر القلب لطائف اصطناع الحق في تربية الأحوال، وتزكية الأفعال.

وأما «اللسان الربانيُّ»: فهو للعارفين، وهو حركة السرِّ، يصدق شكر الحق جلَّ جلاله بعد إدراك لطائف المعارف، وغرائب الكواشف بنعت المشاهدة والغيبة في قربه، واجتناء ثمرة الأنس، وخوض الروح في بحر القدس، وذوق الأسرار مع مباينة الأنوار.

والحامدون في حمدهم لله، بتفاوت لسانهم في مقاماتهم ومقاصدهم، وأهل الإرادة حمدوه بما نالوا من صفاء المعاملات، مقرونًا بنور القرب، وأهل المحبة حمدوه بما نالوا من أنوار المكاشفات، مقرونةً بنور صرف الصفات، وأهل المعرفة حمدوه بما نالوا من جمال المشاهدات، ممزوجًا بعلم الربوبية، وأهل التوحيد حمدوه بما نالوا من سناء خصائص الصفات، وجلال قِدم الذات، مَشوبًا بنعت البقاء، وأهل شهود الأزل بنعت الأنس حمدوه بما لاح في قلوبهم من نور القدس، وقدس القدس، وبما أودع الله أرواحهم من أسرار علوم القدم، وما أفرد مواطن أسرارهم من غصن الأبصار في تعرض الحدثان عند حقائقها، وما خصها بكشف الكشاف، فحمدهم بالبسط والرجاء والانبساط شَطحٌ، وحَمْده في الاصطلام والمحو خرسٌ.

كما قال ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك»[1] في قبضه عن تحصيل شكر رؤية القِدم، فلسان التحميد لأهل التفرقة، ولسان الحمد في رؤية المحمود صفات أهل الجمع.

وقيل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: ما قضى وقدَّر بإدراكٍ، على ما هدى وحفظ، وعلى ما أرشدوا، وعلى ما اختاروا.

وقال أبو الوزير الركبي في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: عن الله، قال: لو عرَّفت ذلك عبدي، لما شكرت غيري.

وقال أبو بكر بن أبي طاهر: ما خلقَ الله شيئًا من خلقه؛ إلا وألهمه الحمد، ثم جعل فاتحة كتابه، وفرضها عليهم في صلاته.

وقال ابن عطاء: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» معناها الشكر لله إذا كان منه الامتنان على تعليمنا إيّاه حتى حمدنا.

وقيل: معنى «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: أنت المحمود جميع صفاتك وأفعالك.

وقيل: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ» أي: لا حامد لله إلا الله.

وذُكر عن جعفر الصادق في قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، قال: من حمده، فقال: من حمد

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

بصفاته كما وصف نفسه فقد حمده؛ لأن الحمد حاء، وميم، ودال؛ «فالحاء» من الوحدانية، و«الميم» من الملك، و«الدال» من الديمومية، فمن عرفه بالوحدانية والديمومية والمُلك؛ فقد عرفه.

وقال رجل بين يدي الجنيد: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ»، فقال له: أتممها كما قال الله، قل: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فقال له الرجل: ومَن العالمون حتى يذكروا مع الحق؟! فقال: قُله يا أخي، فإن الحادث إذا قارن بالقديم لا يبقى له أثرٌ.

قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ لأنه أظهر نفسه عليهم حتى نالوا من بركاتهم ما هداهم إلى معرفته، فربَّاهم بها على قدر مذاقهم، فربَّى المريدين بشعشعة أنواره، ولوائح أسراره، وربَّى المحبين بحلاوة مناجاته، ولذة خطابه، وربَّى المشتاقين بحسن وصاله، وربَّى العاشقين بكشف جماله، وربَّى العارفين بمشاهدة بقائه، ودوام أنسه، وحقائق انبساطه، وربَّى الموحدين برؤية الوحدانية والأنانية في عين الجمع، وجمع الجمع.

وقيل: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُنطقهم بحمده.

وذُكر عن ابن عطاء: ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مُربي أنفس العارفين بنور التوفيق، وقلوب المؤمنين بالصبر والإخلاص، وقلوب المريدين بالصدق والوفاء، وقلوب العارفين بالفكرة والعِبرة.

وقال محمد بن عليّ الترمذي: عَلِمَ الله تواتر نعمه على عباده، وغفلتهم عن القيام بشكره، فأوجب عليهم في العبادة التي تكرر عليهم في اليوم والليلة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فيكون ذلك قيامًا لشكره، وألا يغفلوا عنه، فأبوا ذلك.

وقال بعضهم: ذَكرَ ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾، ثم قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: أعلم أن منه المبتدأ، وإليه المنتهى.

وقال الحارث المحاسبي: إنَّ الله بدأ بحمد نفسه، فأوجب للمؤمنين تقديم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ في أول كل كتاب، وكل خطبة، وكل قولٍ حسن، وهو أحسن ما ابتدأ به المبتدئ، وافتتح مقالته.

وقال بعضهم: من قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾؛ فقد قام بحق العبودية، وشكر النعمة.

وقال بعضهم: ظهر فَضلُ آدم على الكلِّ، بقوله حين عَطس: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

وقال الأستاذ: مُربّي الأشباح بوجود النعم، ومُربّي الأرواح بشهود الكرم.

وقوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: «بالرحمن»: سبقَت رحمتُه غضبَه، و«بالرحيم»: حجبَ كرمُه سخطَه، و﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: اسم القدم، و«الرحيم»: اسم البقاء، و﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: اسم الحقيقة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: اسم الصفة.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بالإشراف على أسرار أوليائه، والتجلّي لأرواح أنبيائه.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: خاص الاسم خاص الفعل، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: عام الاسم عام الفعل.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بالنعمة، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالعصمة.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بالتجلّي، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بالتدلّي.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بكشف الأنوار، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بحفظ ودائع الأسرار.

وقيل: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾ بذاته[١]، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بنعوته وصفاته.

وقال سهل: بنسيم روح الله اخترع من ملكه ما شاء رحمة؛ لأنه رحمنٌ رحيمٌ.

وقال الواسطي: الرحمانية تشوق الروح شوقًا، والإلهية تذوق الحق ذوقًا.

وقال إبراهيم الخواص: من عَرفَه بأنه الرحمن الرحيم، لَزِمَه معرفته له بالرحمة، الثقة به في حياته ومماته، والعطف بالرحمة على الخلائق أجمع في الدنيا بالعوافي والأرزاق، وفي الآخرة بالمغفرة والرحمة والغفران.

قال جعفر الصادق: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: العاطف على خلقه لسابق المقدور عليهم المراقب لهم، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: المتعطِّف لهم في أمر المعاش والعوافي .

وقال الجنيد في قوله: ﴿ ٱلرَّحۡمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾: الرحمة على وجهين: رحمة لطفه، ورحمة عطفه، فإشارة باسمه الرحمن إلى لطفه، وإشارة باسمه الرحيم إلى عطفه.

وقال الأستاذ: ﴿ٱلرَّحۡمَـٰنِ﴾: خاص الاسم، عام المعنى، و﴿ٱلرَّحِيمِ﴾: عام الاسم، خاص المعنى[٢].

---

(١) ﴿الرَّحۡمَـٰنِ﴾ في الظاهر، فيعمُّ رحمته الكافر، والأعضاء والآفاق، فإن كل ذلك داخل تحت حيطة الاسم الظاهر.

(٢) ﴿الرَّحِيمِ﴾ في الباطن، فيعمُّ رحمته المؤمن والقوى والأنفس، كما يعمّهم الرحمة الرحمانية، فللكافر ظاهر دون باطن؛ لأن لا آخرة له، فإن العاقبة للمتقين، وللمؤمن ظاهر وباطن جميعًا فالظاهر مع الباطن أقوى من الظاهر بلا باطن؛ لأن الظاهر بلا باطن محصور كالدنيا؛ لانتهائها دون الظاهر مع الباطن؛ كالآخرة لعدم نهايتها، وإنما أدخلنا الآخرة في الباطن؛ لأنها قلب الدنيا؛ والقلب باطن بالنسبة إلى =

فالرحمن: بما روَّح، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما لوَّح، فالترويح للمباد، والتلويح بالأنوار.

و ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ بكشف تجلّيه، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بلطف تولّيه.

و ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ بما أولى من الإيمان، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما أسرى من العرفان.

و ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ بما أعطى من العرفان، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما تولّى من الغفران.

و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما مَنَّ به من الرضوان، و ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ بما يكرم به من الرضوان.

و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما يكرِّم به من الرؤية والعيان، فالرحمن بما يوفِّق، و ﴿ٱلرَّحِيمِ﴾ بما يحقِّق، فالتوفيق للمعاملات، والتحقيق للمواصلات، فالمعاملات للقاصدين والمواصلات للواجدين.

و ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ بما يصنع لهم، والرحيم بما يدفع عنهم، والصُّنع يجمع العناية،والدَّفع بحسن الرعاية، إلى هاهنا كلام الأستاذ .

أمّا من اختراعي أن: اسم ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾: محل طلوع أنوار العناية، و«الرحيم»: محل إشراق شمس الكفاية، فبالعناية يُهدى أهل العرفان إلى مشاهدة القدم، وبالكفاية تُحفظ حقائق إيمانهم أبدًا لوجه بقاء الديموميَّة، فبالرحمن تَأيِّدَهم، وبالرحيم تَرقِيهم وتَحفَظَهم، فالأول: للعناية، والآخر: للكفاية، تَغمُّدَهم بنور الأزلية بين الصفتين؛ حتى يصيروا بالرحمن مشتاقين، وبالرحيم والهين .

وقال حميد: هل يكون من الرحمن لأهل الإيمان، إلا الأمن والأمان، والروَّية والعيان.

وقال سهل: ﴿ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾: على عباده بالمغفرة والرضوان، و«الرحيم»: عليهم بالعوافي والأرزاق.

قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾: في اسم المالك رجاء المُقبِلين، وتخويف المُهْلكين، يجازي مقاساة ألم فراق العاشقين بمشاهدته، ونفائس كرامته، ويجازي عموم المحبّين بكشف جماله وجلاله، ويجازي المعاملة الصادقين، بإدخالهم في جنانه، وإسكانهم في جواره .

وقال ابن عطاء: يجازى يوم الحساب كل صنفٍ بمقصودهم وهمّتهم،ويجازي العارفين

=

القلب، فكما ينتهي حكم الدنيا، ويظهر الآخرة على صورتها؛ فيكون الدنيا باطنة، والآخرة ظاهر؛ فكذا يظهر القلب في الآخرة على صورة القالب، فيكون القالب باطنًا، والقلب ظاهرًا، وبه يصحُّ رؤية الله تعالى كما يصحُّ ذلك في الدنيا بالبصيرة، فانظر إلى هذا، وكن على بصيرة من الأمر، فإن الأمر ليس كما يزعمه المنكرون من المعتزلة وغيرهم، والله رقيب شهيد.

بالقرب منه، والنظر إلى وجهه الكريم، ويجازي أرباب المعاملات بالحسنات.

وقيل: مالكِ يوم الكشف والأشهاد؛ ليجازي كل نفس بما تسعى.

وقال الأستاذ: مالك نفوس العابدين، فصرّفها في خدمته، ومالك قلوب العارفين، فشرّفها، ومالك نفوس القاصدين، فيتّمها، ومالك قلوب الواجدين، فهيّمها ، ومالك أشباح مَن عَبَدَه، فلاطفها بنواله وأفضاله، ومالك أرواح من أحبَّه، فكاشفها بنعت جلاله ووصف جماله، ومالك زمام أرباب التوحيد، فصرّفهم حيث شاء كما شاء، ووفَّقهم حيث شاء كما شاء على ما يشاء كما شاء لم تَكِلْهم إليهم لحظة، ولا مَلكهم من أمرهم سيئةً، ولا خطرة أفناهم له عنهم[1].

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ أي: بمعونتك نعبدك، لا بحولنا وقوّتنا، وإيّاك نستعين بتمام عبوديتك، ودوام سترك علينا حتى نرى فضلك، ولا ننظر إلى أعمالنا.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي: إيّاك نعبد لا برؤية المعاملات، وطلب المكافآت، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: نستعينك بمزيد العنايات، بنعت العصمة عن القطيعة.

وأيضًا: إيّاك نعبد بالمراقبة، وإيّاك نستعين بكشف المشاهدة.

وأيضًا: إيّاك نعبد بعلم اليقين، وإيّاك نستعين بحق اليقين.

وأيضًا: وإيّاك نعبد بالغيبة، وإيّاك نستعين بالرؤية.

وقيل: إيّاك نعبد بقطع العلائق والأغراض، وإيّاك نستعين على ثبات هذا الحال بك ولا بنا.

وقيل: إيّاك نعبد بالعلم، وإيّاك نستعين بالمعرفة.

وقيل: إيّاك نعبد بأمرك، وإيّاك نستعين علينا بفضلك.

قال سهل: إيّاك نعبد بهدايتك، وإيّاك نستعين بكلاءتك على عبادك.

قال الأنطاكي: إنما يُعبد الله على أربع: على الرغبة، والرهبة، والحياء، والمحبّة فأفضلها

---

(١) وفيه إشارة إلى أن الدنيا والآخرة ملك لله تعالى ليس لغيره في ذلك الملك يد إلا بطريق الخلافة والعارية، فإن الدين المجازاة، وهو جارية في الدّارين، فهو تعالى مالك يوم الدنيا، ويوم الآخرة، ومالك المجازاة فيهما، فظهر إن قيامة العارفين دائمة؛ لكونهم مع الله تعالى في كل نَفَس من الأنفاس، ومحاسبون أنفسهم في كل لحظة من لحظات، فهم مملوكون لله تعالى؛ لأنهم أحرار عمّا سواه تعالى، وقائمون لربهم بالخدمة في كل حين.

المحبة التي تليها الحياء، ثم الرهبة، ثم الرغبة.

وقال الأستاذ: العبادة بستان القاصدين، ومستروح المريدين، ومرتع الأنس للمحبّين، ومرتع البهجة للعارفين، بها قوة أعينهم، وفيها مسرّة قلوبهم، ومنها راحة أبدانهم[1].

قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أي: اهدنا مرادك منا؛ لأن الطريق المستقيم ما أراد الحق من الخلق، من الصدق والإخلاص في عبوديته.

وأيضًا أرشدنا إلى ما أنت عليه.

وأيضًا اهدنا إنابتك حتى نتَّصف بصفاتك.

وأيضًا اهدنا إلى معرفتك، حتى نستريح من معاملتنا بنسيم أنسك، وحقائق حسنك.

وقيل: معنى اهدنا أي: مِلْ بقلوبنا إليك، وأقِم بهمّنا بين يديك، وكن دليلنا منك إليك حتى لا تقطع عمّا لك بك.

وقيل أي: أرشدنا طريق المعرفة؛ حتى نستقيم معك بخدمتك .

وقيل أي: أرِنا طريق الشكر فنفرح، ونطرب بقربك.

وقيل: اهدنا بفناء أوصاف الطريق إلى أوصافك التي لم تزل ولا تزال.

وقيل: اهدنا هدى العيان بعد البيان؛ لنستقيم لك على حسب إرادتك.

وقيل: اهدنا هدى من يكون منك مبدأه؛ حتى يكون إليك منتهاه.

وقيل: اهدنا الصراط المستقيم على الصراط بالغيوبة؛ لئلا يكون مربوطًا بالصراط .

قال الجنيد: إن القوم لمّا سألوا الهداية عن الحيرة التي وردت عليهم عن إشهاد صفاته الأزلية، فسألوا الهداية إلى أوصاف العبودية؛ كيلا يستغرقوا في رؤية صفات الأزلية.

قال بعضهم: إليك قصدنا، فقوِّمْنا .

وقيل: اهدنا بالقوة والتمكين .

وقال الحسين أي: اهدنا طريق المحبّة لك، والسعي إليك.

قال الشبلي: اهدنا صراط الأولياء والأصفياء .

وقال بعضهم: أرشدنا الذي لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام.

وقيل: أرشدنا في الدنيا إلى الطاعات، وبلِّغنا في الآخرة الدرجات .

---

(١) أراد بالعبادة المبنية على التوحيد، فإن العبادة بلا توحيد عبادة المشركين، فلا تعود إلى الله، وإنما تعود إلى الآلهة الذين اتَّخذوها معبودين من دون الله، دلَّ على هذا تقديم المعمول الدال على القصر، فإذا كانت العبادة مخصوصة به تعالى؛ كانت الاستعانة أيضًا كذلك، إذ لا يستعين المرء إلا بمعبوده.

وقال الأستاذ[١]: أي أزِل عنا ظلمات أحوالنا؛ لنستضيء بأنوار قدسك عن التفيؤ لظلال طلبنا، وارفع عنا ظل جهدنا؛ لنستبصر بنجوم جودك، فنجدك بك.

قال الحسين: اهدنا إلى طاعتك، كما أرشدتنا إلى علم توحيدك.

قال علي بن أبي طالب- كرّم الله وجهه- اهدنا أي: ثبّتنا على الطريق المستقيم، والمنهج القويم.

﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي: منازل الذين أنعمت عليهم بالمعرفة، وحسن الأدب في الخدمة.

وأيضًا «أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ»: باليقين التام، والصدق على الدوام، وإطْلاعِهم على مكائد النفس والشيطان، وكشف غرائب الصفات وعجائب أنوار الذات، والاستقامة في جميع الأحوال، وبسعادة الهداية إلى القربة بعناية الأزلية، وهم الأنبياء والأولياء والصدِّيقين، والمقرَّبون والعارفون، والأمناء والنجباء.

قال أبو عثمان: «أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ»: بأن عرَّفتهم مهالك الصراط، ومكائد الشيطان، وجناية النفس.

وقال بعضهم: أنعمت عليهم في سابق الأزل بالسعادة.

وقال جعفر بن محمد: أنعمت عليهم بالعلم بك، والفهم منك.

وقيل: أنعمت عليهم بمشاهدة المنعم دون النعمة.

وقال بعضهم: أنعمت عليهم بالرضا بقضائك، وقدرك.

وقيل: أنعمت عليهم بمخالفة النفس والهوى، والإقبال عليك بدوام الوفاء.

وقال حميد: فيما قضيْته من المضار والمسار.

وقال بعضهم: أنعمت عليهم بالإقبال عليك، والفهم عنك.

ويقال: طريق من أفنيتهم عنهم طاقتهم بك؛ حتى لم يقفوا في الطريق، ولم [.....] عنك خفايا المكر.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ حتى يُحرسوا من مكائد الشيطان، ومغاليط النفوس، ومخاييل الظنون.

ويقال: من طَهَّرتَهم من آثارهم؛ حتى وصلوا إليك بك.

(١) في تفسيره (١/ ٧).

ويقال: صراط من أنعمت عليهم بالنظر إليك، والاستعانة بك، والتبرِّي من الحول والقوة، وشهود ما سبق لهم من السعادة في سابق الاختيار والعلم، بتوحدك فيما قضيته من المسار والمضار.

ويقال: أنعمتَ عليهم بحفظ الأدب في أوقات الخدمة، واستشعار نعت الهيبة.

وقيل: صراط من أنعمت عليهم، من تأدَّبوا بالخُلْوة عند غليات بوادي الحقائق؛ حتى لم يخرجوا عن حد العلم، ولم يخلوا بشيءٍ من أمرِ الهيبة، ولم يصنعوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم؛ بل حفظتَ عليهم آداب الشريعة وأحكامها الشرع.

وقيل: صراط من أنعمتَ عليهم ؛حتى لم تطفيء شموس معارفهم، أنوار وَرَعِهم، ولم يضيفوا من أحكام العبودية عند ظهور سلطان الحقيقة .

قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: المطرودين عن باب العبودية.

وقال أبو عثمان: الذين غضبتَ عليهم وخذَلْتَهم، ولم تحفَظ قلوبهم؛ حتى تهوَّدوا وتنصَّروا.

وقال الأستاذ: الذين صدَمَتْهم هوازم الخذلان، وأدركَتْهم مصائب الحرمان.

قال أبو العباس الدينوري: وكَّلْتهم إلى حولهم وقوتهم، وعرَّيْتهم من حولك وقوتك.

وقيل: هم الذين لحقهم ذل الهوان، وأصابهم سوء الخسران، وشُغلوا في الحلال، باجتلاب الحظوظ، وهو في التحقيق مكرٌ، ويحسبون أنهم على شيءٍ، وللحق في شقاوتهم سرٌّ ، ولا الضّالين عن شهود سابق الاختيار، وجريان تصاريف الأقدار.

﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: المفلسين عن نفائس المعرفة.

وأيضًا غير المغضوب عليهم بالمكر والاستدراج، ولا الضّالين عن أنوار السبل والمنهاج.

وأيضًا غير المغضوب عليهم بالحجاب، ولا الضّالين عن رؤية المآب.

وأيضًا غير المغضوب عليهم بالانفصال، ولا الضّالين عن الوصال .

وقال ابن عطاء: غير المخذولين والمطرودين والمهانين، الذين ضلُّوا عن الطريق الحق .

وقيل: غير المغضوب عليهم في طريق الهلكى، ولا الضالين عن طريق الهدى لاتباع الهوى[1].

---

(١) هم الذين استعانوا بغير الله، ولمَّا كان أثر الغضب أشدَّ من أثر الضلال؛ قدَّمه عليه، وفيه إشارة إلى أن غاية الأمر بالنسبة إلى المستعين بغير الله هو الحيرة؛ إذ لا يتم ولو قاسى كل الشدائد، وإنما يتم منه إذا لم =

وأما في قوله: ﴿آمين﴾ أي: استدعاء العارفين مزيد القربة مع استقامة المعرفة من رب العالمين، والافتقار إلى الله بنعت الأنظار؛ لاقتباس الأنوار.

وأيضًا قاصدين إلى الله بمراتب النوعية والرهبة.

وقال ابن عطاء أي: كذلك فافعل، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين.

وقال جعفر: «آمين»: قاصدين نحوك، وأنت أعزُّ من أن تخيِّب قاصدًا.

سورة البقرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾.

﴿الٓمٓ﴾ [1] معناه: أن «الألف»: إشارةٌ إلى وحدانية الذات، و«اللام»: إشارة إلى أزلية الصفات، و«الميم»: إشارة إلى ملكه في إظهار الآيات.

«بالألف»: أخبر عن فردانية الذات، و«باللام»: أخبر عن سرمدية الصفات،

=

يكن ذلك الغير غير الحسب لشهوده الحق في كل مظهر من المظاهر.

(١) أشار بالألف إلى المبدأ الذي هو الإنسان؛ فإنه خرج من مخرج الشأن الذاتي الغيبي الذي كان تعيُّن الذات الأحدية في تلك المرتبة بالنسبة إلى سائر التعينات؛ كتعيُّن الحروف بالنسبة إلى التركيبات اللفظية، ثم لمَّا خرج بالحركة المعنوية، والنفس الرحماني من تلك المرتبة؛ مرَّ بمرتبة الأرواح التي هي مرتبة اللام التي تعيَّن مخرجها من الوسط، فإن الأرواح متوسطة بين عالم العلم وعالم العين، ثم مرَّ بمرتبة الأجسام التي هي مرتبة الميم التي تعيَّن مخرجها من الفم الذي هو آخر المخارج، ولم يتعرَّض لمرتبة المثال، وإن كانت من الحضرات الخمس؛ لكونها ممتزجة بالطرفين؛ فلها وجه إلى مرتبة الأرواح، ووجه إلى مرتبة الأجسام، فإذًا المخارج الكلية ثلاثة: المبدأ الألفي، والوسط اللامي، والآخر الميمي، وما عداها فمخارج جزئية.

و«بالميم»: أخبر عن سلطانيته في إظهار الآيات.

و«الألف»: سرُّ الذات، و«اللام»: سرّ الصفات، و«الميم»: سرّ القِدم في ظهور الآيات. أما «سرُّ الذات»: فلا ينكشف إلا بوحدانيَّة الذات، و«سر الصفات»: لا ينكشف إلا لمن اتخذ صفاته بالصفات، و«سرُّ القِدم»: لا ينكشف إلا لمن خرج من الآيات.

تجلَّى بالألف لأرواح الأنبياء من سرِّ ذاته، فأفناها عن البشريات، وكساها من أنوار الذات، فخصائصهم في ذلك إظهار المعجزات، وتجلَّى باللّام لقلوب العارفين عن سرّ صفاته، فأفناها عن الكدورات، وألبسها من سناء الصفات، فكرامتهم في ذلك، إظهار الشطحيات، وتجلَّى بالميم لعقول الأولياء من سرّ قدمه، فأفناها عن الشهوات، وأنوارها صفاء القدرة بوسائط الآيات، فشرفهم في ذلك، إظهار الكرامات.

وقال جعفر الصادق: ﴿الٓمٓ﴾: رمزٌ وإشارةٌ بينه، وبين حبيبه ﷺ أراد ألا يطَّلع عليه أحدٌ سواهما ، أخرجه بحروف بعيدة عن درك الأغيار، وفَهْم السرّ بينهما لا غير .

وقال بعضهم: إن الله خصَّ حبيبه ﷺ بهذه الأحرف ، والمتّقي الذي وصفه الله تعالى: هو الذي عُزل عن الأكوان والحدثان؛ تَورُّعا عن إغواء الشيطان، وتَخلُّقًا بخُلق الرحمن.

وقال أبو يزيد: المتّقي من إذا قال، قال: الله، وإذا عمل، عمل الله.

وقال الداراني: الذين نُزع من قلوبهم حب الشهوات.

وقيل: المتّقي من اتّقى رؤية تقواه، ولم يستند إلى تقواه، ولم ير نجاته؛ إلا بفضل مولاه.

وقال سهل: إذا كان هو الهادي، فمَن يضلُّ في ذلك الطريق؛ إلا من سلكه على التجارب لا على العارف، فيصُدَّه عن مقصده بشؤم تدبيره، ويُهلكه ولو في آخر القدم .

﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ : ما غاب عن الأبصار، منكشفًا بنعت الأنوار لعيون الأسرار.

و«الإيمان بالغيب»: هو تفرُّس الروح بنور اليقين مشاهدة الحق سبحانه وتعالى، و«الإيمان

بالغيب»: شوقُ القلبِ إلى لقاء الرب .

وأيضًا «الإيمان»: تصديق السر ما أبصرَت الروح من مكنون حقائق الغيب بنعت مباشرة حلاوة انكشاف نور الحق في صميم سرّ السرّ، واتصاله بروقة بطنان القلب، وتعريفه أوصاف صفات الحق عقل الكلِّ.

وأيضًا «الإيمان»: تصديق القلب بوجدان الروح رؤية الرب جل وعلا، و«المؤمنون»: هم الذين صدقوا مواعيد الغيوب بعد إدراكهم مواجيد قلوبهم من رؤيتها، ومواجيد قلوبهم

لا تكون إلا من رؤية أبصار بصائرهم أنوار غيب الغيب، وترائي الغيب لا يكون للروح الناطقة؛ إلا بعد أن يؤيدها الحق بتبيين البراهين، واستكشافه حقائق الاستدلال، بشهود الحال رؤية المدلول، واستحكام أنوار البصيرة، فإذا كملت هذه الأوصاف للروح، أبصرت صفاء صحارى الغيب، وتمكّنت تحت ركوم أنوار اليقين، وسناء قدس الحق، بنعت بروزه في لباس حقِّ اليقين، وحقيقةُ حق اليقين لا تحصل بالتحقيق؛ إلا بعد انسلاخ السرِّ عن الاستشهاد والاستدلال.

فإذا فَرِغَ منها أوصله التأييد إلى مراتب الكشوف، وإيضاح الفرقان، وأورده لصدق تحقيق رؤية الغيب، ساحات استبصار عيون النفوس، واستغنائه بها أنس من عجائب جلال المشهود من سيرانه في عالم الشواهد.

وإذا عاين مكشوفات الغيب ببصر العرفان، دخل في جوف إيواء عزّ الحق، وإغناء الحق بلوائح البيان عن طلب المشاهدة، بالفكر في الحدثان.

وتَطلَّع له شموس أسرار أنوار القِدم، وتُخلِّصَه بجمالها عن اقتباس مصابيح البراهين.

وإذا برق السرُّ بهذه المعاني، أشرق له حق الغيب بأوصافه، فصار السرّ والغيب متّحدين، ويكون السرّ غيبًا بعينه، والغيبُ سرًّا بعينه، فَيُغَيَّبُ السرّ في الغيب، والغيب في السرّ.

وتحصيل هذا العلم أن: الغيب يصير أهلًا للسرّ، لا يحوي فوءه عنه أبدًا، وصاحبه في كل حال شاهد المشاهدة يرى في جميع الأنفاس عالم الملكوت، وعالم الجبروت، وهذه صفة قلب محمدٍ ﷺ.

وقال الشبليُّ: لمّا صفَت أرواحهم، وأشرفت هومهم، أشرفوا على أسرار الغيب بعظَمِ أمانيهم.

وقال بعضهم: الذين تُصَدِّق نفوسهم أرواحهم؛ بما أدَّت إليهم من خير ما شاهدته قلوبهم، بما غُيِّب عن نفوسهم.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت

تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾

وقال أبو بكر بن طاهر: أشار الحقُّ إلى إخلاص عباده المخلصين؛ بأنهم بذلوا لمحبوبهم قلوبهم بالإيمان بالغيب، وبذلوا له نفوسهم بالخدمة والعبودية، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، وبذلوا له ما ملَّكهم، فلم يبخلوا عليه بشيءٍ من ذلك، عِلمًا بأنها عِوارٌ في أيديهم، وهو تعالى المالك لها ولهم على الحقيقة، بقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

بأنها أسباب الوصول الحق كلاً ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: رعونة تَشغُّلِها قبول الحق، وتَلهِّيها بقبول الخلق.

وأيضًا أي: غَفَلة عن ذكر العقبي، وهِمَةٌ مشغولة بحب الدنيا ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذِكره.

وقيل: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾: بخلُوِّها من العصمة والتوفيق والرعاية.

وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيءٍ عَمِي عن غيبه، فزادهم الله مرضًا؛ بأن حسَّن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها.

وقال سهل: «المرض»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرضٌ لا يُداوى إلا بالجوع والتَقطُّع.

وقال أيضًا: «مرضٌ»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغَفْلة عنها، وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدّى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا تُنكروا أولياء الله، ولا تُشوِّشوا قلوب المريدين، بغيبة شيوخهم عندهم، ولا تُلقوهم إلى تهلكة الفراق، وقنطرة النفاق.

وأيضًا لا تخرِّبوا مزارع الإيمان في قلوبكم، بالركون إلى الدنيا ولذَّاتها.

أما قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: فأوقعهم الله في شرِّ الاستدراج، وحَجَبَهم عن إصلاح المنهاج، فرأوا مساوءهم المحاسِنَ، فاحتجبوا عن المعنى، وخرجوا بالدعوى، ويَحسَبون أنهم يُحسنون صنعًا في ترك نصيحة العلماء، ومصادفة الأولياء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

وقيل: ﴿هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾: بعصيان الناصحين لهم، ﴿وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾؛ لأنهم محجوبون عن طرق الإنابة والهداية.

﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يتركهم على ما هم عليه، ولا يَهديهم إليه.

وأيضًا يُريهم الأعمال، ويُحرِّم عليهم الأحوال.

وقيل: يُحسِّن في أعينهم قبائح أفعالهم.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ ﴾: لما احتجبوا عن رؤية حقيقة مشاهدة الأحوال، ولم ينالوا عزة معاني القربة، آثروا حظوظهم على ما أوتوا من الكرامات الظاهرة حين باعوها بلذائذ الشهوة، وهذه صفة إبليس وبلعام وبرصيصا، وأمثالهم من أهل الخداع.

وقال ابن عطاء: القناعة بالحرص، والإقبال على الله تعالى بالميل إلى الدنيا.

﴿ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ ﴾: ما ربح مَن يُبدِّل بي سواي.

﴿ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴾: في سابق علمي فلأجل ذلك مالوا عني.

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾: هذا مَثَلُ من دخل طريق الأولياء بالتقليد لا بالتحقيق، يعمل عملَ الظاهر، وما وجد حلاوة الباطن، فترك الأعمال بعد فقدان الأحوال.

وأيضًا مَثَلُ مَن استوقد نيران الدعوى، وليس معه حقيقة الغنى، فأضاءت ظواهره بالصيت والقبول، فأفشى الله نِفاقَه بين الخلق؛ حتى يبدوه في أخسِّ السخرية، ولا يجد مناصًا من فضاحة الدنيا والآخرة.

وقال أبو الحسن الورّاق: هذا مَثَلٌ ضربه الله لمن لم تَصِحّ له أحوال الإرادة، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاء إلى أحوال الأكابر، فكان يُضيء عليه الأحوال الإرادية لو صَحَّحها بملازمة آدابها، فلمّا مزجها بالدعاوى، أذهب الله عنه تلك الأنوار، وبَقِي في ظلمات دعاويه، لا يُبصر طريق الخروج منها.

وقال الواسطي: آمنوا بالغيب، ولما عاينوا الحق في القيامة، علموا حقيقة أن ما آمنوا به بعيدٌ مما شاهدوا.

وقال بعضهم: الله غيب، وهو مغيّب الغيب، والقلب غيب، فإذا آمن الغيب بالغيب، رُفع الحجاب عن الغيب، فوجد في غيب الغيب صاحب الغيب، وذلك قوله سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ .

قال بعضهم: الذين يؤمنون بالغيب في الغيب للغيب .

وقال الأستاذ: حقيقة الإيمان التصديق، ثم التحقيق، ومُوجب الأمرين التوفيق، فالتصديق بالعقد، والتحقيق ببذل الجهد في حفظ العهد.

وفرسان أهل الغيب خمس طوائف: النفوس، والأرواح، والعقول، والقلوب، والأسرار، ومشاربهم متفاوتة: فمشربٌ صِرفٌ بلا مزاج، ومشربٌ عذْبٌ بلا أجاج، ومشربٌ ملحٌ، ومشربٌ ريِّقٌ، ومشربٌ سائغٌ، ومشربُ زنجبيل المحبّة، ومشرب سلسبيل المعرفة،

ومشرب تسنيم المشاهدة، ومشرب عين المكاشفة، وقائدُ التوفيق يقود طائفة السعادة إلى مناهل القربة، وسائق الخذلان يسوق طائفة الشقاوة إلى موارد الشهود، وموارد النفوس التي تَرُدّها هي أسنّ المنى، وأحسن الهوى، ومناهل الشهوات، سواحل نهر الغفلات، ومشارب الأرواح التي تَرُدّها هي سواقي المشاهدات والمكاشفات، وعيون القلوب التي تَرُدّها هي صفاء المعاملات، وأنوار المناجاة، والأنهار التي تردّها العقول هي مشاهدة الربوبية، وإدراك نور القربة من مرآة الآيات، والينابيع التي تردّها الأسرار هي عجائب كشوف جمال القدم، وشهودها مشهد التوحيد، وحقائق حق الربوبية، ومطالع شموس الصفات، ومشارق أقمار أنوار الذات، فالزهاد أصحاب العقول، ومشرَبهم الطاعات والعبادات، والمحبوبون هم أصحاب القلوب، ومشرَبهم الوجود والحالات، والعارفون هم أصحاب الأرواح، ومشربهم المراقبات والأنس والخَلْوات، والموحدون هم أصحاب الأسرار، ومشرَبهم التفرُّد عن الأكوان، والتجرُّد عن الحدثان، والبطّالون هم أصحاب النفوس، ومشرَبهم الدعاوى والأباطيل، والترهات والمزخرفات.

وقيل: «الغيب»: هو الله تعالى .

وقال بعض العارفين: «الغيب»: هو مشاهدة الكلّ بعين الحق.

وقال أبو يزيد: لا يؤمن بالغيب، من لم يكن معه سراجٌ من الغيب.

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: يراقبون أوقات الصلاة؛ لاستنشاق نفحات الصفات، وإقامة الصلاة حِفْظ آداب العبودية في جناب الربوبيّة، بنعت الافتقار إلى مشاهدة الملك الجبّار؛ لأن في الصلاة قرّة عيون العارفين، ومناجاة المحبّين، ومشاهدة الحق للشائقين.

وقال ابن عطاء: إقامة الصلاة حِفْظ حدودها، مع حِفْظ السرّ مع الله ألا يختلج بسرّه سواه.

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ أي: يطلبون قُرب الرزّاق بخروجهم عن الأرزاق.

وأيضًا يتقرّبون إليه بما نالوا منه.

وأيضًا يتخلّقون بخُلقه في الإكرام والإعطاء.

وأيضًا يتحدّثون بما وجدوا من أنوار الكواشف، وكرائم المعارف عند السالكين الصادقين.

وقيل: في الإمساك لذّة، وفي الإنفاق لذّة، وكلّ ما يُلتذّ به فهو بعيدٌ من عين الحق.

وقيل: يُنفقون مما خصصناهم به من أنوار المعرفة، يفيضون بركاتها ونورها على من تَبِعهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ أي: أولئك على حقيقة يقينٍ، متّصلة بأنوار المعرفة، أن الله تعالى بلا معارضة النفس، وريب الشيطان، مفلِحون من مكائدهما ووساوسهما.

وأيضًا مفلِحون من الله بالله.

وقيل: أولئك الذين لزموا طريق المفاصلة بالانفصال عما سوى الحق ما فلحوا فانقطع الحجب عن قلوبهم فشاهدوا .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٦﴾ أي: إن الذين احتجبوا عنا بحظوظ البشريات سواء عندهم إنذارك بقطيعتنا عنهم، وتخويفك بعقوبتنا عليهم؛ لأنهم في مهمة الغفلة عن مباشرة المعرفة، لا يقرون باللقاء والمشاهدة؛ لاستغراقهم في بحار الشهوة.

وقيل: إن الذين ضلُّوا عن رؤية منني عليهم في الشبق سواء عندهم من شاهد الأعواض في خدمتي، ومَن شاهد المعوّض لا تخلص سرائرهم، ولا يثبت لهم الإيمان الغيبيّ، وإنما إيمانهم على العبادة.

﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: ما نظر إليها منذ خلقها، فحرّم عليها أنوار ذكره، ومواصلة إلهامه.

﴿وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ أي: على سمعهم وقْر الضلال، فلم يسمعوا حقائق الخطاب، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ﴾ أي: على أبصارهم غطاءُ القصر، فلم يبصروا بها طراوة صفة الصانع في الصنع، ولم يتفرّسوا بالبصائر ما كشف الله لأهل الإيمان من ملكوت السماوات والأرض.

﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ : عذابهم بعدهم عن قرب مولاهم حتى لم يدركوا بركات كراماته.

وقيل: أهل البصر نظروا من الله إلى الأشياء، فشاهدوها في أسرار القدرة، وأهل النظر استدلوا بالأشياء على الله، فحجبهم عقولهم، واستدلالاتهم عن بلوغ كنه المعرفة بالله.

قال عليٌّ بن أبي طالب ﷺ: «طبعَ الله على قلوبهم برؤية أفعالهم بمعاونة النفوس، حتى كفروا سرًّا، وآمنوا علانيةً».

قال جعفر الصادق: الختمُ على وجوهٍ: منهم من ختمَ على قلبه برؤية فعله، ومنهم من ختمَ على قلبه برؤية الأعواض، ومنهم من ختم قلبه بالإسلام، ومنهم من ختم قلبه بالإيمان، ومنهم من ختم قلبه بالمعرفة، ومنهم من ختم قلبه بالتوحيد، فكلٌّ واقفٌ مع ذلك الختم.

وقال سهل: أسبلَ عليهم ستر شقاوةٍ، فصمُّوا عن سماع الحق، وعموا عن ذكره[١].

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾: هؤلاء أهل الدعاوى الذين يزيِّنون ظواهرهم بشعار المخلصين، ويخرِّبون بواطنهم بسوء أخلاق المنافقين، كلامَهم كلام الصدِّيقين، وأفعالهم أفعال المكذِّبين.

وقيل: إن الناس اسم جنس، واسم الجنس لا تخاطب به الأولياء.

وقال بعضهم: ليس الإيمان ما يتزيَّن العبيد قولًا وفعلًا، لكن الإيمان جرْي السعادة في سابق الأزل، وأمّا ظهورها على الهياكل، فربما يكون عوارض، وربما يكون حقائق .

﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: يخادعون أولياء الله من حيث إقرار الإيمان بالقلوب، وإخفاء التداهن في النفوس، ﴿ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ﴾ حين لا يعلمون تفرُّس أهل الولاية، فيُفتضحون عندهم، وأما خَدْعهم مع أهل الإيمان، من حيث الظواهر قولًا وفعلًا، ودسائسهم في البواطن حقدًا وبُعدًا.

وأيضًا يخادعون الله بالفرار، والذين آمنوا بالإقرار.

وقال بعض العراقيين: الخداع والمكر تنبيهٌ من جهة شهود السعايات، والالتفات إلى الطاعات؛ كي لا يُعتقد فيها بأنها أسباب الوصول الحقّ كلٍّ.

﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: رعونةٌ تشغلها بقبول الحق، وتلهيها بقبول الخلق.

وأيضًا أي: غَفَلةٌ عن ذكر العُقبى، وهمَّةٌ مشغولةٌ بحب الدنيا، ﴿فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ بتبعيدهم من قربه، وتشغيلهم عن ذكره .

وقيل: في قلوبهم مرضٌ، بخلُّوها من العصمة والتوفيق والرعاية.

وقال بعضهم: بميلهم إلى نفوسهم، وتعظيم طاعتهم عندهم، ومن مال إلى شيءٍ، عَمِي عن غيبه، فزادهم الله مرضًا؛ بأن حسَّن عندهم قبائحهم، فافتخروا بها.

وقال سهل: «المرضُ»: الرياء والعجب وقلة الإخلاص، وذلك مرضٌ لا يداوى إلا

---

(١) وفسر ابن عطية الختم بثلاثة أوجه: الأول: أنه حسي حقيقة، فإن القلب على هيئة الكف ينقبض مع زيادة الضلال كما ينقبض الكف إصبعا، إصبعا.

الثاني: أنّه مجاز عبارة عن خلق الضّلال في قلوبهم وأنّ ما خلق الله في قلوبهم من الكفر والضلال والإعراض عن الإيمان سمّاه ختما.

الثالث: إنّه مجاز في الإسناد كما يقال: أهلك المال فلانا وإنّما أهلكه سوء تصرفه فيه.

قال ابن عرفة: وسكت ابن عطية عن هذا الثالث وهو إنما يناسب مذهب المعتزلة ولما جاءت الآية مصادمة لمذهبهم تأولها الزمخشري وأطال وقال : إنه مجاز واستعارة.

بالجوع والتقطُّع .

وقال أيضًا «مرضٌ»: بقلة المعرفة بنعم الله تعالى، والقعود عن القيام بشكرها، والغفلة عنها وهذا مرض القلب الذي ربما يتعدَّى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تنكروا أولياء الله، ولا تُشوِّشوا قلوب المريدين بغيبة شيوخهم عندهم، ولا تلقوهم إلى تهلكة الفراق، وقنطرة النفاق.

وأيضًا لا تخرِّبوا مزارع الإيمان في قلوبكم، بالركون إلى الدنيا ولذَّاتها.

أمَّا قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾: فأوقعهم الله في شرِّ الاستدراج، وحَجَبهم عن إصلاح المنهاج، فرأوا مساوئهم المحاسن، فاحتجبوا عن المعنى، وخرجوا بالدعوى، ويَحسَبون أنهم يُحْسِنون صُنعًا في ترك نصيحة العلماء، ومصادقة الأولياء، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ .

وقيل: هم المفسدون بعصيان الناصحين لهم، ولكن لا يشعرون؛ لأنهم محجوبون عن طريق الإنابة والهداية.

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ أي: يتركهم على ما هم عليه، ولا يَهديهم إليه، وأيضًا يُريهم الأعمال، ويُحرِّم عليهم الأحوال، وقيل: يُحسِّن في أعينهم قبائح أفعالهم.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾ : لما احتجبوا عن رؤية حقيقة مشاهدة الأحوال، ولم ينالوا عزّة معاني القربة، أثروا حظوظهم على ما أوتوا من الكرامات الظاهرة، حين باعوها بلذائذ الشهوة، وهذه صفة إبليس، وبلعام، وبرصيصا وأمثالهم من أهل الخداع.

وقال ابن عطاء: القناعةُ بالحرص، والإقبال على الله تعالى بالميل إلى الدنيا.

﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾ : ما ربح من يُبدِّل بي سواي .

﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ : في سابق علمي ، فلأجل ذلك مالوا عني.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ : هذا مَثَلُ من دخل طريق الأولياء بالتقليد لا بالتحقيق، يعمل عمل الظاهر، وما وجد حلاوة الباطن، فترك الأعمال بعد فقدان الأحوال.

وأيضًا مَثَلُ من استوقد نيران الدعوى، وليس معه حقيقة الغنى، فأضاءت ظواهره بالصيت والقبول، فأفشى الله نفاقه بين الخلق حتى يَبدوه في أخسِّ السخرية، ولا يجد مناصًا من فضاحة الدنيا والآخرة.

وقال أبو الحسن الورَّاق: هذا مَثَلُ ضربة الله لمن لم تصح له أحوال الإرادة، فارتقى من تلك الأحوال بالدعاوى إلى أحوال الأكابر، فكان يُضيء عليه الأحوال الإرادية، لو صحَّحها

بملازمة آدابها، فلما مزجها بالدعاوى، أذهب الله عنه تلك الأنوار، وبقي في ظلمات دعاويه لا يُبصر طريق الخروج منها.

﴿ صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ۝١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٠ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٢٢ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٢٣ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ وَلَن تَفۡعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٤ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥ ﴾.

قوله تعالى: ﴿صُمٌّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ أي: صَمَّت أسماع أرواحهم عن أصوات الوصلة، وحقائق إلهام القُربة التي يُعرِّف بها الحق عن صفاته لأوليائه، بَكُمٌ عن تعريف علل بواطنهم عند أطبَّاء القلوب عجبًا ونفاقًا، عُمِّى عن رؤية خاتمتهم التي ختم لهم الحرمان والشقاء، وأيضًا عُمِّي عن رؤية أنوار جمال الحق في سماء أوليائه، وحسن أفعاله في آياته.

وقال بعضهم: «صُمٌّ»: لا يسمعون القرآن، «بُكمٌ»: لا يتكلمون بالإيمان، عُمْيٌ لا يرون دلائل الرحمن.

وقيل: صمَّت آذان قلوبهم، وخَرِست ألسنتهم عن الذكر، وعَميت أعين صدورهم عن الاعتبار.

وقال الجنيد: صمُّوا عن فَهم ما سمعوا، وبكموا عن عبادة ما عرفوا، وعموا عن البصيرة فيما إليه دعواهم.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْ﴾ أي: إذا وجدوا من طاعتهم

حلاوة وعوضًا عاجلًا، فشرعوا فيها، وإذا أُحتبس عليهم طريق الكرامات، فتركوا جميع الطاعات .

قال الحسين: إذا أضاءهم مرادهم من الدنيا والدين ألفوه، وإذا أظلم عليهم من خلافٍ بعقولهم قاموا مجهولين.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾أي: شَرِّفوا أنفسكم بعبادة ربكم.

وأيضًا اشكروا نعمة معرفتي بعبادتي، وقيل: وَحِّدوا ربكم.

وقال جعفر الصادق: بَيِّنوا ربوبيته، ثم اعبدوه على حد الهيبة والإجلال، وعاينوا أوّل تربيَّتكم؛ لتعلموا خصوصيته إيّاكم من بين سائر خلقه.

﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ﴾: أشار بهذا إلى ترك المرتع والمنظر، ما دامت الأرض لغرماء الحق، ولعمّار السماء غطاءً.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡ﴾: بَيَّن للعباد أمر رزقهم، أنه ليس من عند غير الله، حتى يشتغلوا عن عبادة ربّه باهتمام الرزق.

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾أي: فلا تجعلوا لله شريكًا في طلب رزقكم منه بعبادة ربكم، ولا تبيعوا عبادة الله بمال الدنيا.

﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: إن الله تعالى رازقكم وخالقكم، أي: لا تكونوا مُرائين، وللطاعة بائعين، وللدنيا وقبولها مُشترين.

قال سهل أي: لا تجعلوا لله أضدادًا، وأكبر الأضداد النفس الأمّارة بالسوء.

﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: إن لأهل المعرفة جِنان جنّة العبودية، وجنة الربوبية، وجنة المعرفة، وجنة المحبّة، وجنة القُربة، وجنة المشاهدة، وجنة المداناة، وجنة الوصلة، وجنة التوحيد، وجنة البقاء، وجنة البسط، وجنة الرجاء، وجنة الانبساط، وجنة السُكر، وجنة الصحو، وجنة الملكوت، وجنة المكاشفة، وجنة الحقيقة، وجنة العلم، ولكل جنةٍ منها نهرٌ تجري من تحتها، فجنة العبودية الكرامات، ونهرها حقائق الحكمة، وجنة الربوبية مشاهدة صرف القدرة، ونهرها رؤية تجلّي الحق في مرآة الآيات، وجنة المعرفة إدراك نوادر الألوهية، ونهرها صفاء الإخلاص، وجنة المحبّة مشاهدة الآلاء، ونهرها الرضا بمراد المحبوب، وجنة القربة مباشرة أنوار الصفة، ونهرها خاصية المحبّة، وجنة المشاهدة الدهشة في جمال الحق، ونهرها لطائف الإشارة، وجنّة المداناة، والاستئناس برؤية الوصال، والتَبرِّي من الحدثان، ونهرها كشف

غرائب تجلّي الصفات، وجنة الوصلة اللَّذة في العشق، ونهرها المحبّة، وجنة التوحيد التَلبُّس باللباس الربّانيّ، ونهرها الانسلاخ عن اللباس الإنسانيّ، وجنة البقاء التمكين، ونهرها السكينة، وجنة البسط الفرج بالمشاهدة، ونهرها الطمأنينة، وجنة الرجاء الشوق ونهرها الأُنس، وجنة الانبساط الاتّحاد، ونهرها الفريدة والحكم في الحضرة، وجنة السكر حلاوة الفناء، ونهرها صفاء عيش الروح في المشاهدة، وجنة الصحو المعجزات وتقلُّب الأعيان، ونهرها العلم اللَّدني، وجنة الملكوت رؤية تصاوير أشخاص الأرواح ، ونهرها مزيد اليقين، وجنة المكاشفة المراقبة بنعت وجدان صفاء المعرفة، ونهرها أسرار الفِراسات، وجنة الحقيقة وجدان الروح في مقام الجمع والتفرقة، ونهرها التلوين والتمكين، وجنة علم المجهول الراحة في الشطحيات، ونهرها غوصُ الروحِ في بحر الحقيقة[1].

﴿وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾: أهل جنان الوَصْلة إذا كُشفت لهم أسرار الغيب، رأوا مشاهدات أنوار الصفات في مقامات الأرواح، جميعها يَدُّل بعضهم بعضًا، ويحصل لهم من نور الكبرياء، ما يحصل لهم من نور العظمة، ومن نور القِدم ما يحصل من نور البقاء، هكذا جميع الصفات.

وأيضًا إذا تمكَّن أهل المشاهدة في الجنة غذاءً، ورأوا ربهم تعالى، وجدوه على الصفة التي أظهر نفسه جلّ وعزّ لأهل المكاشفة في دار الدنيا يقولون: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي: ما نحن كنّا فيه من مشاهدته في العاجل، يجدها بتلك الصفات في الآجل؛ لأن وجوده يتغيَّر بتغيُّر الزمان في المكان، أوّله في الربوبية آخره في الألوهية، وآخره في الصمدية أوّله في الأزلية.

وقال السري في قوله: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: أَخلصَ سرَّه، وعبادته لي.

﴿أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى﴾ أي: نورٌ في أسرارهم وقلوبهم، في الدنيا يستريحون إليه للتوكل والاكتفاء، ونورٌ في الآخرة، بدخولهم الجِنان، ومجاورتهم الرحمن.

---

(١) وقال سيدي إسماعيل حقي: أي يحصل لهم جنات القربة معجلة من بذر الإيمان الحقيقي وأعمالهم القلبية الصالحة والروحية والسرية بالتوحيد والتجريد والتفريد من أشجار التوكل واليقين والزهد والورع والتقوى والصدق والإخلاص والهدى والقناعة والعفة والمروءة والفتوة والمجاهدة والمكابدة والشوق والذوق والرغبة والرهبة والخوف والخشية والرجاء والصفاء والوفاء والطلب والإرادة والمحبة والحياء والكرم و السخاوة والشجاعة والعلم والمعرفة والعزة والرفعة والقدرة والحلم والعفو والرحمة والهمة العالية وغيرها من المقامات والأخلاق تجرى من تحتها مياه العناية والتوفيق والرأفة والعطفة والفضل.

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ أما الذين شاهدوا بنعت الاصطفاء في مشاهد الأزل، ورأوا جمال مشاهدة الحق، وسَمِعوا كلامه، فيعلمون أن القرآن حقٌّ من ربهم؛ لأنهم صادقوا حقيقة مقام التصديق بنعت الأرواح قبل كون صورتهم، وبعد كونها قابلوا الآخر بالأول، والأول بالآخر، وجَدُّوا صِرفًا صِدقًا، فاستقاموا في الصدق والإخلاص حين سمعوا خطاب الحق.

﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾: الذين لم يبلغوا مقام المشاهدة، وقفوا في بحر الأشكال، ولم يهتدوا بضرب الأمثال.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾.

قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾: القرآنُ بحر عجائب الربوبية، وأخبار غرائب أسرار صفة القدسية، فمن كحَّله الله بكحل نور الحقيقة، يرى بعين السرِّ عرائس مشاهدات الصفات ويعشق بها، ويَبقى في طلب مزيد حقيقة علومها، ويندرج بمهجته تحت أحكامها برسم العبودية، ومتابعة المخاطبة، ومن أعمى الله قلبه عن مشاهدة تجلّي كتابه، يضل في طريق النُكرة، ويغرق في بحر الضلالة.

وقيل: بين العبد وبين الله بحران: بحر الهلاك وبحر النجاة، وقد يهلك في بحر النجاة خلقٌ كثيرٌ، كما قال: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: الإشارة فيه إلى حال أهل الفترة الذين سلكوا طريق أهل القصد، ثم رجعوا إلى ما عليه عادة العوامِ من الرّخص والتأويل، فمَن هذا شأنه، فقد زاغ عن محجَّةِ المشاهدة، وتحيَّر في أودية الغَفْلة ، وتَهيَّم في سراب الفقدان محجوبًا عن مشاهدة الرحمن.

﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ﴾ أي: كنتم أمواتًا في قبور العدم، فأحياكم بأنوار القِدم.

وأيضًا كنتم أمواتًا في غطاء الغَفْلة، فأحياكم بروح المعرفة.

وقال الشبلي: وكنتم أمواتًا عنه، فأحياكم به .

وقال ابن عطاء: كنتم أمواتًا بالظاهر، فأحياكم بمكاشفة الأسرار، ثم يُميتكم عن أوصاف العبودية، ثم يُحييكم بأوصاف الربوبية، ثم إليه تُرجَعون عند تحيُّركم عن إدراكه صرف الذّات والصفات عن شواهد المعرفة في طلب الحقيقة .

قال فارس: كنتم أمواتًا بشواهدكم، فأحياكم بشواهده ، ثم يُميتكم عن مشاهدكم، ثم يُحييكم بقيام الحق عنه، ثم إليه تُرجَعون عن جميع ما لكم وكنتم له .

وقال الواسطيُّ: وَبَّخَهم بهذا غاية التوبيخ؛ لأن الموات والجماد لا ينازع صانعه في شيءٍ، فإنما النزاع من الهياكل الروحانية .

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ : لاعتباركم وامتحانكم، حتى يُميِّز بين الصادق بتركها لوصوله إلى خالقها، وبين المدَّعي بسكونه إليها عن مدبِّرها.

وأيضًا خلق لكم ما في الأرض جميعًا؛ لتطلبوا في الأشياء خالق الأشياء؛ لأنه أظهر نفسه في مرآة الكون للعارفين والمحبّين .

قال ابن عطاء: ليكون الكون كلُّه لك، وتكون لله، فلا تشتغل بما لك عمن أنت له.

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

وقال بعض البغداديين في قوله تعالى:﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم ﴾ : أنعمَ عليكم بها، فإن الخَلْقَ عَبَدة النعم؛ لاستيلاء النعمة عليهم، فمن ظهر للحضرة أسقط عنه بالمُنعم رؤية النعم.

وقال أبو الحسين النوريّ: أعلى مقامات أهل الحقائق، الانقطاع عن العلائق.

وقال ابن عطاء: أحكم التدبير فيهن﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: كما زيَّن ملكوت الأرض بأنوار القدرة للمؤمنين، قصد إلى تزيين ملكوت السماء بهاء العزّة للعارفين.

﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ [1]: لما لم يعرفوا الله تعالى بحقّ المعرفة، وعجزوا عن

---

(١) جعل آدم خليفة، وأعطاه حكم الخلافة، والخليفة لفظة مؤنثة؛ لأنها محل التكوين، وبها ظهر الكون، وهي زبدة مخضة الطبيعة التي ظهرت بتحريك الأفلاك وهي روح اللبن، فإذا خرج من العالم، فالعالم يكون كالنفل لا عبرة به، فافهم.

إدراك الحقيقة، وانصرفوا عن باب الربوبيّة من هجوم إجلال سَطُوات العزّة عليهم، فأحالهم الحق جلّ وعزّ إلى آدم باقتباس العلم والأدب في الخدمة؛ حتى يُوصِّلهم بعلم الصفات إلى ما لم ينالوا بالعبادات؛ لأنهم عبدوا الله بالجهل، ولم يعرفوه حق معرفته، وهو عَرِف الله بحقيقة العلم الذي علّمه من العلوم اللدنية، لا جرم أنه أستاذهم في علم المعرفة، وإن سبقوا منه بالعبادة.

وأيضًا لم يرى في الكون محبًّا صافيًا كما يريد، فجعل آدم؛ لأجل المحبّة؛ لأنه خلق الملائكة؛ لأجل العبادة، فعرفهم عند المشورة مع الملائكة خلّوهم من المحبّة؛ بشغلهم عنه بالعبادة.

وأيضًا أراد الملائكة أن يَروا الله تعالى، فعلِم الحق ضعفهم عن النظر إليه، فجعل آدم لهم حتى يَرونه؛ لأن الله تعالى خلقه بيده، وصوَّره بصورته، ووضع فيه مرآة روحه، إذا نظروا فيها تجلّى لهم الحق تعالى.

وأيضًا ليس في العالم شاهدٌ جميل يُحبّه الحق، فخُلق بيده، وألبسه صفةً من صفاته، وأحبّه بصفاته؛ لأجل صفاته.

وأيضًا أراد الحق أن يُظهر لهم نفسه في حقائق الصنع، فانصرفوا من الحق إلى الخَلق.

وقيل: عَصوا الله تعالى باعتراض الحق في مذمّة آدم، ومَدْح أنفسهم لمّا قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ لأن الله تعالى سمَّى آدم خليفةً في بدأ الخطاب، والخليفة لا يحيف ولا يجور، فجَهَلُوا مَن وصفه الله تعالى بخلافته، وعلَّمه بخصائص محبته، ومدَحَه بالخلافة، وهم عيَّرُوه بالفسق والجهالة من سوء الظن، وقلّة الأدب، فكشف الله تعالى نقاب القدس عن وجه آدم، وأنورً بجماله العالم، فخجلوا من دعواهم، واعترفوا بجهلهم، فقالوا: ﴿سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾.

وقولهم: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾: تحرّكوا من حيث الأعمال، وشأن آدم من حيث الأحوال برؤية الفعل عن مشاهدة الاصطفائية التي سبقت بنعت الحسن لآدم.

وأيضًا تعرَّضوا بنعت المعبودية عند سرادق العظمة منه على الربوبية، فأسقطهم الله عن مقام حقيقة المعرفة، وأحوجهم باقتباس علم أحوالهم عن آدم.

قال بعضهم: لما شاهدوا أفعالهم وافتخروا بها، ردَّ الله تعالى وجوههم عنه إلى آدم، وأمرهم بالسجود له؛ إعلامًا أن العبادة لا تَزِن عنده شيئًا.

وقال بعضهم: من استكبر بعلمه، واستكبر بطاعته كان الجهل وطنه؛ ألا تراهم لما قالوا: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ ألجأهم إلى أن قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾.

قال الواسطي: من قال أنا، فقد نازع القدرة.

قالت الملائكة: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وذلك لبُعدهم من المعارف، وهم أرباب الافتخار والاعتراض على الربوبيّة، بقوله تعالى: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾.

وقال ابن عطاء: أن الملائكة جعلوا دعاويهم وسيلةً إلى الله، فأمر الله النارَ، فأحرق منهم في ساعة واحدة ألوفًا، فأقرُّوا بالعجز وقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

وقال جعفر: لما باهوا بأعمالهم، وتسبيحهم وتقديسهم، ضربهم كلهم بالجهل حتى قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

وقال بعض العراقيين: شروط الخلافة رؤية بداية الأشياء فصلًا ووصلًا، إذ لا فصل، ولا وصل لم ينفصل منه شيء، وأي وصل للحدث والقِدم.

وقال بعضهم: عَيَّروا آدم واستصغروه، ولم يعرفوا خصائص الصنع به، وأظهر عليه صفات القِدم، فصار الخضوع له قربةً إلى الحق، والاستكبار عليه بعدًا من الحق.

وقال أبو عثمان المغربي: ما بلاء الخلق إلا بالدعاوى.

ألا ترى الملائكة لما قالوا: ﴿نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ كيف رُدوا إلى الجهل حتى قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾: علَّمه أسماء الصفات الخاصة التي عرف بها حقائق جميع الصفات، واهتدى بأنوارها طرائق معارف الذات.

وأيضًا علَّمه أسماء المقامات التي هي مدارج الحالات.

وقال الجريري: علّمه اسمًا من أسمائه المخزونة، فعلّم به جميع والأسامي.

وقال ابن عطاء: لو لم يَكشف لآدم عِلْم تلك والأسامي؛ لكان أعجز من الملائكة في الإخبار عنها.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَٰؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ۝٣٦ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٣٧ قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٣٩﴾.

وقيل: غلب علمه على علم الملائكة؛ لقوة مشاهدة الخطاب من غير واسطة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾[1].

﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾: ألبس الملائكة لباس العبودية، فأُعجبوا بعبادتهم، وألبس آدم لباس الرؤية، ورقَمَ عليه طراز صفاته، وعَرَضه على الملائكة، فرأوه ملتبسًا بلباس الحق، فخجلوا عن تعجّبهم بعبادتهم، فأمرهم الله بسجود آدم تغييرًا لهم، وتعليمًا أن عبادتهم لا تزيد بالربوبية، ولا تنقص عن الألوهية.

وأيضًا لما خلَّقه بخُلقه، وصوَّره بصورته، وألبسه أنواره، ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأجلسه على سرير مملكته، فأسجد له ملائكته؛ حتى أكمل له في العبودية صفات الربوبية، فلما سجد الملائكة لآدم، فأبى إبليس عن السجود؛ لأن الملائكة رأوا فيه سرّ الله تعالى، وعليه لباس الله مصبوغًا بصبغ الله، ولم يرَ إبليس ما كُشف لهم، فأبى واستكبر من غضب الله عليه، وكان من الكافرين، أي: في سابق علمه من المطرودين.

وقال ابن عطاء: لما استعظموا تسبيحهم وتقديسهم، أمرهم بالسجود لغيرهم، يريهم به استغناؤه عنهم وعن عبادتهم.

قال الحسن بن منصور: لمّا قيل لإبليس اسجد لآدم خاطب الحق فقال: ارفع شرف السجود عن سرّي إلا لك في السجود، حتى أسجد له إن كنت أمرتني فقد نهيتني، فقال له:

---

(١) قوله تعالى: ﴿أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعني: الصور التي تجلّى فيها الحق إن كنتم صادقين في قولكم: ﴿نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ﴾، كأنه قال لهم: وهل سبَّحتموني بهذه الأسماء التي تقتضيها هذه التجلّيات التي أتجلاَّها لعبادي؟ وإن كنتم صادقين في قولكم: ونقدِّس ذواتنا عن الجهل بك، فهل قدَّستم ذواتكم لنا من جهلكم بهذه التجلّيات وما لها من الأسماء التي ينبغي أن تسبّحوني بها؟ فقامت عليهم الحجة في ادّعائهم الإلهيّة، فقالت بعد العلم: ﴿لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾، واعترفت بالكمال الذي غاب عنها هذا، وقد قال تعالى لها: إنه خليفة، فكيف بها لو لم يقل لها ذلك، فلم يكن ذلك إلا لبطونه على الملائكة.

فإني أعذبك عذاب الأبد ، فقال: أوَلست تراني في عذابك لي ، قال: بلى، فقال: فرؤيتك لي تحملني على رؤية العذاب، افعل بي ما شئت ، فقال: أجعلك رجيمًا، قال إبليس: أوَليس لم يحامد سوى غيرك، افعل بي ما شئت .

﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي: اسكن في جواري من قطيعتي، وإن تصيبك خطيئة، فإن في عصيانك في دار العصمة عذر عصاة أولادك من أهل التوحيد في دار المحنة، واشتياقك إلى نعيمي بعد هجرانك من جواري، وبلوغك بعد فنائك في القدم إلى لقائي.

وأيضًا أوصاه بالتمكين عند خداع إبليس ومكره؛ حتى لا يزول قدمه عن مقام التمكين بمقالة العين.

وأيضًا أراد الله أن يعصيا فوكَّلهُما إلى أنفسهما، وعزلهما عن القُربة بإدخالهما في الجنة؛ لأن آدم وحوّاء طفلا الزمان، لا يستقران في جبروت الرحمن، فألجأهما إلى أكل ثمار أشجار الجنان لإفراد القديم عن الحدثان؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ .

وقال القاسم: السكون في الجنة وَحْشَةٌ من الحق، وأنه ردَّ المخلوق إلى المخلوق، وهو رَدُّ النقص إلى النقص؛ لامتناع الأزل عن الحوادث.

وقال بعضهم: ردَّهما في السكون إلى أنفسهما ووكَّلهما إليها، فقال: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾، وفي دعاء المخلوق إلى المخلوق، إظهار العلل بمعونات الطبع.

﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ : أخفى الله تعالى في الشجر أسرار الربوبية لآدم وحواء، ومنعهما عن قُربها؛ حتى لا يُشوِّش عليهما عيش الإنسانية، ولكن هيَّجهما بمنعهما عن قرب الشجرة إلى طلب تناولها، فلمّا قَرِبا الشجرة ، كسا الشجرة أنوار القدس، وتجلّى الحق سبحانه لهما من الشجرة، كما تجلّى من شجرة موسى لموسى، فعشقا الشجرة ووقعا فيها، ونسيا ذكر النهي عن قُرْبها.

قال ابن عطاء: نهى عن جنس الشجرة، فظنّ آدم أن النهي عن المشار إليه، فتناول على حد النسيان، وترك المحافظة لا على التعمُّد والمخالفة[1].

---

(١) قال الشيخ نجم الدين -قدس سره-: إن آدم خاطبه مولاه خطاب الابتلاء والامتحان والنهى نهى تعزز ودلال كأنه قال يا آدم أبحت لك الجنة وما فيها إلا هذه الشجرة فإن الإنسان حريص على ما منع فسكنت نفس آدم على حواء وإلى الجنة وما فيها إلا إلى الشجرة المنهي عنها لأنها كانت مشتهى القلب، وكان للنفس فيها حظ ولا يزال يزداد توقانه إليها فيقصدها حتى تناول منها فطر سر الخلافة والمحبة والمحنة والتحقق بمظاهر الجمال والجلال كالتواب والغفور والعفو والقهار والستار. والحاصل أنه لما =

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ .

﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: من المجاورين عن حد العقل إلى حد العشق.

وقال بعضهم: معناه أنه نهاهما عن قرب الشجرة، وقضى عليهما ما قضى؛ لنُريهما عجزهما، وإنّ العصمة هي التي تقومهما، لا جَهدهما وطاقتهما.

﴿وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ : الإشارة فيه أن المُريد لا يجوز أن يعتدي بكل أحدٍ، وربما يقع بكلام أهل الخِداع في هاوية الهلاك، والمُريد قد غلب عليه الإرادة، وحلاوة المعاملة، وكلّ من يدعوه إلى شيءٍ من المعاملة يسمع كلامه، وإن كان مدَّعيًا؛ لأنه لا يعرف كيفية الأحوال، فيسقط عن درجة الإرادة بشؤم صحبة الأضداد.

وأيضًا من سلك طريق الشهوة، احتجب عن مشاهدة القُربة؛ لأن سوء الأدب يوجب سقوط المُريد عن درجة الحُرمة.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ أي: مشهدُ إسباحكم في ملكوت الأرض، ومستقرُّ أرواحكم في ملكوت الحضرة.

﴿وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ :«متاعهم»: أنوار تجلّي الحق يترادف على قلوبهم؛ ليعيشوا به تسليًا عن فقدان المشاهدة.

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ : «الكلمات»: ما اعتذر الله آدم من إنفاذ قضائه وقدره عليه، فتلقَّى آدم من ربه تلك الكلمات، فاعتذر بها من الله لخطيئته.

وقيل: هي ربنا ظلمنا أنفسنا.

وقال جعفر بن محمد: قال آدم يا ربِّ ما خدعت إلا بك.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ﴾ أي: اذكروا معونتي في طاعتكم وهدايتي قبل مجاهدتكم، وما كُشف لكم من أسرار معرفتي؛ حتى لا تغترُّوا بمعاملتكم.

﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾﴾ .

وقال بعضهم: ربطَ بني إسرائيل بذكر النعمة، وأسقط عن أمة محمد ﷺ ذلك، فدعاهم

=

علم الله تعالى أنه يأكل من الشجرة نهاه ليكون أكله عصاينًا يوجب توبة ومحبة وطهارة من تلوث الذنب كما قال تعالى: (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) فأورثه ذلك النهي عن أكل الشجرة عصيانًا بسبب النسيان ثم توبة بسبب العصيان ثم محبة بسبب التوبة ثم طهارة بسبب المحبة. تفسير حقي (١/ ١٢٨).

إلى ذكره، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾؛ ليكون نظر الأمة من النعمة إلى المُنعم، ونظرت أمة محمد ﷺ من المُنعم إلى النعمة .

وقال سهل بن عبد الله: أراد الله أن يخصَّ أمة محمد ﷺ بزيادةٍ على الأمم، كما خصَّ نبيّهم ﷺ بزيادةٍ على الأنبياء.

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ فقال للخليل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، وقطع سرَّ محمّدٍ ﷺ، ورؤيته عما سواه.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

ألم تر إلى ربك قوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ أي: أوفوا بما نقشتُ في قلوبكم من حقائق إلهامي وخطابي في جميع الأحوال بامتثال أمري، أوفِ بكشف جمالي لكم حين احتجبتم عن وصالي وقُربي.

وأيضًا أوفوا بما أُعطيكم من استعداد معرفتي وعمارة موقع نظري، أوفِ بأن أُطْلعكم على خزائن ستري، وحقائق علمي في سواتر غيبي .

وقال بعض البغداديين: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ﴾ ، الذي عهدتم يعني: في الميثاق الأوّل

بلفظ بلى، فلا ترجعوا في طلب الشيء إلى غيري.

وقيل: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى﴾: أحفظوا ودائعي عندكم لا تظهروها إلا عند أهلها، أوفِ بعهدكم، وأبيح لكم مفاتيح خزائن برِّي، وأنزِلكم منازل الأصفياء.

وقال أبو عثمان: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾: في التوكُّل، أوفِ بعهدكم بكفاية مهمّاتكم.

وقال أبو سعيد القرشي: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ﴾ في حفظ آداب الظاهر، أوفِ بعهدكم بتزيين سرائركم.

وقال بعض العراقيين: أوفوا بعهدي في العبادات، أوفِ بعهدكم، وأوصلكم إلى منازل الرعايات.

وسُئل أبو عمرو البيكنديّ عن قوله: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى﴾، فقال وفاء العهد الأمانة، وهو: ألَّا يخالف سريرتك علانيتك؛ لأنّ القلب أمانة، والوفاء بالأمانة الإخلاص في العمل، فمَن لم يخلص لا نُقيم له يوم القيامة وزنًا.

﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾: هذا خطابُ الخاص من الخاص إلى الخاص، أمرهم بإجلال نفسه بخصائص التعظيم مع لبِّ اليقين، خوفًا منه به لا عنه، فإنه جلّ وعزّ خوَّفهم بنفسه لا عن نفسه. وقال سهل بن عبد الله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾: موضع اليقين ومعرفته، ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ موضع العلم السابق، وموضع المكرُ والاستدراج.

قوله: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ﴾ أي: بي اتّقوا منّي، وبداية التّقوى التبرِّي من الناسوت للّاهوت، ومن الكون للمكوِّن؛ حتى بلغ حقيقة التقوى، فاتّقى منه به له فرجا الله، وخاف منه.

وقال بعضهم: التقوى على أربعة أوجهٍ: «العامة»: تقوى الشرك، و«للخاص»: ترك المعاصي، و«للعارفين»: تقوى التوسُّل، و«لأهل الصفوة»: تقواهم منه وإليه.

وقال أبو عبد الرحمن السلميّ: التقوى النظر إلى الكون بعين النقص.

﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: تخلِطوا الكشف بالخيال، والفهم بالوهم، والفراسة بالحسِّ، والإلهام بالوسواس، واليقين بالشك ،والعبودية بالربوبية، والحقيقة بالرسم، والإخلاص بالرياء، والكرامات بالمكر .

وقال سهل: لا تخلِطوا أمر الدنيا، بأمر الآخرة .

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ أي: استعينوا بالصبر في طلب المقامات، والصلاة في طلب المشاهدات، أيضًا استعينوا بالصبر في تزكية الأشباح، وبالصلاة في تربية الأرواح.

وقال ابن عطاء: استعينوا على البلوغ إلى دَرْك الحقائق .

وقال أبو عثمان: استعينوا بهم على رعاية أوقاتكم.

وقال بعض العراقيين: استعينوا بالصبر عن دون الله، والصلاة بالوقوف بحسن الأدب مع الله.

﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾: لأنّ في صوم الرجال إمساكٌ عمّا سوى الله، وفي صلاة أهل الكمال عذوبة القلب من طلب مناجاة الربّ، ولا يستعملها إلا من خشع نفسه في العبودية، وعشق قلبه بالربوبية.

وأيضًا أمَرَهم بالعبودية، وأرشدَهم إلى جميع العبادة، وهي الصوم والصلاة، وأضاف تساهلها إلى أهل الخشوع؛ لأنها الكبيرة على العاشقين.

وقال أبو عثمان: لَمن خَشِع قلبه وروحه، وستره بوارد الهيبة، وطوالع الإجلال.

وقال بعضهم: لَمن أيِّد في الأزلي تخصيص الاجتباء.

وقال ابن عطاء : إنها لكبيرة إلا على من تحقَّق إيمانه، وخَشِع سرَّه لعظمتي، واحترقت أحشاؤه خوفًا من قطيعتي .

﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾: وصفهم بالظنّ؛ لأنهم ليسوا من أهل المكاشفة الذين رأوا ربّهم بقلوبهم في غيبه، فتوافقت بدايتهم نهايتهم.

وقيل: من وحَّد الله بأفعاله وطاعته، كان توحيده على الظنّ؛ ألا تراه يقول: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾.

وقال أبو عبد الرحمن السلميّ: لو حقَّقوا التوحيد، كانت صلواتهم وخشوعهم عليهم زَيْنًا، فلما ركنوا إلى أفعالهم، كان توحيدهم ظنًّا، وطاعتهم عليهم شينًا.

قال بعضهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ﴾:يتيقنون، وإنّما أقام الظنَّ مقام اليقين؛لأن في الظن طرفًا من اليقين، وإنما ذَكر الظن إبقاءً على المذنبين، وسترًا على العاصين الذين ليس لهم صفاء اليقين، ولو ذَكر اليقين صَرفًا، لخرجوا من الجملة.

﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةً﴾: أراد الله تعالى أن يقدِّس موسى من العادة والطبيعة ورسم البشرية، بصفاء الخُلْوة، ونيران الجوع؛ ليتهيّأ له استعداد تحمل أنوار المشاهدة والخِطاب، فصار سنّةً لأوليائه من طلّاب المعرفة والمشاهدة، تلك الأربعين.

وأيضًا أراد أن يربِّيه في كَنَف قُربه؛ حتى يقدر أن يسمع كلامه القديم؛ لأن تحمُّل الحقائق لا يكون لأحدٍ، حتى يستقيم في الواردات والصادرات من التجلّي والتدلّي.

﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ﴾(١) أي: آثرتم تمثال الشيطان على مشاهدة الرحمن.

وأيضًا جَهلتُم صنع الخالق مِن صُنع المخلوق.

وقيل: فيه عجل كل إنسان نفسه، فمن أسقطه وخالف مراده هواه، فقد بَرِيَ من ظلمه.

﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: فارجعوا عن رؤية مواهبه إلى معرفة نفسه، واقتلوا أنفسكم بسيوف هومكم؛ حتى لا يزاحمكم في قُربه بربكم.

وأيضًا توبوا من رؤية توبتكم عليكم، واقتلوا أنفسكم بمعرفتكم برؤية توبة ربكم عليها، حتى توصِّلكم معرفتها ومخالفتها إلى معرفة ربكم.

«التوبة» هاهنا: محو أصول الخيال عند مبادئ المكاشفات، وقتْلُ النفس عند وجدان المشاهدات، قربانًا من البَرِّيَّات لصفات الأزليّات.

وأيضًا فاقتلوا أنفسكم بالمجاهدات بعد معرفة النفوس بعين النكرة على حقيقة المعرفة، حتى توصّلكم إلى عين الجمع، وصرف الاتّحاد بلا رسومات البشرية.

وقيل: فاقتلوا أنفسكم في طاعته، ثم توبوا إليه من أفعالكم وأقوالكم وطاعتكم .

قال ابن منصور: «التوبة»: محو البشرية بإثبات الإلهية، وقتْلُ النفس عمّا دون الله تعالى، وعن الله حتى ترجع إلى أصل القديم، ويبقى الحق كما لم يزل.

وقيل: إذا كان أول قدم في العبودية التوبة، وهو إتلاف النفس وقتلها، بترك الشهوات وقطعها عن الملاذ ، فكيف الوصول إلى شيءٍ من منازل الصدِّيقين، وفي أول قدم منها، تَلَف المُهج.

وقيل: توبوا إلى بارئكم أي: ارجعوا إليه بأسراركم وقلوبكم، واقتلوا أنفسكم بالتبري منها؛ فإنها لا تصلح لبساط الأُنس.

وقال ابن منصور : ما شرعَ الحقّ إليه طريقًا؛ إلا وأوائله التَلف.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ

---

(١) إشارة إلى القوى النفسانية والطبيعية العاصية، كما دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [طه:٩٠]: أي بعبادة عجل الطبيعة الذي اتخذه سامري الهوى، مع أنه لا بدّ من ذبحه كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨]؛ وهي أمانات الأمر والنهي، وأهلها القلب والقوى الروحانية، وبوصولها إليها والحركة بالعمل بمقتضياتها؛ ينكسر سورة النفس والطبيعة، وتموت القوى الفاسدة الحاملة لموت القلب، وحياة النفس.

إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

قال الله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: فما دام يَصحبك تميُّزٌ وعقل، فأنت في عين الجهل؛ حتى يضل عقلك، ويذهب خاطرك، وتفقد نسبتك إذ ذاك عسى ولعلّ.

وقال الواسطي: كانت توبةُ بني إسرائيل إفناء أنفسهم، ولهذه الأمة أشدّ، وهو إفناء نفوسهم عن مرادها مع بقاء رسوم الهياكل.

وقال الفارسي: «التوبة»: محو البشرية؛ لإثبات الإلهية.

قال الله تعالى: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

وقيل: ألقوا عن أنفسكم كل شيءٍ، لا يقرِّبكم إلى الله تعالى.

أي: طلبتم رؤيتي ومطالعتي؛ بتقليد موسى، وليس لكم مقام المشاهدة، فلمّا برز لكم ذرة من أنوار ذاتي، فنيتم فيها واحترقتم؛ لأنّكم في البداية، وموسى في النهاية.

وأيضًا أفنيتكم في سطوات عظمتي، وأبقيتكم بأنوار جمالي وجلالي، بقوله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾.

وقال بعض البغداديين: مَن طالع الذات بغير الحُرمة انمحق، ومن طالعها بالحرمة أولى عليه صفات الجبروت والعظمة؛ ليستغيث من ذلك بلسان العجز، سبحانك تُبْت إليك.

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾: ظلَّلهم بغيم القدرة،

وأنزل منها على قلوبهم وابل المعرفة، وأطعمة الحكمة.

وأيضًا لما فرَّقهم في تيه الغربة، حلَّلهم بأودية الكرامة، وأنزل عليهم مائدة الحضرة بلا كُلفة الاكتساب، وكدّ المعاملات.

وقال الأستاذ: لما طوَّحهم في شابه الغربة، لم يرض إلا بأن ظلّلهم، وبلبسة الكفايات جلّلهم، وعن تكلّف التكسّب أغناهم، وبجميل صُنعه فيما احتاجوا إليه تولّاهم(١).

قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: لأرواح الخاص مشارب المعارف في بحار الذات والصفات، يعرف كل واحدٍ منها موردها من الحقّ سبحانه تعالى، ومشربها بالتفاوت، فبعضها في مقام الحيرة، وبعضها في مقام المنّة، وبعضها في مقام الوصلة، وبعضها في مقام الفناء، وبعضها في مقام البقاء، وبعضها في مقام الجلال والجمال، وبعضها في صَرف الجبروت، وبعضها في عالم الملكوت، وبعضها في مشاهدة القدس، وبعضها في رياض الأُنس على حد مقاماتها، وتفاوت سيرها.

﴿عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾[الإنسان:٢١].

وقيل فيه: شَرِب كلُّ أحدٍ حيث أنزله رائده، فمن كان رائده نفسه، فمشربه الدنيا، ومن كان رائده قلبه، فمشربه الآخرة، ومن كان رائده سرّه، فمشربه في الحضرة على المشاهدة، حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ طهَّرهم به عن كلِّ ما سواه.

وأيضًا أبلاهم الله بالنعمة، كما أبلاهم بالنِّقمة.

وأيضًا لما عصوا الله تعالى، أخذ عنهم لذّة ذلك الطعام، ولم يصبروا على فقد اللذّة.

وأيضًا مَن لم يشكر الله في نعمائه غيرها عليه؛ حتى لم يصبر على بلائه.

وقيل: الناس فيه رجلان: رجلٌ أُزيل عنه تدبيره، فهو مستريح في ميادين الرضا راضٍ بأحكام القضاء فيه ساء أو سُرَّ، فهو في الزيادة أبدًا، وآخر رُدَّ إلى تدبيره واختياره، فلا يزالُ يتخبَّط في تدبيره واختياره إلى أن يُهلَك.

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ

(١) وقال أيضًا: وأنزلنا عليهم المَنَّ والسَّلوى مما نفى عنهم تعبَ الجوعِ والجهد والسعي والكد، وفجَّرنا لهم العيونَ عند النزول حتى كانوا يشاهدونهم عياناً، وألقينا بقلوبهم من البراهين ما أوجب لهم قوة اليقين؛ ولكن ليست العِبْرةُ بأفعال الخَلْقِ ولا بأعمالهم إنما المدارُ على مشيئة الحق، سبحانه وتعالى فيما يُمضِي عليهم من فنون أحوالهم.

ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ
أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ
وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ (٦١) إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ
وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٦٣) ثُمَّ تَوَلَّيْتُم
مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٦٤) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ
ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ (٦٥) فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٦٦) وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟
بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (٦٧) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا
تُؤْمَرُونَ (٦٨) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ
فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ (٦٩) قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا
وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (٧٠) قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى
ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ (٧١)
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٧٢) فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ
كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣) ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا
لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا
تَعْمَلُونَ (٧٤) ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا
خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ
أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٧٦) أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٧) وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا
يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٧٨) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ

بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ : لم يصبروا على كل طعام الروحانيين؛ لأنهم أهل الطباع.

قوله: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ أي: أتستبدلون طعام أهل القُربة؛ بطعام أهل الشهوة.

وقيل معناه: أتعارضون حسن اختياري لكم في الأزل، بمخالفة السؤال والدعاء، وما يبدِّل القول لديّ.

وقال الواسطي: في هذه الآية ما يتولّاه من المَنِ والسلوى من غير كلفةٍ لهم، فتبع القوم شهوة نفوسهم، وما يَليق بطباعهم، لمّا رجع إلى الغناء والضرّ عند ذكرهم.

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ : ضرب الله عليهم ذِلّة الطغيان قبل وجود الأكوان، وقهَرَهم بلطمة المسكنة في تعبُّد الشيطان.

وأيضًا أَلبس الله قلوبهم حبّ الدنيا فقرًا وسُخطًا، وأَلبس سرائرهم بُغض الآخرة خوفًا ومقتًا. وقيل: الذِلّة والشحّ والمَسكنة والحِرص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ : «البقرة» هي: النفس الطاغية الأمّارة بالسوء المهيِّجة السجيَّة المذمومة التي تثبِّت الطباع في مزارع الهوى، أمرَهم بقتلها عن الحياة الفانية؛ حتى وصلوا إلى الحياة الباقية، وأدركوا بمخالفتها درجة إحياء الموتى، ومطالعة الغيوب، وتفرُّس القلوب.

﴿لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ أي: نفسٌ ليست بذات صَبْوة في الفتور،

ولا بذات عزّةٍ في النفور، ولكنها ذات شَوْكةٍ وصَوْلةٍ في شباب الغفلة والشهوة.

﴿صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّـٰظِرِينَ﴾ أي: تَخرُج بزيِّ المعبودية رياءً وسمعةً، وهو لباسٌ واحد ظاهره سلامة، وباطنه خيانة، خدعت به الناظرين من الجاهلين، وبلسان الواجدين ألبست كسوة القهر بنعت الجمع،فإذا ظهرت من عين الجمع، تجلَّى الحقّ منها، وجوَّده بصفة الخاص التي لا يدخل فيها رسم الربوبية من القهريات واللطفيات، فأبصرت عيون الناظرين من أهل الجمع تلك الصفة، فسرَّت أسرارهم، وتهيَّجت أنوارهم، فبين الأسرار والأنوار فنوا من النظر إلى الأغيار.

﴿لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ﴾ أي: ليست بمذلَّلةٍ في عبوديتي، ولا عامرة أرض القلب التي هي مزرعة محبّتي ، ولا ساقية بذر المحبّة في شريعة العقل، وهي محلُّ قرار قُربتي ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ أي: فارغةٌ عن العبادات، وهي عنها بمعزلِ أبديةٍ عن الحكومات، لا رغبة لها في مناجدتي، ولا رهبة لها عن معاقبتي؛لأنها خُلقت من الضلالة وهي آيسة من الهداية.

﴿لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾ أي: لا سمة عليها لأحدٍ؛ لأنّها لا تألف الحقّ أبدًا.

وقال بعضهم: لا يَصلح لكرامتي، وإظهار ولايتي عليه؛ إلا من يذْلِل نفسه بالسكون إلى شيءٍ من الأكوان، ولم يسعَ في طلب الحوادث بحالٍ مسلمةٍ من فنون عوارض الخِلاف لا شيةَ فيها، لا أثر عليه لأحدٍ بالسكون إليه والاعتماد عليه، فهو القائم بي والناظر إليَّ، والمعتمد عليَّ أظهرت عليه آيات قدرتي، وجعلته أحدَ شواهد عزّتي، فمَن شاهد استغرق في مشاهدته؛ لأنه قد ألبس رداء العزّ وأنشد على إثره:

هذه إذاً فانظري الدنيا بعيني واسمعي ... بإذني فيها وانطقي بلساني

﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾: فهم من الآية أن الله تعالى أعلمهم أنّ في قتل النفس إحياء القلب، وفي حياة القلب حياة الروح، وإذا صفَت الروح بصفاء حياة القلب عن كدورات النفس، تُحيي جميع الأموات بأنفاسها وآثارها ،كما أحيى عيسى ﷺ الموتى؛ لأنه صافٍ بصفاتها من صفات النفس، فظهرت منه الآيات والمعجزات.

وقيل فيه: إن الله أمر بقتل حيٍّ ليُحيي ميّتهم، أعلَمك بذلك إنه لا يَحيي قلبك لأنوار المعرفة؛ ولا لفهم الخطاب، إلا بعد أن تقتل نفسك بالاجتهاد والرياضات، فيبقى جسمك هيكلًا لا صفة له من صفاته، ولا يؤثر عليك بقاء صورتك فيَحيي قلبك، وتكون نفسك رسمًا لا حقيقة لها، وقلبك حقيقةٌ ليس عليه شيءٌ من المرسومات.

قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَـٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ أي: من عبدني لأجل الجزاء والعِوض، وسكن بالعطاء عن المُعطي، وأحاطت به رؤية أفعاله وأعواضه، أولئك أصحاب البُعد، لم ينالوا قرب وصالي، وحقيقة جمالي.

وقيل: بلى مَن كسب سيئةً برؤية أفعاله، وأحاطت به خطيئته بظنّه أن أفعاله وأعماله تنجّيه وتقرّبه، فَهُم المُبْعَدون عني بما تقرَّبوا به إليّ.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: الذين شاهدوا الله برسم الأرواح في فضاء الأزليات، وخرجوا من الكائنات تهذيبًا للأشباح؛ حتى دخلوا حِجال الأبديات، أولئك أصحاب القُرُبات، ومشاهدات الصفات، وسَبَحات جمال الذات.

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

وقيل: ﴿ءَامَنُوا﴾ أي: أيقنوا أن النجاة في سعادة الأزل، وأنه ليس في الطاعات إلا إتباع الأمر، وأَنِفوا من صالح أعمالهم لعِلْمِهم بقصورها عن حقيقة تعبُّده، أولئك هم الواصلون إلى الرضوان الأكبر.

﴿وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ﴾ أي: أن يأتوكم أسارى الشوق، وسكارى العشق ترحّموهم بأصواتٍ شجيّة، وأقوال مرفقة، تفادوهم برؤية الصفات، وتشغلونهم عن رؤية الآيات.

وأيضًا إن يأتوكم أسارى تنكره «تفادوهم» بشواهد المعرفة.

وأيضًا إن يأتوكم من غيبوبات القلوب، تفادوهم برؤية أنوار الغيوب.

وقال أبو عثمان: وإن يأتوكم غَرْقى في بحر الذنوب، تُدِلُّوهم على طريق التوبة.

وقال الواسطيُّ: إن غرَّتهم رؤية أفعالهم، تُنقِذوهم من ذلك برؤية المِنَن.

وقال الجنيد: وإن يأتوكم أساري في أسباب الدنيا، تُنقِذوهم إلى قطع العلائق والأسباب، فإنّ الحقَّ أَبى أن يتجلّى بقلبٍ متعلقٍ بسببٍ.

وقال بعض البغداديين: وإن يأتوكم أسارى في صفاتهم ونعوتهم تفادوهم أي: تَحِلُّوا عنهم وثاق صفاتهم بصفات الحق ونعوته، قوله تعالى حاكيًا عنهم، قالوا: قلوبنا غُلفٌ أي:

مسدودةٌ بعوارض البشريات، محجوبةٌ عن فَهْم الآيات والمعجزات.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ ۖ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾

وأيضًا قلوبنا في قَرَج أصابع القهريات،محجوبةٌ عن لطائف الأزليات.

وقيل: حُرِم قسم السعادة بها في الأزل.

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾: لأنهم محجوبون عن مشاهدة الآخرة، ومكاشفة الحضرة لغطاء الغَفْلة والشهوة .

وقال محمد بن الفضل: لعِلْمِهم بما قدّموا من الآثام والخلاف، وهذا حالُ الكفّارِ، فوجب على المؤمن أن يكون حاله ضد هذا مشتاقًا إلى الموت؛ بمكاشفة الغيوب، ورفع حجاب الوَحْشة، والوصول إلى محلِّ الأنس؛ ألا ترى أن النبي ﷺ يقول: « من أحبَّ لقاء الله

أحب الله لقاءه »[1]. وإن بلالًا لمّا حضر قالت امرأته: واحزناه، فقال: بل واطرباه بلقاء الأحبّة.

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾﴾ .

وقال الواسطيُّ: جعل الموت يقظةً للعالم، فمن حَجَبها به حُجب عن المميت ،ومتى يكون في قلبك هيبة المميت، إذا هبَّت طوارق الموت .

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ أي: ما نسخت من صفاتك شيئًا عن ديوان معناي، وهو قليلٌ إلا رقمت فيه من صفاتي، وما رأيتك شيئًا من عجائب علمي، إلا أراك ما هو أشرَف منه.

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان:٢٧].

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٧)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥).

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم:٨]. ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠].

وقيل: ما نُقلِّبك من حالةٍ إلّا نُوصلك إلى مقامٍ أشرف منها وأعلي، إلى أن تنتهي بك الأحوال إلى محلّ التداني والخطاب من غير واسطةٍ، بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: من بذل مُهجته لله إلا لِما من الله، وهو محسنٌ بلا رؤية المعاملة، ولا بجريان العارضة، بل رؤية الحقّ بنعت فناء الحقّ، فله مجالسةُ البقاء عند ربّه، بزوال خوف الفراق، وحزن الحجاب.

وقيل: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، أي: خَلُصَت وجوه أعماله من الرياء، والشرك الخفيّ.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾﴾.

وقيل في قوله: ﴿مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ﴾ [النساء:١٢٥] أي: أعتقَ وجهه عن عبودية غيره ، وهو محسنٌ آداب العبودية، فله أجره عند ربّه، دوام المعونة إليه من رضاه، ولا خوف عليهم من فوت حظّهم من الحق ولا هم يحزنون؛ بأن يشغلهم عنه بالجنّة.

قال ابن عطاء : من جعل طريقه ووجهه ومراده وقصده وتدبيره لله، فلا يبقي له وجهٌ إلّا إليه، ولا يكون إلا عليه، وهو محسنٌ.

قال: يَري الحقّ بسرّه، ويشاهده بحقائق معرفته، ويطالعه بمعاني إخلاصه.

قال عبد العزيز المكيّ : في هذه الآية حالٌ مخلصٌ في عمله، هائبٌ عن ربّه.

وقال أيضًا: من أخلص قلبه لله محبّة، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: كاملٌ في محبّته، وبالغٌ في مودَّته.

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ أي: فأينما تولُّوا بعيون الأسرار، فثمَّ مكاشفة الأنوار.

وأيضًا أشار بهذه الآية إلى مشاهدة المشهود في الشواهد، كما كشف خليله حيث قال: هذا ربّي، إذا نظر في دائرة الكون، وفَهم هذه الآية، أنه مَن نظر بعين العقل فقبلته الآيات، ومن نظر بعين الروح فقبلته الصفات.

وقال ابن منصور: وَجْهُه حيث توجَّهت، وفَقْدُه أين فُقِدت.

فقال بعضهم: القصدُ إليه توجُّهك، والطريقة إليه استقامتك منك بفَهمك، وعنك بعِلمك، ارتبط كلُّ شيءٍ بضده، وانفرد بنفسه.

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلق السماوات والأرض، وألبسهما من لباس سنا عِزّه؛ حتى تسكن قلوب أحبائه، بالنظر إلى مشاهدة الصانع في المصنوعات .

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَـٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾.

وقال بعضهم: علَّة لكلِّ صُنعِ صنعه، ولا علّة لكلِّ صنعِ صنعه، ولا علة لصنعه، وليس لكأنه كان؛ لأنه قبل الكون والكان، وأوجد الأكوان، بقوله: ﴿كُن﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ : لم يسمعوا كلام الله من داخل قلوبهم، فثَقُلت أسماعهم من وقر الضلال.

وأيضًا ظنّوا أنهم من أهل المخاطبة، وجَهِلوا مقام المشاهدة، وقد أخطئوا فيما ظنّوا؛ لأنهم لا يُطيقون رؤية الوسائط، أعنى معجزات النبيّ ﷺ، ولا فَهْم خطابه، فإذا كان الأمر كذلك كيف يسمعون صرف الخطاب من حضرة الكمال.

قال الواسطي: كلَّمتهم حيث أنزلت عليهم خطابي فلم يفهموا، وأي آية أشرف من محمّدٍ ﷺ، وقد أظهر لهم ذلك قوله: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ﴾ «الكلمات»: ما خاطبه الله تعالى مع روحه في سرادق الأزل بنعت السرور، فتهيَّج بها سرّه حتى التهب بنار محبّته، فيطلب حبيبه بعد بلوغه إلى الكون بصرف الصفات، فابتلاه الله تعالى بمقام الالتباس، حيث قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[الأنعام:٧٥].

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام:٧٩].

﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ بتجرُّده عن اللباس برؤية الصرف، كما قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ وأيضًا ابتلاه بشغل النبوّة، بعد ما أسكره برحيق الخلّة.

وقال بعضهم: أشدُّ ما ابتلى الله به إبراهيم، أن حمَّله أثقال الخلّة، ثم طالبه بتصحيح شرائطها، وتصحيح شرائط خلّة التجلّي مما سرَّاه ظاهرًا أو باطنًا، ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾. وأيضًا إنّي جاعلك في الخَلْق إمامًا في مقام التمكين؛ لأنه صار بالنبوّة متمكّنًا، بعد أن كان في الخلّة مُتلوّنًا. وأيضًا ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ في المقامات؛ لأني صاحبهم في الحالات بيني.

وقيل: إنّي جاعلك سفيرًا بيني وبين الخَلْق؛ لتهذيبهم؛ لاستصلاح الحضرة، وهذه هي الإمامة.

وقال أبو عثمان: «الإمام»: هو الذي يباشر على الظاهر، ولا يؤثّر ذلك فيما بينه وبين

ربّه لسببٍ، كالنبيّ ﷺ قائمًا مع الخَلْق على حدِّ الإبلاغ، وقائمًا مع الله على حدِّ المشاهدة(١).

قوله: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾: قطعَ الأنساب والأسباب عن مواهبه للأنبياء والأولياء؛ لأنه اصطفاهم بالآيات والمعجزات قبل وقوع العلامات، وأيضًا من اشتغل بنفسه عن نفسه، اعتزل بنفسه عن نفسه.

وقيل: قطعٌ لن يصل إليه أحدٌ بسببٍ أو نسبٍ؛ إلا برضا الأزل، وسبق العناية.

وقال الصادق: لا ينال محبّتي، ومشاهدة رؤيتي من سكن إلى أحدٍ سواي.

وقال بعضهم: لا ينال قُربي من بعد يسره عنّي.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

وقال بعضهم: من رسمته بسمة المعرضين عنّي، لا يقدر الرجوع إليَّ.

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ أي: مستأنسًا للراجين، وآمناً للخائفين؛ لأن فيه أثر الله تعالى، وهو يتجلّى منه للخائفين بلطائف الكرم، فأسكنهم من هيجان الخوف، وتجلّى منه للراجين لطوائف حسن العدم، فأسكنهم من غليان الشوق.

وقيل أي: مفزعًا للمذنبين وآمنًا أي: من دخله من المؤمنين حافظًا لحدود الله فيه، أَمِن من نار جهنم.

وروي عن الشيخ أبي عبد الرحمن السلميّ- رحمه الله- أنه قال: سمعت منصور بن عبد الله

---

(١) أي: قدوة بك في بك في التوحيد ، أو في الأصول والفروع ، إذ لم يبعث بعده نبي إلا كان من ذريته، ومأمور باتباعه.البحر المديد (١/ ١٠٠).

يقول: سمعت أبا القاسم الإسكندرانيّ يقول: سمعت أبا جعفر المالطيّ، يذكر عن علي بن موسى الرضا، عن أبيه عن جعفر الصادق ﷺ قال: البيت هاهنا محمد ﷺ، من آمن به وصدّق برسالته، دخل في ميادين الأمن والأمانة.

﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ﴾ أي: أن طهِّرا قلبكما؛ لأنه موضع نظري، ومحل زيارتي.

﴿لِلطَّآئِفِينَ﴾ أي: للسفرة الأنوار. ﴿ٱلْعَـٰكِفِينَ﴾ أي: للسكّان الأسرار.

﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ أي: لعرائس الغيب؛ لأن القلب قِبْلة الله يزور به أهل الغيب.

﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ أي: أفتنا لبقائك في جمال صفاتك.

وقال الجنيد: ظاهر علم الاستسلام، سقوط المسافات، والمدة من البعد، ولا يجدون في إشارتهم كلفة، ولا في ذِكرهم الذي به يتقرّبون مؤنة؛ لأنه استولى عليهم من قربه واكتنافه لهم، والتحنُّن عليهم، والبرِّ بهم؛ لأنه قد أزاح عنهم أسباب الطالب.

وقال فارس في قوله: ﴿وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾: أرجنا عن أسباب الطلب بالحيل، ومطالعة الخير بالعرض. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ﴾ أي: تواضع لجبروتي، وأخلص قلبك عن ملكوتي. ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ﴾ أي: تعرّضت لك لما تريد مني في جميع الأحوال.

وقيل أي: أخلص سرّك، فإنه موضع الاطّلاع منك، «قال أسلمت» أي: أسلمت إليك سرّي، فأخلصه لي، فإنّك أولى بي مني. وقيل: استأثر، فإنّ قتلك لا يُمهل الطوارق بحر الحوادث، بل يَجذِب إلى الاستغراق في بلاد القدم، فيقول: أسلمت استأثرت، ومازلت كنت في أسْر جبروتك، وقهر عزّك.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت النصر آبادي يقول: سمعت الروذباري يقول: سلامة النفس في التسليم، وبلاؤها في التدبير.

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ أوصاهم بقطع العلائق والعوائق، والتعرُّض لنفحات الصفات، والعذوبة في المناجاة، والانقياد لمراد الحقّ، والشفقة على الخَلْق، ومقاومة النفس، ومراعاة النفس، والمصادقة لله مع الإخوان فيه، والإنصاف معهم، وترك معارضتهما

أحدًا، وأخذ الإنصاف منهم.

وقيل: أوصاهم بالمحاربة إلى الاستسلام الذي أمر به، فصحَّ من إبراهيم التسليم، فلمّا أُبتلي بذبح ابنه لم ينظر إليه؛ لأنه كان أسلم، وصحَّ له التسليم، فمضى فيه من غير نظرٍ إلى الولد، حتى فُدِيَ، ولمّا لم يصح ليعقوب من التسليم ما صحَّ للخليل، رجع إلى حد الجزع حين فقد ابنه فقال: يا أسفى على يوسف، لكنني أعتذر ليعقوب ﷺ في هذه المسألة، وهو أنه يرى في حُسن يوسف جمال الحقّ، وقد عشقه، ومع ذلك في أوّل العشق، وقد بقي في محلّ الالتباس، والخليل -صلوات الله عليه- قد انفرد بحب الحقّ للحقّ، وهذا نهاية مقام العشق؛ لأنه في محلّ التمكين، وابنه يعقوب في محلّ التلوين، فلأجل ذلك قال: يا أسفى على يوسف.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾: صبغة الخاصية التي خَلق آدم على تلك الصفة.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥]، وذلك قوله تعالى: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[الإسراء:٧٠].

وقال صدر الصوفية، ورئيس البَرِيَّة ﷺ: خَلق الله آدم ﷺ على صورته، وهذا صبغ الظاهر الذي ألبسه صورة آدم، وأمّا صبغ الباطن، هو الذي كسا الله تعالى قلب آدم، ولهذا سجدت الملائكة بين يديه، وأورث الله تلك الصفتين اللتين خصَّ بها آدم أرواح ذرّيته من الأنبياء والأولياء، وذلك إذ خلق الله تعالى الأرواح، فحشرها في سرادق حضرته، وكشف لها عن وجهه حجاب العزّ، وأراها جماله وكماله، وألهمها خصائص علوم الربوبية، ونوَّرها بأنوار الوصلة، وكساها لباس الفردانية، وجلّلها برداء الكبرياء، وسقاها من شراب الزلفة

بكأس المِنّة، وطابت بوجهه، وطارت في ملكوته، وعشقت بجمال جبروته، فاكتسبت سناء المحبّة، واستنارت بنور المعرفة، وخاضت في بحر الربوبية، وخرجت منها على أسرار الوحدانية، وتلوّنت بصبغ الصفات، وانصبغت بصبغ نور الذّات، فهذه حقيقة صبغ الله تعالى الذي ذكر في كتابه؛ ولذلك قال:﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ (١).

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾ ۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ﴾ : صرفهم بمكر القِدم في رؤية حِيَل الفعل؛ مقرونة بالإرادة عن مشاهدة الأمر في الأمر، وانقيادهم بحظّ التسليم عند كون الامتحان؛ حتى تظهر أسباب علم القِدم، وما سبق من علمه في تماديهم بنعت الكفر في ميادين الضلال.

وقيل: بيَّن الخطاب على مقادير العقول ، ألا ترى كيف بيَّن علَّته في آخر الآية ﴿وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾. إحكامًا منه في صنعه، وما جرى من ضبطه.

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قد نرى تقلُّب عين سرّك في سماء الهُويّة؛

---

(١) آكد المكرمين منهم بكرامات أكبر منها درجة وأرفع منها منزلة وذلك لأنهم لما خلقوا محتاجين إلى ما لا تحتاج إليه الملائكة أكرموا بالكرامتين اللتين لم تكرم بهما الملائكة، فأحدهما الرجوع إلى الله مضطرين فيما يحتاجون إليه، فأكرموا بكرامة الدعاء ووعدهم عليه الاستجابة. تفسير حقي (٨/ ٢٥٧).

لطلب عيان المشاهدة، وقِبْلة القُربة، وتزول الصفة في الصفة، ووقوع خطاب الخالص في سمع الخاص؛ حتى تصير لك عين الجمع من جميع الوجوه.

وقيل: فيه أعلّمه أولًا أنه بمرأى من الحق؛ ليكون متأدّبًا بآداب الحقّ، ومن حُسن أدبه، أنه نظر إلى نحو السماء، ولم يَسأل، وأُجيب على نظره إلى مراده.

﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ أي: نطيِّبك، ونكشف لك قِبْلة عين وجودي، ترضى بها وتؤنسها، ولا يكون لك بعد ذلك طريقًا منها إلى نفسك، ولا جهة منها إلى الكون؛ لأن مرادك مرادي، ومرادي مرادك.

وأيضًا إنّي قبلْتك حيث توجهت، حتى تكون بلا جهة في الكون في طلب وجودي، وقد أدّبه الله بهذا عليه؛ حتى لا يكون له سواه في جميع مُناه.

وقيل: أخبره بعد أن جاء إلى مراده، إن مرادك لم يخالف من مرادنا؛ لأن إرادتنا فيك تقلُّبك إلى الكعبة، وإثباتك عليها، وجعلنا قِبْلةً لك، ولأمتك قبلة؛ لتعلم أن رضاك لا يخالف رضانا أبدًا. ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: فولِّ وجهك نحو المراقبة إلى صدرك؛ لأنه مسجد أنوار الحقائق، وهو ممتنع عن الوسواس، وغبار العلائق، وفيه القلب، وهو كعبة الأنس، وفي تلك الكعبة آيات بيّنات مقامي، وفي الآيات آثاري، وفي الآثار آثار صفاتي.

وأيضًا فَوِّل وجهك الظاهر نحو الكعبة؛ حتى تراني ملبسًا بلباس الآيات، فعينك الظاهر للآيات، وعينك الباطن للصفات.

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ

وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

وقال بعض العراقيين: ترسم معهم برسم الظاهر نحو الكعبة في استقبال الكعبة ببدنك، ولا تقطع قلبك عن مشاهدتنا؛ فإنّا جعلنا الكعبة قِبْلة بدنك، ونحن قِبْلة قلبك.

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ أي: لا تقولوا، ولا تظنّوا لمن يُقتل في سبيل العشق بسيف الشوق أموات؛ بل أحياء بعد فنائه عن حياة الإنسانية بحياة الربّانيّة، ﴿وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ﴾؛ لأنكم محبوسون بين الوجود والعدم، وهم مخلّدون في بقاء القِدم.

ومَن ذبح نفسه من أربعة مواضع قطع رأس حرصها من الدنيا في مذبح التفرُّد، وقطع رأس أملها من إرادة حياتها ووجودها في مصرع التجريد، وقطع رأس رياستها من الخلق في منجز التوحيد، وقطع رأس ميلها إلى الآخرة في مقتل التحقيق ، ألبس الله تعالى روحه أربعة لباسٍ في أربعة مقام: ألبسها لباس سناء المعرفة في مقام المكاشفة، وألبسها لباس صفاء المحبّة في مقام المشاهدة، وألبسها ضياء الوصلة في مقام القُربة، وألبسها لباس أنوار الأنانية بنعت البسط والسلطنة في مقام المخاطبة، وإذا كان بهذه الصفة، فقد فاز من سكرات المهات، وصار حيًّا ببقاء الصفات.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وقيل: لأنهم مقتولون في الحق، ومن كان مقتولًا فيه كان حيًّا به، ولكن لا تشعرون أي: لا يَعلمه من نظر إلى الجهاد بعين التدبير، ولم ينظر إليه بعين الرضا.

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا﴾ أي: ولكلِّ روحٍ منهاجٌ وقبلةٌ ومعراجٌ في وجود الذّات، وحقيقة الصفات، فعين العيان قِبْلة الأرواح القدسيّة، وصرف الصفات هو قِبلة الأرواح الجلالية، وعين القِدم هو قِبلة الأرواح العزّة، وعين الأبد هو قِبلة الأرواح البقائية، وأنوار المشاهدة هي قبلة الأرواح الشائقة، وحسن الصفات هو قِبلة أرواح المؤانسة، ونفحات بساتين الغيب هي قبلة الأرواح الروحاني، هو موليها أي: تلك الروح الرحمانية هي قاصدة إيّاها بجناح الشوق، مجذوبة

بحبال العشق إلى معدن الألوهية والصمدية، ولكلّ واحدةٍ منها مطلع ومنبع، فبعضها والهات، وبعضها عاشقات، وبعضها مؤنسات، وبعضها فانيات، وبعضها باقيات، وبعضها صاحيات، وبعضها ساكرات من هول المقامات، وكشف المشاهدات، وبروز المعاينات، وإدراك المغيّبات، فاستبقوا الخيرات، خاطب بهذا أهل الاستقامة أي: سارعوا صرف الأنانية، فإنه أعلى الدرجات؛ لأنهن أعني أرواح أهل الوسائط في جلّي الإرادات، وأنتم أهل النهايات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعاً أي: أرواح خواص أهل المعرفة، والأرواح السائرة في ميادين الأزلية، يأتي بهنَّ الله جميعًا؛ بعد محو الإرادات، واضمحلال الرسومات في سرادق البقاء، ويُسقي كل روحٍ من الأرواح بكأس الصفاء شراب الوصال، ويكشف لها جمال الحقّ؛ حتى يكونوا هنالك جميعًا في عموم العطاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾: قادرٌ على أن ينشق أرواح السابقين والمتصدين روائح عبهر الأنانية، ونسيم ورد الوحدانية في مقام الاستقامة، ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾ أي: فاذكروني بلسان الأسرار أذكركم بكشف الأنوار، واشكروا بخالص العبودية، ولا تكفروني بإدراك المعرفة، وأيضًا فاذكروني بالإعراض عن الكون أذكركم بارتفاع البون، واشكر لي ببذل الأشباح، ولا تكفروني بتعذيب الأرواح، وأيضًا فاذكروني في زمان الغفلة أذكركم بإنزال الرحمة، واشكروا لي بقصد القربة، ولا تكفروني بمساوئ البشرية، وأيضًا فاذكروني برؤية ذكري لكم في الأزل قبل ذكركم لي، أذكر نفسي لكم كما ينبغي لي؛ لأنكم لا تطيقون أن تذكروني بحقيقة الذات والصفات، وكيف يذكر الحدث صفات القدم، والألسنة عن وصف ثنائه خرسة، والعيون عن إدراك جماله منطمسة، والأسرار عن البلوغ إلى كنه عظمته فانية، واشكر لي بتعريف العجز عن أداء الشكر، ولا تكفروني برؤية ذكركم لي؛ لأن ذكركم لي واجب خفي كفركم.

وقال الواسطي: حقيقة الذكر الإعراض عن الذكر ونسيانه والقيام بالمذكور.

وقال بعض العراقيين في قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ قال: سريع الحق يحتمل به الموارد، وهو ذكره إياك، ولولا ذكره إياك ما ذكرته.

وقيل: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ﴾ بجهدكم وطاقتكم لأقرن ذكركم بذكري، فيتحقق لكم الذكر، يسمّون حقيقة الذكر أن ينسى كل شيء سوى مذكوره، لاستغراقه فيه فتكون أوقاته كلها ذكرًا. وأنشد:

لا لِأَني أَنْـــساكَ أُكثِـــر ذِكــــرا ك وَلَكـــن بِـــذاكَ يَجْـــري لِـــساني

وقال بعض البغداديين: الذكر عقوبة؛ لأنّه طرد الغفلة، وما لم تكن غفلة فما معنى

الذكر.

وقال بعض المتأخرين من أهل خراسان: كيف يذكر الحق بعقول مصنوعة أوهام مطبوعة؟ وكيف يذكر بالزمان مَنْ كان قبل الزمان على ما هو به؟ إذ الحق سبق كل مذكور.

وقيل: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ على الدوام ليطمئن قلوبكم بي؛ لأنه يقول: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وقال بعضهم: أتم الذكر أن تشهد ذكر المذكور لك بدوام ذكرك، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾.

قال ابن عطاء: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ من حيث أنا، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ من حيث أنا، ولا تذكروني من حيث أنتم فينقطع دوني ذكركم. وقال بعضهم: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بتوحيدي، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بلقائي، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بطاعتي ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالدرجات، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالتوبة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمحبة، و﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالنعمة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بالمزيد عندكم، ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ في أفراحكم، ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ في همومكم.

وقال بعضهم: إن الذاكرين على مراتب، قوم ذكروا الله بألسنة ناطقة، وقلوب عارفة حتى وجدوا حلاوة الذكر، وقوم ذكروا الله بأفعال مخلصة، وطاعات مرضية حتى نسوا أنفسهم لوصولهم إلى ما طارت إليه قلوبهم، وقوم ذكروا الله بحالاتهم حتى وقفوا في بحار الحياء؛ لأنهم نظروا إلى ذكر المولى إياهم في الأزل، وبقاء ذكره عليهم إلى الأبد، فوجدوا ذكرهم بين ذكرين عظيمين، فذابوا حياءً، فصار الذكر عندهم هباء[1].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾.

والخوف هاهنا على سبعة أقسام: خوف من النفس، وخوف من الشطيان، وخوف من الكفار، وخوف من النار، وخوف من الفراق والقطيعة، وخوف الحجاب، وخوف التعظيم والإجلال لي، فهي ثمرات أشجار المقامات، والحالات السنية، والكرامات العالية، وهذه

---

(١) قال الشيخ حقي: (أذكركم) بالثواب واللطف والإحسان وإفاضة الخير وفتح أبواب السعادات وأطلق على هذا المعنى الذكر الذي هو إدراك مسبوق بالنسيان والله تعالى منزه عن النسيان بطريق المجاز والمشاكلة لوقوعه في صحبة ذكر العبد، (واشكروا لي) على ما أنعمت عليكم من النعم والذكر بالطاعة هو الشكر.

كلها بليات أولياء الله في سير أسرارهم في ميادين الوحدانية، وبيداء الأزلية، امتحنهم بهذه الصفات ليظهر صدق إرادتهم في طلب مشاهدة الحق ﷻ، وينفخ بهذه نيران أشواقهم، وبرياح الجذبة، ونسيم الوصلة حتى يحترقوا بها في طب مبتغاهم بنعت الفناء؛ لأن من شرط حقيقة القربة احتراق أرواح السابقين والمقتصدين في أنوار جلال المشاهدة.

﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بحصول مقصودهم من بعد خروجهم عن امتحاني، ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ﴾ من هذه المصيبات فروا من قهري إلى حجر لطفي، وسلموا أنفسهم إليَّ حتى أفعل بهم ما أشاء، وهذا قوله تعالى حاكيًا عن خواص عباده: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

قال الشافعي ﷺ: الخوف خوف العدو، والجوع شهر رمضان، ونقص الأموال الزكاة، والأنفس الأمراض، والثمرات الصدقات، وبشر الصابرين على أدائها.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ﴾ عليهم بركات أنوار مشاهدة الحق تعالى، و﴿رَحۡمَةٞ﴾ يعني رفع الامتحان عنهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ إلى مقام الأمن بعد غيبوبتهم في صرف نور القدس، وصفاء حجال الأنس.

﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾ وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ الصفا والمروة مخصوصان بأنوار التجلي لقوله ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلى من ساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، وهما ملتبسان بصفاء إشراق شمس العزّة، ومَنْ صعد إليهما فينبغي أن يرى فيهما ضياء لباس القدرة مستغرقًا في نور المشاهدة، وتقدس بنظره إليهما عن كدورات البشرية، ويظهر فيه الأخلاق المحمودة بنعت صفاء المعرفة، وأيضًا ذكر الصفا والمروة إشارة إلى سرادق الملكوت والجبروت؛ لأن الصفا والمروة حجابان لمكة، ومكة حجاب الحرم، والحرم حجاب البيت،

(١) ذكره القرطبي في تفسيره (١٣/ ١٥٩).

هكذا سرادق الحضرة، وأيضًا جبل الصفا مصعد العارفين لأجل تصفية الأرواح بنور المعرفة طلبًا المشاهدة، وجبل المروة مدرج الزاهدين لتزكية الأشباح بمدامع الندم، سعيًا في طلب معاملة الآخرة، وطمعًا للجزاء والمثوبة، وأيضًا الصفا إشارة إلى الأزل، والمروة إشارة إلى الأبد؛ لأنهما من شعائر الله تعالى، وأيضًا الصفا هو الروح، والمروة هي القلب.

وقيل: إن مَنْ صعد الصفا، ولم يصف سره لله لم يتبيَّن عليه من شعائر الحج شيء، ومَنْ صعد المروة، ولم يتراءى له حقائق المغيبات لم يظهر له من شعائر الحق شيء.

وقيل: إن الصفا موضع المصافاة مع الحق، مَنْ لم يجرد لمصافاة الحق معه؛ فليعلم تضييع أيامه، وسعيه في حجه.

وروى الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي -رحمه الله- أنه قال: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت أبا القاسم يقول: سمعت أبا جعفر يقول: عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر قال: الصفا الروح لصفائها عن درن المخالفات، والمروة النفس لاستعمالها المروة في القيام بخدمة سيدها، وقال: الصفا صفا المعرفة، والمروة مروة العارف.

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾

أي: إن في إبداع السماوات والأرض كشوف نور الصفات في نور الأفعال، فظهور نور الأفعال في مسرح الآيات، وأيضًا السماء إشارة إلى الرأس، والأرض إشارة إلى الصورة، وأيضًا السماء إشارة إلى الروح، والأرض إشارة إلى القلب، وقوله: ﴿وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي: في نقصانها وزيادتها وذهابها ومجيئها اعتبار بطلوع شمس المعرفة من مشرق القربة، وغروبها في مغرب النكرة في وقت الغيبة عن المشاهدة، وظهور ظلم ليالي الهجر في ذهاب نور الوصل، وزوالها بإشراق أنوار تجلّي الحق في قلوب أهل المحبة، وأيضًا أي: اعتبروا بهما في مواجيد الأحوال، واستقرارها فيكم، وفقدانها في وقت انقباضكم عن رؤية البسط والانبساط.

﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: العارفين في جريان القلب في بحار القدم والأبد، وموج بحر الصفات لطلب دار المعرفة من قعر بحر الذات بمنافع المريدين رؤية الصفات الجبروتية في الآيات الملكوتية.

﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، ولهم أيضًا في تفكر إنزال الله تعالى من سماء القربة مزن رشاش المشاهدة، وإحيائه القلب الميت من فقد نيل القربة، ورؤية خصائص المنة.

﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ وأيضًا لهم في إدراك التفرق وشتات سيارات عالم الملكوت في قلوبهم لطائف الخطاب.

﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: لهم في رؤية تصريف الرياح، وتسخير السحاب بين السماء والأرض وجدان تصريف رياح المنَّة، وتسخير سحاب الشفقة بين نور الروح ونار القلب، إذا كان الرياح تحرك السحاب وتعصرها حتى تمطر قطرات مياه الخطاب على نيران القلب ليسكن بها ساعة عن الإحراق بالتهاب نار الوجد، ﴿لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لأولي النهي علامات صفات القدرة بإدراك بصائرهم الحكمة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾.

الأنداد تقع على كل شيء بمنع العبد عن خدمة سيده، من جملتها النفس والهوى، كما قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:٤٣]، ومنها الخلق لأجل الرئاسة، ومنها الدنيا والشيطان.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾؛ لأنهم لا يذوقون طعم معرفة الله، ولذة محبته، ولا يرون نور مشاهدته وحقائق وصله وقربه، ومع ذلك محبتهم للخلق محبة معلولة، لأنهم لو لم يجدوا منهم أمواهم يفرون منهم فرار الزحف.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ لأن أهل الإيمان والتوحيد سمعوا خطاب قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، بالسمع الخاص في سابق الدهر، ورأوا مشاهدة جلاله قبل وقوع البلايا، فيبقى في قلوبهم لذة المشاهدة والخطاب، فيجدون مرارة بلائه، وغصص امتحانه، يقبلون منه ببذل نفوسهم، وترك حظوظهم، والوفاء بصدق عقودهم في أمر محبوبهم.

وقال القاسم: ومَنْ أخرجناهم من جملة الخطاب الخاص مخاطبة الإيمان أقوام يتخذون أهواءهم آلهة يعبدونها ويحبونها، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ منهم لأهوائهم؛ لأنهم يرون البلاء من الله نعمة، ولا يحجزهم عن محبتهم لربهم ترادف المحن عليهم، بل يزيدهم بذلك محبة له؛ فلذلك قال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

وقال الشبلي: مَنْ ادَّعى محبة الله تعالى، ونسي ذكره طرفة عين، فهو المستهزئ والمفتري على الله، ويصنع به ما يصنع بالمفتري.

وقال جعفر الصادق في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ قال: يباهي الله على خلقه بمحبته للمؤمنين له، ويشير أن المحبة أخصُّ ما يتعبد له المتعبدون.

وقال ابن عطاء: أحبوا الله بحب الله، وحب الله حب باقٍ، فصار حبهم باقيًا ببقاء حب الله تعالى.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُولَـٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾ ۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُولَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا

ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

الطيبات ما قسم لأهل الإيمان في سابق علم الأزل بنعت الرضا من معاشهم الذي لا يذم تناولها نفس العلم بحال، وهو ما يتفرسه المؤمن بنور الإيمان قبل وقوعه في أوان الحاجة، وأيضًا الطيبات التي تهيج المؤمن إلى ما يرضاه الله من المعاملات السنية، والأخلاق المحمودة، وترك مألوفات النفس، ومتابعة الشهوة، وأيضًا الطيبات ما يحصل من الغيب بلا تصنيع الآدميين؛ لأن ما فيه تصنيع البشر لا يخلوا من المعاملات، وأيضًا الطيبات ما لم تؤكل بالشهوة وثورته الحكمة والعبادة، والطيبات أيضًا ما يؤكل بالسنة، ولا يؤكل بالبدعة، وأيضًا الطيبات إشارة إلى ذكر الحق إذا لم يشب بذكر الخلق، وهو رؤية المذكور بنعت طيران الأرواح بقوة المواجيد في بساتين الصفات.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: طيبات الرزق هو التناول في أوقات الاضطرار مقدار استبقاء المهجة لأداء الفرائض، وهو الذي لا تبعة في أكله بحال.

﴿وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي: اشكروا الله بمعرفتكم على المشكور إن كنتم تعبدونه بشرط المعرفة؛ لأن العبودية لا تصح إلا بالمعرفة، وهو إغراء من الله تعالى، وتنبيه للمعاندين ليعرفوا أن الشكر لا ينبغي إلا لِمَنْ خلق ورزق وأمات وأحيا، وقرن هاهنا العبادة بشكر النعمة لتعريف المُنعَم عليه أن يشكر نعمته أداء عبادته على شرط معرفته.

﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ أي: مَنْ سار في بيداء الحقيقة بنعت سباحة الروح الناطقة في بحار الأزلية عند بدو إرادة المعرفة، واحترق جسم نفسه الأمّارة في نيران المحبة، ويخاف أن يتلاشى في سطوات بسط العظمة، فيجوز له بعد اضطراره، وهذه الصفة في مهمة الوحدانية أن يتناول من حطام الدنيوية لبقاء الصورة، لا جرم على العارف ما دام في مقام العبودية، وعجز البشرية أن يستأنس بمستحسنات المحدثات ملتفتًا بنعت اقتباس أنوار الألوهية من عالم الشواهد.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ ساتر تهمة الحدثية بنور الأزلية لأهل المعرفة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم بأن يخرجهم من ظلمات الإنسانية إلى نور الصمدية.

﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾ أي: الموفون بعهد الأزل بترك المعارضة في

العبودية، والإعراض عما سوى الحق في مقام المعرفة.

وقال بعضهم: الوفاء بالعهد لزوم الحدود، والرضا بالموجود، والصبر عن المفقود.

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ أي: الصابرين في دفع صولة صدمات النفوس عند معارضتها كشوف الحقائق، وخرِّها عند إلقاء الخطرات في ديوان المكاشفات بنعت ترغيبها وترهيبها، وعند تطرق طوارقات القهر أبواب خزائن القلب لتشددها بحثالة عوارض البشرية، والسكون في دفع الخطرات صبرًا، خُصَّ به الصادقون في طلب مرضاة الحق عند نزول حجار البليات من منجنيق الامتحان.

﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾[1] أي: لكم في قتل النفوس بعد خروجها على القلوب اقتصاصًا حياة أرواح المقدسة، فإذا شرعتم في أخذ ديات جنايات النفوس تفوزون من مهلكات القهر.

قال الجنيد: للصابرين ثلاث علامات تعرف في نفسه، الأول: ضبط نفسه عند وجود النفس حظها، والثاني: الدخول في الطاعات عند مطالبة النفس بالتخلف والكسل، والثالث: سكون القلب عند نزول الحكم.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ

---

(١) أي في هذا الجنس من الحكم الذي هو القصاص حياة عظيمة لأنهم كانوا يقتلون بالواحد الجماعة كما قتل مهلهل بن ربيعة بأخيه كليب حتى كاد يفنى بكر بن وائل وكان يقتل بالمقتول غير قاتله فتثور الفتنة ويقع فيها بينهم التشاجر والهرج والمرج وارتفاع الأمن فلما جاء الإسلام بشرع القصاص كانت فيه أي حياة لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل إذا قتل لا يقدم على القتل وإذا قتل فقتل ارتدع غيره فكان القصاص سبب حياة نفسين أو أكثر وهو كلام في غاية الفصاحة والبلاغة من حيث جعل الشيء محل ضده فإن ضدية شيء لآخر تستلزم أن يكون تحقق أحدهما رافعا للآخر والقصاص لاستلزامه ارتفاع الحياة ضد لها وقد جعل ظرفا لها تشبيها له بالظرف الحقيقي من حيث إن المظروف إذا حواه الظرف لا يصيبه ما يخل به ويفسده ولا هو يتفرق ويتلاشى بنفسه كذلك القصاص يحمي الحياة من الآفات فكان من هذا الوجه بمنزلة الظرف لها ولا شك فيه إذ جعل الضد حاميا لضده اعتبار لطيف في غاية الحسن والغرابة التي هي من نكات البلاغة وطرقها (يا أولى الألباب) أي ذي العقول الخالصة من شوب الأوهام ناداهم للتأمل في حكمة القصاص من استبقاء الأرواح وحفظ النفوس.

عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾.

هذا نداء لأصحاب القلوب، وخطاب مع طلاب هلال المشاهدة في أقطار سماوات الغيوب، أي: يا أهل اليقين فرض عليكم الإمساك عن الكون أصلاً؛ لأنكم في طلب المشاهدة، فواجب أن تصوموا عن مألوفات الطبيعة في مقام العبودية، كما كتب على المرسلين والنبيين والعارفين والمحبين من قبلكم لكي تتخلصوا من رجس البشرية، وتصلوا مقام الأمن والقربة.

﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ وهي أيام زمان الدنيا، يغري بهذا الخطاب أولياءه بترك المطايبة والمناكحة والمباشرة والمؤانسة والملاعبة، ولذائذ العيش في أكل ألوان الشهوات، وشرب مياه الباردات، ولبس الناعمات، أي: اصبروا يا أوليائي عن شهوات الدنيا، فإنها أيام ستنقرض عن قريب حتى تفطروا بلقائي القديم، وتعيشوا في جواري الكريم.

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ أي: مَنْ يكون من المنقطعين مريضًا من فرقتي أو في سفر الوحشة عن وصلتي، فعليه تدارك أيام القدرة بعد إدراكه مقام القبة والمشاهدة.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ ﴾ أي: وعلى الذين يطيقونه الإمساك عن الكون بنعت الزهد عن الدنيا أيام حياته، ولم يعمل عمل أهل الطاعة لقلّة توفيقه وهدايته فدية، وهو خدمة أولياء الله ببذل النفس والمال مِنْ الذين تركوا الدنيا لأهلها، وذلك قوله تعالى: ﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ والمساكين الذين صادقوا التلوين، ولم يبلغوا مقام التمكين.

﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ﴾ أي: فمَنْ تعدى لعجزه عن حقيقة المعاملة زيادة على الواجب الذي عليه من الموجود بعد مقاساته في المفقود؛ فهو خيرٌ له من طلب الرخص.

﴿وَأَن تَصُومُوا۟﴾ أي: أن تمسكوا عما يشتغل به أهل الدنيا، ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ في ثبات حالكم، وقوة إرادتكم.

﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: إن كنتم تعرفون ما للصائمين من الفرح فرحة في الدنيا بالمكاشفة، وفرحة في الآخرة بصرف المشاهدة.

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ

عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

شهر فيه احتراق أكباد أهل العيان من شوق مشاهدة الرحمن، لذلك أُنزل فيه القرآن لرقة قلوب المخاطبين من نيران المجاهدات، وكشف أنوار المشاهدة.

قيل: أُنزل لفضله وتخصيصه من بين الشهور، وافتراض الصوم فيه، واستنان القيام في لياليه بالقرآن.

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي: مَنْ حضر فيه مقام الطلب؛ فليفطم نفسه عن رضاع الطبيعة لمقام الطرب، وأيضًا ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ عن الشراب والطعام، ومَنْ شهدني؛ فليصمه عن المخالفات والآثام.

قال الواسطي: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ومَنْ شهدني وشاهد أمري؛ فليصم أوقاته كلها عن المخالفات، ومَنْ شهد الشهر على رؤية التعظيم؛ فليمسك فيه عن اللغو واللهو، ومَنْ شهد على رؤية فعله وصومه؛ فليس لله حاجة في ترك طعامه وشرابه، وهو كما أخبر النبي ﷺ: «رب صائم حظه من الصيام الجوع»[1].

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ أي: إذا سألك أهل محبتي وتوحيدي عن دنوي منهم؛ فإني قريب منهم إليهم، وأنا مباشر أسرار حبهم فؤادهم بصفة الخاص، فانجلي بنفسي من نفوسهم لنفوسهم؛ لأن ظهوري للعموم، وإن لم يروني إلا أهل الخصوص، وفي ضمن الآية إشارة إلى تنزيه الحق عن البينية والأبنية؛ لأنهم أشاروا إلى قرب البين، وبعد الأين؛ فقال تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ من عبادي بلا أين، وبلا بين.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٣٧٣)، وابن ماجه (١/ ٥٣٩)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٣٩).

﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ أي: إني أجيب دعوة المخلصين إذا دعوني من قعر قلوبهم بلسان أسرارهم، وإن لم يعلموا إجابتي لهم.

﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾ إذا أدعوهم بأصوات الوصلة عند خطرات كلماتي في قلوبهم إلى مائدة مشاهدتي في زوايا صدورهم بنعت إعراضهم عن غيري.

﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ أي: ليوقنوا فيما كشف لهم من أسرار ملكوتي، وأنوار جبروتي، ولا يسمعوا حديث العدد.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ إلى مقام طمأنينة وحقائق التمكين بشرط المعرفة.

قال الشبلي: إذا وجد الحق للعبد لذاذة قربه ارتضاه لنفسه، وتولى سياسة لنفسه، وأدَّبه بأخلاقه، وأعطاه ثلاثة من أوصاف ذاته: حياة لا موت فيها، وقدرة لا يزول بعجز، وملكًا في جوار الملك، فذلك قوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ﴾.

وقال ابن عطاء في هذه الآية: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ قال: أضاف عباده إليه إضافة خصوصية لا إضافة ملك، كأنه يريد إذا سألك الخواص من عبادي عني فأخبرهم بأني قريب.

وقال بعضهم: إذا سألك المشتاقون من عبادي عني، فأخبرهم إني أقرب إليهم من كل قريب، وأنا عند ظنونهم بي.

وقال رويم: القرب إزالة كل معترض.

وقال الجنيد، وسُئِلَ عن قرب الله من العبد؛ فقال: هو قريبٌ لا بالاجتماع، بعيد لا بالافتراق، وقال: القرب يورث الحياء.

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾ بترك مجاهدتها، وتعليمها أسرار الأدب، والوقوف على مرادها، واستماع كلامها على شرط التقبل منها، والصبر على انطلاقها عن رق العبودية، واقتحامها في نيران الشهوة.

وقال ابن عطاء: خيانة النفس الوقوف معها حيث ما وقعت.

﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: إذا عكفتم في مساجد القربة لطلب المشاهدة، فلا تميلوا إلى حظوظ البشرية، وهذا من أحسن الأدب، ورد من الله تعالى أدب به أولياءه في مجالستهم حضرته، وأيضًا الاعتكاف وقوف الأرواح على بساط الفردانية لاشتغالها عن الحدوثية بنعت فنائها في أنوار الأزلية.

وقال الواسطي: الاعتكاف حبس النفس، وذم الجوارح، ومراعاة الوقت، ثم أينما كنت، وأنت معتكف.

وقال بعضهم: أهل الصفوة معتكفون بأسرارهم عند الحي لا يؤثر عليهم من جريان الحوادث شيء لاستغراقهم في المشاهدة.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي: فلا تقربوا حدود الحقائق إلا بشرط آدابها بنعت المعرفة، وحسن حقيقة الأدب، وأيضًا رشح الحق أحكام الربوبية حدود في مقام العبودية، ليحجز العباد بها عن هتك أستار القربة؛ لأن في بداية الحدود أسرار العبودية، وفي نهايتها أسرار الربوبية، منع الخلق بها عن الاطلاع على أسرار الأزلية لبقاء الأحكام والشرعية ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أظهر سر القدم بوصف الجبروت في النعوت والآيات، لعل عباده يبصرون بسط سطوات عظمته، ويخافون من عقوبته، ويتركون أوصاف البشرية في ديوان الحقيقة.

﴿۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

أي: يسألونك طور أطيار بساتين الغيب عن نقصان هلال المشاهدة عند الفترة، وزيادتها عند الكشوف بنعت تجلّي الأسرار؛ لأنهم إذا غابوا في أوصاف أحكام العبودية احتجبوا بها عن رؤية مشهود الغيب، وإذا خرجوا من وطنات أزمة الابتلاء، رأوا في سماء اليقين نواد أنوار أقمار الصفات، فتاهوا عند ذهاب عقولهم في مجلس الخاص تحت حضيض سوانح الكبراء، وطاشوا في هوب البليات من تراكم سحاب الوجد عند تدريها مزن الشوق، فتحيروا بين المنزلين، واستفتوا من أشرف خلق الله حسام حكم الله رئيس البرية محمد ﷺ عن مرسوم هذه الأوصاف كي يخلصوا عن أركان الشواهد بعد جمع الجمع في قلوبهم، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ وقال: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ أي: هٰذه الأحوال المتشتتة في كشوف عز السرمدية وذات الأبدية عيانًا وغيبًا لمواقيت الأرواح في طيرانها إلى أعلى المقامات على ترتيبها، وظهور أوقات المواجيد، وقصورها إلى عالم الصفات، لشق الله تعالى كشف القربة على قدر شوق الشائقين حتى علموا أحكام العبودية في الربوبية، والربوبية في العبودية على قدر بدء الأحوال، وكشف الصفات؛ لأن العارف محتاج إلى حقيقة علم الأحوال والآداب فيها ليستعملها بقدر وجدان أنوار القربة، وصفات المشاهدة.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ

شَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَـٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَـٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَـٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾﴾.

أمر الله تعالى أهل عرفان الحقيقة بقتال النفس على السرمدية، وقطع بنية دواعي البشرية لسلامة صدورهم عند اجتماع همومهم بين يديه، وترك تجاوز الحد بإهمالها، والوقوف على حظوظها.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾[1] أي: حاربوا أنفسكم على دوام الرعاية لأوقاتكم بنعت تصفية أحوالكم عن دنس الطبيعة، وخبث الجبلة، وإزالة أوصاف البشرية حتى لا يكون وقوع خطرات العدو في ديوان الأسرار يعني صدور الصافية، وقلوب النقية المنورة بنور الأحدية، ويكون بعد جمع الهم أسراركم وطنات مكاشفات القربة، وحقائق الإيمان تستولي على بواطن حقيقة النفوس بنعت انفراد الأسرار بين يدي العزيز الغفار.

﴿وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ الإنفاق على ثلاثة أحوال: نفقة الزاهدين، ونفقة المحبين، ونفقة العارفين، أما نفقة الزاهدين بترك جميع الدنيا مع لذاتها لأهلها حتى استمتع بها الأنام، وبذل نفوسهم لله في أيام الله، وأما نفقة المحبين فإعطاء ما نالوا من الحق لأهل الحق، وأما نفقه العارفين فبذل الأرواح في مقام الفناء من وجدان غيرة الحق في أسرارهم، أمرهم الله تعالى بالإعراض عن الكون مع استطابة أحوالهم بلذائذ المحبة، والدخول في مقام الإحسان؛ لأن الإحسان أعلى المراتب من رتبة أهل المشاهدة؛ أعلمهم الله تعالى ألا ينالوا حقيقة المشاهدة إلا ببذل حياتهم لأهل خالصة الحق، وأخبر أن مقام الإحسان مقرون بالمحبة، لأجل ذلك قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، ومَنْ فاته الإحسان احتجب عن المشاهدة، وهلك في قبضة بطش النفس متحيرًا في هاوية هواها مصروعًا في ورطة هوساتها.

---

(١) أي: حتى لا يوجد منهم شرك، فهو كقوله ﷺ: «أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إله إلاَّ الله». (ويكون الدين كلُّه لله) بحيث تضمحل الأديان الباطلة ويظهر الدين الحق.

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ (٢٠٠)﴾.

أوجب الحق سبحانه على قدر أهل الحقيقة إتمام مقاصدهم إلى بساط القربة بأن يتجردوا عن الكائنات في توجههم إلى مزار القدم، وأن يخرجوا من الحوادث بنعت التفريد والتجريد طلبًا بفنائهم بقاءه في تحقيق التوحيد، وأن يغتسلوا من شوائب البشرية، وأوساخ الطبيعة في أنهار المعرفة، وأن يلبسوا إحرام العبودية لقصدهم عرفان الربوبية، ويتموا إجابة الحق بأدائهم ما افترض عليهم من بذل النفوس في العبودية والأرواح في سلطة الربوبية، لتقترن إجابة الظاهر بإجابة الباطن؛ لأنهم أجابوا الحق في بدء أمرهم؛ إذ قالوا: بلى، فيستدعي الله عنهم إتمام ميثاق الأول، ويذكرهم عهد الأول من تعريف نفسه إليهم ليتأهبوا في أمر الظاهر إتمام حقيقة الإجابة، بأن يقولوا: لبيك، فالحج لأهل التمكين، والعمرة لأهل التلوين، وإتمام الحج البلوغ إلى رؤية الربوبية، وإتمام العمرة الوصول إلى حقيقة العبودية. قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ أي: اصبروا في إتمامها لله حتى تجدوا مأمولكم في الله.

﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ أي: إن منعتم أوصاف البشرية عن الطيران في هواء الحقيقة، وحبستكم حجب الابتلاء في أشجار الطبيعة، فلا تميلوا عن حقيقة الطريقة، والشروع في طلب المشاهدة، وابذلوا أنفسكم هديًا لله ليرشدكم لشفقته عليكم إلى أوطان المشاهدات، ويبلغكم حقيقة القربات، وأيضًا فإن حبستكم غيرة الحق عن الوصول إليه لسبب ما، فتحللوا من قتل

نفوسكم حيث أوقفكم، واشتغلوا بالعبودية عن الربوبية؛ لأن في غيرة الحق إشارات تمنع أولياء الله عن السير في قُربة الحق، وذلك بأن القلوب إذا مرضت وسقمت عن الجهد في طلب الحقيقة، وسكنت بحظوظ البشرية، فأثابها الله بالإحصار في وطنات الطبيعة.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَـٰتٌ﴾(١) بيّن الله تعالى مواقيت العبادة لئلا يسأموا عباده عن خدمته، ويقعوا بفتورهم في مقته، وأيضًا حتى يسكن أهل المعرفة عن أثقال العبودية في بسطهم برؤية الربوبية، وانتقالهم بمشاهدة الرحمن عن زحمة الامتحان، ووقت الحق لأهل خالصة في سلوكهم، وإتيانهم لبساط القربة أحانين الصفاء والوفاء والطمأنينة واليقين، وجمع لهم ليعرفوا أن القصد لا يتهيأ إلى بساطه إلا في هذه الأوقات المعلومة.

قال النصرآبادي: وقّت الله العبادات بأوقات ليتأهب للعبد لها قبل أوانها بأدائه الطهارة، ولم يوقت المعرفة لئلا يتخلى العبد عن مراقبة المشاهدة بحال.

﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ أي: اجتنبوا على الالتفات إلى غيري في استقبالكم إليّ فإني زادكم في جميع الأحوال، ولا تحتاجون أحداً سواي، وأيضًا إذا أردتم أن تقطعوا أقفار الديمومية وفلوات الأزلية، فتزودوا على مراكب القلوب نور الأنانية لأرواح العاشقة في سير النيوب، وخافوا عن فقدي، فإن خير الزاد في طلب وصلي الافتقار إليّ مخافة فقدان قربى، ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾؛ لأنكم أهل الخصوص بأنوار العقول فمَنْ يعقلني بنعت العظمة لا تسكن روعته في دار امتحاني .

وقيل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ هو خطاب للخاص؛ لأنه لا زاد للعارف سوى معروفة، ولا للمحب سوى محبوبه.

وأنشدوا:

إذا نحن أدلجنا فأنت أمامنا ... كفى بمطايانا بلقياك هاديًا

﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ قال الواسطي: عاقبهم لأنه أحبهم.

وقيل: أقبلوا عليَّ يا أصحاب الفهوم السليمة، وأعقلوا عني.

وقال أيضًا: هم من الخصوص، ولم تجعل للعموم فيهم طريقًا.

---

(١) كما أن الحج بالنفوس أَشْهُرٌ معلومات لا ينعقد الإحرام به إلا فيها، ولا يجوز فعل الحج في جميع السَّنَةِ إلا في وقت مخصوص، من فاته ذلك الوقت فاته الحج - فكذلك حج القلوب له أوقات معلومة لا يصح إلا فيها، وهي أيام الشباب؛ فمن لم تكن له إرادة في حال شبابه فليست له وصلة في حال مشيبه، وكذلك من فاته وقت قصده وحال إرادته فلا يصلح إلا للعبادة التي آخرها الجنة، فأما الإرادة التي آخرها الوصلة. تفسير القشيري (١/ ١٨٩).

﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ أي: اذكروه بلسان عرفان نعمة تعريف نفسه لكم، كما هداكم إلى معرفته وخصائص قربته، ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ أي: إذا بلغتم مقام مشاهدة المذكور بعد احتراقكم بأنوار ذكره، اشتغلوا بما يشتغل العوام من رسم العبادات؛ لكي لا تفنوا في بحار الوجد ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللهَ﴾ من فترتكم عن الأحوال واشتغالكم بالأعمال ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ تقصيركم فيما وجب عليكم حق معرفته ﴿رَّحِيمٌ﴾ عليكم بأن يردكم إلى حالاتكم ومقاماتكم.

قال ابن عطاء: إذا عمرتم بواطنكم بذكري، واستفرغتم الوسع فيه؛ فارجعوا إلى ما رجع إليه العوام من القيام برسوم العبودية، واستغفروا عن اشتغالكم بغيره، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ للمطيعين تقصيرهم في طاعاتهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالعاصين أن يردهم برحمته إلى بابه.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: الإشارة فيه أن لا تعلم نفسك بها تمتاز عن أشكالك في الظاهر لا بلبسه ولا بخرقة وصبغة؛ بل يكون كواحدٍ من الناس، وإذا خطر ببالك أنّك فعلت شيئًا أو بك أو لك أو منك شيء فاستغفر الله عز وجل، وجدد إيمانك فإنّه شِرَك خفي خامر قلبك.

﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي: فاذكروني ذكر مَنْ يعلم في جميع الأحيان أنه ولده أحد؛ لأنه ذكر لا يسقط عن الإنسان أبدًا في حياته، فهكذا ينبغي ذكر خالق الآباء والأمهات، وأيضًا فاذكروني كذكر الطفل أباه في جميع ما أراد؛ لأنه يأوي إليه في جميع مراده، وأنه يعلم أن ليس له ملجأ إلا أبيه، فأدب الله بهذه الآية شرائط المعبودية بنعت الذكر، وأيضًا وبخ الله عباده بذكرهم غير ربهم، وهذا المعنى مبهم على أكثر المفهوم.

وقيل: معناه أنك تذكر إحسان أبيك إليك، فتذكره بذلك أبدء وإحساني إليك أقدم وأكثر، فاذكرني كما تذكر أباك.

وقال بعضهم: اذكروني بالنعماء يرد عليك زوائد الآلاء.

وقال الواسطي: ذكر عارضي، ودعاء عادني، كيف يرجي بركاته أو نماؤه أو زيادته.

سُئل أبو يعقوب المكي كيف نذكر الحق كذكر الأب فقال: أعلم أنه إذا ضربك، فإنه أدبك لحبه لك، وإذا سلبك فأعلم أنه أعطاك بقربه منك، وليس يسعك سوء الظن به لشفقته عليك.

وقال ابن عطاء: يومًا لأصحابه اذكروا الله بألسنتكم حتى لا تتحرك لغيره، واذكروه بقلوبكم حتى لا تتفكروا لغيره، واذكروه بأسراركم حتى تحيى به، واذكروه بأرواحكم حتى

تتعلق روحكم بأنواره.

قال الشبلي: بذكر الله طلع الأكياس عن بساتين الأنس، وبذكر الله فاز الأولياء بجوائز الرحمن، وبذكره هامت قلوب العارفين شوقًا إليه.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

حسنة الدنيا معرفة الله وطلب مرضاته بترك الاشتغال في الدنيا، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ وحسنة الآخرة مشاهدة الله تعالى والاشتغال به عن نعيم الآخرة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: وقنا عذاب الحجاب باحتراقنا في نيران شهوات نعيم الآخرة، وأيضًا حسنة الدنيا اليقين، وحسنة الآخرة الكشف، وأيضًا بحسنة الدنيا المواجيد السرمدية، وحسنة الآخرة الشكر بمشاهدة الحق جل جلاله، وأيضًا حسنة الدنيا الذكر الصافي في خاطر صافٍ على دوام المراقبة بلا غبار الكدورة، وحسنة الآخرة الغيبة عن الذكر بمشاهدة المذكور.

وقيل: حسنة الدنيا الإغراض عنها، وحسنة الآخرة ترك الاشتغال بها، وقنا نيران شهواتها فإن ما شغل عندك فهو مشئوم.

وقال الواسطي: في الدنيا حسنة الغيبة عن كل متظلم من الحق، وفي الآخرة حسنة الغيبة عن رفع الأفعال والرجوع إلى الفضل والرحمة.

وقال ابن عطاء: القناعة بالرزق والرضا بالقضاء.

وقيل: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ محبة، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربة، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ نيران القطيعة والفرقة، ولا ينالون من نار جهنم.

وقيل: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ ذكرك، ﴿وَفِي ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ قربك، ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أن تحرمنا ذكرك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾.

أي: ومن المدَّعين مَنْ يعجبك طاماته ومزخرفاته، وما كان بخلاف خاطره، وأخبر تعالى نبيه ﷺ أن قومًا يأتونك ويتكلفون في دقائق الكلام، ويظهرون خصائص الأحوال والكرامات التي كانوا يسمعونها من أهل المعرفة، ويتوقون في الإشارات والغوامض من العلوم، وهم بمعزل عن حقائقها، هؤلاء فراعنة الضلالة، لسانهم لسان الأنبياء، وقلوبهم قلوب الذئاب؛ لأن الله تعالى سلب نور الإيمان عن قلوبهم، وألبس بسط الكلام ألسنتهم، ليس لهم في مقامات الأصفياء نصيب، ولا لهم في أغصان أشجار معارفهم وكواشفهم نصيب، ولا على قولهم اعتماد، ولا على عهدهم اتكال، صرف الله وجوههم عن قبلة الحقيقة، ومنعهم عن ملاحظة حق الشريعة، وأقفل أبواب قلوبهم بختم الضلالة، وحجبهم عن إدراك أنوار البصيرة حتى ليس في جرابهم من معنى الحقيقة معنى، ولهم في كل محفل من الأباطيل دعوى، فالواجب على السالكين الإعراض عن مجالستهم؛ لأنهم أعداء الله، وأعداء أوليائه حتى سلموا من شؤم مذهبهم، وقبح مقالتهم، وهؤلاء أهل البدع والأهواء، يفتنون هذه الأمة، ويحجزهم عن طريق الحق، وينكرون أهل الإصابة، ويغرون أهل الإرادة، ويصدونهم عن الطريقة، والله يشهد أنهم لكاذبون في دعواهم، يتلذذون في محاوراتهم مع الصديقين بأسوأ المخاطبات، يغري الخلق رونق لباسهم، وزينة هيئتهم، ويجذبون قلوب الناس بحلو كلامهم، واصفرار وجوههم، واقصرار أكمامهم، وانتفاخ أقدامهم، ليضعوا أقدامهم على أعناق الأنام، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري: الإشارة إلى أهل الظاهر الذين لم يساعدهم أنوار البصيرة، فهم مربوطون بأحكام الظاهر، لا لعبرة بهذا الحديث إيمان، ولا لهذه الجملة استبصاره، فالواجب صون الأسرار عنهم.

﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ﴾ فأخبر سبحانه أن هؤلاء القوم إذا خرجوا بزينة الأبرار والأتقياء، لصرف وجوه الناس إليهم، شدوا أوساطهم في جذب الأموال، وجر المنافع حتى فاقوا على الناس كلهم، فإذا خلوا إلى أهل العزة والفتنة، ألقوا بذر الكفر والنفاق والأهواء المختلفة في قلوبهم، وحصدوا زرع الإيمان عن صدور ضعفاء المريدين، وقطعوا وسيلة الألف من بين السالكين في الله، ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ﴾ الإشارة فيه أي إذا كان لا يحب الفساد لا ينصر أهله ويخذلهم في كل مواطن حتى لا يطيقوا أن يطفئوا نور الله بأفواه الضلالة عن سرج قلوب المؤمنين.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِ﴾ أي: إذا قيل لهؤلاء المفسدين المدعين اتقوا الله ولا تظهر خلاف ما تضمرون عن أمر ربهم، واستكبروا وتجبروا وأكثروا فسادهم؛

لأنهم عموا عن رؤية قبائحهم وسواء أفعالهم وهم يظنون أنهم أشرف خلق الله، لذلك لا يقبلون النصيحة، ولا يلتفتون إلى أهل الحقيقة، وإذا أمرهم بمعروف فلا ينتهون لجهلهم على أنفسهم ويحسبون أنهم مهتدون، استولت عليهم حميّة الجاهلية، واغترتهم شقوق الضلالة، ودمرهم كبرهم في مهالك الشقاوة، أعاذنا الله من صحبتهم ورؤيتهم.

﴿فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: حسبهم نيران الغفلات، وظلمة الجهليات؛ لأن مَنْ احتجب بسوء عمله من الله ومن صحبة أوليائه فهو في عذاب الأكبر، حيث لا يرى طرق الرشاد وهو في أقبح المهاد يعني سهاد الكفر التي ترضعه فيها نفس الأمّارة ألبان الشهوة من ثدي الضلالة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾.

أي: أدخلوا في قباب اعتصام الحق بنعت الاستعاذة حتى تصيروا ساكنين تحت مجاري الأقدار، راضين في حقيقة الاختيار، معرضين عن الكائنات، مصرين غيوبات الملكوت، شاهدين بأنوار الجبروت، منقادين لأحكامه، متأهبين لذبح النفوس طالبًا لمرضاته وشوقًا إلى لقائه.

وقيل: السلم هو الرضا بالقضاء.

قال الجنيد - رحمه الله تعالى - قال ابن عطاء: اتباع الأوامر والنواهي.

وقال أبو عثمان: السلم هو الخمود تحت مجاري القدرة لك وعليك.

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴿٢١٤﴾ يَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلۡ مَآ أَنفَقۡتُم مِّنۡ خَيۡرٖ فَلِلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ﴿٢١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾ الإشارة فيه أن مَنْ عرف الحق بنعت الأُلوهية، ورجع من قربه إلى وطنات نفسه، فقد أشرك وعقوبته أن عجبه الحق عن وصله ومشاهدته، ولم يؤمنه غيرة الحق على أسراره ما عاش وإن كان في العبودية طاش.

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ﴾(١) أي: هل ينظرون أهل الغيرة في المحبة إلا إقبال جمال الحق إليهم في لباس المجهول، فإدخالهم في قباب العصمة، وغيبتهم في جلال العصمة، حين أسبل الحق عليهم نقاب الكبرياء حتى يتجلَّى بمشاهدة الخاص؛ لأنهم أهل الغيرة، فسترهم بغيم النكرة، وشوّق لهم بنور الصمدية وجلال الأبدية، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي: قضي ما سبق لهم من العناية الخاصة، والمنن الأزلية.

وقال جعفر: هل ينظرون إلا إقبال الله عليهم بالعصمة والتوفيق، فيكشف عنهم أستار الغفلة، فيشهدون برَّه ولطفه؛ بل يشاهدون البار اللطيف، ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾.

قيل: وصلوا إلى ما سبق لهم في الأزل من إحدى المنزلتين.

وقال جعفر: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ وكشف عن حقيقة الأمر ومغيبه.

﴿سَلۡ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖ﴾ وبخ الله تعالى قومًا من المستدرجين الذين لم يشكروا الله تعالى فيما نالوا منه من خصائص المقامات والكرامات ورؤية حقائق الآيات بأداء الصدق والإنصاف مع أهل القصة من الأنبياء والأولياء من استشارهم رئاسة الخلق على مرافقة الحق، وإنكارهم على أوليائه، وتغيرهم أمانة الله تعالى التي خصَّ الله بها خواص عباده، باعوا اليقين بالوهم، والعزيمة بالوهن، فمسخ الله قلوبهم طمسًا بذهاب نورها حتى بقوا في ظلمة الحجاب وهو أشد العذاب، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾ وخوَّف بهذا التوبيخ أهل معرفته ومحبته لئلا يلتقوا إلى الدنيا وأهلها، ويشكروا نعمة عرفان قربه ببذل الأرواح في وجدان نور الربوبية، وتحول الأشباح بشرط الخشوع في حق العبودية.

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: زيِّن للذين اغتروا بعاجل الكرامات،

---

(١) قيل: هو غمام أبيض رقيق مثل الضبابة، ولم يكن إلا لبني إسرائيل في تيههم. البحر المديد (٤/ ٢٨٨).

وقبولهم بين الخلق بإظهارهم الفراسات، وحجبهم بها عن درجات المشاهدات، ورؤية ما سبق للأولياء من الرعايات والعنايات، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: يتهاونون أهل مواجيد الذين سبقوا بنور العصمة، وغابوا في مشاهدة مولاهم عن المكر والخديعة.

وقال جعفر: زُيِّن للذين جحدوا التوكل زينة الحياة الدنيا حتى جمعوها، وافتخروا بها، ﴿وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من الذين توكلوا على الله في جميع أمورهم، ونبذوا تدابيرهم وراء ظهورهم، فأعرضوا عنها وهم الفقراء الصُبر الراضون.

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني في ميثاق الأول حين خاطبهم الحق سبحانه وتعالى جل سلطانه بتعريف نفسه لهم، حيث قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، كانوا أمة واحدة في إقرارهم برؤية خالقهم، وإلزام عبوديته على أنفسهم لَمَّا رأوا من عظم برهانه، وشواهد سلطانه، وما سمعوا من عجائب كلامه، وما أدركوا من أنوار قربه وصفاته وذلك الجمعية قبل أن يبتليهم الله بالعبودية، فلمَّا اختبرهم ببلايا العبودية إلى الدنيا، فتفرقوا جميعًا، فأهل الصفوة ساعدهم التوفيق، فبقوا على المشاهدة والقربة، وإدراك أنوار الصفوة، ثابتين في دفع حطام الدنيا عن مجالس أسرارهم مع سيدهم، مستقيمين في خدمته بلا طلب الأعواض من الكرامات، مقتصدين في سلوك المعرفة والمحبة، فأنزل الله سكينته في قلوبهم، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، فلا جرم ما زاغوا عن طريق الاستقامة، وما زاغوا عن مشاهدة الحبيب إلى حضرة الدنيا وشهوتها، وما باعوا كرامة الحق بالدنيا الدنية، ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وأما أهل الخذلان فأوبقهم الحق في ظلمه هواء نفوسهم حتى استأثروا الدنيا على الآخرة، ونسوا عهد الله، ونزلوا على مراد الهوى، وتركوا نعيم الرضا، ومالوا عن طريق الهدى إلى مضلة الضلال ودول الجهال، وأيضًا كانوا بعد كونهم من العدم جملة في غيبة من الحق قبل خطاب الحق معهم، وكشف قربه لهم فإذا كشف الله عنهم حجب الإنسانية، وأراهم مشاهدة القربة، فتفرقوا جميعًا في شعب المعارف والكواشف، فبعضهم صادقوا حقائق المقامات فوقفوا بها على شرط العبودية، وبعضهم صادقوا لطائف الحالات فبقوا فيها متنعمين بمشاهدة الربوبية، وبعضهم نالوا خصائص الكرامات والمعجزات فشاهدوها بشرط أداء الأمانة، وبعضهم أدركوا صرف المشاهدة من الحق جل كبرياؤه فتاهوا في وادي العظمة، وطاروا في هواء الهوية، وساروا في فقار الديمومية، وأما أهل الحرمان فصادقوا في أول نهوضهم من زمرة الوحدة مهالك القهريات، فغابوا في شعاب الضلالات، فبعضهم تهودوا، وبعضهم تنصروا، وبعضهم تزندقوا، وبهذا جف القلم إلى يوم ليس لهم في الإيمان

والخذلان اكتساب؛ لأنه اختيار الله الذي قد سبق لهم في العدم، وختم به القضاء المبرم، ومن هاهنا تفرقت القلوب وانشقاقها عن الموبقات؛ لأن الأرواح جنود مجندة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ أي: حسبتم أن تدخلوا جنان المشاهدة، ومجالس الأنس بنور المكاشفة قبل ممارستكم مقاساة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة، وأيضًا أحسبتم يا أوليائي أن تدخلوا جنة الوصلة والقربة كأنبيائه الذين سبق لهم منا مقام النبوة بلا مؤن المجاهدة وليس هذه المنزلة لغير الأنبياء ولهم خاصة كرامة لهم تشريفًا وتوقيرًا وتفضيلاً على جميع الخلق.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ أخبر سبحانه أن مقاومة النفس ومخالفتها صعب على صاحبها؛ لكن في درب كل خلقٍ دنا في نيران المجاهدة انفتاح كنز من كنوز الحقائق من الفِراسات والكرامات والمناجاة والمكاشفات والمشاهدات؛ لأن النفس الحجاب الكلي يحجب القلب عن مشاهدة الملكوت، ورؤية أنوار الجبروت، وسنة الله قد مضت بأن من خالف نفسه وهواه فقد استنَّ محجة المثلى وأدرك ممالك العليا، ورقي مدارج المكاشفات، وبلغ معارج المشاهدات؛ لأن مخالفة النفس هي موافقة للقلب، ومَنْ وافق قلبه أنس سعادة الكبرى، ونال منزلة الأعلى؛ لأن مَنْ باشر أنوار القلب فقد باشر أمر الحق، ومَنْ أدرك الحق بوصف الإلهام باشر سره نور الحكمة، ومَنْ أدرك نور الحكمة فقد أبصر نور معرفته، ومَنْ أبصر نور معرفته عاين حقيقة الكل بالكل، وقد استمسك بالعروة الوثقى، وهي مشاهدة مولاه، فأين هذه المنزلة والمرتبة في هوا حسن حظوظ البشرية، وحصول النفس عند توقانها نفائس الشهوة؛ بل الأمر المعظم في قتال النفس، وقمع شهواتها، وقلع صفاتها عنها حتى تصير مطمئنة ساكنة تحت قضاء الحق، وبقي القلب فارغًا عن وساوسها، وسرَّ عالم الملكوت بنور البصيرة، كما قال ﷺ: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا

في ملكوت السماء»(١).

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي: أقل أحانين إقبال الحق على العبادة بنعت بسط آلاء مشاهدة القربة، وازدياد المعرفة على أهل الصفوة، مقرونة بظهور أنوار جماله، مسابقة لهم بشرط الإرادة القديمة في أكناف طلاب المشاهدة في إزالة مرسومها، متفاوتة بتفاوت بروز سناء تجلِّي الجلال والجمال في تقليب دهور الحوادث، فأشجار بساتين الأسحار الأطيار أرواح الأخيار، وأنوار النهار المبرز بنور القدس لأشباح الأبرار، ولكل وقت من أوقات انكشاف نور الحضرة حرمة بقدر وقوع وقائع أهل القصة والخطرات فيها من النفوس الأمَّارة أعظم وهواجسها أكبر؛ لأن الأجرام في مواطن قربه أسخن حجابًا، والحروب في بواطن الأنس أسرع عقابًا.

﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟﴾ الحساد لا يزالون يمكرون بأولياء الله لكي يوبقهم بأعين الحسادة، وأنفس الأمَّارة؛ لأنهم لا يطيقون أن يروا نعم الله على أحبائه وأوليائه، ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ وأحسد الخلق بأصفيائه هو الشيطان الذي كل وقت يترصد فأتهم، فالإشارة فيه من الله تعالى لأوليائه أنه يحذرهم من غرة العدو؛ لأنه يحسد بهم نفاسة عليهم بوجدان مشاهدة حضرته، ونوال قربته؛ لأن من نكص على عقب النفس بعد إدراك معرفة الحق فقد هلك مع الهالكين، وسقط عن درجة السالكين العارفين، وبقي في حجاب الغفلة، وظلمات الجهل مع الجاهلين، نعوذ بالله من الخذلان بعد وجدان الإيمان والعرفان.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى

(١) رواه أحمد (٢/ ٣٥٣)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٣٣٥).

ٱلۡمَحِيضِۖ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿٢٢٥﴾ لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ تَرَبُّصُ أَرۡبَعَةِ أَشۡهُرٖۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنۡ عَزَمُواْ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٢٧﴾ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ الخمر حب ما سوى الله؛ لأن زيغ بصر السر عن مشاهدة الحضرة إلى الكون بنعت استحسانه حجاب العقل الكل إذا خامر النفس سر القلب باشره الغفلة، وسكرت بإدراك هواها وحظوظها، وسقطت عن مباشرة العبودية، وبتأثيرها احتجبت الروح عن معاينة الآخرة، وبقيت في حجاب النفس عن الوصال، والمقام والمشاهدة، ﴿وَٱلۡمَيۡسِرِ﴾ حبل الشيطان والنفس مع القلب، فإذا مال القلب إلى شهوة النفس فقد قامرها وصار مقمورًا مسلوب الإيمان والعرفان، ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾ أن ظلمة الخمر تطفي نور العقل، ويقوي طرب النفس الأمَّارة فإذا خمد نور العقل، وارتفعت ظلمة الجهل تفسد النفس مقام الإيمان، وتخربه وهو القلب، وإذا كان القلب خرابًا ومنبع الإيمان مضمحلاً، فهو قريب من الكفر، والكفر آخر الإثم واللعب بالنرد، وأمثال ذلك، كأنه يعبد الأوثان؛ لأن في الأشغال به اشتباه نور الإيمان تمثال النرد والشطرنج، وتخيل الفهم صور الخيال، وهذا أول أسباب الشرك لأنهما أما جميع الخبائث، ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: معرفة أفاتهما وسوء عاقبة مَنْ يشغل بهما، وأيضًا في زوالهما منافع للناس.

وقيل: فيهما في تناولهما منافع للناس في تركهما، ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ العفو عند العارفين ما سوى الحق من الكونين، يعني اتركوا إلى ما شغلكم عني وإن كان لكم فيها خصاصة حتى يكون لكم ذخرًا في جميع أنفاسكم عوضًا لَمّا تركتم، فالخواص ينفقون ما يحبون طالبًا لمرضاته وتركًا لمرادهم؛ لأن الحق سبحانه لا يزيد أوليائه شهوة

المكونين والعالمين غيرة على أحوالهم وصونا لأسرارهم، والعوام ينفقوا زوائد أموالهم حصنًا لها وحرصًا بها.

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: لعلكم تقطعون بواديها بأجنحة الأفكار ليخلص قلوبكم عن وجودهما أنوار أفعال الحق وحسن صنعته القديم، وبه تبصرون فيهما نور صفاته لتبلغوا به مشاهدة حسن جلال ذاته، وأيضًا لعلكم تبصرون بعين التفكر على صورة الدنيا لباس قهره، خدع أعدائه ليحتجبوا بزهرة الدنيا عن معرفته، وعلى صورة الآخرة لباس لطفه ابتلاء به أوليائه، وليختبرهم بلذة الآخرة حتى يظهر صدق دعواهم في محبته عن رعونات بشريتهم.

وقيل: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة أي أنهما، والاشتغال بهما مما يقطعان عن الحق.

وقيل: أنهما على مكر وخديعة.

ألا ترى أن طاوسا لما قرأ: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس:٥٥]، فقال لو علموا عمَّا نهاهم ما اشتغلوا به.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ أي: يحب التوابين عن وقوفهم في المقامات، ويحب المتطهرين بنور المعرفة عن غبار الكائنات، وأيضًا التوابين عن طلبهم إدراك بطنان القدم بالعقول الناقصة والعلوم المحدثة، والمطهرين عن رؤية مقدارهم عن صدمة قهر الكبرياء وسلطان العظمة.

وقال بعضهم: راجعين إليه في كل خطرة من قلبه، وكل حركة من جوارحه.

وقيل: يحب التوابين من الزلّة ،ويحب المتطهرين من التوهم.

وقيل: يحب التوابين من الذنوب، والمتطهرين من العيوب.

وقال ابن عطاء: يحب التوابين من أفعالهم، والمتطهرين من أحوالهم، وهم قائمون مع الله بلا علاقة ولا سبب.

قال جعفر: يحب التوابين من [خواطرهم] والمتطهرين من إرادتهم.

وقال محمد بن علي: التوابين من توبتهم، والمتطهرين من إرادتهم، وقال أيضًا: التوابين من توبتهم، والمتطهرين من طهارتهم.

وقال أبو يزيد: التوبة من الذنب واحد، ومن الطاعة ألف.

وقال النصر آبادي: أن الله أثنى عليك، وجعل لك قيمة حين قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

وقال الجنيد: دخلت على السري وعليه هَمْ فقال: دخل على فتى من البغداديين، فسألني عن شرح التوبة، فأجبته، فقال لي: وما حقيقتها، فقلت: أن لا تنسى ما من أجله تبت، فقال الغلام: ليس هو هكذا، قال الجنيد فقلت: صدق الفتى، فقال: وكيف هذا؟ قال الجنيد: إذا كنت في حال الجفاء، فينقلني إلى حال الصفاء، فذكرى الجفاء عند الصفا وحشه.

﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ.. الآية﴾(١) علم الله عباده أدب المباشرة بشرط التقوى، وصدق بالنية في شروعه في مطالبة النفس حتى لا ينسوه في جميع أحوالهم، ويكون صحبتهم لله إلا بإجراء الشهوة.

وقال الواسطي: قدموا نيّة صادقة في جماعكم، وعفة فيها حرم عليكم، فإن ركوب الشهوة من غير نيّة صادقة غفلة عظيمة.

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ

(١) أي: مواضع حرثكم، شبه ما يلقى في أرحامهن من النطف، بالبذر، والأرحام أرض لها. البحر المديد (١/ ١٨٢).

عَنْهُمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَـٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَـٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٥) لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَـٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ (٢٣٦) وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٧)﴾ .

قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَـٰقُ مَرَّتَانِ﴾[1] أحدهما طلاق النفس وشهواتها والدنيا وما فيها، والثاني طلاق الآخرة وما فيها، فينبغي للعارف أن يطلقهما؛ لأن عروس مشاهدة الحق غاز على قلوب المحبين والعاشقين والمشتاقين أن يكون لهم شيء دون الله.

وقيل: ندب إلى تفريق الطلاق لئلا يتسارع إلى إتمام الفراق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وصف الله تعالى أهل العناية الذين صدقوا فيها عاينوا في علم الأزل من مشاهدة القدم، وفيها سمعوا من خطاب الحسن بنعت تعريفه لهم جلاله وجماله وعظمته وصمديته وكبريائه وقدرته وحكمته، ﴿وَهَاجَرُواْ﴾ من الحدثان إلى مشاهدة الرحمن، ﴿وَجَـٰهَدُواْ﴾ في العبودية للزوم حق الربوبية عليهم، ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ما بين مقاديره بنعت الرضا في مراده، ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾ وصاله وقربه، ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ تقصيره في تزكية الأشباح، ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم في تربية الأرواح.

---

(١) فإمساكٌ لها بمعروف بأن يواسي بها من يحتاج إليها، أو تسريح لها من يده بإحسان من الله إليه، حتى يدخله في مقام الإحسان، فإن طلقها مرة ثالثة فلا تحل له أبداً حتى يأخذها من يد الله بالله، بعد أن كان بنفسه، فكأنه أخذها بعصمة جديدة، فإن تمكن من الفناء والبقاء، فلا جُناح عليه أن يرجع إليها غنياً بالله عنها، والله تعالى أعلم. البحر المديد - (١/ ١٨٨).

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ المحافظة شهود السر مقام الغيب، وخمود النفس عن دواعي الرب، ومراقبة القلب أنوار الكشف، ورعاية الروح مشاهدة الوصل، ومراعاة الأدب ظاهرًا وباطنًا، فأما الظاهر بإقامة الحدود في أركانها، وأما الباطن فبدفع الخواطر المذمومة الشاغلة عن رؤية الآخرة، ثم الغيبة عن الأركان والرسوم برؤية الحق جل جلاله في صلاته، ثم الفناء في حقائق المشاهدة عن ملاحظة وجوده لغلبة سكر الوجد، ومن هذا حاله فهو غائب في سرِّ الاصطلام، ولا يعلم كيفية صلاته لغلبة الوقت ولا غيب عليه؛ لأنه قد بلغ مقام المشاهدة، وهذا مقصود الصلاة، وهو إشارة النبي ﷺ لقوله: «اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[1]، لكن صورة الأحكام تجري على العارف، ويحفظها عليه، وإن لم يعلم شأنه فيها، فهؤلاء القوم يغيبون عن الظاهر لشغل الباطن، والعامة يغيبون عن الباطن شغلاً بالظاهر، فشتان ما بين الطائفتين، فالعوام طاحوا في أودية الغفلات، فيزينون أحكام الظاهر، وأهل المعرفة طاروا في عالم المشاهدات في غيبة عن رسوم الأحكام استغراقًا في بحر أنوار مشاهدات ذو الجلال والإكرام، وأبهم صلاة الوسطى لمراعاة جميع الأوقات، ومراقبة أحانين المكاشفات.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٩).

قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدۡ أُخۡرِجۡنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبۡنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقِتَالُ تَوَلَّوۡاْ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكٗاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةٗ مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ﴾ جعل لهن المتاع تسلية لقلوبهن لأنهن كابدن مقاساة الفراق لئلا يتضاعف لهن البلايا بلاء الهجران وبلاء الحرمان.

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا﴾ القرض الحسن بذل الوجود مع الحياء، والخجل معرفة على تقصيره، وفناء أطماع الأعواض، والفرح بمخاطبة الحق معه، وأيضًا استقرض من عباده ما أعطاهم لتربية لهم، ويزيد فضله على فضله.

وقيل: مال القرض لتربية الفقراء.

وقيل: القرض الحسن ما لا يطالع عليه الجزاء، ولا يطلب بسببه العوض.

وقال بعضهم: ملكك ثم اشترى منك ليثبت لك معه نسبة، ثم استقرض منك مما اشتراه، ثم وعدك عليه العوض أضعفًا، بيّن فيه أن عطاياه ونعمه بعيدتان أن تكون مشوبًا بالعلل.

﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ يقبض أرواح الموحدين بقبضة الجبروتية في نور الأزلية، ويبسط أسرار العارفين من قبضة الكبرياء، وينشرها في مشاهدة سناء الأبدية، وأيضًا يقبض المشتاقين في رفاق التوحيد، فيتجلّى لهم مشاهدة العظمة، ويبسط العاشقين في حجال الأُنس، فيتجلّى لهم مشاهدة الجمال، وصرف القربة.

ويقال: القبض سره، والبسط كشفه.

ويقال: القبض للمريدين، والبسط للمرادين.

ويقال: القبض للمشتاقين، والبسط للعارفين.

ويقال: القبض لَمْنْ تولى عن الحق، والبسط لَمْنْ تجلى له الحق.

ويقال: يقبضك إياه، ويبسطك إياه.

قال الواسطي: يقبضك عما لك، ويبسطك فيما عليه.

وقال البغداديون: يقبض أي يوحش أهل صفوته من رؤية الكرامات ليصغرهم، يبسطهم بالنظر إلى الكرم.

﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بعد ما مكننا بنور المعرفة، وذوق المحبة، ومصاحبة المرسلين، وآيات النبوة، وإدراك مقام الشهادة، وأيضًا أي بعد معرفتنا أن الله تعالى مع أوليائه براية النصر والظفر، وأن من أوصاف أهل المحبة المحاربة مع أعدائه.

وقال فارس: لا يتجرد للحق مَنْ هو قائم مع الحق بسبب أو علاقة أو سكون أو مسكن.

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ...﴾ الآية امتحنهم بمجاهدة نفوسهم قبل محاربة عدوهم، لينظر كيف يكون خلوصهم من جهاد الأكبر قبل شروعهم في جهاد الأصغر؛ لأن مَنْ يعجز عن مجاهدة نفسه لا يصلح لمحاربة غيره، وتصديق ذلك قوله تعالى في حق المبتلين الذين تجاوزوا عن الحد الذي سنن لهم وشربوا من النهر أكثر ما أمرهم ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ والذين أخرجوا عن محاربة نفوسهم، وصرعوها في ميادين الذل والإهانة، فيصلحون لجهاد الكفار، كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ وهذا مثل ضربه الله للدنيا ومَنْ يطلبها؛ لأن الدنيا نهر الشهوات، أجرى الله تعالى بين الخلائق لامتحان العباد ليضل بها قومًا ويهدي بها قومًا، مَنْ شرب منها بقدر الضرورة لقوة العبادة يعبرها بشرط الانفراد، فإنه من أهل الإيقان والعرفان، ويهدي إلى مشاهدة

الرحمن، ومَنْ شرب منها بفرط الحرص لإبغاء الغفلة قوة للمعصية، يضل عن سبيل الرشاد، ولا يملأ جوفه منه أبدًا حتى يدخل إلى النيران، وضرب الله تعالى أيضًا هذا المثل في قصتهم لينظر الناظر فيه بعين الاعتبار ولاقتباس الأنوار﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ الطالوت هنا الروح، وهي ملك الباطن، ومثل داوود نبي الله ﷺ العقل وجنوده القلب وملك الهام والعلم والفهم والإدراك والحواس، ومثل جالوت عدو الله الشيطان وجنده خيل الخيال وأعوان الشهوات، فأمر الله تعالى الروح بالمحاربة معه اختبارًا للنفس الأمَّارة، فلمَّا فصلت الروح بجنودها،﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ يعني نهر الشهوة الذي تشرب منه النفس بكأس الغفلة، وأضافت إليهم الشرب؛ لأن الروح مقدسة عن رجس البشرية،﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي: ليس من عالم الروحانيات، وليس من أهل المكاشفة الصفات،﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ﴾ أي: من نور القدس وعالم الأنس،﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [1]أي: القلب والحواس والنفس يغترفون بقدر الترفة حتى لم يحترفوا في جوار الروح بنيران المحبة والمواجيد التي يحصل منه نور المعرفة، ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ﴾ يعني النفس وأعوانها؛ لأنهم من ملكوت الأرض، لأجل ذلك مالوا إلى طعمة الطبيعية، ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ أي: العقل والملك؛ لأنهما من ملكوت السماء وليس لها إلا لذة التربية، أما شرب القلب قدر الكفاية؛ لأنه ممزوج بخلاصة الجسم، ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ أي: الروح والعقل والملك والقلب والحواس، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ﴾ أي: بقول أعيان الروح الذين يوقنون كشف العيان بعد مجاهدة الشيطان، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ كم من فئة قليلة بالعدد معها نور اليقين، ﴿غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ﴾ التي ليس معها النصر من عند الله، ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ الذين وقفوا على مراد الحق بنعت الرضا والتسليم ورؤية كرمه القديم وتسليمهم من مباشرتهم حظ مشاهدة الحق.

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ أي: برز الروح وجندها للشيطان وجنده، ﴿قَالُوا۟﴾ أي: الذي عاينوا بنور الإيمان جمال المشاهدة، ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ أي:

---

(١) الإشارة من هذه الآية أن الله سبحانه ابتلى الخَلْق بصحبة الخلْق وبالدنيا وبالنَّفس، ومن كانت صحبته مع هذه الأشياء على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام، وما لا بد منه نجا وسَلِمَ، ومن جاوز حد الاضطرار وانبسط في صحبته مع شيء من ذلك من الدنيا والنفس والخلْق بموجب الشهادة والاختيار - فليس من الله في شيء إنْ كان ارتكاب محظور، وليس من هذه الطريق في شيء إن كان على جهة الفضيلة وماله منه بُدٌّ.

احبسنا بلذة المحبة حتى يقف في بساط الحرمة، ويشرب مرارة المحنة بجمال المشاهدة، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في صدمة القهر، ﴿وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ على الشيطان وجنده، ﴿فَهَزَمُوهُم﴾ يعني جند الله، ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بالله الشيطان وجنده، ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ يعني العقل الشيطان، ﴿وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ يعني سلطنته وولاية القلب على جميع الجنود النفس وأعوانها، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ يعني المعرفة على أحكام المحبة والقربة والمشاهدة والمكاشفة.

قال عبد العزيز: يُقَال أن داود ﷺ رمى بثلاثة أحجار، وفي الإشارة إنه رمى بالنفس، وطلق الدنيا، وخلف الهوى، فهزم الله جالوت الشيطان وقتل.

﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ أي: من علوم الغيب حتى صارت منفردة بالرؤية مشاهدة الغيب وعجائبه، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: دفعه بجنود الملكوتية جنود الإنسانية، ﴿لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ يعني منظر نور الإيمان والمعرفة في صدر طلاب المشاهدة والقربة، ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يعني يتجلّى العالم الأرواح فيغلبن على النفوس الأمّارة والشياطين المردة، وأيضًا يتجلّى بمشاهدة القهر لعالم النفوس والشياطين حتى يسرفوا بمطامعهم بعض حقائق القلوب من عالم الأرواح، وتجربوا ديوان الناقل في ديوان الغيب.

قال أبو عثمان: أن هذا مثل ضربه الله للدنيا وأهلها، يعني النهر أن مَنْ أطمأن إليها وأكثر منها فليس من الله في شيء، ومَنْ أعرض عنها ومقتها فهو الذي هيأه الله لقربة، إلا مَنْ تناول منها مقدار ما يقيم صلبه للطاعة.

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعني أي: فاطمأن إليها إلا قليلاً منهم، وهم الذين حفظهم الله من وساوس الشيطان؛ لأن ﴿عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٤٢].

وقال النصرآبادي: مَنْ مد يده إلى الحلال بحرص وشره أداه ذلك إلى الشبه، ومَنْ لم يبالِ من الشبه جره ذلك إلى الحرام النص.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ

شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَـٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ فضل أنبياء بعضهم على بعض تطيب لقلوب أوليائه؛ لأنهم أهل غيرة الحق، وأيضًا حتى لا يسكنوا عن طلب زيادة المقامات والدرجات، وأيضًا حتى لا يركن بعضهم إلى بعض في حقائق المعرفة والمحبة.

وقال أبو بكر الفارسي الصوفي: ما خلق الله شيئًا إلا متفاضلاً متفاوتًا أقدارهم حتى الرسل.

قال الله ﷻ: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ﴾ ليعلم بذلك نقص الخلق، وكماله تعالى ﷻ.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ۚ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قطع بها أبدء من وصف أُلوهيته عن قلوب عباده أسباب العبودية؛ لأن العبودية تكون عرفان الربوبية، لأجل ذلك ذكر نفسه في أول إظهار وجوده، وأيضًا كشف عن نفسه بوصفه لعباده حتى أثبتهم ببروز سلطنته في قلوبهم عند خطرات الهجران عند قوله، وأيضًا دعا الخلق بنفسه إلى نفسه قبل ذكر الأسباب حتى حيرهم به فيه، وأيضًا رسخ أشجار المحبة في سواقي أسرار أهل المعرفة بذكره أُلوهيته قبل كل شيء، ثم ذكر ليحيرهم في سراب العدم، ثم كشف لهم عن جمال القدم، وأيضًا أفرد قدمه عن العدم، وأيضًا ضرب سرادق التنزيه على سواحل بحر التوحيد قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾ أزال العلل عن قدس الأزل، وكشف بالأزل عن الأزل.

سُئل ابن منصور رحمة الله عليه عن هذه الآية؛ فقال: لا إله إلا الله يقتضي شيئين: إزالة العلة عن الربوبية، وتنزيه الحق عن الدرك.

وقال ابن عطاء: صدق قبول لا إله إلا الله الصبر، وبه ثبت على إيمانه والصدق، وبه اجتهد في الطاعات لربه في سره وإعلانه وإنفاق من ماله مبتغيًا به رضاه حتى لا يبقى لنفسه مدخرًا غير خالقه، والخلوة بربه في الأسحار وإظهار الافتقار بلسان الاستغفار نادمًا على عصيانه خائفًا من هجرانه.

وقال أيضًا: يحتاج مع قائل لا إله إلا الله ثلاثة أنوار نور الهداية، ونور الكفاية، ونور العناية، فمتى منَّ الله عليه بنور الهداية فهو من خواصه، ومتى منَّ عليه بأنوار الكفاية فهو معصوم من الكبائر والفواحش، ومتى منَّ عليه بأنوار العناية فهو محفوظ من الخطرات الفاسدة.

وقال بعضهم: يحتاج قائل لا إله إلا الله إلى أربع خصال: تصديق، وتعظيم، وحلاوة، وحرمة، فمَنْ لم يكن له تصديق فهو منافق، ومَنْ لم يكن له تعظيم فهو مبتدع، ومَنْ لم يكن له حلاوة فهو مرائي، ومَنْ لم يكن له حرمة فهو فاسق.

قيل لأبي الحسن النوري: لَمَا لا تقول لا إله إلا الله، قال: بل أقول الله، ولا أبقى به ضدًا.

وقال بعضهم: مَنْ قالها وفي قلبه رغبة أو رهبة أو طمع أو سؤال فهو مشرك.

﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي الذي قامت به الأحياء، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يحيي بقيوميته الأموات، وأيضًا ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي تتهمهم به الأنفاس، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي تقوم بكفاية الأشخاص، والحياة من صفاته الخاصة في العدم وعامة فيها أوجد الخلق من العدم، والقيومية صفته التي لم يزل كان موصوفًا بها، ويحصلها أنه استقبل بنفسه في أزليته وأبديته، و﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي ليس حياته أسرار الموحدين فتوحدوا به له، و ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي يربي بتجلّي الصفات وكشف الذات أرواح العارفين، ففنوا في ذاته، واحترقوا بنور كبريائه.

وقيل في قوله: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ أجعله مراقبًا في قيوميته عليك وعلى جميع العالم.

قيل: أنه قيوم بحفظ أذكاره على أسرار أهل صفوته.

وقال سهل: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ قائم على خلقه بكل شيء، وآجالهم، وأعمالهم، وأرزاقهم.

وقال الخواص: مَنْ عرفه بأنه ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ألزمه معرفته له طلب كل شيء منه، وترك القيام بشيء من أموره لقيام بها.

﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ يخوّف بهذه الإشارة خواص المراقبين حتى لا يشتغلوا بغيره طرفة عين، وأيضًا أخبر عن تنزيه إزالة التشبيه عن قلوب المريدين، وأيضًا بنفي السِنة عن نفسه، نزه نفسه عن الغفلة، وبنفي النوم نفسه عن الغيرة، وأيضًا هذه إعلام منه جلَّ وعلا أنه ينتقم عن الظالمين للمظلومين، وأيضًا علم الخلق تنزيه قدم صفاته وقدس عظيم ذاته، أي أنا مبدع العلّات، وأنا منزه عن صفات المحدثات.

وقال بغداديون: أنَّى تأخذه السِنة من كان، ولا سِنة ولوجد السِنة قهر العبادة ونقصًا

ارتبط الأشياء بأضدادها، وانفرد هو عن الأحوال لأنه محولها.

﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أذل حلاوة زهرة الكونين والعالمين عن قلوب أهل الصفوة بقوله: ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي: الحوادث التي استأصلها عن مزار وحدانيتي، ألا وهي الأسرار الموحدين رغبهم بفنائهم عن الأسباب والعلامات، ووبخ من التفت سره عنه إلى ماله؛ لأن الالتفات من المُنعِم إلى النعماء شرك بالمُنعِم، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ أغرق الشافع والمستشفع في بحار مننه إذ لا يفرض كلاءة عباده إلا إلى نفسه، وأيضًا قطع أسباب حيل الوسيلة عن عناية الأزلية، وأيضًا أدب الخلق بهذه الآية حتى لا ينبسط إليه إلا مَنْ غلبه السُكر والانبساط، والأذن مقام الهيبة عند سرادق العظمة، والحكم حال الانبساط في بساط الأُلفة، والخائفون مراقبون الإذن، والعاشقون يريدون ويقتحمون في الحكم؛ لأن صاحب الحكم في هيجانه ملتبس بسناء التوحيد، معتزل عن الأشباح بنعت التفريد، أسكرته مشاهدة الحسن، واضطرته مكاشفة القدس إلى البسط والانبساط، وهذين الوصفين يكونان في العارف من الأنبياء والأولياء، فالأول نعت تبت، والآخر نعت أزلي.

وقيل: جذب به قلوب عباده إليه في العاجل والآجل.

قال الواسطي: لو جعل إلى نفسه وسيلة غير نفسه كان معلولاً، ومَنْ تزيّن بإخلاصه ومحبته ورضاه توسل بصفاته إلى من لا وسيلة له إلا به قال الله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾.

قال منصور: فأي الشفيع إلى مَنْ لا يسعه غيره، ولا يحجبه سواه.

وقال الواسطي: مَنْ ذا الذي يدعوني حتى أذن له في الدعاء، ومَنْ ذا الذي يؤمن به حتى أهديه، ومَنْ ذا الذي يطيعني حتى أوفقه، ومَنْ ذا الذي ينتهي عن المعاصي حتى أعصمه[١].

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: يعلم ما بين أيديهم من الخطرات، وما خلفهم من العثرات، وأيضًا يعلم ما بين أيديهم من المقامات، وما خلفهم من الحالات، وأيضًا يعلم منهم قبل إيجادهم ما ابتلاهم به من أسرار الأفعال المقرونة بالإرادة، ويعلم منهم بعد كونهم من درك المعاينات في مقام العبودية من أسرار علم الأزليات.

وقال أبو القاسم: ﴿يَعْلَم مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ لأنه لا يخرج عن علمه

---

(١) وقال ابن عجيبة: هذا بيان لكبرياء شأنه، وأنه لا يدانيه أحد ليقدر على تغيير ما يريده بشفاعة واستكانة، فضلاً عن أن يعاوقه عناداً أو مناصبة. البحر المديد (١/ ٢١٢).

معلوم، ولا يلتبس عليه وجود ولا معدوم.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ حجب علم القدم عن إدراك مَنْ أوجد من العدم، إلا ما كاشف لأهل القلوب من معانات الغيوب، وأيضًا أي ولا يحيطون بشيء مما علمه الله من نفسه من علم الأزل إلا بما شاء، أي إلا به لأنه لا وسيلة إلى علمه سواه.

وقيل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ يعني من معلوماته وإذا تقاصرت العلوم من الإحاطة بمعلوماته إلا بإذنه فأي طمع لها في الإحاطة بذاته قالها أبو القاسم القشيري.

﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ كرسيه قلب العارف، وهو واسع من السموات والأرض؛ لأنه معدن علوم الألوهية وعلم اللدني، الذي لا نهاية له ولا حد له، وأيضًا ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ عالم الملكوت وهو مطاف أرواح العارفين لجلال الجبروت، وأيضًا ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ وعرشه قبلتان لأهل الحدثان ولا جهة للرحمن، ولا يعرفه بنعت التنزيه عن التباس الكون والتصاقه إلا أهل كشف العيان.

وقيل: العرش والكرسي إظهار للقدرة لا محلاً للذات.

وقال أبو القاسم: خاطبهم على قدر فهم، وإلا فإن خطر الأكوان عند صفاته وحلال قدرته عن التعزز بعرش أو كرسي، أو التجمل بجنبي أو أنسى قبل علمه.

وقيل: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ في السموات والأرض هي منه كدرة.

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: لا يعجزه حفظه ذلك على سعته وكبره، وأيضًا لا يوازيان في عظمته خردلة؛ لأنهما في ملكه وسلطانه أقل من ذرة، وأيضًا قامت السموات والأرض به ولا علّة في صنعه ولا آلة في فعله منه ظهرت وبه قامت.

وقيل: وصف نفسه بالامتناع عن اعتراض القواطع والعلل.

﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا

مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ تبيّن ما استتر عن الكون في الكون في علم الأزل من السعادة والشقاء، فظهرت سمة السعادة والشقاوة من المقبولين والمطرودين؛ لأن في جباه السعداء مصابيح أنوار المعرفة تلوح، وفي جباه الأشقياء كدورات ظلمات الغي تبوح.

﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ الطاغوت رؤية الطاعات، والطمع في المكافآت، فمَنْ يكفر بها فهو من أهل المشاهدات، والطاغوت يقع على كل شيء سوى الله تعالى من الدنيا والنفس والشيطان. وقيل: طاغوت كل امرئ نفسه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن رحمه الله: مَنْ لم يتبرأ من الكلي لا يصح له الإيمان بالله.

﴿وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ أي: مَنْ أقبل من نفسه وحوله وقوته إلى خالقه فقد وجده بنعت الحفظ والكلاية، ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ هي ذات الحق سبحانه وجل عن التشبيه، وأيضًا هي المحبة والمشاهدة، وأيضًا هي العصمة القديمة التي سبقت بنعت العناية الأزلية لأهل المعرفة.

وقيل: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ التوفيق في السبق والسعادة في الختم.

وقيل: ﴿بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ محمد ﷺ. وقيل: لا إله إلا الله. وقيل: هي السنة.

﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾[1] ترجيه من الله لأهل المعرفة، أي مَنْ تمسك بحبلي فاز في الدارين، وسعد في المنزلين، ولا يدخل في حجال عصمته خلل الحوادث؛ لأنه في كنف العناية محروسًا بالكفاية، ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ لوجدهم من ظلمات العدم إلى كشف أنوار القدم، وأيضًا يخرجهم من ظلمات الامتحان إلى مشاهدة البيان، وأيضًا يخرجهم من ظلمات العبودية إلى جمال الربوبية، وأيضًا يخرجهم من الفرح بما وجدوا من المقامات والدرجات إلى نور مشاهدة الذات والصفات، وأيضًا يقدسهم ويخرجهم من ظلمات البشرية بمياه الشفقة لنور الأبدية، وأيضًا يزيلهم عن أوصافهم المحدثة ويقربهم إلى بساط الجزية، ويلبسهم صفات الأزلية وسناء الصمدية.

وقال ابن عطاء: يغنيهم عن صفاتهم بصفته، فيندرج صفاتهم تحت صفاته، كما

---

(١) أي: لا انقطاع وهو استئناف لبيان قوة دلائل الحق بحيث لا يعتريها شيء من الشبه والشكوك، فإن العروة الوثقى استعارة المحسوس للمعقول لأن من أراد إمساك هذا الدين تعلق بالدلائل الدالة عليه، ولما كانت دلائل الإسلام أقوى الدلائل وأوضحها وصفها الله بأنها العروة الوثقى. تفسير حقي (٢/ ٥٩).

اندرجت أكوانهم تحت كونه، وحقوقه عند ذكر حقه فيصير قائمًا بالحق مع الحق للحق.

وقال أيضًا: بذل النفس لله على حكم الإيمان من علامة الهدى والقيام بأداء ما استدعى منهما من علامة التوفيق والانتهاء عما زجر عنه من علامة العصمة، فذاك لنفي الظلمات عنه بها، نوّره الله تعالى أنوار من الإيمان، وذلك الذي يوجب له الولاية، قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية.

وقال الواسطي: يخرجهم من ظلمات نفوسهم، صدقها ورضاها وتقواها إلى نور صفاته وما سبق لهم من منابعه.

وقال أيضًا: يخرجهم من ظلمات نفوسهم إلى أنوار ما جرى لهم في السبق عن الرضا، والصدق والمحبة وغيرها.

وقال النوري: يخرجهم من ظلمات العلم إلى نور المشاهدة؛ لأنه ليس المعاين كالمخبر.

قال الجنيد: يخرجهم من الظلمات أوصافهم إلى أنوار صفاته.

قال أبو عثمان: يخرجهم من رؤية الأفعال إلى رؤية المنن والأفضال.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ﴾ أي: الذين ستروا ما قد عاينوا من نفوسهم أنوار فعله وقدرته وما بدت في قلوبهم من لوائح العقول بالشروع في لذائذ الشهوة وغطاء الغفلة، أولياءهم الطاغوت ومتوليهم في اعتزاء التماثيل الباطلة المتخيلة، الشيطان يخرجونهم من أنوار العقول إلى ظلمات الجهل والعنادة.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي: أصحاب الهجران عن مشاهدة الرحمن، ﴿هُمْ فِيهَا﴾ في القطيعة والابتلاء، ﴿خَٰلِدُونَ﴾ ليس لهم مساغ في الوصول أبد الآبدين.

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ

سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١)﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ وقع عليه السلام في طلب مشاهدة القدرة صرفًا ليرى بنورها مشاهدة القادر في المقدور، وأيضًا تعجبه في القدرة ليس بشك؛ ولكنه تلون الخاطر ونقله من مقام الإيمان إلى مقام مشاهدة الحال في ظهور البرهان، وأيضًا خاض في بحر التفكر لطلب درِّ المعرفة، والفرق بين سؤال إبراهيم وعزير -عليهما الصلاة والسلام- أن إبراهيم عليه السلام كان في محل التمكين فأراه الله تعالى مشاهدة القدرة في غيره، وكان عزير عليه السلام في محل التلوين فأراه الله مشاهدة القدرة في نفسه حتى يباشر قلبه نور الصفات، فيشاهد حقيقة فعل القديم، ويصير محكمًا في محل التمكين، وأيضًا مقام الخليل عليه السلام مقام الانبساط، ومقام عزير عليه السلام مقام التحير، فانبسط الخليل عليه السلام وسأل مشاهدة الصفات في لباس الآيات، فأراه ما سأله في غيره؛ لأنه مملوء من أنوار القدرة، فيطلب مزيدًا على حاله، وتعجب عزير عليه السلام نبي الله من غاية تحيره في أسرار الربوبية، فأراه الله الآيات في نفسه تأديبًا له؛ لأن أهل الانبساط ليس بمؤاخذين كخليل الله عليه السلام، وأيضًا سؤال الخليل عليه السلام في طلب المشاهدة وتعجب عزير عليه السلام تحير في كمال القدرة بطلب الآيات تثبيتًا للوحدانية، وأيضًا مقام الخليل عليه السلام مقام اتحاد تجلّي الصفات، ومقام عزير عليه السلام مقام اتحاد تجلّي الأفعال فتجلّي الصفات باشر قلب الخليل عليه السلام لقوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ وتجلّي الأفعال باشر صورة عزير عليه السلام ليكون له تحصيل العلم بقدرة القادر لقوله: ﴿أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ وأيضًا خصَّ الخليل عليه السلام بتجلّي الصرف بلا آيات في نفسه، فلا يحتاج إلى أن يميته ثم يحييه؛ لأن الحق يتجلى له في نفسه بلا واسطة الآيات، ولكن يحتاج أن يرى الحق في غيره فيختص بالمنزلتين الصرف والالتباس، ولم يكن لعزير عليه السلام مشاهدة الخاص، فيحتاج أن يراه في نفسه بواسطة موته وحياته، وفي غيره يعني في الحمار واللبن والثمار، ليكون له مقامات وإن لم يكن صرفًا كمشاهدة إبراهيم عليه السلام وهو بعد ما رأى من نفسه ما رأي فقيل له: ﴿فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ﴾ وهو مشاهدة الله في غيره، وأيضًا بلغ الخليل عليه السلام مقام كشف المعاينات في الحياة، وكشف له ملكوت الأشياء لأجل اقتباسه نور مشاهدة الحق في الآيات، ولم يضطر إلى أن يغيب روحه من الحواس حتى يرى صرف العين؛ لأنه في حال الصحو، ولم يبلغ عزير في ذلك الزمان مقام العيان، فأنجاه الله إلى غيبته عن الصورة بنعت الغشيان ليرى في حال غيبته مشاهدة الحق؛ لأنه في حال السُكر، فلما انتبه رأى في صحوه ما رأى في سُكره، لكن ما رأى في السُكر وحال الغيبة مشاهدة الروح، وما رأى في الصحو مشاهدة العيان.

وقيل: أُري إبراهيم عليه السلام إحياء الموتى في غيره، وأُري عزير عليه السلام في نفسه؛ لأن الخليل عليه السلام

تلطف في السؤال فقال: ﴿أَرِنِى﴾ فأري في الغير وتعجب عزير ﷺ في القدرة؛ ألا ترى أنه ختم قصته بالإيمان ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وختم قصة الخليل ﷺ بالعزة والحكمة فقال: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾؛ لأن الخليل ﷺ سأل إظهار الحكمة ومشاهدة العزة، وعزير ﷺ تعجب من القدرة، فأجيب كل من حيث سأل.

وقوله تعالى: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ يجوز أن الله تعالى امتحن الخليل ﷺ بأنواع البلايا في ظاهره وباطنه، أما ما في ظاهره؛ فهو الذي أخبر الله تعالى في كتابه أنه أُلقى في النار وعذبه بأيدي الكفار، وأيضًا ابتلاه بذبح الولد وما أشبهه.

وأما الذي في باطنه فهو ما أخبر الله من اضطراب قلبه في تحصيل إدراك محض الربوبية، وكان يقول: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ مرة، ويقول: ﴿أَرِنِى﴾ مرة؛ لأنه كان يطلب من خاطره إثبات محض اليقين، فأخبر الله تعالى عن جميع امتحانه مع خليله ﷺ في آية من كتابه قال: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾، ومقصود الحق سبحانه وتعالى في ذلك أن بديع بواطن أنبيائه وأوليائه بخطرات نفوسهم حتى يحترقوا بفقدان الحبيب وتتقدس عن شوائب البشرية وإلقاء الشيطانية، وأكثر ابتلاء الخواص هكذا كإبراهيم ﷺ وموسى ﷺ وعزير ﷺ، محمد ﷺ.

وذكر الله تعالى أحوالهم جميعًا في كتابه، أما لموسى ﷺ ما رُوِيَ عنه أنه كان يقول في مناجاته: «أي ربِّ، من متى أنت!».

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾، وقال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»(١).

هكذا ابتلاء خواص الأنبياء والأولياء لا بأس؛ لأن الرب رب والعبد عبد، وأيضًا اسأل الخليل ﷺ مشاهدة الحق في لباس الخلق، وأيضًا أراد في سؤاله زيادة المعرفة في وسائط الآية لا من الاضطراب في الشك والتهمة.

وأيضًا قال: ﴿أَرِنِى﴾ حقيقة بطنان الأُلوهية والربوبية، وهذا من الخليل ﷺ غاية استغراقه في الاشتياق وغوصه في سر حبيبه وأوصاف قدرته؛ لأن المحب أراد أن يحيط بحقيقة ذات المحبوب من جميع الوجوه وذلك من شرط الاتحاد.

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٢)، وأحمد في مسنده (٤/ ٢٦٠)، وأبو داود (٢/ ٨٤).

وتحصيل ذلك زوائد اليقين وحقائق مقام التمكين، وأن الله تعالى منزه عن أن يدركه أحد من خلقه؛ لأن ذاته تقدس وتعالى امتنع بعزة هويته عن مطالعة المخلوقات، فأجاب الله تبارك وتعالى خليله وقال: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِن﴾ إنك لم تدركني بشرائط سر القدم، وأنت مخلوق أسير بنعوت الحدث، قال: ﴿قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾ بعد رؤية جنابي في عز عظمتك وبقاء ربوبيتك؛ لأن قلبي لا يسكن عن طلب مشاهدة جمال ربوبيتك، وأراد ﷺ في سؤاله حيلة كي يخرج من عجز العبودية ويلتبس بصفاء الربوبية، وهذا السؤال أعظم من سؤال موسى ﷺ بأن موسى ﷺ سأل كشف المشاهدة، والخليل ﷺ سأل حقيقة علم صاحب المشاهدة وصرف ربوبيته، فإذا علم الحق سبحانه من الخليل ﷺ أنه أراد علوم الربوبية وحقائق صفات القدمية وكنه ذات السرمدية.

﴿قَالَ فَخُذۡ أَرۡبَعَةٗ مِّنَ ٱلطَّيۡرِ فَصُرۡهُنَّ إِلَيۡكَ﴾ أشار إلى طيور الباطن، التي في نقص الجسم، وهي أربعة من أطيار الغيب، الأول :هو العقل، والثاني: القلب، والثالث: النفس، والرابع: الروح، أي: اذبح طير العقل بسكين المحبة على باب الملكوت، واذبح طير القلب بسكين الشوق على جناب الجبروت، واذبح طير النفس بسكين العشق في ميادين الفردانية، واذبح طير الروح بسكين العجز في تيه عزة أسرار الوحدانية.

﴿ثُمَّ ٱجۡعَلۡ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٖ مِّنۡهُنَّ جُزۡءٗا﴾ أي: اجعل العقل على جبل العظمة حتى يتراكم عليه أنوار سلطنة الربوبية فيصير موصوفًا بها ليدركني بي بعد فنائه فيَّ، واجعل القلب على جبل الكبرياء حتى ألبسه سناء قدسي فيتيه في بيداء التفكر منعوتًا بصرف نور المحبة، واجعل النفس على جبل العزة حتى ألبسها نور العظمة لتصير مطمئنة عند جريان ربوبيتي عليها، لا تنازعني في العبودية ولا تطلب أوصاف الربوبية، واجعل الروح على جبل جمال الأزل حتى ألبسها نور النور وعز العز وقدس القدس، لتكون منبسطة في السكر مطمئنة في الصحو عاشقة في الانبساط راسخة في الإيجاد، فإذا كانوا ملتبسين بصفاتي يطيرون بأجنحة الربوبية في هواء الهوية، ويرونني بلباس الديمومية والأزلية،﴿ثُمَّ ٱدۡعُهُنَّ﴾ بصوت سر العشق، وزمزمة الشوق، وجرس المحبة من بساتين القربة إلى عالم المعرفة، ﴿يَأۡتِينَكَ سَعۡيٗا﴾ بسرعة جناح سلطان الربوبية إلى معدن العبودية بجمال الأحدية، وتراني بعد جمعهن في مربع صدرك بعيون اللاهوتية ونور الملكوتية، ﴿وَٱعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ بعزك عرفان هذه المعاني واطلاعك على صفاته القديمة حكيم في ظهوره بغرائب التجلي لأسرار باطنك.

وقال بعضهم: أراد أن يصير له علم اليقين، وعين اليقين فعل الدوام يؤمن، والإيمان

غيبي في علم اليقين وعين اليقين، فقال: ﴿ بَلَىٰ﴾ولكن أسأل مشاهدة الغيب.

وقال بعضهم: هذا السؤال على شرط الأدب، كأنه يقول: أقدرني على إحياء الموتى،يدل عليه قوله: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾والطمأنينة لا تكون ضد الشك، قوله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ على هذه الشهوة والمنية.

وقيل: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ القلوب الميتة عنك بإحيائها بك.

قيل: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أي: لست كنت لتستدل علينا بالشمس والقمر وأفعالنا، فأسقطنا عنك علة الاستدلال، وكنا دليلك علينا.

وقال بعضهم: اعلم أن الخليل مع خليله مختال في أموره حتى يجد قربًا إلى خليله، أو سماعًا لكلامه حتى أن بعضهم قال:

وإنِّي لَأستنعسُ ومَا بِي نعسةٌ لعلَّ خَيَالاً منْك يَلقَى خَيَاليَا

وقال جعفر الصادق: شكَّ في الكيفية، وما شكَّ في غيره، قال النبي ﷺ: «أنا أولى بالشك من إبراهيم»[1]. وعن جعفر في قوله: ﴿وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ قال: قلب أصحابي.

وقال ابن عطاء: أي إني إذا سألتك أجبني، وإذا ذكرتك ذكرتني، فإن بذكرك تطمئن القلوب.

وقال سهل بن عبد الله: سأل كشف غطاء العيان ليزداد بنور اليقين يقينًا وتمكنًا في حاله، ألا تراه كيف أجاب عن لفظ الشك ببلى.

وقال بعضهم: إذا سكن العبد إلى ربه واطمأن إليه أظهر الله عليه من الكرامات ما أقلها إحياء الموتى، قال الله تعالى لإبراهيم: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾.

وقيل: إنه طلب رؤية الحق سبحانه لكن بالرمز والإشارة فمنع منها بالإشارة بقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، وأن موسى إنما سأل الرؤية جهرًا، فقال: ﴿ أَرِنِي﴾ فرد بالجهر صريحًا فقال: ﴿لَن تَرَانِي﴾.

وقيل: إنما طلب حياة قلبه، فأشير عليه بأن ذلك بذبح هذه الطيور الأربع، ومنها الإشارة في الطيور الأربع الطاوس، فالإشارة إلى ذبحه هي زينة الدنيا وزهرتها، والغراب بحرصه، والديك بشقه، والبط لطلب رزقه.

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٢)، ومسلم (١٥١).

وقيل: لما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ قيل له: أرنا كيف تذبح الأحياء يعني إسماعيل عليه السلام يطالبه بها طالبه، فلما رأى ما طلب منه وافى الحق سبحانه بحكم ما طلب.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ المن: تعزز البشرية على الخيرية واستكبار الحدث على الكبرياء القديم، ﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾ ازدراء السر عند العطاء المسئول.

وأيضًا ﴿بِٱلْمَنِّ﴾: تذكر الحدث ونسيان العدم؛ لأن المنان إذا منَّ على أحد فقد نسي الله عند تذكر نفسه وهذا نوع من الشرك، ﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾: بالبذل بنعت البخل، والرمي بالعين إلى الفقراء على جهة تعظيم نفسه ورؤية شرفه عليهم.

وأيضًا ﴿بِٱلْمَنِّ﴾: شهود الأفعال، ﴿وَٱلْأَذَىٰ﴾ التماس الأعواض.

قال السري: مَنْ تزيّن بعمله كانت حسناته سيئات، فكيف مَنْ رأى لها قيمة، أو طلب لها عوضًا؟

ويقال: ينفقون ما ينفقون، ثم لا يشهدون أفعالهم ولا أعمالهم.

وقيل: كيف تمنون بشيء تستقدرونه وتستحقرونه؟

وقال الجنيد: أعلمنا أن الذي يخلص له ثواب صدقته، وينجز له ما وعده فيستحق الثواب على عمله، مَنْ لا يمن بصدقة، ولا يؤذي مَنْ تصدق عليه.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ﴾ القول المعروف: الإنصاف لأخيك عند رؤية مكروه منه، الذي يهيجك بالغضب، والمغفرة عفوك له عند قدرتك عليه خير من أن تعطيه شيئًا وتؤذيه، وأيضًا: ردك السائل بقول جميل وسترك عليه، مما ترى منه من قبيح خير من إعطائك بالمن أو وعدك مع المطل.

ويقال: إقرار منك مع الله لعجزك وجرمك، وغفران الله تعالى على تلك المقالة خير من صدقة بالمن مشوبة، بالأذى مصحوبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾ أي: أنفقوا لأرواحكم ما كسبتم بأشباحكم من المعاملات المقدسة عن شوائب الرياء والسمعة ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: مما أخرجنا بمزن المعرفة عن سحاب المكاشفة، ومزارع قلوبكم من الحكمة والعلم اللدني، والصدق والإخلاص والرضا واليقين على المريدين لتخلصوا بذلك من مكائد الشيطان، أي: أنفقوها لنجاة صوركم بهذه المعاني التي تخرج من بساتين صفاء أسراركم، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يعدكم إلى قطع الرجاء عن الله تعالى في إتيان نواله منه.

وأيضًا: يعدكم إلى قلة الطمأنينة، وكثرة الشك فيما وعد الله تعالى لعباده من نفائس الألطاف وجميع الأقسام التي هي سبب حياة العباد في الدنيا والآخرة.

وأيضًا: يعدكم إلى ظنون شتى في الله تعالى، وهذا من قلة عرفان الحق والجهل بسلطانه؛ لأن لقاء العدو يهيج سر العبد إلى الشك في الله، وفيما وعد لعباده، ويلجئه إلى التحير حتى يظن أن الحق سبحانه وتعالى عاجز فقير، كما قال اليهود: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ وهذا من وسوسة العدو، وليس هم بإحراز العلوم والخوف من المعدوم والجمع والمنع وكثرة التهمة، ودفع الصدقة والفرار من القناعة ومن الغنى بالكفاية، وغرهم بالشروع

في طلب الزيادة ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[1] أي: البخل وسوء الظن في الله وحب الدنيا وبغض الموت، وعمارة الضياع والعقار، وطلب الزيادة وبغض الفقر والفقراء ومنع الزكاة، وما أوجب الله تعالى عليهم من الحج والجهاد.

وزيَّن لهم حب الرئاسة، وطلب نسوان المسلمين لأجل الزنا، وشرب الخمور وسماع المعازف، والتكبر والتجبر على الضعفاء والمساكين والجور والظلم والعناد، وقلة الإنصاف واتخاذ الأرباب لحفظ الأموال وأشباه ذلك من الأمور الرديئة الفاحشة

﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ معرفته تطهر قلوب الأشحاء من أوساخ الشح والفاحشة، وتحفظها عن الميل إلى حب الدنيا وما فيها وفضله مشاهدته وقربته ومعرفته وتوحيده وكشف أسراره لهؤلاء العباد الذين اصطفاهم لمحبته وخصائص مناجاته وخطابه وخدمته.

وأيضًا المغفرة: طمأنينة النفس بكشف اليقين، والفضل: الرضا بحكم الأزل.

وأيضًا المغفرة: عن الكون، والفضل: الوصول بلا وحشة البون .

وقيل: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ بنسيان ما تعود به من فضله.

وقيل: إنه يعدكم الفقر في طلب فوق الكفاية فيكون عبده، ومشتغلاً به فيردك عن غنى الكفاية إلى طلب الزيادة، وهو الفقر الحاضر.

وقيل: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: الحرص، والله يأمركم بالقناعة.

وقال أبو عثمان: الشيطان يعدكم الفقر على ترك الدنيا والإعراض عنها، والله يعدكم على ذلك مغفرة منه وفضلاً.

قال محمد بن علي: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ لفقره، ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ وهو عمارة داره، ﴿ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ وهو جزاء عمارة المآب، وفضله وهو استغناؤه عن كل ما سواه.

قال بعضهم: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ تحذيرًا للموحدين لا تفريقًا للكافرين؛ لأن الشيطان لا يدعو أحدًا إلى معصيته ولا يزينها له حتى يعده الفقر فإذا خاف العبد الفقر دعاه إلى المعصية، فإذا استحل المعصية دعاه إلى النفاق، فإذا استحل النفاق دعاه إلى الكفر، ولا يخاف الفقر إلا من نسي القسمة ولا ينسى القسمة من عرف الله الذي قسم لعباده ما أراد بمشيئته، وأصل المعاصي إيقاد الشهوات وأصل النفاق التزيين للخلق، وأصل الكفر منازعة

---

(١) قال التستري (١/ ٥٩): قال: هو أن يأخذوا الشيء من غير حله، ويضعوه في غير محله.

القدرة.

وقال سهل: الفقر أن تأخذ شيئًا من غير وجهه، وتضعه في غير حقه: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ الحكمة: إدراك أنوار بواطن القلوب أسرار عجائب بواطن الغيوب، والحكمة ما حفظته الأرواح من ألواح الملكوت، تلقف العقول إلهام الأحكام من علم الجبروت، والحكمة أدب الرباني لتهذيب خلق الإنساني، وأيضًا الحكمة معرفة الأخلاق، وإطلاع لغيوب النفس ودقائق الشيطان والعلم بفرق حديث النفس والعدو ولمسة الملك وإرشاد العقل، وبصيرة القلب دفعه إلهام الحق ونطق الروح، ورمز السر وأنواع خطاب الحق ومعرفة أقدار الخلق، ومداواة معرض الباطن، ودفع الوسوسة والمعرفة بأحوال الخلق والمقامات، ووقائع المكاشفات وأنوار المشاهدات وإدراك منازل المعرفة ودرجات التوحيد وما يليق بهذه الحقائق مثل معرفة دقائق الرياء، وشك النفس، والخطرات المذمومة، والبلوغ إلى علم اللدني والكرامات والفراسات الخاصة، ورؤية الغيب، والمحادثة والمخاطبة والمكالمة مع الحق جل اسمه في أسرار الخلوات وأنوار المناجاة. ومَنْ يؤت هذه الدرجات فقد أوتي خلافة الأنبياء والرسل ودرجة الملائكة الكرام، وهذه منزلة الأعلى من منازل الأولياء ومرتبة العليا من مقامات الأصفياء، وهو خير الدنيا والآخرة، وأيضًا: صرف الحكمة إدراك مراد الحق من رموز خطابه، وامتثال ما أدركه، والحكمة زم الجوارح ودفع الخواطر والسكون في الطوارق وفي الجملة الحكمة ما تلتفت الروح الناطقة من الحق سبحانه من خصائص الكلام والإشارات الإلهية.

والحكمة: المعرفة بأفعاله في المصنوعات والآيات، وأيضًا: شهود السر على أسرار شواهد الملكوت ورؤية غرائبها.

وأيضًا: الحكمة عند العارفين ولوح السر قباب الغيب واطلاعه على خزائن الملكوت برؤية العيان إلا بالدلائل والبرهان وتحصيله علوم الربوبية بلا واسطة الشواهد، وانشراحه باقتباس أنوار القرب وانفساخه بإدراك خطاب الخاص، واندراجه في طرقات الصفات، وبسطه في مشاهدة الذات، وإذا بلغ السر مدارج الربوبية عرف مراد الحق عز وجل في مجاري أحكامه، ورأى في الشواهد صرف الأُلوهية بنعت جريان القدرة؛ لأن الحكمة في هذه المواطن من بلوغ الروح سر عين الجمع، وهو صفة الاتحاد وأفهم الحكمة من صفة الحق سبحانه الخاصة الذاتية القدمية، ولا تدركها إلا بشرط الاتحاد، وإذا أراد الله تعالى أن يهدي عبدًا من عباده إلى مقام الحكمة ألبس روحه تلك الصفة حتى تصير ربانية صمدية مطلعة على جميع الأشياء ظاهرًا وباطنًا، وتفرست المغيبات وتدرك حقائق الأشياء بتلك الصفة الخاصة، وهذه

كلها مستفادة من قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

وقال تعالى في بعض أخباره التي أخبر نبيه ﷺ: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى كنت سمعه الذي يسمع بي، وبصره الذي يبصر بي، ولسانه الذي ينطق بي، وقلبه الذي يعقل بي»(١).

فإذا كان جميع وجوده مستغرقًا في رؤية خالقه فكيف لا يطلع على مكنونات الغيب ومطلعه بنعت صفة الخاص هو الله تعالى.

وقيل: الحكمة إشارة لا علة فيها، وقيل: الحكمة إشهاد الحق على جميع الأحوال، وقيل: الحكمة تجريد السر بورود الإلهام.

وقال أبو عثمان: الحكمة هي النور المفرق بين الإلهام والوسواس.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت منصور بن عبد الله يقول: سمعت الكتاني يقول: إن الله بعث الرسل بالنصح لأنفس خلقه، وأنزل الكتاب لتنبيه قلوبهم وإنزال الحكمة لتسكن أرواحهم بها، والرسول داع إلى أمره، والكتاب داع إلى أحكامه والحكمة مشيرة إلى فضله.

وقال القاسم: الحكمة أن يحكم عليك خاطر الحق، ولا يحكم عليك شهوتك.

وقال الجنيد: أحيا الله قومًا بالحكمة ومدحهم عليها فقال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(٢).

وقال عبد الله بن المبارك: الحكمة الخشية.

وقيل: الحكمة إصابة القول مع صحة الفعل بالإخلاص.

وقال بعضهم: متى أثر فيك الحكمة؟ قال: منذ بدأت أحقر نفسي.

قال بعضهم: الحكمة كنز الله، والحكماء فيها ذمة الله، أمرهم ربهم أن ينفقوا كنز الله على عباد الله.

وقال بعضهم: الحكمة نور الفطنة.

وقال معروف الكرخي: مَنْ حسن علمه نزلت الحكمة في قلبه.

وقال سهل: الحكمة هي مجمع العلوم وأصلها السنة .

قال الله تعالى ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] والآيات الفرض والحكمة السنة.

---

(١) رواه البخاري (٦١٣٧)، وابن حبان (٢/ ٥٨) بنحوه.

(٢) فثبت أن الحكمة من المواهب لا من المكاسب؛ لأنها الأقوال لا من المقامات والمعقولات التى سمتها الحكماء حكمة ليست بحكمة فإنها من نتائج الفكر السليم. تفسير حقي (١٠/ ٤٠٤).

وروى سهل عن شيوخه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة الله بين عباده»[١]، فمَنْ تعلم القرآن، وعمل به فكأنما استدرجت النبوة بين كتفيه لا الوحي، يحاسب حساب الأنبياء إلا بتبليغ الرسالة.

وروى أيضًا عن شيوخه عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «القرآن حكمة من تعلم القرآن في شيبته خلط القرآن بلحمه ودمه، ألا وإن النار لا تمس قلبًا داعي القرآن ولا جسدًا اجتنب محارمه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، وآمن بمحكمه، ووقف عند متشابهه، ولم يبتدع فيه»[٢].

وقال بعضهم: الحكمة أربعة أشياء العلم والحلم والعقل والمعرفة.

قال أبو بكر الوراق: الإفاقة مع الحكمة، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ يبشر أولياءه بعظيم المجازاة وجزيل المكافأة، ويهيجهم إلى بذل الموجود والمجهود، وأدبهم ليستعملوا خواطر الإلهام من عقد القلب وتلفظ باللسان، ويحذر أولياءه باطلاعه على ضمائرهم وسرائرهم، وأنه لا يقبل إلا من وجه الإخلاص، وأعلم أنه يجازي كلا الفريقين المحسن بإحسانه والمسيء بسيئاته.

وقال الواسطي: أشار به إلى قوم لا يضرهم ولا ينفعهم مال ولا بنون، أي: إن الله بعلمه يعلم من يختم له بخير.

﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾ إن كان الإعطاء من مقام اليقين بنعت التمكين، وإن كان محقًا عن مطالعة النفس بنعت خصائص الإخلاص، وأيضًا أن أعلنت الإنفاق لتسبي بها قلوب المريدين وتهيج أسرارهم إلى بذل الأرواح في شرائط محبتنا ﴿فَنِعِمَّا هِىَ﴾،

---

(١) ذكره التستري في تفسيره (١/ ٦٠).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٥٥٣)، و«السنن الصغرى» (١/ ٥٤٣).

لأن المعاملة من الممكن تصير قدوة لطلاب المعرفة، وإن أخفيت ما عملت من نفسك والتفات المخلوقات وارتفاع الطبع في الأعواض ﴿فَنِعِمَّا هِيَ﴾ لأن قدس الباطن عن رؤية الأفعال وطمع الأعواض يكون واقعًا لخطرات المشوبة بالرياء، ويتولد منه صرف النفس في جميع الأحوال ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ قطع أسباب البداية من المعاملات والشفاعات عن قلوب أهل الولايات، وأضاف كلاءتهم إلى نفسه بأنه هاديهم ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ أي: لأنفسكم جزاء ما علمتم من مقامات المجاهدات بصوركم، ومن أعمال قلوبكم من ألم الفراق واحتراقها بنيران الأشواق، كما قال ﷺ حاكيًا عن الله ﷻ: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أُجازِ به»[1].

وأيضًا: أي لأنفسكم جزاء معاملتكم، وإلى التفضل كله بالفضل به عليكم لا بأعمالكم وأفعالكم؛ لأن خاصية الفضل لي، لا يدخل فيه على العبودية.

﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰاْ فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ الزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَوٰاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين حبسوا أنفسهم عن

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢٩٥)، والطبراني في «الأوسط» (٥/ ١٣١).

الميل إلى غير الله في مجلس مراقبة الله، ناظرين من الله إلى الله وراضين بقضاء الله في مراد الله، صابرين في بلاء الله محتسبين لله في مجاهدة أنفسهم، لا ينقضون عهود ميثاق الأزل إلى الأجل، أي:الذين وصفهم الله تعالى بإحضار نفوسهم عن التعرض إلى غير ذلك بالرمز والإشارة، وسؤال غيره على أحوالهم وصونًا لأسرارهم ومراعاة لحقيقة فقرهم، وعفة في مجاهدتهم خدمة أهل الدنيا ببذل المال والأنفس ليلاً ونهارًا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لا يتفرقون عن مجالستهم ومراقبتهم من قوة الحال، وغلبة الذكر عليهم واشتغالهم بمشاهدة سيدهم وشدة محبتهم وكثرة عشقهم وحقيقة يقينهم بربهم لطلب معاشهم وحوائجهم؛ لأنه قد غلب عليهم صحة التوكل وحسن الرضا وحقيقة التسليم وهم كانوا يفوضون جميع أمورهم إلى الله، ويسكنون بوعده؛ لأنه منَّان بأوليائه، وأهل طاعته أهل الثناء والمغفرة بحفظ أوقاتهم عن الخطرات والزلات ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ لأنهم لا يتملقون عند أبناء الدنيا بكلام اللين وإظهار التقشف، ولا يظهرون أحوالهم لأجل الرياء والسمعة شفقة بأحوالهم مع شدة افتقارهم إلى الله.

وصف الجاهل بقلة المعرفة بأحوالهم؛ لأن العالم يعرفهم بنور العلم والإيمان ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بشارة مشاهدة الحق في وجوههم، وبهجة نور المعرفة في قلوبهم؛ لأن الله تعالى أسبل على وجوههم نقاب سناء الصفات، وألبس جباههم نور جمال الذات أي: تعرفهم بهذه الصفات؛ لأنهم الأتقياء الأخفياء الذين لا يركنون إلى الخلق بسبب الدنيا وزينتها ولذتها، وأنهم من أهل المحبة الذين يبتلون بأنواع البلايا هم صابرون محتسبون لله وفي الله، ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾ لا ينبسطون إلى أهل الدنيا ولا يبتغون حظوظ أنفسهم من الخلق، ولكن ينبسطون إلى الإخوان في الله تلطفًا بهم وتعطفًا عن الميل إلى مألوفات الطبع والهوى.

وأيضًا: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وصف الله تبارك وتعالى أهل حقائق المعرفة، ونعتهم بالفقر أي أنهم حبسوا في صحاري التوحيد، وتيه التقديس بأصفار التحير، وألزموهم تراكم لطمات بحار الوحدانية، وأغرقوهم في سر العظمة مفتقرين من عين التلوين إلى عين التمكين، لا يستطيعون من ثقل أحمالهم مسيرًا من الحيرة إلى رؤية المنة وكشف القربة في أرض الديمومية، والطيران عن أشكال الحدوثية في أسرار الهوية القدمية.

وأن الله تعالى كشف لهم عن بساط العظمة، وأراهم نقوش صور غيب الغيب التي التبس الحق بها بنعت الرضا عن العشاق فيتحيرون بين الرسم والصرف تحيرًا استأصل لباس الحدوثية عن نفس أرواحهم، فإذا برزوا بهذه السمات من بطنان عجائب الغيب يحسبهم

صبيان الملكوت أنهم في جمال بسط الديمومية، ولا يعرفون شأن قبضهم؛ لأنهم في طيب مزمار الإحسان يحتجبون به عن إدراك أحوال المحترقين بنيران الكبرياء، لكن يعرف من غيب وراء الوراء وقطع حجب رسوم العبودية والربوبية أنهم مفتقرون إلى مشاهدة حسن الحسن، ومكاشفة قدم القدم والجمع بنعت الاتحاد، لا يظهرون مع عجزهم أحوال تحيرهم واحتياجهم لأهل التمكين غيرة على أهل الانبساط لكن يحترقون في الباطن ويستبشرون في الظاهر، هؤلاء مرضى المحبة وأسرار المعرفة ينعتهم الله مقام التفرقة بنعت الجمع، وقيل: ﴿أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الذين وقفوا مع الله بهممهم فلم يرجعوا منه إلى غيره، وقيل: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ﴾[1] أي: لا يتحركون لطلب الأرزاق.

وقال محمد بن الفضل في هذه الآية: يمنعهم علو همتهم عن رفع حوائجهم إلى مولاهم.

وقال ابن عطاء: يحسبهم الجاهل بحالهم أغنياء في الظاهر، وهم أشد الناس افتقارًا إلى الله تعالى في الظاهر، فاستغناؤه في الباطن.

وقيل في ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ﴾: أي في تطييب قلوبهم وحسن حالهم وبشاشة وجوههم ونور أسرارهم وجولان أرواحهم في ملكوت ربهم.

وقال سهل: إن الله ﷻ وصف الفقراء بصفة القدم من حال سؤال الافتقار واللجوء إليه ووصفهم بالرضا والقنوع لا استطاعة لهم إلا به ومنه، ولا قوة لهم من حولهم وقوتهم.

قد نزع الله منهم ركون قلوبهم إلى غيره، والمساكين راجعون إلى الأسباب كما وصفهم الله مساكين يعملون في البحر فردَّهم إلى حال السكون إلى الأسباب.

لذلك قال بعضهم: الفقر عز والمسكنة ذل.

وقال عمرو المكي: مَنْ أحب شيئًا كان به ضنينًا، مَنْ حب شيئًا كان به أنيسًا، ومَنْ أحب شيئًا كان له أسيرًا.

وقال النصر آبادي: الفقير ينبغي أن يكون له قناعة وعفة، ويعتبر بالقناعة ويرتدي بالعفة؛ لأن النبي ﷺ وسلم قال: «القناعة مال لا ينفد»[2]، فإذا كان الفقر بهذه الصفة دخل في

---

(١) أي: ذهاباً في الأرض للتجارة أو للأسباب، بل شغلهم الجهاد والتبتل للعبادة عن الأسباب، وهم أهل الصُّفَّة، كانوا نحواً من أربعمائة من فقراء المهاجرين، يسكنون صفة المسجد، يستغرقون أوقاتهم في العلم والذكر والعبادة، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ. البحر المديد (١/ ٢٣٢).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط» (٧/ ٨٤)، والديلمي في «الفردوس بمأثور الخطاب» (٣/ ٢٣٦).

جملة حديث النبي ﷺ: «يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام»(١).

وقال الثوري: تعرفهم بسيماهم يفرحون بفقرهم، واستقامة أحوالهم عند موارد البلاء عليهم.

وقال أبو عثمان: تعرفهم بسيماهم بإيثار ما يملكون مع الحاجة إليه.

وقال الجنيد: كلَّت ألسنتهم عن سؤال من يملك الملك، فكيف مَنْ لا يملكها.

قال الجنيد: سُئل عن الفقير الصادق متى يكون مستوجبًا لدخول الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام؟ قال: إذا كان هذا الفقير معاملاً لله بقلبه، موافقًا له في جميع أحواله منعًا وعطاء بعد الفقر من الله نعمة عليه يخاف على زوالها، كما يخاف الغني على زوال غناه، وكان صابرًا محتسبًا مسرورًا باختيار الله له الفقر صائنًا لدينه كاتمًا لفقره يظهره الإياس من اليأس، مستغنيًا بربه في فقره، كما قال الله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فإذا كان الفقير بهذه الصفة دخل الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام، ويُكفى يوم القيامة مؤنة الموقف.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ﴾: أي أخذ عليهم سلطان الحقيقة كل طريق لهم فلا لهم في الشرق مذهب، ولا لهم في الغرب مشرب، كيفما نظروا رأوا سرَّ ذوقات التوحيد محدقة بهم:

كَأَنَّ فجاجَ الأرضِ ضَاقَتْ برحبهَا ... عَليَّ فمَا تَزدادُ طُولاً وعَرضَا

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ مَنْ بلغ رؤية جمال مشاهدة الحق عشقه، ومن شرط العشق أن يبذل العاشق وجوده وماله في جميع الأوقات دفعًا للخطرات وخوفًا أن يسقط عن درجات المشاهدات.

قال ابن عطاء: الوقت وقتان، والحال حالان، فالوقت ليل ونهار، والحال سر وعلانية فإذا أنفق في الليل والنهار والسر والعلانية فقد قضى ما عليه إذ المحب لا يدخر عن حبيبه شيئًا، لا يفتر عن رضاه بحال.

قال عبد العزيز المكي في هذه الآية: أي: في ظلمة الليل حذرًا من خجلة الأخذ والنهار بواسطة تجعل بينه وبين الأخذ وحذرًا عن حياته منه سر صفائه، وإخلاصًا وعلانية أسوة واقتداء.

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٨)، والدارمي (٢/ ٤٣٧)، وابن ماجه (٢/ ١٣٨٠).

تَعۡلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٌ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسۡرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيۡسَرَةٍۚ ﴾ أدّب قومًا بتأديبه في كرمه ورحمته على المعسرين من الطاعة والمكثرين من المعصية، وهذا إخبار عن غاية شفقته على عباده إذ أمر بعضهم أن يمهل بعضًا في واجب حقوقهم، أشار بهذا إلى حقيقة الحقوق له يهب بفضله ما قصروا في واجب أمره تقدس وتعالى، وأيضًا: رمز لأصحاب المعاني في هذه الآية أي: إذا كان أهل المعرفة في عسر من المشاهدة وكشف القربة، فلا تطالبوهم بأثقال المعاملات والتماس الكرامات إلى ميسرة الكشوف، وبروز أنوار الحضرة في قلوبهم لأن للعارف مقامين: الأول: هو القبض، والثاني: هو البسط، فإذا كان في القبض فهو في هبوط الهجران وهو عسر ظاهر لا يؤدي في ذلك المقام حق الحقيقة، وإذا كان في مقام حق الحقيقة في مقام البسط وهو في رخاء التوحيد ويطيق أن يؤدي ما وجب عليه من حق الطريقة؛ لأنه في ذلك الحال ملتبس بأنوار الربوبية ويتهيأ له ما يريد كما وصف الله تعالى أنبياءه وأولياءه في حال انبساطهم وبسطهم مثل عيسى عليه السلام حيث قال: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾.

﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: خافوا يوم الفصل من الوقوف مقام الحياء والخجلة بين يدي ملك يمنع المندرجين عن مشاهدته، ويعاقب أولياءه بالخطرات والإشارات.

قال الواسطي: هذا ترهيب للعام وأما للخواص بقوله: ﴿وَإِيَّىَ فَٱتَّقُونِ﴾.

قال بعضهم: مَنْ لم يتعظ بمواعظ القرآن فليس له سواه سقط، وأي موعظة أعظم مما أخبر الله به عباده من الرجوع إليه، فمَنْ لم يحزن؛ لذلك الموقف ولم يبك لذلك المشهد فبأي موعظة يتعظ؟ والذي يمضي فيه غير موثوق والذي يبقى غير مأمون.

﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣) لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: لا تكتموا ما أشهدكم الله من مقام أهل الولاية بأن تخملوا ذكرهم حسدًا عليهم ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا﴾ يعني: ما خصهم الله به ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ أي: جزاء كتمانه قسوة قلبه، وإثم قلبه الحسد بأهل الولاية، وجزاء الحسد الطبع والختم، نعوذ بالله من ذلك.

﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: لله خزائن ملكوت الكونين وأسرار غيب العالمين، لا يكشفها إلا لخواص أحبته.

قال ابن عطاء: الكونان هو مبديهما من غير شيء فمَنْ اشتغل بهما قطعاه عن الله، ومَنْ أقبل على الله وتركهما ملكهما الله تعالى إياه ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: إن تظهروا ما في قلوبكم من حقائق المكاشفات والمخاطبات ليقتدي به أهل الإرادة، وتخفوه عجائب الغيب التي ترى عيون الأرواح القدسية تورعًا لئلا تفتتن بها أقوام من شفعاء المؤمنين لقلة فهمهم يرينكم الله تمكين المظاهر بما أظهرتم، حتى لا تفتتنوا بدقائق الرياء والسمعة، وبيقين الباطن بما أخفيتم من الخلق إخلاصًا وصدقًا لتذوقوا حلاوة صفاء الإخلاص في كتمان الأسرار، وأيضًا: أن تبدوا في الظاهر من شره الإحساس متابعة الوسواس ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ ما تحدث به أنفسكم في باطنكم من أطباء القلوب وحراس الغيوب يجازيكم بفتنة النفس والشيطان والغفلة والشهوة ﴿فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾ لمَنْ يدفع خطرات الباطن ترغيبًا. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ لمَنْ يتبع هواه بدخوله في الزلات تهذيبًا.

وقال جعفر: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الإسلام، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ قال: الإيمان.

وقال الواسطي: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من إرادة الكونين والمكنون، ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: بإرادتكم فيغفر لِمَنْ يشاء لمن أراد الجنة ونعيمها،ويعذب من يشاء من أثر الدنيا على الآخرة.

وقال علي بن سهل: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ﴾ الأعمال، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ من الأحوال، ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ العارف على أحواله والزاهد على أفعاله.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ بأن الله تعالى قدس باطن رسوله ﷺ من شَوائب النفسانية وخطرات الشيطانية، وكحّل عين سره بنور الملكوت، حتى قيل: بالصدق والإخلاص ما كشف له من عجائب الجبروت، ورأى بمصابيح القرآن أسرار الأزل والأبد ما جرى في بطنان الغيب وغيب الغيب رؤية عيان، وآمن بها إيمان المشاهدة والعرفان، كما قال الله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١١] ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ المؤمنون على قسمين منهم العارفون والصادقون والمشاهدون والمقربون، والمكاشفون والمخلصون والمحسنون والراضون والمتوكلون والمحبون والمريدون والمرادون، كلٌّ شاهدوا بعضًا مما شاهد الرسول ﷺ ولولا ذلك لم يشرعوا في بذل الأرواح ومجاهدة الأشباح؛ لكن للنبي ﷺ مشاهدة الصرف خاصة له بلا زحمة الخطرات، ولهم مشاهدة اليقين بوسائط الالتباس ممتحنين بالوسواس.

والقسم الثاني من المؤمنين هم الذين آمنوا إيمان الفطرة بإرشاد العلم والعقل والبيان والبرهان، وأصل لهذا الإشكال إلهام وفروعها أسباب.

وأيضًا استقام النبي الأمي ﷺ عند صدمة سلطان الأُلوهية، وتمكن فيها عاين من جلال ذات القديم -جل جلاله- بنعت صرف المشاهدة واليقين، والمؤمنون يريهم الله بعض أنوار غيبه فآمنوا بها أدركوا به.

قال الأستاذ: آمن الرسول ﷺ من حيث البرهان.

ويقال: آمن الخلق بالوسائط، وآمن محمد ﷺ بغير واسطة.

ويقال: هذا خطاب الحق سبحانه وتعالى معه ليلة المعراج على جهة تعظيم القدر، فقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ ولم يقل آمنت كما يقول العظيم الشأن من الناس.

قال الشيخ: وأنت تريد قلته.

وقال ابن عطاء: إن النبي ﷺ معدن سر الحق أظهره للعام أوقفه على شريطة قوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ﴾ ، وإذ أخفاه أخبر عنه بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم:١٠]، وهو مستغرق أوقاته في انتظار ما يظهر عليه الحق من الزيادات على روحه وسره وفؤاده وقلبه وشخصه؛ ألا تراه كيف نعته عن صفاته، وقوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ عن صفاتك لحياتك بنا وبإظهار صفاتنا عليك ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر:٣٠] عاجزون عن بلوغ درك صفاتك، وإيمان رسول الله ﷺ إيمان مكاشفة ومشاهدة، وإيمان المؤمنين إيمان بالوسائط والعلائق.

وقيل في قوله: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ : حكمًا وتسمية، ولا المؤمن موجود ولا الإيمان ظاهر.

وقال فارس: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ﴾ قال: إيمان حقيقة ومشاهدة ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾ إيمان حكم ومتابعة ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ أي: لو أظهر من جمال عز الأزل صفة من صفاتي لا يطيق الخلق أن يستقيموا عند كشف ذرة منها، لكن أواسيهم بلوائح التجلي بنعت الالتباس؛ لكي لا يفنوا مثل تجلي موسى وعيسى ومحمد ﷺ، وأيضًا: تسربلت الأرواح بأنوار الكبرياء، فاستقلوا بأنفسهم عند نهوضهم بأثقال المعرفة، وما أدركت من عجائب الربوبية، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الأحزاب:٧٢]، وأيضًا: لا يكلف الله حق عبوديته نفوس أوليائه إلا قدر ما يطيقون من جهة التقصير والضعف عند تحمل حقيقة العبودية؛ لأن من حق الربوبية أن تذوب الأرواح والأشباح في أول تكبيره كبروا تعظيمًا وإجلالاً، وأن الله تعالى ما أظهر للخلق من معرفته إلا مقدار ما يعيشون به من جهلهم بربوبية ربهم، ولو أيقنوا أنهم في معزل من حقيقة العبودية وإدراك صرف الربوبية ماتوا حسرة على ما فاتوا، ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ أي: ما كسبت أرواحهم من مقاساة الهجران في دار الامتحان، ﴿وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ ما اكتسبت النفوس من جرائم الخطرات عند مكاشفة الغيب للأسرار فيجازي الله النفوس في الدنيا بالذوب في المجاهدات، ويجازي الأرواح في الآخرة بصرف المشاهدات، ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ﴾ أي: لا

تحجبنا بنا عليك إن نسيناك، ﴿أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾ بالتفاتنا إلى غيرك، ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا﴾ أي: اعف عنا قلة المعرفة بك، ﴿وَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ التقصير في عبادتك، ﴿وَٱرۡحَمۡنَآ﴾ بمواصلتك ومشاهدتك.

وقال ابن عطاء: ﴿لَا تُؤَاخِذۡنَآ﴾ عند المصيبة واستر علينا في القيامة ولا تفضحنا بها على رءوس الأشهاد ﴿فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذا نجوى أهل الامتحان من المكاشفين والمشاهدين أي: نحن أسراء معرفتك وضعفاء محبتك، فارحمنا بتجلي العظمة حتى نقوى منك بك في محل العبودية وكشف الربوبية ﴿فَٱنصُرۡنَا﴾ بمعونة المعرفة وجند حقائق الإلهام عن مشاعر الألوهية، ﴿عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ أي: على أوباش الطبيعة حتى يهزموا عن ميادين معارفك بتأييد معرفتك وتشريح من تشويشهم في صرف عبوديتك وطلب مشاهدة حضرتك.

سورة آل عمران

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٧﴾﴾.

﴿الٓمٓ﴾ الألف إشارة إلى قدس فردانيته وامتناعه عن التصاق الحدث بقدمه، واللام إشارة إلى لطائف غيبه، والميم إشارة إلى غرائب ملكوته مما أخفى عن أعين الخلائق من قوة عيون أوليائه وأنبيائه، وأيضًا الألف إشارة إلى أوليته، واللام إشارة إلى جلاله وجماله، والميم إشارة إلى محبته لأوليائه في القدم، وقد جرت العادة بين الأحباب التخاطب بالحروف المفردات سترًا على الأحوال، وكتمًا للأسرار لئلا يطلع عليها أجنبي من هذه المعاني لغير هذه المباني.

كما قال: قلت لها قفي، قالت لي: قاف لكي لا يقف العاذلون على الأسرار، ونطقوا بهذه الإشارة حذرًا من استشراف المترقين، هكذا سنة الإلهية خاطب خواص محبيه بالرموز والإشارات مثل الحروف المقطعة هي رموز من الحق لسادة أنبيائه وأوليائه تشريفًا لهم وتعظيمًا على سائر الخلق، ومَنْ قرب من الله تعالى فالإشارة معه أدق والرمز معه أرق.

ألا ترى أنه تعالى أسمع كليمه كلامه أحسن العبارات، وأسمع حبيبه خطابه بأجمل الإشارات، قال ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر الكلام اختصارًا»[1].

وقيل: العبارات للعموم والإشارات للخصوص.

وقيل: الإشارة في قوله: «ألف» أراد قيامه بكفايتك على عموم أحوالك، والإشارة من اللام إلى لطفه بك في خفي السر، والإشارة من الميم موافقة جريان التقدير لمتعلقات الطلب من الأولياء، ولا يتحرك في العالم شيء، ولا يظهر ذرة إلا وهو محل الرضا منهم.

وإذا قرعت هذه الألفاظ أسماع المحبين تفهم حقائقها أسرارهم، وتقرأ معانيها من ألواح الإلهام أرواحهم القدسية، وكل حرف منها إشارة إلى اسم، والاسم إشارة إلى فعل والفعل إشارة إلى الصفة والصفة إشارة إلى الذات، فإذا لقيت هذه الرموز في قلوب العارفين رقوا مدارج الأسماء والأفعال والصفات حتى يبلغوا سرادق الكبرياء، فيكشف لهم معلومات السرمدية من الحق للحق فيفطنون علوم المجهولة التي ليست في ديوان الملكوت.

وقيل: الألف من الأحدية، واللام من اللطف، والميم من الملك.

وقال ابن عطاء: إن الله جعل الأحرف سببًا متصلاً بالحلق، وجعل المشكل لها سببًا متصلاً منه لها وهو سر الله، يعني المشكل لا يعلمه إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الحي الذي لا تقاس حياته ببعد الأوهام، ولا تدرك سرمدية ذاته بغوص فطن الأنام، وأيضًا ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي حياته قام به العالم واستنارت بنورها روح آدم ﷺ، و ﴿ٱلْقَيُّوم﴾ الذي يبقى ببقائه أهل الفناء ويفنى بقهر قيوميته أهل البقاء، وأيضًا ﴿ٱلْقَيُّوم﴾ هو المقدس عن العلائق وقيامه لخلقه بنعت حفظهم ورحمته عليهم روح الخلائق.

وقال الأستاذ: ﴿ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي لا يلهو فيشغل عنك، ولا يسهو فيبقى عنه فهو على عموم أحوالك رقيب سرك إن خلوت فهو رقيبك، وإن توسطت الخلق فهو قريبك.

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٠)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٩/ ٣١٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١٦٠).

وقيل: ﴿ٱلْحَىُّ﴾ الذي لا أول لحياته، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ الذي لا أمد لبقائه.

وقال الكتاني في حقيقة ﴿ٱلْحَى﴾: الذي به حياة كل حي، ومَنْ لم يحي به فهو ميت.

وقيل: ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ مَنْ هو مزيل العلل عن ذاته بالزوال، أو بالعبارة عنه وبالإشارة فلا يبلغ أحد شيئًا من كنه معرفته؛ لأنه لا يعلم أحد ما هو إلا هو.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللهِ﴾ أي: إن الذين حجبوا عن مشاهدة الحق بنعت اليقين في رؤية شواهد الربوبية، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لهم حرمان وجدان وصول مقامات أهل الهدايات.

وقال أبو سعيد الخرَّاز: كفروا بإظهار كرامات الله على أوليائه، ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ نفي الحق عن ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يعز أولياءه بولايته وإظهار الكرامات على مَنْ يشاء من عباده، ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ من يجحد ذلك، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ يعز أولياءه بعز التوحيد، وينتقم من أعدائه إنكارهم على أمنائه بألا يهديهم إلى ما آتاهم من أنواع فضله وكرمه.

قال الواسطي: ﴿عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ عن أن يخالف إرادته أحد، بل ينتقم بما يجري عليه أن يكون عقوبته مقابلة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ لا يخفي عليه شيء ما في صدور أوليائه في الأرض من لهب الاشتياق، ولا مما في قلوب أصفياء ملائكته تحت العرش من أزيز نيران الخوف، وهذا التسلية من الله تعالى لأوليائه أنه يعلم أحوالهم في شوقه، وإنه يجازيهم بمقاساتهم وممارستهم ابتلاءه، وأيضًا: كيف يخفى عليه شيء مما فطره من محدثات الكونين، لكن هذا تخويف من الله لأعدائه أنذرهم بأنه علم ما في ضمائرهم من دنس الكفر، وإنه يجازيهم بسوء أعمالهم.

وقال جعفر: لا يطلعن عليك، فيرى في قلبك سواه فيمقتك.

وقيل فيه: لا يخفي عليه شيء، فطالعوا هممكم أن تكون خالية عن الأهواء والشبهات، فإنه لا يخفى عليه شيء.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [1] أي: الذي يلبسكم في الأرحام نور جمال القدرة، ويزينكم بحسن مكث المشاهدة ليسر الناظر إذا نظر إلى وجوهكم بإدراك حسن إبداعه وإظهار جلال ربوبيته في وجوهكم، كما قال تعالى لكليمه: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ

---

(١) هذا فيما لا يزال من حيث الخلقة، وهو الذي قدَّر أحوالكم في الأزل كيف شاء، وهذا فيما لم يزل من حيث القضاء والقسمة، تفسير القشيري (١ / ٢٧٨).

مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه:٣٩]، وأيضًا ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ على استعداد الولاية والهداية، وأيضًا يصوركم ربانيين في علوم المعارف، أو مطمئنين في كشف نور الحقائق أو المخبتين تحت أثقال المعاملات أو المحسنين في شرف المقامات، كما كان في علم أزليته.

وقيل: يصوركم عالمًا به وعالمًا بصفاته وعالمًا بأوامره وجاهدًا له، فمَنْ لم يصحبه حزن ما قدر عليه في وقت تصويره من السعادة والشقاوة فهو الجاهل به والآمن من مكره.

وقال محمد بن علي: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ من الأنوار والظلمات.

قال النبي ﷺ: «إن الله خلق الخلق في ظلمة، وألقى عليهم من نوره؛ فمن أصابه ذلك النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ»[١].

وقال الحسين: خصوصية تصويره إياك أنه قوَّمك فسواك وعدلك، وأنزلك منزلة المخاطبين ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ المحكمات: التي لا تتبدل مما كانت في الأزل، وهي آيات لا بدَّ للمؤمنين من استعمال أوامرها؛ لأنها في إصلاح الخلق وتثبيت إيمانهم بمنزلة الدواء للمرضى.

قال أبو عثمان: هي فاتحة الكتاب التي لا تجزي الصلاة إلا بها.

وقال محمد بن الفضل: هو سورة الإخلاص؛ لأنه ليس فيها إلا التوحيد فقط، ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: مدار أوامر الكتاب، وموئل أصول المعاملات، ومنبت أشجار الإيمان في قلوب أهل المداناة بنعت المزيد، ويهيج الأرواح في اقتباس المخاطبات، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ هي أوصاف التباس الصفات وظهور الذات في مزار الشواهد والآيات ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أهل التقليد يخوضون في المتشابهات طلبًا للتوحيد، وهم بمعزل عن شهوده؛ لأنهم أصحاب الوهم، وصاحب الوهم لا يعرف حقيقة الأشياء المحدثة، فكيف يعرف وجود الحق برسم الوهم، وإذا كان يطلب العلوم المتشابهة لم يبلغ حقيقتها ويقع في الفتنة، ولهذا قال ﷺ: «تفكروا في آلاء الله، ولا تتفكروا في ذات الله»[٢].

ومَنْ لا يعبر بحار حقائق اليقين ولم ينظر في مرآة التحقيق، ورسم في المتشابهات يسقط عن رسوم إيمانه، ولا يبلغ معاني المتشابهات؛ لأنه مقام أهل العشق الذي يرون الحق في كل

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ١٩٨).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ١٣٦).

شيء.

كما قال بعض أهل المعاني: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه.

هذا وصف ظهور التجلي في قراءة الكون لا أن الحق تعالى حل في الأشياء؛ لأنه منزه عن أشكال الحلول، ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ خصَّ نفسه بحقيقة علم تشابه أسرار التباس هيئات الجبروت في الملكوت بنعت ظهور تجليه لأهل حقيقة التوحيد والتفرد، وأضاف إلى أوليائه من أهل العشق خاصة طرفًا من علم المشاهدة بنعت الالتباس في حقيقة المكاشفة، ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ إيمان مشاهدة وحقيقة علم وعرفان مكاشفة، والراسخون هم الذين كشف لهم أسرار العلوم اللدنية، وعجائب معلومات الآخرة الخارجة من أنصار الطاهرة، وأيضًا الراسخ الرباني الذي تخلق بخلق الحق جلت عظمته أن يكون له كفوًا.

وقال الواسطي: هم الذين رسخوا بأرواحهم في غيب الغيب في سر السر فعرفهم وخاضوا في بحر العلم بالفهم لطلب الزيادات ما كشف لهم من مدخور الخزائن تحت كل حرف منه من الفهم وعجائب الخطاب فنطقوا بالحكم.

وقال سهل: الرسوخ في العلم زيادة بيان ونور من الله، كما قال: ﴿رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

وقال: الراسخ في العلم من علوم المكاشفة رباني نوراني وذاتي، وأحكام العلوم أربعة: الوحي والتجلي والعندي واللدني.

وقال بعضهم: الراسخ في العلم مَنْ طولع على محل المراد من الخطاب.

وصف الأستاذ -رحمه الله- أهل اليقين وأهل الزيغ، قال: أما الذين أيدوا بأنوار البصائر، فمستضيئون شعاع شموس الفهم، وأما الذين أسبلوا غطاء الريب، وحرموا لطائف التحقيق فتنقسم بهم الأحوال، وترتجم لهم الظنون، ويطيحون في أودية التلبيس فلا يزدادون إلا جحدًا على جحد، ونفورًا على شك.

قال: ومَنْ وجد علم التأويل من الله عز وجل فيكون إيمانهم بلا احتمال لجولان خواطر التجريد، بل عن صريحات الظهور وصافيات اليقين.

قال: وأصحاب العقول هم في صحة التذكير لوجود البراهين وستر أحكام التحصيل، وأيضًا الراسخون في العلم المشاهدون بنعت الأرواح قبل الأشباح في ديوان الأزل، قد عاينوا مكنونات أسرار خصائص العلوم القدمية، وفهموا منها عواقب شأنهم في مدارج البقاء فرسخوا في بحر عين اليقين، ولم يتزلزلوا في ظهور الحكومات بنعت التصاريف والتحويل،

والمكر والخديعة فلم ينهزموا عن صولات القهر وتخويفه، وثبتوا صدمات الله، وفي الله فيما ظهر من الله من رسم المحو والطمس، وعلموا أن جميعها ابتلاء، وامتحان فسكنوا في العبودية رسمًا، ورسخوا في مشاهدة الربوبية حقيقة وصرفًا.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تزغ قلوبنا بفقدان الطمأنينة بذكرك، وأيضًا: لا تزغ قلوبنا عن قربك ومحبتك بعد إذ هديتنا إلى معرفتك ومحبتك ﴿وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ علمًا خاصًا ومعرفة تامة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ وهب ما لا يحصى شكره.

وقال سهل: رجع قوم للتضرع إليه والمسكنة بين يديه، ﴿بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أي: لا تمل بقلوبنا وأسرارنا عن الإيمان بك إذ مننت علينا به.

وقال جعفر: لا تزغ قلوبنا عنك بعد إذ هديتنا إليك من لدنك رحمة لزومًا لخدمتك، على شرط السنة ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ المعطي بفضله عباده ما لا يستحقونه من نعمة.

وقال الأستاذ: ما ازدادوا قربًا إلا ازدادوا أدبًا، واللياذ إلى التباعد أقوى أسباب رعاية الأدب.

وقيل: حين صدقوا في حسن الاستعانة أيدوا بأنوار الكفاية. ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾ إنك جامع أهل الحقيقة على بساط القربة على بساط الكرامة، والموقنون على بساط المشاهدة والمحبون على بساط الوصل، والعارفون على محل الأنس، وكل طائفة تبلغ عندك بطي منتهى مقاصدهم التي كانوا في الدنيا من رسم المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات.

وقال الأستاذ: اليوم جمع الأحباب على بساط الاقتراب وغدًا جمع الكافة لمحل الثواب والعقاب اليوم جمع الأسرار لكشف الجلال والجمال، وغدًا جمع الأستار لشهود الأهوال ومقاساة ما أخبر عنه من تلك الأحوال، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ لا يخلف ما وعد لأنبيائه وأوليائه من وصولهم إلى مشاهدته بعدما خاطبهم حين أبدع أرواحهم قبل وجود الكونين تعريف نفسه لهم بلا كلفة العذاب ومشقة الحساب، وأيضًا لا سبيل لتغير الحدثان إلى قدم علم الرحماني؛ لأنه تعالى منزه عن أن يفعل شيئًا بعلم يحدث في نفسه.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: الميعاد الذي وعد من السعادة والشقاوة في أزلي علمه لا يخلف ميعادًا لزهد زاهد، ولا لفسق فاسق.

قال الواسطي في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ قال: في إنزال كل واحد ما كان من الأعواض إيصال الخواص إلى محل الخاص من اللقاء والقرب، ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ يؤيد حتى يجاهد نفسه على شرائط السنة ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من خواص عباده، وأيضًا ألبس أولياءه أنوار هيبته ليفرق الشيطان بها عن أسرار مراقباتهم.

وقيل: يوفق مَنْ يشاء من عباده للزوم السنة، وترك البدعة.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ ابتلاهم حتى يظهروا الصادق بترك هذه الشهوات من الكاذب بالشروع في طلبها.

قيل: مَنْ اشتغل بهذه الأشياء قطعه عن طريق الحق، ومَنْ استصغرها، وأعرض عنها عوض عنها السلامة منها، وفتح له الطريق إلى الحقائق.

﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ﴾ أي: لمَنْ اتقى الله عما سوى الله جنات المقامات في المداناة فإن تبقى المتقي من الدنيا وشهواتها فله جنه اليقين، وإن تبقي المتقي من الآخرة فله جنة المكاشفة، وإن تبقى من النفس فله جنة المشاهدة بنعت الرضا كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨ ﴾ [الفجر: ٢٧، ٢٨].

وقيل: مَنْ عمل رجاء الجنة فإن غاية بلوغه إلى غاية رجائه من دخول الجنة، ومن كانت معاملته على رؤية الرضا فإن له الرضوان، قال الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[1] بصير بالعباد في تقلب أرواحهم في عالم الملكوت محترقات من سطوات أنوار الجبروت حبًّا لجواره وشوقًا إلى لقائه، يجازيهم بقدر همومها في صرف طلب وجه الأزلي وجمال الأبدي.

وقيل: عالم بهمم العاملين وإرادتهم.

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ الصابرين عن جميع حظوظهم لله، والصادقين في معاملة الله، والقانتين بنعت الرضا عن الله، والمنفقين نفوسهم لله وبالله، والمستغفرين عن التفاتهم إلى غير الله بالأسحار حين أشرقت أنوار المشاهدة لأهل المكاشفة.

وأيضًا: الصابرين عن الله بالله، وبالله لله، ولله في الله، ولله مع الله، والصادقين في دعوى محبة الله بنعت كشف مشاهدة الله، والقانتين بشرط الإخلاص في عبودية الله، والمنفقين حياتهم في رضا الله، والمستغفرين عن الخطرات في أوقات المناجاة.

وقيل: الصابرين على صدق المقصود، والصادقين في العهود، والقانتين لحفظ الحدود، والمستغفرين عن أعمالهم وأحوالهم عند استيلاء سلطان التوحيد.

وقيل: الصابرين الذين صبروا على الطلب، ولم يتعللوا بالهرب، ولم يحتشموا من التعب، وهجروا كل راحة وطرب يصبرون على البلوى، ورفضوا الشكوى حتى وصلوا إلى المولى، ولم يقطعهم شيء من الدنيا والعقبى.

والصادقين: الذين صدقوا في الطلب فقصدوا، ثم وردوا ثم صدقوا حين شهدوا، ثم صدقوا حتى وجدوا، ثم صدقوا حتى فقدوا تزينهم قصودًا، ثم ورودًا، ثم شهودتهم وجودًا، ثم خمودًا.

---

(١) أي: بنياتهم ومقادير ما يستحقونه بها على حسب إخلاصها، وبغير ذلك من أعمالهم وأقوالهم وسائر أحوالهم. نظم الدرر (٢ / ٥).

والقانتين: الذين لازموا الباب، وداوموا على تجرع الاكتساب، وترك المحاب، وبغض الأصحاب إلى أن تحققوا بالاقتراب.

والمنفقين: الذين جادوا بنفوسهم من حيث الأعمال، ثم جادوا بميسورهم من الأموال، ثم جادوا بقلوبهم بصدق الأحوال، ثم جادوا بترك كل حظ لهم في العاجل والآجل استهلاكًا عن القرب في الوصال بما لقوا به من الاصطلاح والاستيصال.

والمستغفرين :عن جميع ذلك إذا رجعوا إلى الصحو عند الأسحار يعني: ظهور الأسفار، وهو فجر القلوب لا فجر يظهر في الأقطار.

وقال أبو عمرو المكي: ليس الصبر ترك الاختيار على الله، ولكن الصبر هو الثبات فيه، وتلقي بلاءه بالرحب والرغبة.

وقال عمرو: من صبر على رؤية المنة يكون تلذذه بالبلاء كتلذذه بالمنن إذ هما من عين واحدة.

وقال جعفر: الصبر ما كتب فيه محفوظًا، والتصبر فيه ما رددت فيه إلى حالك وعجزك.

وقال ابن عطاء: الصابرون هم الذين صبروا بالله في طاعة الله مع الله، والصادقون هم الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه عن صدق قويم، واعتماد صحيح وسر لا يشوبه شيء، والقانتون هم الذين أطاعوا في سرهم وعلانيتهم، والمستغفرون بالأسحار الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع.

وقال بعضهم: الصابرون مع الله على موارد قضائه، والصادقون في توحيدهم ومحبتهم والقانتون الراجعون إليه في السراء والضراء، والمنفقون ما سواه، والمستغفرون بالأسحار من أفعالهم وأقوالهم.

وقال ابن عطاء: الصابرون الذين صبروا على ما أمروا به، والصادقون الذين صدقوا ما أقروا به من الميثاق الأول والقانتون القائمون لفنون العبادات، والمنفقون الذين ينفقون أنفسهم وأرواحهم في رضا مولاهم، والمستغفرون بالأسحار الذين لا يفترون عن خدمته بحال.

وقال أيضًا: الصابرون الذين حبسوا أنفسهم على مطالعة المكاشفات، والصادقون الذين صدقوا في محبته، والقانتون الذين ربطوا أنفسهم بخدمته، والمستغفرون بالأسحار لزموا الباب إلى أن يؤذن لهم.

وقال أيضًا: الصبر مقام المحبين، والصدق مقام العارفين، والقنوت مقام العابدين، والإنفاق مقام المريدين، والاستغفار مقام المذنبين.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ إن الله تبارك وتعالى وتقدس كان بداية وصفاته عالمًا وعارفًا كما ينبغي منه لنفسه فشهد بنفسه لنفسه قبل القبل، وكون البعد وكون الكون؛ فليس مقابل علمه بنفسه جهل، وليس مقابل معرفته بنفسه نكرة، وليس مقابل شهادته بنفسه عجز ووحشة، بل وصف نفسه بنفسه، وشكر نفسه بنفسه، إذ ليس للخلق إلى معرفته، والعلم بنفسه سبيل فأثنى بنفسه على نفسه لعلمه بعجز خلقه عن معرفة وجوده، فمراده من شهادته بنفسه قبل وجود العالم تعليمًا لعباده تلطفًا منه عليهم، وإلا هو منزه عن وجود الخلق، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت:٦]، فشهادته لنفسه حقيقة، وشهادة الخلق له رسم، والحقيقة بدت من الحقيقة، وتعود إلى الحقيقة، والرسم بدء من الرسم، ويعود إلى الرسم؛ لأن القدم مفرد عن الحدث من جميع الوجوه علمًا ورسمًا وحقيقةً.

ثم خلق الملائكة وكشف لهم ذرة من نور قدرته فاقتبسوا من نوره نورًا فأبصروا به آثار أفعاله القديمة فشهدوا به وبوحدانيته وأزليته وسرمديته، رامتهم في العبودية لا حقيقة منهم في الربوبية، فرضي الله تعالى به عنهم أمرًا ورسمًا لا حقيقة ووصفًا، ثم خلق الأنبياء والأولياء، وأبرز لهم أنوار جماله ذاته في مصابيح أرواحهم قبل الأجساد بألفي ألف عام، فنظروا بنوره إلى جمال جلاله وتحيروا في كنه عظمته وكبرياء جبروته، وعجزوا عن ثنائه ووصفه وشكره لنفسه.

خاطبهم الحق جل سلطانه بنعت تعريف نفسه لهم فقال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾ [الأعراف:١٧٢]؛ فشهدوا بعد إقرارهم في محل الخطاب، فشهادتهم رسم التعليم لا من حقيقة رسم القديم، والفرق بين شهادة الملائكة، وبني آدم من أهل العلم أن الملائكة شهدوا من حيث اليقين، وأولوا العلم من حيث المشاهدة وأيضًا شهادة الملائكة من رؤية الأفعال، وشهادة العلماء من رؤية الصفات.

وأيضًا شهادة الملائكة من رؤية العظمة وشهادة العلماء من رؤية الجمال، لأجل ذلك يتولد من رؤيتهم الخوف، ومن رؤية العلماء الرجاء.

وشهادة العلماء بالتفاوت فشهادة بعضهم من المقامات، وشهادة بعضهم من الحالات، وشهادة بعضهم من المكاشفات، وشهادة بعضهم من المشاهدات، وخواص أهل العلم يشهدون به له بنعت إدراك القدم، وبروز نور التوحيد من جمال الوحدانية، فشهادتهم مستغرقة في شهادة الحق؛ لأنهم في محل المحو من رؤية القدم، وسئل سهل بن عبد الله عن هذه الآية فقال: شهد بنفسه ومشاهدة ذاته، واستشهد من استشهد من خلقه قبل خلقه لهم

فكان في ذلك تنبيهًا أنه عالم بما يكون قبل كونه لا يتجاوز أحد من حكمه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾[١]: دلنا من نفسه على نفسه بأسماء، وفيه بيان ربوبيته وصفاته فجعل لنا في كلامه وأسمائه شاهدًا ودليلاً، وإنما فعل ذلك لأن الله وحد نفسه ولم يكن معه غيره، وكان الشاهد عليه توحيده ولا يستحق أن يشهد عليه من حيث الحقيقة سواه، إذ هو الشاهد فلا شاهد معه،ثم دعا الخلق إلى شهادته فمن وافق شهادته شهادته فقد أصاب حظه من حقيقة التوحيد، ومن حُرم ضَلَّ.

وقال ابن عطاء: إن الله شهد لنفسه بالفردانية والصمدية والأبدية، ثم خلق الخلق فشغلهم بعبادة هذه الكلمة فلا يطيقون حقيقة عبادتها؛ لأن شهادته لنفسه حق وشهادتهم بذلك رسم وأنى يستوي الحق مع الرسم.

وقال أبو عبد الله القرشي في قوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ فقال: هو تعليم منه ولطف وإرشاد لعباده إلى أن شهدوا له بذلك، ولو لم يعلمهم ذلك لم يرشدهم لهلكوا كما هلك إبليس عند المعارضة.

وقال بعضهم: شهادة الله لنفسه بما شهد به شهادة صدق، ولا يقبل الشهادة إلا من الصادقين فظهر بهذا أنه لا يصلح التوحيد إلا للصادقين دون غيرهم من الخلق.

وقال أبو يزيد -رحمة الله عليه- يومًا لأصحابه: بقيت البارحة إلى الصباح أجهد أن أقول: لا إله إلا الله، فما قدرت عليه.

قيل: ولم؟ قال: ذكرت كلمة قلتها في صباي جاءتني وحشة تلك الكلمة فمنعتني عن ذلك، وأعجب ممن يذكر الله وهو متصف بشيء من صفاته.

وقال الشبلي: ما قلت قط الله إلا واستغفرت من ذلك؛ لأن الله يقول: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ فمَنْ يشهد بذلك له من الأكوان إلا عن أمر أو غفلة.

وقال ابن عطاء: أول ما خلقوا في حقائق البقاء مع الله فنوا عن كل شيء دون الله حتى

---

(١) قال الحرالي: فأعاد بالإضمار ليكون الشاهد والمشهود له (لا إله إلا هو) فأعاد بالهوية لمعنى الوحدانية في الشهادة ولم يقل: إلا الله، لما يشعر به تكرار الاسم في محل الإضمار من التنزل العلي انتهى. والمعنى أنه سبحانه وتعالى فعل فعل الشاهد في إخباره عما يعلم حقيقته بلفظ الشهادة جرياً على عادة الكبراء إذا رأوا تقاعس أتباعهم عما يأمرون به من المهمات في تعاغطيهم له بأنفسهم تنبيهاً على أن الخطب قد فدح والأمر قد تفاقم، فيتساقط حينئذٍ إليه الأتباع، ولو أن فيه الهلاك تساقط الذباب في أحلى الشراب. نظم الدرر للبقاعي (٢ / ٩).

ثبتوا مع الله.

وقال الشبلي: شهادة أن لا إله إلا الله عشرة أحرف ستة في الظاهر، وأربعة في الباطن، فأما التي في الظاهر فذكر الله بلا رياء، والثاني: أداء الأمر بلا عيب ولا تقصير، والثالث: كف النفس عن المحارم، والرابع: النصيحة للمؤمنين، والخامس: الفرار من الآثام، والسادس: معاداة النفس، وأما اللواتي في البواطن فإيمان ومعرفة بالقلب ونية وخشوع وفكرة واستقامة مع رؤية التوفيق فمن فعل هذا كله فقد شهد الله بالحقيقة.

وقيل للشبلي: لم تقول: الله، ولا تقول: لا إله إلا الله؟

قال: القول شمس تغالب فقدها بثبوتها، فإذا استحال الفقد ماذا يغلب، ثم قال: وهل يُنفى إلا ما يستحيل كونه؟ وهل يثبت إلا ما يجوز فقده؟

وقال المزني- رحمه الله: دخل ابن منصور مكة، فسُئل عن شهادة الزور للحق بالوحدانية، وعن التوحيد فتكلم فيه حتى نسينا التوحيد، فقلنا :هذا يليق بالحق به من حيث رضي به نعتًا وأمرًا، ولا يليق به وصفًا ولا حقيقة، كما رضي بشكرنا لنعمه، وأنى يليق شكرنا بنعمه.

وقال: ما دمت تشير فلست بموحد حتى يستولي الحق على إشارتك بإفنائها عنك فلا يبقى مشير ولا إشارة.

وقال أبو سليمان الداراني: تطلب رضا ربك، وتبخل بمالك وتعجز عن طاعتك كلا فالشاهد لله بالحقيقة من لا يخل بروحه ونفسه وقلبه في رضا مولاه.

وقال بعضهم: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾ علم الله لأنه معلوم نفسه بكمال العلم والشهادة إخبار عن العلم والإسلام أصول وفروع وكلها تتشعب من أصل واحد وهو الوحدانية.

وقيل في قوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾: أن العلماء ثلاثة: عالم بأمر الله وأحكامه فهم علماء الشريعة، وعالم بصفاته ونعوته فهم علماء السنة، وعالم به وبأسمائه فهم العلماء الربانيين.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ العزيز أن يمتنع كنه قدمه من مطالعة المخلوقين، وأيضًا العزيز الذي لا يصفه أحد إلا برسم وصفه نفسه الحكيم، هو الذي حكم حقيقة الشهادة لنفسه ورسمها بعباده.

والحكيم أيضًا الذي حجب الخلق عن نفسه أن يروه بما حصل لهم من رسم توحيده في قلوبهم، أن ما حصل من رسوم التوحيد للعباد مشوب بطيف الخيال، وما يبرز من حقيقة التوحيد من جلال عظمته يخالف ما خطر في قلوبهم.

وقيل: العزيز الممتنع عن أن يلحقه توحيد موحد أو وصفة واصف إلا على الأمر

به،الحكيم فيما يشهد به لنفسه.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾[1] وقف الإسلام الرضا بمراد الحق وإمضاء قضائه وقدره بنعت استقامة السر في الباطن، وقلة الاضطراب في الظاهر، ووجدان لذة المحبة وقت نزول البلاء في المحنة.

قال أبو عثمان: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ﴾ ما سلم لك من البدع والضلالة والأهواء، وسلمت فيه مِن الرياء، والشهوة الخفية، ورؤية الخلق،وتعظيم الطاعة.

وقيل :إنَّ المتدين بالإسلام من سلِم من رؤية الخلق،وسَلِم قلبه من شهوات نفسه، وسلِم روحه من خطرات قلبه، وسلم سره من طيران روحه، فهو في حال الاستقامة مع الله.

وقال بعضهم: أركان الإسلام أربعة: التواضع، والألفة، وكظم الغيظ، والصبر، إذا تمَّ هذه الأربعة وجد منه أربعة أخرى: من التواضع التوكل، ومن الألفة التسليم، ومن كظم الغيظ التفويض، ومن الصبر الرضا.

---

(١) الدِّينُ الذي يرتضيه، والذي حكم لصاحبه بأنه يجازيه ويعليه، وبالفضل يُلَقِّيه- هو الإسلام، والإسلام هو الإخلاص والاستسلام، وما سواه فمردود، وطريق النجاة على صاحبه مسدود. تفسير القشيري (١/ ٢٩١).

قال جعفر الصادق :إذا لم يكن إسلام العبد على معرفة النعم من الله، والتوكل عليه، والتسليم لأمره؛ فهو على اسم الإسلام، لا على حقيقته.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ خصَّ الله تعالى نفسه، ومدحه بملك الربوبية، وأنّه ذو الملك والملكوت والجبروت وملكه قديم، وهو موصوف به في الأزل، ويبقى له إلى أبد الأبد، وهو مفرد به؛ ثم خصّ بملكه الذي هو صفاته من يشاء من أنبيائه وأوليائه، فالملك الذي خصَّ الأنبياء هو الاصطفاء، والاجتباء، والخلافة، والخلة، والمحبة، والتكليم ،والآيات، والمعجزات، والمعراج، والمنهاج، والرسالة، والنبوة.

وخصَّ بما ذكرت مِن بين الأنبياء صلوات الله عليهم آدم، وشيث، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، ويونس ولوط، وشعيب، وحزقيل، وخضر، وموسى، وهارون، ويوشع، وكالب، وأيوب، وداود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى، ومحمد سيد الرسل خاتم الأنبياء- صلوات الله عليهم أجمعين.

فكسا الله تعالى سفرة الأنبياء والرسل عليهم السلام كسوة الربوبية والسلطنة؛ فظهرت منهم الآيات والمعجزات وقهروا بعز ملك النبوة والرسالة جبابرة الأرض،وهذا موهبة خالصة أزلية سبقت لهم بعناية الله تعالى في أزل علمه، وحرّمها على أهل الخذلان في سابق علمه وهو معنى قوله: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾، وما قال تعالى لخليله: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وأمّا الملك الذي خصَّ به أولياءه فعلى أربعة أقسام: قسم منها الكرامات والآيات مثل: تقلب الأعيان، وطي الأرض، واستجاب الدعوة؛ وهو لأهل المعاملات، وقسم منها وهو أشرف من الأول وهو المقامات مثل: الزهد، والورع، والتقوى، والصبر، والشكر، والتوكل، والرضا، والتسليم، والتفويض، والتقويم، والصدق، والإخلاص، والإحسان، والاستقامة، والطمأنينة؛ وهو لأهل الدرجات، وقسم منها وهو أشرف من الثاني هو الوجد، والنجوى، والمراقبة، والحياء، والخوف، والرجاء، والمحبة، والشّوق، والعشق، والسُكر، والصحو؛ وهو لأهل الحالات، وقسم منها وهو أشرف من الثالث هو الكشف والمشاهدة والمعرفة والتوحيد والتفريد والفناء والبقاء وهو لأهل المعاينات، فهذه الأحوال التي ذكرناها أصل ملك الولاية، فمَنْ خُصَّ بها فقد بلغ ذروة ملك الأزل والأبد، ومَن حُرم منها فقد

سقط عن حظ الدنيا والآخرة، يَعِزُّ بها سادة أوليائه فهلكوا جميع القلوب بفراسة نور الغيب، ويذل بإنزاعها عن أعدائه حتى لا ينالوا عهد كرامته في الدنيا والآخرة، وأيضًا ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ يعني: صرف المحبة بحلية الكرامة،ونعت الطّهارة عن الأكوان، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ ملك العبودية وعرفان الربوبية ﴿مِمَّن تَشَآءُ﴾، أي: مَن ليس له استعداد المعرفة.﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالأنس، والشوق، والعشق، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالخذلان، والحرمان، وفقد حقائق القرآن.

قال أبو عثمان: ﴿ ٱلْمُلْكِ﴾ الإيمان وهذا دليل على أنّ الإيمان لا يتحقق على شخص إلا بعد الكشف والسلامة له في الانقلاب إلى ربّه، وربّما يكون عارية، وربّما يكون عطاء، قال الله تعالى: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فهو مترسِّم برسم الملوك، وقد نزع منه ملكه .

وقال بعضهم: ملك الدين، والشريعة، وفرضها، وسنتها، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ الهداية والتوفيق،﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بولايتك ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بإهانتك. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ إنّك القادر على مَن تشاء، كيف تشاء.

وقال محمد بن علي: الملك المعرفة، تعطي معرفتك مَنْ تشاء من عبادك، وتنزعها عمّن تشاء، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ باصطفائك واجتبائك، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ بالإعراض عنه، ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ أي: منك الاصطفاء والاجتباء، قبل إظهار عبادة العابدين.

وقال الحسين: ﴿تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ﴾ فتشغله به، ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أي: ممَنْ اصطفيته لك فلا يؤثر فيه أسباب الملك لأنّه في أسرار الملك، ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ بإظهار عزّتك عليه، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾[1] بإنصافه برسوم الهياكل.

وقال الواسطي: طوبى لِمَنْ ملكه قلبه وجوارحه، كي يسلم من شرورهما.

وقال الشبلي: ﴿ ٱلْمُلْكِ﴾ الاستغناء بالمكون عن الكونين.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ

---

(١) بخذلانك، وتعز من تشاء بأن تهديه ليشهدك ويوحدك، وتذل من تشاء بأن يجحدك ويفقدك وتعزّ من تشاء بيُمْنِ إقبالك، وتذل من تشاء بوحشة إعراضك، و تعزّ من تشاء بأن تؤنسه بك، وتذل من تشاء بأن توحشه عنك، وتعز من تشاء بأن تشغله بك، وتذل من تشاء بأن تشغله عنك، وتعز من تشاء بسقوط أحكام نفسه، وتذل من تشاء بغلبة غاغة نفسه، وتعز من تشاء بطوالع أُنسه وتذل من تشاء بطوارق نفسه، وتعز من تشاء ببسطه بك، وتذل من تشاء بقبضه عنك.

ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ تولج دخان البشرية في سلطان صفاء التوحيد، وأيضًا تلاشي ظلمة النفوس في أنوار الأرواح، وأيضًا أفنى ظلمة الطبائع في صفاء القلوب، وأيضًا تحرق سجوف ليالي الهجران بطلوع شموس العرفان، وأيضًا تخرق حُجب الحدوثية عند ظهور سناء قُدس الصمدية، وأيضًا ترفع قوام الملكوت حين تبرز أنوار جمال الجبروت.

﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: تفني أنوار الأسرار في أطباق ظلمات الطباع، وأيضًا أي: تسبل حجاب الفناء على وجوه أهل البقاء، وأيضًا: ﴿وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ حين كسفت شمس المعرفة في منازل النكرة، وغلبت ظلمة الفترة على نور المعاملة.

﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي: تخرج أشجار أنوار المعرفة بكشف جمال المشاهدة من القلوب الميتة بتواتر الفترة.

وأيضًا: تخرج أرواح القدسية بأصوات جرس الوصلة عند غلبات الوجود من الأشباح المضمحلة، تحت أثقال سلطان كشف توحيد الوحدانية إلى فضاء السرمدية لتجول في سرادق الكبرياء، وخيام الملكوت، طلبًا لمشاهدة جمال الجبروت.

وأيضًا: يخرج العارف العاشق من العامي الغافل، وأيضًا أي: مياه دموع العارفين بنيران الوجد من قلوبهم الخالية عن آثار المشاهدة ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾ أي: العامي من الولي الحي بالمعرفة ورؤية مشاهدة خالق الخلق جل وعز.

وأيضًا: إذا يبست عيون المعرفة في قلوب العارفين من حرارة امتحان القهر يخرج منها حنظل الشرك مكان سكر التوحيد، وعصاه الشك مكان نرجس اليقين، وأورقت فيها أشجار الغفلة بأوراق هموم المذمومة، ويبست رياحينها بانقطاع عنها مياه صفاء المعاملة ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي: من هذه المقامات المختلفة بغير رؤية ولا تدبير الإنسانية.

وأيضًا: ترزق العارفين مقام المشاهدات وترزق المشتاقين مقام المكاشفات، وترزق المحبين مقام المداناة وترزق الموحدين مقام البقاء، والفناء، والصحو، والسكر، والاتحاد،

وترزق العاشقين مقام الجمع والتفرقة، وترزق الأحرار مقام التلوين والتمكين بغير حساب أكثر من أن يحصى عدد أسرارها ويعد حقائق أنوارها ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ أي: لا يصحب العارف الجاهل ولا المخلص المرائي، ولا الصادق الكذاب، ولا المؤمن المبتدع المنكر، ولا المريد الصادق الفاتر المدعي، ولا يحب أهل الحق أهل الباطل حتى ينالوا ببعضهم مقام حقيقة العبودية.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: لا ينال من الله تعالى درجة أهل محبته وقربته ومعرفته، ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ حذر أصفياءه بالفراق عن وصله بسبب محبة أعدائه، وبهذا التخويف يربي خواص أحبته في قباب الشفقة وأسبل بهذا عليهم نقاب الغيرة حتى لا يراهم أحد سواه ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ مشفق بأوليائه وأهل طاعته بأن يسترهم عن أبصار الغفلة والجهلة وأكرمهم بصحبة أهل التوحيد والمعرفة، وبسط لهم بساط الشريعة والحقيقة حتى يردوا موارد الأنبياء والرسل، وشربوا من مناهل المقربين شراب الصفاء، ولبسوا من نسج الكروبيين أثواب الوفاء.

وسُئل أبو عثمان عن قوله: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ﴾ فقال: لا ينبسط شيءٌ إلى مبتدع؛ لفضل عشيرة، ولا لقرابة نسب، ولا نلقاه إلا ووجهه له كاره، فإنْ فعل شيئًا من ذلك فقد أحب مَنْ أبغضه الله، وليس بولي الله من لا يوالي أولياء الله، ولا يعادي أعداءه.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ : إنَّما يحذر نفسه من يعرفه، فأمَّا مَنْ لا يعرفه؛ فإن هذا الخطاب زائل عنه.

وقال الواسطي: يحذركم الله نفسه في دعوى إتيان شيءٍ من الطاعات؛ إذ فيه جذب الربوبية.

وقال أيضًا: ذلك ألا يأمن أحدٌ أن يفعل به ما فعل بإبليس زينة بأنوار عصمته، وهو عنده في حقائق لعنته، وسبق عليه ما سبق منه إليه حين غاضبه فجأة بإظهار علته.

وقال أيضًا: إنه لا يحذر نفسه مَنْ لا يعرفه، وهذا خطاب الأكابر، وأما الأصاغر فخطابهم: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

وقال جعفر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ هذا الخطاب للأكابر ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ خطاب للأصاغر.

وقال ابن عطاء: احذر سطوته ونقمته؛ فإنَّه عزيز قهار، وابذل روحك له، واعلم أنك

مقصر مع هذا كله، وأنشد:

لا تَعــرِضْ بــنَا فَهــذا بَــنَان قــدْ خَــضَبنَاهُ بِــدمِ العُــشَاقِ

وقال الواسطي: يحذركم أنْ تثبتوا نفسه بنفوسكم وصفة القديمة عليكم بأحوالكم الخديعة، وأنْ تنسوا الأزلية بالآخرية، والربوبية بالعبودية، فإنَّ الأصل أتم من الفرج، وإنَّ العبودية إنما ظهرت بالربوبية.

وقال إبراهيم الخوَّاص: علامة الحذر في القلب دوام المراقبة، وعلامة المراقبة التفقد للأحوال النازلة.

وقال جعفر: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أنْ تشهد لنفسك بالصلاح؛ لأنَّ مَنْ كانت له سابقة ظهرت سابقته في خاتمته.

قال الأستاذ: الإشارة من قوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ للعارفين، ومن قوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ للمشتاقين، فهؤلاء أصحاب العنف والفتوة، وهؤلاء أصحاب التخفيف والسهولة.

وقيل: إغناؤهم بقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ ثم أحياهم فأبقاهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾.

وقال ابن عطاء -رحمه الله: العبادة أجمع مؤمنهم وكافرهم وبرهم وفاجرهم، وخصَّ رحمة الرسول ﷺ موقوفة على المؤمنين دون مَنْ سواهم، وهذا كقول إبراهيم ﷺ حين قال: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ﴾ [البقرة: ١٢٦] فإنَّه لا رازق في السماوات والأرضين غيره، وسن في ربوبيته تعالى أنْ يحذر أولياءه وأعداءه، فحذر أعداءه بما صدر من أفعاله القديمة من نكال الجحيم والحطمة؛ لأنَّها قهر بالواسطة بين الأفعال والصفات، وحذَّر أولياءه والمؤمنين خاصة صفاته وذاته، فتحذير المؤمنين بالصفات كالحرمات والهجران عن نواله وكرامته، وتحذير أوليائه بعزة نفسه، وهم على طبقاتٍ شتى، وجمعهم في وصول التوحيد، وفرَّقهم في منازل المقامات، فحذَّر التائبين بالسلطنة، وحذَّر الخائفين الوجلين بسطوات العظمة.

وحذَّر المحبين والمشتاقين والعاشقين بالعزة والجبرية، وحذَّر العارفين والموحدين بصدمة الكبرياء والظلمات بحر الديمومية، وبهذه الصفات يحذر أهل انبساط والبسط والرجاء لسقوط سوء الأدب عنهم في مدارج التوحيد والكرامة.

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: قل إن ادَّعيتم محبة الله وأنتم صادقون فيما ادعيتم فاتبعوني فإنِّي سيد المحبين، ورئيس الصدِّيقين، ومقدم المرسلين، وقدوة المريدين حتى أريكم مغيبات المهلكات، وغوامض طريق المنجيات، ودقائق أحكام المشاهدات، وأسرار لمعات المداناة، وأرشدكم إلى أحسن المعاملات، وأفضل الطاعات، وأعملكم حسن الآداب، ونفائس الأخلاق، زادٌ إلى المآب؛ لأنَّ قد كوشفت بأسرار المحبة، وأنوار القربة، وإن متابعتي حقيقة شكر محبة المحبوب، وإذا شكرتم الله بمتابعتي زادكم الله محبته ومعرفته، قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧].

وحقيقة المحبة عند العارفين والمحبين احتراق القلب بنيران الشوق، وروح الروح بلذة العشق، واستغراق الحواس في بحر الأنس، وطهارة النفس بمياه القدس، ورؤية الحبيب بعين الكل، وغمض عين الكل عن الكونين، وطيران السر في غيب، وتخلُّق المحب بخلق المحبوب، وهذا أصل المحبة.

أما فرع المحبة فهو موافقة المحبوب في جميع ما يرضاه، وتقبل بلائه بنعت الرضا، والتسليم في قضائه وقدره بشرط الوفاء ومتابعة سنة المصطفى -صلوات الله وسلامه عليه- وأما آداب أهل المحبة الانقطاع عن الشهوات واللذات، والمسارعة في الخيرات، والسكون في الخلوات والمراقبات، واستنشاق نفخات الصفات، والتواضع في المناجات، والشروع في النوافل والعبادات، حتى صاروا متصفين بصفات الحق، ومنقادين بنوره بين الخلق.

قال الله تعالى: «لا يزال العبد يتقرب إليَّ بالنوافل حتى كنت له سمعًا، وبصرًا، ولسانًا، ويدًا»(١).

وصرف المحبة لا يكون إلا بعد أن يرى الروح الناطقة بعين السر مشاهدة الحق بنعت الجمال وحسن القدم لا بنعت الآلاء والنعمة؛ لأنَّ المحبة إذا كانت من تولد رؤية النعماء تكون محبة معلولة، وحقيقة المحبة ما لا علة فيها من المحب، والحبيب شيءٌ دون المحبوب.

وقال أبو عمرو بن عثمان: محبة الله هي معرفته، ودوام خشيته، ودوام اشتغال القلب

---

(١) سبق تخريجه.

به، ودوام انتصاب القلب بذكره، ودوام الأنس به.

وقال محمد بن حنيف رحمه الله: المحبة: الموافقة لله في التماس مرضاته.

وقال بعضهم: المحبة هي موافقة القلوب عند بروز لطائف الجمال.

وقال أبو يزيد: أحببت الله حتى أبغضت نفسي، وأبغضت الدنيا حتى أحببت طاعة الله، وتركت ما دون الله حتى وصلت إلى الله، واخترت الخالق فاشتغل بخدمتي كل مخلوق.

وقيل: المحبة هي اتباع الرسول ﷺ في أقواله وأفعاله وأحواله وآدابه إلا ما خُصَّ به؛ لأنَّ الله قَرَن محبتاه باتباعه.

وسُئل الأنطاكي: ما علامة المحبة؟ قال: أن يكون قليل العبادة، دائم التفكر، كثير الخلوة، ظاهر الصمت، لا يبصر إذا نظر، ولا يسمع إذا نودي، ولا يحزن إذا أصيب، ولا يفرح إذا أصاب، ولا يخشى أحدًا، ولا يرجوه.

وسُئل يحيى بن معاذ عن حقيقة المحبة، قال: الذي لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفوة.

وقال جعفر في قوله: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ قيد أسرار الصدِّيقين بمتابعة نبيه ﷺ لكي تعلموا أنهم وإن علمت أحوالهم وارتفعت مراتبهم لا يقدرون مجاوزته ولا اللحاق به.

وقال ابن عطاء: في هذه الآية أمر بطلب نور الأدنى من عَمِيَ عن نور الأعلى، وأقول: لا وصول النور الأعلى من لم يستدل عليه بالنور الأدنى، ومن لم يجعل السبيل إلى النور الأعلى والتمسك بآداب صاحب نور الأدنى ومتابعته فقد عمي عن نورين جميعًا، وألبس ثواب الاعتزاز.

قال أبو يعقوب السوسي: حقيقة المحبة أن ينسى العبد حظه من ربه، وينسى حوائجه إليه.

قال الواسطي: لا تصح المحبة والإعراض على سره أثر والشواهد في قلبه خطر بل صحة المحبة نسيان الكل في استغراق مشاهدة المحبوب وفناؤه به عنه.

وقال ابن منصور: حقيقة المحبة قيامك مع محبوبك بخلع أوصافك، والاتصاف باتصافه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: سمعت النصر آبادي يقول: محبة توجب حقن الدم، ومحبة توجب سفكه بأسياف الحب، وهو الأجل.

وروى أبو الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾: «على البر والتقوى والتواضع، وذلة النفس»[(١)].

وسُئل عمرو بن عثمان المكي عن المحبة! قال: المحبة في نفسها أصلها التواضع في القلوب من لطف المعاني التي يعاينها من المحبوب على شرط ما تعلقت به.

وسُئل سهل بن عبد الله: ما علامة المحبوب؟ فقال: ألا يزال لسانه ذاكرًا لحبيبه مشغوفًا به، مستأنسًا مسرورًا به، حامدًا شاكرًا له، وجوارحه مشغولة بمرضاة حبيبه، فهو المحب له، والمرضي عنه.

وقال الأستاذ: المحبة تشير إلى صفاء الأحوال، والمحبة توجب الاعتكاف بحضرة المحبوب بالسر، ويقال: أحب البعير إذا استناخ، فلا يبرح بالضرب، وللحب حرفان حاء وباء، والإشارة بالحاء إلى الروح، والإشارة من الباء إلى البدن، والمحب لا يدخر عن محبوبه لا قلبه ولا بدنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا﴾ الآية اصطفى آدم بعلم الصفات، وكشف جمال الذات قبل خلق الخلق في أزل الأزل، فإذا أراد خلق روحه نظر بجماله إلى جلاله، ونظر بجلاله إلى جماله فظهر بين النظرين روح آدم فخلقها بصفة الخاص، ونفخ في روحه روحًا، وهو علم الصفات بفعل الخاص الذي يتعلق بالذات، وخلق أيضًا صورته بصفة الخاص، ونفخ فيها روح الأول وروح الثاني، فوصف روحه فقال: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر:٢٩] ووصف صورته فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] فسبق بهذه الصفات من الملائكة الكرام البررة، وألبسه خلعة خلافته، وأسجد له ملائكته لأجل هذا التخصيص كرامةً له وتشريفًا وتفضيلاً على مشايخ الملكوت، وقال: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، وقال: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ [البقرة:٣٤] لا تؤثر في نعوت الأزل طوارقات الحدوث ما دام الاصطفاء بهذه الصفة سابق له، وأيضًا اصطفاهم لنفسه عن خلقه لموقع الخطاب، وكشف النقاب لاستعدادهم تحمل أثقال أمانته، والتعمق في بحار أزليته، والسيران في ميادين وحدانيته، والطيران في هواء فوقانيته لطلب كشف أحديته، وجمال سرمديته، والإشارة في نوح ﷺ وآل إبراهيم ﷺ أنَّ الاصطفاء من سبب المحبة الأزلية لا من جهة الأنساب الحديثة، كما قال الأستاذ رحمة الله عليه: اتفق آدم وذريته في الطبقة وإنما الخصوصية بالاصطفاء الذي هو من قبله لا بالنسب والسبب.

وقال الفارس: اصطفاهم على الناس لنبوته، واستخلصهم لرسالته، فهم المبعوثون إلى

---

(١) رواه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٤/ ٣٦).

خلقه رحمة على أوليائه، وحجة على أعدائه، فهم الدعاة إلى الله بالحكمة والموعظة، مبشرين عباده جزيل الثواب، ومنذرين أليم العقاب، ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] إذ لو شاء لهداهم أجمعين.

قال الواسطي: اصطفاهم للولاية، وقال أيضًا: واصطفاهم في أزليته، وصفاهم لقربه، وصافاهم لمودته.

وقال أيضًا: اصطفاء في الأزل قبل كونه، أعلم بهذا خلقه أن عصيان آدم لا يؤثر في اصطفائيته له؛ لأنه سبق العصيان مع علم الحق بما يكون منه.

وقال أيضًا: اصطفى الأنبياء للمشاهدة والتقريب، واصطفى المؤمنين للمطالعة والتهذيب، واصطفى العالم للمخاطبة والترتيب.

وقال النصر آبادي: إذا نظرت إلى آدم عليه السلام بصفته لقيته، بقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ وإذا لقيته بصفة الحق لقيته، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ وماذا يؤثر العصيان في الاصطفاء.

وقال الواسطي: الاصطفائية قائم بالحق، والمعصية إظهار البشرية وتوبة أعجب لأنه من نفسه إلى نفسه رجع.

﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ أي: حرًا عن رق النفس، مقدسًا عن مس الشيطان، صافيًا لك عما سواك، مخلصًا في مودتك، صادقًا في طاعتك، موافقًا لخدمة أوليائك، وأيضًا حرًا في مقام مشاهدتك عن الاشتغال بخدمتك ليكون لك خالصًا في حظ الربوبية، وأيضًا حرًّا في مقام عبوديتك بنعت محبتك، منفردًا عن الاشتغال بالجنة والنار حتى يكون في عبادتك لك مفردًا عن الالتفات إلى شيء غيرك، وأيضًا أيقنت أسرار باطنها وقوع الأنثى، وإن لم يعلمها بنص العقل، فقالت: أحررت لك؛ لأنها موقع كلمتك يعني عيسى عليه السلام

ولا ينبغي لمن حمل حرًّا إلا أن يكون هو أيضًا حرًا.

قال الأستاذ: المحرر الذي ليس في رق شيء من المخلوقات، حرره الحق في سابق حكمه عن رق الاشتغال بجميع الوجود والأحوال.

قال جعفر: ﴿مُحَرَّرًا﴾ أي: عتيقًا من رق الدنيا وأهلها.

وقال محمد بن علي في قوله: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي: يكون لك عبدًا مخلصًا، ومن كان خالصًا لك كان حرًّا مما سواك.

وسُئل سهل بن عبد الله عن المحرر فقال: هو المعتق من إرادة نفسه، ومتابعة هواه.

وقال النوري: أي: خادما لأهل صفوتك.

قال أبو عثمان: ﴿مُحَرَّرًا﴾ عن شغلي به، وتدبيري له فيكون مسلم إلى تدبيرك فيه حسن اختيارك له.

وقال محمد بن الفضل: ﴿مُحَرَّرًا﴾ عن الاشتغال بالمكاسب.

قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ قبول الحق لها أنه أخلصها لعبادته، وجعلها محل آيته وكرامته، ورباها في حجر صفوة أنبيائه وأوليائه، وكشف لها من عظيم آياته ما لا يقوم بإزائها أكثر أهل زمانها الأنبياء، وأرسل إليها في الظاهر روح القدس حتى يعلمها حسن الأدب، ونفخ فيها روح الخاص الذي هو طير الأنس، حتى يكون لها ذخيرة المآب. وقال جعفر: يقبلها حتى يعجب الأنبياء مع علو أقدارهم في عظم شأنها عند الله.

ألا يرى أن زكريا قال لها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ أي: مِن عند مَن تقبلني.

وقال الواسطي: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ محفوظ قوله تعالى: ﴿وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أنبتها شجرة الربوبية وسقاها من مياه القدرة حتى أثمرها ثمرة النبوة؛ لتكون الثمرة حياة الخلق؛ لأنها هي روح الحق يعني عيسى، وقيل: أضاف الإحسان إليها في الشريعة وفي الحقيقة حفظها وأنبتها.

وقال ابن عطاء: أحسن النبات ما كان ثمرته مثل عيسى عليه السلام روح الله.

وقال الأستاذ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ حيث بلغها فوق ما تمنت أمها، وقيل: القبول الحسن إن رباها على نعت العصمة، حتى كانت بقول: ﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم:١٨].

وقال أيضًا: من إشارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب ﴿وَكَفَّلَهَا

زَكَرِيَّا﴾؛لأن خدمة الأولياء لا تحصل إلا من الأولياء، وأيضا أنه يوافقها في جميع أحوالها من الخلوة والمراقبة والسر والنجوى والمشاهدة والمكاشفة ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ يرزقها الله تعالى زرق الجنة في الخلوة مكافأة للخدمة والعفة كرامة لها حتى لا يشغلها تولاه المخلوق، ويكون في حقيقة التوكل ما فيه من الالتفات إلى غير الحق، وإن كان نبيًّا مرسلاً.

وقال الأستاذ: إذا دخل عليها زكريا بطعام وجد عندها رزقًا ليعلم العالمون أن الله سبحانه لا يلقي شغل أوليائه إلى غيره.

وقال: من خدم وليًّا من أوليائه كان هو في رفق الولي لا أنه يكون عليه مشقة لأجل أوليائه.

وقال: في هذه إشارة لمن يخدم الفقراء لا أن الفقراء تحت خلقه ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾ أي: بأي عمل أوجدت هذا ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: خالصًا وجدته لا يكلفه العمل، وعلة الكسب.

وأيضًا خاف عليها أن تلك المنزلة من حيل الشيطان ففتش أحوالها حتى يعلم حقيقة صدقها، فقال: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا﴾[1] قالت: ليس كما خطر ببالك إنه من خصائص كرامات الله التي وهبها لي ليس فيها شيء من مخيلات الشيطان.

وقال الأستاذ: لم يكن يعتقد فيها زكريا استحقاق تلك المنزلة، وكان يخاف أن غيره لعلة انتهز فرصة تعهدها وسعة بكفاية شغلها ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ﴾ إذا دخل زكريا على مريم وجد عندها من فواكه الألوان علم أنها من نفائس كرامات الله تعالى فتحرك فيه غيرة النبوة، وسكن هناك في الخلوة، وطلب من الله تعالى ولدًا فأعطاه الله ما سأله.

وأيضًا نظر بنور النبوة في مريم فأبصر فيها نور عيسى صلوات الله عليهم أجمعين يتشعشع في مريم، ورأى كرامته عند الله فتمنى عليه ولدًا مثل عيسى فناجى ربه بلسان الاضطرار، وسأل عنه يحيى عليه السلام مشكاة الأنوار؛ فاستجاب الله تعالى دعوة شيخ الأنبياء شفقة

---

(١) مِنْ إمارات القبول الحسن أنها لم تكن توجد إلا في المحراب، ومن كان مسكنه وموضعه الذي يتعبَّدُ فيه وهناك يوجد المحراب – فذلك عَبْدٌ عزيز، ويقال مِنَ القبول الحسن أنه لم يطرح أمرَها كُلَّه وشُغْلُها على زكريا عليه السلام: فكان إذا دخل عليها زكريا ليتعهدها بطعام وَجَدَ عندها رزقاً لِيَعْلَمَ العاملون أن الله – سبحانه – لا يُلْقِي شُغْلَ أوليائه على غير، ومن خدم ولياً من أوليائه كان هو في رفق الولي لا إنه تكون عليه مشقة لأجل الأولياء، وفي هذا إشارة لمن يخدم الفقراء أن يعلم أنه في رفق الفقراء. تفسير القشيري (١/ ٣٠٧).

على غيرته، وإظهارًا لكرامته، وهذا حسن الأدب للأولياء، وأهل المعرفة إذا كانوا يحتاجون إلى الله تعالى بشيء من مرادهم خلوا عن الخلق، ودخلوا في زوايا الصدق حتى يناولوا بالاعتزال عن الخلق والاشتغال بالدنيا والإخلاص في النجوى حقيقة مقام استجابة الدعوة، لأن من لزم سيده في الخلوات والمراقبات يكشف له المقامات السنية والأحوال الشريفة من أسرار الآخرة وأنوار المعرفة ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ سأل من الله مَن يعينه في طاعة الله، ويكون له خليفة في أداء الرسالة والنصيحة للأمة، وأيضًا يكون له مشاورات السير في عالم الربوبية والعبودية، ومؤنسًا من الله في الكشف والحقيقة والعشق والمحبة، ﴿طَيِّبَةً﴾ يعني مطهرًا من أشغال الكونين منفردًا عن إرادته مقدسًا من شهواته، فإذا علم الحق سبحانه صدق نيته أعطاه مأموله على الفور ليكون له معجزة وكرامة، والإشارة فيه أن من طلب من الله شيئًا بعينه في طاعته وسببًا لمرضاته فيحصل له استجابة الدعوة في الساعة.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ محل مناجات الحق الصلاة لأنها فيه عصمة الحق فيها نزول الوحي من دخل فيها بشرط التفريد، وخلوص النية ألهمه الحق خصائص الخطاب، وأخبره بما يكون قبل أن يكون، و﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ محل لزوم المراقبين فيه لأجل تعرض السر نفحات أسرار الحق، وبروز نور التوحيد، وكشف جمال مشاهدة الحضرة، و﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ محل الأنس، وتصفية السر، وذم الجوارح، وإشراق اليقين، وسبب الزلفة، ووجدان حلاوة العبادة، واسترواح الروح من أداء صحبة الخلق بوجدان صحبة الحق، و﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ فقر العباد، وملجأ الزهاد، ومعصم المتوكلين، ومجلس المشتاقين، ومسند الراضين، وبستان المحبين، وسرور المريدين، ورياض العاشقين، وكعبة المستأنسين، وحرم المؤمنين، وفوز التائبين، وقيد الموحدين، وستر الشطَّاحين إذا أراد الله أن يستر أحدًا من خاصة معرفته ألجأه إليه ليكون له مقويًا في مقاصده من الله.

وقال ابن عطاء: ما فتح الله على عبد من عبيده حالة سنية إلا بأتباع الأوامر وإخلاص

الطاعات، ولزوم المحاريب.

وقال الواسطي: هو قائم بربه يصلي سره بمحاربة نفسه وهواه.

وقال أبو عثمان: ﴿ٱلْمِحْرَابِ﴾ باب كل بر، وموضع الإجابة، واستفتاح الطريق الانبساط، والمناجاة والإعراض عن المحراب سبب إغلاق الباب دونك.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ وقيل: ملازمة الخدمة يورثك آداب الخدمة، وآداب الخدمة يورثك منازل القربة، ومنازل القربة تورثكم حلاوة الأنس ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾ يسمى يحيى؛ لأنَّ من نظر إليه يرى مشاهدة الحق في جمال نبوته، فيحيي قلبه من موت الفترة.

وقيل: إنه حيا به عقر أمه.

وقيل: إنه سبب حياة من آمن بقلبه ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ السيد الذي قد غلب عليه نور هيبة عزة الحق جل وعلا، والحصور الذي عصم عن جميع الشهوات بعصمة الأزلية، وأيضًا السيد الذي خلعه نور الأنانية، وكساه لباس الفردانية، وتوجه بتيجان البهاء حتى يستحق أن يستحيي منه جميع الخلق، ويضعوا تحت أمره ونهيه أعناق الجبرية، والحصور المقدس عن شوائب التقليد، وعن الالتفات إلى الكونين، وقيل: ﴿وَسَيِّدًا﴾؛ لأنه لم يطلب لنفسه مقاما ولا شاهدا لنفسه قدرًا.

وقال جعفر بن محمد: السيد الذي عرف ربه وأنكر ما دونه، والحصور الذي يملك ولا يملك، والسيد الذي يألف ولا يؤلف، والحصور الذي لا يعرف سوى الله.

وقال: السيد الذي ساد أهل زمانه بأخلاقه، والحصور الذي حصر ماءه عن النساء وسمي يحيى حصورًا؛ لأنه قرع في قلبه تلك العظمة، فخذ فيه ماء الشهوات، وصار حصورًا ومحصورًا.

وقال ابن عطاء: السيد المتحقق بحقيقة الحق، والحصور المنزه عن الأكوان وما فيها.

وقال جعفر: السيد المبائن عن الخلق وصفًا وحالًا وخلقًا.

وقال النصر آبادي: السيد من صحح نسبته مع الحق، فاستوجب به ميراث نسبته.

وقال الجنيد: السيد الذي جاد بالكونين عوضًا عن ربه.

وقال محمد بن على: السيد من استوت أحواله عند المنع والعطاء.

وقال ابن منصور: السيد من خلى من أوصاف البشرية، وأظهر بنعوت الربوبية.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ لما وعد الله تعالى نبيه ﷺ يحيى طلب من الله تعالى علامة وقت ظهوره، ولا يشك في وعد الله لكن غرضه طمأنينة قلبه ليتهيأ أسباب

الأدب لزمان ظهور موهبة الله استقبالاً إلى الله بشكر نعمته ليدوم عليه مواهب الإلهية ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ حصر لسان نبيه ﷺ عن المكالمة والمحادثة مع غير الله ليتجرد سره وحاله عن ازدحام الخلق وذكرهم، والأدب فيه أن من يطلب من الله تعالى شيئًا من معاني الغيب ورؤية معجزته وكرامته لا يتحرك لسانه بالفضولات، وقلبه لا يخطر به من طوارقات الوسواس حتى يكون ظاهره وباطنه مشغولاً بالحق لأن التفرق إذا وقع في الظاهر يتشوش به الباطن، وأجاز له الرمز ليدفع به ضيق قلبه، ومن دخل عليه من أهله، والرمز من الأنبياء للأولياء، والرمز من الأولياء الخاصة المريدين، وحقيقة الرمز من تمريض السر إلى السر وإظهار التفرس إلى التفرس وإعلام الخاطر إلى الخاطر بنعت تحريك سلسلة المواصلة بين المخاطب والمخاطب ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ الذكر الكثير هاهنا تخليص النية عن الخطرات وجمع الهموم بنعت تصفية السر في المناجاة، وتحير الروح في المشاهدات، أدَّب الله أهل محبته وإرادته بها أخبر عن معجزة زكريا واستجابة دعوته حتى إذا أرادوا كشف الغيب واستجابة الدعوة اعتزلوا عن الخلق، وعن محادثتهم وتركوا ما لا يعينهم وقطعوا لسانهم بمقاريض الصمت، وجعلوه رطبًا بذكر الله في أيام مناجاتهم التي أرادوا فيها كشف المقصودة.

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي

حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ﴾ بإلقاء كلمته فيك، وأيضًا أصطفيك برؤية الملائكة والخطاب معهم.

وأيضًا أصطفيك بالكرامات والآيات حتى يأتي الملائكة يرزقك من الجنة ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي: من لمس البشر وأيضًا من دنس الخليقة.

وأيضًا أي: طهر سرك عن الالتفات من الله إلى كفالة زكريا ﷺ ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ اصطفاء الأول: رفع المنزلة، واصطفاء الثاني: حقيقة العصمة بإشارته على نساء العالمين.

قال الأستاذ: فائدة تكرار الاصطفاء، الأول: أصطفيك بالكرامة والمنزلة وعلو الحالة، والثاني: أصطفيك؛ لأنَّك حملت بعيسى ﷺ من غير أب ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ﴾ أي: استقيمي في طاعة مولاك ﴿وَٱسْجُدِى﴾ أي: كوني في السجود خالصة عن غيري ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ أي: تقربي إليَّ بتواضعك مع المتواضعين من أوليائي وأنبيائي وخواص أهل محبتي لتنال بركات الجمع؛ لأن صحبة الأولياء استحكام في العبودية، وتخليص عن رق البشرية ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ بشرها حتى رسخت في تحمل إيذاء اللائمين، وعرفت منزلتها حتى لا يسقط عن درجة اليقين بحديث العالمين ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ في الدنيا ملتبسًا بأنوار الربوبية، وفي الآخرة ملتبسًا بجمال المشاهدة ألبسه الله خلعة الهيبة، ليكون عظيمًا في أعين الناظرين من الفريقين المؤمنين والكافرين ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ تكلم الناس في المهد ليكون شاهدًا على نبوته ورسالته وطهارة أمه، وكهلاً عن انبساطه، وحالة اتحاده، فالأولى من النبوة، والآخر من الأنانية، وفعله شاهد قوله بأحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، في بدايته كان ملتبسًا بلسان العبودية، في نهايته كان ملتبسًا بصفات الربوبية.

وقيل: يكلم الناس في المهد معجزة له، وكهلاً داعيًا ربه.

وقيل: يكلم الناس في المهد صبيًا، وعند نزوله من السماء كهلاً؛ ليكون على طرفي كلامه معجزة.

قال الواسطي: يكلم الناس في المهد ردًا لقول المخالفين إنه نطق في حال يعجز من كان مثله عن ذلك، وإذا كان كهلاً ليس فيه بطش الشباب لا ضعف الشيوخ ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ انسلخ من أوصاف الحدوثية، واتصف بصفات الربوبية فأظهر منه الحق جل عن الأهل والولد والحلول والمكان والجمعية والاختلاط مع الخليقة حقائق القدرة ليس لي في هذه الآية كلام أجل من ذلك مع أن أهل المعرفة قد سبقوني في هذا المعنى، ولا بدّ لي من أن أتكلم فيه بشيء من عبارتي ما دام شرعت في تفسير القرآن.

وقيل: من اشتد عليه الصفات الربوبية، وغاب عن أوصاف الحدث حتى بنفسه وأحيى به كل شيء، وأبطل بهذه الآية دعاوي من ادعى إظهار معجزة عليه به دون ربه، والله قادر على الإعجاز في جميع الأوقات يظهرها على من يشاء، فالإعجاز الله والسبب مظهر عليهم ذلك في الهياكل والصور ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ عاينوا بأبصار القلوب حقائق الغيوب، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾.

قال ابن عطاء: ﴿ءَامَنَّا﴾ بما نورت به قلوب أصفياك من علوم غيبك، ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ فيما أظهر من سنن أوامرك، ونواهيك رجاءً أن يوصلنا اتباعه إلى محبتك ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ مع من يشهدك ولا يشهد معك سواك ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾ سقطوا عن مشاهدة سابق الحق فاحتالوا مع أهل الولاية بتدبير النفس فكان مكرهم مكر الحق عليهم، وهم لا يعلمون أنهم مخدعون.

قال محمد بن علي: مكروا أنفسهم فحسن مكر الله عندهم، وكان في الحقيقة الماكر بهم لتزيينه ذلك عندهم ألا تراه يقول: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨].

سُئل بعض أهل الحقيقة: كيف تنسب المكر إلى الله؟ فصاح وقال: لا علة لصنعه وأنشد:

ويقبح من سواك الفعل عندي ... وتفعله فيحسن منك ذاك
فديتك قد جبلت على هواكا ... فنفسي لا تنازعي سواك
أحبك لا ينغصني بل بكلٍ ... وإن لم يبق حبك لي حراكا

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ﴾ إن الله تعالى نفخ في صورة عيسى روحًا قدسيًا ورباها فيها بأنوار النبوة والعبودية، وتجلي المشاهدة، فإذا كمل في مقامات المصطفى من صفوة أنبيائه وأوليائه، قال: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ على عن رسم الحدوثية ﴿وَرَافِعُكَ﴾ إليّ بنعت الربوبية، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ عن شوائب البشرية.

قال الواسطي: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ عنك، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ من إرادتك وهواك، وذلك لإظهار نعوت الأزلية عليه[1].

---

(١) قال التستري (١/ ٤٥٥): فإنه إذا مات فينزع عنه لطيف نفس الروح النوري من لطيف نفس الطبع الكثيف الذي به يعقل الأشياء ويرى الرؤيا في الملكوت، وإذا نام نزع عنه لطيف نفس الطبع الكثيف لا لطيف نفس الروح النوري ، فيستفيق النائم نفساً لطيفاً، وهو من لطيف نفس الروح الذي إذا زايله لم تكن له حركة، وكان ميتاً. ولنفس طبع الكثيف لطيفة، ولنفس الروح لطيفة، فحياة لطيف نفس الطبع بنور لطيف نفس الروح ، وحياة روح لطيف نفس الروح بالذكر ، كما قال: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩] أي يرزقون الذكر بما نالوا من لطيف نفس النوري، وحياة الطبع الكثيف بالأكل والشرب والتمتع، فمن لم يحسن الإصلاح بين هذين الضدين، أعني نفس الطبع ونفس الروح حتى يكون عيشهما جميعاً بالذكر والسعي بالذكر ، فليس بعارف في الحقيقة. وقال عمر بن واصل: وكان المبرد النحوي يقول: الروح والنفس شيئان متصلان لا يقوم أحدهما بدون الآخر. قال: فذكرت ذلك لسهل ، فقال: أخطأ، إن الروح يقوم بلطفه في ذاته بغير نفس الطبع الكثيف، ألا ترى أن الله تعالى خاطب الكل من الذر بنفس روح وفهم عقل وفطنة قلب وعلم لطيف بلا حضور طبع كثيف.

قال بعضهم: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عن حظوظك، ورافع شخصك إليَّ، ومطهر سرك من مطالعة الأغيار والأعواض بالكلية، ومما سمح لي في هذه بالبديهة بعد ذكر المشايخ رضوان الله عليهم، ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ غيرةً حتى لا ينظر إليك بنعت المحبة غيري، ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ بنعت العشق، ﴿وَمُطَهِّرُكَ﴾ من التفاتك إلى الملكوت؛ لأن من شرط اتحاد الحبيب بالمحبوب ألا يدخل بينهما من الحدثان، فإذا كان العارف بلغ مقام صرف التوحيد يتشعشع نور جمال الحق من وجوده فسجد له الكون، ومن فيه بالظاهر طوعًا وكرهًا؛ لأن من رأى حسن جلال الحق بالواسطة، ولم يبلغ حقيقة تحقيق المعرفة يصير مشبهيًا بوقوعه في الوسائط لأجل ذلك رفع روحه إليه حتى يستقيم نظام الشريعة ولم ينسخ أحكام السنة ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ خلق الله الأرواح القدسية من معادن الربوبية، وجللها بنور المشاهدة فصارت تلك الجواهر من أصل واحد، وإن كان تتفاوت في المقامات وصورة البشريات فروح آدم من الملكوت خلق، وجميع ذريته من الأنبياء والصديقين معها، فذكر الله تعالى ما صنع بروح آدم من تخصيصها بالقربة والكرامة والمشاهدة والعلم والمكاشفة والتفريد والتوحيد فذكر أن روح عيسى في منازل القربات مثل روح آدم بما ذكر من تخصيصها، فقال لآدم ﷺ: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢] ومثل هذا قال لعيسى ﷺ لكن شرف آدم ﷺ بإضافة خلق صورته إلى نفسه فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥] وأنه أسجد له ملائكته تخصيصًا أو تشريفًا من جميع الخلق لهذه المنزلة، وقوله: ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ دفعًا لتهمة الجهلة حتى لا يظنون قدحًا في الربوبية.

قال الأستاذ: حضهما بتطهر الروح عن التناسخ في الأصلاب، وأفرد آدم بصنعة اليد وعيسى بتخصيص نفخ الروح فيه على وجه الإعزاز، وهما وإن كانا كبيري الشأن فنقض الحدثان والمخلوقية لازم لهما، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ قوله: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ طيب الله تعالى هذا قلب نبيه ﷺ أي: كما كنت قادرًا بخلق آدم وعيسى بكلمتي وقوة سلطاني فأعطيتك بما وعدتك من كمال دينك وشريعتك وتمام نعمة المعرفة عليك وعلى متبعيك فلا تكن ملهوفًا من خطرات نفسك.

قال بعضهم: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ ألا يظهر شيئًا من المكونات إلا من تحت ذل ﴿كُن﴾ فلا تَشُكَنَّ فإنه منفرد بأسمائه وصفاته لا ينازعه في صفاته أحد من عبيده وخلقه.

وقال الأستاذ: الحق من ربك يا محمد فلا تَشُكَنَّ في أنه لا يماثله في الإيجاد واحد، ولا على إثبات سببه لمخلوق قدرة فالموجودات التي حقت بوجودها عن كتم العدم من الله عز

وجل بدؤها وإليه عودها.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من آذاك بالحجة الباطلة من المدعين الكاذبين فادع عليهم دعوة الحلم والانبساط ليهلكوا جميعًا بدعوتك لأني خصصتك من بين الأنبياء بمقام المحمود واستجابة الدعوة في السجود.

قال جعفر الصادق: هذه إشارة في إظهار المدعين لأهل الحقائق لتفتضحوا في دعواهم عند أنوار التحقيق وبطلان ظلمات الدعاوي الكاذبة.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ هو إفراد القدم من الحدوث وإظهار الحق بنعت العبودية، والخروج من رسم دعاوي البشرية، ودفع النفس عن الالتفات إلى الأكوان والتجلي بمحبة الرحمن.

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: لا نتبع الهوى والدنيا وشهوتها، ولا نلتفت بنعت الرياء والسمعة إلى غير الحق.

﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لا يفرح بالمدح والتزكية والعطاء والخدمة والرئاسة التي يتوقع بعضنا من بعض، والإشارة فيه أنه أعلم الحق عباده بتجرد قلوبهم عما سواه.

وقال الواسطي في قوله: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ قال: هو إظهار العبودية عند ملاحظة الصمدية.

وقال ابن عطاء: هو تحقيق التوحيد.

وقال أبو عثمان: في قوله ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ قال: أعلمك طريق التعبد في هذه الآية، وهو ألا تطالع بسرك عند اشتغالك بالعبادة سوى معبودك، ولا تفرغ في أمر من أمورك إلى غيره فتتخذ بذلك ربًّا.

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ما كان الخليل ﷺ متعلقًا بالتشبيه مثل اليهود، ولا بالثنوية مثل النصارى، ولكن كان حنيفًا مائلاً عن الكون برؤية المكون، مسلمًا منقادًا عند جريان قضائه وقدره لإرادته.

وقال الأستاذ: الحنيف: المستقيم على الحق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أن أولى الناس بالخليل ﷺ للذين اتبعوه بشرط التجرد عن الكونين والعالمين ومنع النفوس عن حظوظ أشكال الملكوت؛ لأن الخليل إذا بلغ مبلغ رجال القدس زاغ بصره عن عرائس الملكوت، فقال: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[الأنعام:٧٨،٧٩] وهذا النبي يعني محمد ﷺ أولى بمتابعة أبيه خليل الله؛ لأنه زبدة مخاض محبته، وخلاصة حقيقة فطرته، ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أي: أيقنوا وشاهدوا معاينات الآخرة، ومنازل الأبرار السفرة، والله ولي المؤمنين حافظهم عن آفات القهريات، وأدخلهم في قباب العصمة والكرامات.

قال جعفر الصادق: الذين اتبعوه في شرائعهم ومناسكهم، وهذا النبي لقرب حال إبراهيم من حال النبي ﷺ وشريعته من شريعته، دون سائر الأنبياء وسائر الشرائع، والذين آمنوا لقرب حالهم من حال إبراهيم ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في تشريفهم إلى بلوغ مقام الخليل ﷺ إذ القرب منه في درجة المحبة بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[المائدة:٥٤].

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ

عَلَيْهِ قَآبِمًا ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي: لا تصبحوا إلا أهاليكم من العارفين والربانيين الذين لا يظهرون أحوالهم عند أهل الدنيا بالرياء والسمعة ولا يغالطون الناس في معاني أهل الحقيقة فيقعون فيهم بالوقيعة والإنكار ويقصدون سفك دمائهم.

وقال بعضهم: لا تعاشروا إلا من يوافقكم على أحوالكم وطريقتكم.

وقال المرتعش: لا تفشوا أسرار الحق إلا إلى أهله.

وقال أبو بكر بن طاهر: لا تصدقوا ظهور كرامات الله على ما لم تتبينوا ولايته ورياضته ومحافظته على ظاهر الشريعة.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ الرحمة هاهنا: النبوة والولاية يختص بها من يشاء من صفوة خلقه؛ لأن سبق عنايته قبل وجود المجاهد والمجاهدة والشواهد والبراهين والكون والعلل فمن أشرقه نور المشاهدة وملأ سمع سره من خصائص الخطاب، وسكرت روحه من شراب الوصلة، فأنى له النظر إلى نفسه ومعاملته ومجاهدته؛ لأن من النقص صار مرادًا وإن ذل، ومحبوبًا وإن اعتد، والاختصاص الأصلي يقع على ثلاثة أحوال: الأول: هو مكاشفة غيب الملكوت، والثاني: يقع على مشاهدة الجبروت، والثالث: يقع على مدارج المعرفة والتوحيد، وهو أعلى وأجل؛ لأن فيهما السكر والبسط والصحو والانبساط والإيجاب والأنانية والفردانية والحرية والاتصاف بالربوبية، ولهذه أصل حقائق التمكين وتحقيق التوحيد.

وقال أبو عثمان: أمهل القول ليبقى معه رجاء الراجي وخوف الخائف.

وقال بعضهم: أزال العلل في العطايا والنفوس عن ملاحظات المجاهدات فاقطعهم عن الشواهد والموارد.

وقال سهل: مَن نال الهداية والقربة نالها بربه لا بنفسه.

وقال الواسطي: ارتفعت العلل في العطايا وفيها أظهر من النعوت والخفايا، وفتر النفوس عن مطالعات المجاهدات، وكيف يتوسل المتوحد بالوسائل من أعمال البر بعد قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [1] وأيقن بأن ليس إليه طريق بالشواهد والموارد والعوائق.

---

(١) يقال خصه بالشيء واختصه به إذا أفرده به دون غيره ومفعول من يشاء محذوف، والرحمة النبوة والوحي والحكمة والنصرة. والمعنى يفرد برحمته من يشاء إفراده بها ويجعلها مقصورة عليه لاستحقاقه الذاتي =

وقال ابن عطاء: أنبأ ألا طريق إليه بالعوائد والفوائد.

وقال الواسطي: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن يكون بحيث كنت بلا أنت، ويكون القائم هو لك بذاته ونعته.

وقال أيضًا: من تجلى له بأحوال ليس كمن تجلى له بحالة واحدة كذلك ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ .

وقال أيضًا: لما أن شاهدوا البرهان وعاينوا الفرقان، فزعوا من صفاتهم إلى صفاته ومن فعلهم إلى فعله، فسكنوا إلى ما سبق حسناه؛ حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء:١٠١] .

وقال أبو سعيد الخرّاز: إن الرحمة هاهنا فهم معاني السماع بالسمع الحقيقي، وهو الذي خص به الحق خواص السادة من عباده.

وقال الفارس: هو الهداية والخدمة والمشاهدة والولاية والنبوة والرسالة، ولولا أنه خصهم بها خصهم به ما ظهر عليهم من آثار الموافقة شيء.

قال أبو سعيد الخرَّاز: اختص الله من عباده خواصًا جعلهم أهل ولايته، فقال: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ فطُوْبَى لهذا العبد الضعيف، ما حباه به سيده من هذه الدرجة العظيمة.

وسُئل ابن عطاء: ما الذي فتر العابدين عن عبادتهم؟ قال قوله: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ .

وقال بعضهم: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ بمعرفة نِعَمِه عليه، والقيام بشكرها.

وقال الأستاذ: أي: بنعمته من يشاء، فقوم اختصهم بنعمة الأرزاق، وقوم اختصهم بنعمة الأخلاق، وقوم اختصهم بنعمة العبادة، وآخرين بنعمة الإرادة، وآخرين بتوفيق الظاهر، وآخرين بتحقيق السرائر، وآخرين بعطاء الإيثار، وآخرين بلقاء الأسرار.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤].

=

الفائض عليه بحسب إرادته عز وجل لا تتعداه إلى غيره لا يجب عليه شيء وليس لأحد عليه حق وما وقع في عبارة مشايخنا في حق بعض الأشياء أنه واجب في الحكمة يعنون به أنه ثابت متحقق لا محالة في الوجود لا يتصور ألا يكون لا أنه يجب ذلك بإيجاب موجب.

وقيل: لما سمعوا قوله سبحانه: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ علموا أن الوسائل ليس بها شيء، وأن الأمر بالابتداء والمشيئة.

وقيل: يختص برحمته من يشاء بالفهم عنه فيما يكاشفه به من الأسرار، ويلقيه من فنون التعريفات.

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَـٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ العهد ثلاثة: عهد الأزل بنعت الكشف للأرواح في أحانين بقلب القلب في سره في أوصاف الربوبية مع الأسرار، وهو إلقاء مخاطبة الحق بها وافق توفيق المعارف في خصائص العبودية، وعهد الله بعد تمكين العارف وكونه عارفًا بالله مع عقله بوسائط الكتاب والسنة لكون الأدب منه في جميع عمره فمن وافى روحه عهد الأزل فاز من دركات الشرك، وبلغ سر التوحيد، ومن وافى قلبه إلهام الخاص بإلقاء سمع الخاص وسكونه في جريان الحكم فقد بلغ عين حقيقة الرضا وخلص من درك الفناء، ومن وافى عقله أوامر الحق بالوسائل في ظاهره وباطنه فقد بلغ حسن الأدب في مقام العبودية ويكون مرشد للمريدين، وقائد للعارفين قوله: ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾ أي: من اتقى خطرات النفوس وطوارق الشهوات فإن الله يبلغه مقام حقيقة المحبة.

قال الأستاذ: صاحب الوفاء للوصلة مستوجب، وللتكريم أهل، وللرحمة مستحق، وصاحب الخطأ ممقوت وللهوان أهل، وللخجلة معترض، والوفاء بالعهد الكون معه بقطع ما سواه.

قال جعفر: من أوفى بالعهد الجاري عليه في الميثاق الأول، وأبقى وطهر ذلك العهد وذلك الميثاق من تدنسه بباطل، لذلك قال النبي ﷺ: « أصدق كلمة تكلمت بها العرب كلمة

لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[1].

ومن وافى بالعهد سُمي محبًّا، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ من مال إلى حضرة الدنيا وأثرها على رؤية مشاهدة حضرة الحق، وزين ظاهره بعبادة المقربين، ويبيعها بحظ الرياسة، فقد سقط عن رؤية اللقاء مخاطبة الحق في الدنيا والآخرة.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ أي: ليس من يختص بقربة الحق وكشف مشاهدته أن يلتفت سره إلى رياسة الخلق وحرمتهم له، وأن يرى لنفسه قيمة عند إجلال عظمة الحق؛ لأن من بلغ تحقيق التوحيد لا يرى لنفسه وزنًا عندما يبدو من تجلي عظمة الحق، ويكون خجلاً على الدوام بين يدي الرحمن من وجوده عند وجود الحق، ويريد فناء وجوده استحياءً من ربه تعالى، ولكن ما رأى نعم الله تعالى من كشف جماله وقرب وصاله، وتعرفه بالجلال والعز والكبرياء والعظمة والقهر واللطف أشفق على الخلق، ويدعوهم إلى عبادته وطالب مرضاته، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِن كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾، ومعنى كونوا ربانيين أمر من الحق تعالى لأنبيائه وأوليائه أي: كونوا موصوفين بصفته كما قال رسول الله ﷺ: «تخلقوا بأخلاق الرحمن»[2]، وهذا وصف من كساه الله سنا قدس جمال الأزلي، وجلال الأبدي قبل كون طينة البشر، فكان منورًا بنور صبح القدم، إذ الأشباح والأجسام في العدم، فإذا سكن الأرواح في ظلم الهياكل خاطبهم الانبساط، فقال: لا تنسبوا إلى الماء والطين، ولكن انتسبوا إلى الحق بنعت المحبة والمكاشفة والمشاهدة والاتصاف بصفقاته، والتربية في حجر وصاله، وكونهم بأفعاله الخاصة بالذاتية القدمية، وليس هؤلاء كمن كان كونه بالأمر؛ لأن الأمر للعوام، والفعل للخواص، مع أن الحق جلَّ من الأشكال والأشباه، والخيال والأوهام والأفهام، والجزء والكل، والتبعيض والصور، والأزمان والمكان، تعالى كبرياؤه وجلَّت صفاته، قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ أي: لكم خاصة علم اللدني، وعلم الكتاب والسنة والشريعة، بها يلزم عليكم الخروج عن رسم الإنسانية ،وأوصاف البشرية.

وقال جعفر الصادق: في قوله تعالى: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ قال: مستمعين بسمع القلوب، وناظرين بأعين الغيوب.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٢٨)، ومسلم (٢٢٥٦).

(٢) ذكره المناوي في «التعاريف» (١/ ٥٦٤).

وقيل: ﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ علمًا والله حلمًا عن عباده.

وقال ابن عطاء: عاينوا أول تربيتكم ليتخلصوا من هذه الآفات كلها، وقال أيضا: أخرجهم بهذا الخطاب عمًّا خاطبهم به من العبودية.

قال الواسطي: عاينوا أوقات تربيتكم وتقديركم قبل آدم ﷺ، ومحمد ﷺ، فالانتساب إلى آدم ﷺ، والافتخار بمحمد ﷺ ليس بالافتخار ممن قدَّسك في الأزل.

وقال أيضا: قال :كونوا كأبي بكر إذا أورد عليه قوادح الأمور لا يؤثر على سره حين قال النبي ﷺ يوم بدر: «دع بعض مناشدتك ربك؛ فإنه ينجز لك ما وعدك»[1].

وقال أيضًا: في هذه الآية أمر إبراهيم ﷺ بالاستسلام، وأمر محمد ﷺ بالعلم، فقال: فاعلم والاستسلام إظهار العبودية، والعلم به التوسل إلى الأزلية والأبدية، لذلك خاطبهم فقال: ﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾، وأيضًا قال: ﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ جذبهم بهذا من الافتخار بالطين إلى الافتخار بالحق.

قال الجنيد: أخرجهم من الكون جملة، وجذبهم إلى الحق إشارة، فإذا أردت أن تعرف مقامات الخلق، وبواطنهم في الحقيقة، فانظر إلى تصرف أخلاقهم تجد كل واحد قائمًا في أشخاصه، استقطعه ما وافق سريرته، فانظر بما ربطت القلوب، فيشهد سرائرهم؛ لأنهم أخذوا من المصادر الأول، فمَنْ لم يستقطعه إلا إسبال أنواره والحياء فيما ورد عليه، أيقن كيفية باطنه على الحقيقة تنازعه في ربوبيته، وتمر عليه في عبودية وأنت لا تشعر، وقال بعض العرافين: أخرجهم من آدم ﷺ وتراهم منه كي ينسوا العبودية والافتخار بالماء والطين.

وقال الشبلي: أخرجهم عما خاطبهم به من العبودية، فمن استحق العلم به استحق علم الربانية، والرباني الذي لا يأخذ العلوم إلا من الرب، ولا يرجع في بيانه إلا إلى الرب جلَّ وعلا.

وقال الواسطي في هذه الآية: ﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾؛ لأن تكون ابن الأزل والأبد خير لك وأحسن بك من أن تكون ابن الماء والطين والأفعال والإحصاء والعدد.

وقال سهل: الرباني هو العالم بالله والعالم بأمر الله، والمكاشف له من العلوم اللدني ما غاب عن غيره، وقال أيضًا: الرباني الذي لا يختار على ربه حالا.

وقال الجريري: ﴿كُونُوا رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ أي: سامعين من الله ناطقين بالله.

وقال فضل بن العباس الشكلي: قال كونوا كأبي بكر الصديق؛ فإنه لما مات محمد ﷺ

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٣٨٤)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٠)، والترمذي (٥/ ٢٦٩).

اضطربت الأسرار كلها لموته، ولم يؤثر ذلك في سر أبي بكر، فقال: «من كان منكم يعبد محمدًا؛ فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فإنَّ الله حي لا يموت»[١].

وقال القاسم: كونوا ربانيين متخلقين بأخلاق الحق علماء وحلماء.

وقال بعضهم: الرباني بحقه من نسي نفسه في نسيانه، فنسي أوقاته بأوقاته، ونسي أجاله وأرزاقه بصفاته، فصفاته جذبته إلى ذاته، وذاته ملكه عن صفاته.

وقيل: الرباني من ارتفع عنه ظل نفسه، وعاش في كون ظله.

وقيل: الرباني الذي هو محق في وجوده، ومحو عن شهوده، فالقائم عنه غيره، والمحوي لما عليه سواه.

وقيل: الرباني الذي لا يؤثر فيه تصاريف الأقدام على اختلافها.

وقيل: الرباني الذي لا تستقره محنة ولا يهزه نعمة فهو على حالة واحدة في اختلاف الطوارق.

وقيل: الرباني الذي لا يتأثر بورود وارد عليه، فمَنْ استعطفه رقة قلب أو استمالة هجوم أمرًا، وتفاوت عنده أخطار حادث فليس برباني.

وقيل: الرباني الذي لا يبالي بشيء من الحوادث بقوله وسره، وإن كان لا يقصر في شيء من الشرع بفعله.

وقيل: ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ من توالي إحساني إليكم، وتضاعف نعمتي لديكم.

وقيل: بما كنتم تعلمون الكتب وبما كنتم تدرسون من آلائي ونعمائي، وما توليتم من أموركم.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ ولا يمنّون عليكم بتعليمهم إياكم أن تزكُّوهم وتطردوهم، ولا تلتفتون بأسرارهم إلى تمكينهم ودرجاتهم، ويعلمون أنهم في ديوان الألوهية والربوبية كل شيء في كل شيء، ولا ترون الكون مع ما فيه ومن فيه في جنب عظمة الله تعالى، إلا كذَّرة في السموات والأرض، ولا تتعرضون بأمور أنفسهم في أمر الله تعالى، ويعلمون أن أمر الحق غالب على جميع الأمور، فإنهم مأمورون كجميع الخلائق: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: لا يأتون على الخلق إلا لتهذيب أسرارهم عن الأكوان والحدثان في خالص عبودية الرحمن، ويخبرونهم عن أسرار الحقيقة، وأنوار الشريعة، وعن وحدانية الله وقدس طبقاته وعز بقاء وجهه وجماله، ويأمركم التمسك بحبل

---

(١) رواه البخاري (١١٨٥)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٥٨٩).

الله المتين، وصرف الإيمان بنعت اليقين.

وقال ابن عطاء موضعًا للملاحظات: وليس بأيديهم من النفع والضر شيء فكيف لمن دونهم.

وقال الواسطي: في هذه الآية لا تخطرون بأسراركم تغطيهم ولا الكفر في معانيهم واعلموا إنما هي ربوبية تولدت عبودية.

وقال ابن عطاء: إياك أن تلاحظ مخلوقًا وأنت تجد إلى ملاحظة الحق سبيلا، قال الله تعالى ولا يأمركم الآية.

وقال الواسطي: في هذه الآية محلًا للمخاطبات، وموضعا للمعاملات، أيأمركم بالكفر بعد إذ انتم مسلمون أيأمركم بالاحتجاب عن الحق بعد معاينة الحق، أو بالانقطاع عن الحق بمواصلة غيره.

وقيل: يأمركم بالتوسل إلى من لا وسيلة له إلا بالحق.

وقيل: أيأمركم بمطالعة الأشكال ونسبة الحدثان إلى الأمثال، بعد أن لاح في أسراركم أنوار التوحيد، وطلعت في قلوبكم شموس التفريد.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أخذ الله ميثاق خصائص خطاب علم المجهول الذي بنا عن حقائق أسرار الربوبية مع النبيين والصديقين بواسطة إلهام الملك، وغير واسطة منفردًا عن نطق المخلوقات، بل الحق منفرد بإنزاله، وإظهار أنواره في عيون أرواحهم، ليصدقوا به ويعرفون أنه من عند الله وينصرونه باليقين والمعاملة، وهذا من رموز الكتاب، وأما ظاهر الكتاب، فإنَّ الله تعالى أراد أن يري الأنبياء والأصفياء من الأولين والآخرين شرائف مقامات حبيبه، تخصيص على جمهورهم ليؤمنوا به ويعرفونه؛ لأنَّ مَنْ عرفه فقد عرف الحق، ومن أمن به ودخل في دائرة المحبة وحقيقة القربة.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال ﷺ: «من

عرفني؛ فقد عرف الحق[١]؛ لأن عليه كسوة الربوبية، ويبرز من جمال وجهه نور جمال مشاهدة الحق، والإشارة في ميثاق الحق مع الأنبياء الحبيبة، لئلا يغيروه؛ لأن العشاق يغير بعضهم بعضًا، والغيرة من لوازم العشق، وأنها من صفة الحق سبحانه من تهمة البشر، وانظر شأن موسي ﷺ وغيرته على سيد الأنبياء محمد ﷺ، ومقصود الحق من الميثاق صون أسرار أنبيائه عن صفات البشرية ﴿فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ يحذرهم من اطلاعه عليهم في نصرة حبيبه والإيمان به، وهذا غاية تشريف نبينا ﷺ من بين سائر الأنبياء - عليهم السلام.

ثم بيَّن أن من حمد سره عن محبته، وزاغ قلبه عن نور سنته، ومال ظاهره عن طريقته وشريعته بعد ظهور معجزته وظهور كراماته سقط عن مقامات المرسلين والنبيين، وتشمر عن شوق التهديد لهم بهذا، فقال: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾.

وقال فارس: أخذ عهد حبيبه ﷺ على من كان قبله من الأنبياء بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فأي شرف أشرف من أخذ الله عهده على من كان قبله، ثم أمرهم بالشهادة له بالعهد، وضمن أن يكون هو مع الشاهدين معهم، والشاهدين عليهم، وإنَّما فعل ذلك لئلا يبقي أحدًا ممن تقدم وتأخر إلا، وعليه حجة من الله في إرساله رسوله محمد ﷺ والإيمان به، ولا يبقي لأحد بعد ذلك حجة في مخالفته.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾ أي: أن أصل جميع المراد في طاعتي، فمن أين يطلبون صفاء العيش، وفي أكناف قربي لذائذ أنس العارفين، وفي ألطاف وصلي حلاوة مشاهدة القدس للموحدين، وفي أطراف سبل عنايتي نجاح الكرامات للصدِّيقين، ومَنْ تمسك بحبال أمال نفسه فهو عن عين عبوديتي منحرف، ومن زاغ عن عبادتي فهو عن مشاهدة وحدانيتي وفردانيتي منعزل، ومن عزل عن مشاهدة العبودية ورؤية الربوبية فهو من جملة المبطلين المستدعين الذين تصرفون في غيابات جب الهوى، ويهيمون في أودية العنا والجفا

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٥/ ١٠٠).

ومن طالع غير حقائق الإلوهية والأزلية، فقد وقع في سراب الضلال، ويتردد في أغلوطات الشياطين، فإذا نزل، نزل في فقر العناء، وإذا سار، سار في مغاليط النفس وغباء غبار البلاء.

وقال الواسطي: من تمسَّك بغير الوحدانية بل بغير الواحد، فهو بعيد من عين الحقيقة.

﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إذا أظهر نفسه عن كبريائه في مرآة الكون بنعت الجبروت انقاد له جميع الأنام قهرًا وجبرًا؛ لأنه يقتضي ظهور سلطان الوحدانية، ووقوع الهيبة والإجلال في وجوه الخلائق بالأفعال ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ أسلم له العارفون ببذل الأرواح ﴿طَوۡعٗا﴾ لما عاينوه بحسن جمال القدم وأسلم الجاهلون له ببذل النفوس ﴿وَكَرۡهٗا﴾ لما رأوا من عظم قهره في إظهار سلطنته وقهاريته، وأيضًا سخَّر بعضهم بكشف جماله، فأسلموا من مشقهم على مشاهدته طوعا، وأعجز بعضهم برؤيتهم عظمته في لباس فعله وصنعه، فأسلموا من هيبته عند انكشاف نور كبريائه عن الأفاق كرهًا، فأكرم قومًا بإسبال أنوار التجلي على أسرارهم، حتى يكونوا في جريان قضائه وقدره بالطوع منقادين وأذَّل قومًا بإرسال هيبة القهر على ظاهرهم فيكونون عند بروز سطوة جباريته بالكره مذللين.

وقال الحسين: أحدهم عن شهود مثواهم بخصائص الاطلاع عليهم، فمن طالع الذات أسلم طوعًا، ومن طالع الهيبة أسلم كرهًا.

قوله: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: صدَّقنا بعد أن رأيناه بعيون الأسرار وحقائق الأنوار، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ: «لم أعبد ربًا لم أراه»[1]، وأيضًا ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ أي: بتوفيقه آمنًا بالله لا بجهدنا وسعينا.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ...﴾ الآية إن من شرط المحبة قبول ما جاء به رسل الحبيب من عند الحبيب، ولا فرق عنده بين المبشرين والمنذرين، إذا كان المحب صادقًا في حبه.

وافهم إن من غلب عليه محبة الله تعالى عاين بأبصار سره عالم الملكوت، ويري غيب الحق من الجنة والنار والملائكة والأنبياء والأولياء والعرش والكرسي واللوح والقلم وأنوار الحضرة، فإذا انكشف هذه المغيبات له؛ فكيف لا يؤمن بها بعد رؤيتها، إذا أخبر الله أسرارها بلسان أنبيائه وأوليائه عليه، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ لحارثة، قال: «يا حارثة، لكلِّ حق حقيقة؛ فما حقيقة إيمانك؟» فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون، وأهل النار في

(١) حديث ذكره بعض الصوفية في كتبهم.

النار يتعاوذون، فقال ﷺ: «عرفت فالزمْ»[١].

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: صدقنا وأقمنا على طريق الصدق معه؛ لأنه الذي كتب علينا الإيمان، وخصَّنا في علمه قبل أن أوجدنا، فنحن مؤمنون به بسابق فضله علينا.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ أي: من يروم مشاهدة الربوبية بغير العبودية لم يكشف له مقامات الصِّديقين والمقربين، وأيضا أصل جميع الحقائق ينوط بالإسلام والانقياد عند مراد الحق، والإشارة فيه أنَّ من لا يصبر في بلاء الحق، ويجزع عند نزول المصائب إلى غير الله لم يقبل منه شيء من المعاملات والمجاهدات.

وقيل: من توسل إليه من شيء دون الاعتصام، فخسرانه أكثر من ربحه.

وقال القاسم: من يأخذ غير الانقياد طريقا في القيد لم يصل إلى شيء من حقيقة العبودية.

وقال مجاهد: من لم يقيد أفعاله بالسنة لا يقبل منه عمل.

وقال سهل: في قوله ومَنْ يبتغ غير الإسلام دينًا أنه التفويض، ومن لم يفوض إلى مولاه جميع أموره لم يقبل منه شيء من أعماله ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟﴾ الآية أي: من فطراه الله على غير استعداد المعرفة وحكم عليه بالكفر في سابق الأزل لم يهده إلى مشاهدة الإيمان واليقين؛ لأنَّ الاستعداد من لوازم المعرفة، ومن لم يكن له استعداد الطريقة لم يقع في قلبه أنوار التجلي، ومَنْ خاض في بحر القهر، ولزم في قهر بعد البعد لم يكن له سبيل إلى حال

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٥/ ١٠٠).

قرب القرب.

قال الأستاذ: من عبده عن استحقاق الوصلة في سابق حكمه متى يقربه من بساط الخدمة بفضله في وقته.

وقيل: مَنْ أقصاه حكم الأزل، متى أدناه صدق العمل، والله غالب على أمره ﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ﴾ابتدأهم في حجاب المكر، وختم أحوالهم بالاستدراج، وهذا غاية الطرد والإبعاد عن بساط الوصال سوي أولهم وأخرهم، وردَّهم بعد كونهم في المعاملات إلى ما حكم عليهم في سابق علوم الأزليات، خالدين فيها لا سبيل لهم إلى معرفة وجود جلاله وكمال قدرته، فيزداد غيهم على غيهم، ولا يخرجون من طبقات الهجران والحرمان إلى مشاهدة الرحمن ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ﴾هم الذين سبق لهم حسن الإيمان بمشيئة الأزل، ووقفوا بامتحانه في بحار الفتنة والشهوة، فأدركتهم أنوار عناية الأزلية، وأخلصتهم من أسجان النفوس، وأصفاد الشياطين، ونور عيون أسرارهم بكحل سناء العناية، حتى يروا خبائث أعمالهم، فتابوا منها وتركوها استحياءً من ربهم؛ حيث يروا مننه السابقة التي سبقت لهم بنعت العناية والرعاية والكفاية والهداية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرًا لَّن تُقۡبَلَ تَوۡبَتُهُمۡ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: من كوشف له من مقامات الأول شيء وصدَّق به، وآمن بأحوالهم وكراماتهم، ثم كذَّبهم عن إيمانه بهم بسبب أو علة أو فراد من مجاهداتهم واجتهادهم وضيق رسومهم، ثم ازدادوا كفرًا بإقامتهم على إنكارهم، وشروعهم في إيذاء الأولياء والمريدين وأهل الرغائب، والإشارة فيه أنَّ هؤلاء الذين وقعوا في عاهة الإنكار وبلية الجحود بعد شهودهم آثار الغيب في مشاهدة البيان، وأنسوا به وألفوه ثـمَّ عميت أبصار قلوبهم عن مشاهدة الآخرة، وصمت أذان أسرارهم عن خطاب الحق في بواطن الغيب، وصدَّت عقولهم بدين الجهالة، وعصيت نفوسهم خالق الخلق بهجومها في غلطات الكبر والرعونة، وخبثت أخلاقهم من شوائب الشهوات، وكدرت أرواحهم من اقتحامهم في العجب والرياء والكبر، وأبغضت الأولياء، وساءت آدابهم بين يدي الله، لم يقبل الله تعالى توبتهم؛ لأنهم ذاقوا حلاوة الرياء والسمعة، وأثروا حظوظ الدنيا على صحبة أهل المعرفة، وركنوا إلى صحبة الأضداد، ومالوا عن بساط الحرمة إلى عرصة المخالفة، ومَنْ هذه أحواله فتوبته لا تستقيم، وأوبته لا تدوم لغلبة الشهوة على قلبه، وكثرة الفترة على بدنه، لا يلصق به نصيحة، ولا آثرت فيه شفقة، ولا ينتظم شمله، بطرت نفوس هؤلاء بالشهوات، واسودت قلوبهم من الشبهات، جازاهم الله تعالى بإبعادهم عن حضرة الوصال ومشهد الجمال، وهو قوله تعالى: ﴿لَّن تُقۡبَلَ

تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ ضالون عن طريق الحقائق والمعارف والكواشف، وأسبل الله على قلوبهم غطاء القهر حتى لا يرون أنوار عجائب كرامات أوليائه، ولا يقومون عند الله يوم القيامة وزنًا، وإنْ كثرت صلواتهم وصيامهم وصدقاتهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾(١).

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أهل هذه الصفة في إنفاقهم على أربع طبقات: طبقة منهم أهل المعاملات، وهم على عشرة أقسام: قسم منهم التائبون وإنفاقهم ثلثه ترك الدنيا، وترك الرياسة، وترك النفس لله، وفي الله، وقسم منهم المتورعون، وإنفاقهم ثلثه الاجتناب من المعاصي، وترك ما سوي البلغة من الحلال، وفطام النفس عن الشهوات، وقسم منهم الزاهدون، وإنفاقهم ثلثه مجاهدة النفس، وتزكية الأعمال، وذم الجوارح، وقسم منه الفقراء وإنفاقهم ثلثه حفظ الأوقات، وصيانة الفقر، والتعفف في جميع الأمور، وقسم منهم الأغنياء من هذه الطائفة، وإنفاقهم ثلثه بذل الأموال بغير المنّة، والإبداء والتواضع عند الفقراء، وطلب الإخلاص في أنفسهم عند خطرات الرياء قسم منهم الصابرون، وإنفاقهم ثلثه الخروج من الجزع عند الفاقة، ونشاط القلب عند نزول البلاء، وإيثار البلاء على الراحة، وقسم منهم الشاكرون، وإنفاقهم ثلثه قصر ألسنتهم عن الثناء مع عرفانهم نعم ربهم استحياءً منه، وحيرة في قلوبهم عن معرفة حقيقة المنعم والخروج من رسم الأعواض في بذل الأرواح، وقسم منهم المتوكلون، وإنفاقهم ثلثه استرسال النفوس لله عند نزول بلائه، وبذل المهجة له طلبًا لرضاه، وضبط الخاطر من الخطرات عند جريان قضائه، وقسم منهم الراضون، وإنفاقهم ثلثه ترك اختيارهم في اختياره، وترك تدبيرهم في مراده، وصون أسرارهم عما دونه، وقسم منهم الصادقون، وإنفاقهم ثلثه إخلاص العبودية عن رؤية الخلق، وإخلاص السر عن رعونة النفس، وإخلاص التوحيد عن رسم الحدوثية، وطبقة

---

(١) أي: بملء الأرض ذهبا، فإن قيل نفى قبول الافتداء يوهم أن الكافر يملك يوم القيامة من الذهب ما يفتدى به وهو لا يملك فيه نقيرا ولا قطميرًا فضلا عن أن يملك ملء الأرض ذهبا، قلنا الكلام وارد على سبيل الفرض والتقدير فالذهب كناية من أعز الأشياء وكونه ملء الأرض كناية عن كونه في غاية الكثرة والتقدير لو أن الكافر يوم القيامة قدر على أعز الأشياء بالغًا إلى غاية الكثرة وقدر على بذله لنيل أعز المطالب لا يقدر على أن يتوسل بذلك إلى تخليص نفسه من عذاب الله تعالى المقصود بيان أنهم آيسون من تخليص أنفسهم من العقاب. تفسير حقي (٢/ ٢٣٤).

منهم أهل الحالات، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم المراقبون وإنفاقهم ثلثه دفع الخطرات، وإخفاء المناجاة، وحفظ الحرمة في الخلوات، وقسم منهم الخائفون، وإنفاقهم ثلثه قلة النوم وقلة الأكل وقلة الكلام، وقسم منهم الراجعون وإنفاقهم ثلثه ترك الطبع في الدارين، والارتقاء من هذين المنزلين وتخلية السر عن ذكر العالمين، وقسم منهم المجنون، وإنفاقهم ثلثه الاتقاء عن معرض الكرامات، وترك الالتفات إلى الطاعات، وتصفية القلب من الدرجات، لوصولهم إلى مقام المشاهدات، وقسم منهم المشتاقون، وإنفاقهم ثلثه احتراق القلوب بنيران الحزن، واحتراق النفوس بنيران الجوع، واحتراق الأرواح بنيران الخوف والإجلال، وقسم منهم العاشقون، وإنفاقهم ثلثه ترك طلب الولاية، وترك حظ المحبة، والتزام السر في منزل الرعاية، وقسم منهم الموقنون، وإنفاقهم ثلثه ترك الشفقة على النفوس، ودوام رعاية القلوب، والشروع في تزكية الأرواح عن ذكر الحدثان، وقسم منهم المستأنسون، وإنفاقهم ثلثه الأعراض عن الخلق، وإلقاء الخاطر إلى مشهد طلوع صبح أنوار المشاهدة، وطهارة السر عن معارضة العدد، وقسم منهم المطمئنون، وإنفاقهم ثلثه التمكن في البلاء والصبر في العناء، والشكر في النعماء، وقسم منهم المحسنون، وإنفاقهم ثلثه صحة العبودية، بنعت رؤية المشاهدة، وبذل الروح لله بلا رغبة في ثواب الجنة، ومطالعة أنوار الكناية، وطبقة منهم أهل المعرفة، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم الذاكرون، وإنفاقهم ثلثه دفع الوسواس، وطرد الغفلة من القلب بين الناس، والخروج من رسوم الأشخاص، ومنهم المتفكرون، وإنفاقهم ثلثه إرسال الأرواح إلى مشاهدة الغيوب لترائي هلال جلال القدم، وإمهال العقول إلى ميادين الملكوت لمشاهدة الجبروت، وإدلاء القلوب إلى بساط القربة لطلب الوصلة بنعت الهيبة، وركاب السر في جولانه في أنوار البقاء والأزل، وقسم منهم الحكماء، وإنفاقهم ثلثه التكلم للمريدين، ونشر العلم للطالبين، وإرشاد الصواب للعالمين، قسم منهم أهل الحياء، وإنفاقهم ثلثه الفرق بالسر من مقام المكر، وتقديس شهوة الخفية عن مشهد الذكر، ودفع دقائق الرياء في مجاري الخطرات، وقسم منهم أهل التلوين، وإنفاقهم ثلثه التفكر في الربوبية بالعقل لتحصيل المعرفة، والنظر إلى قديم إنعامه بالقلب لتحصيل المحبة، والسر بالروح في عالم الملكوت لتحصيل أنوار المشاهدة، وهذه صفة من يباشر قلبه نور الأحادية على الأوقات السرمدية، فهؤلاء متنورون بكنوز أنوار التوحيد، معرفون من بحار الامتنان، حقائق أسرار الهوية بنعت التجريد، ناطقون عما في الضمائر، وكاشفون مكنون السرائر، وقسم منهم أهل التمكين، وإنفاقهم ثلثه حفظ جناح العبودية على وصيد الربوبية، ودفع تهمة البشرية عن مصدر كشف المشاهدة، ورسوخ السر في طوالع سلطان الهيبة، فأهل التمكين متربون عن إدراك حقيقة جمال القدم، مقدمون عن اتحاد البقاء بإعدام مشاهد صرف سلطان الوحدانية،

فيحرسون أسرارهم عن شوائب الحوادث، ويحفظون أنوارهم عن إطلاع الخلائق، ويصونون ما أوحى الله إليهم من أسرار الإلهام عن تحريفات الشياطين وأباطيلهم، وقسم منهم أهل الحقيقة، وإنفاقهم ثلثه الدعاء على العصاة، وتحلم إيذاءهم على طيب النفس، وترك الطمع في مجازاتهم، فهؤلاء رحمة الله على عباده، فالخلق مصرمون عن المصارف، وهم مكثرون بالكواشف، فيَّضهم الله لبقاء العباد والبلاد، ليلتجئ إليهم مرتابون الأحوال، وأهل رغائب الآلاء، وقسم منهم أهل السر وإنفاقهم ثلثه كتمان الأسرار من خوف غيره الحق عليهم وخروجهم مرادهم لمراد الحق وتفقد جمال غيب غيبه في صدورهم غيبه عن الخلق وقسم منهم العارفون وإنفاقهم ثلثه يتركون الدنيا لأهلها ويتركون الآخرة ولذتها، ويجلسون على باب مولاهم منصرمين عما سواه، مفلحين إليه بنعت رغائب المحبة، مفتقرين إلى مشاهدته بصفاء العبودية، يحسموا عن المكونات، وانقطعوا إليه عن المخلوقات، وطبقة منهم أهل التوحيد، وهم على عشرة أقسام، قسم منهم أهل القبض، وإنفاقهم ثلثه عد أنفاس المراقبات في مقام الحزن وصب الدماء في حين العشق والتأوه من صميم القلب في مقام الشوق، وقسم منهم أهل البسط، وإنفاقهم ثلثه الفرح بوجنتي الحبيب، والزفرة من مخاطبة الرقيب، والتقرب بكثرة النوافل إلى القريب، وقسم منهم أهل السكر، وإنفاقهم ثلثه الشروع في السماع وطلب الوصل بالنغمات، واستنشاق نفحات القرب بالمراقبات، وقسم منهم أهل الصحو، وإنفاقهم ثلثه السكون في مرارة الهجران والحنين، من شوق الرحمن والتحنن على خلقه شفقة على أحوالهم، والتمكين في محاربة الشيطان، وقسم منهم أهل الفناء، وإنفاقهم ثلثه تزكية الأسرار بالذكر، وتربية الأحوال بالفكر، وذم الأشباح بزمان المجاهدة، وقسم منهم أهل البقاء، وإنفاقهم ثلثه ذكر المشاهدات، ونشر الكرامات والتخلص من المجاهدات بتحصيل المكاشفات، وقسم منهم أهل الانبساط، وإنفاقهم ثلثه الاستغفار بعد الشطح، وحفظ الآداب في حال السكر والأخبار عن المقامات لأهل الإرادات، وقسم منهم أهل حقائق التوحيد، وإنفاقهم ثلثه الاستقامة في الامتحان بنعت إخلاص الإيمان، وترك حظوظهم في مقام المحبة لوجدان جمال القدم؛ لأن المحبة حظ العارف، ورؤية القدم نصيب الحق جلَّ وعزَّ، ورعاية الأسرار بترك رسوم المقامات، وقسم منهم أهل الوله، وإنفاقهم ثلثه الرمزة في العبرات والفوز في الأزليات، وبذل المهجة للأبديات، وقسم منهم أهل الاتحاد، وإنفاقهم ثلثه قمع شهوات العشق عن مغارس أشجار التوحيد، وسير السير في قدم القدم بنعت التجريد، وطيران الروح في بقاء البقاء بأجنحة التفريد، هذا وصف إنفاق رجال الصدق، وهم بالتفاوت فيما نالوا من ثواب الإنفاق في هذه المقامات من جزيل الكرامات،

وهـو مـا ذكـر الله تعالى في كتابه ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ﴾؛ فالبر جزاؤهم منه، ولكل طائفـة مـنه بـر مـن هؤلاء الذين ذكرنا أحوالهم في إنفاقهم على قصد إرادتهم، وصدق نياتهم. فـبر التائبـين هـو محـبة الله لهم بعد إيابهم منهم إليه، وهذا إشارة الله تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وأما برُّ المتورعين؛ فهو استجابة الدعوة مقرونة بالتقوى، وأما برُّ الزاهدين؛ فهو الحكمة من الله تعالى، وهو إشارة النبي ﷺ قال: «مَنْ زهد في الدنيا أربعين صباحًا، ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»(١).

فأمَّا برُّ الفقراء فهو السكينة من الله تعالى ظهرت في قلوبهم، وأمَّا برُّ الأغنياء فهو درجة الكرامات، وأمَّا بر الصابرين فهو درجة الولايات، وأمَّا بر الشاكرين فهو زيادة القربة.

قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وأمَّا بر المتوكلين وهو الكفاية في جميع المراد، ووجدان لطائف محبة الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق:٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾، وأمَّا بر الراضين؛ فهو رضوان الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢].

وقال ﷺ: «الرضوان الأكبر هو تجلي الخاص، ومن بلغ مقام الرضا؛ فقد وجد رضوان الأكبر»(٢).

وأما برُّ الصادقين؛ فهو المحمدة في الدنيا والآخرة، وحقيقة الطمأنينة والكرامة على رءوس الخلائق يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحزاب:٢٤] هذا درجة أهل المعاملات في مجازات الله إياهم ببره وكرامته.

وأمَّا برُّ المراقبين؛ فهو وجدان نور الفراسة وحلاوة الذكر، وأمَّا برُّ الخائفين؛ فهو ذوق المحبة ومعرفة إجلال الحق تعالى، وأمَّا برُّ الراجين؛ فهو صفاء اليقين، ونور البسط والانبساط، وأمَّا برُّ المحبين؛ فهو المكاشفة وأنوار القربة والمشاهدة، وأمَّا برُّ المشتاقين؛ فهو الأنس بالله في جميع المعاني، وأمَّا برُّ العاشقين؛ فهو بهجة سناء الجمال في عين الأرواح، وأمَّا برُّ الموقنين؛ فهو مشاهدة الآلاء والنعماء والطمأنينة في رسوم الربوبية، وأمَّا برُّ المستأنسين؛ فهو حلاوة حسن القدم في قلوبهم، وتفرد خواطرهم عن وجل خطرات الشياطين في أسواق

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢/ ٢٧١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٨٠)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٣٥٩).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (١٠/ ٢٥٥) بنحوه.

الشهوات، وأمَّا برُّ المطمئنين فهو حصول الكرامات من تقليب الأعيان، وأنواع عجائب الآيات، وأن يذوق العارف طعم حلاوة الذكر، قال الله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وأمَّا برُّ المحسنين؛ فهو مشاهدة الحق في لباس الملكوت، هذا وصف بر أهل الأحوال، وأمَّا بر الذاكرين؛ فهو رؤية المذكور في حقائق نفس الإيمان، وأمَّا بر المتفكرين؛ فهو رؤية آثار تجلي الصفات في لباس الآيات، وأمَّا بر الحكماء؛ فهو خصائص الخطاب بنعت الإلهام.

وأمَّا بر أهل الحياء فهو رؤية مشاهدة العظمة والكبرياء، وأمَّا بر أهل التلوين فهو رؤية عين جميع الأفعال بنعت جمال الصفات، وأمَّا بر أهل التمكين فهو رؤية عين جميع الصفات بلا رسم الأفعال، وأمَّا بر أهل الحقيقة فهو رؤية عين القدم بنعت الفناء ومحق البشرية ومحو رسوم الخيال، وأمَّا بر أهل السر فهو رؤية كنز علم الأزلي بعين الروح في مدارج المعرفة، وأمَّا بر العارفين فهو تجلي صرف الوحدانية والسرمدية، ورؤية قرب القرب وهذا صفة بر العارفين، وأمَّا بر أهل القبض فهو رؤية العزة، وأمَّا بر أهل البسط فهو رؤية جلال الصفات بنعت الحلاوة ببروز نور القربة، وأمَّا بر أهل السكر فهو ظهور الحق لهم في لباس حالاتهم بالبغتة.

وأمَّا بر أهل الصحو فهو رؤية الحق بنعت الحسن والجمال، وأمَّا بر أهل الفناء فهو رؤية القيومية بنعت الفردانية، وأمَّا بر أهل البقاء فهو رؤية ديمومية الحق جل وعز، وأمَّا بر أهل الانبساط فهو رؤية بسط الحق لهم في وجدان مرادهم منه، وأمَّا بر أهل حقائق التوحيد فهو رؤية أنوار الذات والصفات، وأمَّا بر أهل الوله فهو رؤية انبساط الحق في أنفسهم لذلك هاموا، وأمَّا بر أهل الاتحاد فهو رؤية كسوة جمال القدم بوصف الصفات على أسرار أرواحهم وتسخير الكون لهم بالحكم لا بالتضرع والدعاء.

وهذا وصف بر أهل حقائق التوحيد ذكرت في هذا الفصل ما أتحف الحق إلى أوليائه من أنواع المقامات والكرامات بر أمنه لهم، وجزاء عظيم الله أجرهم، إذ كافأهم بمشاهدته وقربه وعطف عليهم بما هو أجدر منه من مننه القديمة وعنايته الأزلية.

وقال الأستاذ: منهم من ينفق على ملاحظة الجزاء والعوض، ومنهم من ينفق على مراقبة دفع البلاء والمحن ومنهم من ينفق اكتفاء بعلمه .

قال قائلهم:

ويهتز للمعروف في طلب العلا ... ليذكر يومًا عند سلمى شمائله

وقيل: إذا كنت لا تصل إلى البر إلا بإنفاق محبوبك فمتى تصل إلى البار وكنت تؤثر

عليه حظوظك.

وقال جعفر الصادق: لن تنالوا خدمتي إلا بمعرفتي،ولن تبالوا معرفتي إلا برضائي ولن تنالوا رضائي إلا بمشاهدتي، ولن تنالوا مشاهدتي إلا بعصمتي، ولن تناولوا عصمتي إلا بتعظيم ربوبيتي، ولن تنالوا تعظيم ربوبيتي إلا بالانقطاع عما سواي.

وقال بعضهم: أول البر الهداية ثم المجاهدة ثم المشاهدة، معناه: لن تنالوا هذه الخصال إلا بأن تنفقوا مما تحبون.

قال ابن عطاء: لن تصلوا إلى القربة وأنتم متعلقون بحظوظ أنفسكم.

وقال جعفر الصادق: بإنفاق المهج يصل العبيد إلى بر حبيبه وقرب مولاه، قال الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾

وقال أبو عثمان: لن يصل إلى مقامات الخواص من بقي عليه شيء من آداب النفوس ورياضتها.

وقال الواسطي: الوصول إلى البر بإنفاق بعض المحابّ والوصول إلى البار بالتجلي من الكونين وما فيهما.

وقال النصر آبادي: أفردك له باشتقاقه المحابّ منك ليكون خالصًا في محبته لا تلتفت منه إلى شيء سواه.

قال ابن عطاء: لن تنالوا وصلتي وفي أسراركم موافقة أو محبة بسواي.

وقال النصر آبادي: قال بعض المفسرين: البر أنه الجنة، وعندي أن البر صفة البار فكأنه قال: لن تنالوا قربتي إلا بقطع العلائق.

وقال جعفر الصادق: لن تناولوا الحق حتى تنفصلوا عما دونه.

قال ابن عطاء: لن تنالوا معرفتي وقربتي، حتى تخرجوا من أنفسكم وهمومكم بالكلية.

وقال العلوي: أحب الأشياء إليك روحك، فاجعل حياتك نفقة عليك؛ لكي تنال بري بك.

وقال أبو بكر الوراق: دلهم بهذه الآية على الفتوة، وقال: لن تنالوا بري بكم إلا ببركم إخوانكم والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم، وما تحبونه من أملاككم، فإذا فعلتم ذلك نالكم بري وعطفي، وأنه أعلم بنياتكم في اتفاقكم وبركم، ما كان منه لي خالصًا قابلته ببري وهو أعلى وما كان من ذلك للرياء والسمعة، فأنا أغني الشركاء عن الشرك، كما روي عن المصطفى ﷺ .

قال الجنيد: قال: لن تنالوا محبة الله حتى نسخوا بأنفسكم في الله[1].

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ الإشارة فيه أن أهل هذه القصة يجوز لهم أن يتركوا شيئًا من المأكولات من جهة المجاهدة لا من جهة التحريم، ثم حثَّهم الله تعالى بأعلامهم شأن أنبيائه صلوات الله عليهم في المجاهدات؛ ليقتدوا بهم.

وأيضًا فيه إشارة إلى ترك اللحوم على الدوام لما فيها ضراوة كضراوة الخمر من جهة المجاهدة لا من جهة التحريم.

وأيضًا: حرم على نفسه نبي الله يعقوب ﷺ أشهى طعام فالإخبار عنه تعليم الله تعالى أهل محبته؛ ليتركوا ما أحب إليهم من الأطعمة الشهية، وما تشتهي أنفسهم من زهرة الدنيا ولذتها.

وأيضًا: فيه إشارة إلى أهل الدعوى الباطلة من السالوسين والناموسين ألا يحرموا ما أحل الله لهم من الطيبات، ولا يحلوا ما حرم الله عليهم من المنكرات والخبيثات، وهؤلاء أهل الإباحة الذين ظهروا في هذا الزمان استأصلهم الله في الدنيا والآخرة.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ ملة إبراهيم الشوق والعشق والمحبة والخلة والفتوة والمروءة والشجاعة والسخاوة والحلم والأمانة والديانة والكرامة وإكرام الضيف والصبر في البلاء والشكر في النعماء والهجرة ،والخروج عما سوى الله بالكلية والعبرة والتأوه والصدق والإخلاص والتوحيد والتجريد والتفريد والسماع والوجد والاتصاف بصفات الحق من حيث رسوم البشرية بهذه الخصال صار إمامًا للعارفين والعالمين

أمر الله تعالى أحب عباده متابعته وموافقته في جميع أحواله، ومن زاغ عن طريقه ولو ذرة فتكون النفس له صنمًا قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٢٨٩).

نَفْسَهُۥ﴾ [البقرة:١٣٠]

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ لا يميل من الحق إلى جبريل حيث عرض عليه اللياذة عليه قال: ألك لي حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، ولا يداهن في دينه المحبة أبويه قال:﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨].

وقال:﴿إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الصافات:٩٩] وكسر أصنام الكفرة بفأس الحمية، وطهّر موضع نظر الحق عن الخيال والتمثال، فشكر الله عنه، وقال:﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الأنبياء:٥٨] وبذل في محبته الأموال والأولاد، ولا يخاف في الله لومه لائم لأجل ذلك قال:﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وأيضًا نفى عنه خاطر الشك حيث قال:﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠] بقوله:﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ العرش قبلة الملائكة، والكرسي قبلة سكارى الحضرة، والبيت المعمور قبلة السفرة، والكعبة قبلة الناس عامًّا وخاصًّا، أحال الطائفيين إلى الوسائط وحجبهم بها عن مشاهدة جماله غيره على نفسه عن أن يرى أحد إليه سبيلاً؛ لأنه وضع بيته قبل آدم وذريته ابتلاء وامتحانًا لتحجبوا بالبيت عن صاحب البيت.

ومن أعرض سره عن الجهة في توجهه إلى الله صار الحق قبلة له، فيكون هو قبلة الجميع كآدم كان قبلة الملائكة؛ لأنه وسيلة الحق بينه وبين ملائكته لما عليه كسوة جلاله وجماله كما قال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»[1] يعني ألقي عليه حسن صفاته ونور مشاهدته، كما قال تعالى في حق موسى ﷺ:﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [طه:٣٩]، والمحبة خاصة صفاته الأزلية، ومن أعرض من أهل العبودية عن آدم فمثله كمثل إبليس من الملائكة؛ لأن من شرط المعرفة العبور بالوسائط في عالم العبودية.

فإذا كان محققًا في المشاهدة فإلى أي جهة توجه فثمَّ وجه الله، كما قال تعالى:﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ لأنّه في محل عين الجمع، وكما قال بعض العارفين: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه.

وأيضًا: وضع بيته وكساه بكسوة آياته الكبرى، وهي نور القدرة ليجذب قلوب عباده إليه بوسيلته؛ لأجل ذلك قال بيتي لتخصيص الإضافة، ولأنه منور بنور آياته الخاصة.

﴿لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ سميت البكة لالتصاق أرواح العشاق به شوقًا إلى لقاء حبيبهم وهيام

---

(١) رواه البخاري (٥٨٧٣)، وابن حبان في صحيحه (١٤/ ٣٤).

العارفين إليه بالمبادرة والمسارعة ببذل المهج.

ويقال: لا تعلق قلبك بأول بيت وضع لك، ولكن أفرد سرك لأول حبيب أنزله.

وقيل: شتان بين عبد اعتكف عند أول بيت وضع له وبين عبد لازم حضرته عزيز كان له.

﴿مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: مقدسًا من أن يلتصق به ريب الشاكين أو تهمة المرائين أو أن يرى وجه عروس الآيات إلى غير المخلصين، وأيضا تعظمًا بما كسا الله عليه من أنوار قربة وحضرة وبركاته أن يسكن به قلوب المريدين ويكون مروحة لقواد المشتاقين، وروضة لأرواح الصادقين، وريحانة لمشام العاشقين، وهدي هاديًا بانكشاف نوره للعالمين من المؤمنين، وأيضا: هدي للمريدين إلى رؤية الآيات، وهدي للعارفين إلى رؤية صاحب الآيات، وهدي للخائفين إلى مقامات الأمن، وهدي للمنقطعين إلى شهود الأنس، وراشد للمحسنين إلى مشاهدة الرب تبارك وتعالى.

وقال الأستاذ: بركاته اتصال المطاف والكشوفات هناك لمن قصده بهممه، ونزل عليه بقصد هداه إلى طريق رشده.

وقال الحسين: إن الحق تعالى أورد تكليفه على ضربين تكليفا عن وسائط وتكليفه بالحقائق فتكليف الحقائق بدت معارفه منه وعادت إليه وتكليف الوسائط بدت معارفه عمن دونه ولم يتصل به إلا بعد الترقي منها إلى الفناء عنها، فمن تكليف الوسائط إظهار البيت والكعبة، فقال: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ فما دمت مشتغلًا به كنت منفصلًا عنه فإذا انفصلت عنه حقيقة وصلت إلى مظهره وواصفه وكنت مترسما بالبيت متحققا بواضعه[1].

قوله: ﴿فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ البيت مرآة العارفين يتجلى الحق لهم بوسائط الآيات أبهم الحق سر ظهوره فيه؛ لئلا يطلع عليه كل أجنبي من هذه القصة، وشأن البيت وشجرة موسى سواه تجلى منها لموسى وتجلى منه لأمة محمد ﷺ، وأشار بالآيات البينات إلى نفسه تعالى وتقدس عن الحلول والنزول وبنعت الانتقال.

---

(١) يقال: إذا كان البيت المنسوب إليه لا تصل إليه من ناحية من نواحيه إلا بقطع المفاوز والمتاهات فكيف تطمع أن تصل إلى ربِّ البيت بالهوينى دون تحمُّل المشقات ومفارقة الراحات؟!

ويقال: لا تُعلِّق قلبك بأول بيتٍ وضع لَكَ ولكن أَفْرِدْ سِرَّكَ لأول حبيبٍ آثرك، ويقال: شتَّان بين عبدٍ اعتكف عند أول بيتٍ وُضِع له وبين عبدٍ لازم حضرة أول عزيز كان له، ويقال: ازدحام الفقراء بهممهم حول البيت ليس بأقل من ازدحام الطائفين بِقَدَمِهم ، فالأغنياء يزورون البيت، ويطوفون بِقَدَمِهم، والفقراء يبقون عنه فيطوفون حوله بهممهم. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٥٧).

قال الأستاذ: فيه آيات ولكن لا يدرك تلك الآيات بأبصار الرؤوس؛ ولكن ببصائر القلوب.

وقال محمد بن الفضل: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ علامات ظاهرة يستدل بها العارفون على معروفهم.

قوله: ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الرضا والتسليم والانبساط واليقين رضاه حين ألقي في النار وتسليمه في ذبح ولده وانبساطه قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِى﴾ [البقرة:٢٦٠] ويقينه قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ وزيادته مقام المكاشفة، فالمشاهدة والخلة والفتوة فمن وافق سره سر هذه المقامات، فقد أدى حق مقام إبراهيم عليه السلام وأيضًا للخليل مقام المعرفة والتوحيد والفناء والبقاء والسكر والصحو فمن ذاق طعم السكر، وتمكن في الصحو وفني عن أوصاف نفسه، وبقي على أوصاف الحق بنعت الخلق عليه والتنور بأنوار المعرفة، والتلبس بلباس التوحيد، وطار روحه في سنا القدم، وطاش قلبه في جلال الأبدية وسار سره في الملك الأعلى، وهام عقله في وادي العظمة والكبرياء، واطمأنت نفسه في أحكام الربوبية بلا جزع وفزع، فقد فار برؤية مقام إبراهيم عليه السلام؛ لأنه محل التمكين.

قال الأستاذ: مقام إبراهيم عليه السلام في الظاهر ما باشر بقدمه وهو في الإشارة بها وافق عليه السلام الخليل بهممه.

وقيل: إنَّ شرف مقام إبراهيم، لأنَّه آثر الخليل عليه السلام وآثار الخليل عند الخليل أثر، وخطر عظيم.

وقال الشبلي: مقام إبراهيم عليه السلام هو الخلة فمن شاهد فيه مقام إبراهيم الخليل عليه السلام فهو شريف ومن شاهد في مقام الحق فهو أشرف.

قال محمد بن علي الترمذي: مقام إبراهيم عليه السلام هو بذل النفس والولد والمال في رضا خليله فمن نظر إلى المقام ولم يتجل مما تجلى منه إبراهيم من النفس والمال والولد ولم يسلم فقد بطل سفره وخابت رحلته.

﴿فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ من دخل مقام الإنابة اعتصم بنور الكفاية عن تواتر المعصية ومن دخل مقام الزهد، فقد استراح من هواجس الوسوسة، ومن دخل مقام

التوكل قلت من ضيق الاشتغال بالمكاسب، ومن دخل مقام الرضا فقد فاز من الفناء ومن دخل مقام الوفاء فقد ذاق طعم الصفاء.

ومن دخل مقام الاستقامة فإنه من تلوين الخاطر، ومن دخل مقام الإخلاص أمن من آفات الرياء والسمعة.

ومن دخل مقام الصدق أمن من رعونات النفس، ومن دخل مقام التسليم مثل الخليل فقد خرج من تنازع النفس وتدبيرها وإرادتها، ولم يبق له اختيار وسكن في اختيار الحق ومراده منه، وأمن من خوف فوت المراد؛ لأن جميع الخوف من جهة فوت المراد فإذا لم يبق له مراد زال الخوف بأسره منه ولم يبق للخوف مساغ في وصفه، ولا محالة أن دخول البيت لا يكون مستحسنًا إلا بتسليم الأمور إلى رب البيت، فإن من لم يكن بالتسليم موقوفًا في ترك مراده فهو معارض للتقدير في جميع الأمور، وحسن الأدب في دخول البيت التسليم بنعت الرضا دون المعارضة ونزاع البشرية.

ومن دخل مقام المراقبة من بعد الاستقامة من الخطرات الرديئة، ومن دخل مقام الأنس فاءت عنه الوحشة، وغربت عنه شره الفترة، ومن دخل مقام الخوف أمات الله عنه خوف زوال المحبة ووقر بنور الهيبة عند جميع الخلق، ومن دخل مقام الرجاء شعشعت عنه دارات الامتحان وترح عن افتنانها بحلاوة الدنيا وزهرتها لأن من دخل قلبه سلطان حقائق الرجاء أمن من نوازع البشرية وهواجس الطبيعة وقوارع النفسانية، لأنَّ نور الرجاء من بحر الأنس ونور الأنس من بحر القدس والقدس من صفاته علا كبريا وه وجلّت عظمته، ومن التجأ إلى ظل سلطان الوحدانية أمن من غارات الشيطان؛ لأنه دخل في قباب عصمته، ومن كان في مقام كنف ستر جبروته فأنى يلحقه أيدي الشياطين.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢] وأخبر عن عدوهم: ﴿لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص:٨٢،٨٣] ومن دخل مقام المحبة أمن من الإبعاد والطرد والغضب، ومن دخل مقام الشوق أمنت روحه من ارتباطها في عالم الحدثان، ومن دخل مقام العشق صار متصفًا بصفات الحق وخرج من أوصفات النفس، ومن دخل مقام المعرفة أمن من عين النكرة، ومن دخل مقام اليقين أمن من غبار الشك والريب، ومن دخل سرادقات التوحيد جنحت عنه خواطر الشرك؛ لأن حقيقة التوحيد الخروج عن عرضة النفس وسجن الوسواس وعلائق المعاهدات البشرية وقطع عوائق الإنسانية عن أوطان الذكر، ومن دخل مقام الذكر اطمأن برؤية المذكور، وخلص من ذكر ما سوى الحق، وإذا خرج العبد عن نفسه وشهواته بلغ مقام صفاء العبودية وإذا بلغ

صفاء العبودية بلغ صفاء الحرية ومن بلغ صفاء الحرية بلغ صفاء الذكر ومن بلغ صفاء الذكر دخل في مشاهدة المذكور وأمن من عذاب القبور.

ومن دخل مقام التفكر غاصت روحه في بحار أنوار الملكوت، وترى في أصداف الغيوب جواهر الجبروت، وسلمت من ربق النفس وطوارق الشيطان ومن دخل مقام الحياء تصدعت عن مزاد قلبه أزجل الشياطين، وتقدّس سره من نفخ الوسواس ومن دخل جمال عين الجمع سكن في وجد الحق تعالى بلذة الانبساط ونور البسط، وألبسه الله خلعة الأنانية، وأمن من صفات الإنسانية وسكر من تكاليف حياة الدنيوية، ومَنْ دخل قلبه أنوار القربة سكنت روحه بالمشاهدة وعقله بالمكاشفة، وسره بالمعاينة ونفسه في العبادة ومن دخلت روحه في أنوار العظمة تاه قلبه في وادي الهيبة وعقله سكن بنور المعرفة وسره بنور الوصلة ونفسه بلذة الطمأنينة في أمور الربوبية ومن دخل سره في جنان الأنس مسكن قلبه في ظهور أنوار القدس وروحه في بروز نور القدم وعقله في كشوف نور القدرة.

ومَنْ دخل عقله في نور الشواهد سكن سره ببقاء المشهود وروحه في رؤية عين الحقيقة، وقلبه في محبة الأزلية ونفسه في رسوم المخاطبة، ومن دخلت نفسه في مراد الحق وخرجت عن مرائيات الخلق سكن قلبه بنور الإخلاص وروحه بنور الصدق وعقله في صفاء العبودية، وأيضًا من دخل نور اليقين قلبه أمن سره من اضطراب الشك، وعقله من رحمة النفس، وروحه من هموم التدبير، ونفسه من نفاد الشهود الخفية، ومَنْ دخل نور الإيمان عقله رأى قلبه حقائق البراهين، وروحه عالم الملكوت، وسره نور الجبروت، ونفسه أحست أصوات خطاب الخاص من حضرة الحق جلّت عظمته، ومن دخل نور التوحيد روحه فتق عين سره بنور الوحدانية، وعين قلبه بكحل الفردانية، ورسخت نفسه في إخلاص العبودية، ومَنْ دخل نور الإسلام نفسه أمن روحه من خطراتها، وأمن سره من لخطاتها، وأمن قلبه من وسواسها، وأمن عقله من نزاعاتها، ومَنْ دخل بهذه الصفات التي ذكرنا بيت ربه تعالى أمن من عذاب هجرانه في الدنيا والآخرة.

وقال الأستاذ: جعلنا الإشارة من البيت إلى القلب، ومن دخل قلبه سلطان الحقيقة أمن من نوازع البشرية، وهواجس عاهدت النفس.

وقيل: أن الكناية بقوله سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَه﴾ راجعة إلى البيت، ومَنْ دخله يشبه على الحقيقة كان آمنًا.

وقيل: لا يكون دخول البيت على الحقيقة إلا بخروجك عنك، إذا خرجت عنك صح دخولك في البيت، وإذا خرجت عنك أمنت.

قال جعفر بن محمد في قوله :﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا﴾ أي: من عرف الله لم يأنس بشيء سواه.

وقال النوري: من دخل قلبه سلطان الاطلاع كان آمنًا من هواجس نفسه، ووسواس الشيطان.

قال الواسطي: من دخله على شرائط الحقيقة كان آمنًا من رعونات نفسه.

قال ابن عطاء: مَنْ دخله كان آمنًا من عقابه، ولله في الدنيا ثواب وعقاب، فثوابه العافية، وعقابه البلاء، فالعافية أن يتولى عليك أمرك، والبلاء أن يكلك إلى نفسك.

وقال جعفر: مَنْ دخل الإيمان قلبه كان آمنًا من الكفر.

وقال الواسطي في موضع آخر:مَنْ جاوز قلبه الإيمان كان آمنًا في رعونات نفسه.

وقال جعفر الصادق: مَنْ دخله على الصفة التي دخلها الأنبياء والأولياء والأصفياء صار آمنًا من عذابه، كما آمنوا[1].

وقوله تعالى:﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ ، وأضاف الحد إلى نفسه لَمَّا فيه آثار الربوبية وحقائق العبودية، وأيضًا ألزم حق العبودية على عباده لإيتاء شكر الربوبية، وأيضًا أرشدهم إلى رؤية المقصود في الآيات والعلامات بوسيلة القصد إلى بيته، وأيضًا فرض حج البيت على الجمهور لحضور الخواص زائرين رب البيت، وأيضًا أراد أن يرى عباده عظمته وكبرياءه في رؤيتهم ذل العبودية ، والتواضع، والتضرع على أعناقهم.

وأيضًا أي: واجب الوجوب على عبادي القصد إلى مشاهدتي ببذل الأموال والنفوس والأرواح، وترك الراحات، والشهوات، والأولاد، والأرواح بنعت التجريد عن المكونات في قصدهم إلى بيته، ويختص البيت لقصدهم رسمًا وحكمًا عن المشاهدة؛ لأنه تعالى وتقدس، منزَّه عن الحلول والتشبيه، يتجلى منه القاصدين إليه في لباس الملك، والآيات لأنه تعالى قال:﴿فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ أخبر عن الآيات في نفس البيت، وأشار إلى تجلي الصفات في نفس الآيات، كما قال ﷺ : «**جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران**»[2]، يعني جبال مكة، وعنى بالجبال -والله أعلم- ببيت الله الحرام؛ لأنه أحجار اصطفاها الله تعالى في الأزل

(١) فكان في الجاهلية كل من فعل جريمةً، ثم لجأ إليه لا يُهاج ولا يعاقب ما دام به، وأما في الإسلام فإن الحرم لا يمنع من الحدود ولا من القصاص، وقال أبو حنيفة : الحكم باق ، وإن من وجب عليه حد أو قصاص فدخل الحرم لا يهاج ، ولكن يُضيَّق عليه ، فلا يطعم ولا يباع له حتى يخرج. انظر: البحر المديد (١/ ٣١٠).

(٢) سبق تخريجه.

قبلةً لعباده، ومرآة الكشوف لخواصه، والاستطاعة في سبيله معرفته، وقربه ورؤية ألطافه في سائر الأوقات، واليقين في وعده، والتوكل عليه في جميع الأمور والمراقبة، ودوام الرعاية، ومعرفة حفظه، وكلايته جميع عباده ،ومحبته الصافية عن رعونة النفس، وصدق القصد إليه بصفاء النية وطهارة القلب عما سواه، زادهم دوام الذكر والفكر في الآية، ونعمائه وقدرته الكاملة ورحمته الكافية ضدًا، وأمثال هذه المقامات استطاعة القاصدين إلى بيته انقطاع عن سبيل الرشاد، وهلك في مهلكه العناد.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أضاف الحج في أول الآية إلى نفسه، ونزه نفسه في آخرها، ليعلم أهل خبرة العبودية له شفقته على عباده؛ لأن العبادة ترجع إليه بالثواب، وهو منزه عن الأسباب.

والقاصدون إلى بيت الله تعالى على ثلاثة أقسام :

قسم منهم قاصدون إلى البيت بأموالهم، وأنفسهم لطلب الثواب، وقسم منهم القاصدون إلى البيت بقلوبهم الصافية عن الدنيا وما فيها، لامتثال الأمر ولطلب مرضاة الرب.

ومنهم القاصدون إلى مشاهدة رب البيت بأرواحهم العاشقة لطلب حقائق المعرفة، والقربة، وصفاء الوصلة وزيادة مشهد التجلي والتدلي.

فأهل الظاهر يحرمون عن المحظورات، ويحلون عن إحرامهم عند قضاء نسكهم وأداء فرضه، وأهل الباطن يحرمون عن الكائنات والنظر إلى البريات، ولا يحلون ما داموا في الدنيا إلى مشاهدة الذات، وكشف الصفات، فشتان بين مَنْ يحرم من المعهودات، وبين مَنْ يحرم من المسكنات، وشهود المكونات، لكن بلاياه لا يحملها إلا مطاياه، ألا ذهبوا وذهبت معهم البركات، وغربت بغروبهم في مغارب الأبد شموس الكرامات، وأقمار الآيات، ذاع خبرهم في الآفاق، وخفي أثرهم عن الآماق، رحمة الله عليهم حياة ومماتًا، من الإشارة في قصور حجاج كعبة الحقيقة، إذا أرادوا استقبال قلوبهم إلى نحو المقصود أعني بيت الله الحرام، عقدوا بالحقيقة مع الله بنعت المحبة عقد المعرفة، وفسخوا جميع العقود التي عقدوا في غير طريق الحق، من إيثار سواه عليه، وعهود النفس التي أخذت للرياء والسمعة، وطلب العلو والشرف، أعدوا السبل مواطن المشاهدة، زاد الصدق في التوكل والإخلاص واليقين والزهد في تجارة الله، وراحلة الصبر قوائمها الحمد، ورأسها الحلم، وبطنها الورع، وسرجها التمكين، وحزامها الاستقامة، وزمامها التسليم، وسوطها الأدب، وأرضها الرضا، وسماؤها اليقين، وماؤها الفكر، وعلفها الذكر، ورياضها المكاشفة، ومرعاها المشاهدة، وتوجهها على شهود

القدم.

وإذا خرجوا من أوطانهم بهذه الراحلة هجروا من الدنيا وما فيها، واستعدوا أهبة الموت من جميع الخلائق من المعاشرين المتقاربين، وأسرعوا في طريق الرياضة، وألزموا أنفسهم كدح الجادين المجدين، وتوجهوا بنعت الإخلاص إلى الله، ولم يلتفتوا إلى غيره في طريقه من أهل الدثر والدبر والبتر، وعزموا أن لا يجوزوا عن قصد السبيل إلى سبل دواعي الهوى والشياطين.

وإذا ركبوا مراكبهم يكون قائدهم الهدى، وسائقهم التقوى، ومنهجهم الصفا، ورفيقهم المولى، وعديلهم العلم، وصحبهم الحلم، الشوق يسوقهم في وادي العشق، مؤنسهم الحنين، ومطربهم الأنين، بدر وقتهم الحبيب، وإذا قربوا من وادي المحرم ساروا مسرعين من الشوق، وقطعوها نادمين من الذنب، وخرقوها سادمين إلى مشاهدة الرب، متحسرين من فوت الأوقات، هائمين في طلب الدرجات، باكين دماء الحزن بالزفرات، نائحين على أنفسهم بنعت العبرات.

وإذا أبلغوا رأس الوادي خلعوا ثوب الراحات، وتجرَّدوا عن جميع الشهوات، ولبسوا إحرامهم التفريد، واغتسلوا في بحر التجريد، وتطهروا عن جمع شوائب العلل، وإذا لبُّوا سمعوا أصوات الرضا بنعت الوصلة والقربة، ونداء الحق قبل كونهم في الأزل، وإذا بلغوا عرفات صاروا متبطئين في قيود السُكر، لا فكاك لهم عنها إلا بستر الصحو، فبين السُكر والصحو هائمون، وبين الهيبة والبسط حائرون، يعرف لهم الحق جلَّت عظمته حقائق المشاهدة، وصفات المكاشفة، وأظهر لهم مكنونات الغيوب، ومضمرات القلوب، وإذا وقفوا، وقفوا راجين إلى لقاء الرحمن، خائفين من القطيعة والهجران، شاهدين مقام الحياء، حاضرين مقام الفناء في رؤية البقاء، وإذا وصلوا إلى مشعر الحرام ذكروا الله بنعمة رؤيته، وذكرهم هناك غي اللسان وخجلة الجنان في قدم الرحمن، مقشورين بين يديه، مطرقين من التقصير، منحنين من التفريط، وإذا بلغوا المنى ذبحوا أنفسهم عن اللذات، والشهوات، وإذا رموا الجمرات رموا مجاهدتهم ورياضتهم وعبادتهم إلى كتم العدم، لوصولهم مشاهدة القدم، وإذا كسروا الحجارة كسروا معها شهوات بواطنهم، وإرادات أنفسهم عن ممكنات أسرارهم، وإذا حلقوا حلقوا عن باطنهم فضولات الوسواس، وحب محمدة الناس، وإذا دخلوا أرض الحرم علموا أنهم عند سرادق العظمة وأبواب الحضرة، خاضعين من الإجلال، ذائبين في نيران الكبرياء، محرمين عما دون الله، متأهبين للقائه، لا يحل عليهم شيء من الأكوان قبل وصولهم إليه؛ لأنهم في معادن الصمدية، وصولة الصمدية تمنعهم عن علات الحدوثية، وإذا دخلوا مكة أيقنوا أنهم في جواره؛ لأن مكة بمنزلة الجنة، ومَنْ دخلها أمن من عقابه في جواره

لوعده تعالى ،وإذا دخلوا المسجد دخلوا هائمين من رؤية عظمته، وذكروا هيبته وإجلاله، وإذا رأوا البيت رأوا قبل رؤية البيت رب البيت، ومشاهدته، وعلموا أنهم في حضرته القديمة، ومشاهدته الكريمة، وإذا طافوا حول البيت رأوا ملائكته مطيفين حول العرش والكرسي، وأيقنوا أنهم عند الله تعالى بمنزلتهم، وإذا استلموا علموا أنهم بايعوا الله ببيعة الأزل بنعت الخروج عن المخالفة بعد تلك المبايعة، ولا يمدون أيديهم إلى المألوفات والشهوات، وإذا صلوا خلف المقام علموا أنهم في مقام الوصلة والقربة والمناجاة، ومحل الوافين بعهد الله، وإذا تعلَّقوا بأستار الكعبة أيقنوا أنهم معتصمون بحبل الاعتصام، لائذون بحقيقة عصمته، ملتجئون إلى كنف قربته، منفردون عن اللياذة، واجدون الحق بعد ذلك، وإذا دخلوا بيت تعالى، أيقنوا أنهم في حفظ عنايته وكنف كلايته، مستغرقين في وجود قدمه وبقائه، وإذا صعدوا الصفا والمروة خرجوا من كدورات النفسانية، ورأوا أنهم في مقام الاصطفاء والاجتباء، ومن له بصيرة المعرفة علم وتحقق أنَّ الله تعالى رسم هذه المناسك والمشاعر مثالاً لحضرة جلاله، وبنى الكعبة مثالاً للعرش والمسجد الحرام مثالاً لحظيرة القدس، وجعل البلد مثالاً للجنة، والصفا والمروة وجبال مكة مثالاً لحجاب الملكوت، والحرم كله سواتر الجبروت، والمِنَى مقام الأمن، والمشعر مقام الخوف والتعظيم، والمعرفة أرض المحشر، والمحرم مقام القيامة، والبادية الدنيا، والخروج من الوطن الموت، والقصد إلى زيارة البيت التأهب للقاء الرب تبارك وتعالى، فإذا أبصر حقائق هذه الأمثال صار حجه قربة ومشاهدة سعيه مبرورًا، وعمله مشكورًا.

ذكرت حج العارفين من الموقنين والمشاهدين، وأيضًا هذه أمثلة مشاعر الباطن: فالكعبة هي القلب، والحجر الصدر، والبلد الصورة، والصفا العقل، والمروة العلم، والمنى الحلم، والمشعر الذكر، والعرفات صفاء العبودية والمعرفة، والمحرم المقامات والحالات، والبادية النفس والهوى، والحاج الروح المقدس.

وأما أسرار العاشقين أيضًا: إذا حجت فكعبتها ذات القدمية جلَّت عظمته، وعزَّ كبرياؤه، ومناسكها مراتب السر في الصفات، فإذا تجرَّدت الأسرار في بيداء الأزل عن الأماكن والأزمان والحدثان، استقبلت إلى عروس البقاء والسرمدية، تحوها مطاف حظائر القربة على بساط الحشمة والانبساط، فكل نفس منها لمَّا نظره وشاهده وكاشفه فحجها منه إليه، وعنه به، وبه عنه، ومنه له، فشأنها عجيب، ووجدها غريب.

وقيل: لم يخاطب عباده في شيء من العبادات بأن الله عليهم إلا الحج، وفيه فوائد: أحدها أنه ليس من العبادات عبادة يشترك فيها المال والنفس إلا الحج، فأخرجه بهذا الاسم.

وقيل: ما كانت فيه إشارات القيامة من تجريد ووقوف.

قال الله: عليك ذلك لتهييء باطنك للموقف الأكبر كما هيأت ظاهرك لهذا الموقف.

وقيل: إن رجلاً جاء إلى الشبلي، فقال له: إلى أين؟ قال: إلى الحج، قال: هات جرارتين، فأملأهما رحمة، واكتسبهما وجيء بهما؛ ليكون حظنا من الحج بعرضها على من حضر، ونحيى بها من يراه، قال: فخرجت من عنده، فلما رجعت قال لي : أحججت؟ قلت : نعم، قال لي: إيش عملت؟ قلت: اغتسلت وأحرمت وصليت ركعتين ولبَّيت، فقال لي: عقدت به الحج، قلت: نعم، قال: فنسخت بعقدك كل عقد عقدت منه، خلفت مما يضاد هذا العقد، قلت: لا، قال: فما عقدت، قال: ثم نزعت ثيابك، قلت : نعم، قال: تجردت من كل فعل فعلت؟

قلت: لا، قال: ما نزعت، قال: ثم تطهرت، قلت: نعم، قال: أزلت عنك كل علة يطهرك؟ قلت: لا، قال: فما طهرك، قال: ثم لبيت، قلت: نعم، قال: وجدت جواب التلبية مثلاً بمثل، قلت: لا، قال: ما لبيت، قال: ثم دخلت الحرم، قلت: نعم، قال: اعتقدت بدخولك ترك كل محرم، قلت: لا، قال: ما دخلت الحرم، قال: ثم أشرفت على مكة، قلت : نعم، قال: أشرف عليك من الله حال بإشرافك على مكة؟

قلت: لا، قال: ما أشرفت على مكة، قال: دخلت المسجد الحرام؟ قلت: نعم، قال: دخلت في قربه من حيث علمته، قلت: لا ، قال: ما دخلت المسجد، قال: رأيت الكعبة؟ قلت: نعم، قال رأيت ما قصدت له، قلت: لا، قال: ما رأيت الكعبة، قال: رملت ثلاثًا مشيت أربعًا، قلت: نعم، قال: هربت من الدنيا هربًا علمت أنك به قد فاصلتها وانقطعت عنها، ووجدت بمشيتك الأربع أمنًا مما هربت منه، فازددت الله شكرًا لذلك ، قلت: لا ، قال: فما طفت، قال: صافحت الحجر؟

قلت: نعم، قال: ويلك، قيل: مَنْ صافح الحجر فقد صافح الحق، ومَنْ صافحه فهو في محل الأمن، أظهر عليك أثر الأمن؟ قلت: لا، قال ما صافحت الحجر، قال: أصليت ركعتين بعدها؟ قلت: نعم، قال: وقفت الوقفة بين يدي الله ووقفت على مكانك من ذلك، وأريته قصدك؟

قلت: لا، قال: ما صليت، قال: خرجت إلى الصفا، ووقفت بها؟ قلت: نعم، قال إيش عملت؟ قلت كبرت عليها، قال: هل صفا سرك بصعودك إلى الصفا، وصغر في عينك الأكوان بتكبيرك ربك؟ قلت: لا ، قال: ما صعدت ولا كبَّرت، قال: هرولت في سعيك؟ قلت: نعم، قال: هربت منه إليه؟ قلت: لا ، قال: ما هرولت وما سعيت، قال: وقفت على المروة، قلت: نعم، قال: رأيت نزول السكينة عليك وأنت على المروة؟

قلت: لا ، قال: لم تقف على المروة، قال: خرجت إلى منى؟ قلت: نعم، قال: أعطيت ما تمنيت، قلت: لا ، قال: ما خرجت إلى منى، قال: دخلت مسجد الخيف؟ قلت: نعم، قال: هل

تجدد عليك خوف بدخولك مسجد الخيف؟ قلت: لا، قال: ما دخلته، قال: مضيت إلى عرفات، قال: نفرت إلى المشعر الحرام، قلت: نعم، قال: ذكرت الله فيه ذكرًا أنساك فيه ذكر ما سواه، قلت: لا، قال: ما نفرت، قال: هل شعرت بماذا أجبت أو بماذا خوطبت؟ قلت:لا، قال: ما نفرت إلى المشعر قال: ذبحت؟

قلت: نعم، قال: أفنيت شهواتك وإرادتك في رضا الحق؟ قلت:لا، قال: ما ذبحت، قال: رميت قلت: نعم، قال: رميت جهلك منك بزيادة علم ظهر عليك، قلت:لا، قال:ما رميت قال: زرت؟، قلت: نعم، قال: كوشفت عن شيء من الحقائق أو رأيت زيادة الكرامات عليك للزيارة؛ فإن النبي ﷺ قال: «الحاج والعمار زوار الله، وحق المزور أن يكرم زائره»[1]، قلت: لا، قال: ما زرت ، قال: أحللت ؟ قلت: نعم، قال: عزمت على أكل الحلال؟ قلت: لا، قال: ما أحللت، قال: ودعت، قلت: نعم، قال: خرجت من نفسك وروحك بالكلية؟ قلت: لا، قال: ما ودعت ولا حججت وعليك العود إذا أحببت، وإذا أحججت فاجتهد أن يكون كما وصفته لك.

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: لما دخلت على الشيخ الحصري- قدَّس الله روحه- ببغداد، قال لي: أحاج أنت؟ قلت: أنا مع القوم، فقال لي: أليس فرائض الحج أربع، الإحرام والدخول فيه بلفظ التلبية؟ قلت: بلى، قال: والتلبية إجابة؟ قلت: بلى، قال: والإجابة من غير دعوة سوء أدب؟ قلت: بلى، قال: فتحققت للدعوة حتى تجيب، ثم الإحرام التجريد من الكل، ولا يكون التجريد إلا بالتفريد، قلت: بلى، ثم الوقوف، قلت: نعم، قال: فاجتهد فيه فإنه محل المباهات، انظر كيف يكون في الطواف وهو محل القربة من الحق، فيكون قربك منه بحسن الأدب، ثم السعي، وهو محل الفرار إليه بالتبري مما سواه، فإياك أن تتعلق بعد سعيك بعلاقة من الدارين وما فيهما.

وقال الشيخ: سمعت محمد بن الحسن البغدادي يقول: سمعت محمد بن أحمد بن سهل يقول: سمعت سعد بن عثمان يقول: سمعت عبد الباري يقول: سُئل ذو النون لِمَ صير الموقف بالمشعر الحرام ولم يصير بالحرم؟ قال ذو النون: لأن الكعبة بيت الله، والحرم حجابه، والمشعر بابه، فلما أن قصده الوافدون أوقفهم بالباب الأول يتضرعون إليه حتى أذن لهم بالدخول، أوقفهم بالحجاب الثاني، وهو المزدلفة، فلمّا أن نظر إلى تضرعهم أمرهم بتقريب قرابينهم، فلما قرَّبوا قربانهم، وقضوا تفثهم طهروا من الذنوب التي كانت لهم حجابًا من دونه، فأذن لهم بالزيارة على الطهارة.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٨٩) بنحوه.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وبخهم بالكفر بعد شهودهم مشاهد الآيات بأمر الظاهر، واستدرجهم بها أورثهم من الشهوات بقضاء الباطن، وحذَّرهم لشهوده على أسرارهم ليطردهم عن قربه ووصاله(١).

وقال الأستاذ: الخطاب بهذه الآية تأكيد الحجة عليهم، فمن حيث الشرع تؤكد الحجة عليهم، ومن حيث الحقيقة والقهر سد الحجة عليهم، فهم مذعورون شرعًا وأمرًا، مطرودون حكمًا وقهرًا.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ .

نهاهم الله عن الصد والصد لا يكون إلا من الحسد، والحسد مذهب المبغضين الذين لا يطيقون أن يروا على المريد أثر كرامة الله، وهم في الحقيقة مصدودون، والمصدود مطرود يضل ويُضل.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومَنْ اعتصم به منه اهتدى به إليه؛ لأنه في محل المعرفة، ومن عرفه يستعيذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته، وبه منه، وهذا حال سيد الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليه- حيث قال في سجوده: «أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(٢).

وكان ﷺ في ذلك الوقت في مشاهدة الجلال والجمال والكمال، والقدم والبقاء والجبروت والكبرياء بنعت المعرفة على وجود الحق، مستغرقًا في بحار علوم القضاء والقدر، ورأى ما رأى من عجائب قدرته، واطَّلع على بعض أسرارهم إرادته فخاف به منه إليه، وأيضًا مَنْ اعتصم بالله هداه الله إلى معرفة عيوب النفس، ودقائق الشيطان، وأخلاق القلب، وشمائل الروح، وأوصاف العقل، وأمور المعاملات، وحقيقة الحالات، وطلب المكاشفات، والاطلاع على المشاهدات، ولمة الملائكة، وعلوم الإلهام، والفِراسات، ويكون بهذه الخصال

---

(١) ومن حيث الحقيقة والقهر يَسُدُّ الحجة عليهم ، فهم مدعوون - شرعًا وأمرًا، مطرودون - حُكْمًا وقهرًا. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٠).

(٢) رواه مسلم (٤٨٦)، وأحمد في مسنده (١/ ٩٦)، والترمذي (٥/ ٥٢٤)، وابن ماجه (١/ ٣٧٣).

في مقام التمكين، وهو أمثل طرق المستقيم[١].

وأيضًا: الاعتصام انجزام القلب عن الأسباب والأرباب، والتبري إلى الله تعالى من الحول والقوة، ومن قطع حبل الطلب عن الخلق ارتفع قتام البين بينه وبين الحق، والاعتصام قبل المعرفة محال، والمعرفة قبل المشاهدة محال، ومَنْ شاهد الله تعالى بنعت المعرفة يعتصم به في جميع مراده.

وقال ابن عطاء: مَنْ افتقر إلى الله من جميع ما سوى الله فقد فتح له الطريق إلى الحج، وهو قوام الطرق إلى الحج، وهو قوام الطرق.

وقال جعفر في هذه الآية: مَنْ عرفه استغنى به عن جميع الأنام.

قال الواسطي: مَنْ يعتصم بالله للأئمة وللعامة اعتصموا بحبل الله، وقال أيضًا: الاعتصام به منه، ومَنْ زعم أنه يعتصم به من غيره فهو وهن في الربوبية.

وقال أيضاً في قوله: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ : هل شاهدت مشاهدتك شيئًا تفرغ منك إليه، وهل فرغت إلا إلى نفسك، الاعتصام ترى نفسك في ظله وكنفه وحسن قيام نظره لك في يده، فإنَّ الحقيق قسم الاعتصام والتصديق يوجب الاعتصام ، وقبل الاعتصام واللجاء بطرح الحول والقوة والسكون للأمر والهدوء، وتحت مراد الله[٢].

وقيل: الاعتصام للمحجوبين ولأهل الحقائق رفع الاعتصام؛ لأنهم في القبضة.

قال أبو بكر الورَّاق: علامة الاعتصام ثلاث: قطع القلب عن معونة المخلوقين، وصرفه بالكلية إلى رب العالمين، وانتظار الفرج من الله.

وقال جعفر: مَنْ افتقر إلى الله عن جميع ما سواه وليس في سره سوى الله، فقد هدى إلى صراط مستقيم.

قال أبو سعيد الخرَّاز: مَنْ أمن به لا يهان ، ومن اعتصم به لا يهزم.

وقال: لا يمكن رد النفس إلى الصلاح إلا بالحكمة والعلم، والجهد والتضرع، وأصله الاعتصام بالله.

وقال الأستاذ : بها اعتصم بالله مَنْ وجد العصمة من الله تعالى، فأمَّا مَنْ لم يهده الله

---

(١) فلا ينبغي لمن أشرقت في قلبه شموسُ العرفان أن يوقع الكفرُ عليه ظِلَّه، فإنه إذا أقبل النهارُ من هاهنا أدبر الليل من هاهنا. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٣).

(٢) ولِمَنْ رجع عند سوانحه إلى اختياره واحتياله، أو فكرته واستدلاله، أو معارفه وأشكاله، والتجأ إلى ظل تدبيره، واستضاء بنور عقله وتفكيره - فمرفوع عنه ظل العناية، وموكول إلى سوء حاله. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٥).

فمتى يعتصم بالله عز وجل؟ والهداية منه في البداية توجب الاعتصام به في النهاية، لا الاعتصام منك يوجب الهداية.

وأهل الاعتصام أربعة: المحب والعاشق والعارف والموحد، أما اعتصام المحب فطرح نفسه على باب الحبيب، عجزًا وتضرعًا لطلب الوصول إليه، وهذا نعت العاجز في متعب الفراق المحترق في نيران الأشواق، فإذا اعتصم بالحق على وصف غليان الحب، والهيمان في الشوق، فهداه الله إلى مشاهدة جماله، وحسن عطفه وأفضاله، كما قال ﷺ: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه»[1].

وأما اعتصام العاشق، فهو قطع العلائق من قلبه، وإيثار المشاهدة على ما سواه. فإذا تحقق في استغراقه في بحار العشق أرشده الله إلى مقام الأنس حتى سكن في أكناف ألطافه، فهو بالحقيقة مكفوف من الاستدراج بعظمة الأزلية.

وأما اعتصام العارف، فهو بمعرفته بمعروفه فإذا عرفه تحير فيه، واعتصم بمعرفته عن النكرة تارة، وبالنكرة عن المعرفة تارة، والنكرة هاهنا العجز عن درك الإدراك إدراك، وإذا تحير العارف في مهمة العظمة فأصفده الحق عطاء من علوم المجهول من لدنه، فيرى بها مشاهدة الأسرار من حقائق غيب الغيب.

وأما اعتصام الموحد، فاللياذة من الجهل على مشاهدة القدم بالعرفان على مشاهدة البقاء، ومن الجهل على مشاهدة البقاء بالعرفان على مشاهدة القدم، وإذا وجده الحق مضمحلاً في ضباب عظمته وأنوار كبريائه هداه إلى طرف من حقائق الوحدانية، ليسكن به جهلًا لا علمًا، وعلمًا لا جهلًا، وأمرًا لا حكمًا، وحكمًا لا أمرًا.

هذا صفة المعتصمين من أهل الحق الذي نبذوا بطلق الوجوه جميع رسوم الحدثان من الدنيا والآخرة، راجين إليه خائفين منه، حيارى سكارى، لا تلتفتون منه إلى غيره من غلبة اليقين على قلوبهم، ولا يرضون بشيء سوى محبوبهم، فهم معصومون عن الخطرات في البواطن، محصونون على العثرات في الظواهر .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٢)، ومسلم (٢٦٨٣).

﴿وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ حق التقوى الفناء تحت سلطان الهيبة والتحير بنعت الحياء في مقام المعرفة، وذوبان القلب في رؤية العظمة من سطوة جلال المشاهدة.

وأيضًا حق التقوى: صون المعهود وحفظ الحدود والخمود تحت جريان القضاء بنعت الرضا.

وأيضًا حق التقوى: ترك الأكوان والحدثان لمشاهدة الرحمن، وأيضًا نية الأصفياء بركضة تعريفه حقيقة عين القدم بهم؛ ليعرفوا حق الربوبية بأداء حقيقة المعبودية، وألزمهم الاستقامة عليها، أي: اعرفوني بحق المعرفة، ولا تأتوني إلا بشرط الاستقامة، أي: لا يصادقكم الوفاة إلا وأنت بشرط الوفاء وهو معنى قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.

وقال سهل: أمروا أن يعبدوه بالتوكل عليه، والتفويض إليه، أي: لا يعرجون في الدارين على من سواه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ تلف النفس في مواجبه.

وقال القاسم: بذل المجهود، واستعمال الطاعة، وترك الرجوع إلى الراحة، ولا سبيل إليه؛ لأنَّ أوابل طرف الوصول التلف.

وقال الواسطي: هو إتلاف النفس في مواجبه.

وقال ابن عطاء: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ هو صدق قول لا إله إلا الله، وليس في قلبك شيء سواه.

وقال بعضهم: إرادته أن يعرفنا مواضع فضله فيما رغمنا فيه من استعمال مواجبه؛ لأن واجب الحق لا يتناهى، والعمل لا يتناهى.

وأيضًا قال ابن عطاء: حقيقة التقوى في الظاهر محافظة الحدود، وباطنه النية والإخلاص(١).

---

(١) وقيل: وحق التقوى رفض العصيان ونفي النسيان، وصون العهود، وحفظ الحدود، وشهود الإلهية، والانسلاخ عن أحكام البشرية، والخمود تحت جريان الحكم بعد اجتناب كل جُرْم وظلم، واستشعار الأنفة عن التوسل إليه بشيء من طاعتك دون صرف كرمه، والتحقق بأنه لا يَقْبل أحدًا بعِلَّة ولا يَرُدُّ أحدًا بعلة. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٤).

وروي عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن هذه الآية؛ فقال: «أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر»[1].

قال أبو يزيد: التقوى كل التقوى مَنْ إذا قال قال لله، وإذا عمل عمل لله، وإذا نوى نوى لله، ويكون بالله ولله.

وقيل أيضًا: مَنْ تورع عن جميع الشبهات.

وقال النصرآبادي: حق تقاته أن يتقي كل ما سواه.

وقال جعفر: التقوى ألا يرى في قلبك شيئًا سواه.

وقال الواسطي: الأكوان كلها أقدار في ميدان الحق، وميدان الحق لا يطؤه إلا من اتقى سواه، قال الله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ من حبل الله: الهداية والكفاية، والرعاية والعبودية، والمعرفة، والمحبة، والخدمة والأدب، والحرمة والحشمة، والنبي ﷺ والكتاب والسنة أوجب على الجهود والاعتصام بهذه الوثائق حتى وصلوا إليه ولا تفرَّقوا عنه؛ لأن مَنْ رجع عنه إلى رأيه وتدبيره، وعقله ومعاملته ومجاهدته، وحيلته وفكرته واستدلاله فهو بمعزل عن ظل العناية، وكنف الكفاية، والاعتصام بالله، وبحبل الله من باب المعرفة.

أرشد طائفة إلى نفسه بلا وسائط، وأغرقهم في بحار وجوده حتى يلتجئوا من قعر بحر الذات إلى سفن الصفات لينقذهم من ظلمات النكرة بأنوار المعرفة، وهذا حال خاص الخاص، وأشهد طائفة على مراتب المقامات والحالات حتى وصلوا إليه بأنوار كراماته، وألطاف نواله، وهذا حال أهل الخاص، والأمر بالاعتصام شفقة على عجز العارفين في معرفته، وإدراك حقيقة عظمته، وفي مشهد التوحيد الاعتصام للمحبين جهل بعلم القدم، وللعارفين مكر وحجاب برسوم المعرفة عن حقائق الأسرار، وللموحدين كفر؛ لأن حق التوحيد حالان، خمود السر عن الإرادة عند إرادات الحق، وفناء الموحد عن الموحد في رؤية الموحد؛ لأن مَنْ التفت عنه بعد شهوده من القدم إلى رسم الربوبية والعبودية، فهو مشرك في حقيقة، لهذا من غرائب شطحياتي.

وأيضًا: عرَّفهم مفر الأرواح، وهو محل الكواشف والمعارف لكي ينطقوا عن المخاصمة في الأخوة؛ لأنَّ مَنْ بلغ محل مشاهدة الحق بنعت رؤية الوحدانية أسقط الواسطات

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ١٠٦)، وابن المبارك في «الزهد» (١/ ٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٣٨).

وسلم من العداوات، هناك حبال الاعتصام التي انعقدت بها رهن المؤاخاة، وتعارفت أرواح العاشقات؛ لأن وحشة التفرقة يكون في الغيبة، وحقيقة الجمعية يكون في مشهد المشاهدة.

قال سهل: تمسَّكوا بعهده، وعهده التوحيد.

وقال أبو يزيد: ما لم تفقد نفسك ولا تعتصم بخالقك لا يستجاب لك، ومتى كنت وسط الأمور فالمخلوق لا يهتدي إلى الخالق، فإذا طرحت عنك كنت معتصمًا به.

وقيل: الاعتصام إليه هو ميل القلب بالوفاء، وأداء الفرائض بغير تقصير.

قال ابن عطاء: حبل الله متَّصل بعبده يتوقع منه المزيد والفوائد في كل وقت، وحبله عهده وكناية فمَنْ اعتصم به وصل.

سُئل الجنيد عن قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾قال: قالت المتصوفة: هو خصوص وعموم، أمَّا قوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾معناه: اعتصموا بالله عن الاعتصام بحبل الله، وقيل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ﴾اجتمعوا على موافقة الرسول ﷺ أنه الحبل الأوثق ولا تفرقوا عنه ظاهرًا وباطنًا ، سرًا وعلانية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ بأن هداكم إلى نفسه بنعت المعرفة والمحبة ﴿إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً﴾ أي: إذ كنتم من مشاهدة التوحيد في حجاب النكرة تحت غمام البشرية عن رؤية القرب والمشاهدة، وحين كنت تحت ذل الكفر، بتضييعكم حق الله وحق الأخوة، وطلبكم حظوظ أنفسكم بترك حظوظ الإخوان، وسبب كون العداوة بينهم عزلهم عن لباس المعرفة، فإذا كسى الله أسرارهم خلع أنوار قربه، وباشرت قلوبهم حقائق الوصلة، رأى بعضهم على بعض أثر جمال الحق عشقت أرواحهم بعضها على بعض، كما قال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[الحجرات:٧] وما شرحت فهو معنى قوله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾

وأيضًا فألَّف بين قلوبكم بنور عصمته، وكشف جمال حضرته، حتى وصلوا بأجمعهم حقائق مكاشفات الوصال، فذاقوا من كأس المنَّة شراب الألفة، وطابوا بجمال الحبيب، وارتفعت عن بواطن قلوبهم غشاوة الوحشة، فصار عيشهم عيشًا واحدًا، ومذهبهم مذهبًا واحدًا، وحظهم حظًا واحدًا.

وجمعهم الله على عيون الإخلاص حتى يطهروا فيها من دنس الأخلاق، وأوساخ الطبائع، ولبسوا منها أثواب التالف، وإخلاصهم تخلصهم عن أسرار المكونات، ورفع عن أسرارهم أخطار التفرقة، فجمعهم في عين الجمع كنفس واحدة، فأحوالهم أورثهم الوفاء،

وإخلاصهم ألبس أسرارهم الصفاء، فبين الوفاء والصفاء صاروا في الأخوة صادقين، وفي المحبة مخلصين، وفي الصحبة منصفين، وفي المصادقة موقنين، وفي الجملة الألفة بين قلوب الأصفياء بالتفاوت على مرسوم المقامات، ومراتب الحالات[١].

وافهم أن الله تعالى إذا جمع الأرواح في مشاهدة قربة بعد إنشائها، فأكرمها بعضًا بإدراك مقام التوحيد، وبعضًا بمقام المعرفة، وبعضًا بمقام المحبة، وبعضًا بمقام المكاشفة، وبعضًا بمقام المشاهدة، وبعضًا بمقام الأنس والوجد والحالات، والألفة بينهم على قدر قران مقاماتهم بعضها بعضًا، وجعل الجميع بعضهم على بعض رحمة وهداية وعصمة، كما قال ﷺ: «المرء كبير بأخيه»[٢].

وقال ﷺ: «المؤمنون كالبنيان تشد بعضهم بعضًا»[٣].

فمَنْ وافق في مشهد الأزل على مدارج جميع المقامات صار بين الأقران محبوبًا ومعشوقًا وإمامًا بها وجد أصول حقائق القوم وإدراك حقيقة مقاماتهم، ومَنْ لم يبلغ جميع المقامات صار حاله بخلاف ذلك، فالتآلف أوصاف الأولين، والتناكر نعوت الآخرين؛ لأنَّ أرواحهم احتجبت بعضهم بعضًا، كما قال صفير الصفات، وسفير مشاهد أسرار الذات، سيد البريات، وقائم قوائم مهاد الأزليات، صلوات الرحمن عليه: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[٤].

قيل: كنتم أعداء بملازمة حظوظ أنفسكم، فألّف بين قلوبكم، وأزال عنكم حظوظ النفس وردكم منها إلى حظ الحق فيكم.

وقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ أي: كنتم في قعر بحار غضب الأزل امتحانًا لا حقيقة، فأنقذكم منها عصمة رضا القدم المنعوت بعناية شرفكم، واصطفاء نيتكم بالمعارف والكواشف، وذاك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[٥].

وأيضًا أي: كنتم محجوبين بعوارض بشريتكم، محترقين بنيران شهواتكم، فأنقذكم منها أنوار المعرفة، وسنا الأزلية، وضياء القربة، وأذاقكم طعم شراب وصلته، حتى صرتم في طلب مزيد الوصال إخوان كل عاشق محب صادق في طلب رضاه.

---

(١) بالخلاص من أسرِ المكونات، ودَفَعَ الأخطار عن أسرارهم، فصار مقصودُهم جميعاً واحداً؛ فلو أَلَّفَ أَلْفَ شخص في لبِ واحدٍ - فهم في الحقيقة واحد. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٦٥).

(٢) ذكره ابن حجر في «لسان الميزان» (٧/ ١١٥).

(٣) رواه البخاري (٤٦٧)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) رواه البخاري (٣١٥٨)، ومسلم (٢٦٣٨).

(٥) رواه البخاري (٧١١٤)، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٤٢).

وقيل: في قوله: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي: برؤية النجاة بأعمالكم. فأنقذكم منها برؤية الفضل.

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: تبيض وجوه الصادقين في دعوى المحبة بنور المشاهدة، حيث طلعت شمس مشرق الأزل من مطالع القدم، فأنورت بتجلي الجمال وجوهًا، مغفرة بتراب جناب الحضرة عشقًا وشوقًا، وألبستها نورًا من نورها حتى رأت بنور القدم جمال القدم، وهي مشرفة بجلال ربها، مسفرة بيضاء قربه، مستبشرة في رؤية وصاله، ناضرة بتبسم أفواه الرضوان الأكبر فيها، ناظرة من ربها إلى ربها.

قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢،٢٣]، واليوم تلك الأنوار ظاهرة في وجوه من تكون هذه النعوت والأوصاف لهم غدًا، قال الله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح:٢٩]، وقال: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَـٰهُمْ﴾ [البقرة:٢٧٣]، تلك سمات وجوه الأولياء الذين إذا رأيتهم رأيت نعيمًا وملكًا كبيرًا؛ لأنهم مرآة الحق يتجلى منهم بجلاله للخلق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ أي: وجوه المدَّعين مقامات الأولياء بإظهار التقشف بين الخلق وخروجهم بزي الصادقين، وطلبهم به استحسان الخلق، وصرف وجوههم إليهم وعداوتهم، أمناء الله في الأرض حين تخرج رجال الله من حضرة الله ركبانًا على بجانب النور، وعلى رءوسهم تيجان الوقار في ميادين السرور، وغاراتهم عصاة أمة محمد ﷺ من أسواق القيامة، ويدخلون بهم الجنان بلا إذن الرضوان، تسود وجوه السالوسين المدَّعين عند تلك الوجوه على رءوس الأشهاد باحتجابهم عن مشاهدة الله، وصحبة أهل الحضرة، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

قال محمد بن علي: تبيض وجوه بنظرهم إلى مولاهم، وتسود وجوه باحتجابهم منه.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَـٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا

يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ لَيْسُواْ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ مدحهم بالخيرية، ثم شرح الخيرية بأمر المعروف، ونهي المنكر، وذلك رتبة؛ لأنهم آخر درجات القوم، وهو محل التمكين، وتقديس النفس عن الخطرات، ولم يكن ذلك إلا بعد التباسه بلباس العظمة والكبرياء، مثل الأنبياء- عليهم السلام- وخيريتهم بخيرية نبيهم ﷺ واستعدادهم صحبته وموافقته، وخيريتهم مقرونة بخيريته، وهو خير الأنبياء، وقومه خير الأمم، وأمر المعروف دعاء المريدين بلسان المحبة مع مدح المشاهدة، والنهي عن المنكر نهيهم وردهم منهم إليه.

قال يحيي بن معاذ: هذه مدحة لهم، ولم يكن ليمدح قومًا ثم يعذبهم.

قال جعفر الصادق: المعروف موافقة الكتاب والسنة[١].

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: مَنْ كان ذلته عند كشوف أنوار الكبرياء والعظمة يصير عظيمًا في عيون الخلق، منصورًا بتأييد الأزلية على كل منكر؛ لأن عليه كسوة جلال الله، نفرق منه من تعزز بنفسه.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ موصوفًا به لقوله ﷺ: «**إن الشيطان يفر من ظل عمر**»[٢].

وقال الشيخ أبو عبد الرحمن في قوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾: لضعفكم، وصحة توكلكم على ربكم، وانقطاعكم عن حولكم وقوتكم، وردكم الأمر بالكلية إليه.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أراد السيد ﷺ تقديس حضرة الجلال عن أنفاس المجرمين في قولهم بما لا يليق بجلال الله من الشرك والكفر، لئلا يبقى في ساحة الكبرياء مَنْ في قلبه غير الله غيرة على جمال وجهه تعالى، ومَنْ سوغه حبه وشدة إرادته، لم يطالع أمر القدم الذي جرى بالعناية في حق المستورين من بينهم بأستار عوارض الامتحان، فغايته الحق أين أنت من مشاهدة سبق عنايتي لهم، أنعم نظرك في ديوان الأزل ، وليس لك في هذه الغيرة من أمر القدم ومشيئة الأزل في وقتك حين احتجبت بغيرتك على أمرهم شيء، وإن صرفت منك إلى رأيت أمر المشيئة، وتستغني من الدعاء عليهم، وتصديق ذلك قوله

---

(١) وشرط الآمر بالمعروف أن يكون متصفًا بالمعروف، وحقُّ النَّاهي عن المنكر أن يكون منصرفًا عن المنكر. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٧٠).

(٢) ذكره حقي في تفسيره (٤/ ٤٤١).

تعالى: ﴿أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ﴾.

ثم إنَّ الله سبحانه أدب نبيه ﷺ هاهنا بأحسن الأدب بشيئين: أحدهما، أنه أهل الكرم والرحمة من العرش إلى الثرى؛ حيث وصفه الله بكمال الرحمة بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] أي: أرحم من حيث أنت على أمتك، ولا تدع عليهم.

والثاني: ألبسه خلقه تعالى؛ لأن من صفته وخلقه الرحمة على الجمهور، وأعلمه الأسوة بالأنبياء والمرسلين خصَّ منهم إبراهيم عليه السلام وعيسى عليه السلام بقوله: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، وقال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨].

وقال النوري في قوله: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ﴾: ولكن الأمر كله إليك، فإن لك الأمر فالأمر كله إليك، وليس لك منه شيء، جلَّ قدرتك أن تلاحظ غير الحق فيها بعدي وتعيد.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ في الآية إشارة عجيبة لطيفة، وأنها وضوح عيان الحق سبحانه، حقائق الآية أنَّ النار لَم تعد للمؤمنين، ولم تخلق لهم، لقوله: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ﴾ فإذا كانت للكافرين لم تخلق للمؤمنين، لكن خوف المؤمنين بها زجرًا وعظة، كالأب البار المشفق على ولده الذي خوف ولده بالأسد أو بالسيف وإنْ لم يضربه بالسيف، ولا يلقيه عند الأسد، فبقي الأمران لهذه الآية تلطف وشفقة على عبادة المؤمنين الصادقين، وأعجب من ذلك أنَّه تعالى خوفهم بالنار، والنار للغير، ومقصوده تجلي القهر من عظمته للنار، وعظم النار من تجلي عظمته، أي: اتقوني في النار؛ لأني أحرق النار وأعذبها بي، وهذا سر عين الجمع.

وقال ابن عطاء: أمر العام بإلقاء النار لخوفهم منها، وتركهم المعاصي من أجلها، وأمر

الخاص بأن يتقوه وينظروا إليه دون غيره ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[البقرة:١٩٧] أي: يا أهل الخصوص.

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ علم الحق سبحانه على الخلق، وميلهم عن النفوس، فدعاهم بطاعته إلى العلتين، المغفرة والجنة، ودعا الخواص إلى نفسه، قال: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠].

ثم أعلم بالكل في درك امتحان الجرم، وأثبت بالآية ذنب الكل؛ لأنهم وإن كانوا معصومين من الزلل فذنبهم قلة معرفتهم على أقدار الحق، كما قال ﷺ: «لو أن الله عذب الملائكة لحق منه»[١].

فقيل: إنهم معصومون، فقال: من قلة معرفتهم بربهم، ولذلك دعاهم إلى مغفرته، وأيضًا خاطب العارفين بلسان الالتباس، ودعاهم إلى الجمع ليتجلى لهم بالوسائط، لبقائهم في المعرفة وفي الحقيقة مغفرته قربته، وجنته مشاهدته.

قيل: طلب المغفرة هو طلب حظ النفس، وفي آخر الآية إشارة إلى تضييق صدر الزهاد في استعظامهم ما تركوا، فقال لهم: جنتي أجر ما تركتم، وذكر عرض الجنة وسعتها لبخلهم، وخسة طبعهم، وهم الذين اتقوا الدنيا لأجل الجنة، وفيها يصلي العارفين من صداع سوء جوار المنكرين، فقال: جنتي واسعة اسكنوا حيث شئتم في جوار الكريم المقدس من سوء جوار المنكرين.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ هذه الآية إشارة إلى قوم أخطئوا في السماع، ومجالستهم مع حظوظ أنفسهم وبقايا صفات البشرية، فهم حيث جلسوا بغير حضور ولا شهود، ولا مراقبة ولا تقديس الأسرار في طلب الأنوار الفاحشة منهم، سماع القول وإظهار الوجد مع حظوظ النفس وحظ البشرية، والظلم منهم دعوى المعاملات والولايات، وهم يعلمون أنهم ليسوا على التحقيق في السماع وإظهار الوجد، فأدركهم الله بفيض رحمته؛ حيث عرفهم فضائح نفسهم عنده، ويلقيهم في رؤية التعبير والعتاب.

ويضيق صدورهم بتلك الفاحشة والظلم، فيذكرون الله بشرط الندم، ورؤية التقصير والخجل بين يديه، وسقوطهم عن عيون المشايخ، فيستغفرون الله من كذب دعواهم بنية الصدق في التبرئ عن دعوى ما ليس لهم، وإذا كان الأمر كذلك، ولم يصروا على ما فعلوه،

---

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (١/ ٣٣٦).

يغفر الله ما سبق منهم بإيوائهم إلى قربه، فإنه مولاهم وصاحبهم لا غير[١].

وذلك قوله : ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ وأيضًا فيها إشارة إلى عشاق الله الذين استغرقوا في بحار العشق والشوق، واحترقوا بلوائح نيران الكبرياء، وبغتة سطوات العظمة، فيطلبون روح الأنس بالاستراحة في مشاهدة المستحسنات، ويرتادون مشاهدة عروس القدم في مقام الالتباس، وعين الجمع الذي فيه رؤية الحق في مرآة الخلق، وذلك الالتباس فاحشة منهم؛ لأنه في طلب القدم مع رؤية الحدث، وليس لهذا الشرط تجريد حقيقة العشق، وإذا كانوا محترقين بنيران التوحيد والتفريد في رؤية الأزل والأبد والقدم والبقاء يطلبون النزول من مقام التوحيد إلى مقام العشق، وهذا ظلم منهم علي أنفسهم؛ لأنهم نقصوا حظ التوحيد بفرارهم من الفناء في التوحيد إلى بقائهم في العشق، وقوله: ﴿ذَكَرُوا ٱللَّهَ﴾ أي: إذا كانوا مدركين أنفسهم في مقام المكر والاستدراج، وفقدانهم أسرار مقام الفناء ودرجاته، يفزعون بالكلية إلى كلية الحق، جلَّ عن الخواطر والضمائر؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿ ذَكَرُوا ٱللَّهَ﴾ لم يقل ذكروا اسمه أو نعته أو صفته منه أو فعلاً منه بل ﴿ذَكَرُوا ٱللَّهَ﴾ أي: فنوا في الفرار منه إليه في صرف الألوهية برؤية الذات والصفات، يدركهم الحق بانكشاف ما استأثر من نفسه لنفسه، أو لأهل دنو دنوه الذين بقوا في الفناء وفنوا في البقاء، لهم خاصية واصطفائية، وأيضًا فيها إشارة إلى أصحاب المواجيد والوقائع والمكاشفات الذين عادتهم السلوك في المعاملات من الطاعات والرياضات، فإذا ورد عليهم وارد وتضييق وقت وظائفهم، يرجعون إلى أداء الورد، وهذا سوء أدب.

كما سُئل الجريري في ذلك قال: هذا سوء أدب، وهذا فاحشة منهم النزول من الربوبية إلى المعبودية، والظلم تركهم مقام الوصال، واختيارهم وسائط الأحوال، ذكروا الله بعد تغير

---

(١) قيل: أهل مقام الإحسان عملهم قلبي، كالسخاء والعفو وكظم الغيظ، وأهل اليمين عملهم بدني، بين طاعة ومعصية وغفلة ويقظة، إذا فعلوا فاحشة تابوا واستغفروا، وإذا فعلوا طاعة فرحوا واستبشروا، أهل مقام الإحسان غائبون عن رؤية أعمالهم ووجودهم، وأهل اليمين معتمدون على أعمالهم، إذا فعلوا طاعة قوى رجاؤهم، وإذا زلّوا نقص رجاؤهم، أهل مقام الإحسان فانون عن أنفسهم باقون بربهم، وأهل اليمين أنفسهم موجودة وأعمالهم لديهم مشهودة، أهل مقام الإحسان محبوبون، وأهل اليمين مُحِبُّون، أهل مقام الإحسان فنيت عندهم الرسول والأشكال، وبقي في نظرهم وجود الكبير المتعال، وأهل اليمين: الأكوان عندهم موجودة، وشموس المعارف عن قلوبهم مفقودة، أهل مقام الإحسان يعبدون الله على نعت الشهود والعيان، وأهل اليمين يعبدون الله من وراء حجاب الدليل والبرهان، أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان. انظر: البحر المديد (١/ ٣٣٧).

الله إياهم بخلوهم عن الوسيلة، ورجوعهم إلى المشاهدة والقربة.

قال الواسطي: الطاعات فواحش، وما ذكره الواسطي تفسير بلسان الشطح.

وسُئل أبو عبد الله بن جلا عن الظلم فقال: متابعة النفس على ما تشتهيها.

وسُئل محمد بن على عن قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً﴾ قال: النظر إلى الأفعال ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ برؤية النجاة بأعمالهم ذكروا الله لحقهم التوفيق من الله، وأدركهم العصمة منه، فاستغفروا لذنوبهم من أفعالهم وأقوالهم، ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ علموا ألا وصول إلى الله إلا به.

وقال الأستاذ: يقال فاحشة كل أحد على حسب حاله ومقامه، وكذلك ظلمهم، وإنَّ خطورة المخالفات ببال الأكابر كفعلها عن الأغيار.

قال قائلهم:

أَنتَ عَينِي وَلَيسَ مِن حَقِّ عَينِي غَمضُ أَجْفَانِهَا عَنِ الأَقْذاءِ

وَليسَ الجرمُ علَى البسَاطِ كَالذَّنْبِ عَلَى البَابِ

وقال الباب: قال إنَّ رؤية الأحوال والأقوال كظلمات عند ظهور الحقائق.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾ مَنْ خرج من درك الامتحان بشرط الوفاء والتقديس عن أخلاق النفس والهوى ودخل بشرط رؤية التقصير بنعت الحياء والخجل في ميادين الصدق والإخلاص في المحبة والمعرفة وبذل المهجة غرامة للمخالفة والاستغفار بعد الندم، يجزيه الله برده إلى فوق مقام الأول بوصوله إلى مشاهدة قدسية جلالته، ويفتح له كنوز

مدخرات الغيب ويستأنس بجنات المشاهدة والمداناة، التي هي عيون صفات الذات، تجري منها أنهار الأوصاف الأزلية، تسقيه من مروقات سواقي الجلال والجمال، خالدين فيها بلا مكث، ولا قطع، ولا خطر الزمان، ولا حجت المكان، ولا تغير بعد ذلك نعم هذه النعمة من المُنعم الكريم الوهَّاب للعالمين، أي: الواقفين بشرط الوفاء في العشق على الحضرة القديمة بلا نقض في العهود، ولا سهو في الشهود.

قال الأستاذ في قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: بردِّهم إلى شهود الربوبية وما سبق بهم عين الحسنى في سابق القسمة، وجنات تجري من تحتها الأنهار مؤجلاً في الفراديس، ومعجلاً في روح المناجاة وتمام الأنس.

قوله تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ وإنَّ كلام الحق سبحانه صفته الأزلية، مبين حقائق أمور الكونين، لِمَنْ له أهليته وأهل القرآن مَنْ كان روحه جلالية، وقلبه جماليًا، ونفسه مطمئنة، وسره قابل كل إشارة من الحق، ولهذه الجنود اصطفائية بالمعارف والكواشف، وإذا كان الأمر كذلك، يتجلى الحق في كلامه لأهل القرآن بنوريين له مراد الله من خطابه يهديه إلى كل صواب؛ لأنَّه مفتاح كنز القدم، من وافقه يخرج له عروس الصفة القديمة من حجاب الحروف بكل مراد وصول به[1].

قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب- كرم الله وجهه-: إنَّ الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن ومن له أهلية الصفة بإدراك بيانها، وله أهلية الذات بكشف جلاله تعالى.

قال النبي ﷺ: «أهل القرآن أهل الله وخاصته»[2].

بقدر ترقي المقامات عنهم سر الخطاب من كتاب الله، قوم يسمعون بأسماع العقول أمرًا واعتبارًا، وقوم يسمعون بأسماع القلوب شوقًا وحلاوة، وقوم يسمعون بأسماع الأرواح محبةً ومعرفةً وعشاقًا وأُنسًا، وقوم يسمعون بأسماع الأسرار بملاحظة الأنوار كشفًا وبيانًا، ولم ينكشف هذه الأسرار والوقائع إلا للناس، ومَنْ لم يكن إنسانًا متخلقًا بخلق آدم ﷺ وما بقي من ميراثه من علم الأسماء والصفات يكون من النسناس لمن يلاحظ مشاهدة القرآن وأسراره، فإنَّ الله تبارك وتعالى أعلمنا أنه بيان للناس لا للنسناس، والناس من له وصف ما ذكرنا، ويبقى بالله مما دون الله بما صرح الله في بيانه قال: ﴿بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ

---

(١) وقيل: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، والآخرين من حيث مكاشفات القلوب، والآخرين من حيث تجلِّي الحق في الأسرار. انظر: تفسير القشيري (١/ ٣٩١).

(٢) رواه أحمد في المسند (٣/ ٢٤٢)، وابن ماجه (١/ ٧٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/ ٤٠).

﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

قال جعفر: أظهر البيان للناس، ولكن لا يتنبه إلا مَنْ أُيِّد منه بنور اليقين وطهارة السر، ألا يراه يقول: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ إلا أن هذا الاهتداء بهذا البيان والاتعاظ للمتقين الذين اتقوا كل شيء سواه.

وقال الأستاذ: بيان لقوم من حيث أدلة العقول، والآخرين من حيث مكاشفة القلوب، والآخرين من حيث تجلي الحق في الإسرار.

أعلمهم الله حقائق الإيمان، وهو اليقين، واليقين سكون القلب بوعد الرب تعالى، وبيَّن إذا كنتم في معارج الإيمان والتصديق يجزى في نصركم وعلوكم على عدوكم، فما معنى الحزن والضعف، فإنَّ مَنْ عاين حقيقة الأمر قوى يقينه، وذهب عنه جميع الأحزان، وينبغي أن حزن العارف ضيق صدره من ركوب القبض عند غيبته عن المشاهدة، وفرحه ببسطه وروحه من كشف ملكوت ربه.

قال محمد بن موسى: ما بال الإنسان يحزن مرة ويفرح أخرى؟ قال: لأنَّ غذاء الأرواح وتهذيبها في الاستتار والتجلي يطرب عند التجلي، ويحزن عند الاستتار، فمتى حجب حزن، ومتى طالعه بعين البر واللطف فرح، وإنْ طالعه عين السخط خاف وقلق.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ إنَّ الله تعالى عانت الكل بهذه الآية، أي: لَمَّا أخبرتكم ربوبيتي بلسان نبيي، وأوجبت العبودية عليكم برسالته، وعرفتكم بصفات الألُوهية بغير واسطة، فلم تتزلزل بذهابه عن البين، واضطربتم عن حقائق الإيمان وإخلاص العبودية عند الفترة والامتحان، فلو كنتم مشاهدين جلالي ما اضطربتم

بموته أو برفع الوسائط بيني وبينكم؛ لأنَّ مَنْ شاهد الحق وعاينه تكون محبته وعبوديته بغير واسطة الربوبية، قائمة بذاته، أبدًا ليس للأولياء والأنبياء إلا الإخبار والأنباء عند أمر الله، وكشفه مراده لهم، وخصَّ من بينهم الصدِّيق وأقرانه -رضي الله عنهم أجمعين.

ألا ترى حين قبض رسول الله ﷺ قال: «من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمد قد مات، ومن كان يعبد الله؛ فالله حي لا يموت»[١]، وهذا الوصف ظاهر في آخر الآية ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ في الصديق ونظرائه رضوان الرحمن عليهم بقوله: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ يعنى: أبا بكر، ومَنْ كان قلبه مثل قلبه في الإيمان والإيقان شكرهم استقامتهم في الرب والولاية، وجزاء شكرهم نصر الله وظفره لهم بانهزام المروة عن ساحة الشريعة.

قال الواسطي: غضت البصائر عند وفاة النبي ﷺ إلا لرجل واحد، وهو فضل عليهم، وهو الداعي إلى الله على بصيرة، وهو أبو بكر، فكأن هذه الآية خُصَّ هو بها، وعجزت الأمة عن ذلك لضعف نحائرها، ووهن بصائرها، وبأن فضيلة أبي بكر بذلك، وهو قول: «من كان يعبد محمدًا؛ فإن محمد قد مات».

وقال الحسين: ليس للرسول إلا ما أمر به أو كشف له، ألا تراه لما سُئِلَ: «فيم يختصم الملأ الأعلى»[٢]، يعني: لم يسمع حسًّا ولا نطقًا، فلما غيب عنه شاهده فوقع الصفة عليه شاهدهم بشهود الحق، وذهب عنه صفة آدميته فتكلم بالعلوم كلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾ بيَّن الله سبحانه أن من قدرته إماتة حي أعظم من إيجاد حي وأعجب من إبقائه؛ لأنَّ في الموجود قدرة وليس في المعدوم قدرة، وأيضًا إشارة إلى أهل الرياضة، أي أن النفس الأمَّارة لا تزول بالرياضة والمجاهدة أنها تطمئن بإذن الله وبحلاوة ذكره ومناجاته.

قال الواسطي: ليس نفس تملك الفناء والبقاء، بل كان ذلك الآجال مضروبة، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ ثواب الدنيا المعرفة، وثواب الآخرة المشاهدة، وأيضًا ثواب الدنيا محبته، وثواب الآخرة قربته، وأيضًا أي: مَنْ وقع في محل الإرادة وأرادني فقد أتجلى له بالآيات ومن الآيات

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه أحمد في مسنده (٤/ ٦٦).

وفي الآيات، التباسًا ومَنْ وقع في المعرفة وأرادني صرفًا أتجلى له بلا علة؛ لأن الإرادة محل الغيبة، والمعرفة محل الحضور، وأيضًا ثواب الدنيا صحبة الأولياء، وثواب الآخرة صحبة الحق.

قيل: ثواب الدنيا العافية.

وقيل: إلهام شكر النعمة، وثواب الآخرة: الجنة ونعيمها

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَـٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَـٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: محبكم بمحبة الأزلية، وحافظكم عن شر أنفسكم، وكل خاطر يشير إلى غيره، وناصركم عند تحملكم مشاق العبودية عن إباء نفوسكم عن تحملها.

قال ابن عطاء: معينكم على ما حملكم من أوامره ونواهيه.

قال جعفر: متولي أموركم بدار عاقبته.

وقال ابن عطاء في قوله: ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ﴾: خير الناصرين لكم على أنفسكم وهواكم[1].

قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ أي: منكم مَنْ وقع في بحر غنى القدم واتصف به، ويخرج منه بنعت التمكين، ورؤية النعم في شكر المُنعم كسليمان عليه السلام، ومنكم مَنْ وقع في بحر التنزيه وتقديس الأزلية، فغلب عليه القدس والطهارة، فيخرج بنعت الفقر بتجريد التوحيد، وإفراد قدمه من الحدوث، كمحمد ﷺ حيث قال:

---

(١) ويقال: كل من استنصرت به احتجتَ إلى أن تُعْطِيَه شيئًا من كرائمك ثم قد ينصرك وقد لا ينصرك، فإذا استنصرته - سبحانه - يعطيك كلَّ لطيفة، ولا يرضى بألا ينصرك. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٠٢).

«الفقر فخري»[(١)].

وأيضًا: منكم مَنْ يريد الدنيا للفناء، ومنكم مَنْ يريد الآخرة للبقاء، وأيضًا منكم مَنْ يريد مشاهدة الله في الدنيا كموسى ﷺ، ومنكم مَنْ يريد مشاهدة الله على نعت السرمد، ولا يكون إلا في الآخرة وعده.

قوله تعالى: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: ربّ الدنيا كقوله: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [يوسف:٨٢] أي: أهل القرية.

قال أبو سعيد الخرَّاز: مادمتم بكم، وأوصافكم كانت همتكم الحوادث والدارين، وإذا توليتكم وأخليتكم من صفاتكم وأكوانكم، وعلوت بهممكم إليَّ فأفنيتكم من النظر إلى الأكوان وإرادتها، وأفنيتكم بالحق مع الحق، وقال: متى ما طالعهم بأسرارهم بحقهم عن آثارهم ودهشتهم في مبادئهم.

قال النوري: العامة في قميص العبودية، والخاصة في قميص الربوبية، فلا يلاحظون العبودية، وأهل الصفوة جذبهم الحق ومحاهم عن نفوسهم.

قال الشبلي: منكم مَنْ يريد الدنيا للقناعة، ومنكم مَنْ يريد الآخرة للجنة، وأين مريد الله؟ ومريد الله مَنْ إذا قال، قال: الله، وإذا سكت فليس سوى الله.

وقال سهل بن عبد الله: دنياك نفسك، فإذا أفنيتها فلا دنيا لك.

قيل: قُرئت هذه الآية بين يدي الشبلي، فقال: أوه، من قطع طريق الخلق إليه وردَّ الأشباح إلى قيمتها.

قال محمد بن علي: منكم مَنْ يريد الدنيا للآخرة، ومنكم مَنْ يريد الآخرة لله.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١١٣).

كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ أي: من رسم طريق المعرفة تجلي القهر واللطف، القهر من العظمة والغيرة، واللطف من الحسن والجمال، وفي عين الحقيقة هما واحد الأول: تربية، والثاني: رفاهية، وسنَّة الله جرت على مباشرتها على التسرمد، فما باشر للقهر وجود العارف إلا ويأتي بعده نور تجلي اللطف والبسط والروح والكشف والأنس، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾ [البقرة:٢٤٥]، وقال: ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٦]، فلمَّا ذاقوا ألم الامتحان أنسوا برؤية الرحمن، الأول خوف؛ لأنهم في العبودية، والآخر أمن لأنهم في رؤية الربوبية، وذلك يقتضي الأمن والنعاس محل الكشف، كاشفهم الله هموم المجاهدة بنور المشاهدة.

قال ابن عطاء: مَنْ صدق إرادته واجتهاده ورياضته ردَّ إلى محل الأنس.

صدق ابن عطاء، هذا وصف من وصفهم الله بالتمكين والاستقامة من الصحابة المباركة ﷺ بالصبر في البلاء كأنصار الأنبياء، وصفهم الله بقوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ والربيون الربانيون الذين هم مربون في قرب الرب ومشاهدته.

قال الجريري: منقطعون إلى الرب فانية منهم أوصافهم وإرادتهم، متطلعون لإرادة الله فيهم.

قال بعضهم: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ وزراء الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنَّ عليهم روع أنوار عظمة الله، ﴿وَمَا ضَعُفُواْ﴾ لأنهم مقوون بقوة الله، ﴿وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾؛ لأنهم مؤيدون بتأييد الله ومع جلالتهم وضعوا أقدامهم على أعناق نفوسهم الخيانة الأمَّارة هواها فخرجوا من داعية هواهم إلى مراد الله، لا جرم ألبسهم الله لباس وصفه الذي وصف نفسه بالصبر، ثم أحبهم لوصفه عليهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

قال الواسطي: أي كونوا كأبي بكر لما كانت لنسبته إلى الحق أتم لم يؤثر عليه فقدان السبب ولما ضعف نسبتهم أثّر عليهم، فعمر بن الخطاب قال: «من قال مات محمد ضربت عنقه»، وأبو بكر نظر إلى ما دلَّ عليه المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، فقرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ إنَّ الله سبحانه خلق قلوب هذه الأمة وقت إيجادها في رؤية جمال القدم، ونورها بالحسن والرجاء، وأخرج أرواحها من العدم إلى عالم البسط والسرور، وسنا المشاهدة والسماع والحور، وألبسها خُلق اللطف، فصارت مستعدة لرؤية الألطاف قابلة نور الأُنس، ومن كمال حكمة الله ولطفه علينا خلق نبينا ﷺ على خلق البسط وروح الإنس، فوافقت المرافقة، وحصلت في البين أهلية، ودانت الأرواح وقربت الأشباح، فبقيت الحشمة وفنيت الغلظة، وصار رحمة تامة لهذه الأمة المرحومة، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ تبيّن من الخطاب لطف الجانبين نسب الفعل إلى النبي ﷺ وإنْ كان غير متكلف في التليين؛ لأنَّه كان مخلوقًا باللطف والكرم من الله، وفيها الإشارة إلى تأديب الصحابة، أي لو كان النبي ﷺ يدقق عليهم أحكام الحقائق لضاقت صدورهم، ولم يتحملوا أثقال حقيقة الآداب في الطريق، ولكن سامحهم بالشريعة والرخص بحقائق ما أوجبه الله عليهم، وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ فالعفو والاستغفار من مسامحة الله لهم، فاعف عنهم تقصيرهم قلّة عرفانهم أقدارك، واستغفر لهم ما يجري في صدورهم من الخطرات التي لا تليق بالمعرفة، وما يجري على صورهم من الحركات التي لا تليق بصحبتك ومجالستك؛ لأنك مستغرق في الربوبية، وهم يطلبونك في مقام العبودية، وهم في وصف المحبة والإرادة، فأنت في محل التوحيد مشاهد مطالع شموس الآزال وأقمار الآباد[1].

قال الواسطي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾: جميع أوصافك وما يخرج من أنفاسك رحمة مني عليك وعلى من اتبعك.

وقال ابن عطاء: لما علا خلقه جميع الأخلاق عظمت المؤنة عليه، فأمر بالغض والعفو والاستغفار .

---

(١) جرَّده عن أوصاف البشرية، وأفرده بها ألبسه من نعت الربوبية، وأخبر أن ما يلوح إليه فمن أنوار التولي، لا من آثار الوفاق والتبري، ولولا أنه استخلقه بها ألبسه وإلا متى كان بتلك الصفة؟! انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٠٩).

قال الحارث المحاسبي في قوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾: نسب ما كان منه في ذلك من اللين والمداراة إلى نفسه بقوله : برحمتي لنت لهم ، وما كان الله يقول لنبيه ﷺ: إنك لنت لولا إنه لينه بمعرفته ووفَّقه للمداراة.

قال الفارسي: انظر كيف وصف الله تعالى نبيه ﷺ باللين والشفقة، ثم عرَّاه عن أوصافه فقوله: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ وذاك حق قيامك بنا وهجرانك الخلق أجمع.

قال الأستاذ: يقال: إن من خصائص رحمته سبحانه عليه أن قواه حتى صحبهم، وصبر على تبليغ الرسالة مع الذي كان يقاسيه من أخلاقهم مع سلطان ما كان مستغرقًا له، ولجميع أوقاته من استيلاء الحق عليه، فلولا قوة الإلهية استأثره الحق بها، وإلا متى أطاق صحبتهم، ألا ترى إلى موسى ﷺ لما كان قريب العهد بسماع كلامه، كيف له يصير على مخاطبة أخيه ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾ لو سقيتهم صرف شراب التوحيد غير ممزوج بما فيه لهم حظ، لتفرقوا هائمين على وجوههم غير مطيقين الوقوف معك لحظة .

وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ إذا كان في محل العبودية وأمور الشريعة وعالم العقل أمر لله بحسن معاشرته معهم واستبشارهم في وقائع مستقبلات القدر، كيف يقبلونها بالعقول والقلوب بنعت التفكر والصبر في أحكامه؛ لأنهم كانوا يشربون من سواقي بحاره، ولأنهم في مقام الولاية، وهو في مقام الرسالة والنبوة وهما واحد في عين الجمع، يرون الغيب بنور الفِراسة، وهو يراه بأنوار النبوة والرسالة، وكان ﷺ يحتاج في محل العبودية إلى نصرة الصحابة له في الدين.

وإذا كان في مشاهدة الربوبية، وخرج من التفرقة إلى الجميع، أمره الله سبحانه بإفراد القدم عن الحدث؛ حيث تجرد في سيره عما لله إلى الله بقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه حسبك فيما يريد منه.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ نصر الله سكينته وقعت من نور تجلي الحق سبحانه في قلوب العارفين؛ حيث توجهت من الحدثان إلى جلاله بنعت التضرع في عظمته وكبريائه، فلما تلبَّست أنوار الغيب مع نور البسط والرجاء، فقويت بها الأشباح فأيدت لهم بحلول الأزل وقوته، فحينئذ انحسرت جنود القهر بسطوة الهيبة عن معارك عساكر اللطف.

وذلك قوله: «سبقت رحمتي غضبي»[1]، وحقائقه مشروحة في ترقي مقامات دنو النبي ﷺ وذلك إشارته في سجوده بقوله: «أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك»[2].

نصر الله في المريدين توفيقهم في قمع الشهوات، ونصره في المحبين نور اليقين من تبسم فلق صبح الأزل بنعت المداناة، ونصره في العارفين انفتاح كنوز أسرار علوم المجهولة بمفاتيح كشف المشاهدات.

قال بعضهم: إنَّما يدرك نصر الله مَنْ تبرأ من حوله وقوته واعتصم بربه في جميع أسبابه؛ لأن مَنْ اعتمد على حوله وقوته ورأى الأشياء منه، فإنه مردود إلى حول الله وقوته وعلمه.

قال الأستاذ: نصرته بالتوفيق بلا أشباح، ثم بالتحقيق للأرواح.

ويقال: ينصركم بتأييد الظاهر، وتسديد السرائر.

ويقال: النصرة إنما يكون على العدو، وأعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، النصر على تهزم دواعي فتنتها بعواصم رحمته حتى تنقص جنود الشهوات بهجوم وقود المنازلات، فتبقى الولاية خالصة عن شبهات الدواعي التي هي أوصاف البشرية، وشهوات النفوس وأمانيها التي هي آثار الحجبة وموانع القربة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ مقدَّس أسراره عن دنس الخطرات، ووصفه بالأمانة عند إخباره عن أنباء الغيب لم يجر على قلبه عند بيان الشريعة والطريقة، مداهنة لرؤية شريف ووضيع، ولم يخف حق الله ﷻ عن عباده وأعطى علم الحق لأهل الحق، وبيَّن المحجوبين آية الحق ببرهان الحق، ولم يخط في طريق الحق خطوة بحظ نفسه.

قال بعض المشايخ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أن تستأثر بالوحي والشريعة بعض متبعيه على بعض.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

قال يحيى العلوي: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ أن تضيع أسراره إلا عند الأمناء من أمته.

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّآ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَـٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ ۖ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ كان النبي ﷺ مرآة الحق يتجلى بجلاله وجماله للأمناء والصدِّيقين منه، يرون الله برؤيته لقوله ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق»[1]، مَنَّ على عباده بوجوده، ولو يتجلى لهم صرفًا لاحترقوا بأول سطوات عظمته، جعله برحمته واسطة تجليه وذلك بمحل الالتباس من ظهور نفسه لذوي الأبصار، وإشارة قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: حال أمته من حيث حاله، وشربهم من حيث شربه، وأي منَّة أعظم على المؤمنين من النبي ﷺ وهو منظر جمال الحق للخلق، ومعرفهم أسماءه وصفاته ونعوته، ومهالك المهلكات، ومنازل السجيات.

قال بعض المشايخ: أكثر منَّة على الخلق وسائط الأنبياء إليهم ليصلوا بهم إليه؛ لأنه لو أظهر عليهم من صفاته ذرة لأحرقهم جميعًا، ولضلُّوا فيه عن الطريق إلا المعصومون .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ نبَّه الخلق أن مَنْ قُتِلَ في سبيل العشق بسيوف العشق انسلخ من الحدث إلى القدم، والتبس بنور الأزل من الأزل، فلما بلغ نعت الأولية واتصف بصفة الأزلية، يصير منعوتًا بنعت الأخروية موصوفًا بوصف الأبدية؛ لأن صفات الحق جلَّ سلطانه واحدة في الوحدانية خارجة عن الجمع والتفرقة، فيضها في الأفعال تفرقة مع الأسماء، ونورها في العينية جمع لأهل الوحدة، ومحل أن وصل

(١) سبق تخريجه.

نور الصفة فيكون خارجًا عن الصفة الأولية صفة، والأخروية صفة، والآخر أول في النعت، فمَنْ كان نعته أولية فيكون نعته أخروية، وإذا خرج من الحدثان إلى جمال الرحمن لم يجر عليه صفات الحدث بعده عن صفة الموت والفناء، بل يصير حيًا باتصافه بحياة الحق، وحياة الحق أبدي، لم يجر عليه علل حياة الإنساني وموت الإنساني، وهذا من فيض نور مشاهدته وعنديته؛ لأن مقتول السيف التجلي يحيا بقبض القربة والعندية، ومَنْ يكون في العندية كيف يفنى ويموت وهو مشاهد في شهود الحق إياه ورزقه فيض مزيد مشاهدة الحق، وزيادة اتصافه ببقاء الحق، وفرحه بنيل بقائه من بقاء الحق[1].

ومَنْ قُتِلَ بسيف الإرادة فهو باقٍ بنور القربة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المحبة فهو باقٍ في سنا المشاهدة، ومَنْ قُتِلَ بسيف المعرفة فهو باقٍ في أنس الوصلة، ومَنْ قُتِلَ بسيف التوحيد فهو باقٍ بالوحدة في الوحدة، وحياة هؤلاء من تجلي الأزلية وشهادة هؤلاء بغيرة العزة، غار عليهم فأفناهم، وأحبهم فأبقاهم.

قال ابن عطاء: المقتول على المشاهدة باقٍ برؤية شاهده، والميت مَنْ عاش على رؤية نفسه ومتابعة هواه.

قال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: لا تظنن الهالكين في طريق الإرادة طلبًا لوصله مردودين إلى مقاماتهم، بل قد بلغ بهم غاية ما قصدوا من القرب والوصلة إحياءً بقرب الحق عند ربهم في مجلس المشاهدة، يرزقون زيادة الفوائد من أنوار الاطلاع فرحين بالغين أقصى رضاه.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ نعمة الله معرفة الله ومحبته وفضله مشاهدته، فاستبشار القوم برؤية الله وجلاله وقدمه وبقائه لا بشيء من الحدثان، كانوا إذا نظروا إلى قدمه استبشروا بنعمة بقائه، وإذا نظروا إلى بقائه فرحوا بمشاهدة قدمه .

---

(١) ويقال: إن الذي وارثُه الحي الذي لم يزل فليس بميت. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤١٧).

قال ابن عطاء: لو نظروا إلى المُنعِم لتنقص عليهم الاستبشار بنعمه وفضله، وكان استبشارهم بالمُنعِم المتفضل.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ استجابوا الله بحب شاهدته، والاشتياق إلى جماله ولطائف قربه، ولذائذ صحبته، وللرسول ﷺ لما عليه من آثار أنوار صفاته، وفيه إشارة إلى مقام الاتحاد حيث الأمر واحد، وإنّ الله سبحانه وتعالى وصفهم بحسن الإرادة في محبته، وطلب جماله ببذل أرواحهم بعد احتمال آلام الامتحان على أبدانهم بقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾.

قال الواسطي: استجابوا لله بالوحدانية، وأجابوا الرسول باتباع أوامره، واجتناب نواهيه، وقبول الشريعة منه على الرأس والعين.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: للذين بلغوا مقام الإحسان وهو رؤية الله في مقام الامتحان، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ جميع الحجاب بينهم وبينه إحسانهم إلقاء نفوسهم وهواجسها عند قبولهم مراد الحق بعد خروجهم عن مرادهم، و ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ الذي وصفه الله بإعداده لهم، هو إيصالهم إليه بغير الهجران والعتاب، والحساب والحجاب[1].

وقيل: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ في إجابة المصطفى ﷺ، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ مخالفته سرًّا وعلنًا، ﴿أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ هو البلوغ إلى المحل العظيم من مجاورة الحق ومشاهدته.

قال الأستاذ: في هذه الآية استجابة الحق بالتحقيق بوجوده، واستجابة الرسول بالتخلق بما شرع من حدوده، واستجابة الحق بالصفاء في حق الربوبية، واستجابة الرسول بالوفاء في إقامة العبودية، ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ في ابتداء مقاماتهم قبل ظهور أنوار التجلي على قلوبهم، وابتسام الحقائق في أسرارهم، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، وهو المشاهدة، ﴿وَٱتَّقَوْا۟﴾ «فإنْ لم تكن تراه فإنه يراك»[2]، وهو المراقبة في حال المجاهدة أجر عظيم لأهل البداية، مؤجلاً ولأهل النهاية معجلاً.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ قدَّس الحق سبحانه حضرة

---

(١) كذا سُنَّة الحق - سبحانه - مع مَنْ صَدَق في التجائه إليه أن يمهد مقيله في ظل كفايته؛ فلا البلاء يمسه، ولا العناء يصيبه، ولا النَّصَبُ يُظِلُّه. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٢١).

(٢) سبق تخريجه.

الكبرياء عن تهمة الأغيار، ونفي الأنداد عن ساحة الجلال، قال: ﴿وَخَافُونِ﴾ في التفاتكم بالأسرار بنعت الخوف من الأغيار، رفع ما استحق له عمَّن ليس له استحقاق، وخوف العباد منه حقوق ربوبيته، وليس في هذا الخوف من الغير نصيب، قرن الخوف والإيمان محل البرهان عند وقوع الامتحان، فإذا وقع نور المشاهدة تظهر أنوار الهيبة، وتذهب علّة الخوف، خوفهم بنفسه لا من عذابه، أي: من نظر إلى غيري بنعت إجلاله احتجب عني به، وأنا أبقيه في الخوف من غيري، وهو محل الشرك به، أي: مَنْ خافني فهو في محل الإيمان، ومَنْ خالف غيري فهو في محل الشرك، وهذا الشرك شرك خفي.

قال الواسطي: الخوف من شرط الإيمان، والخشية من شرط العلم، وإشارته في ذلك إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨].

وقال ابن عطاء: ما دمتم متمسكين بالطريقة فخافوني، فمَنْ ترك الخوف فقد ترك الطريقة المستقيمة.

﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَـٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ امتحن النبي ﷺ بعزائم الأمر في التوكل والرضا؛ حيث أحزنه بحث الكفار وتخويفهم إياه، ثم أمره بفتح عين سره في جلال قدمه، الذي سبب ذهاب جميع الأحزان من غيره عن قلبه، فإنَّ مَنْ استحكم في معرفته فلا يجري أحكام التلوين على قلبه.

قال الواسطي: الحزن في الأحوال كلها، وفي الحقيقة تعريف لهم وتنبيه، وهذه الآية من خيار الحقائق التي جرت أنهم لن يضروا الله شيئاً؛ لأنهم جحدوا ما يليق بطبائعهم.

قوله تعالى : ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أخبر عن كمال اهتمام النبي ﷺ وشفقته على شريعة الله ونظام دينه، حيث أخبر بقوله: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ﴾؛ لأن حزنه من أجله، أي: فلا تحزن فإن ساحة الكبرياء مقدسة عن هجوم ضلال الضُّلَّال، وفيه أيضًا إشارة الاتحاد بقوله: ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: كيدهم بك لا يضرك، أخبر به عنه، وأقام نفسه حيث تخلق الحبيب بالحبيب، وتوحد الحبيب بالحبيب.

وقيل في قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: لأنه الذي تولاهم وفي البلية ألقاهم.

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠) لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ (١٨١) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (١٨٣) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ (١٨٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ إنَّ لله غيوبًا، غيب الظاهر، وغيب الباطن، وغيب الغيب، وسر الغيب، وغيب السر.

أمَّا غيب الظاهر: فما أخبر الله تعالى عن أمر الآخرة ولا يطَّلع عليها إلا مَنْ بلغ مقام اليقين، وصاحبه خارج عن شواغل النفوس، وخطرات الشياطين، لكن لم يكن على حد الاستقامة، فرؤية الآخرة له تارة؛ لأن اليقين خطرات، وهذا الخطاب بهذا المعنى خطاب الأضداد.

وأما غيب الباطن فغيب للمقدورات المكتومة عن قلوب الأغيار، وذلك الخطاب خطاب أهل الإيمان.

وأما غيب الغيب فهو سر الصفات في الأفعال، وفي هذا المعنى خطاب المريدين.

وأما سر الغيب فهو نور الذات في الصفة، وهذا الخطاب للمحبين.

وأما غيب السر، فهو عينية القدم التي لا يطَّلع عليها أسرار الخليقة أبدًا[١].

وإذا كان هذا الغيب المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾

(١) وقيل: إنَّ أسرار الغيب لا تظهر للمتلوثين بأدناس البشرية، وإن الحق سبحانه مستأثر بعلم ما جلَّ وقلَّ، فيختص من يشاء من أنبيائه بمعرفة بعض أسراره. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٢٦).

فخطابه مع جميع الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، والأصفياء الصديقين العارفين الموحدين؛ لأن الأزلية منزَّهة عن إدراك الخلائق أجمعين، وخاصية نبينا ﷺ في هذا المعنى رؤية هذه المعاني بنعت الكشف له، وابتسام إصباح الأزل في وجهه، لا بنعت الإحاطة وإدراك الكلية، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى وإبراهيم وآدم صلوات الله عليهم أجمعين، وذلك مشروح في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

قيل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ وأنتم تلاحظون أشباحكم وأفعالكم وأحوالكم، وإنَّما يطلع على الغيب مَنْ كان أمين السر والعلانية موثوق الظاهر والباطن، ثم يفتح له من طريق الغيب بقدر أمانته ووثاقته، ألا تراه يقول: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧]، هو الفاني من أوصافه، المتَّصف بأوصاف الحق.

وبيَّن أن بعض الغيب مظهر للنبي ﷺ بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني محمدًا ﷺ، وذلك حكمه بالغيب، وحكمه على الغيب بقوله: «عشرة من قريش في الجنة»[1].

ومثل ما أخبر عن الله سبحانه وعن أمر الدنيا والآخرة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ إن الله تعالى زجر الستارين هاهنا بكتمان المكاشفات، وحقائق الواردات، ووقائع المغيبات عن الطالبين؛ لأن أصل السخاء تخليص المتحيرين عن درك الامتحان، وإرشادهم إلى طريق العرفان، وأي سخاء أعظم من إظهار مواهب الله على المريدين لاستزاد محبتهم وجه الله سبحانه، واستكبار شوقهم إلى جماله، وتحبيبهم أعمالهم وعبوديته، وتصديق ذلك قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١].

ومَنْ كان يطيق ما ذكرنا من إرادة الخير على طلاب الله كيف لا يطيق بذل نفسه وماله وروحه في طريق الحق فداءً لأولياء الله، لأنهم معدن السخاء، والسخاء منهم ينشعب، والسخاء بالمال وصف المريدين، وبالنفس وصف المحبين، وبالروح وصف العارفين، والبخل بجميع الأشياء أعمى النفس الأمَّارة عن رؤية منن بحار القدم، والسخاء انفتاح عين القلب على ذخائر القدرة، وكنوز الألوهية المملوءة من الآلاء والنعماء ومباشرة تجلي الوهابية

---

(١) رواه البزار في مسنده (٤/ ٩٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥/ ٦٠)، والطبراني في «الأوسط» (٢/ ٣٥١).

الأزلية السرمدية قلوب الصدِّيقين العاشقين، وتلك الجبلة جبلة الأولياء ليس للأعداء فيها نصيب.

كما رُوِيَ عن النبي ﷺ: «ما جبل ولي الله إلا على السخاء»[1].

والذي نبأنا الله من أخبار اليهود دليل على ما ذكرنا أنهم سرقوا نعت النبي ﷺ الذي وصف الله به نبيه في التوراة والإنجيل، وهذا الكتمان أصل البخل، فمَنْ كان في الدنيا محجوبًا بالمال عن مقام السخاء والتخلق بوصف الله سبحانه من الغنى والعطاء، بقي فيه ذلك حجاب إلى الأبد، ويكون مفتضحًا في الدنيا والآخرة، مشهورًا بعلامة اللؤم وسمة البعد، وذلك قوله تعالى: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ وبَّخ المفلسين؛ حيث وصف نفسه ببقائه مع ملكه القديم بعد فناء خلقه وانقطاعهم عن مأمولهم، بقوله: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: أنا صاحب المواهب السنية، أجازي بها المنفقين وجودهم في طريقي، وأعطيهم ما لم يؤت أحدًا من العالمين.

قال ابن عطاء: السلوك في طريق الحق على السخاء واجتناب البخل، وهو بذل النفس والمال والسر والروح والكل، ومَنْ بخل بشيء في طريق الحق حجب به، وبقي معه، ومَنْ نظر في طريق الحق إلى الغير، حرم فوائد الحق وسواطع أنوار القرب.

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ النفس صنم زينها الحق بكسوة الربوبية، وملأها من القهر واللطف، وكسي زينة ملكه أموال الدنيا امتحانًا للعاشقين، فمَنْ نظر إلى نفسه بغير زينة الحق صار فرعونًا نطق لسان القهر منه بـ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وذلك مكر القدم واستدراجه.

ومَنْ نظر إلى ربوبية وفنيت نفسه فيها نطق لسان الربوبية منه كالحلاج - قدَّس الله

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٤١)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٣/ ٢٥٩).

روحه العزيز- بقوله: أنا الحق، ومثاله في ذلك مثال شجرة موسى ﷺ؛ حيث نطق الحق سبحانه منها بقوله: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص:٣٠]، نطق بصفته عن فعله.

ومَنْ نظر إلى زينة الأموال التي هي زينة الملك صار حاله حال سليمان- صلوات الله عليه - لأنه كان ينظر إلى شرف جلاله بإعطاء الملك إياه، ومَنْ نظر إلى خضرة الدنيا وتابع شهواتها صار كالبلعام، فمثله كمثل الكلب، وأي الابتلاء أعظم من رؤية الملك ورؤية الربوبية في الكون؛ لأنه محل الالتباس، فمَنْ كان محتجبًا بهذين الوسيلتين عن رؤية الفردانية، بقي في تهمة العشق خارجًا عن نعوت الفردانية والوحدانية.

قال ابن زانيار: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ أموالكم بجمعها ومنعها، والتقصير في حقوق الله فيها، ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ باتباع شهواتها وترك رياضتها، وملازمة أسباب الدنيا، وخلوها عن النظر في أمور المعاد.

وقيل:﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ بالاشتغال بها أخذًا وإعطاءً.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ إنَّ الله تعالى أمر الصادقين الذين هم أصحاب إلهام الخاصة والمحدثين والمكلمين من المقربين، بأن يظهروا بعض مقاماتهم التي بينهم وبين الله سبحانه، وما يليق بفهم الطالبين، ويعرفوا سنيات أحوال أهل الولاية في زمانهم للخلق ليتركوا بهم ويصلوا إلى الله ببركاتهم، ولا يغار عليهم، وذلك صفة أهل الكمال من علماء المعرفة، ولا يكونوا مداهنين في كتمان مناقب الصدِّيقين.

قيل: أخذ الله المواثيق على عامة أولياء الله به ألا تخفوا كرامات الله عندهم، فمَنْ لا يفتتن بذلك، ولا يتخذه دعوى، وإن يعلموا من قصدهم من المريدين الطريق إلى الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ هذا لمَنْ لم يبلغ مقام الواصلين، ولو وصل ما باعه بالحدثان، وكيف يطيق ممَنْ رآه أن يشتغل بسواه، ولم يصلوا مقاصد القوم، وبقوا في أول الطريق برهة من الدهر، ولم يجدوا حلاوة الوصال، فادَّعوا عند الخلق بالبلاغة والكمال، وهم علموا أنهم لم يشاهدوا مواهب الله وكراماته، فباعوا ما ليس لهم، ووقفوا في تغير الله، وخجلوا بين يدي أولياء الله؛ لأنهم عرفوا خيانتهم[1].

---

(١) أخبر أنهم أبرموا عهودهم ألا يزولوا عن وفائه، ولكنهم نقضوا أسباب الذِّمام بما صاروا إليه من الكفران، ثم تبيَّن أنَّ ما اعتاضوا من ذهاب الدين من أعراض يسيرة لم يُبارَكْ لهم فيه. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٣٣).

قيل: ادعوا ذلك لأنفسهم ليفتتنوا به الخلق.

قوله تعالى: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ هذا وصف الكذّابين في دعوى المعاملات قبل شروعهم فيها في إظهارهم سمات أهل المعاملة بظاهر التقشف وزي أهل الناموس لصرف وجوه الناس إليهم بمجرد الدعوى، وأهل الرياء علوا على رؤية الخلق، وجب محمدتهم، وذلك القوم أضل من المرائين؛ لأنهم يطلبون المحمدة والجاه بغير عمل، وهم أقبح طائفة من المرائين الكذابين، وإن الله تعالى بيّن بما ذكرنا في قوله: ﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ وأخبر أنهم لم يخرجوا من حجب النفسانية، وبقوا في حجاب الهجران وهو أشد عذاب.

قال حاتم الأصم: حذَّر الله بهذه سلوك طريق المرائين والمتقربين والمتزهدين والمتوسلين بسمات الصالحين، وهم من ذلك أحوال.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ إنَّ ذلك الظاهر ينجيهم من العذاب، كلا بل لهم عذاب أليم، وهو أن يحجبهم عن رؤيته ويمنعهم لذيذ خطابه.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ في هذه الآية إشارة لطيفة، وذلك أن الله سبحانه وصف الربانيين بإدراك أنوار صفة الأزل وذات القدم في ظهور قدرته في فعله، أي: لهم برهان منه إليه لا من الخلق؛ لأن في إيجاده غلقة يدركه نظّار المعارف وحذّاق الكواشف لا في رؤية الخلق؛ لأن الحدث حجاب عن رؤية القدم، وهذا مقام الخليل صلوات الله عليه أحسن الأدب، وعلل في السؤال برؤية الخلق مراده إدراك الربوبية المحضة، وذلك السؤال أعظم من سؤال موسى ﷺ؛ لأن موسى سأل رؤية الله تعالى قط بغير الواسطة، وهذا عام، وما سأل الخليل ﷺ بالواسطة أدق؛ لأنه سأل سر التقدير والقدرة من كمال شوقه من معرفته إلى نكرته، ومن نكرته إلى معرفته، وأيضًا خصَّ السماء بظهور الآيات منها؛ لأنها مزينة بنور جلاله، ملتبسة بسنا جماله؛ لأنها مرآة كواشف الصدِّيقين وطرق معارج المرسلين.

ألا ترى إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور:٣٥]، وقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيَ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٧٥]، وكشف جلاله للخليل ﷺ بواسطة الشمس والقمر والنجم، حتى قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٦]، وخاصية الأرض لموقع أقدام الصدِّيقين والأنبياء والمرسلين، وإشراق نوره للمراقبين والمشاهدين؛ لأنها مقبوضة بطش الحق بقبضة العزة، قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ [الزمر:٦٧].

وأخبر النبي ﷺ في معالم القدرة عن ظهور جلال الأزل من مواقف المقدسية بقوله: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[١].

وخصَّ الليل؛ لأنها محل مناجاة العارفين وكشوف عظمته، فهو الأزل بنعت الهيبة للموحدين، وخصَّ النهار؛ لأنه سبب فرحة المحبين، وموضع بسط المشتاقين، ورؤية جلاله للمبصرين، الذين يرون الله في مرآة الكون بنور القدرة وسنا المعرفة، وقفوا باب المعارف على هذه الشواهد، ورأوا الشاهد قبل المشاهد.

كما قال بعضهم: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه، أرى الباء الحقيقة أنور فعله في السماوات والأرض والليل والنهار، ثم أراهم فيها أنوار القدرة الخاصة الصفاتية، وأرى ذاته تعالى في أنوار الصفة، فعلل الحقائق بلفظ المجهول، وأبهم على الأغيار أسرار معاني الخطاب، بقوله الآيات وعني بالآيات ما ذكرنا.

أنشد بعضهم:

إنَّ المودةَ لم تَزَلْ مَوْصُولةً ... قَررَ بِلادِي وأكثَرَ وِدَادِي

وَاحْذَر عِدَاةَ الحَيِّ أَنْ يَلقُوكَ ... وَليَظُنَّ العِدَاةُ أَنَّكَ حَادِي

هذا محل الالتباس، وشبيه ذلك ما أخبر تعالى لَمَنْ حق فهم ظهور جلال عظمته في لباس القهر، وفعل المجهول من المقصرين في نعوت الإرادة؛ حيث قال: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠]، ومع هذا لو كنوا هؤلاء شاهدين على نعت رؤية الفردانية لم تخلهم إلى رؤية الصفة في الآيات؛ لأنها وسائط تليق بمقام المحبة وإفراد القدم عن الحدوث، مقام أهل التوحيد؛ حيث يرونه به لا بغيره.

ألا ترى كيف خاطب الحق مَنْ انسلخ عن نعوت الحدث إلى نعوت الأزل ﷺ حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان:٤٥]، ولولا أنهم حجبوا بالعقول ما رفعهم إلى رؤية الحوادث بأن الله سبحانه خلق العقول لجولانها في الآيات بنعت التفكر والتذكر، وخلق

---

(١) سبق تخريجه.

الأرواح لتنسم نفحات تجلي القدس من بساتين الأنس، وأيضًا مَنْ احتاج في معرفة الله سبحانه إلى رؤية الآيات ليثبت بها وجود الحق سبحانه، فهو عامي حيث يعرف القديم بالمحدث، وأن الأكوان تلاشت في أول بادٍ بدأ من نور العظمة والكبرياء القديم.

قال الجنيد: كل مَنْ أثبته بعلَّة فقد أثبت غيره، لأن العلَّة لا تصحب إلا معلولاً جل الحق عن ذلك.

وقال الواسطي في هذه الآية: هو فرَّق ما بين معرفة العامة ومعرفة المحققين؛ لأن العامة اعتقد به بما يليق بطبعها، والخواص اعتقدوا به بما يليق به، وكل حال أثبته العموم جحدته الخصوص، فهو عند الخاص منزَّه عن كل ما وصفه به العامة؛ لأن العام اعتقدوه من حيث العبودية، والخاص اعتقدوه من حيث الربوبية.

وقال بعضهم: إنَّ الخواص لم ينظروا إلى الكون، والحوادث إلا لمشاهدة الآيات، وما شاهدوا الآيات إلا لمشاهدة الحق فيها، ومَنْ شاهد الحق لم يمازج سريرته طعم الحدث.

وقال النصرآبادي: مَنْ لم يكن من أولي الألباب، لم يكن له في النظر إلى السماوات والأرض اعتبار، وأولو الألباب هم الناظرون إلى الخلق بعين الحق.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ إنَّ الله سبحانه لمَّا خلق أرواح أهل المعارف أوجدها على كشف جماله، فوقعت كينونة الأرواح على سواطع نور المشاهدة، فباشرت أنوارها صميم الأرواح، فعشقت بالله جماله وجلاله، فلمَّا اشترت بالأشباح بقي الذكر والعشق والمحبة معها عوض المشاهدة، ففي كل نفس لا يخلو عن ذكر معاهد الأول ومشاهدة القديم بنعت الشوق والمحبة والعشق، وذلك بغير اختيارها ذاكرة للمذكور، متفكرة للغيبة والحضور، شائقة عاشقة بنعت الهيجان والهيمان على جميع الأحوال، مجذوبة بسلسلة الوصلة إلى جمال القدم، مستغرقة في بحار المواجيد وأنوار الكواشف، لأجل ذلك وصفها الله بدوام الذكر والفكر على نعت التسرمد، وأخبر على قدر عقول الخلق عن أحوالهم بلفظ الذكر والفكر، وذلك نعت قلوبهم وعقولهم وأبدانهم، وأخفى شهود أرواحهم مشاهد القدس والأنس لطفًا وإبقاءً ومحبةً وغيرة، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾ قيامهم مقرون بذكر العظمة والكبرياء، وقعودهم مقرون بذكر الجمال وحسن الأفضال، واضطجاعهم مقرون بذكر البسط والانبساط، والرفاهية في الشوق والمحبة، فذكرهم على قدر كشوف الصفات، فكشف العظمة هيجهم إلى ذكر الفناء إلى التوحيد، وكشف الكبرياء هيجهم إلى ذكر الاضمحلال في التواضع والتفريد، وكشف البهاء هيجهم إلى ذكر الخمود في الشهود، وكشف القدرة هيجهم إلى ذكر العجز في العبودية عن إدراك

الربوبية، وكشف الجمال هيجهم إلى الغيبة في ذكر الآباد، وعلى ذلك كل صفة لها تجلي، ولذلك التجلي مباشرة في قلوب الذاكرين، ولكل ذكر له عمل في المقامات، وله حقيقة وجد في الحالات[١].

ذكر الرضا من رضا الحق والتوكل من حب الله، وذكر القهر من جبروت الله، وذكر الأفضال من ملكوت الله، وذكر الآلاء من ملك الله، وعلى قدر ظهور الصفات لهم تسرمد الذكر الذي وافق الكشف من الأسماء والصفات والنعوت والذات.

سبحان مَنْ خصَّ الأولياء بكشوف صفاته، سبق ذكره لهم بهذه الفضائل والقربات قبل ذكرهم إياه إلى الآزال، فذكره جعلهم ذاكرين، ورحمته جعلتهم متفكرين في جلاله وعظمته، ومَنْ عاش منهم عن حقيقة القدم، صار متصفًا بعد الذكر بصفة المذكور، وخرج من مقام الذكر لغيبته عن الذكر في رؤية الأزل والأبد، فعند ذلك الذاكر والذكر والمذكور في باب الاتحاد واحد في شرط الفردانية، والموحد الذاكر يفنى ويبقى الموحد لا غير، كما لم يزل في الأزل.

قال جعفر: ﴿يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ في مشاهدات الربوبية، و﴿وَقُعُودًا﴾ في إقامة الخدمة ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ في رؤية الزلف.

وقال الواسطي: كل ذاكر على قدر مطالعة قلبه بذكره، فمَنْ طالع ملك الجلال ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك رحمته ذكره بذلك، ومَنْ طالع ملك معرفته ذكره على ذلك، ومَنْ طالع ملك سخطه وغضبه كان ذكره أهيب، ومَنْ طالع المذكور أغلق عليه باب الذكر.

قال النصرآبادي: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ بقيوميته، أفمَنْ هو قائم على كل نفس، ﴿وَقُعُودًا﴾ بمجالسة، «أنا جليس مَنْ ذكرني»[٢]، ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ على إشادة ﴿يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ .

قال بعضهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا﴾ يذكرونه قائمون باتباع أوامره، ﴿وَقُعُودًا﴾ أي: قعودًا عن زواجره ونواهيه، ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ أي: وعلى اجتنابهم مطالعات المخالفات بحال.

---

(١) استغرق الذكرُ جميعَ أوقاتهم؛ فإن قاموا فبذكره، وإن قعدوا أو ناموا أو سجدوا فجملة أحوالهم مستهلكة في حقائق الذكر، فيقومون بحق ذكره ويقعدون عن إخلاف أمره، ويقومون بصفاء الأحوال ويقعدون عن ملاحظتها والدعوى فيها. انظر: تفسير القشيري (١/ ٤٣٦).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١/ ١٠٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤٥١).

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، التفكر في خلق السماوات والأرض على معنيين:

الأول: طلب غيبة القلوب في الغيوب التي هي كنوز أنوار الصفات التي تبرز منها مقادير الخلق، يتفكرون في محض الربوبية، وإرادتهم إدراك أنوار القدرة التي تبلغ الشاهد إلى المشهود بحقيقة رؤية الوصف.

والثاني: جولان القلوب بنعت التفكر في إبداع المَلك في المُلك، طلب مشاهدة المالك في المُلك، الأول منزل التوحيد، والآخر منزل الجمع.

قال بعضهم: هو رؤية الله قبل التفكر في الأشياء، وواسطة التفكر أن ترى الأشياء قائمة بالله، وفساد التفكر أن ترى الأشياء فيستدل بها على الله، وقبل ذلك بالتفكر في صفات الحق لا في المحدثات، ولو كان ذلك على المحدثات لقال: ويتفكرون في السماوات.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ تطرقوا من مقام الذكر إلى مقام التفكر في خلق الكون، استرواحًا من الاحتراق بنور الذكر بمروحة صفاء الفعل، لكيلا يفنوا في مشاهدة المذكور، وذلك غلبة المريدين في طلب الرفاهية، وركوب الرخص، ألا ترى كيف احتجبوا بالفعل عن الفاعل.

وأيضًا: لَمَّا استحلوا رؤية الفاعل في الفعل، ووجدوا حكم الأزلية بنعت التجلي في مرآة الفعل، قالوا: ﴿مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أرادوا وجود الكون مرآة التجلِّي المكون في مقام التفكر بعد إرادتهم زواله في صفاء الذكر، غيرة على الغير، وذلك قوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ﴾، وعلة ذلك أن الله سبحانه عرف مكان ضعف الخلق عن حمل مشاهدته، صرفًا فأظهر الكون ليتطرقوا بالوسيلة إليه، كيلا يحترقوا في أول بوادي ظهور العظمة، وسطوات الكبرياء رحمة وشفقة.

قال فارس: الحكمة في إظهار الكون إظهار حقائق حكمته بالفعل الحكيمي.

قال الخواص: أمرهم بالتفكر في خلق السماوات والأرض، ثم قطعهم عن ذلك بقوله: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ دلَّهم عليها، ثم حثَّهم على الرجوع إليه؛ لكيلا يقفوا معها، وينقطعوا عن مشاهدته، والإقبال عليه.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ لَمَّا نزل القوم من مقام الذكر الخالص بغير الوسائط إلى مقام التفكر في الأفعال والآيات، ووقعوا في رؤية الخلق أدركوا ما فاتهم من خوالص الذكر بقولهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ أي: أنت منزَّه عن كل ذكر وفكر، وكل خاطر وإشارة

وعبارة، وأنت أعظم من أن يُدركك أحد بوسيلة الكون، حيث لم يدركك بكل ذكر خالص، ولا يدركك إلا بك كل عارف، سبحانك عمَّا وصفناك بلسان الحدث، أنت كما أثنيت على نفسك بقولك: ﴿سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون:٩١]، و﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ أي: عن طلبنا بنا لا بك، وعذاب النار عذاب البعد، وذلك نيران الفراق وهو حرق من نار الظاهر.

قال النصرآبادي: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي: نزهت نفسك في نفسك بمعناك في معناك بما لا، ومنك بك لك.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾ أخبر الله سبحانه بهذه الآية عن أحكام توحيد القائمين في معهد الأزل بنعت المشاهدة والفناء في القدم، بعد رجوعهم من الأرواح إلى الأشباح؛ حيث سمعوا مناداة الحق وخطابه من لسان منادي الحق، بشرط الوسائط بعد سماعهم خطابه صرفًا، أي: إننا سمعنا مناداتك بلسان الوسيلة، فآمنا بشرط المشاهدة قبل مناداة الرسل؛ حيث قلت: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ [الأعراف:١٧٢]، في المشاهدة والحضور بلا حجاب، وأيضًا ﴿إِنَّنَا سَمِعْنَا﴾ بأرواحنا وأسرارنا منك، فآمنَّا بك بغير علة، فاتبعنا ظاهرًا وباطنًا مناديك، وصدقناه بها وجدنا حلاوة اليقين في قلوبنا، ومعنى الإيمان تصديق الكل برؤية الكل، وسابقة نظر الأسرار إلى الأنوار، وقبول الظاهر بيقين الباطن، والشروع في العبودية بعد كشف الربوبية، ومعاينة الغيب بالغيب.

قال القاسم: الإيمان أنوار الحق إذا اشتملت على السريرة، وهو أن يغيب العبد تحت أنواره، ويبدو له نجم الاحتراق فيغيبه عن وساوس الافتراق، فيكون مصحوب الحق في أوقاته، لا يشعر بتسخيره، ولا يعلم بحجابه، وإنما حجب الكل بالكل، وحجب كلاً بكليته، وقمع كلاً بحده، لئلا يستوي علم أحد مع علمه، فهذا هو صريح الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: اغفر قصور معرفتنا بك فإنه أعظم الذنوب؛ حيث نطلب معرفة القدم بالحدث، وكيف يكون مقارنة القديم بالمحدث، ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: تجاوز بكرمك عن كل خاطر يشير إلى غيرك بعد ما وجدنا حلاوة وصلتك، ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: توفنا مع الذين أنعمت عليهم بكشف مشاهدتك لهم، وإيقاع محبتك في قلوبهم، واستشواقك من صميم أسرارهم إلى جمالك، واكتسابهم بكسوة رضا القديم، حتى وقفوا معك بشرك الرضا في كل بلائك وامتحانك.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: مع مَنْ رضيت ظاهرهم للخلق، وباطنهم لك.

وقيل: ﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾ : هم القائمون على حد التفريد والتوحيد.

وقال سهل: الأبرار هم المتمسكون بالسنَّة.

وقال بعضهم : هم الناظرون إلى الخلق بعين الحق.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: نحن احترقنا بنيران محبتك، فأرونا بحسن مشاهدتك التي وعدت رسولك بقولك: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦]، وأيضًا ﴿وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا﴾ بلسان رسلك، إنَّ مَنْ اتبعهم تعطيه محبتك وسنيات آياتك وكراماتك؛ حيث قلت: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: لا تحجبنا بنعمتك عنك؛ حيث يشتغل أهل الفريقين بأنفسهم، وهذا الدعاء من المعرفة تنزيه الأزلية عن الحدوثية، واستغناء الربوبية عن العبودية، حتى لو يحرق جميع الأنبياء والمرسلين، لا يبالي بهم، ولا تنقص من ملك جلاله ذرة لك، عرفوا ما سبق لهم من حسن العناية، فستزادوا تواتر الأنعام؛ حيث تسلى الحق سبحانه قلوب الخائفين القانتين في رؤية العظمة، بقوله: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

---

(١) سبق تخريجه.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن: أي: لا تجازنا بأعمالنا، وعد علينا بفضلك ورحمتك، إنك لا تخلف الميعاد، بقولك: «سبقت رحمتي غضبي».

وتفسير قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ عندي نفي علة الحدث عن ساحة الكبرياء؛ لأن نقض العهد من شواغل أهل العلة، أي: أنت منزَّه عن خلف الوعد، ونحن في محل الأمن من ذلك، فإنَّ أوصاف الحدثان لا تجري على عزة كبريائك.

قال الأستاذ في هذه الآية: أي حقق لنا ما وعدتنا على ألسنة الوسائط من كمال النعمة، وتكفير السيئات، وغفران كل ما سبق من متابعات الهوى.

قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ﴾ في هذه الآية إشارة إلى تنزيه الأرواح من الخطرات، وتقديس الأشباح من الشهوات، هاجروا من غير الله إلى الله، ثم إنَّ الله تعالى حثَّ الأعداء بإخراجهم عن ديارهم لحبِّ عزته العاشقين الصادقين، كيلا يركنوا بالطبع والحب إلى الإخوان والأوطان[1].

قيل في تفسيرها: تركوا الشرور، وفارقوا أقرباء السوء.

وقوله تعالى: ﴿وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى﴾ إنَّ القوم إذا لم يذوقوا مرارة إيذاء المنكرين لم يبلغوا حقائق الالتجاء إلى الله، والفرار إليه، فإيذاء الأضداد يهيج للأولياء إلى مقام القبض، وضيق الصدور، ذلك محل الامتحان من الله سبحانه؛ لكظمهم غصص غيظ المنكرين، لتفتح بعد ذلك أبواب الخطاب، وصفاء البسط، وسرور المنَّة.

قال الجنيد: جزى الله إخواننا عنَّا خيرًا، ردونا بحقائقهم إلى الله، وهذا سنة الله التي قد جرت على أهل سلوك المعارف والكواشف، قال تعالى: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢].

قيل: غير القوم بصحبة الفقراء ومجالستهم، والتزيي بزيهم؛ لأن الفقر هو طريق الحق، ألا ترى المصطفى -صلوات الله عليه- لَّما جلس معهم، كيف قال: «المحيا محياكم، والممات مماتكم»[2].

---

(١) المظلومُ منصورٌ، ولو بعد حين، ودولة الحق تغلب دولة الباطل، والمظلومُ حميدُ العقبى، والظالمُ وشيك الانتقام منه بشديد البلوى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل:٥٢]، وقد يجري من النَّفْسِ وهواجِسها على القلوبِ لبعضِ الأولياءِ، وأهل القصةِ - ظُلَمٌ، ويَحْصُلُ لِسُكَّانِ القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاءٌ، وتستولي غَاغَةُ النَّفْس، فتعمل في القلوب بالفساد بسبب استيطانِ الغفلة حتى تتداعى القلوبُ للخراب من طوارق الحقائق، وشوارق الأحوال [تفسير القشيري (٥/ ٢٠٠)].

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٤٠١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١٧).

قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾ أي: لا يعجبنك طوف المنكرين في البلدان لطلب الفصاحة البلاغة، والتكلف في الآداب والزينة، طلبًا لصرف وجوه الناس والربانية والحيل بأولياء الله، فإنَّ أحوالهم مزخرفات فانية، يريدون بها إسقاط جاه الصدِّيقين عند الخلق، وأنا بجلالي في كل نفس أرفع درجاتهم، وأزيد في ملك ولايتهم رغمًا للمنكرين، وإرغامًا لأنوف المبطلين.

وأيضًا: لا يغرنك، ولا يفتتنك صحة أبدانهم، وأين عيشهم في العالم، وتيسير إقبال الدنيا إليهم في البلاد بجاههم عند العامة؛ فإنهم يحاربونني بإهانتهم أوليائي، ومبارزتهم معي بعداوة إحمائي، فإن أيامهم قليلة، وحسراتهم كثيرة عند طلوع أنواري من شرق العناية على وجوه أوليائي؛ حيث قلت: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، أفتضحهم عند وضوح الكتاب، وحضور الأنبياء والشهداء، وهذا وعيد شديد لأهل أزماننا من السالوسيين الناموسيين.

قال يوسف في تفسير هذه الآية: لا تفتتنك الدنيا بوقوع الجهال عليها، والاغترار بما فيها، والتكثر بنعيمها؛ فإنها زادهم إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ بيَّن الله تعالى رفعة منازل المتقين في الجنان، ثم أبهم لطائف العندية لهم، بقوله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ أي: ما عنده من نعم المشاهدة ولطائف القربة وحلاوة الوصلة، خير مما هم فيه من النعيم في الجنة، وأيضًا صرح في بيان مراتب الولاية أنه ذكر المتَّقين، والتقوى تقديس الباطن عن لوث الطبيعة، وتنزيه الأخلاق عن دنس المخالفات، وذلك درجة الأول من الولاية، والأبرار أهل الاستقامة في المعرفة، وبيَّن أن أهل التقوى في الجنة، والأبرار في الحضرة.

وأيضًا: أعجبوا الأبرار بما وجدوا من أنوار نيران المكاشفات، ولطائف المناجاة، وحقائق المشاهدات بنعت الوجد والحالات، فأخبرهم أن ما هم فيه بالإضافة إلى ما عنده لهم في الآخرة كلا شيء في ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾، وأيضًا لا يتعجبوا صورة أحكام أهل الدنيا في طراوتهم، وحسن هيئاتهم، أيها المريدون؛ فإن شدائد مجاهداتك تورث سليم العيش في رؤيتي وقربتي ومشاهدتي.

قيل: ما عنده لهم خير ما يطلبونه بأفعالهم.

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ

ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١) أعلم الحق سبحانه حقيقة لهيب نيران فؤاد المشتاقين، وتسلاهم بخطابه، وبما أمرهم بالصبر في لوعة الفراق، أي: اصبروا أيها المشتاقون في ركوب عظائم آلام المحبة والشوق على قلوبكم، بتذكيركم بلوغ وصالي، فإذا اشتد الأمر عليكم بالصبر في بلائي، صابروا على الصبر لكيلا يجزع صبركم في عناء الفرقة، والاحتراق في المحبة، اصبروا بمشاهدتي، وصابروا في طلبكم حقائق معرفتي، اصبروا بأسراركم، وصابروا بأسراري، ولا تكشفوها عند الأغيار، ورابطوا قلوبكم بكتمانها، واتقوا الله في إفشاء السر، كيلا تحتجبوا عنه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ وتظفرون بنعمة جمالي، وحسن وصالي، وتفوزون من أليم عذاب فراقي.

وأنشد أبو حمزة الصوفي:

نَهَانِي حَيَائِي مِنكَ أَنْ أَكْتمَ الهَوَى ... وَأَغْنَيْتَنِي بِالفَهْمِ عَنكَ مِن الْكَشْفِ

تَلَطَفْتُ فِي أَمْرِي فَإِنْ أَكُ شَاهِدًا ... إلَى غَايَتِي فَاللطْفُ يُدْرَكُ بِاللُّطْفِ

وأنشد أبو بكر أحمد بن إبراهيم المؤدِّب لإبراهيم الخواص:

صَبَرْتُ عَلَى بَعضِ الأَذَى خَوفَ كُلِّهِ ... ودَافَعتُ عَنْ نَفسِي لِنَفْسِي فَعَزَّتِ

وجَرَّعْتُهَا المكْرُوهَ حَتَّى تَدرَّبَتْ ... وَلَو جُمْلَةٌ جَرَّعتُهَا لاشْمَأَزَّتِ

أَلَا رُبَّ ذُلٍّ سَاقَ لِلنَّفسِ عِزةً ... وَيَا رُبَّ نَفسٍ بِالتَّعَزُّزِ ذَلَّتِ

إِذَا مَا مَدَتُّ الكَفَّ التَمِسُ الغِنَى ... إلَى غَيرِ مَنْ قَالَ اسْأَلُونِي فَشُلَّتِ

سَأُصَبِّرُ نَفسِي إِنَّ فِي الصَّبْرِ عِزَةً ... وأَرْضَى بِدُنْيَايَ وَإِنْ هِيَ قَلَّتِ

وأنشد الشبلي في حقائق الصبر:

عَبْرَاتٍ خَطَطْنَ فِي الخَدِّ سَطْرًا ... فَقَرَأَهُ مَنْ لمْ يُحسِنْ يَقْرَا

صَابرَ الصَّبْرُ فَاسْتَغاثَ بِهِ الصَّبْرُ ... فَصَاحَ المحِبُّ بالصَّبْرِ صَبْرًا

(١) المصابرة نوع خاص من الصبر ذكر بعد الصبر على ما يجب الصبر عليه، تخصيصًا لشدته، وصعوبته وكونه أكمل، وأفضل من الصبر على ما سواه، والصبر هو حبس النفس عما لا يرضاه الله، وأوله التصبر، وهو التكلف لذلك ثم المصابرة، وهى معارضة ما يمنعه عن ذلك ثم الاصطبار، والاعتبار، والالتزام، ثم الصبر، وهو كماله، وحصوله من غير كلفة [تفسير حقي (٢/ ٣٩٣)].

قال الجنيد: إنَّ الله تعالى ذكر الصبر وشرفه وعظم شأن الصابرين لديه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ﴾ أمرهم بالصبر على الصبر، ثم قال: ﴿وَرَابِطُواْ﴾ وهو ارتباط السر مع الله سرًّا، والوقوف مع البلاء جهرًا، قال النبي ﷺ: **«الصبر عند الصدمة الأولى»**[1].

قال الحارث: الصبر التهدف لسهام البلاء.

وقال الجريري: الصبر إسبال التولي قبل وقوع البلوى، فإذا صارف البلوى تلقاه بالتولي ولم يجزع.

وقال بعضهم: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ تحت حكمي، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ في الحلاوة مع أعدائي، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ قلوبهم بموافقتي ورضائي.

وقال جعفر: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ عن المعاصي، و﴿وَصَابِرُواْ﴾ على الطاعات، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ الأرواح بالمشاهدة، ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اجتنبوا الانبساط مع الحق، ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تبلغون مواقف أهل الصدق، فإنَّه محل الفلاح.

وقال بعضهم: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ بجوارحكم على الطاعات، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ بقلوبكم مع الله، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ بأسراركم بالحقائق سبل الشوق والمحبة.

وقال بعضهم: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ بالله، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ مع الله، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ أسراركم بالحقائق لعلكم تجردون عن همومكم وخطراتكم.

قال ابن عطاء: الصبر للمطيعين، والمصابرة للمحبين، والمرابطة للعارفين، وقال: الصبر لله، والمصابرة بالله، والمرابطة مع الله.

وقال الأستاذ: الصبر فيما يتفرد به العهد، والمصابرة مع العدو، والرباط نوع صبر، ولكن على وجه مخصوص.

ويقال: أول الصبر التصبُّر، ثم الصبر ثم المصابرة، ثم الاصطبار وهو نهايته.

ويقال: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ على الطاعات وعن المخالفات، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ في ترك الهوى والشهوات، وقطع المنى والعلاقات، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ بالاستقامة في الصحبة في عموم الحالات.

ويقال: ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ على ملاحظة الثواب، ﴿وَصَابِرُواْ﴾ على ابتغاء القربى، ﴿وَرَابِطُواْ﴾ في محل الدنو أو الزلفة على شهود الجمال والعزة.

---

(١) رواه البخاري (١٢٠٣)، ومسلم (١٥٣٤).

وقد وقع لي قول بعد أقوال أشياخ المعرفة زيادة على قولي في الآية قبل أقوالهم، أنَّ الله سبحانه أعلمنا في هذه الآية بيان أربع مراتب من عظائم مقامات أهل الكمال في التوحيد:

الأول: مقام المعرفة، والثاني: مقام النكرة، والثالث: مقام الفناء، والرابع: مقام البقاء.

وأضاف الصبر إلى المعرفة، والمصابرة إلى النكرة، المرابطة[1] إلى الفناء، والفلاح إلى البقاء، أي: اصبروا في معرفتي حيث أعرفكم نفسي بنفسي، فإن في عرفاني مباشرة السر بالسر، وتخلق الصفة بالصفة، واتحاد الذات بالذات.

أي: إذا كنتم في مقام الاتحاد بإدراك ربوبيتي، اصبروا بكتمان دعوى الربوبية فإنكم في مقام المكر، وأنتم لا تعلمون، وإذا وقعتهم في بحار أُلوهيتي، واختلط بكم بحار السرمدية والأزلية، ولا تعرفون طرق معرفتي بعد وقوعكم في نكرتي، ونكرني جهلكم بي بعد معرفتكم بي؛ حيث امتزج ظلام القهريات بأنوار اللطفيات.

صابروا هناك لكي تدركونني فتربحون بكم ذوق وصالي، وسُكر مشاهدتي، وصحو صحبتي من غمرات النكرات، فإنكم في النكرة على محل غيرتي عليَّ لكم، وإذا انكشف لكم سطوات عظمة قدمي، وبرزت أنوار أزليتي، وأنتم في محل الاضمحلال والفناء عنكم، ورابطوا أسراركم في أنواري؛ كيلا تتلاشوا بي عني فيفوتكم إدراك لطائف الغيبية، ووضوح أسرار الأزلية، فإذا استفهم في الفناء عنكم، ولقيتم بي عليَّ تفلحون بإسبال بقائي عليكم حتى تخرجون من بحار الفناء بشرط البقاء، فإذا صرتم باقين ببقائي، فزتم عن ورطة الفناء بعد ذلك، ولا تجري عليكم أحكام التلوين بعد الاستقامة والتمكين.

سورة النساء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ۝ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم

---

(١) قال ابن عجيبة: المرابطة أن يربط هؤلاء خيولهم، وهؤلاء خيولهم، إرصادًا لمن حاربهم، ثم أُطلق على كل مقيم في ثغر يدفع عمن وراءه، وإن لم يكن له مركب، إذا كان بنية الدفع عن المسلمين كان بأهله أو وحده، المدار على خلوص النية [البحر المديد (١/ ٣٨٦)].

مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾ وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ﴿٤﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ أي: أيها الناسي عهد الأزل وميثاق القدم بشرط وفاء العبودية بعد خطابي ومعرفتي وتعريفي نفسي لكم، حيث قلت: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فأجبتم بقولكم: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

وأيضًا: أيها الناسي جمال مشاهدتي؛ حيث أخرجت أرواحكم من العدم بتجلي أنوار القدم، فبصرتها بمشاهدتي، وأسمعتها خطاب أزليتي باشتغالكم على حظوظ البشرية ومأمول الطبيعة.

وأيضًا: أيها المستأنس بالمستحسنات من الأكوان والحدثان طلبًا لمشاهدتي اعلم أنها أعظم الحجاب؛ لأنها وسيلةٌ حدثيةٌ وإيصالٌ إلى أحدٍ إلا بي، ورؤية الأشياء في رؤيتي مكرٌ.

وأيضًا: أيها المستأنس في المستوحش من غيري فلا تغرنَّ بي؛ فإنك لي لا لك.

وأيضًا: أي: أيها الناسي أنفسكم التي هي مخلوقةٌ من الجهل بي، فلا تخافون حيث ادَّعيتم معرفتي، ومعرفتي للقدم لا للحدث.

وأيضًا: هذا خطابٌ لبني آدم، أي: أيها الذين انتسبتم إلى ابن الماء والطين الذي اشتغل عني بأكل حبة حنطة حتى بكى عليها مائتي سنة إيش تفعلون بعده في مواقف القربة، وتنزل المشاهدة بعد المعرفة، فإن عذاب الفراق أليمٌ، لو تعرفون أنفسكم لا تشتغلون بالحدثان، فإني اصطفيتكم بمشاهدتي وخطابي من بين البريات، أما سمعتم قولي: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء:٧٠]، وهذا الخطاب خطاب العتاب للمفارقين أوطان المآب؛ ألا ترى إذا غضب عظيم على خادمه لم يسم باسمه، ويقول: يا إنسان. ولا يقول: يا حسن، يا أحمد ، أي أنت على محل الجهل بمرادي منك.

والإشارة فيه: إن الله سبحانه عرف أمر المعرفة عباده حيث اشتغلوا بسواه، كأنه نبههم عن رمدة الغفلات بزواجر هذا الخطاب، ويقول: أيها الناقضون عهد المعرفة والعشق، أما تستحيون مني باشتغالكم بغيري، اتقوا من فراقي وعتابي.

قال بعضهم: يا بني النسيان والجهل.

وقال ابن عطاء: أي كونوا من الناس الذين هم الناس، وهم الذين أنسوا به، واستوحشوا مما سواه.

وقال جعفر: أي: كونوا من الناس الذين هم الناس، ولا تغفلوا عن الله ممَّنْ عرفه، إنه من الإنسان الذي خصَّ خلقته بما خصَّ به، كبرت همته عن طلب المنازل، وسمت به الرفعة حتى يكون الحق نهايته، ثم ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم:٤٢]، وسمو همته مما خصَّ به من الاختصاص من التعريف والإلهام.

وقال بعضهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خطاب العام، و﴿يَـٰعِبَادِىَ﴾ خطاب الخاص، وخطاب خاص الخاص، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ (١) أي: كونوا على تقديس الأسرار عند كشف الأنوار، وعلى شرط الانفراد في محبتي عن الأغيار، ولا تبغوا آثار الأشرار لتكونوا في منازل الصدق من الأبرار، حذَّرهم من نفسه.

والإشارة فيه: إن مَنْ مال سرُّه في سيره إليه امتنع بعزته عن مطالعة جلاله، كقوله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وحقيقة التقوى قدس السر عما سواه بنعت الخوف من فراقه في متابعة هواه.

قال بعضهم: التقوى ترك المخالفات أجمع.

وقال بعضهم: تقوى الله هو الاجتناب من كل شيء سواه.

وقال الواسطي: التقوى على أربع وجوه: للعامة تقوى الشرك، وللخاص تقوى المعاصي، وللخاص من الأولياء تقوى التوسل بالأفعال، وللأنبياء تقويهم منه إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ (٢)، إن الله سبحانه ذكر جميع أوصاف قدمه وأمره ومشيئته ونعته وأفعاله في هذه الآية رمزًا وإيماءً؛ لأنه تعالى لمَّا أراد إبداع الخليقة لعرفانها حقوق الألوهية، وانتشار أنوار المحبة الأزلية في فضاء القلوب وأماكن الأرواح تجلى ذاته لصفاته، وتجلت صفاته لأفعاله، وجمع علمه وحكمته وقدرته في نعتٍ واحدٍ وهو الأمر، فقرنت الإرادة بالأمر، فنظر في الأمر بنعت الكاف والنون إلى العدم من القدم، فأظهر جوهر البسيط المجموع فيه الأجسام والأرواح والجوهر والأعراض.

---

(١) التقوى ترك كل شيء تقع عليه؛ فهو في الآداب مكارم الأخلاق، وفي الترغيب ألا يظهر ما في سره، وفي الترهيب ألا يقف مع الجهل، ولا تصح التقوى إلا بالمقتدي بالنبي ﷺ وبالصحابة -رضي الله عنهم. [تفسير التستري (١/ ١٨٦)].

(٢) أخرج النَّسَمة من نَفْسٍ واحدة وأخلاقهم مختلفة، وهممهم متباينة، كما أن الشخص من نطفة واحدة وأعضاؤه وأجزاءه مختلفة؛ فَمَنْ قَدِرَ على تنويع النطفة المتشاكلة أجزاؤها، فهو القادر على تنويع أخلاق الخَلْق الذين أخرجه من نَفْس واحدة [تفسير القشيري (٢/ ٤٧٩)].

ثم نظر إليه بنظر الهيبة والعظمة والجود، فأنشر منه ما سبق علمه في الأزل به من العرش إلى الثرى على صور وهيئة كانت منقوشة بنقوش خواتيم أفعاله، وذلك المبدع هو أحمد -صلوات الله عليه- حيث قال: «أوَّلُ ما خلق الله نوري، فكنتُ كذا وكذا»(١)، حتى ذكر أن من العرش إلى الثرى خلق من نوره وهو آدم ﷺ الأول الذي قال تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ، ثم جمع الأرواح والأشباح والأنوار والأسرار في قبضة عزته، وخمرها بطينة آدم ﷺ في أربعين ألف صباح من صبح الآزال والآباد، حتى خلقه بخلقه، وأنشأه بروحه، فقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص:٧٢]، فباشرت فيه يد الأزل والأبد، وظهر فيه قدس القدم بجميع الأسماء والصفات والنعوت والأفعال، فصوره بصورة الملك، فتتشعب منه أماكن أسرار القديم من خلق الأولين والآخرين، وهو صورة عين الجمع التي أظهر الحق منها أوصاف قدمه، ألا ترى إلى قول سيد البشر- صلوات الله عليه- كيف قال في المتشابهات: «إن الله خلق آدم على صورته»(٢)، وهو آدم الثاني.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ ، أخبر عن مقام الجمع بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ ، ثم أخبر عن التفرقة بقوله: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ .

وبيَّن بعض ما أشرنا أستاذ الأستاذين شيخ التمكين عمرو بن عثمان المكي – رحمة الله عليه وقدس روحه – وقال: إنَّ الله خلق العالم، وهيأه باتساق نظمٍ واحدٍ من أطرافه وأكنافه، وأوله وآخره، وبدؤه ومنتهاه، من أسفله إلى أعلاه، وجعله بحيث لا خلل فيه ولا تفاوت ولا فطور، أحكم بناءه باتصال تدبيره، وحبسه على حدود تقديره وإن اختلفت أجزاؤه في التفرقة والأجسام والهيئات والتخطيط والتصوير، وفرَّقه بتفرقة الأماكن، وحققه بائتلاف المصالح، فهو مربوط بحدود تقديره، ومتتابع باتصال تدبيره، وبث فيه الأجناس بينهما من شواهد الزينة، فأظهر القدرة بإيجاد آدم ﷺ، ثم بث أولاده في البسيط إلى تصاريف التدبير لهم والمشيئة، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [الأعراف:١٨٩].

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ﴾ ، أكَّد التحذير، وبيَّن القدرة والتقدير أي: احذروا عمَّنْ هو قادرٌ لإيجاد الخلق من لا شيء ومن شيء ترك مخالفته؛

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٣١١).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٠١٧).

فإنه قادرٌ أن يعدمكم، حتى لم تكونوا أبدًا كما لم تزالوا معدومًا، والمعدوم محجوب عن ديوان النبوة والولاية.

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ أي: اتقوا من فراق الذي تسألون منه به مشاهدته ووصاله، وخوَّفهم بالأرحام، أي: اجتنبوا من مخالفة أوليائي رحم الصحبة، قال: صحبتي موصولة بصحبتهم، ومن فارق منهم فارق مني.

قال الأستاذ: أي فاتقوا الأرحام أن تقطعوها، فمَنْ قطع الرحم قطع، ومَنْ وصلها وصل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، ذكر التقوى وأكَّد التقديس الأسرار، وليقع نظرات تجليه على مواقع القلوب، وصميم الأرواح بلا علة وجود الغير فيها؛ لأنه منزَّهٌ لا يصل إليه إلا منزَّهٌ عن غيره، وهو ناظرٌ إلى مواطن القلوب من الغيوب، وترفرف أنوار قربه عليها، فإذا يرى فيها ذكر الغير يرتحل مطايا أنواره منها إلى معادن الألوهية والربوبية، وذلك قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾.

وأيضًا: مقام الهيبة ووقوع نور العظمة على القلب الصافي بنعت حفظه عن خطرات الحوادث، والقلب العارف المنقلب في معارج الصفات، وهو تعالى استأثر حفظه بنفسه لا يكل حفظه إلى غيره، وبيان ذلك قوله ﷺ: «القلوبُ بين أصبعين من أصابع الرحمن، يقلِّبُها كيف يشاءُ»[1]، وإذا راقب العبد ربه في البداية راقبه الله في النهاية، كقوله ﷺ لابن عباس: «يا غلام احفظِ الله يحفظْك»[2]، والمراقبة منه الحفظ والكلاءة، وفيه بيان تسلية الله سبحانه قلوب المحزونين المشتاقين إلى جلاله، أي: أنا ناظرٌ إلى أسراركم، وأعلم حرقتكم وهيجانكم؛ إني أجازيكم بوصلي، وأواسيكم بجمالي.

وأيضًا: أخبر الله تعالى عن شوق قدمه قبل الحوادث إلى وجوه أصفيائه، أي: كنت مراقبًا بنفسي بغير علة التغاير بخروجكم من العدم إلى شواهد القدم، ومن شواهد القدم إلى نور العدم، كما قال: «وإنِّي إليهم أشدُّ شوقًا»[3]، وكان إخبار عن الأزلية في الأزلية.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ قال: عالمًا بما تضمر من سرِّك، وما تخفيه من خواطرك، فراقب مَنْ هو الرقيب عليك.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٤٨)، وأحمد (٣/ ١١٢).

(٢) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٧)، وأحمد (١/ ٢٩٣).

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٤٥٤).

﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا ۚ وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ المال هاهنا حقائق المعرفة التي لا يعرفها إلا الربانيون، أي: لا تظهروها للمبتدئين؛ لئلا تفسد عقائدهم.

وأيضًا: لا تعطوا المال إلى غير مَنْ يبلغ درجة التمكين؛ فإنه يهلك في تصرفه.

قيل: أولادكم الذين يمنعونكم عن الصدقة.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾ الرشد هاهنا والله أعلم: معرفة الله ومحبته وسلوك سبيله على موافقة السنة.

وقيل: أصحابه الحق، وقيل: القيام في العبادات على شرط السنة.

قال ابن عطاء: الرشيد مَنْ يفرق بين الإلهام والوسوسة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ هذه التسلية للمشتاقين أي: كفى بكم عدي أنفاسكم التي تنفستم بها في غلبة شوقكم إلى لقائي، فأجازيكم بكل نفس بوصل بلا فصل، وأنا حسبكم، ومشاهدتي حسبكم؛ لأنه بلا نهاية ولا حجاب، وتخوف به أهل المراقبة، لئلا يخطر على قلوبهم خاطرٌ دونه.

قيل: الحسيب الكريم أن يوفيك ما لك، ولا يناقشك فيما عليك.

قال ابن عطاء: الحسيب الذي لا يضيع عنده عملٌ.

﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ۚ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ

وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم﴾ أمر الله سبحانه أولي النهايات من العارفين إذا انفتحت لهم خزائن جود المشاهدة، وانكشف لهم حقائق علوم الربوبية أن يقسمها على تلامذتهم من المريدين الصادقين على قدر مراتبهم، ومذاق حالاتهم.

و﴿أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أصحاب الصحبة، ﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ الساقطين عن الدرجة.

﴿وَٱلْمَسَـٰكِينُ﴾ أهل السلوك من المجاهدين أي: حدثوا عن نوالي عند هؤلاء لتزداد محبتهم فيَّ، وشوقهم إليَّ، لأزيد عليكم نعمتي، فإن كشفكم لطائفي عندهم شكر نعمتي.

و﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]؛ فارزقوهم من موائد القربة وخوان العناية لقيمات الحقائق، وإن هذا يحدث من نعمتي، ولذلك أمر صفي المملكة ورئيس القربة أن يذكر لطيف صنعي به على أمته، لزيادة محبتهم جماله وجلاله بنعت بذل مهجتهم له، بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١].

قال محمد بن الفضل: دلت هذه الآية على كرم الله تعالى مع عباده؛ لأنه أمر إذا حضر مَنْ لا نصيب له في الميراث أن يرزقهم منه، دل بهذا أنه إذا حضر عباده يوم القيامة في المشهد العظيم أنه يتفضل بعطائه على مَنْ لم يكن مستحقًّا لعطائه بمخالفته بإيصال رحمته إليه بفضله(١) وسعة رحمته، وبلوغه إلى منازل أولي الأعمال؛ لأنه قال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس:٥٨]. من أفعالكم وطاعاتكم التي اعتمدتم عليها، واعتمدوا فضلي وسعتي ورحمتي.

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ

---

(١) قال ابن عجيبة: فضل الله: أنوار الإسلام والإيمان، ورحمته: أنوار الإحسان، أو فضل الله: أحكام الشريعة، ورحمته: الطريقة والحقيقة، أو فضل الله: حلاوة المعاملة، ورحمته: حلاوة المشاهدة، أو فضل الله: استقامة الظواهر، ورحمته: استقامة البواطن، أو فضل الله: محبته، ورحمته: معرفته، إلى غير ذلك مما لا ينحصر، ولم يقل: فبذلك فلتفرح يا محمد؛ لأن فرحه ﷺ بالله، لا بشيء دونه. [البحر المديد (٢/٤٩٩)].

﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا﴾ ندب الله سبحانه عباده عند مفارقتهم الدنيا إلى أن يوصوا أولادهم بتقوى الله وتوحيده، وتحبيبهم له، وحثهم بالشوق إلى لقائه، والقول المعروف وصف الله، وذكر أفضاله وإنعامهن وأمرهم بتقوى الله في ذلك ألا يداهنوهم فيما يروا منهم من الميل إلى غير الله، وأن يعطيهم تقواهم بالميراث، فإذا كانوا متفقين، فإن الله خلفهم في أولادهم، وهكذا شأن المشايخ عند مفارقتهم من المريدين إلى دار الآخرة، حتى لا يخفوا عنهم أسرار المقامات والحالات، ويكلوهم إلى الله بعزائم التوكل وتحقيق اليقين؛ فإنه لا سبيل للشيطان إليهم بعدهم.

قيل: استعينوا على كثرة العيال، وقلة ذات اليد بالتقوى، فإنه الذي يجبر الكسير ويغني الفقير.

وقال جعفر بن محمد: الصدق والتقوى يزيدان في الرزق، ويوسعان المعيشة، قال الله تعالى: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡيَقُولُواْ قَوۡلاً سَدِيدًا﴾.

وقال الأستاذ في هذه الآية: إن الذي ينبغي للمسلم أن يدَّخر لعياله التقوى والصلاح لا المال؛ لأنَّه لم يقل: فليجمعوا المال، وليكثروا لهم العقار والأسباب، ويخلفوا العقل والأثاث، بل قال: ﴿فَلۡيَتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ؛ فإنه يتولى الصالحين، وقد وقع لي قول آخر، وهو أنَّ المرء يطلب في طول عمره الأموال الكثيرة، ويدَّخرها لأولاده حتى يموت، وهم يعيشون بها، فإنَّ الله سبحانه علم نيته، أنَّه يكل أولاده إلى المال والميراث، فحذَّره من ذلك، وأمره بتقوى الله، فإن نيته في ذلك منازعة قدره؛ فإنَّه تعالى يفعل بهم ما يشاء، من يتوكل على الله فهو حسبه، وهو خلفه بعده.

قوله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعًا﴾ أشكل الأمرين من هاتين الطائفتين أنهما يبلغان إلى درجة الولاية والمعرفة الموجبة مشاهدة الله وقربه، التي لو وقعت ذرةٌ منها لأحدٍ من هذه الأمة ينجو بشفاعته من النار سبعون ألفًا بغير حساب، أي اخدموا آباءكم، وارحموا أولادكم، فربما يخرج منهم صاحب الولاية يشفع لكم عند الله سبحانه، وحكمة الإيهام هاهنا تشمل الرحمة والشفقة على الجمهور؛ لتوقع ذلك الولي الصادق.

قال ابن عباس في قوله: ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعًا﴾ : أطوعكم لله ﷻ من الآباء والأبناء أرفعكم درجة يوم القيامة؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى يُشفِّع المؤمنين بعضهم في بعض، فإنْ كان الولد أرفع درجة من والديه رفع الله والديه إلى درجته، لتقرَّ بذلك عينه، وإنْ كان الوالد أرفع درجة من ولده رفع الله الولد إلى درجتهم لتقرَّ بذلك أعينهم.

قيل: ﴿ءَابَآؤُكُمۡ﴾ ببرّهم، ﴿وَأَبۡنَآؤُكُمۡ﴾ بالشفقة عليهم، والتأديب لهم هما بمحل النفع.

﴿وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡتُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّكُمۡ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَكُمۡ وَلَدٞ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكۡتُمۚ مِّنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ تُوصُونَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٖۗ وَإِن كَانَ رَجُلٞ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمۡرَأَةٞ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوۡ أُخۡتٞ فَلِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكۡثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمۡ شُرَكَآءُ فِي ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖۚ وَصِيَّةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿١٢﴾ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿١٤﴾ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ حسم الله سبحانه أبواب حكمته في أمر فرائضه في كميتها وكيفيتها على الخليقة، لوضع رقابهم على باب الربوبية عجزًا وتواضعًا في عظمته وكبريائه، واستأثر نفسه بعلم ذلك، لئلا تجاوز حدوده أحدًا من خلقه، ولكل صادر وارد معارفه وكواشفه حدٌّ يمنعه من مطالعة صمديته وأحديته، وحدود الله برزخ بين بحر الحدث وبحر القدم، لا يختلطان؛ لأنَّ القدم منزَّهٌ عن مباشرة الحدثان.

قال محمد بن الفضل: حدود الله أوامره ونواهيه، فمن تخطَّاها فقد ضلَّ في سبيل الرشد.

قيل: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾: أي الإظهار من الأحوال للمريدين على حسب طاقتهم لها، فإنَّ التعدي فيها يهلكهم.

وقال أبو عثمان: ما هلك امرؤٌ لزم حده، ولم يتعد طوره.

وقال بعض البغداديين: العبد ينقلب في جميع الأوقات على الحدود، دخل في هتك الحرمات، قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]؛ لأنَّ المرتع إلى

جانب الحمى ربما يخالط الحمى.

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ ظاهر الآية في ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ على بمعنى من أي: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾ على لسان القوم.

الإشارة فيه: أن من وقع في المعصية وقع في الظلمة والحيرة، ولا يرى سبيل الرشد، ولم يكن في وسع البشر أن يهدي نفسه إلى طريق الحق، فإنه هو الهادي، والهداية متعلقة بأوصاف قدمه، ويستحيل أن يكون الحادث على وصف القديم، فإذًا على الله نعته ووصف نفسه بالهدى لأنَّه الهادي أن يرجع إلى عبده المتحير الذي زلَّ قدمه في شهوات طبعه، فإنه لا يقدر أن يخلِّص نفسه من قهر الله، إنَّما تخليصه شرط كرمه الفياض، الذي وصف به نفسه تعالى للمذنبين الذين يقصدون حظوظ البشرية بغير الاختيار.

قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤] فبقى ﴿عَلَىٰ﴾ بشرط الظاهر بقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ﴾ إنَّما الرجوع منه إلى العبد شرط الرحمة الواسعة، التي بها، قال: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

هذه سنة الله على أبينا آدم صلوات الله عليه بعد أكل الحنطة بقوله: ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧].

وقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، وخصَّ توبته ورجوعه للذين يعملون السوء بجهالة، إخبارًا عن عطفه ولطفه بأقوام امتحنهم الله في بدو الإرادة في بعض حظوظ أنفسهم لإيقاع نيران الندم والخوف والحياء والإجلال في قلوبهم؛ لئلا يرفعوا أعناقهم بعد اتصافهم بنعوت الكبرياء وبلوغهم حقائق الانبساط ومقامات الاتحاد، فيسقطون عن رؤية الأزلية ومشاهدة الأبدية في فنائهم عن الحدوث وتخلقهم بخلق القدم، وإضافة السوء إليهم ونسبتهم إلى الجهل.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥).

أي: الذين يعملون سيئات الطاعات على رؤية الأعواض جهلاً بمكره، وقلة عرفانهم بعزته وتنزيه جلاله عن طاعة المطيعين ومعصية العاصين، يعملون الطاعات، ويرونها أنها هي شيء ويتقربون بعلل الحدث إلى جناب القدم، فإذا صاروا مبصرين جمال مشاهدته استحيوا من ظنونهم بطاعاتهم في جلال عظمته، وذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، عليمًا بشوقهم إلى لقائه، حكيمًا بتربيتهم في معرفته.

وقيل في قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾: الذين يتقربون بالطاعات إلى من لا يتقرب إليه.

وقال محمد بن الفضل: ضمن الله التوبة لمن يصدر منه الذنب من غير قصدٍ لا صحَّ إلى من يضمره، ويتأسف على فوته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهًاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ فَمَا ٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهِۦ مِنۡهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا تَرَٰضَيۡتُم بِهِۦ مِنۢ بَعۡدِ ٱلۡفَرِيضَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٢٤﴾ وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ

ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي: كونوا في معاشرتهم في مقام الأنس وروح المحبة وفرح العشق حين أنتم مخصوصون بالتمكين والاستقامة في الولاية، فإنَّ معاشرة النساء لا تليق إلا بالمستأنس بالله كالنبي ﷺ وجميع المستأنسين من الأولياء والأبدال؛ حيث أخبر ﷺ عن كمال مقام أنسه بالله وروحه بجمال مشاهدته، فقال: « حُبِّبَ إليَّ من دنياكم ثلاثٌ: الطيب، والنساء، وجُعلتْ قرَّةُ عيني في الصلاة»(١).

وهكذا حال يوسف عليه السلام حين همَّ فيها، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف:٢٤].

وقال ذو النون: المستأنس بالله يستأنس بكل شيءٍ مليحٍ، ووجهٍ صبيحٍ، وبكل صوتٍ طيبٍ، وبكل رائحةٍ طيبةٍ.

وأيضًا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ بطلب ولد صالح منهن.

وأيضًا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ﴾ أي: باشروهن حين رغبتكم في مرادكم منهن، فإنَّ المعروف لا يقع إلا على استواء من كلا الجانبين على نعتٍ واحدٍ.

وأيضًا، أي: عرِّفوهن صفات الله وأسماءه، ورغِّبوهن في طاعته بنعت العلم، وشوِّقوهن إلى جماله وجلاله. قيل: علِّموهن السنن والفرائض.

قال عبد الله بن مبارك : العشرة الصحيحة ما لا تورثك الندم عاجلاً وآجلاً.

قال أبو حفص: المعاشرة بالمعروف حسن الخلق مع العيال فيما ساءك وما كرهت صحبتها.

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٤٠٧).

قوله تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ كل أمر من الله سبحانه جاء على مخالفة النفوس امتحانًا واختبارًا، والنفس كارهةٌ في العبودية، فإذا ألزمت عليها حقوق الله بنعت المجاهدة والرياضة، واستقامت في عبودية الله أوّل ما يطلع على قلبك أنوار جنان القرب والمشاهدة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤٠]، وفي أجواف ظلام المجاهدات للعارفين شموس المشاهدات وأقمار المكاشفات.

قيل في تفسير الخير هاهنا: الولد الصالح.

قيل: غيب عنك العواقب؛ لئلا تسكن إلى المألوف، ولا تنفر من مكروه.

قوله: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ أي: أن يصرح لكم ما أُشكل على قلوبكم من علوم الغيبة وأحكام الإلهامية وحقائق الشرعية ليقتدي بكم المريدون، ويستفيد منكم الصادقون.

قيل: أي أنه ليس إليكم من أموركم شيءٌ.

وقال الأستاذ: أي يكاشفكم بأسراره، ليظهر لكم ما أخفي على غيركم.

قوله تعالى: ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾[1] يعني: طرق معارف الأنبياء وكواشف الأصفياء وسبل مقاماتهم وحالاتهم ورياضتهم.

قيل: سنن الأنبياء والصدِّيقين التفويض والتسليم والرضا بالمقدور ساء أم سرَّ.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إرادته قديمةٌ، وزلتنا محدثةٌ، ومراده تعالى من ذنبنا رجوعه إلينا بنعت استقباله علينا، وهذا من كماله محبة عبادة في الأزل.

قال النصرآبادي: أراد لك التوبة فتاب عليك، ولو أردته لنفسك لعلك كنت تحرم.

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡ﴾ أي: أن يخفف عنكم من ثقل أوزار المعصية إذا باشرتم أمره بمراده، وإذا استقبل العبد إلى الله سبحانه في قبول أمره ثقلت عليه النفس، فإذا صبر في العبودية رفع الله أثقال النفس عنه حتى صار مخففًا في عبادته، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهَا

---

(١) إنما ينزل المريد إلى العلوم الرسمية، أو الأعمال الحسية، إذا خشي الانمحاق أو الاصطلام في بحر الحقائق، وإن صبر وتماسك، حتى يتقوى على حمل أعبائها، فهو خير له، لأن الرجوع إلى الحس، لا يؤمن من الحبس، والله غفور لمن تنزل لعلة ما تقدم، رحيم حين جعل له الرخصة، ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾ سلوك الطريق إلى عين التحقيق، ويهديكم طرق الوصول، كما هدى مَنْ قبلكم، ويتوب فيما خطر ببالكم، من الفترة أو الوقفة، والله يريد أن يتعطف عليكم، لترجعوا إليه بكليتكم. [البحر المديد (٤١٦/١)].

لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

ثم إنَّ لطاعته وأمره وقوله ثقل الربوبية بقوله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥] فيرفع الله عن عارفه في مقام المشاهدة ثقل الربوبية والعبودية، ويسهل أمرهما عليه، ويحمل عنه له، قال تعالى: ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ [المزمل:٢٠]، وقال: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١،٢].

وتصديق ذلك قوله : ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ .

قيل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ أثقال العبودية؛ لعلمه بضعفكم وجهلكم.

وقيل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ ما جهلتموه بجهلكم من عظيم الأمانة.

يقال: يخفف عنكم أتعاب الطلب بروح الرضوان.

ويقال: يخفف عنكم كلفة الأمانة بحملها عنكم.

ويقال: يخفف عنكم مقاساة المجاهدات بما يفتح بقلوبكم من أنوار المشاهدات.

قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ أي: عن حمل واردات الغيب وسطوات المشاهدة وكشوف الصفة وضعف هيجانه وهيمانه وزعقاته وشهقاته ودورانه وسيرانه.

قيل: ضعيف الرأي وضعيف العقل إلا من أُيِّد بنور اليقين ، فقوته باليقين لا بنفسه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ هذا خطاب أهل الرفاهية والأنس والروح والبسط، أي: لا تقتلوا أنفسكم المطمئنة بالمجاهدات والرياضات، ولا تحملوا مشقة الجهل في العبودية قلوبكم الروحانية، ولا تؤذوا أرواحكم القدسية بشروعكم فيما لا يليق بالبداية؛ فإنَّ هذه الأشياء تمنع الأرواح العاشقة من طيرانها في عالم المشاهدات، وتغم عليها أنوار المكاشفات.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ أي: كان في الأزل رحيمًا بأوليائه في وضع أثقال العبودية الشاقة عنهم في مقام مشاهدتهم روح قلوبهم بالله.

ألا ترى كيف سهَّل على سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه أمر العبودية بقوله:

﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾، وبيّن أن قربته ووصله تتعلق برحمته السابقة لا بأمانة النفوس وكثرة المجاهدات.

وأيضًا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ الروحانية الملكوتية بمتابعة هوى النفوس الأمارة الشيطانية؛ فإنَّ النفس الروحانية في جوار النفس الأمارة، وإذا علت بهواها على النفس الروحانية أظلمتها بغيم المعصية.

قال بعضهم: لا تهلكوا أنفسكم بارتكاب المخالفات واستكثار الطاعات.

قال محمد بن الفضل: باتباع هواها، قال: فقيل: لا تغفلوا عن حظ أنفسكم، فمن غفل عن حظ نفسه فكأنه قتلها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

ويقال: بنظركم إليها، وملاحظتكم إياها.

وقال علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر -رضي الله عنهم: معناه لا تغفلوا عن أنفسكم؛ فإنَّ من غفل عن نفسه غفل عنه ربه، ومَنْ غفل عن ربه قتل نفسه.

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾[1] الكبائر هاهنا في الإشارة رؤية العبودية في مشهد الربوبية، ورؤية الأعواض في الخدمة، وميل النفس إلى غير الله من العرش إلى الثرى، والسكون والوقفة في مقام الكرامات، وإظهار المقامات قبل بلوغها برسوم الرسومات والخطرات السارقة الجارية بخفيات ضمائر الرضا في بطنان ضمائر الأسرار، وهذه المحن حجبات المعارف من بقي فيها تقاعد عن سلوك المعرفة، واحتجب بنفسه عن نور المشاهدة، وأنَّه تعالى نبَّهنا أن من حجب عنها، وإنْ باشرها يعينه ويؤيده بتخليصه عنها وبرفع الوحشة والكدورة التي بقيت منها في قلبه عن ذلك.

قوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ ومن خرج عن هذه الظلمات أدرك ما فاته من المقامات، وزاد قربه في المشاهدات بقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ والمدخل الكريم: وصال جماله وإدراك لطائف نواله.

قال أبو تراب: أمر الله باجتناب الكبائر، وهي الدعاوى الفاسدة، والإشارات الباطلة، وإطلاق اللفظ بغير الحقيقة.

---

(١) الكبائر -على لسان العلم- هاهنا: الشِّرْكُ بالله، وعلى بيان الإشارة أيضًا الشِّركُ الخَفِيّ، ومن جملة ذلك ملاحظة الخلق، واستجلاء قبولهم، والتودد إليهم، والإغماض على حق الله بسببهم، ويقال: إذا سلم العهد فما حصل من مجاوزة الحد؛ فهو بعيد عن التكفير، ويقال: أكبر الكبائر إثباتك نَفْسَك، فإذا شاهدت نَفْيَها تخلَّصْتَ من أسر المحن [تفسير القشيري (٢١/ ٤٧٢)].

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ التمني هاهنا وصف النفس الأمّارة التي رأت الأشياء بعين الجهل، وقصورها عن حقائق المقادير الأزلية التي سبقت في الجمهور على قدر مراد الله والاستعداد، وذلك التمني وهمها على غير قصد الحق من رؤية هواها، ولو كان طلب القلب سني المقامات من الحق سبحانه بنعت التواضع وصدق الافتقار لكان مما يوجب البلوغ إليه، وذلك قوله: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾.

وأيضًا: زجرًا للضعفاء عن جمال أحكام المجاهدات، ومقام أهل المشاهدات.

وقال بعضهم: لا تتمنوا منازل السادات والأكابر أن تبلغوها، ولم تهذبوا أنفسكم في ابتداء إرادتكم برياضات السنن، ولا إسراركم بالتطهير عن الهمم الفاسدة، ولا قلوبكم عن الاشتغال بالفانية، فإنَّ الله قد فضَّل بهذه الأحوال أولئك، فلا تقربوا إلى الدرجات الأعلى، وقد ضيقتم الحقوق الأدنى.

قال أبو العباس ابن عطاء: لا تتمنوا؛ فإنكم لا تدرون ما تحت تمنيكم، فإن تحت أنوار نعمه نيران محنه، وتحت نيران محنه أنوار نعمه.

قال الواسطي في هذه الآية: إن تمنى ما قدر له، فقد أساء الظن بالحق، وإن تمنى ما لم يقدر له، فقد أساء الثناء على الله بأن ينقص قسمته من أجل تمني عبده.

قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ أمر بالسؤال، ونهى عن التمني؛ لأن السؤال افتقارٌ، والتمني اختبارٌ، والسؤال استرداد النعمة، والتمني الاقتحام في المحنة.

وعرف تعالى طلابه عظم فسحة سرادق كبريائه وجلاله ووسع عطايا أزليته أي: أنتم يا دنيات الهمم لا تنظروا إلى فقيرات الفيض، فإنِّي واسع الفضل والعطاء، لو أعطي ألف جنان في طرفة عين إلى عبدٍ واحدٍ لم ينقص من ملكي ذرةٌ، أين وقعتم من رؤية جلال قدمي وبحار منني، انظروا مني إليَّ، واسألوا زيادة فضلي، فإنِّي وهَّابٌ كريمٌ.

وافهم أنَّ للسؤال مقاماتٌ، ولتلك المقامات آدابٌ ينبغي أن يعرفها العبد، فإنَّ مَنْ ترك السؤال في مقام الانبساط، وسأل في مقام الهيبة استعمل سوء الأدب، ويسقط من عين الله.

ووبَّخ الله سبحانه بهذه الآية أهل دناءة الهمة، والمقصرين في طلب مشاهدته؛ حيث

خاطبهم ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا﴾، فقال: ﴿وَسْـَٔلُوا اللَّهَ من فَضْلِهِ﴾ حجبهم جميعًا بالفضل عن رؤية جماله، ولو كان على محل التحقيق من معرفته ومحبته لم يحملهم إلى الفضل، بل يردهم إلى نفسه، كما وصف صفيه ﷺ؛ حيث عرض إليه الأكوان والحدثان في مقام المشاهدة، ما زاغ سره إليها، بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧].

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَسْـَٔلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾: فإنَّ عنده أنوار كرمه.

قال الواسطي: لو لم يعط إلا على السؤال لكان الكرام ما هو أمر المعروف بالكرم من يبتدئ بالعطاء قبل السؤال.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤) وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (٣٥) وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا (٣٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ فالصالحات العارفات بالله، وبحقوق الله، وبأمر الله، وبعفو الله وبعقوبته، وبما وجب عليهن من حقوق أزواجهن في حسن معاشرتهن معهم، والنصيحة في أمرهم، والقانتات قائمات على باب الله بخلوص نيتهن في عبوديته، والشوق إلى لقائه والتواضع في خدمته.

﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي: ساترات على ما كوشف لهن من أحكام الغيب، وأنوار القرب حتى لا يطَّلع عليهن أحدٌ؛ حياءً من الله، وسترًا على حالهن؛ لئلا يخرجن من حدة الوجد وصفاء الود، ومتابعة قول الله سبحانه بما أمرهن، قال: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب:٣٣].

ولما رقَّت زجاجات قلوبهن بنيران الخوف ونور الرجاء ولطف المراقبة وسناء الشهود ورقة الملازمة في البيوت وشوقهن إلى عالم الآخرة علم النبي ﷺ ذلك منهن، وأمر الحادي

بالسكوت عن إنشاد الشعر فقال: «يا فلان إياك والقوارير»[(١)].

ولا يكون ذلك إلا بما حفظن الله من الغلبات، والخروج من الحجرات، فتولى حفظهن بنفسه، يعني حفظهن أنفسهن بحفظي إياهن، كما أخبر من لطفه تعالى على أم موسى عند غلبات شوقها إلى موسى، فقال: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص:١٠].

وأيضًا: ﴿حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي: ما رأين من أزواجهن من الكرامات وأسرار الله التي انكشفت لهم فلا يقلن عند أحدٍ.

وأيضًا: بما رأين من فقرهم ومجاهدتهم وعبادتهم؛ لئلا يفتتنوا برياء الخلق، ولا يقعن في الشكاية عنهم، وأيضًا: حافظات لفروجهن وعوراتهن من خوف الله؛ فإن خوف الله يمنعهن من هتك الأستار.

قال بعضهم: بحفظ الله لهن صرن حافظاتٍ للغيب، ولو وكلهن إلى أنفسهن لهتكت ستورهن.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ اختلفت طينة الأشباح في التداني والتباعد، وهكذا جوهر الأرواح وقت إيجادها، فوقعت بينها منازعةٌ؛ لتفاوت الأخلاق والحالات والمقامات.

قال ﷺ: «الأرواحُ جنودٌ مجندةٌ، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»[(٢)].

من هنا وقع النشوز والخلاف بين الأزواج؛ لتفاوت السجيات، فإذا جعل بالممارسة والمجاهدة والرياضة صوره طاعة، طاعة الرجال فلا ينبغي أن يطلبوا منهن مرافقة الطباع ومجانسة الأشباح والأرواح؛ فإن ذلك منازعة القدر، وهذا معنى قوله ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: لا تكلفوهن بما لا يكون لهن من تبديل الخلق، قال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم:٣٠].

وقيل: لا تبغوا فيهن المحبة وخلوص النية معكم؛ فإن قلوبهن بيد الله؛ ولذلك قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ هذا قَسَمِي فيما أملك، فلا تؤاخذني بما تملك ولا أملك»[(٣)].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣٥٠)، والديلمي في الفردوس (٥/ ٣٩١).

(٢) رواه البخاري (٣/ ١٢١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١).

(٣) رواه أبو داود (٢/ ٢٤٢) بلفظ: «فلا تلمني» بدلاً من «فلا تؤاخذني».

قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾[1] أمر بشيئين: العبودية والإخلاص في العبودية، ولا تكون العبادة مع الشرك، ولا يكون الإخلاص والتوحيد بغير العبادة، فطلب التوحيد بنعت إفراد القدم عن الحدوث، ونفي الأنداد والأضداد، وطلب العبادة المقرونة بهذا التوحيد؛ لتكون العبادة موافقةً للتوحيد، ويكون التوحيد موافقًا لتنزيه القدم.

خلق النفس مع حظها، وأمر العباد بتقديس حظ اليقين عن اليقين، وكيف يكون تبديل الخلق وطبع النفس أن يكون مائلاً إلى غير الله- تعالى- أي: اطلبوا مني تقديس الأسرار في كشوف الأنوار؛ فإني قادرٌ على أن أزمَّها بأزمَّة الوحدانية، وأسيرها خاضعةً لفردانيتي.

وأيضًا: اعبدوا الله لله، لا على رؤية العوض والعبادة؛ فإنها شرك العارفين، واعبدوه على رؤية التقصير؛ فإنها عبادة الموحدين، وأيضًا: شغلهم منه به، ولو أحبهم بالحب البالغ أسكرهم بشراب القرب والمشاهدة، وأوقعهم في بحار القدم بعد خروجهم من العدم، وهذا آخر الأمر في المحبة والمعرفة؛ ألا ترى كيف وقع بالامتحان من أهل الجنة، وأخبر عنهم بما وجدوا من راحة القرب والمشاهدة بغير نصب الامتحان ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٥].

قال أبو يزيد: إن الله سبحانه نظر في العالم فلم ير أهلاً لمعرفته، فشغلهم بعبادته.

قال أبو عثمان: حقيقة العبودية قطع العلائق والشركاء عن الشرك.

وقال الواسطي: الشرك رؤية التقصير والعزة من نفسه والملامة عليها، يقال له: ألزمت الملامة من تولى إقامتها ومن قضي عليها الشره.

وقال بعضهم: العبودية فناؤك عن مشاهدتك في مشاهدة من تعبده.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ الوالدان: مشايخ المعرفة، وإحسان المريدين إليهم بوضع أعناقهم عند ساحاتهم بنعت ترك مخالفاتهم في جميع الأنفاس مع نشر فضائلهم عند الخلق والدعاء لهم بمزيد القرب.

قال الجنيد : أمرني أبي أمرًا، وأمرني السري أمرًا، فقدَّمت أمر السري على أمر أبي، وكل ما وجدت فهو من بركاته.

قوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: إخوان المحبة من أهل قربة الله.

---

(١) العبادة موافقة الأمر، وهي استفراغ الطاقة في مطالبات تحقيق الغيب، ويدخل فيه التوحيد بالقلب، والتجريد بالسر، والتفريد بالقصد، والخضوع بالنفس، والاستسلام للحكم، ويقال: اعبدوه بالتجرد عن المحظورات، والتجلد في أداء الطاعات، ومقابلة الواجبات بالخشوع والاستكانة، والتجافي عن التعريج في منازل الكسل والاستهانة [تفسير القشيري (١/ ٢٨)].

﴿وَٱلْيَتَـٰمَىٰ﴾ أهل فرقة الله الذين وقعوا في الفترة وآفة الشهوة، واحتجبوا بها عن المشاهدة، فإحسانهم ترغيبهم إلى طاعة مولاهم، وتشويقهم إلى مشاهدة سيدهم مع التلطف والظرافة في دعائهم الله، ومن مات أستاذه قبل بلوغه إلى درجة القوم فهو يتيم المعرفة. والإحسان إليه تربيته بآداب القوم؛ لئلا ينقطع عن الطريق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسَـٰكِينِ﴾ أراد به السالكين غير المكذوبين؛ فإن المساكين سلكوا طريق المقامات بالمجاهدات، وإحسانهم كشف أسرار المشاهدات عندهم لتقع آثار المحبة في قلوبهم، فيسكنوا عن المجاهدات الظاهرة، ويطلبوا الحق بالقلوب الحاضرة والأسرار الظاهرة؛ ليصلوا بطرفة عين إلى مقام لا يصلون إليه بألف سنة بالمجاهدة والرياضة.

وأيضًا: المساكين الذين وقفوا على باب العظمة، وتاهوا في أودية الصفة، وتحيروا في بيداء القدم، ولم يجدوا سبيلاً إلى مرادهم الكلي لظهور النكرة في المعرفة، والمعرفة في النكرة، فأمر الله سبحانه أن يواسيهم بما يفرج عنهم أثقال العظمة بروح القلوب، وذلك المجالسة بالسماع مع صوت طيب ورائحة طيبة بين كرام المعارف وأشراف الكواشف؛ ليستأنسوا بسماع ساعة كي لا يحترقوا بنيران الكبرياء.

قال ﷺ: «رَوِّحُوا قلوبَكم ساعةً فساعة»[1].

أمرهم بالنشاط بالله على الله؛ لعلمه باحتراق أهل الإجلال والعظمة؛ فأشفق عليهم، وأمرهم بالتوسع ، وفتح عليهم باب الرخص زيادة تشوقهم ومحبتهم جماله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي: أحسنوا إلى من كان مقامه موافقًا لمقاماتكم؛ لأنه في طريق المعرفة جار قربة الله، وهو قرابتكم في محبة الله.

وأيضًا: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو الروح الناطقة العارفة العاشقة الملكوتية، التي خرجت من العدم بتجلي القدم، وانقدحت من زنود الأزل، وهي أقرب كل شيءٍ منك، وهي جار الله، وهي مصبوغةٌ بصبغ الله، وهي في يمين الله، قال ﷺ: «الأرواح في يمين الله»[2]، ومعذبها من قلبك منظر نور التجلي، ومسكن نور سنا التدلي، وإحسانها أن تطيرها بجناح المعرفة والشوق والمحبة إلى عالم المشاهدة، بعد أن تطلقها من قيد الطبيعة، وتقدس سكنها من حظوظ البشرية، وهي أقرب القرابة منك؛ لأنها أصل قيامك، وأنت قائمٌ بها.

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ هو المُريد المبتدئ، فإحسانك إليه أن ترغِّبه إلى سلوك مدارج

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٢٥٣).

(٢) ذكره المصنف في مشرب الأرواح (ص٧٨)..

الصدِّيقين العارفين، وتنشر له مطويات أسرار المحبين وفضائل أحوال المشتاقين.

وأيضًا: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ صورتك التي هي حاملةُ الروح، والإحسان إليها أن تفطم جوارحها من حظوظ المعاصي والشهوات.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ يعني رفيقك في سفر الغيب، الذي هيَّجه حب الله إليه، وشوقه معرفة الله إلى معرفة الله؛ فأنفاسه أنفاسك، وسرُّه سرُّك، ومقامه مقامك، وهو قرينك في غربة الأزل، وأسفار الأبد، وإحسانك إليه؛ إذ كاد ينقطع بلذة المحبة من المحبوب، لن تخوفه من مكره، وترغبه إلى طلب الفناء فيه.

وأيضًا: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ هو قلبك، وإحسانك إليه أن تفرده من الحدثان، وتشوقه إلى جمال الرحمن.

وأيضًا: ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ هي النفس الأمَّارة بالسوء، التي قال سيد المرسلين وإمام العالمين محمد ﷺ: «أعدى عدوِّك نفسُك التي بين جنبيك»[1]، وإحسانك إليها أن تحبسها في سجن العبودية، وتمنعها عن الشهوة، وتحرقها بنيران المحبة، وتزر ترابها برياح المعرفة، حتى لا يبقى في جار الله غير الله.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: غريب الله في بلاد الله؛ حيث لا يعرفه سوى الله، الذي يتطرق إليه من نور الأفعال إلى نور الصفات، ومن نور الصفات إلى نور الذات، وهو في غربة الآزال والآباد لا يذكر روعته ولا يطفئ حرقته، ويزيد تحيره وتغربه، لا يعرفه أحدٌ يواسيه، قال عليه السلام: «إنْ حضروا لم يعرفوا، وإن غابوا لم يفتقدوا»[2].

وزاد في وصفهم: لا يفتح لهم السدد، ولا يروحهم المنعمات، أنوار قلوبهم أنور بنور الشمس، والإحسان إليهم بدر المهجة بين أيديهم، وزيادة الاستطابة في أوقاتهم، ودفع الأغيار عن صحبتهم، حتى لا يطَّلع عليه أحدٌ يمنعهم من أحوالهم ساعة.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ﴾ أي: مريدوكم الذين هم أرقَّاء الإرادة، والإحسان إليهم تربيتهم في طريق الله بآداب الله، ونشر كرامة الله عندهم، ودعاؤهم إلى طريق الرجاء؛ لأن الراجي طيارٌ، والخائف سيارٌ، وتعليمهم طريق المشاهدة بلزوم المراقبة.

وذكر سهل بن عبد الله في تفسير هذه الآية قال: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو القلب، و﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ هو النفس، ﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ العقل الذي ظهر على اقتضاء

---

(١) رواه البيهقي في الزهد الكبير (٢/ ١٥٧).

(٢) ذكره ابن الجوزي في صفوة الصفوة (٤/ ٢٥٠).

السُّنّة والشرع، ﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ والجوارح المطيعة لله.

وقال الأستاذ في قوله ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنْبِ﴾ من جيرانك ملكان، فلا تؤذيهما بعصيانك، وراعِ حقهما بما يصل إليهما من إحسانك.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَـٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ من عرف الله وشاهد صفاته وبدا له حقائق المحبة، ولم يطق أن يبذل نفسه لله وفي الله، فهو بخيلٌ، ولم يذق حلاوة المحبة بحقائقها، ومن كشف الله له أحكام الملكوت، ولا يذكرها عند المشتاقين إلى لقائه، فهو بخيلٌ، ومنع الأساتذة والمشايخ عن بيان حقائق طريق الله عن المريدين، فهو معاتبٌ بهذه الآية، وتصديق ما ذكرناه قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ فضله: معرفته ومحبته، ورؤية نوال قربه ولطف بره.

قيل: الذين يمنون بالعطاء، ويطلبون من الناس الثناء عليهم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: من البراهين الصادقة.

وقال بعضهم : لا يشكرون نعمة العافية عليهم.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أخبر عن تنـزيه جلاله وتنـزيه نواله عن النقص على المحسنين، وبشَّر في تضعيف الآية الذين يظنون أعمالهم الصالحة لا تقع موقع القبول، ولا يجدون ثوابها بأنه تعالى يثيبهم على ذلك بأحسن ما يحبون منه؛ لأن علمه تعالى محيطٌ بما كان وما سيكون، لا يعزب عن علمه مثقال ذرةٍ من العرش إلى الثرى، لا ينقص ثواب الصادقين، وإن كان أقلَّ من ذرةٍ؛ لأنه خالقُ ذلك، وكيف يخفى عليه ذلك، وهذا إخبارٌ عن كمال علمه وقدرته جميع المخلوقات، وفيه إذا كان المرء مسيئًا فتاب هو تعالى يبدِّل سيئته حسنةً، فكيف إن كان محسنًا؟ فهو يقبل الحسنة منه، ويثيبه بها بعشرات أمثالها، وأن يعطيه جميع درجات الجنان بلا حسنةٍ، فهو أهلٌ له؛ لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة.

والحسنة ههنا توحيد الله، وإذا كان صادقًا مخلصًا في ذلك فدرجاته مضاعفةٌ على درجات غيره من العامة، ثم أخبر أنه تعالى يتفضَّل على عبده الصادق بلا سبب من عند كرمه

وجلاله ما لا يحصي عدده من نوال قربه، ومشاهدته بقوله: ﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ والأجر العظيم: مشاهدته.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ أخبر تعالى عن مقام جلاله ﷺ في مشاهدته تعالىٰ حيث شاهده جمهور الأنبياء والصديقين، وبيَّن عن عظيم خوفه في قلوب الجميع، ووضع هاهنا الرغبة والرهبة معًا؛ لأن العارف إذا قرب من البساط يغلب عليه التعظيم والإجلال والرغبة والرجاء؛ لأن شهود أنوار قربه يقتضي هاتين الحالتين، أي: كيف حالك في رؤية القدم، وأنت لا أنت، وكيف حال هؤلاء عند بروز سطوات عظمته، وهم في حد الفناء في رؤية كبريائي؟ وكيف حال الأنبياء والصديقين قبلك وقبل أمتك في ميادين عزتي وجلالي، إذا كان حالك وحال أمتك بهذه الصفة؟ أي: فكيف تشهد الشهداء والمشهودين عليهم حين أبرزت وجهي الكريم؟ كيف تشهدون على الأمة في وجهي وكشف جمالي؟ وكيف تبقي الأمة عند فناء الأنبياء؟ أما مقام الرهبة فيها فإن الله سبحانه لما كشف بعد حواشي سرادق كبريائه من الأنبياء والصديقين وقع عليهم البهتة والتحير والفناء من عظمته وسطوة عزته، فلا يبقى أحدٌ منهم إلا أن يكون مضمحلاً في نفسه، فخاطب على وجه التعجب، أي: كيف يقومون بإيذاء كشف جمالي بنعت

الرضا، وأنتم على شبه السكارى حيارى من حلاوة لذة جمالي؟.

وفي الحديث المروي: إن النبي ﷺ أمر ابن مسعود ببعض قراءة القرآن عنده، فقال: يا رسول الله أُنزل عليك القرآن، وأنا أقرأ عندك، فقال ﷺ: «أنا أحبُّ أن أسمعه من غيري، فقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلى قوله: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ فوضع النبي ﷺ يده على ابن مسعود وقال: إلى ههنا، وبكى بكاءً شديدًا حتى اضطربت لحياه»[١].

وفي رواية أنه ﷺ صاح صيحة عند سماع هذه الآية، وبيَّن في وجده ﷺ هاتين المنزلتين.

وأيضًا: بيَّن شرف نبينا ﷺ وأمته وشرف الأنبياء وأممهم، وألا يخفى عليه شيءٌ من العرش ليستره.

قال بعضهم: ﴿وَجِئْنَا﴾ من كل أمة بوليٍّ وصديقٍ، ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ مصدقًا لولايتهم أو مكذبًا لها، قال الله تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ﴾ هذا خطابٌ لأهل العشق والمحبة والشوق الذين أسكرتهم أنوار القدوسية، وسبحات السبوحية وسطوات العظمة، وشربات بحار الأزلية، ولطائف كشوفات القدمية، وهم حيارى سكارى، تائهون في مشاهد الجلال والجمال، فغالب أحوالهم العبرات والغلبات والزعقات والشهقات، والهيجان والهيمان، لا يعرفون الأوقات، ولا يعلمون الليل من النهار، ولا النهار من الليل، لا يقدرون في حال سكرهم أي: ماتوا على شرائط الصلاة من القيام والقراءة والركوع والسجود، كهشام بن عبدان، وبهلول، وسعدون، وجميع عقلاء المجانين.

أي: أيها العارفون بذاتي وصفاتي وأسمائي ونعوتي السكارى من شراب محبتي وسلسبيل أنسي وتسنيم قِدمي وزنجبيل قربي وخمور عشقي وعقار مشاهدتي إذا كشفت لكم جمالي وأوقعتكم في مقام ربوبيتي فلا تكلفوا أنفسكم أمر صورة الظاهر؛ لأنكم في جنان مشاهدتي، وليس في جنة جلالي تعبُّدٌ، حتى سكنتم من سكركم، وصرتم صاحين على نعت التمكين، فإن جنون العشق يرفع قلم التكليف عن مجنون محبتي، فإذًا تصلون وتقربون مقام البدايات على حدِّ الصحو، وإن كنتم مضطربين من خمار ذلك السكر، لأنَّ السكران

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٦٧٣)، ومسلم (١/ ٥٥١).

والصاحي يذهبان عن صورة العقل إلى عالم العشق، عند طلوع جلال عظمتي، من مطالع قدمي في عيون أبصار أسرارهم، فعند ذلك يستوي حالهما:

إذَا طلَعَ الصباحُ لِنجمِ رَاحَ   تَساوَى فيهِ سَكرَان وَصَاحِي

وكشف غمة إبهام المبطلين، الذين يطعنون إشاراتنا لقلة أفهامهم بها؛ حيث قال:﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ ذكر القربة، وما قال: لا تصلوا، وشرط فيها السكر، والسكر خطراتٌ، والصحو وطناتٌ، وإذا أبقى العقل الإلهي في إشراق أنوار سلطان المشاهدة ذرة فينبغي أن يصلي، ويؤدي حق الأوقات، فإنَّ بعض مشايخنا لما حان عليهم وقت الصلاة وهم في وجد وحالة قاموا إلى الصلاة، ومريدوهم عدوا ركعاتهم وسجداتهم وركوعاتهم فإذا سهوا عن شيء ذكَّروهم ذلك، وهذا من كمال ظرافتهم في المعرفة.

وأيضًا: خاطب أهل الغفلة وسكارى الجهل من شراب الهوى والشهوة ألا يأتوا إلى مقام مناجاته وقربه ومشاهدته حتى يخرجوا منها؛ فإن الغافل لا يؤدي فرائضه على شرائط السنة.

قال الواسطي : لا تقرب إلى مواصلتي إلا وأنت منفصلٌ عن جميع الأكوان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾ .

قوله تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ مكان الآية مكان الخوف والرجاء، أخبر أنه غفر عن العام جميع المعاصي الصغائر والكبائر دون الشرك الجلي الذي يستوجبون به النار، ولم يشترط التوبة هاهنا، ولم يبين مكان الغفران، وفيه رجاءٌ، وهم بعدم الشرطين؛ لأنَّه يغفر ذنوبهم في الدنيا، ولم يذكرها عندهم في الآخرة؛ لطفًا وكرمًا إن لم تصادف المعصية الشرك، وشدَّد الأمر على الخواص بمؤاخذته إياهم؛ حيث تفحَّص أمر الخطرات المخفية من رؤية الطاعة وأعواضها، وحب الجاه والمحمدة والرياء والسمعة، بيَّن أن ما دون هذه الأشياء منهم مغفورٌ من العثرات والزلات، فإنها غير نقض عهد المحبة والمعرفة، وإنهم مأخوذون بالشرك الخفي، فهو خطرات الرياء والشك في الطريق،

وأراد تعالى بذلك أنهم محاسبون به في جميع الأنفاس، فإن بقوا في ذلك لمحة عاقبهم الله بذلك الحجاب، وهذا إذا كانوا غافلين عن تلك الخطرات، أما إذا استدركوها بعد جريانها ولم يغفلوا عنها برد الخاطر ورد وسوسة العدو بذكر الله ونشر صفاته والتفكر في آلائه ونعمائه بفسح قلوبهم بأنوار ذكره حتى تداركوها بالخجل ورؤية تقصيرهم بالمراقبة والحضور، فبعد ذلك تنتشر أسرار الألوهية وأنوار الربوبية في صدورهم، قال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢]، فبتلك الأنوار والأسرار عمروا طرق المعارف والكواشف.

قال بعضهم في الآية : أن يطالع سره شيءٌ سوى الله.

وقال بعضهم : إن رؤية العمل ورؤية النفس وطلب المدح عليه كلها من أنواع الشرك الذي أخبر الله أنه لا يغفره، قال رسول الله ﷺ حاكيًا عن ربِّه: «مَنْ عَمِلَ عملًا أشرك فيه غيري، فأنا منه بريءٌ»[1].

قال الأستاذ : العوام طولبوا بترك الشرك الجلي، والخواص طولبوا بترك الشرك الخفي.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ شكا سبحانه عن أهل الدعاوى الباطلة، الذين يراءون الناس، ولا يذكرون الله، سمعوا كلام الأولياء، وباعوا على سوق السالوسيين، وأضافوا حقائق الصديقين إلى أنفسهم، وأشاروا إلى مقام الرياضات والمجاهدات بغير علم، ولم يشموا رائحة الصدق، ومع هذه العيوب يرون أنفسهم عنها، فرَّد الله عليهم بقوله: ﴿يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي: يلبس أنوار تنزيهه أولياءه وأصفياءه، فيقدِّسهم به عن كل سوءٍ، وعن كل خاطرٍ غير سبيل الحق.

قال بعضهم: ليست الأنفس بمحل التزكية، فمن استحسن من نفسه شيئًا، فقد أسقط من باطنه أنوار اليقين.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ وبَّخ الله تعالى أهل ظاهر العلم، الذين اختاروا الرئاسة، وأنكروا على أهل الولاية، وآثروا صحبة المخالفين، يقبلون هواجس نفوسهم التي هي الجبت، ويخطون آثار الطاغوت التي هي إبليس.

قال سهل بن عبد الله: رأس الطواغيت نفسك الأمَّارة بالسوء إذا خلا العبد معها عن العصمة.

---

(١) رواه ابن ماجه (٢/ ١٤٠٥)، وأحمد (٢/ ٤٣٥).

وقال ابن عطاء: أُعطوا الكتاب حجة عليهم لا كرامة لهم.

قال بعضهم: الجبت مرادك، والطاغوت هيكلك.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ أخبر عن حسدة الأولياء، الذين يرون الناس الهيبة والوقار على الصديقين، وهم معظمون به في عيون الخلق، وهم يحسدون بهم وبكراماتهم وولايتهم، فإذا ذكر الخلق أوصافهم يدفعونه بإنكار عليهم، وفضل الله معرفة الله وكراماته.

قال بعضهم: الفضل هاهنا الكرامات والولايات والمشاهدات، يكذبون صاحبها ولا يعظمونه.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ الملك العظيم: النبوة والولاية، التي تشتمل على فنون الحقائق من الفراسات والكرامات، ورؤية الغيب وكشف الأسرار.

قيل: إشرافًا على الأسرار.

وقيل: فراسة صادقة.

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾ وصف المقبلين والمدبرين مقبلين بنعت الإرادة في حق الأولياء، ومدبرين بوصف الإنكار عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: في مشاهدة صفات الأزلية ورؤية جلال ذاته سبحانه.

وأيضًا: الظل الظليل: عنايته الأزلية، وكفايته الأبدية، ورعايته السرمدية.

قال بعضهم: التفويض، وهو محل الراحة والأمن في الدارين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (١) الأمانة: عهد الله الأزلي، الذي عاهد به أرواح أهل القرب في مشاهدة جماله؛ حيث قبلت الأرواح من الربوبية سمات العبودية، ومن المشاهدة لطائف المحبة، ووجدت أسرار الملك والملكوت عند سرادق الجبروت، فكتمتها عن الأغيار، فلما تلبست بالأشباح كادت تفشيها من الضعف عن حملها، فأمرهم الله بكتمانها عن الخلق حتى يؤدونها إلى الحق سبحانه عند كشف جماله في الآخرة؛ لأنه تعالى أهل تلك الأمانة، وذلك قوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] لأنه أيضًا أمرهم بإظهار ما كوشف لهم من أحكام الغيب عند العارفين وكتمانها عن الجاهلين.

قال الجريري: أفضل الأمانات أمانة الأسرار، فلا يظهرها ولا يكشفها إلا لأهلها؛ لأنهم أهل الأمانة العظمى.

قال بعضهم : الأمانة أسرار الله، وأهل الأمانة هم العارفون بالله والعالمون بأسراره، وهم الناظرون إلى القلوب بأنوار الغيوب، فيحكمون عليها، حقق الله أحكامهم، وهو الذي قال الله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾ جعل الله تعالى الطاعة على ثلاث مراتب، وهي في الأصل واحدٌ؛ لأنَّه مرجع الكل، وكل طاعة منها مخصوصةٌ بمقامٍ من مقام الولاية، فإذا كان أهلًا لبساط القربة وفهم خطاب الحق بلا واسطة

---

(١) ردُّ الأمانات إلى أهلها تسليم أموال الخلق لهم بعد إشرافك عليها بحيث لا تفسد عليهم، ويقال لله سبحانه وتعالى أماناتٌ وَضَعَها عِنْدَك؛ فردُّ الأمانة إلى أهلها تسليمها إلى الله سبحانه سالمةً مِنْ خيانتِكَ فيها؛ فالخيانة في أمانة القلب ادعاؤك فيها، والخيانة في أمانة السِّرِّ ملاحظتك إياها، والحُكْمُ بين الناس بالعدل تسويةُ القريب، والبعيد في العطاء والبذل، وألا تحملك مخامرةُ حقدٍ على انتقام لنفسٍ [تفسير القشيري (١/ ٤٩١)].

أطاعه بمراده بلا واسطة، وإذا لم يبلغ إلى تلك الدرجة ولم يفهم حقائق رمز الله يرجع إلى بيان نبيه ﷺ؛ لأنه بيَّن غوائص خطاب الله، وأطاعه فيما أمر، وذلك طاعة الله بواسطة نبيه، وإن لم يبلغ إلى فهم خطاب النبي ﷺ واستنباطه إشارته يرجع إلى بيان أكابر علماء أمته من أصحابه وغيرهم من الأولياء والصديقين والعارفين؛ لأنهم بيَّنوا خطاب رسول الله ﷺ.

وأيضًا: هذا طاعة الله بوسيلة أولي الأمر والأنبياء والملوك في الدنيا مساقط ظل الله، ومن أراد أن يرى بهاء الله وآثار عظمته فلينظر إليهم، قال ﷺ: «**السلطانُ ظلُّ الله في الأرضِ**»[1]، وقال: «**الملكُ والنبوةُ توأمان**»، ومن التبس بظل الله صار أمره أمر الله، وهاهنا أشار عين الجمع.

وفي الآية إشارةٌ: أي: إذا بلغتم مقام خطاب الخاص من العلوم المجهولة المشكلة اسلكوا مسلكها بغير الواسطة، كالخضر كان متابعًا للعلم اللدني في الخارج عن أمر الظاهر، مثل قتل الغلام، وكسر الألواح، وهذا خاصٌّ لمن وقع له سهم الغيب، ومن بلغ مقام التوحيد ومرتبة الاستقامة لسلك مسلك الأنبياء في مباشرة التوسع والرخص كالأنبياء، مثل سليمان وداود ﷺ ويوسف ﷺ ومحمد ﷺ، وهذا منزل الاقتداء، ولا يصلح هذا للمتكلفين، ومن فتح له باب بيان علم الحقائق يتكلم بإصلاح علماء الله، فإن سلوك مسالكهم لمن له فهم الغيب طاعةٌ معروفةٌ وأسوةٌ حقيقيةٌ، وكل ما ذكر فهو تفسير قوله تعالى: ﴿**أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾.

وعن جعفر بن محمد قال: ﴿**أَطِيعُواْ ٱللَّهَ**﴾ بالرضا بحكمه، ﴿**وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ**﴾ في المجاهدة في الوفاء بأمره والسر مع الله والظاهر مع رسول الله ﷺ.

وقال محمد بن علي: أطع الله، فإن تملك ذلك، وإلا فاستعن بطاعة الرسول ﷺ على طاعة الله، فإن وصلت إلى ذلك، وإلا فاستعن بطاعة الأئمة والمشايخ على طاعة رسول الله، ولا تسقط عن هذه الدرجة فتهلك.

قال الجنيد في تفسير هذه الآية: العبد مبتلى بالأمر والنهي، ولله في قلبه أسرارٌ تخطر دائمًا، فكلما خطر خاطرٌ عرضه على الكتاب فهو طاعة الله، فإن وجد له شفاءً، وإلا عرضه على السنة، وهو طاعة الرسول، فإن وجد له شفاءً، وإلا عرضه على سر السلف الصالحين، وهو طاعة أولي الأمر.

قال أبو سعيد الخرَّاز: العبودية ثلاثةٌ: الوفاء لله بالحقيقة، ومتابعة الرسول في الشريعة،

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٦/ ١٦).

والنصيحة لجماعة الأمة.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: إذا وقع عليكم حكمٌ من أحكام الغيب المتشابه وتظهر في أسراركم معارضات الامتحان فارجعوا إلى خطاب الله ورسوله؛ فإن فيها بحار علوم الحقائق، فكل خاطرٍ لا يوافق خطاب الله ورسوله فهو مردودٌ ولا تعتبر به، وإذا أشكل عليكم خطاب الله ورسوله من علم الإشارة فقيسوه بظاهر الكتاب والسنة، فإن في الظاهر إعلام الباطن.

قيل: فإن أُشكل عليكم شيءٌ من أحوال الكبراء والسادة واختلفتم فيها فاعرضوا ذلك على أحوال الرسول، وردوه إليه، فإن لم يتبين لكم فردوه إلى الكتاب المنزَّل من ربِّ العالمين.

قال النصرآبادي: إن علمنا لا يصلح إلا لمن له علم الكتاب والسنة، وله معاملةٌ واردةٌ، ومع ذلك يكون له ظرفٌ ونظافةٌ.

﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ وَقُل لَّهُمۡ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَوۡلَۢا بَلِيغٗا ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكَيۡفَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ﴾ المصيبة التي أصابتهم هي جزاء إنكارهم على النبي وأصحابه، ومصيبتهم احتجابهم بأنفسهم عن بلوغهم إلى مقام الولاية والمعرفة، وأعظم المصائب عند القوم الانقطاع عن الله، والتحير عن وجدان السبيل إليه.

قيل : أعظم المصائب اشتغالك عن الله، وأعظم الغنائم اشتغالك بالله.

قال أبو الحسين الوراق: أعظم المصائب سقوط الحرمة من قلبك، ونزع الحياء من وجهك، وثقل السنن على جوارحك.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَعِظۡهُمۡ﴾ يسلِّي قلب نبيه ﷺ بقوله: ﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ أي: لا تهتم، فأنا أجازيهم بما في صدورهم، فأحجبهم عن كل مرادهم في الدنيا والآخرة، فأعرض عنهم أي: اترك صحبتهم وصحبة كل

جاهلٍ غافلٍ، وعظهم على قدر فهومهم، فإن موعظتك لهم عقوبةٌ، حيث لم يعرفوها، ولم يتبعوها حق الاتباع.

قال الواسطي: أعرض عن الجهَّال، وعظ الأوساط، وأخبر بعيوب الأشراف، وخاطب كلًّا على قدر طاقته.

وقيل: أعرض عنهم بقولك، وعظهم بفعلك.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا﴾ أي: صفني بالعظمة والكبرياء واستغنائي عن كفرهم وإيمانهم، وبعدهم الأبدي عني حين احتجبوا عني بحب الرئاسة، والإنكار على الأنبياء والصديقين.

قال الجنيد: كلِّمهم على مقادير العقول ومحتمل الطاقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أخبر الله سبحانه عن قومٍ نقصوا حظ أنفسهم منه باشتغالهم بحظ أنفسهم من الكون، وعن مرارة قلوبهم بمر البعد، لو يخرجون من ظلماتها وحجابها إلى أنوار رؤية النبي ﷺ يبصرون في وجهه طلعة جلالي وجمالي، فيخرجون في رؤيته عن اشتغالهم بالكون، فيرجعون من أنفسهم بنعت الخجل والحياء إلى ساحة كرمه، ويقفون على باب عظمته مرهونين باستغفار النبي ﷺ؛ لأن عليهم بقايا الذنوب من ترك الحرمة في ديوان النبوة، التي لا ترفع عنهم إلا بشفاعته ﷺ، فإذا كانوا كذلك يجدون الله بنعت الإقبال عليهم، وقبولهم وإرشادهم بنفسه إلى نفسه.

قال ابن عطاء في هذه الآية: أي لو جعلوك الوسيلة إليَّ لوصلوا إليَّ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ بيَّن الله سبحانه أنه ﷺ سبب إيمان الكل، والإيمان به يكون بمحل الإيمان بالله، وقد أشار ههنا إلى مقام الاتحاد وعين الجمع، وأقسم بنفسه تعالى على ذلك؛ إعلامًا بأن الحبيب والمحبوب واحدٌ في المحبة، وبيَّن أن حقائق الحكم ودقائق الدين لا تظهر إلا عنده؛ لأنه لسان بيان الحق في العالم، ونفى الحكم عن غيره من الجبت والطاغوت، الذين قرأوا الكتب ولم يظفروا بحقائقها.

وصرح في بيان الآية أن من أسلم وسلم الحكم إليه لم يبلغ حقائق الإيمان إلا بسلامة الصدر وسكونه عند قبوله أمره؛ لأن الطمأنينة هي موضع اليقين، وحقيقة الإيمان هو اليقين، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾.

قال أبو حفص: رضي الله تعالى من عباده لنفسه بظاهر القول، ولم يرض لنبيه ﷺ إلا

بإخلاص القلب، والرضا بحكمه ساء أم سرَّ، ومن لم يكن للنبي ﷺ مستقيمًا ظاهرًا وباطنًا وسرًّا وعلنًا وحقيقة ورسمًا كان بعيدًا عن حقيقة الإسلام ومراتب المسلمين.

قال عبد العزيز المكي: أقسم الحبيب للحبيب بالحبيب أنهم لا يؤمنون حتى يحكموك، فيا لها من شرفٍ، ويا لها من كرامةٍ حارت فيه أوهام الخلائق، وجعل نفسه لنفسه، وجعل الرضا بحكمه كالرضا بحكمه ما وجب على خلقه الرضا، والتسليم بحكم نبيه ﷺ، كما أوجب عليهم الرضا والتسليم بحكمه، فهكذا إنسان المتحابين.

قال بعضهم في هذه الآية: أظهر الحق على حبيبه خلعةً من خلع الربوبية، فجعل الرضا بحكمه ساء أم سرَّ سبيلًا لإيمان المؤمنين، كما جعل الرضا بقضائه لإيقان الموقنين، فأسقط عنه اسم الواسطة؛ لأنه متصفٌ بأوصاف الحق متخلقٌ بأخلاقه؛ ألا ترى كيف قال حسان: «فذُو العَرْشِ محمودٌ وَهَذَا مُحمدُ»[1].

قال الأستاذ: سدَّ الطريق إلى نفسه على الكافّة إلا بعد الإيمان بمحمد ﷺ، فمن لم يمشِ تحت رايته فليس من الله في نفسٍ.

ثم جعل من شرط الإيمان زوال المعارضة بالكلية بقوله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ﴾، فلا بدَّ لك من ملقي المهالك بوجه ضاحك.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَـٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَـٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَـٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَـٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ

---

(١) رواه البخاري في التاريخ الصغير (١/ ١٣).

ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ شكا الله سبحانه عن أحبائه بهذه الآية، وتقصيرهم من بذل نفوسهم لرضائه إعلامًا منه للمحبين أنهم لن يصلوا إليه إلا بإيثار مراده على مرادهم، وهذه الشكاية لا تكون من محل إيمانهم؛ لأنهم بحمد الله على الصدق والإخلاص والإيمان واليقين وصلوا إليه، لكن أخبر عن معارضة نفوسهم عند نزول البأس إلا الأقوياء والمستقيمين في المحبة بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾.

ثم أخبر أن قتلهم النفوس بالرياضات والمجاهدات والهجرة من الخطايا والذنوب، وهجران السوء من أمارات محبة الله.

قال محمد بن الفضل: ﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بمخالفة هواها، أو ﴿ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم﴾ أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم، ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ في العدد، كثيرٌ في المعنى، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة، وقرن سبحانه مقام المجاهدة بمقام المشاهدة، وبيَّن أن من قصَّر في واجب حقوقه لم يبلغ إلى معالي الدرجات.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: بقاؤهم في مشاهدة الله خيرٌ من بقائهم في الدنيا مع نفوسهم، ورهن الوصول بقتل النفوس بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟﴾، وزاد الوضوح بالآية الثانية في شرح ما ذكرنا بقوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الأجر العظيم مشاهدته الأزلية وكشفه الأبدي.

﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾: الإرشاد إلى معارف طرق الصفات، والفناء في بقاء الذات، تعالى الله عن كل إشارةٍ وإيماءٍ، والصراط المستقيم المعرفة بعد المعرفة بعد النكرة، وإفراد القدم عن كل العلة.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾ إنَّ طاعة الله لا تحصل بحقائقها إلا بعد مشاهدة الله؛ لأن حقيقة الطاعة لا تكون إلا من المحبة، ولا تكون المحبة إلا بعد الرؤية، والمشاهدة أي:

من أطاع الله محبة الله في رؤية الله، لقوله ﷺ: «تعبدَ الله كأنَّك تراه»[1]، وطاعة الرسول بمعرفة الرسول من معرفة الله، أي: بلغ طاعته إلى هذه المراتب، فهو أهل الله، وهو شبيه أنبيائه وشهدائه ورسله وأوليائه، ويكون في الدنيا والآخرة رفيقهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ إنعام الله على النبيين مداناتهم ومشاهداتهم وعلومهم بذاته وصفاته تعالى، واستشرافهم على خزائن ملكه وملكوته، وإنعامه على الصديقين إعطاؤهم سني الكرامات، وفتح أبصارهم بأنوار الصفات، وإنعامه على الشهداء كشف جماله لهم دية لدمائهم، وإنعامه على الصالحين إبراز لطائف بره لهم ليألفوه بها، ويستقيموا في الحضرة بالخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ معناه حسن مرافقتهم مع المطيع لله، وحسن مرافقة الله مطيع الله لهم؛ لقرب منازلهم ودنو مقاماتهم بعضهم بعضًا؛ لأن المرافقة لا تحسن إلا بموافقة المقامات، والأنبياء هم الذين سمعوا أنباء الله بسمع الخاص، والصدِّيقون هم الذين مع الله بحسن الرضا، ومشاهدة نور البقاء، والشهداء المقتولون بسيوف محبته في معارك سطوات عظمته، والصالحون هم الذين خرجوا من محن الامتحان، وظفروا بنعمة الجنان، والروح والريحان، ويتراءون هلال جمال الرحمن، ولم يذكر المرسلين؛ لأنهم في الغيب غائبون وعن غيب الغيب غائبون، آواهم الله في ستره، لا يطَّلع عليهم أحدٌ من خلقه إلا عند بروزهم من الحضرة.

قال فارس: أدنى منازل الأنبياء أعلى مراتب الصديقين، وأدنى منازل الصديقين أعلى مراتب الشهداء، وأدنى منازل الشهداء أعلى مراتب الصالحين، والصالحون في ميدان الشهداء، والشهداء في ميدان الصديقين، والصديقون في ميدان الأنبياء، والأنبياء في ميدان المرسلين.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾.

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٩٣).

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَـٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ كما أن في الآية تخويفًا لمحب الدنيا، وترغيبًا لطالب العقبى الذي هو مطيع الله بنعت التقوى.

وأيضًا: فيها إشارةٌ إلى أن العارف أخذ التوسع، وألف الرخص بعد احتراقه في المجاهدة والرياضة بنيران المحبة؛ لأنه لا ينكر عليه أحدٌ لم يبلغ إلى درجته، فإن الدنيا بأسرها لو كانت ذهبًا وجواهر ومسكًا وعنبرًا وورداً وريحانًا ونساءً ومركبًا وثيابًا حسنة ومجالس رفيعة قليلة في جنب ما يحتاجه إليه؛ لأنه يريد أن يسلِّي قلبه في فراق محبوبه بشيءٍ مستحسنٍ من الحدثان، ولا يكفيه جميع المستحسنات من العرش إلى الثرى، فكيف بشيء قليل من قليل، وإن الله سبحانه يسلي فؤاده بقوله: ﴿وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: لمن يصبر في مجاهدته وشوقه إليَّ من الاستئناس بهذه المستحسنات القليلة؛ لأن في الآخرة كشف جمالي له، الذي هو راحةٌ لا راحة فوقها، كما قال ﷺ: «لا راحةَ للمؤمن دون لقاء الله»[1].

قال الواسطي: هوَّن الدنيا في أعينهم؛ لئلا يشق عليهم تركها.

قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ ظاهره تخويفٌ للمخالفين، وباطنه توجيهٌ للمشتاقين، أي: لا تخافوا أيها المشتاقون إلى لقائي؛ فإني آتيكم بأحسن ما تظنون بي، فأريحكم من سجن الدنيا، وأوصلكم إلى مجلس وصلتي أينما كنتم، فأنا معكم، فإذا حان وقت القربة أسلبكم من أيدي المنايا، وموتكم خروج أرواحكم بظهور مشاهدي كحجر المغناطيس حيث يظهر بجذب الحديد إليه.

وفيه إشارةٌ: أي: لو طرتم بجناح الروحانية فوق الملكوت لتكون أجسامكم كأرواحكم يدرككم سطوات عظمتي منزل أرواحكم من أجسامكم؛ لأن الأجسام الترابية لا تقوم بإزاء كشف عظمتي إلا بترتيبي إياها في مواقف العرض الأكبر، ومثل هذا الموت يكون فرح المؤمن العارف به، وهو بشارة الحبيب له، يبشره بوصله وقربته، و«مَنْ أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه»[2].

بَشِّرْ أَحبَّائِي أَنَّ المـوتَ رَاحتُهم والمـوتَ وصلتُهمُ والمـوتَ تقريبُ

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ وبَّخ الله المفلسين الذين سقطوا من عينه وحفظه وكلاءته حتى إذا أتت إليهم راحة أقبلوا إلى الله من فرح النفوس ولذة الشهوات، لا بنعت المعرفة والمحبة، وإذا أتتهم محنةٌ أضافوها إلى غيره، ورجعوا إلى الأسباب، وخاصموا، وظهر

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في الزهد (١/ ١٥٦).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٦)، ومسلم (٤/ ٢٠٦٥).

منهم أن إقبالهم إليه من رأس النفس ليس من حقيقة إيمانهم بالله، فأمر صفيه أن قل لهم: إنما تجدون من الأسباب من العرش إلى الثرى لا يكون إلا من عند الله السبب والمسبب؛ لأنه سبب الأسباب والمسبب، ولو كنتم على رؤية التحقيق ترون الأكوان قائمة بالله وزاد في توبيخهم بقوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ أي: ليس بهم في قلة إدراكهم أنبائي وقلة معرفتهم بوحدانيتي حيث يكونون ثنويين إلا إدراك خذلاني إياهم.

قال النصر آبادي : الكل منه ومن عنده، ولكن لا تطيب ما منه وما عنده إلا بها به وبها له.

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ الحسنة الطاعة، والحسنة المحبة، والحسنة المعرفة، فأشار إلى هذه الحسنات أنها تفضل منه لا من كسب العبد؛ لأنه تعالى واهب هذه المراتب بلا علة ولا شفاعة ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وهو أهل الفضل والعطاء، والسيئة معصية الله، وذلك صفة النفس الأمارة، نزَّه نفسه تعالى من مباشرة المستقبحات، أي: كل حسنة ترجع إلى مشاهدتي، وأنا حسنة أوليائي، فمن مشاهدتي تصدر حسنات تجليائي، وكل سيئة ومعصية فتصدر من النفس الأمارة التي خلقتها وما فيها؛ لأني مباشرها وأنا خالقها أنا منزَّهٌ عن مباشرة شيءٍ بذاتي.

قال محمد بن علي : أجل الحسنات والنعم عليك في أن عرفك نفسه ووفَّقك لتشكر نعمه، وألهمك ذكره.

وقيل في قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ باتباع هواها، وتركها رضا مولاها، وهي من النفس الأمَّارة بالسوء.

واستدل القدرية بهذه الآية على مذهبهم؛ حيث أضافوا القدرة إلى النفس، قال عليه

الصلاة والسلام: «القدرية مجوس هذه الأمة»[١]؛ لأنهم قالوا باليزدان والأهرمن[٢]، ولم تفهم الكفرة والفرقة الضالة أن من لم يقدر أن يخلق ذاتًا فكيف يقدر بأن يخلق صفاتًا، أو لم يفهموا سر القرآن وخطاب الله؛ فإن الله سبحانه نسب إتيان السيئة إلى غيره لا إلى النفس، فقال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ﴾ والإصابة فعل الغير لا فعل النفس، وتبين من فحوى خطابه أن السيئة عني بها البلاء الذي هو جزاء معصية النفس، وإصابة البلاء من الله جزاءٌ لكسب المعصية، كما قال: ﴿إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، فهذه السيئات هي من الأسباب لا من الاكتساب.

قال الأستاذ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ فضلاً ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ كسبًا، وكلاهما من الله سبحانه خلقًا.

قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ ظاهر هذه الآية تدل على الوسيلة، والوسيلة من الله هو الرسول، أي: من أطاع الرسول فقد أطاع الله بوسيلة الرسول، وهذا مقام الأمر والعبودية في النبي ﷺ، وباطن الآية إشارةٌ إلى عين الجمع؛ حيث تندرج صفاته تحت صفات القدم، ويغني خلقه في خلق الأزل، ويخرج من تحت الفناء بصفة البقاء، ويكون مرآة الحق تجلى منها للخلق، فإذا كان كذلك أمره وطاعته مع أمر الله وطاعته واحدٌ لموضع اتصافه واتحاده.

قال جعفر بن محمد: من عرفك بالرسالة والنبوة فقد عرفني بالربوبية والإلهية.

قال أبو عثمان: من صحح الاقتداء بالنبي ﷺ وألزم نفسه طاعته أوصله الله إلى مقامات الأنبياء والصديقين والشهداء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

قال بعضهم: المتحققون في طاعة الرسول مع الأنبياء، والمقتصدون مع الشهداء، والظالمون مع الصالحين.

وقيل: طاعة الرسول طاعة الحق لفنائه عن أوصافه، وقيامه على أوصاف الحق، وفنائه عن رسومه، وبقائه بالحق ظاهرًا وباطنًا، فطاعته طاعته، وذكره ذكره، وبه يصل العبد إلى الحق، وبمخالفته ينقطع عنه.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٢٢).

(٢) وَجهُ الشَّبَهِ في الحديث: أَنَّ الْمَجُوسَ يَنْسُبُونَ الْكَوَائِنَ إِلَى إِلَهَيْنِ يَزْدَانُ فَاعِلُ الْخَيْرِ وَأَهْرمَنْ فَاعِلُ الشَّرِّ.

﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ القرآن صفات القدم، وهو موصوفٌ به؛ لأنَّ كلامه الأزلي والقرآن صفةٌ خاصةٌ ذاتيةٌ من جملة صفاته، وهو واحدٌ من جميع الصفات، لكنه مجمع الصفات كلها، فيه الأسماء والنعوت وخبر الصفات، وإعلام تقديس الذات، وهو قائمٌ بذات الله بغير علة الأصوات والحركات والحروف، ولو وقع للخلق التفكر والتدبر فيه بنعت المشاهدة والكشف لعلموا أنه خارجٌ من صفة الحوادث؛ لأنه نعت الأزلية، ووقعوا في بحار أسراره، وفنوا في أنواره، وخرجوا منها جواهر حكم القدمية ورموز السرمدية وحقائق الأبدية التي هو خبر جلال الذات وعيون الصفات وأسرار الأفعال من العرش إلى الثرى، صفته تجلت في حروف ا لوحدانية، وتجلت حروف الوحدانية في حروف القرآن، وكل حرفٍ مملوءٌ من بحار نكت الإلهية، من وقف على أسرارها يدهش في تجليها، ويعرف أنها خرجت من القدم، وأنها ليست من أوصاف أهل العدم، لأن وصف الله منزَّهٌ عن الخلل والتضاد والخلاف، وأوصاف الخلق متضادةٌ متباينةٌ متغيرةٌ، وذلك المعنى موجودٌ فيما بقي من الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ كلهم مرضى في دار الدنيا، يحتاجون إلى مفرج القرآن، ولو تدبروا لوجدوا كل حرف منه شفاءً لعلةٍ، فإذا وصل دواؤه داء الخليقة يذهب آلامه، ويبقى شفاء القرآن، ويكون صحيحًا بجماله غير سقيمٍ باحتجابه، قال تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وفي إنباء استفهامه شكايةٌ عن العباد أي: أفلا تأتون طلاب عرائس جمال الأزل إلى حجاب القرآن لأن تحت كل حرفٍ حجلةٌ من نور البهاء، وفيها عروسٌ من عرائس جمال الأزل يتلو بلسان السر بنعت الترنم حقائق خطاب الحق.

قال بعضهم: لا يتعظون بكريم مواعظه، ويتبعون محاسن أوامره.

قال أبو عثمان المغربي: تدبرك في الخلق تدبر عبرةٍ، وتدبرك في نفسك تدبر موعظةٍ، وتدبرك في القرآن تدبر حقيقةٍ ومكاشفةٍ، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ جزاك به على تلاوة خطابه، ولولا ذلك لكلت الألسن عن تلاوته.

قال السري: أفهم الناس من فهم أسرار القرآن وتدبر فيه.

وقال سهل: تدبر القرآن تفهمه، ولا يكون التدبر فيه إلا لمن عرف المقاصد فيه، ونطق بمعنى الحق.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أعلم الحق سبحانه وتعالى أن المتكلفين برسوم العلم يظهرون من أنفسهم بالزِّي والمقالة الظاهرة أنهم بلغوا مقام الربانيين، والذين هم مخاطبون من الله بأسرار القرآن، المكاشفون بأنوار عجائبه، ولطف حقائقه، حين تعرضوا بالأرواح الربانية والأسرار القدوسية، واستنباط جواهر الأسرار من بحار القرآن، أي: لو تركوا التكلف، وألقوا زمام الأمر إلى ملوك المعارف، وهم أولو الأمر في الملك والملكوت لسمعوا منهم حقائق مفهوم الخطاب، ولنجوا من مهالك آرائهم الباطلة.

قال ابن عطاء: لو أخذوا طريق السنة وطرق الأكابر في إرادتهم لأوصلهم ذلك إلى المقامات الجليلة من مقامات الإيمان التي هي محل الاستنباط وطرق المكاشفات.

قال الحسين: استنباط القرآن على مقدار تقوى العبد في ظاهره وباطنه وتمام معرفته، وهو أجلُّ مقامات الإيمان.

قال أبو سعيد الخرَّاز: إن لله عبادًا يدخل عليهم الخلل، ولولا ذلك لفسدوا وتعطلوا، وذلك أنهم بلغوا من العلم غايةً صاروا إلى علم المجهول، الذي لم ينصَّه كتابٌ، ولا جاء به خبرٌ، لكن العقلاء العارفين يحتجبون له من الكتاب والسنة بحسن استنباطهم ومعرفتهم، قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾[1].

---

(١) أي: يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم الصحيحة ومعرفتهم بأمور الحرب ومكايدها، وأصل الاستنباط إخراج النبط وهو الماء يخرج من البئر أول ما تحفر يقال أنبط الحفار إذا بلغ الماء وسمى القوم الذين ينزلون بالبطائح بين العراقيين نبطا لاستنباطهم الماء من الأرض، وقيل: كانوا يقفون من رسول الله ﷺ وأولي الأمر على أمن ووثوق بالظهور على بعض الأعداء أو على خوف واستشعار فيذيعونه فينشر فيبلغ الأعداء فتعود إذاعتهم مفسدة ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم وفوضوه إليهم وكانوا كأن لم يسمعوا لعلمه الذين يستنبطون تدبيره كيف يدبرونه وما يأتون ويذرون منه فالمراد =

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فضل الله معرفته، ورحمته حفظه وكلاءته عبده عن متابعة الشيطان، وهذا عامٌّ في المريدين خاصٌّ في العارفين، والفضل والرحمة منه للعموم، ومحبته للخصوص الذين هم المستثنون بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾.

قال ابن عطاء: لولا فضله عليكم في قبول طاعاتكم لخسرتم ما ضمن لكم في آخرتكم، لكن برحمته نجَّاكم من حسراتكم، وتفضَّل عليكم بها نجَّاكم.

قال الأستاذ: لولا فضل الله مع أوليائه لهاموا في كل وادٍ من التفرقة كإسكانهم في الوقت.

﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾.

=

بالمستنبطين منهم على كلا الوجهين الرسول وأولوا الأمر.

قوله تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ إذا خرج عارفٌ بكسرة الربوبية من الغيب، وظهرت سلطنته في العالم هاج نيران حسد الحساد عليه، وخافوا كسر شوق سالوسهم، وافتضاحهم بين الخلق، ويختالون به كسحرة موسى بموسى ﷺ من حسد فرعون، لكي يوقعوه في بعض مخائيل الشيطان ومكائيل النفسانية بتربيتهم الرئاسة والدنيا وجاهها في عينه؛ ليكون مخدوعًا مفتضحًا مثلهم، وأن الله سبحانه حافظ أوليائه وناصر أحبائه، يحفظهم بكلاءته الأزلية ورعايته الأبدية.

قال بعض المشايخ: ودَّ أهل الدعاوى الفاسدة أن يكون المتحققون في أحواهم أمثالهم، فلا تظهر عليهم فضائح دعاويهم، فحذَّر أولياءه ألا يجالسوا المخالفين؛ لئلا يقع عليهم شؤم حسدهم بقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (٩٤) لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا (٩٩) وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (١٠٠) وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا (١٠١) وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا

حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا﴾ أي: إذا سلكتم مسالك المقامات بين يدي الله تعالى لطلب مشاهدة الله، وسرتم بأسراركم في أسرار صفاته وأنوار ذاته تبينوا حقائق كل مقامٍ بعرفانٍ وبرهانٍ وذوقٍ وإيقانٍ، وتثبّتوا، واستقيموا في ظهور جلال الله؛ لئلا تقعوا في تفرقةٍ التلوين، ولا تقعوا في التشبيه في معارك مكريات الالتباس؛ لأن هناك ظهور الذات في لباس الصفات، وظهور الصفات في لباس الأفعال.

قيل: إذا سافرتم اطلبوا أولياء الله، وتثبتوا ألا يفوتكم مشاهدتهم؛ فإن الفوائد في الأسفار وموضع التثبت والاستقامة.

قوله تعالى: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: الذين بدلوا بهجتهم في طلب مشاهدة الله بوصف المراقبة.

و ﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ أهل الفترة قعدوا عن طلب جماله تعالى بحظوظ البشرية.

و«الأجر العظيم»: مشاهدة الله، ووصول قربته.

قال بعضهم في قوله: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ القائمين بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ عنه ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ وصف قومًا أقعدهم نور الشهود عن السير في المجاهدات، وأفناهم عن طلب الخروج من نيران الكبرياء، وطمس طرق الرجوع من مشاهدة الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الأسماء، ومن الأسماء إلى الأفعال، ومن الأفعال إلى الخلق في عيونهم، وحيرهم في قفار الأزليات والأبديات حتى لو يريدون روح الفترة لحظة لم يظفروا به؛ لأنهم مردودون من بحار الصفات إلى بحار الذات، ومن بحار الذات إلى بحار الصفات، ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ الرجوع إلى البشرية، ﴿وَلَا

---

(١) قال القاضي أبو محمد -رحمه الله: لأنهم مع المؤمنين بنياتهم كما قال النبي ﷺ في غزوة تبوك «إن بالمدينة رجالاً ما قطعنا واديًا ولا سلكنا جبلاً ولا طريقًا إلا وهم معنا حبسهم العذر».

قال ابن جريج: والتفضيل «بالأجر العظيم والدرجات» هو على القاعدين من غير أهل العذر، المحرر الوجيز (٢/ ١٧٩).

﴿يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ إلى الكون والعلة؛ لأنهم مستضعفون في قبضة الألوهية، مستغرقون في قاموس القدمية.

قال أبو سعيد الخرَّاز: الذين أسرهم البلاء، واستولى عليهم حتى صار البلاء لهم وطنًا بعدما كان الحول لهم وطنًا، ثم أفنى عنهم شاهد البلاء علم البلاء، وردَّ عليهم على الإنسانية بإثبات علم الحق، وذلك حين ردت إليهم صفاتهم بعد محو آثارهم فإذ ذاك ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ أي: من هاجر من أوطان نفسه إلى فضاء ولاية التفريد، وأتلف مهجته في طريق محبة الله، ولم يبق له مسكنٌ يسكن قلبه فيه من العرش إلى الثرى، ويجد في الأرض المشرقة بنور وجه الله سبحانه مواطن الأنس، ومواقف القدس وسعة أنوار قربته وسنا وصلته يستغني به عن كل موطنٍ ومرقدٍ، وعن كل مألوفٍ سوى الله، وفي أرض القدم وفضاء الأزل للعارفين المهاجرين منهم إليه مراغم وطنات الصفات، ومشارب سواقي الجلال والجمال في بحار الذات وسعة كنوز أزل الآزال ومشاهدة أبد الآباد.

وأيضًا: من هاجر لله في سبيل الله، وصار غريب الله في بلاد الله مستوحشًا مما دون الله، يجد في أكناف أطراف الأرض مراغم صحبة أولياء الله التي هناك سعة أنوار مشاهدة الله.

قال الأستاذ: من هاجر في الله بما سوى الله، وصحح قصده إلى الله وجد فسحة في عقوق الكرم ومقيلًا في ذوي القبول ورحبًا وسعة في كنف القرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ أي: من يخرج من طبيعته وهوى نفسه وحوله وقوته وإشاراته وعباراته وعلمه ورسمه إلى الله في طلب مشاهدته وإلى الرسول في متابعته بنعت المحبة، ويدركه في تضاعيف السير بعض الامتحان، ويقع في منزل الفتوة بعد المجاهدة، وقد وقع أجر الوصلة له؛ لأن الله تعالى يجازيه بصدق مقدم الأول قبل أن يهاجر عما دون الله تعالى، وقبل أن يخرج عن جميع مراداته وهواه متبعًا لأوامر الله وما يوصله إلى رضوانه.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ هذه رخصةٌ لأهل المشاهدة، الذين استغرقوا في بحار المعرفة والمحبة، فإذا غلب عليهم سلطان الوجد وحان وقت الخدمة سهل عليهم أحكام الفريضة بترخيص الله إياهم، وهم إنس الله الذين يجوز لهم التوسع والرخص، وعلى صورة الظاهر الضعفاء رخصةٌ من عجزهم في ديوان الإنسانية عن حمل وارد الشرع بهيئاته.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بيّن الله سبحانه أن واجبات العبودية لا تسقط عن العبد ما دام فيه الرمق، إما في الخوف وإما في الأمن، ومن تاه في الوجد وهام في الغلبة فهو مجنون العشق، خارجٌ عن مراتب التمكين، وذلك علة له؛ حيث ضعف في الوجد عن حمل وارد الشرع؛ لأن سلطان الشرع حقُّ الله، وسلطان الوجد حظُّ العبد، وسلطان الله غالبٌ على ما دونه؛ لذلك أمر سيد الرسل والأنبياء والأولياء بإقامة الصلاة في مقام الاضطراب والتلوين والامتحان، وهو سائح بحر المشاهدة، وأصحابه فرسان ميادين المحبة، وسادات أهل الولاية، ولو سقطت العبودية عن أهل الوجد لما أمر لسيد الواجدين بأداء الفريضة في مقام الخوف.

والإشارة فيه: أي: إذا كنت بينهم فتكون الصلاة على وفق مراد الله من العباد.

وأيضًا: إذا كنت فيهم فالصلاة ترجع إليهم، وإذا غبت عنهم فالصلاة ترجع إلينا؛ لأنهم في البداية في رؤية الوسيلة، وفي النهاية في إسقاط الوسيلة.

وأيضًا: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ﴾ اشتغلت بتأديبهم، وإذا غبت عنهم اشتغلت بنا، فالشرع خفي على العباد، وخفي لك حجاب لحق مشاهدة الشرع في مواطن القرب، بقوله ﷺ: «إنه ليُغانُ على قلبي»[1] أي: شغلي بكم حين يمنعني قلبي من حظ مشاهدتي من الله.

وأيضًا: أي: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لأنك تدري أن ساحة كبريائي مقدسةٌ عن وقوف المصلين، وشريعة بحار قدمي منزهةٌ عن ورد الواردين، فالعبودية ترجع إلى العباد، والربوبية ترجع إلى عظمتي وكبريائي.

وأيضًا: إذا كنت مشغولًا بمشاهدة جمالي، وتسبح في بحار عظمتي فتضيف عالم الخدمة إليهم، فإنك غائبٌ بسترك في عيني وغيب غيبي وجلال مشاهدة أزلي، وسقط عنك ما أوجبت على الغير، وهذا موضعٌ خاصٌّ له عليه الصلاة والسلام، الذي قال ﷺ: «لي مع الله وقتٌ لا يسعني فيه ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ»[2].

قال الحسين بن منصور: ليس لله مقامٌ ولا شهودٌ في نادٍ، ولا استهلاكٌ في حيرةٍ، ولا ذهولٌ في عظمته يقطع عن الآداب الشرعية، ولا له مقامٌ أوقف فيه الموحدين، أشهدهم الشريعة أن جريانها عليهم علمٌ للغير لا لهم.

ومما يصح هذا قوله: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فجعل إقامته للصلاة

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥)، وأبو داود (٢/ ٨٤).

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٤/ ٦).

أدبًا لهم، وهو في الحقيقة في عين الحصول لا يرجع إلى غير الحق في منصرفاته، ولا يشهد سواه في سعاياته.

وقال بعضهم: ما دمت فيهم فإن الصلاة تكون قائمةً، وإذا غبت فالصلاة آتيةٌ إليها، كما قال: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾.

الإشارة فيه: أي: إذا أخرجتم من مقام الصلاة فينبغي أن تكونوا في جميع الأحيان كأنكم في الصلاة؛ لأن الصلاة هي الذكر بعينه، وصورة الصلاة شاغلةٌ عن الذكر الحقيقي، الذي هو نور وجه المذكور، أي: إذا تخلصتم عن آلة الصلاة وعلة الأمر فاذكروني بنعت المراقبة في جميع أنفاسكم؛ لأنكم في مشهد مشاهدتي، واسترحتم بالذكر عن أسباب الذكر، فذكركم في القيام حيرةٌ في وجود جلالي ومشاهدة عظمتي، وذكركم في قعودكم سقوطكم في الوجد عن صدمات سطوات كبريائي بالبديهة، وذكركم في جنوبكم اضمحلالكم في رؤية قدمي وبقائي، فإذا كنتم في حالة التمكين وامتلأتم في أنوار ذكري فينبغي أن تخرجوا من أبواب الرخص، والاستراحة في ساعة الروح، وترجعوا إلى مقام الصلاة، فإن آخر سيركم في ربوبيتي أول بدايتكم في عبوديتي.

ثم إنَّ الله سبحانه وقَّتَ لأيام الخدمة وقتًا، وهو كشوف أبواب العظمة والكبرياء الذي تجليه يزعج العباد إلى الفناء في بوادي عظمته وجلاله، ولو كان دائمًا لاحترقت الخلائق فيها، وفني العباد بأسرها، وكيف يوازي الحدث جلال القدم، ومَنْ يجرؤ أن يتعرض بالسرمدية لساحات عظمة الله تعالى، أوقعهم في الفترة؛ غيرةً على المعرفة، ولم يوقِّت للذكر وقتًا؛ لأن ذكره شعاع تلك الشموس وضوء تلك الأقمار، وهو قطرات مزن الغيب، يحيى بشريانها فؤاد المحبين والموحدين، وهاهنا مقام الضعفاء والإسراء، والله أعلم وأحكم.

قال أبو عثمان: وقَّتَ الله العبادات كلها بالمواقيت إلا الذكر؛ فإنه أمرك به على كل حالٍ وفي كل أوانٍ.

وقال الأستاذ في هذه الآية: الوظائف الظاهرة مؤقتةٌ، وحضور القلب بالذكر مسرمدٌ غير منقطعٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ تفضَّل على الناس بإنزال كتابه على نبيه، وإعطائه فهم خطابه، وكشف لآرائه العلية عليه السلام حقائق حكمته الأزلية السابقة بمراده من عبودية عباده، ووقوع صلاحهم من بيانه عليه السلام، موافقًا لرضا الله، أراد من العباد عبوديته في الأزل، وعلم جهلهم بها، فكاشف عليها على لسان نبيه ﷺ، وهذا معنى قوله: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أسرار، وفي قلبه عليه السلام من الله أنوار يعرف خطاب الله، فيحكم بها بين الخلق، ليتبين الرشد من الغي، قال تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] كتاب الظاهر الشاهد على ما أراد الله من مشاهدات الغيب، وما قدر الله لعباده من أحكام العبودية وعرفان الربوبية، قال ﷺ: «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[1].

قال سهل: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ أي: بما علمك الله من الحكمة في القرآن والشريعة.

قال بعضهم: بما كشف لك من بواطنهم، وأظهره لك لا على ما يظهرونه، فإن رؤيتك لهم رؤية كشفٍ وعيانٍ.

قال ابن عطاء: ﴿بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ فإنك بنا ترى، وعنا تنطق، وأنت بمرأىً منا ومسمعٍ.

﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ جَـٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾.

---

(١) رواه أحمد (٤/ ١٣٠).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بيّن الله سبحانه في هذه الآية أن أمر النبوة ليس من طبائع الخلق والخليقة، ولا للاكتساب فيه مدخلٌ؛ إنما يتعلق باصطفائية أزليته واجتبائية أبديته، وبيّن موضع السهو والنسيان الإنساني، وبيّن أن التنزيه عن الغلط والسهو لا يكون إلا لله تعالى، عجز الخليقة عن إدراك قدس الأزلية والخروج عن علة البشرية بالكلية، وأدّبه ليلقى أزمة الأمر إلى مراد الله ولا يزيد إلا ما يريد، قال: ﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ﴾ أي: ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم وحظوظها على مراد الله ومحبته وخيانتهم مع أنفسهم أنهم عاهدوا الله أن يبذلوا نفوسهم إليه ليفعل بها ما يشاء، ليربيها بحسن قربته وحلاوة وصلته، فلما أعطوا حظوظها نقضوا عهد الأول، وألقوا أنفسهم في ظلمات هواها حتى بقيت في الحجاب عن الوصول إلى العهد الأول، وهذا غاية الخيانة مع النفس.

قال بعضهم: خيانة النفس اتباع مرادها وترك نصيحتها.

قال الحسن بن علي الدامغاني: من خان الله في السر هتك سرَّه في العلانية.

قوله تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ أي: يسترون من الناس معايبهم، وخيانتهم تعميهم عن رؤية عجز الناس وقلة قدرتهم بدفع المضرة وإعطاء المنفعة؛ لأنهم عاجزون في قبضة التقدير، وعظم الخلق في قلوبهم من قلة عرفانهم عظمة الله وجلاله وإحاطته بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى، ولا يستترون من الله؛ لأنهم ليس لهم استعداد عرفانه الذي ثمرته الخوف والحياء من الله سبحانه، قال ﷺ: «أنا أعرفُكم بالله، وأخوفُكم منه»[1]، بيّن أن زيادة الخوف من زيادة العرفان.

وقوله: ﴿وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ﴾ أي: لا يستترون من الله في مباشرة القبائح، وهو محيطٌ بظاهرهم وضمائرهم وإراداتهم، لا يعرفونه بنعت الإحاطة، وأنهم لا يقدرون بالاستتار عنه، وهذا نفي فائدته بيان عجزهم عن الاستتار عنه، ومعناه أنهم يستحيون من الخلق ولا يستحيون من الخالق.

قال محمد بن الفضل: من لم يكن أعظم شيءٍ في قلبه ربه كان جاهلًا به ومبعدًا عنه.

﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾ لَّا خَيۡرَ فِي كَثِيرٖ مِّن نَّجۡوَىٰهُمۡ إِلَّا مَنۡ أَمَرَ

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٢٣١).

بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي: أنزل عليك الكتاب شاهدًا على ما كوشف لك قبل نزول الكتاب من أحكام المشاهدة والمعرفة، وما استأثرك من علوم الغيبية لتثبيت فؤادك بها وجدت منا قبل نزول الكتاب كقوله: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[هود: ١٢٠]، والحكمة إحكام الطريقة وآداب القربة ونوادر علوم الإلهية، ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ أي: علوم عواقب الخلق، وعلم ما كان وما سيكون.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ بمسابقتك على الأنبياء بكشف جمالي ورؤية ذاتي وصفاتي ودنوك مني حيث قلت: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم:٨،٩]، وعني بالفضل العظيم استغراقه في بحار قدمه وبقاءه بنعت المعارف والكواشف.

قال الجنيد في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾: عرَّفك قدر نفسك.

قال سهل: العلماء ثلاثة: عالمٌ بالله لا عالم بأمر الله ولا بأيام الله، وهم المؤمنون، وعالمٌ بالله عالمٌ بأمر الله لا عالم بأيام الله، وهم العلماء ، وعالمٌ بالله وعالمٌ بأمر الله وعالمٌ بأيام الله، فهم النبيون والصديقون.

وقيل : علمتك من مكنون أسراري ما لم تكن تعلمه إلا بي.

قال الواسطي في قوله: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾: إنما عظَّمه بالمباشرة، فاحتمل الذات بعدما احتمل الصفات، وموسى احتمل الصفات، ولم يحتمل الذات.

قال بعضهم: فضلت في الأزل بفضائل، وقد تعثر في المشاهد العثرة، كما قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣]، فتعاتب، ثم ترد إلى الفضل الذي جرى لك في الأزل.

قيل في قوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ : من علو رتبتك على الكافة[١].

قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ﴾ وبَّخ الله سبحانه قومًا ليس مجالستهم ونجواهم لله فكل مجالسةٍ على غير ابتغاء وجه الله، والشيطان يغريهم إلى الغيبة والبهتان والنميمة والترهات، أي: لا خير في كثيرٍ من هؤلاء في نجواهم يعني [...][٢] وقومه.

ثم استدرك ووصف أهل المجالسة لله الذين جلسوا لمحبته، وقاموا لشوقه، واجتمعوا لعشقه، وتفرقوا لطلب زيادة معرفته والمساكنة في مجالس أنسه بالخلوات في الفلوات.

ثم وصفهم بأحسن الوصف؛ حيث آواهم إلى كنف قربه وحجال أنسه بقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧].

ثم وصفهم على لسان نبيه، وزاد شرفهم؛ حيث قال عليه الصلاة والسلام فيما روى عن الله ﷺ: «وجبتْ محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، والمتزاورين فيَّ والمتجالسين فيَّ، والمتباذلين فيَّ»[٣].

سبق في الأزل محبته لهم، فأوقعتهم تلك المحبة الأزلية في بحار محبته، حتى استغرقوا فيها إلى الآباد لا مخرج منها لهم بالنظر إلى سواه، قال تعالى في وصفهم: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] نجواهم جريان أسراره وجولان أنفاسهم في ميادين أنواره، فساعة تاهوا، وساعة تحيروا، روحهم بمروحة أنسه، وأدخلهم في قباب قدسه، وسقاهم من شراب لطفه،

(١) قال حقي: احسبوا أن علم الروح مما لم يكن يعلمه ألم يخبر أن الله علمه ما لم يكن يعلم فأما سكوته عن جواب سؤال الروح وتوقفه انتظار للوحي حين سألته اليهود فقد كان لغموض في معنى الجواب ودقة لا تفهمها اليهود لبلادة طباعهم وقساوة قلوبهم وفساد عقائدهم، فإنه وما يعقلها إلا العالمون وهم أرباب السلوك والسائرون إلى الله فإنهم لما عبروا عن النفس وصفاتها ووصلوا إلى حريم القلب عرفوا النفس بنور القلب ولما عبروا بالسر عن القلب وصفاته ووصلوا إلى مقام السر عرفوا بعلم السر القلب وإذا عبروا عن السر ووصلوا إلى عالم الروح عرفوا بنور الروح السر وإذا عبروا عن عالم الروح ووصلوا إلى منزل الخفى عرفوا بشواهد الحق الروح، وإذا عبروا عن منزلة الخفى ووصلوا إلى ساحل بحر الحقيقة عرفوا بأنوار صفات مشاهدات الجميل الخفى، وإذا فنوا بسطوات تجلى صفات الجلال عن أنانية الوجود ووصلوا إلى الجنة بحر الحقيقة كوشفوا بهوية الحق تعالى وإذا استغرقوا في بحر الهوية وابقوا ببقاء الإلهية عرفوا الله بالله، فإذا كان هذا حال الولي فكيف حال من يقول علمت ما كان وما سيكون. [روح البيان٧/ ٢٨٠].

(٢) بالأصل (طعمة) وهي غير واضحة.

(٣) رواه أحمد (٥/ ٢٣٣).

وأسكرهم بجمال وجهه، وحثهم إلى مسامرته وذوق فهم طعم لطف مناجاته، فإذا سكنوا من سطوات مشاهدة جلاله، وأفاقوا من سكر جماله لحظة احتالوا لزيادة محبته في أخذهم طريق بذل المهجة لمحبته، ورجعوا إلى سنن المجاهدات وحقائق العبادات، أمر بعضهم بعضًا ببذل الأرواح والأشباح؛ لشوقهم إلى عالم الأفراح، وأمروا بالمعروف بحكمهم على النفوس الأمارة بإذابتها في المجاهدة بنيران الرياضة، ويراعي بعضهم بعضًا بحسن النصيحة وآداب الطريقة، ويسألون الله صلاح هذه الأمة من كمال شفقتهم على عباد الله وبلاد الله، وهم المستثنون من قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾، وبيّن أن ذلك لزيادة رغبتهم في مشاهدة الله، وشوقهم إلى جماله، وهو تعالى وعدهم بتضعيف زيادة كراماته ودرجاتهم بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

قيل في تفسيره: ﴿لَّا خَيْرَ﴾ في الاجتماعات إلا ما يعود نفعه عليك أو على أهل مجلسك.

وقيل: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ﴾ تصدَّق بنفسه بمنعه عن أذى المسلمين، وارتكاب المحارم.

﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ قيل: المعروف حثُّ النفس على سبيل الرشاد.

﴿لَّعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾. لما التصق رغام الإياس في أنف إبليس من إغواء الأولياء والمخلصين حيث يئس في سماع خطاب الحق جل سلطانه في وصف إحسانه من جميع العباد بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]، رأى بعد ذلك في حواشي ساحات قلوبهم مجاري ضيقة تجري فيها للنفس الأمارة وهواجسها، قال: لما يئست من انقطاع المريدين عنه ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾، يعني: ألتقط قطيعات من هواهم ونفوسهم نصيب وسواسي أو سوسهم من وراء القاف؛ لأني لو دنوت منهم بالمباشرة

أحترق بنيران محبتهم، وذلك النصيب لما سلبه سارق القهر من حومة مراقبتهم تداركوه بالندم ورموه بسهام الذكر من قوس الفكر، فخرجوه حومة التلاوة، ونشاب الاستعاذة، ثم رأوه بعد ذلك أسيرًا في سجن جوعهم ومجاهدتهم.

صحة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢١] أبصروه خائبًا خاسرًا محترقًا، وهم بعد ذلك ينزلون أعالي منازل القرب، وزادوهم دنو الدنو، قال ﷺ: «أيسَ الشيطانُ أنْ يعبدَه المصلون. وقال في موضع: «ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبدَ في بلادكم هذا أبدًا، ولكن ستكون له طاعةٌ فيما تحتقرون من أعمالكم فسيرضى به»[1]. في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم»[2]

ألا ترى كيف دار حول آدم صفي الله -صلوات الله عليه- فاحترق بنيران لعنة الأبدية، وكانت وسوسته لآدم سبب زيادة زلفته، وقربته، واجتبائيته، واصطفائيته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢٢]، وهذا إعلامٌ من الله سبحانه للخلق، هكذا يكون شأن من يؤذي وليه وحبيبه من أحبائه وأصفيائه.

قال الواسطي: فقال له: إن كان إليك شيءٌ من القدرة والقوة فَاغْوِ أحدًا سوى ما جعل له من النصيب المفروض، عند ذلك يظهر عجزه وضعفه.

وقال بعضهم في هذه الآية: لترَ في أعينهم طاعتهم، وأغلق دونهم أبواب الإنابة ورؤية الفضل.

وقد وقع لي شيءٌ أخف: أن ذلك النصيب التفات العاشق في طلب جمال الحق إلى عالم المستحسنات؛ لأن فيها ما يليق بالنفس الأمَّارة حين تلطف في جوار الروح الناطقة العاشقة، فأخذت الروح من الوجوه الحسان لطف معدن الحسن، وبقى للنفس الأمارة حظٌّ من حظوظ الشهوات.

قال أبو سعيد الخرَّاز: رأيت إبليس في منامي، فقلت له: هل لك يدٌ على الصوفية؟ فقال: لا. ومضى، ثم التفت، وقال: لي عندهم لطيفةٌ، وهي نظرهم إلى وجوه الأحداث.

وأيضًا: نصيب الملعون منهم فرحهم بحالهم، ووقوفهم بلذات مواعيدهم، وإلقاء مخاييله في مكاشفتهم، وذلك النصيب يقع على أكثر من مقاماتهم منها أي: يعدهم إلى بلوغ مقام الكرامات بغير استعمال آداب الطريق، ومتابعة المشايخ، وموافقة الأسوة والسنة، وهذا

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٦١).

(٢) رواه أحمد (٣/ ٣٨٤).

له في المريدين.

ومنها: أن يمنيهم بطول العمر، ونيل الدرجات في شيخوختهم بأن تقاعدوا عن استعمال رسوم المعرفة، وكل هذا غرور الملعون، ولا يشتري غرور إلا من فرَّ من أمانة النفس في طريق الله، وكل هذا معنى قوله تعالى في وصفه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾، والغرور ولهٌ للمريدين أنك قد بلغت منتهى المقامات، وآخر الدرجات فاسكن من مجاهدتك ورياضتك، واجلس في مجلس الشيوخ، وتكلَّم بكلامهم، أنت أعظم منهم، حتى يدور حولك المريدون، وأراد بذلك الغرور أن يوقعه إلى حب الجاه والرئاسة، فيهلك فيها كهؤلاء المطرودين في زماننا، طهَّر الله وجه الأرض منهم، ومن أمثالهم.

قال بعضهم: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ طوال العمر، والموت غايتهم، ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾[1] الغنى والفقر سبيلهم، ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ ما يقربهم من الدنيا، ويبعدهم عن الآخرة.

﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ حقيقة هذه الآية قطع أسباب الحدث عن جناب القدم، وإفراد الأزل عن الحوادث، وأن الخليقة للعبودية لا للربوبية، أي: ما دمتم في رِقِّ العبودية يجازيكم بأعمالكم، ليس كما يجري على خواص الأولياء، أنا ما دام بيني وبينهم نسبة المحبة لا أجازيهم باشتغالهم بغيري، ولا أحاسبهم بالعثرات والزلات؛ فإني منزَّهٌ عن أن يدركني أحدٌ بنعت الحقوق منه عليَّ، فحقوقي قائمةٌ على عبادي أبدًا، وهذا معنى قوله: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ لأنه وإن كان عزيزًا عليَّ لم يخرج من رقِّ العبودية، وأنا أجازيه بالسيئة بعد أن أوقعته فيها تربيةً لا حرمانًا، وإذا مال خاطر العبد العارف إلى مراد نفساني فذلك الخاطر في حساب المعرفة سوءٌ، فيجازيه باستعماله، وهذا إشارة قوله: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾، فذلك أسوأ جزاء سوء الخاطر، وسوء الخاطر امتحانه لتربيته، ومن لم يعرفه فوجوده

---

(١) ما لا ينالون نحو ألا بعث، ولا حساب، ولا جزاء أو نيل المثوبات الأخروية من غير عمل. تفسير حقي (٣/ ٩٨).

كله سوءٌ، فمن عرفه غيره فالكل قد وقفوا فيه العالم والجاهل في مدارك عرفانه في عين النكرة، والنكرة لا تتناهى، والعبد في جميع الأنفاس في جزاء النكرة بعد النكرة، وهذا معنى قول النبي ﷺ حيث قال: «لو أن الله تعالى عذَّب جميع الملائكة لكان حقًّا له، قيل: إنهم معصومون. قال: من قلة معرفتهم بربِّهم»[1].

وهذا الامتحان في دار الدنيا؛ لتقديس أسرارهم عما دون الله، وتخفيف مطايا قلوبهم عن غبار الأوزار في تلك المرائي، التي هي مجالس الأنس ومحافل الطرب، حيث هرب الهرب.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ بمعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ أنه وصف من يحمل بسربال جلاله الذي يتلألأ منه حسن وجهه القديم، وطار بجناح المحبة والشوق في هواء هويته، فيجد طريقًا من الأزل إلى الأزل، فيسير من الله إلى الله إلى أبد الأبد، فتلك المسالك دينه، أي: دين أحسن من هذا، وهو بجلاله وعظمته دليله منه إليه، لم ينطمس مسلك الآزال والآباد ما دام بعزته ومجده أمام مطايا أسراره وعلم رواحل أنواره:

إذَا نحـــنُ أدْلجـــنَا وأنْـــتَ أمَامـــنَا كَفَـــى لِمَطايانـــا بِـــرَيَّاكِ هادِيَـــا

بانت سمات الحسن منه حين أسلم وجهه لله إلى جمال الله، يتجلى من وجهه تعالى لوجه قاصده، فيبرز نور وجه القدم من وجهه، أفنى وجوده لإدراك وجوده، ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: عارفٌ وعالمٌ بما يطلب ويطلبه، ومقصده مشاهدة الباقي بنعت الفناء فيها، فسهَّل عليه اضمحلاله بالله في الله.

قال ابن أدهم: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، فنعته في الفناء فيه اتصافه برضاه، فيرضى عنه فيما يريد منه، ومثل هذا الدين دين الحنيفية الحبيبية الجليلية المسايلة عن الحدثان في مشادة الرحمن، ألا ترى كيف وصف حبيبه بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم:١٧] حين رآه لم يلتفت إلى الحدثان، وكيف وصف خليله حين برزت أنوار جلاله من مطالع القدر ببراءته عن الحدث بقوله: ﴿إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وبيَّن تعالى أن تمام حسنه لم يكن إلا بمتابعة خليله: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وملته كسر أصنام الطبيعة بفأس الحقيقة في بداية المحبة، وإذهاب عرائس الملكوت من

(١) لم أقف عليه.

خاطره بقوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ بعد قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام:٧٧]، حين انكشف في عينه جمال الجبروت الأول مقام الإيقان، والآخر مقام العرفان وطريق تسليم نفسه لله في محل الامتحان بنعت سلامة القلب عما دون الرب، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

وزاد في وصفه بقوله: ﴿إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [البقرة: ١٣١] امتحن تسليمه بذبح الولد، فمرر السكين على حلقه سبعين مرةً، وامتحن بنفسه بإلقائه في النار، فعرض عليه جبريل عليه السلام المعاونة، فقال: «ألك لي حاجةٌ؟ فقال: أما إليك فلا»[1].

وبيّن سبحانه إذا كان الخليل بهذه الصفة في عبوديته وعرفان ربوبيته اتخذه، كان في الأزل خليل الله بلا علة ولا تهمة، اصطفاه بالخلة في الأزل، ولو كانت خلته بعوض ما كان فضلا؛ لأن اصطفائيته بالخلة وصف الأزل، والأزل قديمٌ قبل وجود الحوادث، حيث أقبلت صفته تعالى وهى المحبة إلى الذات، وأقبل الذات إلى الصفة، وتجلى الذات للصفات، ثم تجلى الذات والصفات للفعل، وتجلى الفعل إلى القدم، فظهر الخليل بوصف الخليل، ويرى الخليل الخليل بعين الجليل، فصار خليلاً للجليل، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، وهذا الذي بعينه للحبيب، والحبيب أفضل من الخليل؛ لأن المحبة لبُّ الخلة، ثم صرَّح بالإشارة أن المحسن الراضي إذا تابع الحبيب والخليل فيما ذكرنا صار حبيب الله وخليل الله.

قال بعضهم في هذه الآية: أي من أحسن حالاً ممن رضي بمجاري الأقدار عليه في العسر واليسر، وأسلم قلبه إلى ربه، وأخلص وجهه له وهو محسنٌ، أي: متبعٌ لسنة المصطفى ﷺ.

وقال أبو بكر: مَنْ ظاهر واتبع ملّة إبراهيم عليه السلام حنيفًا، أي: يخرج من الكونين إقبالاً منه على الحق.

وقال الواسطي: حنيفًا أي: مطهَّرًا من أدناس الكون، خالصًا للحق ممَّا يبدو له وعليه.

قال ابن عطاء: اتخذه خليلاً، ولم نخالك سرائره شيئًا غيره، فذلك حقيقة الخلّة.

وأنشد:

قد تخللتَ مسلكَ الروح مني ... وبذا سُمِّي الخليلُ خليلاً
فإذا ما نطقتُ كنتَ حديثي ... وإذا ما غشتُ كنتُ عليلاً

قال الحسين: اتخذه خليلاً، ولا صنع لإبراهيم عليه السلام فيه، وذلك موضع المنّة، ثم أثنى

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢/ ٢٩).

عليه بالخلّة، وذلك فعل الكرام.

وقال الواسطي: تخللته أنوار بره، فسماه خليلاً.

وعن جعفر بن محمد قال: أظهر اسم الخلّة إبراهيم عليه السلام؛ لأن الخليل ظاهرٌ في المعنى، وأخفى اسم المحبة لمحمد ﷺ لتمام حاله؛ إذ لا يحب الحبيب إظهار حال حبيبه، بل يحب إخفاءه، ويستره؛ لئلا يطَّلع عليه سواه، ولا يدخل أحدٌ فيما بينهما.

وقال ابن عطاء في تفسير قوله: ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ أي: قصده وتدبيره لربه وهو محسنٌ، أي: يرى الحق بسره، فأسلم له ذلك كله مفوضًا إليه ومسلمًا تدبيره إليه.

قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾ كان الله تعالى ألزم النفوس سمات النكرة، وفتح أبصارها عليها حتى لا ترى إلا وجودها، فعشقت على وجودها، وعُميت عن رؤية خالقها، فتكون كل وقتٍ في طلب حظها من العالم، فإذا حركها الله بواجب العبودية تأبى عن ترك حظوظها؛ لقلّة عرفانها حظ الأكبر، وهو مشاهدة خالقها، التي هي رأس كل دولة في الكونين، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ﴾.

قال النوري: ألزمت الأشباح مخالفة الحق في جميع الأحوال، وشحها ما يضرها من طلب الدنيا.

﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ

وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ العدل صفة الحق، فمَنْ اتصف بصفته يكون عادلاً في جميع الأحيان، لكن ما كان العدل مستعارًا في التخلق يرجع إلى معدنه عند الامتحان، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟﴾، وهاهنا أجدر أن ينصرف العدل إلى معدنه؛ لأن ميلان الأرواح والأشباح بعضها بعضًا علّة الفطرة، وحبُّ النساء من أحكام العشق الروحاني طبعًا وطلبًا لمعدن حسن الأزل، فكيف تكون الاستطاعة من النفس بالعدل بينهن والروح في طلب زيادة الحسن أبدًا! ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ أي: أرموا النفوس بأزمة المجاهدة والرياضة والمراقبة عند امتناعها من الخضوع عند أمر خالقها.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في قوله: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: فكيف تستطيعون العدل بينكم وبين الحق وليس من العدل أن تحب ما يشغلك عن حبيبك، وليس من العدل أن تفتر عن طاعة مَنْ لا يفتر عن ترك.

وقال الواسطي في قوله: ﴿فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ﴾ الجوارح تبعٌ للقلب؛ لأنه أمير أمرك أنّ تخالفه إذا خالف الحق.

﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ التقوى حقيقة العبودية، ولا يستقيم أمرها إلا بأداء حقوق التقوى، وهي الاجتناب مما منعه الله من النفس والهوى، ومعنى ﴿أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: أنظروا بأبصار القلوب إلى عالم الغيوب ترون سبحات عظمتي وجلال عزتي الذي ينبغي للعباد أن يدونوا تحت تجليه.

قال بعضهم: أمر الكل بالتقوى، وأوصل النفس إلى التقوى، مَنْ جرى له في السبق عنايةٌ.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ﴾ أمر سبحانه العباد بالإنصاف والقسط والعدل في الشهادة؛ لئلا يتنوع الحكم حين تميل النفس إلى غير الله، أي: راقبوني في أمري، ولا تراقبوا غيري؛ فإن الشاهد العادل إذا كان مراقبًا لي يرى شهودي على كل ذرة، فيفرغ بي شهادته من شهودي.

قال الجنيد: لن يصل إلى قلبك روح التوحيد، وله عندك حقٌّ لم تقضه أو لم تؤده.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا بلسان الحقيقة خاطب المريدين الذين آمنوا بالمقامات والكرامات والمكاشفات والمشاهدات في بدو الإرادة مطلقًا بغير المباشرة، فإذا وقعوا في مسلك الحقائق رأوا أحكام الغيب، وسمعوا أصوات الإلهام من هواتف الملكوت، واضطربوا عند معارضة النفوس، أي: أيها المدَّعون في بدايتكم بالإيمان على حقائق الطريقة اثبتوا بنعت الإيقان في محل الامتحان عند كشوف أسرار الغيب، وأيقنوا أن ما سمعتم من خطاب الأسرار فهو كلامي على لسان تلك الهواتف.

وأيضًا: هذا خطاب الأكابر، أي: أيها العارفون اعرفوني؛ فإن ما وصلكم من معرفتي فهو يؤولكم إلى النكرة، ومَنْ ظن منكم أنه بلغ إلى حقيقة المعرفة أخطأ الطريق، فإني ممتنعٌ بعزتي وجلالي عن مطالعة الخليقة وجود قدمي، وارجعوا من تفردكم عند إفرادكم القدم عن الحدوث إلى الوسائط، يعني الإيمان بالرسول؛ فإنه حادثٌ يكون محل الحوادث، وساحة الكبرياء منـزَّهةٌ عن الإيمان والكفر.

سُئل فارس: ما معنى هذه الآية وليس في ظاهرها التجريد؟ قال: التجريد إنما يقع بلسان السرِّ من جهة هواتف الحق، ومعنى الآية: ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾، وقوله: ﴿وَرَسُولِهِۦ﴾ يريد تكرار الإيمان.

وقيل: أي: أيها المدعون تجريد الإيمان بي من غير واسطةٍ، لا سبيل لكم إلى الوصول إلى عين التجريد إلا بقبول الوسائط.

قال الأستاذ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من حيث البرهان آمنوا من حيث البيان إلى أن يؤمنوا من حيث الكشف والعيان.

ويقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ باستعمال أدلة العقول آمنوا إذا تحتم بعفوه الوصول، واستمكنت منكم حيرة البديهة، وغلبات الذهول، ثم أفقتم من تلك الغيبة، فآمنوا أن الذي كان غالبًا عليكم كان شاهد الحق لا حقيقة الذات، فإن الصمدية ممتنعةٌ مقدسةٌ عن كل قربٍ وبعدٍ ووصلٍ وفصلٍ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾ يصف أهل التردد في سلوك سبيل أولياء الله والإيمان بهم وبأحوالهم حين هاجت رغبتهم إلى رئاسة القوم أشرفهم عند الخاص والعام، وآمنوا رسمًا لا استعدادًا، فلمّا جنَّت عليهم ظلمات المجاهدات لم يحتملوا، وأنكروا عليهم، ورجعوا إلى حظوظ أنفسهم، فإذا سمعوا أفكار الخلق على ترددهم ورأوا مهابة الأكابر

عندهم آمنوا بعد ذلك رسمًا لا حقيقةً، فلمّا لم يصلوا إلى شيءٍ من مقامات القوم وكراماتهم ارتدوا، وصاروا منكرين على القوم وعلى مقاماتهم، وزاد إنكارهم على الإنكار حين رجعوا إلى اللذات والشهوات، واختاروا الدنيا على الآخرة، ويقولون عند الخلق إن هؤلاء ليسوا على الحق، ويطعنونهم، يقعون في تمزيقهم وغيبتهم حتى تضيق صدور القوم عليهم، وأن الله سبحانه ينتقم منهم بأن يشغلهم بجمع المال والرئاسة، ولا يرشدهم بعد ذلك إلى سبيل الرشاد، وتبقى على وجوههم سمات الخسران، ويحترقون غدًا عندهم في وسط النيران، وهذا وصف أهل زماننا من المنكرين الذين كان عندهم بالإرادة الإيمان بنا وبأحوالنا.

قال الأستاذ: إنّ الذين تبدلت بهم الأحوال فقاموا وسقطوا ثم تغشوا وعثروا ثم ختم بالسوء أحوالهم أولئك الذين قصمتهم سطوات العزّة حكمًا، وأدركتهم شقاوة القسمة خاتمةً وحالاً، الحق تعالى لا يهديهم لقصدٍ ولا يدلهم على رشدٍ.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْكَـٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ أعلم الحق سبحانه أن

جهلة النفوس طلبوا العزَّ من موضع الذل وأخطأوا الطريق، فان العزَّة بصفة الأزلية، ومَنْ لم يكن متصفًا بعزَّة الأزلية لم يكن عزيزًا بين الأعزَّاء، ويكون ذليلاً بين الأذلَّاء، قال على وجه الاستفهام والتعجب ونفي العزِّ عن غيره، وأضاف العزَّة إلى جلاله وعظمته، أي: افهم أنهم لو يريدون العزَّة فينبغي أن يطلبوا العزَّة إلى جلاله وعظمته، أي: افهم أنهم لو يريدون العزَّة فينبغي أن يطلبوا العزَّة من عند مَنْ كان عزيزًا، يعني النبي ﷺ وأصحابه وأولياءه؛ لأن عليهم رداء عزَّة العزيز، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

قال محمد بن الفضل: كيف تبتغي العزَّة ممَنْ عزُّه بغيره، فاطلب العزَّة من مظانه ومكانه، قال الله: ﴿فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ فمَنْ اعتزَّ بالعزيز أعزَّه، ومَنْ اعتزَّ بغيره أذله.

قال رسول ﷺ: «مَنْ اعتزَّ بالعبد أذلَّه الله»[1]. فابتغِ من عند ربِّ العزَّة يعزُّك في الدنيا والآخرة.

قال أبو سعيد الخرَّاز: العارف بالله لا يرى عزَّةً إلا منه.

قال الواسطي: ما مالت سريرةٌ إلى حبِّ العزِّ إلا ظهر خسوفها، وما مالت النحيرة إلى حبِّ الدنيا إلا ظهرت ظلمتها عليه، فصارت محجوبةً، وعن [المآب[2]] مصروفةً.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ بيَّن أن من خالف الطريق، وظهرت منه الخيانة لم يصل إلى مقام الأول إلا بالعبور على هذه الشرائط المخصوصة، منها التوبة وهي الخروج من النفس والهوى، والرجوع إلى الله بمراد الله، والإصلاح وهو إصلاح السريرة بنعت تقديسها عن النظر إلى غير الله، والاعتصام بالله الالتجاء إليه في جريان القضاء، والقدر عليه الإخلاص في الدين تجريد الأسرار عن النظر إلى الأغيار، فإذا غير على هذه القناطر فتكون في السلوك مع العارفين، ولكن لم يكن معهم في مشاهدة رب العالمين لا صحبة المخالف لم تكن مستعدة لَمَا نال أهل المعارف والكواشف، وبيان ذلك قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وما قال «من المؤمنين» أي: ليس هؤلاء منهم وإن اجتهدوا في الطريق؛ لأن الجاهد وإن اشتد جهده لم يكن عارفًا، لأن المعرفة موهبة الأزلية، وهبها الواهب لمحبيه بغير علَّة، وهذا إخبارٌ عن قوم محرومين من الوصول إلى هذه المقامات، وظهر في نحوي الخطاب أن هذا الخبر منهم أنهم لَم يفعلوا ذلك.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٢/ ١٧٤).

(٢) غير واضحة بالأصل.

قال ابن عطاء: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ولم يقل «من المؤمنين»؛ ليعلم أن الاجتهادات لا تؤثر في سبق الأزل.

قال أبو عثمان: التوبة الرجوع من أبواب الخلاف إلى أبواب الائتلاف.

وقال محمد بن الفضل: الاعتصام هو التشبث بالسنة وطرق السلف.

وقال سهل: تابوا من التوبة.

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بيّن سبحانه شفقته على العباد، حيث لا يرضى بشناعة الغير عليهم ظاهرًا، فكيف يرضى من نفسه أن يهتك سترهم، اعلم أنه غيورٌ؛ حيث لا يحب الجهر بالسوء من القول.

وقوله: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ لأن حديث المظلوم هفوةٌ وانبساطٌ بين يديه، وليس قول السوء فحشًا، إنما هو الدعاء على ظالمه، وهو سميعٌ لدعاء المظلوم على الظالم، وهذا كقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤١]، وهذا تسليةٌ وشفاءٌ لعلّة المظلوم.

قال الواسطي: لا يرضى الله من عباده باستماع الجفاء إلا مثاله إلا مَنْ جحد نعم الله عنده في البينات والبراهين.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم

مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ أراد بالسلطان المبين سطوع نور التجلِّي من وجهه حتى لا يرى أحدٌ وجهه إلا حارت عيناه من غلبة بهاء الله وعظمته على وجهه، وأخبر سبحانه عن ذلك النور؛ لقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [1] [طه:٣٩].

قيل في تفسير الظاهر: ملاحة في عينيه لا يراه أحدٌ إلا أحبه، وذلك النور أيضًا من نور تجلِّي الحق الذي ظهر من الشجرة حين سمع خطاب الحق منها، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه:١٠]، وكان موسى عليه السلام من فوقه إلى قدمه برهان الله للعالمين، وهكذا كل نبيٍّ ووليٍّ.

ألا ترى إلى اليد البيضاء والعصا وأعظم البرهان في وجهه عكس التجلِّي من جبل الطور على وجهه حتى احتاج بعد ذلك أن يستر وجهه بالبرقع، والسلطان المبين أيضًا إخباره عن الله بكلام الله.

قال بعضهم: قوةٌ عظيمةٌ على سماع المخاطبة من كلام الحق.

وقيل: أعطى سلطانًا على نفسه في مخالفتها وهو المبين الظاهر للخلق.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ

---

(١) أظهر الله عليه ميراث علمه قبل العمل، فأورثه محبة في قلوب عباده؛ لأن من القلوب قلوبًا تثاب قبل الفعل، وتعاقب قبل الرأي، كما يجد الإنسان في نفسه فرحًا لا يعرف سببه، وغمًا لا يعرف سببه [تفسير التستري (١/ ٣٢١)].

أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (١٦٢)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ كان روحًا روحانيًّا إلهيًّا يحيي الأموات به، حيث يبرز نور الأُلوهية منه لها؛ لأنه من الله سبحانه بالقدرة، فلمَّا أراد الله أن يرفعه إلى جواره رفع الحجاب عن روحه، فظهر روحه لبعض خاصته، فصار منقوشًا بنقشه؛ لأن صورة عيسى عليه السلام منقوشةٌ بنقش روحه، وهذا منه قوةٌ إلهيةٌ، وهو كان بها مؤيدًا بقلب الأعيان، ولا تكون هذا إلا من فعل الله المنـزَّه عن مزج لاهوتية ناسوتية الإنسان.

وأدقُّ الإشارة فيه: أن الله سبحانه عرف طباع اليهود والنصارى بميلها إلى التشبيه، وتنفرها من القدس والتنزيه؛ لأنهم أصحاب المخائيل.

ألا ترى إلى عبدة العجل كيف كان حبهم لها، وقول النصارى أن الله هو المسيح، فشبه لهم صورة عيسى عليه السلام بنعت الالتباس من تجلِّي نور اللاهوت من الناسوت لقلّة عرفانهم قدس الأزل عن نعوت الحدث، فغلظ بعضهم وقالوا بإلهية عيسى وعزير عليهما السلام، فغرقهم عيسى مكان المكر في الالتباس، وفات خطهم من رؤيته، قصدوه بالقتل، فألقى الله سبحانه عكس ذلك الشبه على أحدٍ استدراجًا ومكرًا، فقتلوه؛ لأنهم ما وجدوا فيه ما وجدوا في عيسى عليه السلام من حلاوة الحب ولذَّة العشق، وهذا الفقدان من رفعه إلى السماء بقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

قيل في تفسير: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ كساه الريش، وألبسه النور، وقطع لذَّة المطعم والمشرب، وطار مع الملائكة حول العرش ،فكان إنسيًّا ملكيًّا سماويًّا أرضيًّا.

قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ المستقيمون في سماع خطاب الخاص من الله سبحانه بغير معارضة النفوس واضطراب الأسرار؛ لأنهم عالمون إلهام الحق من وسوسة الشيطان، وهم مفرِّقون بين لَمَّة الشيطان ولَمَّة الملك، ويعرفون خطاب العقل والقلب والنفس والروح والملك والسرِّ والشيطان بنور خطاب الله، ويعرف به مكان كل خطاب، علمهم لدنيٌّ، ولسانهم إلهيٌّ، وقلبهم عرشيٌّ، وروحهم ملكوتيةٌ، وأسرارهم مشحونةٌ بالعلوم المجهولة، والأنباء العجيبة الغيبية، ويزنونها في جميع الأنفاس بميزان القرآن والسنة وكلام الأولياء.

قيل: هم العلماء بالله، والعلماء بأمر الله، والمتبعون سنة رسول الله ﷺ.

قيل: هم الواقفون مع حدود العلم وشرائطه، لا يجاوزونه بالرخص والتأويلات.

ويقال: الراسخ في العلم مَنْ يرتقي عن حدِّ تأمل البرهان، ويصل إلى حقائق البيان.

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ﴾ ذكر الأنبياء عند ذكره تسليةً في الامتحان، وتثبيتًا للكشف والخطاب والبيان بالغيرة لزيادة المحبة والقربة، وذكر نوح عليه السلام ثاني ذكره؛ لأنه هو نواح الحضرة من الشوق إلى المشاهدة، ولأن بينهما مشاركةً في احتمال الجفاء من الأغيار، ألا ترى كيف قرَّبه الله في أخذ الميثاق بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب:٧].

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ بيَّن تخصيص موسى عليه السلام بمقام الخطاب الخاص بلا واسطة، بادر موسى عليه السلام من بين الأنبياء بسؤال الرؤية، فأوقفه الحق في مقام سماع كلامه، ومنعه من مشاهدة رؤيته صرفًا، وتحمل نبينا محمد ﷺ أثقال الشوق بمطايا أسراره، ولم يسأل مشاهدة الحق جهرًا بالانبساط، فأوصله الله إلى مقام مشاهدته ورؤيته بالظاهر والباطن بعين الرأس وبعين القلب، ثم أسمع كلامه بلا واسطة ولا حجاب، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم:١٠، ١١]، وأن الله سبحانه إذا أراد أن يسمع كلامه أحدٌ من الأنبياء والأولياء يعطيه سمعًا من أسماعه، فيسمع بها كلامه، كما

حكى ﷺ عنه تعالى: «فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به»[١]، أسمعه كلامه، وليس هناك الحروف والأصوات، بل أسمعه بحرف القدرة وصوت الأزلية الذي منزَّهٌ عن همهمة الأنفاس، وخطرات الوسواس، وليس في ولاية الأزل من رسوم أهل الآجال شيءٌ، هناك السامع والمسمع واحدٌ من حيث المحبة لا من حيث الجمع والتفرقة.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ كان رسول الله إلى عباد الله بأمانة الله، وهي نور جلاله الذي برز من وجهه لهم؛ ألا ترى كيف توجَّهوا إليه وصاروا عاشقين به كما عشقت ملائكة الله لوجه آدم عليه السلام، ولذلك سجدوا لآدم عليه السلام، وذلك من تجلِّي كلمته الأزلية التي كظهر نورها في مريم، وكان في ظاهره وباطنه روحًا صدر من زند نعوت الأزل حين انقدحت لظهوره من العدم، وأدنى عيسى عليه السلام خاصية فرده أفضل من خاصية آدم عليه السلام؛ لأن هناك قال: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر:٢٩]، خصَّه بالروح منه فيه، ولهنا قال: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ يعني ظاهر صورته وروحه بمجموعها، ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ العالم بأسرها صورة وروح تلك الصورة هي الأنبياء والأولياء، قال عليه السلام: «بهم يمطر، وبهم ينبت، وبهم يدفع البلايا»[٢].

قوله تعالى: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ لماذا اتصف بأوصاف الحق حين برزت أنوارها له، وباشرت أسرار لطائفها قلبه وروحه

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٨٤).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٩).

وعقله، وامتلأ من سنا الأُلوهية أسراره حين انعقد عقد وجوده، كاد الحال أن يسلبه من رؤية العبودية، فأدركه تأييد الحق حتى رأى الحدث محوًا في القدم، فلَمْ يدَّعِ الربوبية، ونطق في المهد بالعبودية بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم:٣٠]، لم يكن كابن الحلاج - رحمة الله عليه - حين ادَّعى بالأنائية من سكر العشق والمحبة، وفنائه في الأزلية، واتصافه بالأبدية؛ لأنه كان في منزل التلوين، بل حاله كان كحال سيد البشر ﷺ حين عاين الحق بالحق، فخرج من بحار الذات بنعت الاتصاف بالصفات، ورأى اضمحلال الحدثان في جمال الرحمن، فنطق بالعبودية وقال: «أنا العبدُ لا إله إلا الله»[١]، وهكذا أهل القدس في الملكوت تلاشوا في سبحات عزَّته، وقالوا: «ما عبدناك حقَّ عبادتك، وما عرفناك حقَّ معرفتك»[٢]، وكيف لا يكون ذلك وقهر الجبروت استولى على كل ذرةٍ من العرش إلى الثرى، وجرها بأزمة العظمة والكبرياء في تراب ساحات عزَّته، راغمة في جناب جبروته والألفة من عبادة صانعها مستجبلة! لأن كونها وتكوينها محض عبادته، لأنها تكون بداعية القدم من العدم، خصَّ ذكر عيسى عليه السلام والملائكة لأنهما موضع إشارة الكفرة نسبتهم إلى الأُلوهية ذكر عيسى عليه السلام بالأول وأتم ذكر الملائكة.

وبين ظاهر الآية تخصيص الملائكة على عيسى عليه السلام، والمراد من ذلك أنهم سماويون نجباء الحضرة وأشياخ القدرة؛ لأنهم أفضل من عيسى عليه السلام، وأشار بوفق رسوم خواطر الكفرة، وإلا كيف يكون هم أفضل من الأنبياء، والأنبياء جلاليون قدسيون، والملائكة روحانيون ملكوتيون قبل، لا يأنف أحدٌ من القيام بالعبودية، فكيف يأنف منه وبه يتقرب إلى مولاه.

وقيل: كيف يأنف أحدٌ من عبودية مَنْ يظهر على العبيد آثار صنائع الربوبية كما أظهر على عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وغيره.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَـٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ

(١) ذكره ابن عجيبة في «البحر المديد» (٢/ ٤٥٣).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٨٤).

وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ برهانه ظهوره في كل ذرةٍ، ولمعان سنا قدرته في جميع الفطرة، وبرهانه طوف أسراره أسماع قلوب الخلائق يكون وجوده وأنباء عجائب صفاته والنور المبين خطابه الظاهر في الظاهر ونوره في الباطن.

قال ذو النون: استقرت منار الدجى، وأقامت حجة الله على خلقه، فأخذ بحظه ومضيع لنفسه.

وقيل في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ خطابًا من القرآن فيه محل الشفاء لأسرار العارفين.

وقال الأستاذ: البرهان ما لاح في سرائرهم من شواهد الحق.

سورة المائدة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلْأَنْعَٰمِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى ٱلصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْىَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟ ۘ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ لله الأسماء الحسنى، والنعوت الأعلى، من جملتها المؤمن، فألبس نور هذا الاسم خواصه، وزيَّن أسرارهم به، فخاطبهم بخاصية اتصافهم باسمه وصفته، وهم بنوره، ويرونه، فساروا بمراكب اسمه ونعته في ميادين الصفات حتى بلغوا أسرار الذات، فشاهدوه بوصف اليقين والسكون، أي: أيها الشاهدون مشاهدتي.

قال ابن عطاء: أي: أيها الذين أعطيتهم قلوبًا لا تغفل عني، ولا تحجب دوني طرفة عين.

وقال شيخنا وسيدنا أبو عبد الله محمد بن حنيف: الإيمان تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيب.

قال بعضهم: يا غيبٌ، وأي سرٌ، وها تنبيهٌ وإخراجٌ، وآمنوا وصف المحبين.

قال أبو الحسين الفارسي في قوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ أمر الله عباده بحفظ السياسية في المعاملات، والرياضات في المحاسبات، والحراسة في الخطرات، والرعاية في المشاهدات، فليس للعبد من هذه الأسباب مهربٌ، ولا له عنه محيصٌ.

وقال بعضهم: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ عقد القلب بالمعرفة، وعقد اللسان بالثناء، وعقد الجوارح بالخضوع.

وقال جعفر بن محمد في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: أربع خصالٍ: نداء، وكناية، وإشارة وشهادة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ نداء وأي: خصوص النداء، وها كناية، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ، و﴿ءَامَنُوٓاْ﴾[1] شهادةٌ، أشار ﷺ وما فسَّر، وأراد -والله أعلم- أن الياء نداء الأذل، تقاضى بها وصول المشتاقين إلى الأزل بالأزل، فخرجت الأرواح العاشق بنداء القدم من العدم، وأي خطاب بسط لأهل الخصوص من أهل الانبساط، والهاء للغائبين في جلاله، والغائبين في سطوات عظمته وكبريائه، المتحيرين في دائرة هويته، كنَّاهم بوصف الهوية، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ إشارةٌ إلى الواقفين بطلب هلال جماله في سموات عظمته، ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ وصف قبولهم أمانته الأزلية، وهي المعرفة القائمة بالأزلية التي عرضها على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها.

وقوله: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾ هذا كناية عتابٍ؛ حيث طلب منهم الوفاء بعهد الأزل حين قبلوا أمانة المعرفة، وأقرُّوا بالربوبية في معاينة المشاهدة، عقد مع الأرواح العارفة في الأزل بظهور صفاته تعالى لهم، ففي كل كشفٍ صفةٌ لها عقد وعهد لاتصافه بها، فطارت بوصف الصفات ونورها في الأشباح بطلب الحق سبحانه الأرواح والأشباح بفوائد التخلق والاتصاف بالصفات في الأزل؛ ولذلك قال: ﴿أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾؛ لأن العقود جمع عقدٍ وعهد أخذها الأرواح.

قيل: الأشباح في فضاء الأزل.

قيل: أول عقد عليك عقد إجابتك له بالربوبية، فلا تخالفه بالرجوع إلى سواه، والعقد الثاني عقد تحمُّل الأمانة فلا تُحَقِّرَنَّهَا.

---

(١) الإيمانُ صنفان: أحدهما يشير إلى عين الجود، والثاني إلى بذل المجهود؛ فَبَذْلُ المجهودِ خِدْمَتُك، وعين الجود قِسْمَتُه؛ فبخدمتك عناءُ الأشباح، وبقسمته ضياءُ الأرواح، وحقيقة الإيمان تحقق القلب بما أخبر من الغيب [تفسير القشيري (٢/ ٨٣)].

قال الواسطي: العقود إذا لم تشهد القصود تلوَّن عليها المقصود.

قال الجريري: الوفاء متصلٌ بالصفاء.

قال الأستاذ: ناداهم.

قيل: أن أبدلهم وسماهم قبل أن رآهم أهلهم في آزاله لمَّا أوصلهم إليه في آباده شرفهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، وكلفهم بقوله: ﴿أَوۡفُواْ﴾[1] لمَّا علم أن التكليف يوجب المشقة، قدَّم التشريف بالثناء على التكليف الموجب للفناء.

وقوله: ﴿غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ﴾ المحرم الذي ذكره الله هو مَنْ اكتسى في إحرام أنوار عزَّته في حرمِ مشاهد قربه، قد منعه ألا يصيد في بيداء العبودية صيود الحظوظ؛ لأن صيده هو بنفسه تعالى لا غير، ومَنْ كان هو صيدة حرم عليه سواه.

قال الأستاذ: المُحْرِمُ متجردٌ عن نصيب نفسه بقصده إليه، فالأليق بصفاته كفُّ الأذى عن كل حيوانٍ، وقد هتفت هواتف خاطري بأن العاشق إذا أُلبس إحرام العشق حُرِّمَ عليه ما فيه آثار صنع معشوقه وأنوار خصائصه.

ألا ترى إلى مجنون بن عامر لما اصطاد ظبيًا خلاه عن القيد، وأطلقه، وأنشد:

وعيناك عيناها وجيدُك جيدُها ... سوى أن عظم الساق منك رقيقُ

وأنشد أيضاً:

أيا شبه ليلى لا تذاع فإنني ... لك اليوم من وحشية تصديقْ

أقول وقد أطلقتُها من وِثاقها ... ألست لليلى أن شكرت طليقْ

وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ قطع أطماع النفوس دخولها في شهوات اختراع مرادها، وحسم حبال أمنية الخلق عن دفع سابق المشيئة بالمجاهدات، وأفرد نفسه بالحكم الأزلي بنعت نقض عزائم الخليقة، يحكم أولياءه بنزول بلائه عليهم بعد إسقائهم شراب وداده

---

(١) الإشارة: يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود التي عقدتموها على نفوسكم في حال سيركم إلى حضرة ربكم، من مجاهدة ومُكابَدة، فمَن عقد عقدة مع ربّه فلا يحلّها، فإن النفس إذا استأنست بحلّ العقود لم ترتبط بحال، ولعبت بصاحبها كيف شاءت، وأوفوا بالعقود التي عقدتموها مع أشياخكمْ بالاستماع والاتّباع إلى مماتكم، وأوفوا بالعقود التي عقدها عليكم الحق تعالى، من القيام بوظائف العبودية، ودوام مشاهدة عظمة الربوبية، فإن أوفيتم بذلك، فقد أُحِلَّت لكم الأشياء كلها تتصرّفون فيها بهِمّتكم؛ لأنكم إذا كنتم مع المُكَوِّن كانت الأكوان معكم، إلا ما يُتلَى عليكم مما ليس من مقدوركم مما أحاطت به أسوار الأقدار، «فإن سوابق الهِمَم لا تخرق أسوار الأقدار»، غير مُتَعَرِّضين لشهود السّوى، وأنتم في حرم حضرة المولى، والله تعالى أعلم. [البحر المديد (٢/ ٢٨)].

من بحار جماله.

قال جعفر ﷺ: حكم بما أراد، وأمضى إرادته ومشيئته، ومَنْ رضي بحكمه استراح وهدي لسبيل رشده، ومَنْ سخطه فإن حكمه ما مضى، وله فيه السخط والهوان.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ خاطب العارفين عند أخذ ميثاق التوحيد في مقام قرب المشاهدة بألا يباشروا محارم منازل أسفار الأرواح من القدم إلى البقاء، وهى شعائره للنفوس؛ حيث سارت في حرمات الشهوات حتى لا يوافقوها في طلب حظوظها، وهذا معنى قوله: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾، ثم وقَّت لهم في سير الأسرار إلى مشاهدته في زمان ظهور تجلِّي الخاص أن يتجردوا غيره، ويمنعوا أنفسهم في زمان انجذابهم من عالم الحدثان إلى جناب الرحمن عن الدخول في حمى الرفض الذي هو ينزل أهل الانبساط، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾، وإذا رأوا طلاب المريدين الذين ذهبوا أنفسهم إلى الله هديًا في سلوك المقامات، ورأوا المجذوبين والمقلدين بسلسلة المحبة في مزار الحالات، ورأوا السالكين القاصدين إلى كعبة المشاهدة الذين يبتغون وصلته وبقاءه بألا يغيروهم عليهم بغيرة المعرفة؛ إرادة لقطع طريقهم ليلاً، يروا غير نفوسهم في باب الأزل، كما فعل موسى ﷺ ببلعام، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾.

ثم رخَّص المحرمين ممَّا دونه إذا بلغتم إلى مقام المشاهدة ووجدتم عيد الأكبر، وخرجتم من إحرام المجاهدة اصطاد، وفي منزل البسط والانبساط زيادة روح القربة والتنفس في الأنس من ترنم ألحان بلابل بساتين الربيع، وسماع أصوات الطيبات، ومشاهدة المستحسنات.

ألا ترى إلى قوله ﷺ لنساك الغيب، حين تضايقت الأكوان عليهم في مقام القبض كيف قال: «روِّحوا قلوبَكم بساعةٍ فساعةٍ»[1]، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، وإذا كنتم في زمان الامتحان ويتعرضكم أهل ظاهر السبيل والعلم ويمنعكم عن الجلوس بالسماع والرقص والهيجان والوجد والهيمان وعن دخولكم مراد الله من المواقف القدسية لا تخاصموهم، ولا تقتلوهم بأنفاسكم القاتلة؛ حتى لا يكون عليكم رقم الاضطراب في الطريقة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ

(١) تقدم تخريجه.

عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ﴾، وإذا تحيَّر المريدون في بيداء الشوق وهاموا في وادي العشق وفنوا في قفار التوحيد زيدوا عليهم وصف مشاهدتي ولذَّة وصالي قدس عظمتي، يزيد حرقتهم ورغبتهم ومحبتهم لقائي، ويزيد سرعتهم في سيرة العشق والشوق إليَّ، وإذا وقع في طريقهم حظٌّ من حظوظ أنفسهم من أبواب الرخص والتأويلات فامنعوهم منه، واتقوا من احتجابي عنكم حين احتجبوا مني، فإن عذاب الفراق مني أشدُّ العذاب، وما ذكرنا فهو معنى قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

قيل: البرُّ ما وافق عليه العلم من غير خلافٍ، والتقوى مخالفة الهوى، والإثم طلب الرخص، والعدوان التخطي إلى الشبهات.

قيل: البرُّ ما اطمأن إليه قلبك من غير أن ينكره بجهةٍ ولا سببٍ.

قال بعضهم: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وهو طاعة الأكابر من السادات والمشايخ، ولا تضيعوا حظوظكم منهم ومن معاونتهم وخدمتهم، ﴿وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾، وهو الاشتغال بالدنيا، والعدوان موافقة النفس على مرادها وهواها.

وقال سهل: البرُّ الإيمان، والتقوى السنة، والإثم الكفر، والعدوان البدعة.

وعن جعفر عليه السلام قال: البرُّ الإيمان، والتقوى الإخلاص، والإثم الكفر، والعدوان المعاصي.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُواْ﴾ إذا خرجتم عن أسر حقوقنا فارجعوا إلى استجلاب حظوظكم، فأما ما دمتم تحت قهر بطشنا فلا نصيب لكم منكم؛ لأنكم لنا، وقد وقع لي في البرِّ: معنى البرِّ المحبة، والتقوى المعرفة، والإثم طلب حظ المشاهدة من المشاهدة، والعدوان دعوى الأنائية في الاتحاد؛ لأنه احتجب بحظ الربوبية عن الربوبية في العبودية.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ

فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴿٤﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾ خشية الله هاهنا حوالة إلى رؤية سبق العارفين في الأزل، أي: إذا وقع أمر الامتحان عليكم بواسطة الخلق أقبلوا إليَّ بنعت معرفتي ومحبتي، ولا تفزعوا منهم؛ فإنهم مكان امتحاني، فإذا عرفتموني عرفتم مكان الامتحان، فلا تبقى إذا الخوف من غيري، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، فإذا استحكم عقد الخشية منهم فيظهر للعالم بالله سرُّ إفراد القدم عن الحدوث.

قيل: فيه قطعك عن الكل قطعًا، وجذبك إليه جذبًا بهذه الآية: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

قال ابن عطاء: لا تجعل لهم من قلبك نصيبًا، وأفرد قلبك لأن تجدني بصفة الفردانية مقبلاً عليك.

وقال سهل: أعجز الناس مَنْ خشي مِنْ مَنْ لا ينفعه ولا يضره، والذي بيده النفع والضرّ يخاطب بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ﴾.

في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا﴾ أراد في الأزل وأزل الأزل بلا علَّة العمياء، والأزل منـزَّهٌ عن دهر الدهار والأزمنة الفرارة أن يظهر كنوز صفاته وخزائن جود ذاته محبة منه ومعرفة لعباده، كما قال تعالى: «كنتُ كنزًا مخفيًّا، فأحببتُ أنْ أُعرفَ»[1]، فيتجلَّى للعدم من القدم، فظهر العباد، وألزمهم سمة العبودية، وكشف أنوار أفعاله لهم، فعبدوه برؤية نور أفعاله وصنائعه، ثم كشف لهم أنوار الصفات، فأحبوه برؤية نور الصفات، فلمَّا حان وقت خروج سيد الأولين والآخرين وأصحابه وأمنه من العدم بسط بساط العطايا لهم حتى وقفوا على بساط لطفه وكرمه، وربَّاهم بحسن عنايته، ثم تجلَّى لهم بنور الأسماء والصفات، وربَّاهم بها إلى أن بلغوا حدَّ الاستقامة في المحبة والشوق، فكشف لهم جلال ذاته، فعرفوه بنور الأسماء والنعوت والأفعال والصفات، فلمَّا عرفوه بمعرفة الذات كَمُلَت أحوالهم للكشف والمشاهدة والمعرفة والتوحيد، ولم يحتجبوا عنه ببركة مشاهدة النبي ﷺ، وتواصلت الكشوف والتجلِّي بالتجلِّي، قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، حيث ما أكملت لأحدٍ من خلقي ما أكملت لكم.

وما ذكرنا بمجموعه قد أشار ﷺ إليه بقوله – صلى الله عليه وآله وسلم – «جاءَ اللهُ

---

(١) تقدم تخريجه.

من سيناءَ، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران[١]»، والدين هو الطريق منه إليه بنعت عرفان طرق الصفات إلى الصفات، وسبل الصفات إلى الذات، والنعمة منه لهم كشف جماله بلا حجابٍ، والعفو بلا عتابٍ، والوصول بلا عذابٍ، وإتمامها وقايتهم من الاشتغال بغيره، وظهوره من جمال نبيه لهم، ووصول نبيهم إلى درجة مقام المحمود لشفاعتهم وارتضاء الإسلام لهم دينًا، أسأل أستار العظمة عليهم حتى انقادت نفوسهم الأمَّارة الفرَّارة من الحق لسبحات عظمته، ومباشرة قهر سلطان كبريائه، ولا يحتجبون عن الحق بها أبدًا.

قال أبو حفص: كمال الدين في شيئين: في معرفة الله، واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال جعفر بن محمد عليهما السلام: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ إشارةٌ إلى يوم بعث محمدٍ - صلى الله عليه وآله وسلم - ويوم رسالته.

وقيل: ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ إشارةٌ إلى الأذل، والإتمام إشارةٌ إلى الوقت، والرضا إشارةٌ إلى الأبد.

وقيل: ﴿أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٢] أن خصصتكم من بين عبادي بمشاهدة المصطفى - صلى الله عليه وآله وسلم - يخاطب به الصحابة، وجعلتكم حجةً لِمَنْ بعدكم من الأمة إلى يوم القيامة.

قيل: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾ بالمعرفة.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ الدنيا ميتة الأولياء، والاجتناب منها واجبٌ عليهم في تجريد التوحيد، فإذا وقعوا في السير في بحر الأنس، وغلب عليهم البسط والانبساط، وصاروا منعوتين بوصف العشق والمحبة، وطابت نفوسهم في روح القلوب الملكوتية، واحتاجوا إلى مباشرة الرخص والسعادة، فهم في حدِّ الاضطرار من جهة نفوسهم الساكنة بروح الأنس؛ لأنها تطلب من مستحسنات الكون

---

(١) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/ ١٥٩).

(٢) إكمالُه الدين -وقد أضافه إلى نفسه: صَوْنُه العقيدة عن النقصان؛ وهو أنه لما أزعج قلوب المتعرفين لطلب توحيده أمَّلها بأنوار تأييده وتسديده، حتى وضعوا النظر مَوْضِعَه من غير تقصيرٍ، وحتى وصلوا إلى كمال العرفان من غير قصور، ويقال: إكمالُ الدِّين تحقيقُ القَبُولِ في المآلِ، كما أن ابتداءَ الدِّين توفيقُ الحصول في الحال: فلولا توفيقه لم يكن للدين حصول، ولولا تحقيقه لم يكن للدين قبول، ويقال: إكمال الدين أنه لم يبق شيء يعلمه الحق سبحانه من أوصافه، وقد علَّمك، ويقال: إكمال الدين أن ما تقصر عنه عقلك من تعيين صفاته -على التفصيل- أكرمك بأن عرَّفك ذلك من جهة الإخبار. [تفسير القشيري (٢/ ٨٦)].

ما يليق بزيادة هيجان القلوب، وزيادة شوق الأرواح، فإذا باشروا طيبات الدنيا على حدِّ ترويح الخواطر، وتسكينها من الحرق والهيجان، فهي مباحٌ لهم ما داموا في سير المعارف، فإذا بلغوا منتهى المقامات، ولم تجاوز النفوس من تلك المباحات إلى استدامة الحظوظ فهي غير متجانفةٍ إلى الفترة، فإن الله سبحانه يتجاوز عن مؤاخذتها بالحجاب، ويعينها في طلب المآب، فإنه غفورٌ لخطرات أوليائه، رحيمٌ بنعت الوصلة باصطفائه.

قال الأستاذ: يحتمل أن معناه مَنْ نزل عن مطالبات الحقائق إلى رخص العلم لضعف وجده في الحال فرعًا، يجري معه مساهلةً إذا لم يفسخ عقد الإرادة.

ونعم ما قال الأستاذ في وصف السالكين في باب الرخص، فإن الله سبحانه صدق ما ذكرنا في الآية بثانيها من الآي بقوله لنبيه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ﴾، وفي حقيقة التفسير التي أغرب مما مضى ذكره أن الطيبات في الدنيا والآخرة للمحبين مشاهدة الله سبحانه وما سواها، فهو محرمٌ عليهم من الدنيا والآخرة؛ لأنهم يسألون عن الحلال، والحلال مشاهدة جماله وما سواه، فهو غير حلالٍ في الحقيقة.

وتصديق ذلك قوله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «الدنيا مُحَرَّمةٌ على أهل الآخرةِ، والآخرة مُحَرَّمةٌ على أهلِ الله»[1].

سُئل أبو الحسين النوري عن القوت؟ فقال: القوت هو الله.

قال أبو علي الروذباري: أطيب أرزاق العارفين المقوتات.

وقال يوسف بن الحسين: الطيب من الرزق ما يبدو لك من غير تكلفٍ، ولا إشراف نفسٍ، ولي مسألةٌ غير مائةٍ كرت وذلك: أن أصل الطيبات الحلالات ما وقع للعارف في مقام التوكل من الغيب بنعت الرضا.

وأيضًا: الطيبات السماع ورؤية المسحسنات التي تطيب قلوب المحبين بسنائها حتى تفرّغها إلى طلب معادن الحسن في الأزل.

﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى

---

(١) لم أقف عليه.

ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَـٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَـٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾ الإيمان هاهنا المعرفة، أي: مَنْ وقع في بحر النكرة بعد المعرفة ولم يخرج منها إلى ساحل التوحيد الذي هو مفتاح كنوز الذات والصفات وهو محجوب عن الله بالله، ولم تنعقد له عقود المحبة والمعرفة، وما وجد من الطريق ذهب عنه بقوله: ﴿فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ﴾.

وأدقُّ من هذا أن مَنْ عرف الله ووصل إليه بمعرفته وسُكِرَ بأنوار توحيده، وادَّعى في شكره الأنائية التي هي صفة المعدم، فهو محجوبٌ بالوجد من الموجود؛ لأنه كفر الربوبية بأنائيته التي صدرت إليه من رؤية الربوبية، هذا معنى قوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَـٰنِ﴾، وكل عملٍ من أعمال المعرفة له باطلٌ لخروجه من العبودية إلى الربوبية، فإذا رجع إلى العبودية، وعرف إفراد القدم عن الحدوث يستأنف العمل؛ لأنه ما مضى منه قد حبط بدعواه.

وأيضًا: مَنْ ظنَّ أن أعماله في الإيمان الذي هو موهبة الله الخاصة بلا علَّة أداء حقوقه فقد كفر بالإيمان، وحبط عمله؛ لأن الإيمان كشوف ذاته وصفاته، وأعمال العبد معلولةٌ محدثةٌ، وكيف يوازي صفة القدم بعلَّة الحدث.

قيل: مَنْ لم يشكر الله على ما وهب له من المعرفة واليقين، فقد كفر بمعالي درجة الإيمان، وفيه إحباط ما سواه من الاجتهادات والرياضات.

وقيل: مَنْ لم يرَ سوابق المتن في خصائص الإيمان، فقد عمي عن محل الشكر.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ بدأ بغسل الوجه؛ لأنه منبت أنوار تجلِّي الحق التي برزت من الوحدانية للأرواح، فعكست لطائفها على الوجوه.

وأيضاً: خصَّ الوجه بالغسل ابتداءً؛ لأنه تعالى خلقه بنفسه، ونفسه بنقش خاتم ملك الصفات، وسبب حكمة غسله بالماء أنه مغيرٌ بغبار الشهوات، منعوتٌ بنعت الحدث، وخاصية جوهر الماء أنه تعالى خلقه من جوهر أول الفطرة؛ حيث تجلَّى له من نور قدسه وسنا عظمته، فإذا وصل إلى الوجه صار طهورًا من دنس توجهه إلى غير القدم ببركة نوره وقدسه،

الذي أصل جوهر الماء، كذلك جميع الأعضاء، فإذا كان العبد بهذه الصفة في الطهور أجدر أن يكون مقبلاً إلى الله بوجهه.

قال ﷺ: «مَنْ توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره»[١].

والإشارة في الآية إلى تطهير الأسرار من الالتفات إلى الأغيار لاقتباس الأنوار بمياه الحزن التي تجري من عيون قلب المجروح بالمحبة على سواقي العين، فإذا كان مطهرًا من غير الحق فصلواته مواصلةٌ، وحركاته قربةٌ، وقراءته زُلفةٌ، وقيامه محبةٌ، وركوعه خشيةٌ، وسجوده شهودٌ، وتحياته انبساطٌ، ودعواته مستجابةٌ، أي: إذا قمتم عنكم إلى وصلتي ومشاهدتي طهِّروا أنفسكم من الحدوثية في بحار الربوبية حتى تصلوا إليَّ بي؛ لأن الحدث لا يقوم بإزاء القدم.

قال أبو عثمان: شرائط الطهارة معروفةٌ، وحقيقتها لا ينالها إلا الموفقون من طهارة السرِّ، وأكل الحلال، وإسقاط الوسواس عن القلب، وترك الظنون، والإقبال على الأمر بحسب الطاقة.

وقال سهل: أفضل الطهارات أن يظهر العبد من رؤية طهارته.

قوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾[٢] تواتر العزائم بغير الرخص حرجٌ ثقيلٌ على المستأنسين بالله مما سوى الله، مانعةٌ لأهل المجاهدة بقيودها عن الاقتحام إلى عالم الشهوات، فرفع الحرج عن المحبين، وبسط الكرم للمشتاقين، وسهَّل أحكام العبودية على العارفين بوضع الرخص؛ زيادة لاستشواقهم إلى مشاهدته، وتقديسًا لأسرارهم بنور مشاهدته، وهذا معنى ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، أي: أنه لا يريد نصب المجاهدة على أهل المشاهدة؛ لأنه تعالى أضاف تطهير أسرارهم إلى نفسه لا إليهم، قال: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، وما قال: «لتتطهروا»، أي: يطهِّركم عنكم بنور مشاهدته.

---

(١) رواه مسلم (١/ ٢١٦).

(٢) يعني: يطهركم من أحوالكم وأخلاقكم وأفعالكم، لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلق بسبب من الأسباب، والطهارة على سبعة أوجه: طهارة العلم من الجهل، وطهارة الذكر من النسيان، وطهارة الطاعة من المعصية، وطهارة اليقين من الشك، وطهارة العقل من الحمق، وطهارة الظن من النميمة، وطهارة الإيمان مما دونه، ولكل عقوبة طهارة، إلاَّ عقوبة القلب؛ فإنها قسوة. [تفسير التستري (١/ ٢٤)].

قال بعضهم: يريد أن يطهِّركم من أفعالكم، وأحوالكم، وأخلاقكم، ويقينكم عنها لترجعوا إليه بحقيقة الفقر من غير تعلقٍ، ولا علاقةٍ بسببٍ من الأسباب.

قال الأستاذ: يلوح من هذه الآية إشارةٌ إلى أنه إذا نفى المريد عن أحكام الإرادة، فليحط رحله بساحات العبادة، وإذا عُدم اللطائف في سرائره فيستدم الوظائف على ظاهره، وإذا لم يتحقق بأحكام العبودية، فلا يخلون من آداب الشرعية، وإذا لم يخرج عن الفضلة، فلا يدنس تصرفه بالحرام والشبهة.

وقال في قوله: ﴿وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾: أي: يطهِّر ظواهركم عن الذلَّة بعصمته، ويطهِّر قلوبكم عن الغفلة برحمته.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إتمام النعمة هاهنا بيان العبودية للعباد، وتعليمهم آداب المعاد؛ لينالوا بها رؤية المُنعم بنعت الخجل عن أداء واجب حقوقه بنعت ما يليق بجلاله، وهذا هو الشكر المطلوب من عباده بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

قال الأستاذ: إتمام النعمة لقومٍ نجاة نفوسهم، وعلى آخرين نجاتهم عن أنفسهم، فشتَّان بين قومٍ.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ﴾ نعمة الله هداية الله السابقة في الأزل لأهل سعادة المعرفة منهم إلى نفسه بنعت المشاهدة والشوق إلى لقائه، والميثاق الذي واثق به عباده ألا ينشغلوا عنه بغيره إلى الأبد، وإن كان الجنة وما فيها.

قال أبو عثمان: النعمة كثيرةٌ، وأجلُّ النعم المعرفة، والمواثيق كثيرةٌ، وأجلُّ المواثيق الإيمان.

قال الواسطي: أنعم الله على خلقه لكي يشهدوا المُنعم بالنعم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ

وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي: كونوا مستقيمين في محبتي ومعرفتي، قائمين على باب ربوبيتي، ولا تفروا عني بنزول بلائي عليكم، وكونوا حاضرين في حضرتي لشهودكم على مشاهدتي بنعت الصدق والإخلاص والاستواء في جميع الأحوال، ولا تخافوا في عبوديتي من ملامة اللائمين عند إظهاركم حقوقي على حقي.

قال بعضهم: أي: كونوا أعوانًا لأوليائه على أعدائه.

وقيل: كونوا خصماء الله على أنفسكم، ولا تكونوا خصماء لأنفسكم على الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ إن الله سبحانه لَمَّا أراد أمرًا عظيمًا من أمور الربوبية بين عباده وبلاده وضعه على أوليائه؛ ليقوموا به على وفق مراده؛ معذرةً لضعف الخلق، ونيابةً من تقصيرهم، فإذا خرجوا من ذلك بنعت الرضا في العبودية سهَّل الله ذلك بعده على العامة؛ لأن العامة خُلِقُوا بنعوت الضعف، وخَلَقَ أولياءه بنعوت القوة، وفي كل أمة خلق الله أقوامًا من أئمة المعارف والكواشف لواقع نظره وتحمل بلائه وهم النقباء، والبدلاء، والنجباء، والأولياء، والأصفياء، والأتقياء، والمقربون، والعارفون، والموحدون، والصديقون، والشهداء، والصالحون، والأخيار، والأبرار، رئيسهم الغوث، وأئمتهم المختارون، وعرفاؤهم السياحون السبعة، ونقباؤهم العشرة، ونجباؤهم الأربعون، وخلفاؤهم السبعون، وأمناؤهم الثلاثمائة، كل واحدٍ منهم خُلِقَ على صورة نبيٍّ، وسيرة رسولٍ، وقلب ملكٍ، لا يعرفهم إلا مثلهم، وهم لا يعرفون إلا الله حقيقةً، قال تعالى: «أوليائي تحت قبائي لا يعرفهم سواي»(١).

رُوي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لله تعالى في الأرض ثلاثمائة، قلوبهم على قلب آدم ﷺ، وله أربعون قلوبهم على قلب موسى ﷺ، وله سبعةٌ قلوبهم على قلب إبراهيم ﷺ، وله خمسةٌ قلوبهم على قلب جبريل ﷺ، وله ثلاثةٌ قلوبهم على قلب ميكائيل ﷺ، وله واحدٌ قلبه على قلب إسرائيل، فإذا مات الواحد أبدل الله مكانه من الثلاثة، وإذا مات من الثلاثة أبدل الله مكانه من الخمسة، وإذا مات من الخمسة أبدل الله مكانه

---

(١) ذكره المناوي في التعاريف (١/ ٦٧٦).

من السبعة، وإذا مات من السبعة أبدل الله مكانه من الأربعين، وإذا مات من الأربعين أبدل الله مكانه من الثلاثمائة، وإذا مات من الثلاثمائة أبدل الله مكانه من العامة بهم يحيي ويميت، قال: لأنهم يسألون إكثار الأمة، فيكثرون، ويدعون على الجبابرة، فيقصمون، ويستسقون فيسقون، ويسألون فينبت لهم الأرض، ويسألون فيدفع عنه أنواع البلاء»[1].

قال أبو بكر الوراق: لم يزل في الأمم أخيار وبدلاء وأوتاد على المراتب، كما قال تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾، وهم الذين كانوا مرجوعين إليهم عند الضرورات والفاقات والمصائب.

كما رُوِي عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون في هذه الأمة أربعون على خلق إبراهيم عليه السلام، وسبعة على خلق موسى عليه السلام، وثلاثة على خلق عيسى عليه السلام، وواحد على خلق محمد ﷺ، فهم على مراتبهم سادات الخلق»[2].

قال أبو عثمان المغربي: البدلاء أربعون، والأمناء سبعةٌ، والخلفاء من الأئمة ثلاثةٌ، والواحد هو القطب، والقطب عارفٌ بهم جميعًا ومشرفٌ عليهم، ولا يعرفه أحدٌ ولا يشرف عليه، وهو إمام الأولياء، والثلاثة هم الخلفاء من الأئمة، يعرفون السبعة، ويعرفون الأربعين، ولا يعرفهم أولئك السبعة، والسبعة الذين هم الأمناء يعرفون الأربعين الذين هم البدلاء، ولا يعرفهم البدلاء، والأربعون يعرفون سائر الأولياء من الأئمة، ولا يعرفهم من الأولياء أحدٌ، فإذا نقص من الأربعين واحدٌ أبدل الله مكانه واحدًا من أولياء الأمة، وإذا نقص من السبعة واحدٌ جعل مكانه واحدًا من الأربعين، وإذا نقص من الثلاثة واحدٌ جعل مكانه واحدًا من السبعة، فإذا مضى القطب الذي هو واحدٌ في العدد وبه قوام أعداد الخلق جعل بدله واحدًا من الثلاثة، هكذا إلى أن يأذن الله لقيام الساعة.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٩).

(٢) لم أقف عليه.

عَن كَثِيرٍۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾ إذا أراد الله طرد الغافلين عنه هيَّج نفوسهم إلى مباشرة أحكام القهر الذي يوجب لهم البعد، فبعد ذلك تقع مخالفة الأمر ونقض العهد الذي هو أصل الإيمان.

قال يوسف بن الحسين: ترك حفظ العهود الصحيحة ونقض المواثيق يوجب اللعن، قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾.

قيل: نقض العهد مع الحق السكون إلى سواه.

وقال الأستاذ: جعل جزاء العصيان الخذلان للزيادة في العصيان.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾[1] أراد نور المعرفة بلا واسطةٍ ولا تصنُّعٍ.

وأيضًا: نوره الذي يتجلَّى به من وجود الأنبياء والأولياء لأبصار الناظرين، وشاهد ذلك النور ما جاء في كتابه من بيان مقامات الصديقين، قد جاء النور منه جمعًا، وجاء الكتاب تفرقةً ظاهرةً في شهادته على مَنْ له من الله نورٌ، والنور والكتاب صفتان من صفات الأزل ظهر لجذب السالكين إلى الله.

قيل: كشف عن أسراركم غطاء الوحشة، وألبسكم لباس الأنس.

قال بعضهم: بعناية الأزل وصلتم إلى نور الكتاب المبين ونور التوحيد.

﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ ذكر واحدًا منهما من النور والكتاب؛ لأنهما في عين الجمع واحدٌ، أعني معدن الصفات.

والإشارة بقوله: ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: يهدي بصفته إلى طرق معرفة ذاته، ويهدي

---

(١) أنوار التوحيد ظاهرة لكنها لا تغني عند فقد البصيرة، فمن استخلصه بقديم العناية أخرجه من ظلمات التفرقة إلى ساحات الجمع فامتحى عن سِرِّه شواهد الأغيار، وذلك نعت كل من وقف على الحجة المثلى [تفسير القشيري (٢/ ٩٨)].

بذاته إلى سبل معرفة صفاته ورضوانه ما رضي للأنبياء والأولياء في الأزل من إصابة أبصارهم إلى محل الرضوان الأكبر، وهو غاية رعاية حسن تجليه بنعت العيش في مراده، ولا تحصل المتابعة إلا لمَنْ سبق في الأزل رضاه له.

وأيضًا: يهدي بالقرآن مَنْ اتبع محمد ﷺ إلى سبل السلامة التي توصِّل المؤمن بالتوحيد إلى كشف جماله وحسن وصاله بالعوافي.

قيل فيه: يهدي الله لأسلم المسالك في سبيل إرادته مَنْ خصَّه برضوانه.

قيل: إيجاده ليوصله الرضوان إلى محل الرضا والتسليم.

قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: مَنْ أوصله إلى سبيل الهدى يطهِّر أسراره عن خطوات الشك والريب والاعتراضات النفسانية والخطوات الشيطانية، فإذا كان مقدسًا من هذه الشوائب يكشف له أنوار الأزليات والأبديات، وليس كل مَنْ وصل إلى هذه المراتب وصل إلى محل الاستقامة في المعرفة والتوحيد، فيختصُّ به من يشاء مَنْ سبق له عناية الأزل بوصوله إلى محل التمكين الذي لا تجري فيه بعد ذلك أحكام التردد والامتحانات الظاهرة.

قال ابن عطاء: يهدي لنوره مَنْ رضي عنه في الأزل، وخصَّه بكرامات الولاية، وخرجه من ظلمات الاعتراض إلى نور الرضا والتسليم.

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وسمع كفرة اليهود والنصارى ذكر سباق الحقيقة أنهم وصلوا إلى ساحات الكبرياء بكشف مشاهدة البقاء، وسُكِرُوا بوجه القدم، وصاروا بنعت الانبساط في مجالس الأنس، فمن سُكْرِ المحبة ادَّعوا القربة، ومن سُكْرِ الأنس وحلاوة الانبساط ادَّعوا نبوة الأسرار من الأنوار؛ حيث ظهرت أنوار صفات الأزل، وسقطت من زنودها أنوار أسرار الأرواح، كما قال الواسطي: أنا أمن الأزل والأبد، وغلطوا في الطريق، ولم يعرفوا حقائق قول المتقدمين من جهالتهم بمقامات الأولياء والصديقين، فردَّ الله دعواهم إلى أعناقهم المنكسرة حين ألزم الحجة عليهم

بلسان نبيه ﷺ بقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾، أنبأنا الله سبحانه أن مَنْ بلغ نبوة سبل الأزل بنعت المعرفة والمحبة خرج من محل الامتحان حيث الأشباح.

قوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتُم بَشَرٌ﴾ أي: أنتم أيها المدَّعون الكاذبون ليس كما تزعمون ما بلغتم تلك المنازل، بل بقيتم في مقام البشرية والنفوسية، وهذا مقام مَنْ تقدَّس، وتقدَّس الله ممَّا سوى الله.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: يوصل إلى تلك المواقف المقدسة من أهل الولاية من أمة محمد ﷺ مَنْ يشاء، ولا يبالي بتقصيره، ولا يشم رائحتها مَنْ يشاء من الأعداء، لا يبالي بطاعته، فإن طاعته على غير موافقة السنة.

قيل: يغفر لمَنْ يشاء فضلاً، ويعذِّب مَنْ يشاء عدلاً.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾ [1] أي: ملوكًا بالولاية والكرامات، ومعرفة الصفات، والتنور بأنوار كشوف الذات.

وأيضًا: جعلكم ملوكًا بسلطنة الوجد، قوة الحال، وعزَّة علم المعرفة.

وأيضًا: أي: جعلكم ربَّانيين مالكين أنفسكم بمنعها عن غير طاعتي.

وأيضًا: أي: ملتبسين بأنوار أنائيتي.

وأيضًا: معافين من ضرر الامتحان، محررين من رقِّ الحدثان.

---

(١) قال ابن عجيبة: جعل منكم ملوكًا، وقد تكاثر فيهم الملوك تكاثر الأنبياء، فكان كل نبي معه ملك ينفذ أحكامه، فكانت دار النبوة ودار المملكة معلومة، يخلف بعضهم بعضًا في النبوة والمُلك، استمر ذلك لهم، حتى قتلوا يحيى، وهموا بقتل عيسى، فنزع الله منهم الملك، وأنزل عليهم الذل والهوان، وقيل: لمَّا كانوا مملوكين في أيدي القبط، فأنقذهم الله، وجعلهم مالكين لأنفسهم، سماهم ملوكًا [البحر المديد (٢/ ٤٩)].

قال القرشي: ملككم سياسة أنفسكم.

قال سهل: مالكين لأنفسكن، ولا يملككم نفوسكم.

قال الحسين: أي أحرارًا من رقِّ الكون وما فيه.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يعني: كشف مشاهدتي وحلاوة مخاطبتي سنا آياتي ومعجزاتي، وما يظهر لكم من وجه موسى ﷺ من نور تجلياتي.

قال ابن عطاء: قلوبًا سليمةً من الغلِّ والغشِّ.

وقيل: سياسة النبوة، وآداب الملك.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: ادخلوا بنعت المعرفة والنظر الفائق مساكن القلوب؛ لتجدوا منها أنوار الغيب.

وأيضًا: اطلبوا في مواقف المقدسة رجال المعرفة؛ لتصلوا ببركة أنفاسهم قدس جلالي.

قوله تعالى : ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ يخافون من الله فراقه، وتذوبون بي جلاله وعظمته وميثاقه ﴿ٱلَّذِين أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ بألا يخافا غير الله، ويتوكلا على الله، وزيادة النعمة عليهما أن الله تعالى عصمهما من جريان الخواطر المذمومة على قلوبهما، وأنه تعالى أدخلهما في باب عظمته وأنوار هيبته.

قال سهل: أنعم الله عليهما بالعصمة والمراقبة.

قال الأستاذ: أنعم الله عليهما بأنوار العرفان، فلم يحتشما من المخلوقين.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [1] أي: كونوا على رجائي في وقت إياسكم، وثقوا بمحبتي لكم، ولا تفزعوا من امتحاني إياكم؛ لأني لا أقطع حبل الوصال عنكم، ولا أنزع ثياب عصمتي عنكم، أي: إن كنتم عارفين بي تصدقون قولي توكَّلوا عليَّ عند مباشرة قهري إياكم، فأنا اللطيف بأوليائي الرحيم بأصفيائي.

---

(١) أي: ينبغي للمؤمن أن يتوكل على الله ، فإن قُدِّرَ أن واحدًا منهم لا يتوكل، فلا يخرج به ذلك عن الإيمان، كذلك من لم ينتهِ عن الفحشاء والمنكر؛ فليست تخرج صلاته عن كونها صلاة، ويقال: بل الصلاةُ الحقيقية ما تكون ناهيةً لصاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن لم يكن من العبد انتهاءٌ فالصلاةُ ناهيةٌ على معنى ورود الزواجر على قلبه بألا يفعل، ولكنه يُصِر ولا يطيع تلك الخواطر، ويقال: بل الصلاة الحقيقية ما تنهي صاحبها عن الفحشاء والمنكر؛ فإن كان - وإلا فصورة الصلاة لا حقيقتها، ويقال: الفحشاء هي الدنيا، والمنكر هو النَّفْس، ويقال: الفحشاء هي المعاصي، والمنكر هو الحظوظ، ويقال: الفحشاء الأعمال، والمنكر حسبانُ النجاة بها، وقيل: ملاحظتُه الأعواض عليها، والسرور والفرح بمدح الناس لها، ويقال: الفحشاء رؤيتها، والمنكر طلب العِوض عليها [تفسير القشيري (٦/ ١٠٣)].

قال شقيق: التوكل طمأنينة القلب بموعود الله.

قال سهل: التوكل طرح البدن في العبودية، وتعلق القلب بالربوبية.

قال الواسطي: مَنْ توكَّل على الله لعلَّةٍ غير الله فليس بمتوكِّلٍ على الله، جعله سببًا إلى مقصوده، وفي ذلك قلَّة المعرفة بربِّه.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ مَنْ بلغ عين التمكين ملك نفسه، وملك نفوس المريدين؛ لأنّه عرفها بمعرفة الله ومعها مِن الله سلطانٌ سائسٌ قاهرٌ، مَنْ نظر إليه يفزع من الله، لا يطيق عصيانه ظاهرًا وباطنًا، فأخبر ﷺ عن محل تمكينه وقدرته على نفسه ونفس أخيه، وأعلمنا أن بينهما اتحاداً، بحيث أنه إذا حكم على نفسه صارت نفس أخيه مطمئنةٌ طائعةٌ لله بالانفعال، قال ﷺ: «المؤمنون كنفسٍ واحدةٍ»[1]، ويمكن أنه ﷺ كان مخبرًا عن مقام القدرة التي اتصف بها من الله سبحانه، وفيه بيان لطف استعداد لهارون ﷺ بقبول تلك القدرة الإلهية.

قال سهل في قوله: ﴿لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾: أي: في مخالفة هواها.

قيل: في بذلها لله واستعمالها في طاعته.

قال الأستاذ: لَمَّا ادَّعى أنه يملك نفسه عرف عجزه عن ملكه لنفسه؛ حيث أخذ برأس أخيه يجره إليه، تقدَّس شأن موسى ﷺ من كل خاطرٍ، إشارته إلى أنه لا يعرفه مكان عجزه من النفع والضرِّ في ذرةٍ؛ لأنه عرف أن سلطان قهر الله غالبٌ على كل شيءٍ، وأن الحدث له قدرٌ في الربوبية عند ساحة الكبرياء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ﴾ مَنْ لم يسبق له في الأزل عناية الله صار إحسانه إساءةً، وطاعته تؤول إلى المعصية.

كما قيل: مَنْ لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوبٌ، قرَّب هابيل بقربان نفسه لله، وقرَّب قابيل لحظ نفسه بغيًا وحسدًا على أمرٍ كان مشرفًا بتأيد الله، فلا جرم حاله كان يئول إلى

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

الظلم الأكبر بقوله: ﴿لَأَقْتُلَنَّكَ﴾.

قال ممشاد الدنيوري: كانت معصية آدم عليه السلام من الحرص، ومعصية إبليس من الكبر، ومعصية ابن آدم من الحسد، والحرص يوجب الحرمان، والكبر يوجب الإهانة، والحسد يوجب الخذلان.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ عرفه مكان سبق العناية وسبق الخذلان، أي: إنَّما يتقبل الله القربان ممَّنْ اتقى الله في الأزل ممّا سواه، أي: إنّما يتقبل الله من الذين يخافون عظمته بعد إخلاصهم في طاعته، هل يقبل أم لا، والمتقي هو المتجرد في التوحيد بالموحد من غير الموحد.

قال سهل: التقوى والإخلاص محل القبول لأعمال الجوارح.

وقال ابن عطاء: المخلصين فيما يقولون ويعلمون.

قال السلامي: القرابين مختلفةٌ، وأقرب القرابين ما وعد الله تعالى بقبوله، ووعد الصدق، وهو الذكر في السجود؛ لأنه محل القربة، قال الله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق:١٩].

عن علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليهم السلام قال: التقوى في الأحوال، والأحوال في الأفعال كالروح في الأبدان، والأفعال إذا فارقتها الأحوال فهي جيفة ميتة، والتقوى على أربعة أوجهٍ: من الرياء والعجب ورؤية النفس، وأن يخطر بعده غير الله ﷻ.

﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إن الله سبحانه أسبل ستر الغيرة على وجه القدم حتى لا ينظر إلى أنوار عظمته مَنْ لم يكن أهله، وكشف ذلك الستر لأبصار العارفين؛ لينظروا إلى عظيم جلاله، ويكونوا في رعايته من حيث أن عظمته تعالى محيطةٌ على أسرارهم بنعت مباشرة نورها، فالطائفة الأولى بقوا في أسر عصيانه، والأخرى بقوا في نور سلطانه، فهدَّد قابيل أخاه بالقتل، وأجابه هابيل بسطوة التوحيد وخوَّفه من جلال الحق؛ حيث قال: ﴿مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، ومن شعار أهل الخوف ألا يقاتل أحدًا

لإسقاطهم الوسيلة بينهم وبين رؤية القدر السابق.

﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢) إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٣٣) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٤)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ فيه إشارةٌ لطيفةٌ من الحق سبحانه: إن النيّة إذا وقعت من قبل النفس الأمَّارة في شرٍّ وباشرته فكأنها باشرت جميع عصيان الله؛ لأنها لو قدرت على جميعها لفعلت؛ لأنها أمَّارةٌ بالسوء، ومن السوء خُلقت، فالجزاء يتعلق بالنيّة، وكذلك إذا وقعت النيّة من قلب القلب الروحاني في خيرٍ وباشره، فكأنه باشر جميع الخيرات، لأنه لو قدر الفعل، قال ﷺ: «نيَّةُ المؤمن أبلغُ من عمله»[1].

وفيه إشارةٌ أخرى: إن الله سبحانه خلق النفوس من قبضةٍ واحدةٍ مجتمعةٍ بعضها من بعضٍ، وفرقها مختلفةٌ، وتعلّق بعضها ببعضٍ من جهة الاستعداد والخليقة، فمَنْ قتل واحدًا منها أثَّر قتلها في جميع النفوس عالمة به أو جاهلة، ومَنْ أحيا نفس مؤمن بذكر الله وتوحيده ووصف جماله وجلاله حتى تحب خالقها وتحيى بمعرفته وجمال مشاهدته، فأثَّرت حياتها وبركتها في جميع النفوس، فكأنما أحيا جميع النفوس، وفي الآية تهديد الله لأئمة الضلالة ووعدٌ وشرفٌ وثناءٌ حسن لأئمة الهدى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦) يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٣٧) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٣).

ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: اتقوا الله في النظر إلى غيره، وابتغوا إليه الوسيلة بنعت التقوى، ولا يكون عندكم الوسيلة إليه شيئًا دونه؛ لأنه هو الوسيلة إليه.

ألا ترى إلى قول الشاعر:

أيا جود معنٍ ناج معنى بحاجتي ... فليس إلى معنٍ سواه شفيعُ

وسيلته محبته ومعرفته والاستعانة به عنه.

قال جعفر عليه السلام: اطلبوا منه القربة.

قال الواسطي: لو كشف لهم ما عاملهم به لفسدت أوقاتهم، وأوقاته من يقتدي بهم.

وقال: ما يتوسل به إليكم؛ لقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال الأستاذ: ابتغاء الوسيلة التبرؤ عن الحول والقوة، والتحقق بشهود الطول والمنَّة.

ويقال: ابتغاء الوسيلة التقرب إليه بما سبق إليك من إحسانه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا﴾ قطع حبال أطماع الخليقة عن إضافة القدرة القديمة إليهم؛ حيث أراد الفتنة بالمفتتن، وفتنته بأن يشغل الطالب بنفسه، ويوقعه في يد نفسه، ويغريها إلى الشهوات المحببة القاطعة طريق الحق، ويغرس أشجار الهوى في قلبه، ويسقيها من مياه الغفلة حتى حيزت حومان القلب بظلمة الشهوات،

بحيث لا يدخل فيه نور البرهان والعرفان.

ثم زاد في وصفهم، وعلّق الجميع بإرادته، وقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ﴾.

قال الخواص في قوله: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾: مَنْ يرد الله افتراق أوقاته لم يملك جمعها له.

وقال ابن عطاء: مَنْ يحجبه الله عن فوائد أوقاته لن يقدر أحدٌ إيصاله إليه.

قال أبو عثمان: أي بالمراقبة والمراعاة.

وقال أبو بكر الوراق: طهارة القلب في شيئين: في إخراج الحسد والغشّ منه، وحسن الظنّ بجماعة المسلمين.

قوله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ وصف الله سبحانه أهل السالوس الذين في هذا الزمان يجلسون في الزوايا، ويظهرون التزهد والتقشف، ويطرحون على أعناقهم الطيالسة، يسمعون مديح أهل الدنيا لهم، مثلما قالوا: ليس في الدنيا مثلك يا شيخ، وأنت كذا وكذا، وهو يشتري غرورهم وأقاويلهم الباطلة، وهم يمدحونه لأهل الشفاعة عند الأتراك، ويجعلونه وسيلة إلى السلطان، ويعطونه رشوةً؛ لاستجلاب مرادهم، فهو يسمع الكذب، ويأكل السحت، طهّر الله وجه الأرض منهم، ووقانا من صحبتهم وسوء أفعالهم، فإنهم مرقوا من الدين، وأكلوا الدنيا بالدين.

قال بعضهم: سمّاعون الدعوى الباطلة، أكّالون للسحت يعني أكّالون بدينهم.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾[١] الربَّاني الذي نُسب إلى الرب بالمعرفة والمحبة والتوحيد، فإذا وصل إلى الحق بهذه المراتب والاستقامة في شهوده جلاله وجماله صار متصفًا بصفات الله، حاملاً أنوار ذاته، فإذا فني عن نفسه بقي بربه صار ربانيًا، مثله مثل الحديد في النار؛ فإذا لم يكن في النار كان مستعدًا لقبول النار ولم تكن نارًا، فإذا وصل إلى النار واحمرَّ صار نارًا، هكذا شأن العارف، فإذا كان منورًا بتجلِّي الرب صار ربانيًّا روحانيًّا نورانيًّا ملكوتيًّا جبروتيًّا، كلامه من الرب إلى الرب مع الرب، فالربانيون عشَّاق الله وأحباؤه، الحاضرون من بين يديه، المكاشفون وجه الله سبحانه، والأحبار الذين يسمعون كلام الله من الله بواسطة المفرقون بين الحق والباطل بنور الله.

قيل: الربانيون الراجعون إلى الرب في جميع أحوالهم، والأحبار العلماء بالله وبآياته.

وقيل: الربانيون العلماء بالله، والأحبار العلماء بأحكام الله.

وقال ابن طاهر: الربانيون هم الصحابة الذين أخذوا كلام الرب عن السفير الأعلى، والواسطة الأدنى، والأحبار علماء الأمة العاملون بعلمهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَـٰفِرُونَ﴾ العارف مخاطبٌ من الله في جميع أنفاسه وحركاته، يتنزل على قلبه من الله وحي الإلهام، وربما يخاطبه بنفسه، ويكلمه بكلامه، ويحدثه بحديثه كقوله ﷺ: «إن في أمتي محدَّثين ومكلَّمين، وإن عمرَ منهم»[٢]، فإذا لم يحكم بنفسه بما أنزل الله على قلبه بأن يخرجها من الشك إلى اليقين، ومن الظلمة إلى النور، ومن المخالفة إلى المتابعة، ومن الكذب إلى الصدق، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الظلم إلى العدل، ومن العصيان إلى الطاعة، يكون موصوفًا بأواخر هذه الآيات الثلاثة، كفر أنعام الله الذي هو مقام الخطاب، وظلم بأنه لم يضيع علمه على علمه، وفسق عن مراد الله إلى مراد نفسه.

قال بعضهم: مَنْ لم يحكم للناس بحكمه على نفسه قد كفر نعم الله عنده، وجحد سني مواهبه لديه؛ فظلم نفسه بذلك.

---

(١) الربانيُّ من كان لله وبالله؛ لم تبق منه بقية لغير الله، ويقال: الربّانيُّ الذي ارتقى عن الحدود، والربانيُّ مَنْ توقَّى الآفات ثم ترقَّى إلى الساحات، ثم تلقَّى ما كوشِفَ به من زوائد القربات، فخلا عن نفسه، وصفا عن وصفه، وقام لِرَبِّه وبربِّه، وقد جعل الله الربانيين تالين للأنبياء الذين هم أولو الدِّين، فهم خلفاءُ ينهون الخلْقَ بممارسة أحوالهم أكثر مما ينهونهم بأقوالهم، فإنهم إذا أشاروا إلى الله حقق الله ما يُؤمِنُون إليه، وتحقق ما علقوا هممهم به [تفسير القشيري (٢/ ١٤٤)].

(٢) ذكره القرطبي في التفسير (١٣/ ١٧٤).

وقيل: مَنْ لم يحكم خواطر الحق على قلبه كان محجوبًا من المبعدين.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ إن الله تعالى جعل في بحار القدم والبقاء السواقي لورود الأرواح القدسية، ومشارب للقلوب العارفة به، وسواقي العقول الصادرة من نوره، ولكل واحدٍ منها شريعةٌ من تلك البحار، فلبعضٍ شرعة العلم، ولبعضٍ شرعة القدرة، ولبعضٍ شرعة الصمدية، ولبعضٍ شرعة الحكمة، ولبعضٍ شرعة الكلام والخطاب، ولبعضٍ شرعة المحبة والمعرفة، ولبعضٍ شرعة العظمة والكبرياء، ثم جعل لها منهاجًا من الصفات إلى الذات، ومن الذات إلى الصفات، ومن الصفات إلى الصفات، ومن الذات إلى الذات، ومن الأسماء إلى النعوت، ومن النعوت إلى الأسماء، ومن الأسماء إلى الأفعال، ليعرفه كل واحدٍ بقدر ذوقه وشربه وطريقه، وجعل بينهم تباعدًا وتقاربًا، قال تعالى: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠]؛ فمَنْ وافق شربه شرب صاحبه لم يقع بينهما الخلاف في الشرعة والمنهاج، ومَنْ لم يكن شربه موافقًا لشرب صاحبه لم يعرف أحدهما مكان الآخر ويكون بينهما نزاعٌ، وذلك من غيرة الله عليهم، وعلى نفسه؛ لئلا يركن بعضهم بعضًا، ولا يطَّلع عليه سواه.

ألا ترى كيف وصف مزاج الأبرار من مزاج المقربين، وفرَّق بينهم بالمشارب

والسواقي، وكيف خصَّ بعضًا بالرحيق المختوم بقوله: ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝ خِتَـٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ [المطففين:٢٥، ٢٦]، وذلك رحمةٌ منه على الجمهور، ولتفاوت فوائد استنباط علوم الغيبية من مراد الله، قال ﷺ: «اختلاف العلماء رحمةٌ»[1]، ولاختيارهم في طريقهم بحقائق العبودية وعرفان الربوبية، وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ يعني شيوخًا وأكابر بغير المريدين والسالكين، ﴿وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ من المقامات الشريفة والأحوال السنية، كيف تخرجون من دعواكم بحقيقة عبوديته؟ وتخرجون جواهر العلوم من كتابي وحكمتي.

ثم خاطبهم جميعًا بقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ عرَّفهم مكان تقصيرهم، أي: ما أدركتم مني في جنب ما عندي لكم كقطرةٍ في بحرٍ، سارعوا إلى خيرات مشاهدتي، وجميل عطاياتي.

ثم أفردهم ممَّا وجدوا إلى عين جلاله بقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: إليه مرجع افتقاركم من مقاماتكم إليه، لزيادة القُربة والمعرفة، وهناك يظهر تفاضل درجاتكم، وما غاب عنكم من حقائق أسراري، ونوادر لطائفي، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

قال بعضهم في قول: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ كلٌّ قد فُتح له طريقٌ إلى الله، فمَنْ استقام على الطريقة وصل إلى الله، ومَنْ زاغ وقع في سبيل الشيطان، وضلَّ عن سواء السبيل.

وقال أبو يزيد البسطامي: الطريق إلى الله بعدد الخلق، ولكن السعيد مَنْ هدي إلى طريقٍ من تلك الطرق.

قال الأستاذ في قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي: ولو شاء الله لسوَّى مراتبكم، ولكن غاير بينكم ابتلاءً، وفضَّل بعضكم على بعضٍ امتحانًا.

وقال في قوله: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: مسارعة كل واحدٍ على ما يليق بوقته؛ فالعابدون تقدمهم من حيث الأوراد، والعارفون بهممهم من حيث المواجيد.

ويقال: استباق الزاهدين برفع الدنيا، واستباق العابدين بقطع الهوى، واستباق العارفين بنفي المنى، واستباق الموحدين بترك الورى، ولسان الدنيا والعقبة.

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٣٦).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٥٤﴾.

قوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ إن الله تعالى وبَّخ المفلسين من أهل الرِّدة بأن ليس لهم في محبة الله نصيبٌ بارتدادهم عن الإسلام، وأخبر أنه يجيء بقوم إن الله تعالى قد أحبهم في الأزل وهم بمحبته يحبونه، وهم يوافقون النبي – صلى الله عليه وآله وأصحابه – بشرط المحبة؛ لأن من شرط المحبة الموافقة والطاعة، وبيَّن أن مَنْ لم يكن مطيعًا لم يكن مُحبًّا، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾، وفي الآية ذكر شرف الصحابة والتابعين من بعدهم، وبيَّن تعالى أن المحبة من خواص صفته الأزلية؛ لأنه كان بذاته يحب أحباءه، وكان ذاته موصوفًا بالمحبة الأزلية، وكما أنه تعالى يحب الأولياء بذاته وصفاته فهم يحبون الله بذاتهم وصفاتهم من جميع الوجوه؛ لأن مصدر المحبة القدم، وليس هناك فعلٌ، ومحبة العباد مصدرها قلوبهم، وليس هناك فعلٌ، وأصل المحبة وقع بغير العلَّة من الآلاء والنعماء والأفعال والحركات؛ كأن سبحانه أحبهم بعلمه في الأزل قبل إيجادهم باصطفائية، فكأنه قد أحب نفسه، لأن كونهم لم يكن إلا بكون وجوده، ووجوده سبب وجودهم، وهو تعالى أحب فعله ومرجع الفعل صفته، فكأنه أحب صفته، ومرجع صفته ذاته، فكأنه أحب ذاته، لم يكن الغير في البين، فكان هو المُحِب وهو المحبوب وصفته المحبة، وهم يحبونه بتجلي الصفة في قلوبهم، وهو مباشرة نور محبته في فؤادهم، فلمَّا تكحلت أرواحهم بنور محبته فطاب مصدر أصل الصفة، فوجدت مشاهدة الأزل عيانًا بلا حجاب، فأحبتها بالمحبة الأصلية التي لا تتحول من مصرف الأصل أبدًا، فإذا كان كذلك فالمُحب والمحبوب والمحبة في عين الجمع واحدٌ، وهذه إشارةٌ قوله سبحانه بلسان نبيه – صلى الله عليه وآله وسلم – حيث أخبر عن المُحب المتحد المتصف بصفاته، قال في أثناء الحديث: «فإذا أحببته كنتُ له سمعًا وبصرًا ولسانًا ويدًا»[1].

وفي هذا المعنى أنشد الحسين بن منصور فقال:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ... نحن روحان حللنا بدنَا

فإذا أبصرتني أبصرته ... وإذا أبصرته أبصرتنا

قال الواسطي في هذه الآية: كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته؛ لأن الهاء راجعةٌ إلى

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٣١٩).

الذات دون النعوت والصفات.

قال السلامي: بفضل حبه لهم أحبوه، كذلك ذكرهم بفضل ذكره لهم ذكروه.

وقال: الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة، فإذا لم يكن ذلك لم يكن فيه حقيقة.

وقال يوسف بن الحسين: المحبة الإيثار.

وأنشد في معناه الحسين بن أحمد الرازي، قال : أنشد أبو علي الروذباري لنفسه:

سامرت صفو صبابتي أشجانها   حرق الهوى وغليلة نيرانها

وسألت عن فرط الصبابة قيل لي   إيثار حبك قلت خذ بعنانها

كلٌّ له وبه ومنه، فأين لي   وصفٌ؟ فأؤثره فطاح لسانها

قيل: المحبة ارتياح الذات بمشاهدة الذات.

وقيل: المحبة هي أن تصير ذات المُحب صفة المحبوب.

قال الواسطي: بطل حبهم بذكر حبه لهم بقوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وأن تقع صفات المعلولة من الصفات الأزلي الأبدي، وقد وقعت إلى إشارةٌ: أن محبة الله وقعت في الأزل، ولم يكن هناك وجود الأحباء؛ لأنه تعالى لم يكن محتاجًا إلى رؤيتهم محبته إياهم، ولكن لم تكن محبة الأحباء له إلا بعد أن رأوا مشاهدتهم، فثبتت المشاهدة قبل المحبة، وثبتت المحبة بعد المشاهدة، والمحبة بعد المشاهدة من قبل المحبين لم تكن محبة حقيقية، لأن محبة الآلاء والنعماء وقعت معلولة، ولذلك لم يرتدوا عن دينهم الذي هو المحبة؛ لأن مَنْ رأى عشقه فكيف يرجع عنه مَنْ كان مسلوب القلب بعشقه وجماله!

ثم زاد الله في وصفهم بذكره تواضعهم لأحبائه وغلبتهم على أعدائه بقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾، وذكر بذل وجودهم في طريق محبته، بنعت جهدهم أعدائه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقلّة مبالاتهم في الله إلى ملامة اللائمين بقوله تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾، وعلّق جميل أوصافهم بفضله وسعة رحمته، كما أنه علّق محبتهم بمحبته بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾.

قال أبو بكر الوراق: الجهاد ثلاثة: جهادٌ مع نفسك، وجهادٌ مع عدوك، وجهادٌ مع قلبك، والجهاد في سبيل الله هو مجاهدة القلب بألا تتمكن منه الغفلة بحال، وجهاد النفس ألا تفتر عن الطاعة بحال، وجهاد الشيطان ألا يجد منك فرصة فيأخذ بحظه منك.

﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ

رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي: مُحِبُّكم الله بصدق العناية، ومحبة الرسول تأديبهم بالشريعة، ومحبة المؤمنين الإيثار للنفس والمال إليهم بالأخوة.

قال سهل: أما ولاية الله فهو الاختيار لِمَنْ استولاه، وولاية الرسول ﷺ إعلام الله ورسوله أنه وليٌّ، فيجب على الرسول أن يوالي مَنْ والى الله.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي: مَنْ وقعت له تولية الله بمحبته ورؤية مشاهدته ووقعت التولية من رسول الله بموافقته لطاعة الله، وتوليه المؤمنين من جهة استعداد الفطرة ورؤية أنوار الغيب في وجوههم، فإنه محبوب الله، ومحبوب رسوله، ومحبوب المؤمنين، ويكون طالبًا على نفسه وشيطانه بالنصرة الإلهية.

قال القاسم: موالاة الله مشتقةٌ من موالاة رسول الله، وموالاة رسول الله مشتقةٌ من موالاة السادة والأكابر من عباده، وهم المؤمنون، ومَنْ لمْ يعظم الكبراء السادة لا يبلغ إلى شيءٍ من مقام الموالاة مع الله ورسوله.

قال ﷺ: «من تعظيم جلال الله إكرامُ ذي الشيب المسلم»[1].

قال في قوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ قال: لأهوائهم وإرادتهم ومقاصدهم.

وقال بعضهم: حزب الله أهل خاصته القائمين معه على شرائط الاستقامة.

﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ

(١) رواه البخاري في التاريخ الكبير (٦/ ١٩).

لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَوٰةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ مناداة الحق لا يسمعها إلا أهل الحق، مَنْ سمع نداء الأزل وأجاب بالتلبية بنعت المحبة يُسمع نداءه بالواسطة بشرط إصغاء سمعه الخاص في السماع إلى قول الغيب، ومَنْ لم تكن روحه مستروحة بمروحة الصفاء لمْ يكن سرُّه مُنَوَّرًا بنور البقاء، ولمْ يكن قلبه مشتاقًا إلى جمال مشاهدة الله بنعت الحرق والهجان، ولمْ يكن من أهل السماع، ولمْ يُجِب داعي الغيب.

قال الأستاذ في هذه الآية: الأذان دعاءٌ إلى محل النجوى، فمَنْ تحقق بعلوِّ المحل فسماع الأذان يوجب له روح القلب واسترواح الروح، ومَنْ كان محجوبًا عن حقيقة الحال لاحظ ذلك بعين اللعب، وأدركوا بسمع الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ في الآية تحذير الربانيين العارفين بالله وبحقوق الله، والأحبار العلماء بالله، وبعذاب الله لَمَنْ عصاه، وبثواب الله لَمَنْ أطاعه؛ لئلا يسكنوا عن زجر المبطلين والمغالطين المائلين عن طريق الحق إلى طريق النفس، وبيَّن تعالى أن مَنْ داهن في دينه عذَّبه وإن كان ربانيًّا.

قال رسول الله ﷺ: **«ما مِنْ رجلٍ يجاورُ قومًا يعملُ بالمعاصي بين ظهرانيهم، فلا يأخذون على يديه إلا أوشكَ الله أن يعمَّهم منه بعقابٍ»**[1].

قال الواسطي: الربانيون العارفون مقادير الخلق من جهة الحق، والأحبار الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر.

قال أبو عثمان: الربانيون هم أهل حقيقة الحق، وهم أهل المحبة لله بالصدق.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ

---

(١) رواه الطبراني في الكبير (٢/ ٣٣٢).

وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾ أشار الله سبحانه عن التمثيل والتصوير إلى يد القدم ويد البقاء، يد القدم اصطفائية الأولياء والصديقين بمعرفته ومحبته، وذلك كقضاء الإرادة القديمة من القدرة القائمة بالذات إيجاد الصفوة، فتجلّت القدرة بالمشيئة الأزلية للعدم، فظهرت من العدم بنور القدم أرواح أهل الولاية، فقبضتها القدرة، وأنفقت عليها أنوار المشاهدة، ورتبها برزق القدرة والوصلة حتى أدخلتها الأشباح وأوصلتها إلى يد البقاء، قربتها يد البقاء بقربات الأبدية، ومداناة السرمدية، ففي كل لحظة يتجلَّى لها القدم ألف ألف مرة بتجلِّي البقاء لهم في كل لمحةٍ ألف ألف مرةٍ بغير نعت الفترة والانقطاع؛ لأنه تعالى لا نهاية لجلال قدمه وجمال بقائه.

وأيضًا: يد لطفه مبسوطةٌ بالرحمة الواسعة الأزلية لأهل العناية والسعادة، ويد قهره مبسوطةٌ بالعذاب لأهل الشقاوة ترفع قومًا بميزان اللطف، وتضع آخر من ميزان القهر.

قال ﷺ: «**يدُ الله ملأى، تغيضها نفقةٌ سحاء الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق مذ خلق السموات والأرض، فإنه لمْ يغض ما في يديه، وكان عرشه على الماء، وبيده الميزان، يخفضُ ويرفعُ**»[1].

قال الأستاذ: بل قدرته بالغةٌ، ومشيئته نافذةٌ، ونعمته سابغةٌ، وإرادته ماضيةٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ﴾ أشار سبحانه إلى أن لو استقاموا في عملهم بخطاب الله ولم يترسموا برسم أهل الحظوظ لكُوشفت لهم أنوار الملكوت في قيامهم لقوة قلوبهم وقوة أبدانهم، وكُوشفت لهم أنوار الجبروت في سجودهم لقوة أرواحهم وقوة عقولهم، وبيَّن أن فيهم أمةً مستعدةً لقبول هذه الأحوال، ومع ذلك أخرج الله سبحانه قومًا من مقام التوكل؛ حيث شرط معهم العمل بالكتاب كما شرط على أهل التقوى بقوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق:٢،٣]، ولو كانوا على محل التحقيق في المعرفة لأكلوا رزق الله بالله من خوان غيبه، كأصحاب المنِّ والسلوى والمائدة من السماء، ويفتح لهم كنوز الأرض، وهم على ذلك بإسقاط رؤية الوسائط.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٢٤).

وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إن الله سبحانه وتعالى خوَّف نبيه ﷺ من نفسه حتى لا يبقى فيه غير الله، ويُسقط عن عينه الخلق، ولا يفزع منهم في وصف عليهم ومداواة معايبهم، وحثه على تبليغ ما أخبر الله إليهم، فإن الله تعالى أراه ما لهم بين يديه بقوله: ﴿وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ﴾، ومع ذلك أمره بإبلاغ ما أُنْزِل إليه من الذي يتعلق بأحكام العبودية، ولَمْ يأمره بأنه يعرِّفهم أسرار ما بينه وبين الله، وما بين الله وبين أوليائه، فإن ذرةً من أسرارها لم تحتملها السموات والأرضون، ولا الحدثان بأسرها؛ لأنها وصف خاصية الصفات وكشوف أنوار الذات، ومحل الأنس والجمال بنعت الانبساط والاتصاف والاتحاد، ودعوى الأنائية والأزلية والسرمدية، وذلك ما أبهم الله على قلوب الخلائق من العرش إلى الثرى، من السرِّ ما بينه وما بين قلب نبيه في محل الدنوِّ، ودنوِّ الدنوِّ، لقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم:٨-١١]، لا يطيق أهل الكون أن يحتمل ذرة من ذلك الوحي، وكيف يحتمل الحدثان كشف قدم الرحمن، كان ﷺ حمله به لا بنفسه؛ لأن الحدث متلاشٍ في الأزل، ويبقى أنه في عصمته من كيد نفوسهم وشرِّ معاصيهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يعصمك من أن يوقعك أحدٌ في التمويه والغلط والخيال في طريقك إليَّ، وهذا لكونه مختارًا بالرسالة، وحقائق الرسالة في الرسول ظهور أنوار الربوبية في قلبه وبيان أحكام العبودية في سرِّه.

قال الواسطي: حقائق الرسالة لو وُضِعَت على الجبال لذابت، إلا أنه يظهر العالم على مقادير طاقتهم، ألا ترى إلى قوله: ﴿بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ﴾، ولم يقل ما تعرفنا به إليك.

قال بعضهم: معناه بلِّغ ما أُنزل، ودعْ ما تعرفنا إليك، الأول الشريعة، والثاني ما أُنزل من الأنوار على سرِّ محمدٍ ﷺ لا يطيقها بشرٌ.

قال بعضهم: بلِّغ ما أُنزل إليك، ولا تبلغ ما خصصناك به من محل الكشف والمشاهدة، فإنهم لا يطيقون سماع ما أطقت حمله من مشاهدة الذات والتجلِّي بالصفات.

قال بعضهم: الرسول هو المبتدى، والنبي هو المُقتدى، قال الله في صفة الأنبياء: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام:٩٠].

قيل في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[١] أي: يعصمك منهم أن يكون منك إليهم التفاتٌ، أو يكون لك بهم اشتغالٌ.

قيل: يعصمك من أن ترى لنفسك فيهم شيئًا، بل ترى الكل منه وبه.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾: أي: بيِّن للكافة أنك سيد ولد آدم، وأن آدم من دون لوائك.

ويقال: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ إني أغفر للعصاة ولا أبالي، وأرد المطيعين مَنْ شئت ولا أبالي.

ويقال في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: حتى لا يغرق في بحر التوهم بل تشاهدهم كما هم وجودًا بين طرفي العدم.

﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَـٰنًا وَكُفْرًا﴾ إن خطاب الله سبحانه ذو صفتين: صفة القهر، وصفة اللطف، فمَنْ تجلَّى القرآن بقلبه بصفة اللطف يزيد نور بصارته بلطائف حكمته، وحقائق أسراره، ودقائق بيانه، ويزيد بذلك نور إيمانه وتوحيده، ويعرف بذلك ظاهر الخطاب وباطنه، ومَنْ يتجلَّى لقلبه بصفة القهر يزيد ظلمة طغيانه، وقلَّة عرفانه بحيث لا يدرك فهم الخطاب، ويزيد لحظة بعد لحظة ظلمة قلبه؛ لأن القرآن صفة الله وصفته لا نهاية لها، إما برؤية اللطف أو برؤية القهر، قال تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة:٢٦].

قال الواسطي: هم الذين تولى الله إضلالهم وصرف قلوبهم عن درك دقائق الحكمة.

---

(١) أي: يحفظ ظاهرك من أن يَمَسَّكَ أذاهم، فلا يتسلط بعد هذا عليك عدوٌّ، أو يصون سِرَّك عنهم حتى لا يقع احتشامٌ منهم، ويقال: يعصمك من الناس حتى لا تغرق في بحر التوهم؛ بل تشاهدهم كما هُمْ؛ وجودًا بين طرفي العَدَم [تفسير القشيري (٢/ ١٤٨)].

﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴿٧٢﴾ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسۡتَغۡفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ وصف الله قومًا بعميهم عن رؤية الحق، وإدراك فهم الخطاب بما على عيونهم من غشاوة الغيرة، وبما في آذانهم من وقر الضلالة، فلَمْ يعرفوا محض الاستدراج والامتحان في إمهال الله إياهم في ظلمة العصيان، وحسبوا أنهم يحسنون فيما بينهم وبين الله، ولم يعرفوا سقوطهم عن الدرجات إلى الدركات، ولَمَّا فتح الله باب الرحمة عليهم عرفوا تقصيرهم، ثم جاء إعلام القهر وسد باب العصمة والتوفيق عليهم فرجعوا إلى الضلالة وعمى الباطن؛ لأنهم ليسوا بأهل الله وخاصته، ولو أدركوه بشرط العناية لَمْ يرجعوا عنه أبدًا.

قال بعضهم: ظنوا ألا يفتتنوا في آذانهم وأهوائهم؛ فعموا عن رؤية الحق، وصموا عن استماعه، إلا مَنْ أدركته رحمة الله وفضله فتاب عليه وفتح عينه لرشده.

قيل: ظنوا أنهم لن يقعوا في الفتنة، وهم طالبون الدنيا، معتمدين على الخلق، عميت أبصار قلوبهم، وصُمَّت آذان أسرارهم، إلا مَنْ يتداركه الله بكشف الغطاء، ويحله محل التائبين.

قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ لَمّا ظهرت آيات الله في عيسى عليه السلام وأمه برزت من الآيات أنوار الصفات؛ فوقع أكابر العشاق في مقام الالتباس، وخضعوا عند رؤية الربوبية في رؤية الصفات في الآيات، فغلط المقلدون بما رأوا عليهم شرائط العشق وبراهين عين الجمع، فكفروا بتفريقهم الألوهية في محل تفرقة الحدثان، وذلك ما حكى الله تعالى عنهم بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ أي: عموا عن رؤية حقائق رؤية وحدانية الله التي هي منزَّهةٌ عن الاجتماع والافتراق والامتزاج بالناسوت، والحلول في الحدثان عند ظهوره لأبصار العشاق والعارفين من لطائف الآيات وبراهين المعجزات.

تصديق ذلك قوله تعالى في نفي الأضداد والأشباه والأنداد والأوهام والجبال عن ساحة جلاله: ﴿وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ﴾.

ثم وصف بعد وصف تنزيه المسيح ومريم بأنهما موضع آياته، وبرهان صفاته، ووصفهم بالعجز في الإنسانية والضعف في البشرية عن حمل امتحانه تعالى بقوله: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ أي: هو من عالم الجلال أرسلته إلى عشاقي وعرفاني، وأول من صدقه أمه؛ لأنها شقائقه في مباشرة الآيات ورؤية الصفات، ثم أحوجهما إلى علل الأبشار بوصفهما بأنهما كانا يأكلان الطعام، هذا كنايةٌ وعبارةٌ عن الحدث بذلك أبرأ عنهما الألوهية، وكيف يليق بعزَّة القدم تغاير الحدثان.

﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴿٨١﴾ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ﴾ بيَّن الله سبحانه ميلان الجنس إلى الجنس في الكفر والإيمان من تجانس الفطرة الأولية، وأظهر بغضه لموالاة الأعداء بعضهم بعضًا، ومحبته لموالاة الأولياء بعضهم بعضًا، وبيَّن أن موالاة الكفار توجب سخط الله عليهم أبدًا، وبقاءهم في عذابه أبدًا، ولا تظن في رضاه وسخطه أنّهما صفتان متغايرتان من جهة تأثير

أفعال الحدث في القدم، فإنَّ صفات القدم منزَّهةٌ عن أن تكون محلاً لنزول الحدثان فيها، فإنَّ رضاه سبق عنايته للمقبولين، وإنَّ غضبه إرادة وضوح وسم البعد على المطرودين.

قال الواسطي: ما أظهر من الوسم المكروه على خلقه، جعل ذلك مضافًا إلى غضبه وسخطه من غير أن يؤثر عليه شيءٌ، ألا ترى إلى قول الحكيم كيف يؤثر عليه ما هو أجراه أم كيف يغضبه ما هو أبداه.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ وقع اليهود في سخطه الأكبر؛ حيث اختاروا مَنْ يلههم العجل بالإلهية بقوله: ﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ﴾ [النساء:١٥٣]، وقوله: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة:٩٣]، ثم نزلوا من رتبة الحيوان إلى رتبة الجماد بقولهم لموسى ﷺ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ﴾ [الأعراف:١٣٨]، ومن علامة همتهم أشار إلى رتبة الإنسان بقولهم: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:٣٠]، فلمّا قطع الله نسبة القدم عن الحدث اشتد غضبهم على أهل التوحيد وذلك قوله سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱلْيَهُودَ﴾، ووقع النصارى في سخطه الأصغر، حيث ارتفعوا بهمتهم في طلب الإلهية إلى عيسى ﷺ؛ لأنه مجمع آيات الله وقعوا في الخيال عند بروز الصفة عن الآية؛ لقلَّة إدراكهم الوحدانية، لكن بسبب استعدادهم قبول ظهور الآية صاروا أقرب من اليهود إلى قبول الإسلام، والذي وصفهم الله هاهنا بقوله: ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ أنهم بقوا في النصرانية في طلب الحق، فلمّا لاح الحق لهم خرجوا ممّا دون الحق إلى الحق، وكانوا صديقين في تجريدهم في طريق الله؛ حيث وصفهم الله بالقسيسية والرهبانية، وإذا كانوا في طلب الله أدركهم الله بنور الإسلام والتوحيد، وما أبقاهم في الشكوك والآراء المختلفة.

ثم زاد في وصفهم بالخضوع والإذعان عند بروز البرهان تصديقًا وتعريفًا بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

قال بعضهم: جزيات الخدمة أثبت عليهم وإن كانوا على طريق المخالفة، لكنهم لمَّا أظهروا لزوم الباب بدت عليهم آثارها في قبول الجزية وتحليل المناكحات والانتساب إلى التزهد والرهبانية.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَـٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا

وَكَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ وصف الله سبحانه أهل خالصة الإيمان بحسن الإصغاء عند سماع الذكر والخطاب؛ حيث شاهد عقولهم بشواهد الكتاب بنعت الانبساط، وشاهد قلوبهم حلاوة الخطاب، وشاهد أرواحهم مشاهد جمال الأنبياء، وشاهد أسرارهم أنوار الصفات بوصف إدراك لطائفها ورؤية نوادر عجائبها، فوردت سواقي بحار علومها، وشربت مفرحات عجائب مكنونها، ورأت غرائب تجلِّي عرائسِ غيبها، وهاجت إلى طلب معادنها بنعوت شوقها إلى جمال المخاطب، فلمّا أدركته عرّفته بالألوهية، وعلمته بالوحدانية، وعشقته بما رأت من لطيف خطاب معهم وعرفان أسراره فيهم، فأثرت ما أدركت في الأشباح حتى اضطربت وأدمعت عيونها بدمع الشوق، واحترقت قلوبها بنيران العشق في مجالس الذكر والسماع، فعرف الله صدق عرفانهم ومواجيد قلوبهم بالعلامة الصحيحة، وهي سيلان قطرات الدموع الأسحان بوصف الهيجان على حدود أهل العرفان بقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾ إلى قوله: ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: إذا وجدوا في سماع الخطاب ما فاتوا من لطائف حقائق أسراره وعرفوا حق قدر المُخَاطِب والمُخَاطَب استبشروا بالوجدان، وحزنوا من ضرر الفقدان، وهيج فرحهم وحزنهم إلى الشوق والبكاء، وذلك البكاء من إصابة عيونهم قلوبهم إلى معارف الغيب ومصادفة أرواحهم شواهد القرب، ورُبَّ قتيلٍ قتله سماع القرآن من غمرات المعرفة وغشيان النور على قلوبهم.

رُوي عن جنيد قال: كنت قائمًا أصلي فقرأت هذه الآية ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، فرددتها مرارًا، فنادى منادٍ من ناحية البيت كم تردد هذه الآية، فلقد قتلت بها أربعة نفر من الجن لم يرفعوا رؤوسهم إلى السماء حتى ماتوا من ترديدك هذه الآية.

وكان الصديق ﷺ عنه لا يتمالك بكاءه عند سماع القرآن.

ثم وصف الله سبحانه وتعالى مؤمني أهل الإنجيل بزيادة التصديق بما ذكره في كتابه من قولهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي: صدقناك بما عرفتنا قدر رسولك وأصحابه؛ فإنهم شاهدون قربك ووصالك.

قال ابن عطاء في تفسير قوله : ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾: كادت جوارحهم وقلوبهم أن تنطق بقبول الوحي قبل سماعه في مشاهدة المصطفى ﷺ، ولمّا سمعوا منه لم يطيقوا حمله إلا ببكاء فرح، أو بكاء حسرةٍ، أو بكاء دهشةٍ، أو بكاء حرقةٍ، أو بكاء معرفةٍ، كما قال الله: ﴿ مِمَّا عَرَفُوا

مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾.

قال الأستاذ: إذا قرع سمعهم دعوة الحق بقسم البصيرة في قلوبهم فسكنوا إلى المسموع لما وجدوا من التحقيق.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٨٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ هذا خطاب أهل المشاهدة، أي: إذا وصلتم مقام المشاهدة فلا تميتوا قلوبكم بالمجاهدة، فإن المجاهدة للنفوس، والمشاهدة للقلوب، وإذا ظهرت المشاهدة للقلوب فلا يبقى فيها للنفوس أثرٌ، وأعلم بذلك تعالى أهل قربه الذين بلغوا مقام الأُنس والبسطان ما يجري في قلوبهم من ذكر بدايتهم في ترك الطيبات من القوت واللباس، لا يجوز في هذه المقامات الرجوع إلى البدايات، فإن هاهنا لا يليق مجاهدة النفس بهم؛ لأنهم يذوبون في روح الأُنس ونور البقاء، وهم في ذلك عرائس الله يبيح لهم ما لا يبيح للمريدين من أكل الطيبات ولبس الناعمات لبقائهم في الدنيا ولا يحترقون بواردات الوجد.

ألا ترى أن سبب نزول هذه الآية اجتماع أخيار الصحابة مثل: عثمان بن مظعون، وأبي بكر الصديق، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عمر، وأبي ذر الغفاري، وسالم مولى حذيفة، والمقداد بن أسود، وسلمان الفارسي، ومعقل بن مقرن على ترك النساء والطيب واللحم، واختاروا صوم الدهر، وقيام الليل، والسياحة في الأرض والرهبانية، ولبس المنسوج، ورفض الدنيا كلها، فنهاهم الله ورسوله عن ذلك بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟﴾.

وقال لهم رسول الله ﷺ: «إن لأنفسكم عليكم حقًّا، فصوموا وأفطروا، وقوموا وناموا، فإنِّي أقومُ وأنامُ، وأصومُ وأفطرُ، وآكل اللحم والدسم، وآتِي النساء، ومَنْ رَغِبَ عن سنَّتي فليس منِّي»(١)، بيّن ذلك ألا يجوز لأهل الحقائق والمشاهدات أن يرجعوا إلى مقام البدايات.

وتصديق هذه المعاني الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ الحلال ما وصل إلى المعارف من خوان الغيب بلا كلفةٍ إنسانيةٍ، والطيب ما يقوِّي قلبه في شوق الله وذكر جلاله بالتسرمد.

قال سهل في قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟﴾: هو الرفق بالأسباب من غير طلب، ولا إشراف نفس، وقد يبدأ الرفق بالسبب لأهل المعرفة على الظاهر وهم يأخذونهم من المسبب بالحقيقة.

قال بعضهم: رزقه الذي رزقك ما هو من غير حركةٍ منك ولا استشرافٍ، وهو الطلب الحلال يحلك محل الدعة ويطيب قلبك يتناوله.

وقال الأستاذ: ممَّا أباحه من الطيبات الاسترواح إلى نسيم القرب في أوطان الخلوة، وتحريم ذلك أن تستبدل تلك الحال بالخلطة دون العزلة، والعشرة دون الخلوة، وذلك هو العدوان العظيم، والخسران المبين ذكره في تفسير قوله: ﴿لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَـٰتِ﴾.

وقال في قوله: ﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾: الحلال الصافي أن يأكل ما يأكل على شهوده، فإن نزلت الحالة عن هذا فعلى ذكره، فإن الأكل على الغفلة حرام في شريعة الإرادة، ولي في الحلال والحرام لطيفةٌ، وهي أن الحلال الذي يراه العارف في خزانة القدرة، فيأخذ منها بوصف الرضا والتسليم، والحرام ما قدر بغيره وهو يجتهد في طلبه لنفسه لقلَّة عرفانه بالمحذر في المقدر، وهذا العلم غير موازنٍ في العقول، وما لم يكن مرضيًّا في الشريعة لم يكن مرضيًّا في المعرفة، ولمّا قوي العباد بنسائم لطفه وغذّاهم من موائد قربه، ورماهم بشهيات نعمه، دعاهم بعد ذلك إلى طاعته وطاعة رسوله؛ لئلا يسقط عليهم آداب الحضرة وعلامات العبودية وظرافة الخدمة، وحذَّرهم في كتابه من مخالفته طرفة عين بقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾ طاعة الله تكون في رؤية هيبته، وطاعة الرسول تكون بحلاوة محبته، والحذر إخراج الحدث عن وصف العدم، وحبس الأرواح في منازل الإجلال، أي: استقيموا في المعاملات، واحذروا عن رؤيتها ورؤية أعواضها حتى لا تحتجبوا

---

(١) رواه الطبري في التفسير (٧/ ٩) بنحوه.

بها عن مشاهدة المعطي.

وأيضًا: أي: احذروا في طاعتي من ضمائر الرياء، وفي طاعة رسوله عن ضمائر الشك، واحذروا من كراهة نفوسهم في الطاعة حتى تصلوا إلى مقام الحرقة عن دعوى الأنائية، فإن طاعتي بالإخلاص والمحبة تصير المطيع بصفة الربوبية، وهناك موضع الخطر قال ﷺ: «المخلصون على خطرٍ عظيم»(1)؛ ولأن هناك يفنى الحدث في العدم ويظن الفاني أن ضرغام مكر الأزل نائمًا، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

قال الواسطي في هذا الآية: الحذر لا يزول عن العبد وإن كان مدرجًا تحت الصفات، ولولا ذلك لبسط العلم إلى شرط الجود وقلَّة المبالاة بالأفعال، ولكن الآداب في إقامة الموافقات كلما ازدادت السرائر به علمًا ازدادت له خشيةً.

وأيضًا قال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟﴾: ألا تلاحظوا طاعتكم وتسقطوا عن درجة الكمال.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ۖ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟﴾ لمَّا كان الله سبحانه يتجلَّى بوصف اللطف بشيء فيه محل ابتلاء العباد كان مباحًا لهم وهم غير مأخوذين بتناوله ما داموا مبصرين لطائف الحق فيه، وإذا رفع عنهم نور تجلِّي اللطف حرَّم ذلك عليهم.

وهذه إشارةٌ لطيفةٌ لمَنْ له فهم رجعنا إلى شغلنا بالتفسير: أن العاشق العارف مادام في

(١) رواه البيهقي في الشعب (٥/ ٣٤٥).

سيره إلى الله على نعت التجريد مما سواه وهو في منظر من الله بالمراقبة والإجلال لم تضره أوقات الرفاهية والدخول في الرخص والبسط في السعادة مادام يشبه بشرط العلم.

قال سهل: إذا طلب الحلال ولم يأخذ فوق الكفاية وآثر مما حمله رواسي.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ ألبس الله الكعبة سناء قدس آياته ونورها بصبح مشارق صفاته من مطالع ذاته، وصيرها مرآة حسنه وجماله لنظر نظار معارفه، وأبصار عشاق كواشف رداء عظمته وكبريائه؛ لقيامهم على مشاهد قربه ومواقف قدسه، ليطلبوا منها رؤية براهين هلال صفته ومشارق صنع جلال قدمه، وحرَّم تلك المنازل على الأغيار دون الأخيار، ومنع الأخيار عن الدخول فيها مع بقاء نفوسيتهم؛ ليعلموا أنها ممنوعةٌ من تناول الكل لهم، ليعرفوا عين القدم أنه منزَّهٌ عن خطرة كل حادثٍ، جعل الكعبة بيته، وجعل بيته قلب العالم، ويظهر بجلاله منه لعيون العارفين، كما ظهر لموسى عليه السلام من طور سيناء، وظهر لعيسى عليه السلام من طور المصيصة، وظهر لمحمد ﷺ وأمته من الكعبة، كقوله ﷺ: «جاء الله من سيناء، واستعلن بساعير، وأشرف من جبال فاران»[1]، هكذا جعل قلب العارف كعبة مشاهدته في حرم صورته، وسد بابه عن كل طائفٍ غير نظره، فيظهر آثار جلاله من صورهم.

قال الشبلي: الكعبة أمام أعين الناس، والحق أمام قلوب أوليائه.

وقيل: البيت الحرام حرامٌ في مجاورته ارتكاب المخلفات بمحالٍ.

وقيل: حرامٌ على من يراه أن يرى وصفه دون واصفه.

وقيل: ﴿قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ أي: مَنْ ذلَّ عن قيامه فاعوجَّ بالتدنس بمعصية، فأتاه فتعلق به، أقامه ببركة آثار الأنبياء عليهم السلام والسادة فيه وردَّه إلى حالة الاستقامة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا

---

(١) تقدم تخريجه.

حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ أي: إذا لم تكونوا برؤية الغيب محرمين للغيب، ولا تكونوا بالغيب إلى معالي درجات أهل المعارف والكواشف، ﴿لَا تَسْـَٔلُوا۟﴾ عن حقائقها؛ فإنه إذا بيَّن المستقيم لكم دقائقها بعبارة أهل الأسرار لا تطيقون أن تدركوها، فيسوؤكم حرمانكم عنها، وربما ينكروا على بعضها فتهلكوا، وإن الله سبحانه غيورٌ على هتك ستر الغيب للأغيار.

أنشد الحسين بن منصور -قدَّس الله روحه:

مَنْ لم يضيق قدر ما أولاه سادته	لم يأمنوه على الأسرار ما عاشا
وعاقبوه على ما كان من زلل	وأبدلوه مكان الأنس إيحاشا
لا تقبلوه مذيقًا بعض سرِّهم	حاشا ودادهم من ذكر حاشا

وفيه تحذير المريدين عن كثرة سؤالهم في البداية عن حالات المشايخ.

قال بعضهم: لا تسألوا عن مقامات الصديقين ودرجات الأولياء؛ فإنه إن بدا لكم شيءٌ منه فأنكرتم ذلك هلكتم.

قال سهل: سؤاله حجابٌ، ودعاؤه قسوةٌ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ۚ تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِى بِهِۦ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۙ وَلَا نَكْتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلْءَاثِمِينَ ﴿١٠٦﴾ فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسْتَحَقَّآ إِثْمًا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْأَوْلَيَٰنِ فَيُقْسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعْتَدَيْنَآ إِنَّآ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٧﴾ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ

﴿أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٠٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ ليس ظاهر الآية يوجب إسقاط أمر المعروف والنهي عن المنكر، لكن فيه لطيفةٌ أي: عليكم أن تعرفوا أسرار نفوسكم الأمَّارة التي لو تدعونها لتدَّعي الربوبية، كما كان يدعي فرعون بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، وإذا عرفتم مكائدها عرفتم سرَّ قهر الأزل، فإن قهري يعلمها مخائيل الضلال.

لذلك قال ﷺ: «مَنْ عرف نفسه فقد عرف ربه، ومَنْ عرفني فقد استقام في طاعتي، وصار موضع نظري لا يعوجه كيد كافرٍ، ولا مكر ماكرٍ؛ لأنه محفوظٌ بي، بل مَنْ ينظر إليه صار ضرُّه نفعًا، وفسادُه صلاحًا ببركته»[1].

قال سهل بن عبد الله: للنفس سرٌّ، ما ظهر ذلك السر على أحدٍ من خلقه إلا على فرعون، فقال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات:٢٤]، ولها سبع حجب سماوية، وسبع حجب أرضيةٌ، وكلما يدفن العبد نفسه أرضًا أرضًا سما قلبه سماء سماء، وإذا دفنت النفس تحت الثرى وصل القلب إلى العرش.

قال محمد بن علي: عليًا لنفسك أن كفيت الناس شرَّها، فقد أدَّيت أكثر حقها.

ودخل خادم الحسين بن منصور - رحمة الله عليه - الليلة التي وعد من الغد لقتله فقال له: أوصيني، فقال: عليك نفسك، إن لم تشغلها شغلتك.

وسُئل أبو عثمان عن هذه الآية؟ فقال: عليك نفسك إن اشتغلت بإصلاح فسادها وستر عوراتها شغلك ذلك عن النظر إلى الخلق والاشتغال بهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ إن لله سبحانه أيامًا وساعات لظهور جبروته، وكشف ملكوته، وبروز أنوار عزَّة قدمه، وشروق بروق لمعات وحدانية أبديته، وخصَّ لها خطاب العظمة، وسياسة السلطنة، وأظهرها لقواطب أهل جلاله، ورؤية عظائم قدرته، وإجراء مشيئته، وهناك تفوح مجامر عطر صفاته، وتذيع نفحة مسك سبحات ذاته.

قال سيد أهل البيت ﷺ: «إنَّ لربِّكم في أيام دهركم لنفحاتٌ، ألا فتعرضوا لها»[2].

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ٢٠٨) بأوله فقط.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩/ ٢٣٣) بنحوه، وذكره الزرقاني في شرحه (١/ ٣١٦).

فلما أراد كشف الكلي وإجراء خطاب الأزلي يجمع أكابر أهل القرب من المرسلين والنبيين والملائكة المقربين، وذلك يوم القيامة يوم العرض الأكبر، حيث يتمتع العارفون بجمال الحق وجلاله وقربه ووصاله، والقيامة بلد أحياء الله هناك يستأنسون به أبدًا، ويجولون على مراكب النور في ميادين السرور، هناك مقاماتٌ، ففي مقامٍ لهم بقاءٌ، وذلك من بسط الله بساط عطايا المشاهدة، وفي مقامٍ لهم فناءٌ، وذلك من تراكم عساكر سطوات العظمة؛ حيث يظهر رداء الكبرياء وإزار العظمة، وفي ذلك المقام يضمحل الحدثان وما فيها في عزَّة القدم، فيفنيهم ساعةً بالجلال، ويبقيهم ساعةً بالجمال، ويخاطبهم ساعةً باللطف، وساعةً بالقهر، ليعرفهم طرائق كشوف الألُوهية بنعت المباشرة، ومن ذلك الخطاب قوله: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر:١٦].

وأيضًا قوله سبحانه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ﴾ عرفهم بخطابه معهم عجز العبودية في الربوبية، وفناء الحدث في القدم عيانًا بعد الخبر، خاطبهم بعد إحاطته بجميع ذرَّات الكون وبعد علمه الشامل بجريان الحدثان من الأزل إلى الأبد، ومقصوده تعالى منهم إظهار ما أخبره بما جرى على الخلق في كتابه، كيف توافق الخبر بالمعاينة، وهو تعالى منزَّهٌ عن الجهل بشيءٍ من العرش إلى الثرى، ومعنى قول سيد المرسلين: لا علم لنا بما تريد منا وبما تريد منهم، ولا علم لنا بما أجريت في الأزل علينا، ولا علم لنا بما في أنفسنا فضلاً بما في نفسك، ولا علم لنا إلا علمًا مخلوقًا مستفادًا من علمك وتعليمك إيانا، وإذا بهتوا وتاهوا وتحيروا وتلاشوا في كشف عظمته طاشت أشباحهم وطابت أرواحهم، ولم يطيقوا أن يتكلموا بما في ضمائرهم من صولة الخطاب.

وأيضًا: استحيوا من إظهار ما أجابهم قومهم عند جلاله وعظمته.

وأيضًا: أي: لا علم لنا فيما وضعت في أسرارهم؛ فإنك تعلم الغيب، وذلك قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾.

قال الواسطي: أظهر ما منه إليهم كلهم من تولية، فقالوا: كيف يقول فعلت الأمم أو فعلنا! عندها كلت الألسن إلا عند العبادة عن الحقيقة.

وقال: خاطبهم لعلمه بأنهم يحملون ثقل الخطاب، وأشد ما ورد على الأنبياء في ثبوتهم حمل الخطاب على المشاهدة، لذلك لمْ يظهروا الجواب، ولمْ ينطقوا بالجواب إلا على لسان العجز، لا علم لنا مع ما كشفت لنا من جبروتك.

وقال الجنيد: رفق بهم فلَمْ يفقهوا، ولو فقهوا وعلموا لماتوا هيبة، لورود جواب الخطاب.

قال ابن عطاء: لا علم لنا بسؤالك، ولا جواب لنا عنه.

قال بعضهم: لمَّا ظهر عليهم الحق بعلمه وسبقه ثم سألهم جحدوا علومهم، ونسوها في قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾ إلى قوله: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ وذلك من إقامة الأدب لا جهلاً بما أجابوا.

قال محمد بن فضل: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ أي: لا علم لنا بجواب ما يصلح لهذا السؤال.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ﴾ أي: اذكر لخواص أحبائي والمريدين ما أنعمت عليك من كشف جمالي لك، وإظهار علومي عليك، وتجليائي منك للعالمين، وإلقاء كلمتي إلى أمك؛ إذ برزت منها أنوارها تظهرك ملتبسًا بلباس نور الأُلوهية، وذلك حين ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ أي: بروح المعرفة التي أشرقت من صبح الأزل، وذلك النفخ الأول الذي نفخت في آدم عليه السلام من روح تجلِّي جلالي، وظهور جمالي.

ألا ترى إلى قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران:٥٩] كشف عن قدسه لصورة عيسى عليه السلام، فصار حيًّا بكشفه، ومقدسًا بروح قدسه عن تهمة مزج اللاهوتية بالناسوتية، فصار جميع وجوده روحًا قدسيًّا.

ألا ترى كيف كان يُحيي الموتى بإذن الله أي: بتأييد الله وجلال نور وروح قدسه.

وأيضًا: أيدتك بجبرائيل عليه السلام ليعرفك مكان العبودية والشريعة، ويلزمك في مهد البشرية؛ فإنك صدرت من نور الربوبية، لولا ذلك ما سكنت في الكون.

قال بعضهم: منهم مَنْ ألقى إليه روح النبوة، ومنهم مَنْ ألقى إليه روح الصدقين، ومنهم مَنْ ألقى إليهم روح المشاهدة، ومنهم مَنْ ألقى إليه روح الصلاح والحرمة، وأسر إليهم ممَّا لا يترجم ولا يغير علم رباني غاب وصفه وبقي حقه.

وقال الواسطي: لا تصح الصحبة مع الله إلا بصحبة الروح في صحبة القدم، قال الله:

﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾[1] إلا بالعقل، فمَنْ صحت صحبة روحه في القدم صحت صحبته مع الله.

وقال في قوله: ﴿أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾: ذكر الروح في هذا الموضع لطفًا لقربه من المستترات.

قال بعضهم: قدست روحك أن تمازج شيئًا من هيكلك وطبعك، بل ظهرته لئلا ترى غيري، ولا تشاهد سواي، وأسكنته قالب جرمك سكون عارية كإسكان آدم ﷺ الجنة، لأطهِّر به جسدك عن أدناس الكون حتى أقدسهما جميعًا وأخرجها إلى محل القدس، ومن تمام نعمة الله عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على مثابة بالقوة الإلهية بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله وربوبيته، وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه في كهولته حتى عرف عباد الله تنزيه الله، وقدس صفات الله، وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾.

وزاد في وصفه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ تجلى بقدرته ليده حتى تخط بغير تعلم، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: حكمة معارف العشق، وطريق كواشف الملكوت، وبطون الأفعاليات بنعت ماهيتها، ﴿وَٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ علمه ما علَّم موسى ﷺ بنعت تجليه له من نور التوراة، ليعلم شرائع المعرفة، وحكم الربوبية، ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾ عرَّفه أناجيل القدمية بظهور صفات الأبدية.

وزاد وصفه على وصف باتصافه بالقدرة القائمة، والقوة الإلهية في خلق الطير حين نفخها من نفخ روح القدس التي فيه، وذلك أمارة ظهور ربوبية الله منه، ولذلك كان قادرًا على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى والاستشراف على مكنون الغيب بقوله بما وصف في موضع آخر: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ﴾ [آل عمران:٤٩].

قال أبو علي الروذباري في قوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ غاية الربوبية في غاية العبودية، لَمَّا استقام على بساط العبودية أظهر عليه أشياء من أوصاف الربوبية بقضائه

---

(١) قال الورتجبي: من تمام نعمة الله تعالى عليه صيرورة جسمه بنعت روحه في المهد على شبابه بالقوة الإلهية، بأن نطق بوصف تنزيه الله وقدسه وجلاله، وربوبيته وفناء العبودية فيه، وبقيت تلك القدرة فيه إلى كهولته، حتى عرّف عباد الله تنزيه الله وقدس صفات الله وحسن جلال الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾، وزاد في وصفه بقوله: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾، تجلى بقدرته بيده حتى يخط بغير تعلم [البحر المديد (٢/ ١٥٥)].

وقدره.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى﴾ وحي الله إلى المرسلين يكون خاصًا ويكون عامًّا، الخاص بغير واسطةٍ، والعام بواسطة جبريل عليه السلام، وللوحي الخاص مراتب: وحي بالفعل، ووحي بالصفة، ووحي بالذات، وحي الذات يكون في مقام التوحيد عند رؤية العظمة والكبرياء، وهناك محل الفناء، ووحي الصفات يكون في مقام المعرفة عند تجلِّي الجلال، وهناك محل البقاء، ووحي الفعل يكون في مقام العشق والمحبة، وهناك منازل الأنس والانبساط، وهاهنا للأنبياء والأولياء نصيبٌ، وليس لهم في الوحي برسالة المُلك نصيبٌ، وحي منزل التوحيد بالكلام، ووحي منزل المعرفة الحديث، ووحي منزل العشق الإلهام، ومقام الإلهام منقسمٌ على الإلهام الذاتي والصفاتي والفعلي، وربما يكون الإلهام الفعلي بواسطة الملك والروح والقلب والعقل والسر وحركة الفطرة، وربما يرد على السمع قرع هواتف الغيب ظاهرًا، وربما يكون بلسان الخلق حركات الأكوان، ولا يعرف هذه المقامات إلا ذو منصبٍ في معرفة الخواطر وحقائق علومها، وهاهنا وحي الصفاتي الذي يتولد منه الإيمان والمعرفة.

ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى﴾ أي: اعرفوني وصدقوني فيما كشفت لكم من أنوار الغيب في قلوبكم وبرسولي فيما أرسلت إليه من أنباء الغيب وبيان شرائط الشرع في نعوت العبودية.

قوله: ﴿ءَامِنُوا۟ بِى﴾ مقام الجمع، و﴿وَبِرَسُولِى﴾ مقام التفرقة.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تفحص القوم مكانتهم من عند الله سبحانه بتأييد الظاهر ومشاهدة المعجزة جهرًا؛ لأنهم موقنون مشاهدون بالقلوب والأرواح والأسرار حقائق الغيب، ورأوا منازلهم في محل القرب والخطاب عند كشف رؤية الحق لإبصار قلوبهم، لكن القوم ليسوا بمتمكنين في شهود الغيب، تجري عليهم أحكام أهل التلوين من معارضة النفس والعدو في رؤية الغيب، وطلبوا آيات الله؛ لدفع المعارضة وطمأنينة القلوب.

ألا تـرى إلى الخليل في بداية أمره كيف قال: ﴿أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، فأجابـه الله قـال: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾ [البقرة:٢٦٠]، فأحوجه إلى رؤية القدرة في الفعل بقوله: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وليس في الوصـفين شـكٌّ مـن جانب النبوة ومن جانب الولاية، فلمّا سمع عيسى ﷺ منهم اشتد عليه أمـرهم وعجـب مـنهم ذلـك بعـد إيقـائهم، وأجـابهم بقـوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: خافـوا الله فـيما يجري عليكم من معارضة النفس، أي: ألزموا اشتغالكم بدفع الخطـرات؛ كـي لا تحتجـبوا عـنه بغـيره، وإن مـن وصـل إلـيه بنعت المعرفة ورؤية الغيب لا يستحـسن مـنه طلـب الآيـات لتصديق الباطن، فإنه صفة أهل البداية، فأظهر القوم عجزهم عن إدراك مقامات أهل التمكين بقوله تعالى: ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي: نـريد أن تـربِّي أبدانـنا بمأكول الجنة، كما تربِّي قلوبنا وأرواحنا بموائد المشاهدة، ويزيد في قلوبـنا تـصديقك ومحبـتك حتـى لا تبقـى فيـنا معارضـة الطبـيعة، ونكـون من شهداء رؤية المعجـزة، الصادقين بآثارنا عند المريدين المقتدين، ولأنك قلت لنا: أنتم أصفياء الله وأولياؤه، وإذا حـصل مـرادنا تحـصل طمأنينة قلوبنا في صدق الله وصدقك وصدق ولايتنا، فسأل ﷺ مرادهم بقوله تعالى: ﴿أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ سأل من السماء لا من الأرض لما فيها من الروحانية والحنانية والملكوتية غير ممزوجة بعناصر الدهر الذي يتولد منه عصيان الله.

وأيضًا: يسأل من السماء خصوصية في المعجزات.

﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا﴾ أي: اجعلها عيدًا ولا تجعلها وعيدًا لمجهور، واجعلها سببًا لعودنا من رؤية الآيات إلى رؤية الصفات، عيدًا لأولنا من المريدين وآخرنا من العارفين، ﴿وَءَايَةً مِّنكَ﴾ دليلاً منك إليك، فأجابهم الله سبحانه بما سألوا وهداهم من كفران نعمته بقوله تعالى: ﴿إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ أي: مَنْ عاين رؤية صفاتي في رؤية آياتي ثم يرجع إلى الفترة وحظوظ النفس واختيار شهوة الدنيا علينا فإنا نحجبه عنا حتى لا تصل إلى قلبه نسم عبير صفاتي وورد جلال مشاهدتي، ولا يشرق عقله صبح وصالي، ولا تنكشف لروحه أنوار

حسني وجمالي، وإن هذا العذاب عذاب الفراق، وهو أشد العذاب للطالبين .

قال الشيخ أبو عبد الله: كنت نائمًا في بدايتي، فرأيت في منامي رسول الله ﷺ يحركني، قال: قم يا أبا عبد الله، فإن من عرفه وآثر غيره عليه فإنه يعذبه عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين.

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ غيَّر الله سبحانه المنتسبين إلى الشرك بقولهم إن الله ثالث ثلاثة فأظهر الله تنزيه عيسى عليه السلام ممَّا زعموا.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾.

وأيضًا: ألف الله سبحانه أن يخاطب الكفرة بها كذبوا وزاغوا عن التوحيد والحق، وخاطب مع صفيه وروحه إعلامًا للكافرين بتغييرهم؛ لأن السلطان إذا أراد أن يخاطب قومًا خاطب كبيرًا من كبرائهم، وأراد بذلك قومه، وفيه أن الله سبحانه أراد أن يجر روحه عليه السلام إلى مقام سطوات العظمة وخطاب الكبرياء، ليفنيه به عنه حتى لا يبقى للحدث في القدم أثرٌ، ولولا فضل الله عليه لا يكون بعده أبدًا من عزَّة الخطاب وعظمة القول.

قال عبد العزيز المكي: لولا إثبات الله إياه لذاب على مكانه، وصار ماءً بين حياء الله وخجلته، ولو خُيِّر عيسى عليه السلام بين النار وبين هذا العتاب لاختار النار، ولو أحرق بنار الأبد كان أحب إليه من أن ينسب الربوبية إليه.

وفرق ابن عطاء بين السؤالين: بين سؤال الأنبياء حين قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، وسؤاله عن عيسى عليه السلام ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ﴾، وقال سأل عيسى عليه السلام عن قصته وحاله ولم يسعه السكوت عنه، وسأل الأنبياء عن أحوال الأمم فدهشوا، وذلك أنَّ سؤال الرسل إظهار العظمة، وسؤال عيسى عليه السلام براءةٌ وتنزيهٌ عما قيل فيه.

وقد سنح لي قول آخر: وهو أن الأنبياء حين سُئلوا كانوا في مقام الهيبة ومشاهدة

العظمة، لذلك بهتوا وتحيروا وسكتوا، وعيسى ﷺ هناك أيضًا معهم بقوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ﴾، وهو من الرسل، فلمّا أفرده الحق للخطاب كان في مقام البسط والانبساط ومشاهدة الجمال، لذلك تكلم وأجاب ولم يسكت.

قوله تعالى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ أي: تعلم ما في نفسي من توحيدك ومعرفتك وتنزيهك وتقديسك وتعظيمك وإجلالك الذي ينفي الأضداد والأشباه والأنداد، ولا يليق بجلالك ممّا تخاطبني بقولك: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولا أعلم ما في نفسك من علوم الغيب، وغيب الغيب ومكر القدم، وما يعلم ما في نفسك بأنك لو تريد أن تحرق جميع الأنبياء والصديقين لا يبالي بها.

وأيضًا: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾ من كنه القدم ووجود الأزل.

قال الواسطي: يعلم ما في نفسي لك، ولا أعلم ما في نفسك لي.

وقال الحسين: تعلم ما في نفسي لأنك أوجدتها، ولا أعلم ما في نفسك لبعد الذات عن الإدراك.

قال الجنيد: تعلم ما أنا لك عليه وما لك عندي، ولا أعلم مالي عندك إلا ما أطلعتني عليه أو أخبرتني به.

وقال سهل: تعلم ما في نفسي ممَّا أودعته نفسي ممَّا لا تظهره عليَّ، ولا أعلم ما في غيبك لي.

قال علي بن موسى الرضا عن أبيه عن جعفر عليهم السلام قال: تعلم كيفيتي، ولا أعلم كيفيتك ولا كيفيته لك.

قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾ أي: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، أي: ما قلت لهم إلا بإفراد قدمك عن الحدوث، وإسقاط الغير عن البين، وهو قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ أظهر عبوديته في عبوديتهم فردًا للموحد المنزَّه عن الأنداد والأشباه.

قوله تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: في الدنيا في طاعتهم وعصيانهم وما كشفت لي من بعض سرائرهم.

وأيضًا: أي كنت عليهم شهيداً، ﴿مَّا دُمْتُ﴾ في مقام الرسالة وإبلاغ الوحي إليهم، أما إذا أفنيت عن الأكوان من صولة مشاهدتك فغابت عني أخبار أهل الكون.

وتصديق ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كيف

نخفي عليك ما خلقت ظاهره وباطنه، وأنت قديمٌ محيطٌ بكل ذرةٍ من العرش إلى الثرى، فالعجز عن ذلك صفة مَنْ يتلاشى فيك، كما أنا حين توفيتني عني إليك.

قيل في قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ﴾: أنَّى لي لسان القول إلا بعد الإذن بقولك: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وقيل في قوله: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: لمّا أسقطت عني ثقل الإبلاغ كنت مراقبًا لهم بما أجريت عليهم من مختوم قضائك.

قال أبو بكر الفارسي في هذه الآية: الموحد ذاهبٌ عن حاله ووصفه وعن ماله وعليه، وإنما هو ناظرٌ بما يرد ويصدر ليس بينه وبين الحق حجابٌ، إن نطق نعته وإن سكت فيه، حيثما نظر كان الحق منظوره، وإن أدخله النار لم يلتمس فرجًا لأن رؤية الحق وطنه ونجاته وهلاكه من عينٍ واحدةٍ، لم يبق حجابٌ إلا طمسه برؤية التفريد، وكان المُخَاطِب والمُخَاطَب واحدًا، وإنما كان يخاطب الحق نفسه بنفسه لنفسه، قد تاهت العقول ودرست الرسوم وبطل ما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ اتفق أهل التفسير أن الله لا يغفر للمشركين الذين ماتوا على شركهم، ذلك مذهب المسلمين جميعًا، وقد أرى هاهنا لطيفةً، وهي أن الله تعالى أجرى على لسان عيسى عليه السلام سرًّا مكتومًا مبهمًا على قلوب جميع الخلائق، إلا مَنْ كان مِنْ أهل خالصة سرِّه، ومحال أن خفي على عيسى عليه السلام أن مَنْ مات على الشرك وهو غير مغفور في ظاهر العلم ووارد الشرع وإنما نطق بذلك من عالم السر المكتوم في الغيب، ومفهوم أصل خطاب في ذلك كأنه أشار إلى ما أشار ابن عباس وابن مسعود -رضي الله عنهم- في قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [هود:١٨]، قالا: يأمر النار أن تأكلهم وتفنيهم، ثم تجدد خلقهم.

قال ابن مسعود: ليأتين على جهنم زمانٌ تخفق أبوابها ليس فيها أحدٌ، وذلك بعدما يلبثون فيها أحقابًا.

قال الشعبي: جهنم أسرع الدارين عمرانًا وأسرعها خرابًا، ألا ترى صورة اللفظ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ يعني بكفرهم ﴿فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ فهو حقٌّ لإطلاق الملك لك، وإن تغفر لهم ما هم فيه في الدنيا اليوم مَنْ يمنعك عن ذلك وأنت العزيز الواحد بالوحدانية في مُلكك لست بجاهل في غفرانهم، فإنك حكيمٌ في أمرك ومرادك وإمضاء مشيئتك، ونحن لا نقول أكثر من هذا، فإنه موضع الأسرار.

وأيضًا: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بدعوى المعرفة بأن توقعهم في درك الحيرة والفناء في عظمتك، و﴿وَإِن تَغْفِرْ﴾ بأن تدخلهم في مقام الالتباس حتى لا يدركوك بنعوت الوحدانية، وبقوا في حجاب حظوظهم عنك بك.

قال الوراق: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ بتقصيرهم في طاعتك، فإنهم عبادك مقرِّين لك بالتقصير، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذنوبهم فأنت أهل العزَّة والكرم، فلَمْ يبدلها إلا لَمنْ خلقه لها ومَنْ هو حق بها وأهلها.

قال بعضهم: ترك عيسى عليه السلام الانبساط في السؤال للأمة، وترك المحاكمة مع الحق في أفعاله ونبينا – صلى الله عليه وآله وسلم – لا يزال يشفع ويقول: أمتي ... أمتي!! حتى يجاب في الكل من أمته، وهذا هو المقام المحمود الذي خُصَّ به، ويغبطه عليه الأولون والآخرون، حيث يراجع الحق منبسطًا ويجاب بقوله: «قلْ تسمعْ واشفعْ تشفَّعْ»[1].

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقع صدقهم على رؤية فناء الحدث في القدم، حيث ما أدركوا الحق إلا بالعجز عن إدراكه، فلمّا لم يدركوه قبل العجز وبعد العجز إلا به أقروا بالجهل عن معرفته، وهذا من كمال معرفتهم بربهم، وهذا هو الصدق الذي ذكره الله لهم فلا جرم ينفعهم، هذا العجز عند بروز طوارق مشاهدة عظمته وكشوف سطوات عزته بأن يدركهم في محل فنائهم، ويلبسهم صفة بقائه حتى بقوا مع الحق أبدًا بلا حجابٍ ولا عتابٍ.

قال الحسين في هذه الآية: إذا قابل ربه بصدقه، وجهل أمر ربه، وطالب ربه بحظه ووعده، يطالبه ربه بصدق صدقه، فأفلسه عن رتبته، وأبعده عمَّا قصده، وينفع صدقه من لقيه بالإفلاس، وأيقن أنه كان مستعملاً تحت حكمه وقضيته.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ﴾ أي: جنات المشاهدات الذاتية التي تجري تحتها عيون الصفات بنعت تجليها لهم لحظة فلحظة، ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ باقين بالاتصاف بها، ﴿أَبَدًا﴾ بلا

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٦/ ٤٤٠).

انقطاع، ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾[1] حيث وجدهم متحيرين عن إدراك كنه القدم بعد فنائهم فيه، ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ بما وجدوا منه من لذَّة مشاهدته، وحلاوة خطابه، وهذا الرضا انسداد أبواب كشوف القدم عليهم، وإبقاؤهم فيما هم فيه، ولو عرفوا قلَّة حفظهم عن القدم لماتوا جميعًا في الحيرة، وكيف رضي عنه من عرفه، وكيف سكن عنه، وإن كان في مشاهدته عن إدراكه بنعت التوحيد، ولولا فضله ورحمته لفنوا في قهر سلطان كبريائه، ولم يبقوا بعد، فبقاؤهم وتخليصهم من فنائهم فيه، فبفوز عظيم وظفر كريم ليتمتعوا لوصاله أبدًا، ﴿لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خصَّ ملك الإيجاد والإبداع، وزال عمَنْ سواه مُلكه.

سورة الأنعام

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ۝٣﴾.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ جعل حمده في الأزل طريقًا للعباد إلى حمد جلاله، وثناء جماله، علم في القدم نفسه، وأوجب الحمد قطعًا قبل كون الكون مقابل عين الذات والصفات، فلم ير بحمل حمده، فحمل بنفسه حمد نفسه، ورفع الحمد عن الحدث علمًا بأن الحدث يكون مثلاً شيئًا في أوائل حمده؛ لأن حمده لا يكون إلا بمعرفة المحمود حقيقة بجميع ذاته وصفاته، وذلك مستحيلٌ؛ لأن حقيقة ذاته وصفاته غير متناهيةٍ، وكيف يدرك المتناهي صفات الذي هو غير متناهٍ.

وأيضًا: قطع الحمد عن غير نفسه، وبيَّن ألا يستحق للحمد الحقيقي إلا وجوده بقوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[2] أي: لله لا لغير الله.

---

(١) رضاءُ الحق سبحانه: إثباتُ محَلّ لهم، وثناؤه عليهم ومدحُه لهم، وتخصيصهم بأفضاله وفنون نواله، ورضاؤهم عن الحق سبحانه في الآخرة وصولهم إلى مناهم؛ فهو الفوز العظيم، والنجاة الكبرى [تفسير القشيري (٢/ ١٩٣)].

(٢) حقيقة الحمد الثناء على المحمود، بذكر نعوته الجليلة وأفعاله الجميلة، واللام هاهنا للجنس، ومقتضاها الاستغراق؛ فجميع المحامد لله سبحانه إمَّا وصفًا وإمَّا خلقًا، فله الحمد لظهور سلطانه، وله الشكر =

وأيضًا: أي: حمد الله؛ لأنه مادحٌ نفسه بالحقيقة لا غير.

وأيضًا: أي: الحمد القديم يرجع إلى القديم، وليس للحدث فيه نصيبٌ، لأن حمده أزليٌّ، والحمد الأزلي لا يليق إلا بالأزلي.

قيل: حمد نفسه بنفسه حين علم عجز الخلق عن بلوغ حمده.

قال الجنيد: الحمد صفة الله؛ لأنه حمد نفسه بتمام الصفة، ولو حمد الخلائق كلهم لم يقدروا الإقامة ذرة من صفته، وبيان قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: هذا الحمد بالحقيقة لَمَنْ هذا صنعه وقدرته، وما دام لم تقدروا معرفة نعمته في صنعه وفعله لم تقدروا على حمده وثنائه، له سمواتٌ، وأخصُّ سماواته الروح المقدسة، وله أرضون، وأخصُّها القلب السليم الصافي بوضوح الفطرة الصافية فيه الروح سماء القلب؛ لأن منها تتنزل عليه قطرات الإلهام، ويقع عليه منها أنوار الرحمن والقلب أرضها، لأنه ينبت أزهار الحكمة وأنوار المعرفة.

قيل: السموات المعرفة، والأرض الخدمة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ أي: الذي خلق الروح والقلب جعل في الروح نور العقل لعرفان الآيات والشواهد، وجعل في القلب ظلمة النفس الأمَّارة لظهور العبودية في محل الامتحان.

وأيضًا: أسرج في القلب نور الإيمان من سراج الغيب، وأنشأ في النفس ظلمة الشهوات من عالم الريب.

وأيضًا: نوَّر الروح بنور المشاهدة، وأدخل القلب في ظلمة المجاهدة.

قال بعضهم: أبدى الظلمات في الهياكل، والنور في الأرواح.

وقال بعضهم: جعل الظلمات أعمال البدن، ونوَّر أحوال القلوب.

=

لوفور إحسانه، والحمد لله لاستحقاقه لجلاله وجماله، والشكر لله لجزيل نواله وعزيز أفضاله، فحمده سبحانه له هو من صفات كماله وحَوْله، وحمد الخَلْق له على إنعامه وطَوْلِه، وجلاله وجماله استحقاقه لصفات العلو، واستيجابه لنعوت العز والسمو، فله الوجود «قدرة» القديم، وله الجود الكريم، وله الثبوت الأحدي، والكون الصمدي، والبقاء الأزلي، والبهاء الأبدي، والثناء الديمومي، وله السمع والبصر، والقضاء والقدر، والكلام والقول، والعزة والطَوْل، والرحمة والجود، والعين والوجه والجمال، والقدرة والجلال، وهو الواحد المتعال، كبرياؤه رداؤه، وعلاؤه سناؤه، ومجده عزه، وكونه ذاته، وأزله أبده، وقدمه سرمده، وحقه يقينه، وثبوته عينه، ودوامه بقاؤه، وقدره قضاؤه، وجلاله جماله، ونهيه أمره، وغضبه رحمته، وإرادته مشيئته، وهو الملك بجبروته، والأحد في ملكوته، تبارك الله سبحانه!! فسبحانه ما أعظم شأنه!! [تفسير القشيري (١/ ٢)].

وسُئل الواسطي: الحكمة في إظهار الكون وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ قال: لا حاجة له إلى الكون؛ لأن فقد الكون ظهوره، وظهوره فقده عنده، فإن قيل إظهارًا للربوبية. قيل: ربوبيته كانت ظاهرةً، ولم تظهر ربوبيته لغيره.

قيل: لأنه لا طاقة لأحدٍ في ظهور ربوبيته، بل أظهر الكون، وحجب الكون بالكون لئلا تظهر لأحدٍ الربوبية فتطمس؛ لأن الحق في الحكمة لا يحتمله إلا الحق.

وسُئِلَ بعضهم ما الحكمة في إظهار الكون؟ قال: ارتفاع العلَّة، فإذا ارتفعت العلَّة ظهرت الحكمة بإظهار الكون، إن الله سبحانه كان موصوفًا بالعلم الأزلي، وكان في علمه كون الكون كما هي، فأظهر الكون بسابق علمه في ذاته، وإرادته السابقة في الأزل بوجود الكون، وكيف لا يظهر الكون والعلم والإرادة سابقان في الأزل بإيجاده، فإذًا بقاء الكون في العدم مستحيلٌ.

وأيضًا: ذاته تعالى معدن صفاته، وصفاته معدن فعله، فظهرت فوائد الذات في الصفات، وظهرت فوائد الصفات في الفعل، كانت قدرته المنزَّهة حاملةً الأفعال، فوضعتها بالإرادة القديمة في أخصِّ زمان؛ لقوله: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [التوبة:٣٦].

وأيضًا: كان في الأزل عاشقًا مشتاقًا إلى المشتاقين إليه؛ ليظهر كنوز جلال الذات، وجمال الصفات بنعت التعريف لأحبائه؛ لقوله سبحانه: «**كنتُ كنزًا مخفيًا، فأحببتُ أن أعرفَ**»[1]، فسبب إظهار الكون شرفه إلى جمال المشتاقين ومحبته السابقة للمحبين.

قال الأستاذ في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾: ﴿ٱلَّذِى﴾ إشارةٌ و﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ عبارةٌ، فاشتغلت الأسرار بسماع الذي تحققها بوجوده، ودوامها بشهوده، واحتاجت القلوب عند سماع ﴿ٱلَّذِى﴾ إلى سماع الصلة؛ لأن ﴿ٱلَّذِى﴾ من الأسماء الموصولة لكون القلوب تحت ستر الغيب، فقال: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، وبانت لي إشارةٌ: أن قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ظاهر الأُلوهية لأهل العبودية، وقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ باطن المشاهدة لأهل المحبة، لأن المحبة والمشاهدة من لطائف الأسرار، فأشار إليها بلفظ الغيبة.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ السموات جسدٌ، وقلب ذلك الجسد الأرض، وأن الله سبحانه خصَّ قلب السموات بإشراق جلاله فيه بقوله: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر:٦٩]، ومن تلك الخاصية خلق صورة آدم ﷺ من قلب العالم فكان قلبيًّا

---

(١) تقدم تخريجه.

لا جسديًا؛ لأنه تعالى أودع الأرض ودائع حكمته ولطائف فطرته من الأرواح القدسية والأشباح الملكوتية، وجعل لفظ الطين نكرةً غير معينةٍ، أي: من طين الجنة خلق أجسام المؤمنين، ومن طين الحضرة أي القربة أجساد الموقنين، ومن طين المحبة أشباح المحبين والمشتاقين، كما أخبر سبحانه لداود ﷺ: «خلقتُ قلوبَ المشتاقين من نوري، ورقمتها ونعمتها بجمالي، وخلقتُ طينة أحبائي من طينة إبراهيم ﷺ خليلي، وموسى ﷺ كليمي، وعيسى ﷺ روحي، ويحيى ﷺ صفيي، ومحمد ﷺ حبيبي».

وقال الحسين: ردهم إلى قيمتهم في أصل الخلقة، ثم أوقع عليهم نور إليه وخاصية الخلقة، فتميزوا بذلك عن جملة الحيوانات بالمعرفة والعلم واليقين.

قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ أي: يعلم لهيب نيران الاشتياق إلى جماله في صميم أسراركم، وما يتعرض إلى سبل عساكر تجلِّي القدم بنعت طلب الوصول إليها في ضمائركم، ويعلم حركات أشباحكم بطيران أرواحكم في الوله والهيمان والوجد والهيجان، ويرى قطرات عبرات الشوق على خدودكم في سجودكم بين يديه بوصف التضرع في جبروته وتقلب القلوب في ملكوته.

وأيضًا: يعلم جولان أرواحكم في السماء لطلب معادن الأفراح، ويعلم تقلب أشباحكم في الأرض لطلب الوسيلة إلى مشاهدته.

ألا ترى كيف أشار إلى ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ يريكم في السموات مشاهدة الجبروت، وفي الأرض مشاهدة الملكوت.

قال بعضهم: يعلم ما تُضْمِرون في سرائركم، وما تجهرون به من دعواتكم.

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝٤ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٥ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ۝٦ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ مَنْ عمي

قلبه عن مشاهدة الله كيف يراها في آثار الله؟! وآياته في السماوات والأرض، وفي وجوه أنبيائه وأوليائه، حيث أشرقت بحسن وقوع تجليها وظهور سناها بما فيها، ويزيد على عمائه عمى؛ لأنه موسوم بسمة البعد في الأزل، غير مقبول إلى الأبد.

قال النصرآبادي: آياته في خلقه أولياؤه، وأهل صفوته.

قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ طلبوا رؤية الملائكة عيانًا، وليسوا هم أهل ذلك، ولو كانوا أهل الحقيقة لرأوا في وجه رسول الله ﷺ ما لمْ يكن في وجوه أهل الملكوت من سنا إشراق صفات نور الأزل؛ لأنّه كان مشكاة نور الذات والصفات؛ لقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، ولكن كيف يرون ذلك، وهم عيانٌ في ظلمات ظلال القهريات؟ قال تعالى: ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨].

والإشارة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أن المريدين لم يروا أهل الملكوت إلا بالمثال الحسي؛ لأنهم في ضعف عن رؤية ماهيتها، ولو يرون الملك لمْ يروه إلا في صورة الآدمي الذي هو موقع الالتباس.

﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[1] معناه: أريناهم رؤية أهل الغيب في اللباس الإنساني بغير وقوفهم على صفات الروحاني؛ لأنّهم أهل التلبيس في المعاملات؛ حيث وقعوا في ورطة الفترة، ويدعون مقام أهل الاستقامة.

وأصل البيان في ذلك أي: خلطنا عليهم ما يخلطون، حتى لا يعلموا سبيل خداعهم كما يريدون، ويرجع كيدهم على أعناقهم، ويسيروا في ظلمات التردد، ولا يعلموا نكاية كيدهم عند الأولياء والصديقين.

---

(١) قال ابن عجيبة: أي: لخلَطنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم وعلى ضعفائهم، أو لفعلنا لهم في ذلك فعلاً مُلبسًا يطرق لهم إلى أن يُلبِسوا به على أنفسهم وضعفائهم؛ فإن عادة الله في إظهار قدرته أن تكون مرتدية برداء حكمته؛ ليبقى سر الربوبية مَصُونًا، فمن سبقت له العناية خلق الله في قلبه التصديق بها، حتى علمها ضرورة، وغيره يلبس الأمر عليه فيها.

وكرامات الأولياء كمعجزات الأنبياء، لا تظهر إلاَّ لأهل الصدق والتصديق، ولا يتحقق بولايتهم إلاَّ من سبق له الوصول إلى عين التحقيق: «سبحان من لم يجعل الدليلَ على أوليائه إلا من حيثُ الدليلُ عليه، ولم يُوصَل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه»، فأهل الإنكار عليهم لا يرون إلا ما يقتضِي البعد عنهم، وأهل الإقرار لا يرون إلا ما يقتضي القرب منهم والمحبة فيهم، والله تعالى أعلم [البحر المديد (١٢٦/٢)].

وفي إشارة أهل الحقيقة أنّ مقام الخداع والمكر في العشق والمحبة يكون من شركهم في العشق، حيث يطلبون المراد بنعت الاستراحة، وهو سبحانه يجازيهم بظهور صفاته في نعوت أفعاله لهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩].

قال الواسطي: يلتبس على أهل ولايته بحضرته، كما أنزل في بعض الكتب، يعني ما يتحمل المتحملون من أجلي وطلب مرضاتي، أتراني أنسى لهم ذلك؟! كيف وأنا الجواد الكريم، أقبل على مَنْ تولى عني، فكيف بمَنْ أقبل عليَّ؟

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ هذا تسليةٌ للنبي ﷺ، أخبر عن الجهلة لمّا لمْ يعرفوا أهل مشاهدته، وخواص حضرته، ولم يروا آثار جلاله فيهم، استهزأوا بهم بإعراضهم عنهم، وإنكارهم عليهم.

قال القاسم: لمّا لمْ يعرفوا حقوق الرسل، ولمْ يكرّموهم، ولمْ ينظروا إليهم بعين الحق؛ فعموا عن الأنوار والمشاهدات والرفع من المعاملات.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾ أي: لَمَنْ ما في السماوات والأرض إيجاد، ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي: إفناء الأول: إشارة إلى الإرادة القديمة، والثاني: إشارة إلى المحبة الباقية.

وأيضًا: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بالعبودية، ﴿قُل لِّلَّهِ﴾ أي: في الربوبية.

قال يوسف بن الحسين: الأول عبارةٌ، والثاني عبادةٌ.

وقيل: الأول هيبةٌ، والثاني توحيدٌ.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ الإشارة في هذه الآية إلى قلوب المنقبضين بصولة العظمة، وقلوب المنبسطين ببسط نور جمال المشاهدة، سكنت قلوب أهل القبض في الليالي بنعت الإذابة في سرادق كبريائه، والسكون في مقام التواضع عند بروز سطوات عزة ذاته، حيث تخلصت عن ازدحام أهل الغفلة، وسكنت قلوب أهل البسط برؤية أنوار جماله

في مناظر آياته في النهار، ولطائف صنع صفاته، حيث تخلصت من رؤية أعلام عظمته وكبريائه، أي: له هذه القلوب العاشقة، والأفئدة المتحيرة لا لغيره من الحدثان، خصَّها لنفسه، والنظر إلى مشاهدته.

ومعنى قوله: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع أنينها في شوقه، ويعلم ضمائرها المحزونة نداء جماله.

قال محمد بن علي الكناني: اختصَّ الحق بقلوب العارفين لسكونها إليه؛ فقال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ كيف لا يسكن إلى الحق، ولدغات الحقيقة بقصده، وهو موضع النظر؟.

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كيف أتخذ أحدًا بالمحبة دونه، وليس له صفة القدم التي أغارت قلوب أوليائه بحسن تجليها؟! وكيف أتخذ بالولاية محدثًا لا يقدر على أن يمنع عني علّة الحجاب بيني وبينه، حيث الكل حاجز في أمر مشيئته وملك جلاله؟!

ألا ترى إشارته تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: الكل ملكه، فكيف ألجأ من ملكه إلى ملكه، وعلّة الملك في المالك متلاشٍ بقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾.

قال الجوزجاني: أأبغي سواه ملجأً، وقد سهَّل إليَّ السبيل إليه؟!

وقال غيره: أسواه أستكفي، وهو الذي يكفيني الهم في الدارين؟!

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ أي: أمرني حين كنت جوهر فطرة الكون، حيث لمْ يكن غيري في الحضرة أن أكون أول الخلق له في المحبة والعشق والمعشوق، وأول الخلق له منقادًا بنعت محبتي له، راضيًا بربوبيته، غير منازع لأمر معيشته.

قال بعضهم: أكون أول مَنْ انقاد للحق إذا ظهر.

وقال ابن عطاء: إن أكون من الخاضعين لما يبدو من مبادئ القدرة.

وقال جعفر ﵇: من الراضين بموارد القضاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ أي: إن يمسسك بضرّ الحجاب، فلا كاشف لضرّه إلا ظهور مشاهدة جماله لك.

قال الجنيد: معبودك أول خاطر يخطر لك عند نزول خيرٍ، أو ظهور بلاءٍ، إن رجعت فيه إلى الله فهو معبودك، وهو الذي يكفيك، فإن رجعت إلى غيره تركك وما رجعت إليه.

قال الأستاذ: إنّما ينجيك من البلاء مَنْ يلقيك في الفناء؛ إذ المتفرد بالإبداع واحدٌ، فالأغيار كلهم أفعالٌ، والإيجاد لا يصلح من الأفعال.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي: قدمه جارٍ في غير قهره ولطفه، بلطف مشاهدة جماله، وكشف جلاله للمحبين حتى ذابوا في حلاوة شهود مشاهدته، وقهر بسلطان كبريائه أهل التوحيد والمعرفة حتى فنوا في سبحات عظمته وعزّة أزليته.

وأيضًا: أي كان قاهرًا في الأزل قدمه، علا عن العدم حين تجلّى قدمه للعدم، وأجار به العباد عن العدم، وكان المقدور في العدم تحت القدم، وبقي القدم بوصفه إلى الأبد، وبقي المقدور بوصفه كما خرج من العدم إلى الأبد.

وقال الحسين ﷺ: القاهرية تمحو كل موجود.

وقال بعضهم: قهرهم على الإيجاد والإظهار، كما قهرهم على الموت والفناء.

قال ابن طاهر: القاهر الذي إذا شهد سوى العبد أفناه عما سواه.

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ﴾ أي: أي شيءٍ أعظم من شهود الله بوصف ظهور تجلّي جلاله وجماله من كل ذرة على كل شيء من العرش إلى الثرى، وذلك شهادته الأزلية التي سبقت منه على وحدانيته، حيث لم يكن وجود الحدث في القدم.

وتصديق ذلك جواب الأمر بالأمر بقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾، لمّا عمي القوم عن رؤية شهود الله، وصموا عن شهادة على نفسه، أنكروا على أشرف موقع شهادة، وهو النبي ﷺ لغباوتهم وجهلهم بما ظهر من وجهه من أنوار جلال الله، أمر الله نبيه ﷺ أن يقول لهم بعد قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَـٰدَةً ۖ﴾ بقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ بأن يظهر أنوار صفاته متى شاء للعالمين.

وتصديق ذلك سهولة المعجزات، أي: مَنْ لمْ ير الشهادة العظمى في وجهي؛ فإنه يحتاج

إلى رؤية الشهادة الصغرى وتلك معجزتي، ومَنْ يكون أعمى عن رؤية الشهادة الكبرى، فأيضًا يكون أعمى عن رؤية الشهادة الصغرى.

قال الحسين ﷺ: لا شهادة أصدق من شهادة الحق لنفسه بها شهد به في الأزل بقوله: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ بيّن الله سبحانه أن اليهود كانوا يعرفون النبي ﷺ بالعلامات الصحيحة، التي وجدوها في التوراة، من نعته وصفته، وصدق معجزته، لكن لم يعرفوه بنور معرفة الله، ورؤية مشاهدة الله في وجهه، كانوا مقلدين في معرفته؛ لذلك خالفوه، ولو عرفوه بمعرفة الله لكانوا كالصحابة المباركة، حيث كانوا تراب قدمه -صلى الله عليه وآله وسلم، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه المتحابين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا﴾ كانت قلوبهم محجوبةً بعوارض البشرية، وظلمات النفس الأمّارة عن رؤية أنوار الغيب، وفهم خطاب الحق، كانت قلوبهم في أغطية الغيرة؛ لأنهم ليسوا مطبوعين باستعداد قبول خطاب الله، ورؤية عرائس الملكوت، وفي آذان أسرارهم وقر الضلالة، ولم يسمعوا بها ما لَمْ يسمع بسمع الخاص، وعلى عيون ظاهرهم

وباطنهم غشاوة العجب والجهل، حتى لم يروا براهين الحق في وجوه الصديقين.

قال ابن عطاء: لأنه لم يجعل لهم سمع الفهم، وإنما جعل لهم سمع الخطاب.

وقال الواسطي: منهم مَنْ يستمع إليك بنفسه؛ فهو في ظلمات نفسه يتردد، ومنهم مَنْ يستمع منك بنا؛ فهو في أنوار العارف يتقلب.

قوله تعالى: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ القوم لم يعرفوا حقائق الكفر في الدنيا، ولو عرفوه لكانوا موحدين، فيظهر لهم يوم القيامة حقيقة الكفر، ولا ينفع لهم ذلك لفوتهم السير في النكرات، التي معرفتها توجب المعارف، وذلك المقام في أماكن صدورهم، وهم كانوا يخفونه بمتابعة صورة الكفر، وشهوة العصيان بغير اختيارهم؛ لقلة عرفانهم به، ولا يكون قلب من العرش إلى الثرى إلا ويطرقه هواتف الغيب بإلهام الله الذي يعرف به طرق رضا الحق، وصاحبه يعلم ذلك، ويسمع ويخفيه في قلبه؛ لأنه أدق من الشعرة، وحركته أخفى من دبيب النمل، ومع ذلك يعرفه من نفسه، ولكن مَنْ غلبت شهوات نفسه عليه لا يتبع خطاب الله بالسرِّ، فأبدى الله لهم ما كانوا يخفونه، تعبيرًا لهم، وحجة عليهم.

قيل: ظهر لهم من غيوب أسرارهم ما كان يخفيه عنهم قلة علمهم.

وقال أبو العباس الدينوري -رحمه الله: أبدى لهم الحق فساد دعاويهم التي كانوا يخفونها، ويظهرون للناس خلافها من التقشف والتقوى في الدنيا، فبدا لهم قبح بواطنهم عند صدور العارفين، وأكابر الموحدين، ويقولون: لسنا على شيء، والصدق معكم، وذلك عند غلبة هيبة وجوههم عليهم، فإذا رجعوا إلى أوطانهم عادوا إلى الرزق والناموس من قلّة معرفتهم بربهم، وقلّة معرفتهم بافتضاحهم عند مشايخ القوم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَـٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم

بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ أظهر لطفه وكرمه العميم على خلقه في هذه الآية حين وقف القوم على حضرة جلاله لسماع خطابه؛ ليسهل عليهم دخول النار، ولولا ذلك لكان عذابهم أضعافًا.

والآية تعجبٌ أي: ولو ترى إذ وقفوا في حضرة الجبروت، وخوطبوا بخطاب الهيبة كيف يتنعمون بخطابه، وإشراق أنوار سلطان كبريائه، وإن كانوا في منازل الهيبة! والله هيبته مستلذةٌ، كما أن لطفه مسألةٌ، وجميع العذاب عند خطابه يكون نعمةٌ.

وأنشدوا:

يَكُونُ أُجَاجًا دُونَكم فَإِذَا انتَهَى ... إِلَيكُمْ تَلَقَّى طِيبَكُمْ فَيَطِيبُ

وَمَا ذاكَ إِلّا حِينَ أَيقَنتُ أَنَّهُ ... يَمُرُّ بِوادٍ أَنتِ مِنهُ قَرِيبُ

قال ابن عطاء: وقفوا وقوف قهر، ولو وقفوا وقوف اشتياقٍ لرأوا من أنوار كراماته ما تعجبوا منها.

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ السماع سماعان: سماع فهم، وسماع عشق ومحبة، مَنْ سمع سماع فهم لم يكن من أهل النطق في جريان حكم المعارف؛ لأنه في مقام البداية، ولمْ يكن له تصرفٌ إلا تصرف ظاهر العلم، ومَنْ سمع سماع العشق بسمع المعرفة على حدِّ الكمال يكون له لسان بيان المعرفة والتصرف في الإشارات والعبارات.

ألا ترى إلى النبي ﷺ وموسى ﷺ لما كان النبي ﷺ كاملاً مستقيمًا قال: «بُعثتُ بجوامع الكلم»[١]، و«أنا أفصحُ العرب والعجم»[٢].

ولما كان موسى ﷺ في محل الإرادة أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد سؤاله بشرح الصدر الموجب فصاحة اللسان في المعرفة، قال: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾، وبيّن أن على قدر السماع يكون الجواب، ونفى السماع عن غير الأحياء بالمعرفة والمشاهدة.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٠٨٧)، ومسلم (١/ ٣٧١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٢٦٤).

(٢) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٥٦٢).

قال النوري: مَنْ فتح سمعه بالسماع أجرى لسانه بالجواب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾[(١)].

وقال ابن عطاء: أخبر الله أن أهلِ السماع هم الأحياء، وهم أهل الخطاب والجواب، وأخبر أن الآخرين هم الأموات بقوله: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ إن الله سبحانه خلق غير الآدمي والملائكة والجن من الحيوانات والطيور والسباع والحشرات على فطرة التوحيد، وجبلة المعرفة، وإن الله سبحانه خاطبها لوضوح طرق معارفه، والإيقان والإيمان جعل لها طرقًا من خواطرها، منورة بأنوار العقل إلى حضرته القديمة الأزلية وأسرارها، ينظرون بنور الأفعال ولطائف الصنعة، وسناء الخطاب إليها على السرمدية، وإنها تعيش وتتحرك وتطير بقوة من قوى الحضرة، وهذا الصفير والألحان والزفرات والشهقات منها من حلاوة تصل إلى قلوبها من روح عالم الملكوت، ووضوح أنوار الجبروت، ولها على قدر حالها في المعرفة والتوحيد شوقٌ إلى الله، وذوقٌ من بحار رحمة الله.

سمعت أن سمنون المحب كان إذا تكلم في المحبة تَنْشقُّ القناديل، ويسقط الطير من الهواء، حتى سمعت أن يومًا ما كان يتكلم في المحيط فسقط طير بين يديه، وغرز منقاره في الأرض، وقطر الدم من منقاره، ومات بين يديه.

وأمثال هذه الحكاية كثيرةٌ في الآثار والأخبار، من جميع الحيوان والسباع والطيور والحشرات، ألا ترى كيف تكلم الضب مع النبي ﷺ، وكيف مدحه بقوله: «**ألا يا رسول الله: إنَّك صادقٌ، فبوركت مهديًا وبوركت هاديًا**» إلى قوله: «**فبوركت في الأحوال حيًّا وميتًا، وبوركت مولودًا، وبوركت ناشئًا**»[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ في طلب الحق، وإفراد قدمه عن الحد والاعتبار في صنائعه اللطيفة، التي تبرز منها أنوار الصفات في العالم ومثيلتها، إنها خلقت من عالم الملك والشهادة والأفعال والآدمي والملائكة خلقت أجسامها من عالم الأفعال، وأرواحها من نور

---

(١) إنها يستجيب لدعوة الخصوصية، ويُجيبون الدعاة إلى السير لشهود عظمة الربوبية، الذين سبقت لهم العناية، وأحيا اللهُ قلوبهم بالهداية، فيسمعون بسمع القلوب والأرواح، ويترَقَّون من حضرة عالم الأشباح إلى حضرة عالم الأسرار والأرواح؛ والموتى بالغفلة والجهل يبعثهم الله ببركة صُحبة أهل الله فَتهُبُّ عليهم نفحات الهداية؛ لِما سبق لهم من سر العناية، ثم إليه يُرجعون فيتنعمون في حضرة الشهود، في مقعد صدقٍ عند الملك الودود [البحر المديد (٢/ ١٤١)].

(٢) ذكره ابن حجر في الإصابة (١/ ٥٢٣) بنحوه.

الملكوت؛ لذلك فضلت الملائكة والآدمي على غيرهما، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ... ﴾ الآية.

وقوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ أي جناحيه: جناح التوكل والرضا، وجناح الخوف والرجاء، وجناح الفناء والبقاء، وجناح الإيمان والتقى، وجناح النعمة والبلاء، وجناح الهمة والصفات، وجناح العبودية والربوبية، وجناح المعرفة والمحبة، يطيرون بها هربًا وطربًا وشوقًا وطلبًا، وإشارة الظاهر في المثلية أن جبلة الأمم من العناصر الأربع خلقت، ومن طبيعة الحيوانية والروحانية أنشئت، وتساوت في الأكل والشرب والحركة والاجتماع، وصفات النفسانية ونعوت الذاتية من الحرص والغضب والشره والبطر، وحقائقها في التساوي رجوعها إلى معدن الفطرة، الذي أنشأها الله منه؛ لقوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥].

ومن أئمة التفسير الظاهر قول ابن عطاء قال: أمثالكم في التوحيد والمعرفة.

وقيل: ﴿إِلَّآ أُمَمٌ﴾ في التصوير ﴿أَمْثَالُكُم﴾ في التسخير، وأقوام جميع الحيوان والملائكة والجن والإنس والجمادات من العرش إلى الثرى بالقدرة القادرية الأزلية، ولهم مشارب وسواقٍ من بحر خطاب الله، وكلماته الأزلية المبيّنة طرق توحيد الملائكة، ومعرفة الناس وفطرة الحيوانات والطيور والحشرات والسباع الممزوجة طباعها بالعلم بصانعها وخالقها، إلى ظهور صفاته وذاته لهم بيانًا غير مشكل عليهم، ولا ناقص عن تمام مرادهم.

قال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: كل ما يحتاج الخلق في العبودية وعرفان الربوبية بيّناه في كتابنا، ليس مقام ولا حال ولا وجد ولا إدراك ولا معرفة ولا رؤية إلا وبيّن طريقه في كلامه تعالى صفته الخاصة المبينة، عرفان جميع الصفات، وطرق الصفات إلى الذات، أخبر تعالى به عن أسرار الأولين والآخرين من العرش إلى الثرى.

قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ أي: ما أخرنا في الكتاب ذكر أحد من الخلق، ولكن لا يبصر ذكره في الكتاب إلا المؤيدون بأنوار المعرفة.

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَـٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ وصف سبحانه أهل الامتحان الذين تهتف هواتف الإلهام بالخطاب لقلوبهم من الغيب فيستقبلونها بمعارضة نفوسهم، ويكذبون خواطر الحق بخاطر الباطل حين لم يعرفوا الإلهام من الوسواس، وذلك من وقر الضلالة في آذانهم؛ حيث لم يلقوا أسماعهم في مقام الشهود إلى الله، ولم تذكر اسم الله ألسنة أسرارهم بوصف الهيبة والمحبة، وذلك من بقايا نفوسهم في ظلمات هواها.

ومعناه: أي من كذب خواطر الحق الواردة من عندنا حين ألهمنا بخالص الإيمان بكرامات أوليائنا ومعجزات أنبيائنا تغطى آذان أسراره، وأبصار بصائره بغشاوة الضلالة؛ حتى لا يسمع كلامنا في الغيب ولا يرانا في الملكوت، ويبقيه في ظلمات نفسه الأمّارة وشيطانه الكافر، ولا يقدر أن يتكلم بذكرنا ومعرفتنا.

قيل: لم تصدقوا إظهار كراماتنا على المقربين من عبادنا عموا وصموا عن أنوار الملاحظات، وبقوا مع ظلمات النفوس، وهواجس الهياكل.

وقوله تعالى: ﴿مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ المشيئة تقع على المقبولين والمطرودين على الإبعاد والقبول والرضا والسخط، بما جرى عليهم في الأزل من السعادة والشقاوة، فمَنْ لمْ يكن صادقًا في بدء إرادته يغويه الحق في ظلمات قهره غيرة على وصله؛ حتى لا يصل إليه غير صادق في محبته، ومَنْ كان صادقًا في بدء إرادته ولمْ ينقص عقد بدايته بمتابعة نفسه والفترة عن طاعة يهديه الحق بنفسه إلى نفسه، ويجعله مستقيمًا في طريق معرفته وطاعته، والطريق المستقيم طرق أفعاله للعقول بنعت الفكرة، وطرق صفاته للقلوب بنعت المحبة، وطرق ذاته للأرواح بنعت المعرفة.

قيل: مَنْ يرد الله به الشرّ يتركه في سوء تدبيره ليبقى في ضلالته، ومَنْ يرد الله به الخير يجره إلى حسن اختياره، فيبقى على أسلم الطرق، وهو الرضا بمجاري القدرة، وهو الصراط المستقيم.

وقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ * بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾، ﴿غَيْرَ ٱللَّهِ﴾: الجاهلين ربوبيته عند امتحانهم ببلائه، يرجعون إلى غيره من الخلق؛ لطلب المعاونة بدفع البلاء عنهم، أي: إن كنتم صادقين في دعوى معرفتي لِمَ تتكلمون إلى غيري عند نزول البلاء؟ فإنكم تدعونني حين تدعون غيري، فإن الدعاء لَمْ يقع على غيري؛ إذ فنيت الحوادث في سطوات عظمتي، لكن لا تعلمون أنكم تدعونني حين تدعون غيري من جهلكم بفناء الحدث في القدم.

وأيضًا: وبَّخهم بانصرافهم عن بابه تعالى في دعة العيش من قلّة وجدانهم حلاوة قربه ووصاله إلى طلب زيادة حظوظ أنفسهم، والسكون إلى غير الله، ثم يرجعون إلى بابه حين امتحنهم بالبلايا، ويدعونه لكشف الضر عنهم لا لطلب مشاهدته وقربه، يدعونه، وهذه عادة المفلسين المعرضين عنه إلى غيره.

قيل: على غيره تتكلون، وإلى سواه ترجعون، وهو الذي وفقكم لمعرفته، وأقامكم مقام الصادقين من عباده.

قال الجريري: يرجع العارفين إلى الحق في أوائل البدايات، ويرجع العوام إليه بعد اليأس من الخلق.

قال الله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ بل الصادق مَنْ إليه يرجع، وإياه يدعو.

قال الجنيد: مَنْ دعا الحق فبإياه لإياه يدعو، من غير حظٍّ فيه ولا حضورٍ من نفسه، قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾.

قال بعضهم: بل إليه المرجع لَمنْ غفل عنه خطابه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَـٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ هذا وصف قوم لم يذوقوا طعم وصل المشاهدة، حيث أرجعهم الحق إليه بسوط قهره، ولو كانوا على محل المعرفة والمحبة والشوق إلى المشاهدة لم ينصرفوا عنه طرفة عين.

وأيضًا: إذا أراد سبحانه كلاءة قوم من محبته إياهم ألزم عليهم حراس بلياته، وضرب عليهم سرادق حفظه؛ لئلا يشتغلوا بغيره لحظة.

وأيضًا: أي لما اشتغلوا بحظوظ ما وجدوا من قُربنا أوقعناهم في أودية الفترة حتى لمْ يجدوا آنئذٍ المواجيد وحقائق الواردات، ومسسناهم ببأساء الفراق وضراء الأشواق؛ لكي يصلوا إليّ من نفوسهم وحظوظهم، ويروني بنعت تجريد التوحيد، وإفراد القدم عن الحدوث.

قال ابن عطاء: أخذنا عليهم الطرق عليها ليرجعوا إلينا.

﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَـٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ وصف قومًا تركوا نصائح المشايخ من

إعجابهم برأيهم، ولم يتيقظوا بدقائق إلهام الله الذي نزل على قلوبهم حين زجرهم طوارق الغيب عن سكونهم بما وجدوا من أنفسهم نبذة من الحكم ولمعًا من الفراسة، وهذا معنى ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِۦ﴾.

ولما سكنوا إلى أنفسهم لما وجدوا من لطائف الكرامات فتح الله عليهم أبواب الرئاسة والجاه عند الخلق، حتى إذا فرحوا بتمكينهم عند العوام يرد الله قلوب الخلق عنهم ويفضحهم عندهم، ويعرف الخلائق خيانتهم ومكرهم وسقوطهم عن درجة القوم؛ حتى لا ينظر إليهم أحدٌ من خلقه بالشفقة والرحمة، ويموتوا على حسراتهم، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا بِمَآ أُوتُوٓا أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي: آيسون من نيل كرامات الله بعد ذلك؛ لأنهم خانوا في طريقه، وهو لا يهدي كيد الخائنين.

فلمّا قدَّس الله بساط الولاية عنهم ودفع إيذاءهم عن خواص حضرته أثنى على نفسه، وحمد جلاله المنزّه عن الاستبشار بوجودهم والاستيحاش عن عدمهم نيابةً عن أحبائه، الذين عجزوا عن حمده وثنائه بقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ الإشارة في ذلك إلى أهل مقام ذهاب الذهاب، أي: إن أخذ الله أسماع أسراركم بصواعق العظمة، وطمس بطون بصائركم بأنوار العزة، وختم على قلوبكم بخواتم الملكوت والجبروت بعد امتلائها من أنوار الكبرياء، وفنائها في سنا البقاء حين غلبت سطوات القدم على الحدث بنعت تلاشي الحدث، فيبقى القدم ولا يبقى العدم مَنْ يكون بعد عدمه في القدم ممَنْ يدعي الأنانية، ويخرج نفسه بعد فنائها من تحت أذيال الأحدية بوصف سمع الأزلي، وبصر الأبدي، وقلب الصمدي، لا يكون للفاني في الباقي أثرٌ؛ فإنه- تعالى- قادرٌ به بذلك، منزَّهٌ عن النظير والعديل.

قال الترمذي: إن أخذ الله سمعكم عن فهم خطابه، وأبصاركم عن الاعتبار بصنائع قدرته، وختم على قلوبكم سلبكم معرفته، هل أحدٌ يقدر على فتح باب من هذه الأبواب

سواه؟ كلا بل هو المبدي النعمة تفضلاً، ومتممها في الانتهاء تكرمًا.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي: مَنْ أيقن مني أني أعطي ولايتي لَمَنْ أطاعني، وشاهد بقلبه حضرتي بعد تصديقه إلهامي في قلبه حين دعوته منه إليَّ، وأصلح مزاري وموضع تجليَّ من قلبه وسره، ما خرب من سابق هواجسات نفسه، وركضات شيطانه بذكري وثنائي والاستعاذة مني إليَّ، فلا خوف عليه من احتجابي عنه، ولا له حزنٌ من انقطاعه عني.

قال بعضهم: مَنْ أخلص باطنه، وأصلح ظاهره، ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ خوف القنوط، ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حزن القطيعة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ أي: هل يستوي الأعمى عن النظر إلى غير الذي لم يبق له عين من نفسه إلا من عيوني، والبصير بنور ملكي وملكوتي، أفلا تتفكرون بين الفاني والباقي عليَّ، وفيه شرف المصطفى ﷺ حين تجرّد في العبودية، وتفريد التوحيد بنفي الأنانية عن نفسه، وإسقاط الحدث عن ساحة القدم حين أمر: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾، ونزَّه نبوته عن التكلف في اقتباس علم الغيب بالجد والسعد بقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾، وتواضع حين أقام نفسه مقام الإنسانية بعد أن كان أشرف خلق الله من العرش إلى الثرى، وأظهر من المكروبين والروحانيين على باب الله سبحانه خضوعًا لجبروته، وخشوعًا في أبواب ملكوته.

وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾، وليس لي اختيار في نبوتي، ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ هل يكون من هذا وصفه بعد كونه بصيرًا بنور الله ورآه به، كالذي أعمي عن رؤية إحاطته بكل ذرة من العرش إلى الثرى؟! أفلا تتفكرون أن من ولد من العدم بصيرًا بنور القدم ليس كمَنْ ولد من العدم أعمى عن رؤية عظمته وجلاله!

قال بعضهم: الأعمى مَنْ عمي عن طريق رشده، والقائم مع عبادته، والبصير الناظر إلى منن الحق عليه، وحسن توليته له، أفلا يتفكرون في اختلاف السبيلين وتباين المذهبين.

قال الأستاذ: هل يتشاكل الضوء والظلام؟ وهل يتماثل الجحد والتوحيد؟ كلا أن

يكون كذلك.

﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أدق طريق معارفه؛ حيث أسبل نقاب العظمة على وجه جلال القدم، وضرب سرادق العزة على ساحات الكبرياء؛ حتى لا يصل إلى إدراك كنه قدمه وبقاء ديموميته.

وبيّن ذلك في كلامه القديم، أي: خوف بما وصفت نفسي بامتناعي عن مطالعة الخليقة وإدراكها سر حقيقة وجودي في كتابي وخطابي، الذين يخافون من قطيعتي، ويعلمون تنزيه جلالي عن أن يصل أحدٌ إليَّ بطاعته حين أحشر إليَّ بعلل الإنسانية وسمات النفوسية، إن الأمر هناك أجلُّ من أن تخطر بخواطرهم، وأدقُّ من أن يفهم أحدٌ، فإن مكري قديمٌ، وصفتي تنزيهٌ، لو أحرق جميع المخلصين بنيران البعد بعد أن يكونوا من أهل القرب، فلا أبالي فإن كيدي متينٌ، ولو يأتونني بملء السماوات والأرض إخلاصًا، وأريد أن أرفق عليهم بإخلاص الإخلاص لا يخلصهم إخلاصهم من دقائق حسابي.

وما أطلع عليهم من خطرات ضمائرهم المسيرة إلى غيري، ولو أمنعهم مني مَنْ يتولى أمرهم بإرجاعهم إلى غيري، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لعلهم يتقدسون من نفوسهم بقدس تذكرتي وذكري لهم، ويخافون مني بقلة خوفهم عني.

قال أبو عثمان: أهل المعاملات وأرباب الصدق في ذلك خائفون ممّا يبدو لهم من الإيمان والتوكل واليقين وأنواع العبادات، وعرض ذلك على ربهم يشغلهم خوف ذلك من رؤية أفعالهم والتلذذ والاعتماد عليها، قال الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ... الآية﴾.

وقال أبو سعيد الخرّاز في الآية: ﴿أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾: أن يجعلوا إليَّ وسيلة أو شفيعًا إلى نفسي سواي.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت الأستاذ أبا سهل محمد بن سليمان يقول: لسنا مخاطبين بحقائق القرآن، إنما المخاطب بحقيقته هم الذين وصفهم الله، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ... ﴾ الآية، وقال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق:٣٧].

وقال الواسطي في قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: مَنْ استقطعته المملكة عن الملك لا يصلح لخدمة الملك.

وقال: لا تلاحظ أحدًا، وأنت تجدُّ إلى ملاحظة الحق.

وقال في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: أن يجعلوا إليَّ وسيلة غيري.

وقيل في هذه الآية: إنما تعطى الأطماع بمقاربة صرف الكريم دون السعاية بضياء الهداية.

ويقال: الخوف هاهنا العلم، وإنما يخاف مَنْ عَلِمَ، فأما القلوب التي غطاها الجهل، فلا تباشرها طوارق الخوف.

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ بيَّن الله سبحانه في هذه الآية تخصيص الولاية بعد تخصيصه النبوة والرسالة، وصرَّح في بيانه أن الولاية اصطفائيةٌ محضةٌ كما أن النبوة والرسالة اصطفائية محضةٌ، لا يتعلقان بسببٍ من الأسباب من العرش إلى الثرى.

وكما أنه- تعالى- أحبَّ الأنبياء والرسل كذلك أحبَّ الأولياء والأصفياء محبةً بلا علَّةٍ، وكما أن الله سبحانه خصَّ نبينا محمدًا ﷺ بالرسالة بغير علَّةٍ، وجميع الخلائق من الجن والإنس والملك كذلك خصَّ أصحابه بشرف الولاية بغير سببٍ من جهته، ولا جهدٍ من جهده، وصحة ذلك قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾. بل كما سبق في الأزل العناية له بالرسالة، كذلك سبقت لهم في الأزل الولاية، كذلك وقعت لهم الصُّحبة والموافقة من جهة تلك الأهلية، اتبعوه وقبلوا أمره، ووضعوا رقابهم تحت قدمه، ولولا تلك العناية الأزلية كان حالهم كحال هؤلاء الأعداء، لكن إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فمنَّ الله على نبيِّه ﷺ بتأييده ونصر أصحابه له بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:٦٢]، ولما بلغ شرفهم إلى هذه المرتبة وصَّى الله نبيه ﷺ بمراعاتهم، ورعاية حالهم، وتربيتهم، وعاتبه في الآية لأجلهم بقوله: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم...﴾ الآية، أي: لا تمنع هؤلاء من صحبتك، ولو كان لحظة لأجل حرصك بإسلام البطالين، فإن هدايتهم عندي، و﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ من أقربائك، ﴿وَلَٰكِنَّ

ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ من هؤلاء الفقراء مثل بلال، وصهيب، وسلمان، وعمار، وحذيفة، والمقداد، ونظرائهم من أصحاب الصفة، الذين يدعون الله لوصولهم إليه عند كل صباح ومساء؛ لشوقهم إلى جماله ومحبتهم اللحوق منه، وهذا معنى قوله: ﴿يُرِيدُون وَجْهَهُۥ﴾[1]، وخصَّ الغداة والعشي بالدعاء؛ لانجلاء أذيال الظلام من النهار بالغداة، وانجلاء أذيال الضياء من الظلام بالعشي، ولأن هناك ظهور تجلي القدرة وجلال العظمة، وهناك تكون ساعة تستجاب الدعوة فيها.

وأيضًا: يدعون الله بنعت الفناء في شوق جماله عند طلوع كل صبح من أنوار تجلي صفاته في قلوبهم عند كل نفس؛ لأن عند تنفس كل نفس من العارف يكون صبحًا من ظهور بركة مشاهدته هناك، ويدعون ويستزيدون محبته وشوقه وقرب مشاهدته هناك، ويدعون عند كل وارد غشيان الأحوال على قلوبهم بنعت الحيرة في عظمته؛ لأن ظهور تراكم سحائب العظمة وضباب الكبرياء، وبعد كل نفس بنفس العارف يكون عشي الحال، وليالي الوصال كانوا يدعون الله في جميع أنفاسهم لقاءه لإرادتهم احتراقهم في أنوار وجهه تعالى، وعلَّق الدعاء بالوقتين؛ لأنهم هناك سكنوا من علية الواردات وطوارق الحالات، فلمّا سكنوا في تلك الساعات ضاقت صدورهم، ودعوا الله بإرجاعهم إلى السكر بعد الصحو، وإلى حضورهم بعد الغيبة.

ألا ترى إلى قوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ وصفهم بالإرادة مع كمالهم في المعرفة؛ لأن الكامل يرجع عند كل نفس من مقام النهاية إلى مقام البداية؛ لأن هناك منزل النكرة من ظهور أنوار آفاق القدم، وبروز سنا بطون الآزال، وكشف غيوب الآباد فرُّوا من سطوات الذات إلى نور الصفات؛ لأن هناك مقام المعرفة، ورؤية الذات مقام النكرة، ففرارهم من النكرة إلى المعرفة، ومن النهاية إلى البداية.

ألا ترى إلى قول الصديق ﷺ كيف قال: «سبحان مَنْ لم يجعل سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته»[2].

وسُئل بعض العارفين: ما النهايات؟ قال: الرجوع إلى البدايات.

وخصَّ الله سبحانه إرادتهم وجهه؛ لأن الوجه صفة أزلية من خواص صفاته المتشابهة،

---

(١) أي: يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة، ثم قال: أزهد الناس أصفاهم مطعمًا، وأعبد الناس أشدهم اجتهادًا في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه [تفسير التستري (١/ ١٣٥)].

(٢) ذكره المناوي في فيض القدير (٢/ ٣٥٤).

وهو معدن جلاله وجماله، يتجلى بنور وجهه لقلوب العاشقين والمشتاقين والمحبين، وذكر الوجه خاصة؛ لأن القوم في مقام العشق والمحبة والشوق، ولذلك علقهم بمقام المتشابه لوقوع الأحوال والمكاشفات على مقام الالتباس، لما كان حالهم العشق في وصفهم بالإرادة، وعلقهم بصفة من صفاته؛ لأن العاشقين في جنب العارفين، والموحدين كقطرات في البحار، ولو كانوا على محل النهايات ما وصفهم بالإرادة، ولا علقهم بصفة واحدة من جميع صفاته؛ لأن العارف خرج من مقام الإرادة التي توجب العبودية إلى مقام الحقيقة التي توجب الربوبية، ولو كانوا على حدِّ الكمال وصفهم بطلب جمع الذات والصفات، وما وصفهم بطلب صفة واحدة من جميع صفاته.

وقال في موضع قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي: يريدون الله؛ لأن اسم الله عين الكل، وعين الجمع.

وأيضًا: وصفهم بإرادة وجهه، ووجهه سبحانه عن إشارة التشبيه والتعطيل مندرج تحته جميع الصفات من السمع والبصر والكلام، ويتعلق به جميع الصفات، وأراد بالوجه عين الكل، و﴿وَجْهَهُۥ﴾ أي: ذاته وصفاته.

ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] أي: إلا نفسه.

وقوله: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧] أي: ذاته وصفاته.

وكذا قال أهل التفسير الظاهر: فإذا كان كذلك كان القوم يريدون الله بجميع ذاته وصفاته بوصف المحبة والشوق، كانوا يريدونه لأنه- تعالى- يعرّفهم نفسه بنعت مباشرة تجلية قلوبهم، وهذا مقام قد استأثره الله لنفسه لا لأحد غيره؛ لأنه- تعالى- عرف نفسه لا سواه، غلب عليهم لذّة قربه وخطابه، فأرادوا كشف كنه القدم، كما غلب على موسى ﷺ حين سأل هذا المقام بعد ذوقه لذّة كلامه تعالى بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، لمّا رآه بالوسائط، وخرَّ من سطوات القدم، وأفاق بنور البقاء، فلم ير للحدثان في جنات القدم أثرًا تاب عن سؤاله، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ألا أعرفك كما أنت، وهذا مقام النبي ﷺ بعد أن رآه صرفًا؛ حيث قال: «لا أُحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»[1].

فلمّا علم سبحانه ذلك منهم أمرهم بالاستغفار وطلب العفو، كما أخبر عنهم بقوله:

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٢).

﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

سُئل أبو يعقوب النهرجوري عن المريد؟ فقال: صفته ذكرها الله في كتابه: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾، وهو دوام ذكرٍ وإخلاص عملٍ، أوصى بهذه الآية أكابرهم في التعطف عليهم والصفح عن زللهم.

قال بعضهم: يدعونه شوقًا واعتمادًا عليه لم يشغلهم شاغلٌ، ولم يصدهم عن خدمته صادٌّ، قائمون على بابه من الخدمة والعبودية، منتظرون زوائد بركاته عليهم.

ولي إشارةٌ أخرى: أن الله تعالى وصف حضورهم بالغداة والعشي أي: حضروا في الحضرة بالغداة بعزم خدمته إلى العشي، وحضروا بالعشي بعزم خدمته إلى الغداة حتى تكون أوقاتهم مسرمدة بغير فترة.

الإشارة فيه: لمّا وصفهم بالحضور نفى عنهم بدليل الخطاب جميع أشغال الدنيا، أي: كانوا رجال المراقبة والحضور والمشاهدة، لا يشغلهم عن الله شاغلٌ طرفة عينٍ، كما وصفهم في موضع آخر بقوله: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [النور:٣٧].

وأيضًا فيه لطيفةٌ: وصفهم بالحضور بالغداة والعشي على تسرمد الأحوال لترويحهم سويعات بالأحكام الظاهرة، هذه شفقةٌ من الله؛ لكيلا تحرقهم نيران محبتهم، وتزيلهم حدة إرادتهم.

يُقال: أصبحوا، ولا سؤال لهم من دنياهم، ولا مطالبة من عقباهم، ولا همة سوى حديث مولاهم، فلمّا تجردوا لله تمحضت عناية الحق لهم فتولى حديثهم.

وقال: ولا تطردهم يا محمد، ثم قال: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٥٢]، الفقير خفيف الحال لا يكون على أحدٍ منه كثير مؤنةٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: الفقير الصادق إذا امتنَّ الله عليه بمعرفته، وكشف مشاهدته، وكساه رداء هيبته يتجلّى عند جميع الخلائق لبروز نور جلال الله من وجهه بحيث يجيء بقوم العالم عنده لصولة حاله، وغلبة وجده، ولطائف كلامه، ويكون سالب قلوب الخلق بما يجري عليه من أحكام ربوبية الله، فيظهر للحق منه سنا كرامات الله، ولطيف آيات الله، فيحسده عليه أهل الدنيا من المغرورين بمزخرفاتها، الواقعين في ورطاتها، ويقولون عند العامة: أهذا الذي له كرامات وآيات؟! هذا طراز سالوس، وأرادوا بذلك صرف وجوه الناس عنه إليهم.

قال الله سبحانه في وصف الحساد عند حسدهم على أوليائه: ﴿أَهَـٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ﴾ استهزاء، فأجابهم الله رغمًا لأنوفهم: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي: هو تعالى يعلم صدقهم وإخلاصهم وبذل وجودهم شكرًا لإنعامه، وحمدًا لما مَنَّ عليهم من الدرجات الرفيعة، والحالات الشريفة، ويعلم غيظ أعدائهم.

وفي الآية نكاتٌ: أن فتنة الفقر طمعه إلى الغنى، وفتنة الغني بغضه للفقير؛ لئلا يؤديه حقه.

وأيضًا: في الحقيقة مقام الفقر مقام التجريد والتوحيد والتنزيه، وإفراد القدم عن الحدوث، وفناء النفس في الحق، وإذا كان الفقير بهذه الأوصاف يستظل بظلال الربوبية، ومقام الغنى مقام الاتصاف بصفات غنى القدم والاكتساء بكسوة الربوبية، فإذا كان الغني بهذه الأوصاف يكون نائب الحق في العالم؛ فإذا رأى فقيرًا بوصف ما ذكرنا يصول عليه بقوة مقامه، فيكونان في حجاب حالهما ومقامهما ورؤية غير الله، وهذا من غيرة الله عليهما؛ لئلا يسكن أحدهما الآخر، فيسقطان من درجة السكون إلى الحق، ومن غيرته تعالى على نفسه لشغل بعضهم بعضًا؛ لئلا يطّلع عليه غيره.

وما ذكرنا بمجموعه فهو معنى قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾، وما يليق بذلك من تفسير.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ أي: بالذين منهم من لا ينظر في طريقه إلى نفسه وإلى غيره طرفة عين.

قال الحسين ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾: قطع الخلق بالخلق عن الحق.

وقال محمد بن حامد: فتنة الفقراء بالأغنياء، وفتنة الأغنياء بالفقراء، ففتنة الفقير في المعنى رؤية فضله، وبسخطه لما يمنعه ما في يده، ويراه المعطي والمانع دون الله، وفتنة الغني في الفقير ازدراؤه الفقراء، وتحقيره إياهم، ومنعهم ما أوجب الله عليه لهم مما في يده، وامتنانه عليهم بإيصالهم إلى حقوقهم وإيصال الحقوق إليهم، والذي يسقط عن الفقير فتنة فقره رؤية دخل الأغنياء، والذي يسقط عن الغني فتنة غناه رؤية دخل الفقراء.

قيل: في الشكر، والشاكرون: الراجعون إلى الله في جميع أحوالهم.

﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ

ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: تطييب لقلوب المريدين، الذين يطلبون الله بوسائط الآيات، وتسلية لقلوب النادمين على ما فات عنهم من أوقات المراقبات بمباشرة الجنايات، فأحالهم الحق إلى سلام نبيه ﷺ؛ لأنهم في مقام الوسيلة، ولو بلغوا إلى درجة أهل المشاهدة لأحالهم إلى سلامه بقوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

انظر كيف أحب الرجوع للمذنبين؛ حيث أمره ﷺ بالسلام عليه بقوله: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤]؛ لأنهم قاسوا مقاساة امتحانه في بيداء قهره، لمّا رآهم مقبلين إليه بعد تحملهم بلاياه، سلَّم عليهم بلسان نبيه، ثم رفع درجتهم من ذلك، وواساهم بنفسه، وروَّح فؤادهم بمروحة رحمته السابقة عليهم في الأزل بقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي: كان في الأزل اصطفاهم برحمته، وإن علم منهم العصيان، رحمته الأزلية أصلٌ ثابتٌ، والمعصية عارضةٌ من طوفان قهره في طريق الإقبال إليه والمسارعة في السير إلى وصاله، فإذا وصلوا إلى معادهم بقيت الأصول، وفنيت العوارض، إذا أحبهم بمحبته الأزلية توجب محبته أن يوصلهم إلى مشاهدته التي هي رحمته الكبرى، وأن يخلصهم من غبار الطبيعة، ويطهِّرهم من أدناس النفسانية بمياه رحمته الكافية بقوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًا﴾ نظر إلى غيره ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ بقلّة علم على ذوق وصالي ولطف جمالي، ﴿ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ رجع من نفسه إليَّ، ﴿وَأَصْلَحَ﴾ مزار تجلياتي من قلبه، بأن قدسه من شوائب شهواته.

﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لما سلف من تقصير في أداء حقوقي؛ بحيث لا أعيرهم بذلك أجرًا.

﴿رَحِيمٌ﴾ بأن قوّاهم بقوة أزلية؛ ليحملوا أثقال مشاهداتي بها، ولولا ذلك لفني وجودهم في أول رؤية سطوات عظمتي وجلال كبريائي.

قيل في قوله: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: سلّم أنت على الذين يؤمنون بآياتنا، فإنا نسلم على الذين آمنوا بنا بلا واسطة، وذلك قوله: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨].

قال إبراهيم بن المولد: والله إن الحق هو الذي يسلِّم على الفقراء، والنبي ﷺ في ذلك واسطةٌ.

وقال الواسطي في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: برحمته وصلوا إلى

عبادته، لا بعبادتهم وصلوا إلى رحمته، وبرحمته نالوا ما عنده لا بأفعالهم؛ لأن النبي ﷺ يقول: «... ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»[١].

وقال ابن عطاء في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾: كل من عصى الله عصاه بجهل له، وكل مَنْ أطاعه أطاعه بعلم، فإن العبد إذا لم يعظم قدر معرفة الله في قلبه ركب كل نوع من البلاء.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: بادرهم بالسلام قبل أن يسلموا؛ إكرامًا لهم، وإظهارًا لقدرهم.

قال بعضهم في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾: في الأبد لمَنْ نظر إليه في الأزل بعين الرحمة.

قال أبو عثمان: أوجب على نفسه عفو المقصرين من عباده؛ لذلك قال: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾.

وقال بعضهم في قوله: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾: في الصفات الجارية عليهم ولهم، الذي أعتقهم من رقِّ الكون، وأظهرهم من خفايا المخزونات المصونات المكنونة بأعجب أعجوبة، ثم أشهدهم السلام، فكانوا سالمين منه في إظهار ربوبيته، سالمين منه في آخريته، استحقوا اسم السلام بذلك.

﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي: على يقين ومشاهدة ورؤية غيب وسلطان براهين، وسطوع نور الأزل من وجهي، فإنه أعظم البينات في العالم، من رآه رأى الحق؛ لقوله ﷺ: «مَنْ عَرَفني فقد عَرَف الحقَّ»[٢]، و«مَنْ رآني فقد رأى الحقَّ»[٣].

قال أبو عثمان المغربي: الأنبياء على بيناتٍ، والأكابر من الأولياء على بيناتٍ، وبينات الأنبياء وحي يقينٍ، وبينات الأولياء الفراسات الصادقة، والإخبار على الغيب كما كان ليوشع ﷺ وللصديق الأكبر ﷺ.

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٣٧٣)، ومسلم (٤/ ٢١٦٩)، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٣٧).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٥٩﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ غيبة ذاته القدمي، وهو خزانة أسرار الآزال والآباد، ومفاتيحها صفاته الأزلية، لا يعلم صفاته وذاته بالحقيقة إلا هو تعالى بنفسه، فنفى الغير عن البين؛ حيث لا حيث ولا بين، فمن إشارة الأحدية المفتاح والخزانة واحدٌ؛ لأنه منفردٌ بصفاته وذاته عن الجمع والتفرقة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ [لقمان: ٣٤]، قال: علمه مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ إلى قوله: ﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

قال السدي من كبار المفسرين: ﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾ خزائن الغيب.

وأيضًا: مفاتح الغيب عنده أنوار عنايته الأزلية التي سبقت منه بنعت الكرم والفضل لأنبيائه وأوليائه وملائكته، وغيبة ذاته وصفاته تعالى؛ لأنه كنزه القديم الباقي، ألا ترى إلى قوله: «كنتُ كنزًا مخفيًا فأحببتُ أن أعرفَ»(١).

فيفتح بلطفه بتلك الأنوار الأزلية التي سماها المفاتيح لهم أبواب خزائن صفاته وذاته؛ ليعرفوا كنز القدم بأنوار القدم، وهو تعالى يظهر مكنون أسراره من ذاته وصفاته لهم، وهم يستخرجون من بحار الذات والصفات جواهر علومه الأزلية والأبدية؛ ليوضحوا بأنوارها طرق العبودية لعباده، ويبينوا مدارك المعاملات ومراقي الحالات لهم.

وقوله: ﴿لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا يعلم الأولون والآخرون قبل إظهاره تعالى ذلك لهم، ولا يعلم حقائق أقدارها إلا هو؛ لأنه تعالى عرف قدره بالحقيقة لا غير.

وأيضًا: لا يعرف طريق وجدانها والوسيلة إليها إلا هو، هو بذاته تعالى عرَّف طرقها لأهلها، قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧].

وأيضًا: له مفاتيح الغيب، ومن تلك المفاتيح التي يعطي قاصديه وطالبيه في بدء شأنهم ما داموا صادقين، هي المعاملات السنية، والمقامات الشريفة التي يستفتح بها لهم خزائن الملكوت والجبروت، ويستخرج منها أنوار المحبة والشوق والعشق والمعرفة ودرجاتها،

(١) ذكره المناوي في «التعاريف» (١/ ٥٦٨)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ١٧٣) بنحوه.

والتوحيد ومكاشفاته وعلومه، فيصلون بها إلى وصاله الأبدي وقربه الجلالي.

وأيضًا: له مفاتيح اللطيفات والقهريات، يفتح بها أبواب أنوار المعرفة للأولياء، ويفتح بها أبواب ظلمات الطبيعة للأعداء.

وأيضًا: عنده مفاتح غيب الدرجات، يفتح للقلوب خزائن المشاهدات، وللأرواح خزائن المكاشفات، وللعقول خزائن المعارف، وللأسرار خزائن علوم الذات والصفات، وللأشباح خزائن المعاملات، يفتح للأنبياء بها خزائن المعجزات، ويفتح للأولياء خزائن الكرامات، ويفتح للمريدين خزائن الفراسات.

قال الجريري: لا يعلمها إلا هو، ومَنْ يطلعه عليها من صفي وخليل وحبيب وولي.

وقال ابن عطاء: هذه الآية تفتح لأهل الخير المحبة والرحمة، ولأهل الشر الفتنة والمهانة، ولأهل الولاية الكرامة، ولأهل السرائر السر، ولأهل التمكين جذبًا.

وقال ابن عطاء: الفتح في القلوب الهداية، وفي الهموم الرعاية، وفي الجوارح البشارة.

وقال أيضًا: يفتح للأنبياء المكاشفات، وللأولياء المعاينات، وللصالحين الطاعات، وللعامة الهدايات.

وقال أبو سعيد الخرَّاز في هذه الآية: أبدى ذلك لنبيه وحبيبه، فتح عليه أولاً أسباب التأديب، أدَّبه بالأمر والنهي، ثم فتح عليه أسباب التهذيب، وهو المشيئة والقدرة، ثم أسباب التذويب، وهو قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، ثم أسباب التغييب، وهو قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل:٨]، فهذه مفاتح الغيب التي فتحها لنبيه ﷺ.

وقال جعفر عليه السلام: يفتح من القلوب الهداية، ومن الهموم الرعاية، ومن اللسان الرواية، ومن الجوارح السياسة والدلالة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي: يعلم عجائب بحر غيب لطفه الأزلي للأنبياء والأولياء، ويعلم عجائب بحر غيب قهره للأعداء.

وأيضًا: يعلم في بحار الغيوب وبراري القلوب.

وأيضًا: يعلم ما في بحار القلوب من عجائب الحكم وجواهر الكرم، وأصداف المعارف وألطاف الكواشف، ويعلم ما في براري النفوس وبناتها من ألوان الشهوات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٥٩]: لا تسقط ورقة من أوراق أشجار الغيوب إلى فضاء القلوب من سطوة صرصر رياح القهر واللطف التي هي حكمة من حكم علوم الأزلي الأبدي.

وأيضًا: ما تسقط ورقة من أوراق تجلي الجمال والجلال من شجر القدم على قلوب

المحبين والمشتاقين والعارفين إلا بعلمه على خاصيتهم واصطفائيتهم بذلك، ولا يكون حبة المحبة في غيوبات قلوب المحبين إلا هو تعالى يربِّيها بمياه لطفه ورياح كرمه، وبياض نهار مشاهدته، وسبل إسبال ستر رعايته حتى رسخت أصلها في أرض القلب، وأثمرت فرعها في سماء اليقين.

قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ أخبر سبحانه بإحاطة علمه على كل ذرة من العرش إلى الثرى، وعن شمول أنوار سلطان كبريائه بنعت الغلبة على جميع الحدثان ظاهرًا وباطنًا ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾[سبأ:٣]، وهدد به العباد؛ ليفرغوا منه إليه عند كل خاطرٍ يخطر على قلوبهم يشير إلى غيره، فإنه يعلم السرَّ وأخفى، وبيَّن أن جميع المقدورات من العرش إلى الثرى في كونيتها من العدم إلى الوجود، ومن الوجود إلى العدم يكون بسابق مشيئته الأزلية، وإرادته القديمة، وأن جميعها مكتوبٌ على ألواح الصمدية بأقلام أقداره، الغربة محفوظةٌ من تغير الحدثان في تلون الزمان والمكان.

وصحة ذلك قوله سبحانه: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:٥٩] رطوبتها من أثر نسيم شمال ربيع لطف مشاهدته، وخضرتها من نضارة ظهور عرائس قدرته، وصفرتها من تأثير رياح خريف قهره، وسقوطها من حدة صولة نظر عظمته، وبدوها خضوعًا لربوبيته، وزوالها من تقديس جلاله عن علة الكون والوجود والعدم.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾: متى علمها حين لا متى؟

قيل: نضرتها وخضرتها وذهابها حتى لا يوجد منها شيءٌ، فما ستر من صفاته، وما أظهر واحدٌ، ذلك على قدر الكون، إنّما يتكلم بأقدارنا، ويشير بأخطارنا، ولو كان قدره كان الهلاك.

وقيل في قوله: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ﴾: فالاضطرار في أن يقدم ما أَخَّر أو يؤخر ما قدَّم منازعة لربوبيته وخروجًا عن عبديته.

قال أبو سعيد القرشي في هذه الآية: ما من دابة إلا ولها ورقةٌ خضراءُ معلقةٌ من تحت العرش، فإذا يبست الورقة وقعت بين يدي ملك الموت، مكتوبٌ عليها اسمه واسم أبيه، يعلم ملك الموت قد أمر به بقبض روحه فيقبض روحه.

وفي الحديث المروي عن النبي ﷺ قال: «ما من زرع على الأرض ولا ثمارٍ على الأشجار

إلا عليها مكتوبٌ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هذا رزق فلان بن فلان»[1]، وذلك قوله في محكم كتابه: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾: توفيتهم في الليل لطيران أرواحهم في الملكوت، وسيرانها في أنوار الجبروت، ليزيد شوقها إلى معادنها، وتعرف ما يجازي به بأعمال الأشباح التي كسبتها، وبالنهار من الثواب والعقاب، وتعلم قدرة الله بالإماتة والإحياء مباشرة ومعاينة؛ ليجيء عليها وقت انقطاعها من الحدثان إلى مشاهدة الرحمن، أشار إلى هذا بتمام الآية: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وشاهد الآية ومعناها: قوله تعالى بعد ذكر قهر سلطانه بوصف الإحاطة على العبد ومحافظته بالملائكة وإرجاعه إلى كنفه القديم وقربه الكريم: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ من شرفه وكرامته لا يبقيه في سجن الدنيا وبليتها، وأبدى الملائكة الكاتبين عليه أعماله غيره على وليه؛ لئلا يطّلع عليه غيره، وفي الآية رجاء المذنبين، وذلك تلطفه بهم حيث قال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾، لو قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾، ولَمْ يقل: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ لذابوا من عظمته وقهر كبريائه، ولكن تعطف على عباده بإضافة مولويته إليهم، ولو قال: «هم موالي» لكان عظيمًا، خصَّ أن قال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: حبيبهم وناصرهم الحق أذهب الأمر من مقام الهيبة إلى مقام الزلفى من قوله: ﴿رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلله﴾، ثم قال: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) رواه الديلمي في الفردوس (٤/ ٥٣).

(٢) قال ابن عجيبة: من علم أن الله قاهر فوق عباده، انسلخ من حوله وقوته، وانعزل عن تدبيره واختياره؛ لإحاطة القهرية به، ومن تحقق عموم قهاريته تعالى، علم أنه لا حجاب حسي بينه وبينه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر لشيء فهو له قاهر ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾. وإنما المحجوب: العبد عن ربه بوجود وهمه وجهله، ومن تحقق أن الملائكة تحفظ أعماله استحيى من ارتكاب القبائح، لئلا تعرض على رءوس الأشهاد [البحر المديد (٢/ ١٥٦)].

قال بعضهم: هي أرجى آية في كتاب الله؛ لأنه لا مردَّ للعبد أعزُّ من أن يكون مردُّه إلى مولاه.

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ الإشارة فيه إلى مَنْ غُمَّ عليه غيم القبض، وتراكم عليه كرب الفراق؛ ليخلصه الله منها بكشف جماله له، وقربه إلى وصاله، فيخطر على سرّه وارد الامتحان، فيميل من حظ رؤية الصفة إلى حظ رؤية الفعل عند رؤية مستحسنات الكون، أي: كاشفت كرب البعد عن قلوبكم، بكشف قرب مشاهدتي لها، فنظرتم إلى المستحسنات التي رؤيتها ممزوجةٌ بلذة شهوات نفوسكم، فتشركون إذا سكنت قلوبكم إلى غيري، وإن كان محل لطفي، لكان هناك منازلة مكر القدم.

قال بعضهم يقول الله: «أنا كاشفُ الكروب، ومَنْ قصدني عند كرباته وحاجاته كشفت عنه كروبه، ومن قصد غيري أسقطت عنه وجاهته»[١].

لما ذكر امتنانه بكشف الكربة وعاتبهم لشركهم وسكونهم إلى غيره خوَّفهم بقدرته الأزلية، وإرجاعهم إلى ظلمات الكربة، وعذاب الفرقة بقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ أي: بأن أحجبكم من النظر إلى ملكوتي، وأقطع موارد تجلي مشاهدتي عن قلوبكم، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي: لا أسهِّل عليكم القيام على باب ربوبيتي بنعت الخدمة، وطلب الوصلة، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ إنكارًا على أوليائي وأهل مجالستي، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ مخالفة المريدين للمشايخ، ومفارقة المشايخ من المريدين.

قال القاسم في قوله: ﴿عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾: اللهو والنظر إلى المحرمات، والنطق بالفحش، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ المشي إلى الملاهي، وأبواب السلاطين، وهتك أستار المحرمات، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ برفع ما بينكم من الألفة، ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ بكفر أهل الهوى بعضهم بعضًا.

﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا

---

(١) لم أقف عليه.

فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ أي: كل خطابٍ من خطابنا معدنٌ من ذاتنا؛ لأن خطابنا كلامنا، وكلامنا صفتنا قائمة بذاتنا، وذاتنا معدن صفاتنا، فإذا ورد أمر كان وارد خبر الغيب، وخبر الغيب وارد الخطاب، ووارد الخطاب وارد الكلام الذي هو صفة الأزل التي سطع نورها من ذات القديم، وورد على أشكال الأمر والفعل، فيكون على قدر عقول الخلق، ولو خرج صرفًا لم يحتمل الحدثان، ويضمحل فيه الزمان والأكوان؛ لأن نعوت الأزلية لا تحملها إلا صفة الأزلية.

وأيضًا: لكل خبر على صورة المدركة مرادٌ من الله سبحانه الذي يوافق خبر الغيب، ولا يفهمه إلا رباني الصفة.

وأيضًا: لكل خطابٍ من الله سبحانه من قلوب العارفين مستقرٌّ لا تنزل إلا في مستقره، هناك لا يضطرب الخبر؛ لأن هناك مسقط تجلّي الأزل، وخبر الأزل في موضع تجلّي الأزل يستقر؛ لأنه أهله.

قال ﷺ: «أهلُ القرآنِ أهلُ الله وخاصَّتُه»[1].

وأيضًا: لكل نبأ بيانٌ يدل ذلك إلى مقام من مقامات الصديقين، مثلما ذكر في القرآن أوصافهم، ونعوتهم من المحبة، والخوف، والرجاء، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوحيد، والإيمان، والإيقان، والمشاهدة، والمكاشفة، والحضور، وإلقاء السمع، وأمثال ما ذكرنا يوجب الخبر، وصف فوائد تلك المقامات لأهلها، ولا يستلذه، الحمد لله الذي خصَّ أولياءه بهذه المقامات.

وأيضًا: لكل نبأ من أوقات العارفين وقتٌ، ينـزل على قلوبهم على قدر الوقت ليدل على معالي درجات الغيب.

قال الحسين: لكل دعوى كشفٌ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ وصف رعايته تعالى أهل حضرته الذين خرجوا بنعت التجريد من أنفسهم، ومن الأكوان جميعًا، ألا يطرأ عليهم من طوارق القهر التي استأصلت أعداء الله بمماسة قهرها، أي: لا يرجع شرَّ الأعداء إلى الأولياء في الدنيا والآخرة؛ لأنهم مصونون بكلاءة الله وحفظه إياهم، ووصفهم بتمام الآية

---

(١) رواه ابن ماجه (١/ ٧٨)، وأحمد (٣/ ٢٤٢).

بقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: إذا كنتم مصونين بحفظي عن شر الأشرار ذكرهم أوصاف عظمتي وجلالي؛ كي يتقوا من عذابي، ويرجعوا إلي بابي نادمين من زلاتهم؛ لأن الوعظ والتذكير من شأن أهل التمكين والاستقامة في المعرفة، والطريقة؛ فإنهم ثواب الأولياء والرسل.

قيل: ما على التاركين الاعتماد على الوسائط، والأخذ من الحق حظوظهم حساب.

قال سهل: أخذ الله تعالى على أوليائه بالتذكير لعباده، كما أخذ التبليغ على أنبيائه، فعلى أوليائه أن يُذكروا به، وأن يدلوا عليه؛ إذ أخذ الله ﷻ ذلك عليهم، ومتى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا﴾ أي: اترك البطَّالين الذين شُغلوا عنا بحظوظ الكونين؛ حتى لا يزاحموا مجالس الصديقين؛ فإنهم محجوبون بحظوظهم عن لذة خطابنا، وحقائق خبرنا، ولذة صحبة أوليائنا.

قال الحسين ﷺ: ألا تلاحظ من شغلهم خلقنا عنَّا، وأنسوا بحياتهم في دنياهم، وهي في الحقيقة موتٌ، والحي مَنْ يكون حيًّا.

﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ أي: إن هدى الله الذي بسط شرائعه وحقائقه وطرائقه للأنبياء والأولياء والصديقين والمقربين، وذلك طريق عرفانه، والوصول إلى جنان مشاهدته، وذلك الطريق لأهل معرفته يدل الأولياء على الرضا بقضائه، والصبر في بلائه والتسليم لمراده، بحيث لا يكون منهم معارضة، وهذا معنى قوله: ﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قال القاسم: الطريق إلى الله هو الأصح، والقاصد عرصته هو المعان، قال الله: ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾.

قال أبو عثمان: أمر العبد بالتعليم، والتسليم ترك التدبير والرضا بمجاري القضاء، ولما بيَّن طرائق الهدى ووصفهم بالإذعان له في مراده منه أمرهم بالصلاة، وخوَّفهم فيها من نفسه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ﴾ إقامة الصلاة ظهور الربوبية في العبودية، وترائي هلال المشاهدة في الخدمة؛ لقوله ﷺ: «تعبدَ الله كأنَّك تراه»[1]، والتقوى هنا معناها: اتقوني في الصلاة؛ فإنها مقام الهيبة والإجلال والمناجاة من أن يخطر على قلوبكم شيء دوني، فأحتجب عنكم بامتناعي عن مطالعتكم بعيون مسدودة بعوارض الخطرات.

قال ابن عطاء: إقامة الصلاة حفظ حدودها مع الله، وحفظ الأسرار فيها مع الله ألا يختلج في سره سواه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ لمّا أراد تعالى أن يخرج الكون من العدم تجلى من ذاته بصفاته، ومن صفاته لأمره، ومن أمره للكاف والنون، فيقدح أحدهما بالآخر، فيخرج من بين نورهما الأكوان والحدثان؛ لاتصال نور الذات بالصفات، واتصال نور الصفات بالأمر والفعل والكاف والنون، فيحقق ذلك مراده في الأزل بذلك.

﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ﴾ أي: قوله يحقق ما في علمه بنعت إخراجه من العدم إلى الوجود، بحيث لا يكون في ذرة منه خللٌ، يوافق فعله أمره، وأمره إرادته؛ لأن له الملك والقدرة الأزلية القائمة بذاته القديم الباقي بوصف الأزل إلى الأبد.

قال الحسين: هو الحق، ولا يظهر من الحق إلا الحق، قال الله: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: كما خصصنا الخليل في الأزل بالخلة، أريناه ملكوت السماوات والأرض ما يظهر من أنوار صفات الأزلية، وذات السرمدية من مرائي ملكوت السماوات التباسًا لثبوت خلته واستقامة

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٩٣).

محبته، وزيادة شوقه إلى جمال القدم؛ وليكون من المشاهدين لقاءنا في مقام اليقين بواسطة الملك والملكوت.

قال أبو سعيد الخرَّاز: أراه ذلك ليطيق الهجوم على عظمته ذكر في مقام الواصلين.

وقال فارس في تفسير الآية: بدايات أعلام الغيوب التي لا تبقي على النفوس غير الله، وهو دلائل أهل التوحيد عندهم.

وقال بعضهم: أرى الخليل الملكوت لئلا يشتغل بها، ويرجع إلى مالكها.

وقال بعضهم: أرى الخليل الملكوت، فاشتغل بالاستدلال على الحق، فلمّا كشف له عن الحقيقة يتراءى الكل، فقال: «أما إليك فلا»[1].

وقيل: ليكون من الموقنين بعد معرفة اليقين.

وقال النصرآبادي في قوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: ولم يقل: أُري إبراهيم، ولا يمكن رؤية الفروع بالفروع، إنما رأى الفرع من الملكوت بالأصول.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ إن الله سبحانه امتحن خليله ﷺ بالبلايا، ومن جملتها امتحانه برؤية الملكوت؛ ليشتغل بحلاوة رؤيتها عن مشاهدة القدم، وكذلك امتحنه في بدايته بمقام الالتباس عند ظهور كوكب تجلّي نور الفعل الخاص في صورة الشعرى، فنظر إليه حين جنَّ عليه ليل الامتحان، فرأى بعين الإرادة نور فعله الخاص الذي مشربه أنوار الصفة، فقال بلسان التعجب: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، فدار عليه دور الإرادة، وربَّاه بنور القربة، وبلغه إلى مقام القلة، فلمّا جنَّ عليه ليل الفرقة من مقام الأول برز نور الصفة من معدن الذات، وظهر من نور الفعل الخاص في القمر له، فنظر إليه ورأى مشاهدة الصفة في الفعل، فقال بلسان الشوق: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾، فدار عليه دور الخلّة، وربَّاه بنور الوصلة، وبلغه إلى مقام العشق وذوَّقه طعم حقيقة طرب سره، وهاج شوقه إلى طلب الزيادة، فظهرت أنوار الذات في الصفات، وظهرت أنوار الصفات والذات في الأفعال الخاصة.

ثم ظهرت أنوارها في الشمس، فلمّا صفا وقته واندرجت ظلمة ليلة الفراق طلعت

---

(١) رواه الطبري في «التفسير» (١٧/ ٤٥).

عليها الشمس، فنظر إليها، فرأى مشاهدة جلال القدم في مرآة الشمس، فقال بلسان العشق: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فوصل إليه غيرة القدم، وجرَّده عن رؤية الوسائط في رؤية القدم عند رؤيته أفول الآيات بنعت فنائها في عظمة أنوار القدم، وانكشف له عين القدم صرفًا، ففرَّ منه إليه، وتوحَّد بوحدانيته، وقال للنفس المطالبة حظَّها من رؤية الكون المشيرة إلى كوكب الفعل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ أي: الساقطين في مهوات المحو عند بروز سطوات عظمة الله.

وقال للعقل المطالب حظ رؤية القدرة في رؤية القمر، الذي هو مرآة نور الصفة: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين بقوا في مقام الالتباس عن رؤية صرف الصفات، أي: لئن لم يهدني به إليه لبقيت به عنه.

وقال للقلب المطالب حظه من مقام العشق ورغبته في لذة المحبة في رؤية الوسائط، وفراره من الاحتراق في نيران الكبرياء: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يفرون إليه من غيره، وإن كان وسيلة إليه، فإني أراه بلا واسطة رأيته به لا غير، برئت من حظي في الوسائط.

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ أي: إني متوجِّهٌ بعد تبرئي من الحدث بنعت تجريدي في التوحيد إلى شرف القدم الذي بدا من أنوار فعله كل وسيلة.

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿حَنِيفًا﴾ مسلمًا حنيفًا قائدًا عمّا دونه، مسلمًا منقادًا بنعت الرضا عنده.

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ الذين يسيرون إلى الوسائط، فإني ذاهبٌ إلى ربي سيهديني منه إليه، حتى أبقى بنعت الفناء فيه قبل، كمَنْ فيه كواكب الوحدانية وشموسها وأقمارها، فغلب بها الشكوك في رؤية الأقمار والنجوم والشموس.

قال الواسطي في قوله: ﴿رَءَا كَوْكَبًا﴾: قال: إنه كان يطالع الحق بسيره لا الكوكب، وكذلك الشمس والقمر بقوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ عند رجوعه إلى أوصافه بارتفاع

المعنى البادي عليه، أي: لا أحب زوال ما استوفاني من لذة المشاهدة، فأذهلني، وأحضرني فيه.

وقال بعضهم: لمّا أظلم عليه الكون، وعمي عن الاختيار، وألجأه الاضطرار إلى نفس الاضطرار، ورد على قلبه من أنوار الربوبية، فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ .

ثم كوشف له عن أنوار الهيبة، فازداد نورًا، فصاح، ثم أُفني بنور الإلهية عن معنى البشرية، فقال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ ، ثم أُبقي ببقاء الباقي، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ .

قال الواسطي في قوله: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ : لئن لم يقمني ربي على الهداية التي شاهدتها بإعلام بواديه لأكونن من الضالين في نظري إلى نفسي، وبقائي في صفاتي.

قيل في قوله: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ من الاستدلال بالمخلوقات على الخالق بعلمي، إنه لا دليل على الله سواه.

قال الواسطي في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: مني الدعوة ومن الله الهداية.

وقال جعفر ﷺ في قوله: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ﴾ يعني: أسلمت قلبي للذي خلقه، وانقطعت إليه من كل شاغلٍ، وشغل بالذي فطر السماوات والأرض، فإن الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، وأظهر فيها بدائع صنعه قادر على حفظ قلبي من الخواطر المذمومة والوساوس التي لا تليق بالحق.

قال بعضهم: كان لإبراهيم خليل الرحمن ﷺ مقاماتٌ: الأول: مقام الفاقة، والثاني: مقام النعمة، والثالث: مقام المعذرة، والرابع: مقام المحبة، والخامس: مقام المعرفة، والسادس: مقام الهيبة، فتكلم في مقام الفاقة بلسان الدعوة فقال: ﴿ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم:٤٠]، وفي مقام النعمة بلسان الشكر، وقال: ﴿ٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء:٧٩]، وفي مقام الاعتذار بقوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وفي مقام المحبة بلسان المودة: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ٧٨]، وفي مقام المعرفة بلسان الانبساط: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠]، وفي مقام الهيبة بالسكون لمّا قال له جبريل ﷺ: هل لك من حاجةٍ؟ قال :أما

إليك فلا»[1].

وقال الأستاذ في قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ يعني: أحاط جوف الطلب، ولم يخيل له صباح الوجود، فطلع له نجم العقول، فشاهد الحق بسرِّه بنور البرهان، فقال: ﴿هَـٰذَا رَبِّي﴾، ثم زيد في ضيائه، فطلع له قمر العلم، فطالعه بشرط البيان، فقال: ﴿هَـٰذَا رَبِّي﴾، ثم أسفر الصبح، وطلع النهار، فطلعت شموس العرفان عن برج شرقها، فلم يبق للطلب مكانٌ، ولا للتجويز حكمٌ، ولا للتهمة قرارٌ؛ فقال: ﴿يَـٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾﴾؛ إذ ليس بعد الغيب ريبٌ، ولا عقب الظهور سرٌّ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أي: الذين شاهدوا الله بوصف المعرفة والتوحيد لا برسم الاستدلال بالأكوان والحدثان، ولم يتجاوزوا في مقام المشاهدة عن مقام العبودية إلى مقام الأنائية من مباشرة أحكام الربوبية وحسن تجليها، فإن العارف إذا بقي عند المشاهدة في مقام العبودية فنعته صحوٌ وتمكينٌ، وهو في غاية المعرفة، وهو مقام النبي ﷺ عند قوله: «أنا العبدُ لا إله إلا الله»[2]، فإذا تجاوز منه بذوق إدراك نور الربوبية إلى الأنائية؛ فنعته السكر والتلوين، وهو في مقام الاضطراب غير بالغ في المعرفة، كَمَنْ ادَّعى الأنائية بقوله: أنا الحق وسبحاني، فإن دعوى الأنائية هاهنا ظلمٌ، والظلم وضع الشيء في غير موضعه، فمَنْ بقي بوصف العبودية في المشاهدة وقاه الله بوقاية التوحيد، والمعرفة الخاصة أن يسلبه غمرات السكر التي توقع السكران إلى هتك الأسرار ودعوى الأنائية.

وهذا معنى قوله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ به إليه.

وأيضًا: إشارة الآية إلى مَنْ لا يرجع في مشاهدة الله إلى الحدثان، كمّا وصف نبيه ﷺ بمقام الدنو والتمكين في دنو الدنو بنعت الاستقامة في مشهد القرب؛ حيث ما زاغ سره إلى غيره بقوله: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾؛ لأن مَنْ التفت منه إلى غيره، وإن كان الجنة فقد أشرك في حقائق التوحيد ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾، مقام الأمن لا يحصل لأحدٍ ما دام بوصف الحدثية، وكيف يكون أمنًا منه وهو في رِقِّ العبودية، ويعرف نفسه بها، ويعرف الحق بوصف القدم والبقاء وقهر الجبروت.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

وقال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فإذا رأى الله سبحانه بوصف المحبة والعشق والشوق، وذاق طعم الدنو، واتصف بصفات الحق بدا له أوائل الأمن؛ لأن في صفة القدم لا يكون علّة الخوف والرجاء؛ لأن هناك جنة القرب والوصال، وهم فيها آمنون من طوارق القهر، وهم مهتدون ما داموا متصفين بصفاته، وإن كانوا في تسامح من مناقشة الله بدقائق خفايا مكره.

قال ابن طاهر في قوله: ﴿لَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم﴾: لم يرجعوا في النوائب والمهمات إلى غير الله، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ الكفايات، ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ راجعون إلى مَنْ إليه المرجع.

وقال الأستاذ: أي الذين أشاروا إلى الله، ثم لم يرجعوا إلى غير الله.

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾[1] الدرجات: المقامات الشريفة في المعرفة، والحالات الرفيعة في المحبة، والكرامات الزكية في المعاملة، وهي بذاتها طريقٌ إلى الله، فإذا وصل إليه وفني فيه وبقي معه لمْ يبق هناك درجات ولا دركات، إنما هناك سباحةٌ في بحار الآزال والآباد للعارفين والموحدين، أي: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ مَنْ المريدين، ونوصل مَنْ نشاء إلينا بلا قطع المقامات، والسير في الدرجات من العارفين.

وأيضًا: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ درجات العشق والمحبة والشوق، وهي مراقي القرب، رقَّاهم الله بها إليه أبد الآبدين.

---

(١) قال ابن عجيبة: رفعُ الدرجات في جنات الزخارف يكون بالعلم والعمل وزيادة الطاعات، ورفع الدرجات في جنة المعارف يكون بكبر اليقين، والترقي في شهود رب العالمين، وذلك بحسب التبتل والانقطاع، والتفرغ من شواغل الحس ودوام الأُنس، والله تعالى أعلم [البحر المديد (٢/ ١٦٩)].

قيل: ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾: بصفاء السر، وصحة الهمة.

وقيل: بخلق السنا والهمة الزكية.

وقيل: بالكون مع الله والفهم عنه.

قوله تعالى: ﴿ٱجْتَبَيْنَٰهُ وَهَدَيْنَٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: اجتبيناهم في الأزل بمعرفتنا قبل إيجادهم، وهديناهم إلى مشاهدتنا بعد إيجادهم؛ لأن هُنَاك استقامة كل عارف، ولا يدخل فيهم اعوجاج الخطرات واضطراب البشريات.

قال الجنيد: أخلصناهم لنا، وأدَّبناهم لحضرتنا، ودللناهم على الاكتفاء بنا عمّا سوانا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ﴾ أمر حبيبه ﷺ بالاقتداء بالأنبياء والرسل قبله في آداب الشريعة والطريقة؛ لأن هناك منازل الوسائط، فإذا أوصله بالكلية إليه وكحل عيون أسراره بكحل الربوبية، وجعله مستقلاً بذاته مستقيمًا بحاله، وخرج من حدِّ الإرادة إلى حدِّ المعرفة والاستقامة، أمره بإسقاط الوسائط بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى﴾ [الأعراف:٢٠٣].

ألا ترى كيف زجر ﷺ عمر بن الخطاب ﷺ حين جاء إليه بورقٍ من التوراة ليستأذن منه ﷺ بقراءته والعمل به، فقال: «أمتهوكون أنتم كما تهوَّكت اليهود والنصارى، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لو كان موسى حيًّا ما وسعه إلا اتباعي»[(١)].

وأيضًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ﴾ أي: عرفهم ذاته لصفاته، وعلمهم حقائق آدابه، وأمر صفيه ﷺ بأن يأمر أُمته بالاقتداء بشريعته التي هي شريعة الأنبياء.

ألا ترى كيف قال الله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣].

وقال الواسطي في هذه الآية: هداهم بذاته، وقدَّسهم بصفاته، فأسقط عنهم الشواهد والأعراض، ومطالبات الأعواض، ملأ لهم إشارة في سرائرهم والعبارة عن أماكنهم.

---

(١) رواه البيهقي في الشعب (١/ ٢٠٠).

قيل في هذه الآية: لا تصح الإرادة إلا بالأخذ من الأئمة وبركات نظرهم، ألا ترى كيف أثر نظر المصطفى ﷺ في أصحابه، فقال: «اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر وعمر»(١)، فلا يصح الاقتداء إلا بمَنْ صحت بدايته، وسلك سلوك السادات، وأثّرت فيه بركات شواهدهم.

ألا ترى المصطفى ﷺ يقول: «طُوبى لِمَنْ رآني»(٢) أي: فاز من أثّرت فيه رؤيتي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ قطع الله بهذه الآية أطماع الحدثان عن إدراك كنه قدمه وغرة أزليته؛ لأن الحدثان لا يبقى أثرها في جمال سطواته عزة الرحمن، كيف يعرف قدره مَنْ لا يعرفه؟ وكيف يعرفه مَنْ لا يعرف نفسه؟ وكيف يعرف نفسه مَنْ لا يكون خالق نفسه؟ وكيف يكون خالق نفسه، والأزلية منزّهة عن الأضداد والأنداد؟! لأن سطوات عظمته لا تبقي للحدثان أثرًا في ساحة كبريائه، عرف قدره بنفسه لا غيره عرف قدره، بطنان الألوهية لا يدرك؛ لأنها غير متناهية في العقول، غير محدودة في القلوب، غير معروفة بالحلول في الأماكن والأزمنة.

قال الحسين: كيف يعرف أحدٌ حق قدره وهو يقدره، يريد أن يقدر قدره وأوصاف الحدثان أثر يقع من أوصاف القدم.

وقال بعضهم: ما عرفوا حق قدره، لو عرفوا ذلك لذابت أرواحهم عند كل واردٍ يرد عليه من صنعه.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ أي: إذا وقعت أسرار الواصلين في أودية الألوهية، وتحيرت أرواحهم في هواء الهوية، وفنيت عقولهم في سطوات القدرة، وذابت أشباحهم في طوارق تجلّي المشاهدة، وما عرفوا مسالك ما يرد عليهم من واردات موارد تجلّي الجمال والجلال، ويسألونك بنعت الدهش والهيمان، إيش بنا؟ وأين وقعنا؟ قل بلسان داء المحبة: الله، أي: ما وقعتم فيه فهو بحر آزال الله، وقعتم بالله في الله، وإذا سألك أهل وقائع ظلمات القهر التي حيرتهم في وادي الضلال، من أين هذا وقع علينا؟ فقل: الله أوقعكم فيها، ليست الولاية بالمجاهدة، وليست الضلالة بالعلّة، ثم ذرهم طائفتين واشتغل بي، فإن ممازجة الحدثان لا يليق بقلب فيه محبة الرحمن.

وأيضًا: قل بلسانك الله، ولا تقل بلسان سرك؛ فإن الاشتغال بالذكر عن المذكور حجابٌ.

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٦٠٩)، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٨٢).

(٢) رواه أحمد في مسنده (٣/ ٧١).

وأيضًا: إذا فرغت من تبليغ الرسالة توجه إلى الله ممّا سوى الله، وقل: الله؛ حيث لم يكن غير الله، ثم ذر الأكوان والحدثان بعد قولك الله؛ ليوافق لسان الظاهر سريرة الباطن في المحبة.

قال بعضهم: دعا خواصه بهذه الآية إلى الانقطاع من كشف ما له إلى الكشف عمّا به.

وقيل: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إشارة إلى جريان السر، ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ في سرك، وذر ما في لسانك.

حُكِيَ أن رجلاً سأل الشبلي، وقال: يا أبا بكر، لِمَ تقول الله، ولا تقول لا إله إلا الله؟ فقال الشبلي: لا أنفي به ضدًّا، فقال: زد عليَّ من ذلك يا أبا بكر، فقال الشبلي: لا يجري لساني بكلمة الجحود، فقال: زد عليَّ من ذلك، فقال: أخشى الله أن أؤخذ في وحشة الجحد، فقال: زد عليَّ من ذلك، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] فزعق الرجل وخرجت روحه، فتعلق أولياء الرجل بالشبلي، وادَّعوا عليه دمه، فحملوه إلى الخليفة، فخرجت الرسالة إلى الشبلي من عند الخليفة يسأله عن دعواه، فقال الشبلي: روح حنت فدنت، فدعيت فأجابت؛ فما ذنبي؟! فصاح الخليفة من وراء الحجاب: خلوه، لا ذنب له.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: مقدس من تهمة الأوهام، غير مدرك بحقائقه عند الأنام.

وأيضًا: مبارك عليك، وعلى أمتك الصادقين الذين يتبعونه بالشوق والمحبة، ويفهمونه بالذكر والهيبة، فيصلون به إلى رؤية خزائن صفات القدم؛ لأنه صفة تدل كلماته إلى جميع الصفات وعرفانها ونيل خزائنها؛ لأنه مفتاح كنوز الصفات والذات، وهو ميمون علا كل عارفيه، وعلا كل متابعيه بالتدبر فيه، واقتباس أنواره كما ذكر في موضع آخر: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وأيضًا: مباركٌ؛ لأنه كتاب الحبيب إلى الحبيب، فيه أسرار القرب والوصال والتشويق إلى الحسن والجمال، والتحذير من البعد والفراق، وهو مسامرة النجوى لأهل النور والتقى، ومشحونٌ بإشارات العارفين، ومعجونٌ بمفرحات فؤاد الموحدين، مكنوناته مصونةٌ عن عيون الأغيار، ولطائفها محروسةٌ عن مطالعة أهل الاغترار، وهو يوافق جميع الكتب في تعريف الله بصفاته وذاته وعبوديته؛ لأنها جميعًا من مصدر واحد وصفة واحدة غير متغيرة.

قيل: مبارك على مَنْ اتبعه وآمن به.

وقيل: مبارك على مَنْ صدقه وعمل بما فيه.

وقيل: مبارك على مَنْ فهم عن الله أمره ونهيه.

وقيل: مبارك على مَنْ قرأه بالتدبر وعلى مَنْ سمعه بالحضور.

وقال الأستاذ: كتاب الأحباب عزيز الخطر، جليل الأثر، فيه سلوةٌ عند غلبات الوجد، ومن بقي عن الوصول بذلك الرسول.

وقيل:

وَكُتبُك حَوْلِي لَا تُفَارِقُ مِضْجَعِي   وفيهَا شفاءٌ للذِي أنا كَاتِمُ

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ إن الله سبحانه بيَّن في كتابه شأن الغالطين والمفترين والناحلين الكذب والزور، المترسمين بالتكلف رسوم العارفين، وألزمهم سمة الظلم، وذكر أنهم ظالمون بدعواهم الكذب، وإشارتهم إلى مقام الأمناء من المحدثين المكلمين بغير وصولهم إلى ذرة منه؛ تغريرًا بالعوام، وطلبًا لجاههم، وهم خائنون في ذلك، ولا يرجع مكرهم إلى منقصتهم في الدنيا والآخرة، وإسقاط جاههم عند الله وعباده، وسقوطهم عن قلوب رجال الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾؛ لأنهم متشبعون ولم يعطوا، فضحهم الله بكشف غطائهم عند الخلق، وإظهار كذبهم عند عجزهم عن الإخبار من مقامات القوم بالحقيقة حين يمتحنهم أهل المعرفة بالله.

قال ﷺ: «المتشبعُ بما لم يعطِ كلابس ثوبي زورًا»[(١)].

وأنشد بعضهم في ذلك:

إِذا انسكبت دُموعٌ في خُدودٍ   تَبَيَّنَ مَن بَكى مِمَّن تَباكى

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٠٠١)، ومسلم (٣/ ١٦٨١).

وقال آخر:

أمَّا الخيامُ فإنَّها كَخيامهمُ ... وأرىَ نساءَ الحيِّ غيرَ نِسَائهَا

فمَنْ ذكر الله سبحانه ورأى لذكره موقعًا فهو مفترٍ ولا يعلم؛ لأنه تعالى وصف نفسه قبل وصف الخلق نفسه، وكل وصفٍ بعد وصفه صفة الحدوثية، وكيف يصفه أحدٌ وهو لا يعرفه كما هو يعرف نفسه، تعالى الله عن أذكار الغافلين.

قال بعضهم: إن ما لا يليق بجلالة قدره، وحقيقة شأنه قربه، وإن كان مأذونًا فيه؛ لأن ذلك على أقدار خلقه وطاقتهم لذلك.

وقال سهل بن عبد الله: مَنْ ذكر فقد افترى، قال الله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [الصف:٧] لأذكار الغفلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَـٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ بيَّن أن أعمال جميع الخلائق من العرش إلى الثرى مضمحلة عند كشف جلال عظمته، ونوال جماله لما يبدو لهم أنوار الأزلية، يتبرأون من جميع أعمالهم؛ لأنهم يرونها لا تليق بجلال قدره، ولا يكون موازيًا بما يعطيهم الله من سنيات كراماته، ولطائف برِّه، وحسن مواساته، وعند رؤية القدم كما كانوا خارجين من العدم.

قال بعضهم: أجل مقام العبد إفلاسه، والرجوع إليه خاليًا من جميع طاعته.

قيل: لأنه [حفص][1] بماذا تقدم على الله.

قال: وما للفقير أن يقدم به على الغني سوى فقره.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ خالين من أعمالكم وأحوالكم وطاعاتكم.

ولي هاهنا لطيفة أخرى: أي: لقد جئتمونا موحِّدين بوحدانيتي، شاهدين مشاهدتي بوصف الكشف والخطاب، كما جئتمونا من العدم في بدء الأمر حين عرّفتكم نفسي بقولي: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، قلتم: بلى، بلا إشارة التشبيه وغلط التعطيل، كما وصفهم نبيه ﷺ: «كلُّ مولودٍ يُولدُ على الفطرة»[2] يعني: على فطرة الأزل، يلزم سمة العبودية بلا عِلّة الاكتساب عند سبق الإرادة، وزاد تعالى وضوحًا في أثناء الآية بقوله: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَـٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾.

---

(١) هكذا بالأصل.

(٢) رواه البخاري (١/ ٤٦٥)، ومسلم (٤/ ٢٠٤٧).

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ فلق حبة محبته الأزلية في قلوب المحبين والصديقين، وفلق نوى شجر أنوار الأزل في فؤاد العارفين، فتثمران أثمارهما بالأعمال الزكية والمقامات الشريفة، والحالات الرفيعة، قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

قال ابن عطاء: مظهر ما في حبة القلب من الإخلاص والرياء.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا﴾ فالق إصباح مشاهدته من مطالع قلوب أحبائه حين انتشر نورها من بشرة الربانيين من أوليائه وأصفيائه، وجاعل الليل سكنًا للمستأنسين بحلاوة خطابه ولذائذ كشف جماله.

قال بعضهم: فالق القلوب بشرح أنوار الغيوب.

وقال بعضهم: منور الأسرار بنور المعرفة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ نوَّر نجوم العقول لتعرفوا بها حقائق الآيات، ونوَّر نجوم القلوب لتعرفوا بها أنوار الصفات، ونوَّر نجوم الأرواح لتعرفوا بها لطائف سبحات الذات، جعل نجوم الأفعال لعرفان الصفات، وجعل نجوم الصفات لعرفان الذات، أسرج مصباح قلوبكم من أنوار نجم تجلي الجلال والجمال لتهتدوا، وتعرفوا، وتسبحوا بها في ظلمات بحار القهر، وظلمات براريه لتبلغوا إلى رؤية أقمار الصفات وشموس الذات، وتنالوا جواهر المعارف من أصداف الكواشف.

قال أبو علي الجوزجاني: جعل الله الليل مطيةً ودليلاً، فالمطية تركبها في طلب الزلف، والدليل تستدل به إلى أبواب الرضا، قال الله: ﴿لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا﴾ إلى طريق الجنة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى

ذَٰلِكُمْ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ ذكرت في موضع آخر تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أنشأ الكل من جواهر الفطرة، وجوهر الفطرة منشأ نور فعل الخاص، ومنشأ نور فعل الخاص ظهور الصفة، وظهور الصفة وظهور الذات تجلّي القدم، فأخرج الكل من العدم تخصيص لطائف الخطاب بالإشارة إلى نفس واحدة، أي: بظهور نفس وحدانية أزلية أبدية منزّهة عن الاجتماع والافتراق، فبعض القلوب مستقرها الملكوت، ومستودعها عالم الجبروت، وبعض العقول مستقرها الملكوت، ومستودعها عالم الجبروت، وبعض العقول مستقرها الآيات ومستودعها الصفات، وبعض الأرواح مستقرها الصفات ومستودعها الذات بنعت البقاء في الصفات والفناء في الذات؛ لأنّ القدم منزّهٌ أن يحل فيه الحدث.

وأيضًا: مستقر القلوب المقامات ومستودعها الحالات، ومستقر العقول العبادات ومستودعها الكرامات، ومستقر الأرواح أنوار المعرفة من تجلّي الصفات ومستودعها أنوار التوحيد من تجلّي الذات.

قال ابن عطاء: خلق أهل المعرفة على جهة ومنزلة واحدة، ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ فمستقر في حال معرفة مكشوف عنه، ومكشوف في حال معرفته مستقر عليه.

وقال بعضهم: مستقر لطاعته وعبادته مع الإيمان به، ومستودع لذلك زائل عنه بعد موته.

وقال الواسطي: مستقر أنوار الذات على الأبد، ومستودع لا يعود إليه إذا فارقه.

قال محمد بن عيسى الهاشمي: لم يزل عالمًا بخلقه شائيًا كما أراد، أودع اللوح ما استقر في كلامه، ثم أودع إلى اللوح المقادير ما استقر فيه، ثم كذلك حالاً بعد حال حتى بلغه إلى درجة السعادة والشقاوة، وذلك قوله: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مخرجها بصورة العلم الأزلي على نعت اختراعه بالقدرة القادرية، والحكمة الحكيمية، فلا أخذ من مأخذ المشاكلة والمشابهة؛ فإنه تعالى ناظرهما بما كان في علمه من منقوش الحكمة، وسنا القدرة، وجلال العزّة، كساهما أنوار فواتح قدرته، وضياء بهجته لطائف علمها؛ ليجعلهما أسباب عبادة عباده، ومعاش جميع

خلقه.

قيل: هو المبدع للأشياء والمبدي لها.

وقال بعضهم: فاق الأشياء جمالاً وكمالاً.

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ فَٱعۡبُدُوهُ﴾ لمّا وصف تعالى نفسه بالقدرة الكاملة في خلق الكون، وعرّفهم نفسه بإظهار الآيات، ونفى عن نفسه علّة الحدثان، وعرّفهم بتنزيه صفاته، وإفراد ذاته وصفاته من بين الأضداد والأنداد، ووصف جلاله بالوحدانية الأزلية، وعرّفهم قدس ذاته وصفاته بخطابه معهم بوصف تلك النعوت، ألزمهم بعد ذلك العبودية صِرفًا بقوله: ﴿فَٱعۡبُدُوهُ﴾ أي: اعبدوا من هذا وصفه، ولا تتكلموا إلى غيره، فإن الكون وما فيه خاضعٌ لعظمته بعد أن كان في قبض عزته، لا يضرّ ولا ينفع إلا بمشيئته الأزلية، وإرادته القديمة، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ أي: أنا ملجأ الكل، ومفزع ذوي الحاجات، ومناص صواحب العاهات.

قال الأستاذ في الآية: تعرَّف عليهم بآياته، ثم تعرَّف إليهم بصفاته، ثم كاشفهم بحقائق ذاته بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ تعريف السادة والأكابر، وقوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تعريف العوام والأصاغر.

ثم وصف نفسه عقيب الآية بالتنزيه عن إحاطة أبصار الحدثان به، وعجزهم في حواشي ساحات كبريائه عن درك مكنون أسرار قدمه، وإحاطة علمه، وقدرته بجميع زلات الوجود.

قوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ لا تدركه الأبصار إلا بالإبصار، مستفادة من أبصار جلاله، وكيف يدركه الحدثان ووجود الكون عند ظهور سطوات عظمته عدم؟!

﴿وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ ببصره القديم المنزّه عن المشابهة بالحدثان، بأن يكسوها أنوار صفاته لتراه لا بنفسها؛ لأنه بلطف ذاته ممتنعق عن مطالعة خلقه مع علو شأن علمه وإحاطته بجميعهم وجودًا وعدمًا بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ من لطف جماله انجذاب القلوب بنعت العشق إلى ضياء وجهه الكريم عجزًا واضطرارًا، من لطفه غرقت الأرواح في بحار محبته، وفنيت الأسرار في فضاء هويته، ودهشت القلوب في معارك أشواقه،

واضمحلت العقول في بيداء ألوهيته من إدراك غوامض علمه.

قال أبو يزيد في قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: إن الله احتجب عن القلوب، كما احتجب عن الأبصار، فإن أوقع تجليًا فالبصر والفؤاد واحدٌ.

وقيل: معناه أن الله يطَّلع على الأبصار بالتجلي لها؛ لأن الأبصار تسمو إليه.

قال الحسين في قوله: ﴿ٱللَّطِيفُ﴾[1] قال: لطف عن الكنه فأنَّى له الوصف؟! ومن لطفه ذكره لعبده في الدهور الخالية؛ إذ السماء مبنيةٌ والأرض مدحيةٌ.

قيل: سبق الوقت وإظهار الكونين وما فيها، فهذا معنىً لطيفٌ.

وقال القاسم: اللطيف الذي لم يدع أحدًا يقف على ماهية سره، فكيف الوقوف على وصفه؟!

قال ابن عطاء: لا تدركه الفهوم، وأحاط بكل شيءٍ علمًا.

وروى أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾: «لو أن الجنَّ والإنسَ والشياطينَ والملائكةَ منذ خلقوا إلى أن فنوا صُفوا صفًّا واحدًا ما أحاطوا بالله أبدًا»[2].

وقال الجنيد: اللطيف مَنْ نوَّر قلبك بالهدى، وربَّى جسمك بالغذاء، وجعل لك الولاية في البلوى، ويحرسك وأنت في اللظى، ويُدخلك جنة المأوى.

وقيل: اللطيف الذي إن دعوته لبَّاك، وإن قصدته آواك، وإن أحببته أدناك، وإن أطعته كفاك، وإن عصيته عافاك، وإن أعرضت عنه دعاك، وإن أقبلت إليه هداك.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ

(١) اللطيفُ مَنْ يعطي قَدْرَ الكفاية، وفوق ما يحتاج العبدُ إليه، ويقال: منْ لُطفِه بالعبد عِلْمُه بأنه لطيف، ولولا لُطفُه لَمَا عَرَفَ أنه لطيف، ويقال: مِنْ لُطفِه أنه أعطاه فوق الكفاية، وكَلَّفَه دون الطاقة، ويقال: مِنْ لُطفِه بالعبد إبهام عاقبته عليه؛ لأنه لو علم سعادتَه لاتَّكَلَ عليه، وأَقَلَّ عملَه ولو عَلِمَ شقاوتَه لأيِسَ ولَتَرَكَ عَمَلَه؛ فأراده أن يستكثرَ في الوقت من الطاعة، ويقال: من لطفه بالعبد إخفاءُ أجلِه عنه؛ لئلا يستوحش إن كان قد دنا أَجَلُه، ويقال: من لطفه بالعبد أنه يُنسِيَه ما عمله في الدنيا من الزلّة؛ لئلا يتنغَّص عليه العَيْشُ في الجنة، ويقال: اللطيفُ مَنْ نَوَّر الأسرارَ، وحفظ على عبده ما أَوْدَعَ قلبَه من الأسرار، وغفر له ما عمل من ذنوبٍ في الإعلان والإسرار [تفسير القشيري (٧/ ١٧٧)].

(٢) رواه العقيلي في الضعفاء (١/ ١٤٠).

ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَا﴾ مَنَّ الله سبحانه على عباده بمجيء بصائر آياته التي تبرز نعوت الأزلية منها، وكلماته التامات التي تتجلى لذوي الحقائق منها، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه: «إنَّ الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن»، وبتلك البصائر كحَّل الله أبصار العارفين كحل أنوار صفاته وسنا سبحات ذاته، فمَنْ كان له استعداد النظر إليها بنعت البصيرة وجد طريق الرشد لنفسه، ومَنْ ليس له استعداد النظر والبصيرة صار محتجبًا من رؤية صفائح القدس في الآيات، وصحائف الأنس في الكلمات.

قال الخواص: أنزل الله البصائر، فطُوْبَى لمَنْ رزق بصيرةً منها، وأدنى البصائر أن يبصر الإنسان رشده.

قوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ صرف الله فهم خطابه عن قلوب الأعداء، وفسح لطائفها وحقائقها للأولياء؛ لأن خطاب الحبيب لا يعرفه إلا الحبيب يلطف بأهله؛ حيث وهبهم فهم كلامه، حتى أدركوا بمواهبه السنية التي أودعت قلوبهم أنوار الغيوب والعلم بإدراك مكنون خطابه؛ لذلك مَنَّ على الموصوفين بهذه الصفة بقوله: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي: لقومٍ يعرفون قدرتي ويفهمون خطابي، لا لمَنْ لا يعرف مكان خطابي ومرادي من كلامي.

قال ابن عطاء: القوم يعلمون حقيقة البيان، وهو الوقوف معه حيثما وقف، والجري معه حيثما جرى، لا يتقدمه بغلبة ولا يتخلف عنه لعجز.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ لمّا ذكر تعالى بيانه لعموم أهل العلم لمتابعتهم أمره خصَّ ﷺ بما بينهما من أسرار الربوبية ولطائف المحبة وحقائق الانبساط في المقامات والحالات، وأفرده بها عن جميع الخلق؛ حيث لا طاقة للخلق لمطالعة تلك الأسرار، ولا قوة لهم لحمل واردات تلك الأحوال غير النبي ﷺ؛ لأنه مؤيدٌ بالقوة الأزلية والنصرة الأبدية.

قال تعالى: ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾ أي: استعد لحمل واردات سطوات الألوهية، وجذبات أنوار نعوته الأبدية، وإنها خاصةٌ لك، ألا ترى كيف وصف نفسه له في وسط الآية بالفردانية والتنزيه عن أشكال الخليقة بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ أي: هو بوصفه تجلى لك بنعته ووصفه حيث كنت، خلقت بنعت استعداد تحمل ظهور الأزلية، وإذا كنت كذلك أنت لا تليق بالمشيرين إلى غيره، فأنت أعزُّ وأفضل من أن يكون معك في هذا المقام

أحدٌ من المغيرين بحالهم، وهذا معنى قوله سبحانه: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

وكان ﷺ له مقاماتٌ في الوحي، كان له وحيٌّ خاص الخاص له لا لغيره، وذلك موضع سر السر في دنو الدنو، حيث خصَّه الله بذلك بقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، وله وحيٌّ خاصٌّ له ولخواصه وإخوانه من الأنبياء والأولياء بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ [الشورى: ١٣]، وله وحيٌّ عامٌّ، وهو قوله تعالى: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٦].

قال بعضهم: الوحي سرٌّ عن غير واسطة، والرسالة والإنزال ظاهرٌ وبواسطة؛ لذلك قال: ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾؛ لأن الوحي كان خاصًّا له مستورًا؛ لقوله: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾، ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب:٢]، والإشارة للأولياء في ذلك تأديبًا لهم، حيث يتعارض إلقاء العدو ووحي الله، أي: دعوا ما سوى الوحي من الهواجس والوسواس، واتبعوا ما يجل في قلوبكم من الخطاب الذي وصفه قدس القلوب، من الخواطر والعوارض، ألا ترى إلى قوله ﷺ لوابصة: «دعْ ما يُريبك إلى ما لا يُريبك»[(١)]، و«استفتِ قلبَك، ولو أفتاك المفتون»[(٢)].

﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (٣/ ٢٣٩).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٩٤).

ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ إن الله سبحانه ابتلى العموم بالدنيا وأعمالها في نفع الجاه والمال، وابتلى الخصوص برؤية المعاملات الأخروية ورؤية أعواضها، فمَنْ كان غير أهله أبقاهم فيها، وحجبهم بها عن لذَّة قربه ووصاله، ومَنْ كان أهلاً له من العارفين والمتحققين رفعها عن عينه حتى لا يرى وزنًا، ولا يزنها مقدار عند رؤية امتنانه بما سبق لهم من اصطفائيته وخاصيته بالولاية والمعرفة، زيَّن للبطالين شرور أعمالهم النفسانية حتى يروها مستحسنة، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف: ١٠٤].

قال تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾، وزيَّن للمجاهدين أعمالهم في العبادة حتى يزيد رغبتهم فيها.

قال الواسطي: زينت الأعمال عند أربابها؛ فأسقطوا بها عن درجة المتحققين إلا من عصم بنور المشاهدة، فشاهد المنّة في التوفيق بل شاهد المنان.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ أضاف الحق سبحانه تقليب القلوب والأبصار إلى نفسه، فكل موضع قلب القلوب إلى رؤية صفاته وذاته بنعت المحبة والشوق والمعرفة اتبعتها الأبصار بمطالعتها أنوار القدرة والعزَّة في الآيات، فوافقت الأبصار القلوب بتصحيح المعاملات وتقديس الأسرار وصفاء الحالات، وكل موضع صرف القلوب عن الإقبال إليه انصرفت الأبصار عن مطالعة المشاهد في الشواهد؛ لذلك استعاذ النبي ﷺ بقوله: «يا مقلِّبَ القلوبِ ثبِّت قلبِي»[1].

قال النصرآبادي: النفوس في التنقيل، والقلوب في التقليب؛ لذلك قال النبي ﷺ: «يا

(١) رواه الترمذي (٤/ ٤٤٨).

مقلِّبَ القلوبِ»[١].

وقال أبو حمزة: أقبل الله على قلوب فأقبلت عليه، وأعرض عن قلوب فأعرضت عنه.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أخبر تعالى عن سابق كلماته الصفاتية الأزلية يكلم بها بنفسه مع نفسه في نفسه؛ لاختصاص أهل ولايته واصطفائيته بخالصة محبته، واجتبائه صفوة أهل معرفته وتوحيده بغير علّة اكتسابهم خيرًا وشرًّا ولا نقضًا لإبرام قضيته، ولا ناقضًا لميثاق مشيئته، سبقت منه العناية لهم بوصف استجلاب أرواحهم إلى معادن قدسه، واجتذاب قلوبهم إلى مجالس أنسه، تمت كلمته بحسن قبولهم، حيثما اشترط علّة العبودية، وتمام كلماته صدق مواعيده بلطف عنايته بلا مكافأة منهم لها، وهو تعالى بذلك عادلٌ؛ حيث اصطفاهم بوضع خزائن معرفته في قلوبهم، وهو لها أهلٌ، ولهم من عنايته استعدادٌ لقبول أمانته بشرط الرعاية، واصطفاء أسماع قلوبهم بحياطتها حتى لا تشوبها أذكار الحدثان وخطرات الطغيان، لا مبدل لكلماته، لا يدخل في ديوان سبق رحمته لأهل عنايته طوارق قهره من علّة ما طرأ عليهم من وارد امتحانه، كما قال تعالى: «سبقت رحمتي غضبي»[٢].

قيل في تفسير قوله: ﴿صِدْقًا وَعَدْلًا﴾: صدقًا للأولياء تفضلاً عليهم، وعلى الأعداء أخذهم بميزان العدل.

قال مقاتل: صدقًا فيما وعد، وعدلاً فيما حكم.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَـٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وصف الله سبحانه أئمة الضلالة أنهم سقطوا من طريق الصواب، فلمّا رأوا فضاحة أنفسهم أرادوا أن يكون أهل الإرادة من الصديقين مثلهم، فيزينون لهم طريق الشهوات، قال تعالى: ﴿وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧]، وذلك من جهلهم الله، ويعلمه الذي شامل على كل موجودٍ.

---

(١) تقدم في سابقه.

(٢) رواه البخاري (٦/ ٢٧٤٥)، ومسلم (٤/ ٢١٠٨).

قال القرشي في تفسيره قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ يتبعون مرادهم، ويتركون أوامر الكتاب والسنة.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ ظاهر الإثم ما ذمَّه الكتاب والسنة، وباطن الإثم ما ذمَّه باطن علم الكتاب والسنة.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما لم يوافقه العقول، وباطن الإثم ما لم توافقه القلوب.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما يعوج الجوارح عن طريق السنة، وباطن الإثم ما يشوش القلوب عند رؤيته المشاهدة.

وأيضًا: ظاهر الإثم حبُّ الدنيا، وباطن الإثم حبُّ الجاه.

وأيضًا: ظاهر الإثم ما يغرك برؤوسها من الأعمال، وباطن الإثم ما يسكن إليه قلبك من الأحوال.

قال بعضهم: ظاهر الإثم رؤية الأفعال، وباطنه الركون إليها في السرِّ باطنًا.

قال سهل: اتركوا المعاصي بالجوارح، وحبها بالقلوب.

قال الشبلي: ظاهر الغفلة، وباطنه لسان المطالعة عن السوابق.

وقيل: باطن الإثم خفي العقائد، ومسترقات الألحاظ.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ بيّن الله سبحانه من الناس خلق على طبع الشياطين بقوله: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾، وهم أهل السالوس، والناموس، والمتقشفين بزي الظاهر، المدّعين مقامات أولياء الله، يأخذون مزخرفات

الشياطين بقلوبهم، ويترفعون بألفاظ الطامات، ويغزون بها مَنْ لا يعرف الحق من الباطل.

قال أبو عثمان المغربي في هذه الآية: يلقون على ألسنة المدعين ما يقطعون به الطريق على المتحققين، ولمّا ذمَّ الله المدعين الذين ماتت قلوبهم في ظلمات الطغيان واحتجبت بها عن أنوار العرفان وصف بعد ذلك إحياء المعارف بأنوار الكواشف بعد أن كانوا محجوبين بالعدم عن نور القدم بقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: أو مَنْ كان ميتًا بالعدم فأحيينا ه بنور القدم.

وأيضًا: أو مَنْ كان ميتًا بالمجاهدات فأحييناه بروح المجاهدات.

وأيضًا: أو مَنْ كان ميتًا بشهوات النفس فأحييناه بصفاء القلب، ومَنْ كان ميتًا بالخليقة فأحييناه برؤية الحقيقة.

وأيضًا: مَنْ كان متمنيًا برؤية الثواب، فأحييناه برؤية المآب إلى الوهاب.

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أعطيناه نور الفراسة يحكم باستشراق قلبه على الهموم بنور الفراسات في قلوب الناس.

وأيضًا: ألبسناه أنوار الغيب فيكون سراجًا بين الناس لهداية الناس بإنقاذهم من وثائق الوسواس.

وأيضًا: كسينا روحه نور مشاهدتنا، وعقله نور آياتنا، وقلبه نور صفاتنا، وسره نور ذاتنا، وصورته نور حضرتنا، وجعل جميع وجوده نورًا بين الخلائق؛ ليهتدي به كل ضالٍ من سبيل الرشاد هذا كالذي في ظلمات طبيعته ونفسه، وهاوية هواه متحيِّر لا يهتدي إلى طريق الحق؛ لأنه في حجاب القهر أبدًا، وصف امتنانه على المريدين الصادقين، وتفضله على المقبلين، وقهره على المفلسين، وأضاف الهداية والضلالة إلى عنايته الأزلية وكفايته الأبدية وقهره السابق في المشيئة، وسمي المريد الصادق ميتًا قبل وجدان نوره وروح حياته قربه؛ لأنه كان من المقصرين، وإن كان بعد ذلك من المتوفرين؛ لأن أكابر المعرفة كانوا أحياء في بساتين لطف مشاهدته تحت أذيال ألطاف قربه أحياء من الأزل إلى الأبد.

قال جعفر عليه السلام في قوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بنا، وجعلناه إمامًا يهتدي بنور الأجانب ويرجع إليه الضُّلال ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ كمَنْ يرى شهوته وهواه، فلم يؤيد بروائح القرب ومؤانسة الحضرة.

قال ابن عطاء: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بحياة نفسه وموت قلبه، ﴿فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ بإماتة نفسه وحياة قلبه، سهَّلنا عليه سبل التوفيق، وكحَّلناه بأنوار القرب، فلا يرى غيرنا، ولا يلتفت إلى سوانا.

قال الجريري: إذا أحيى عبدًا بأنواره لا يموت أبدًا، وإذا أماته بخذلانه لا يحيى أبدًا.

وقال جعفر ﷺ: أو مَنْ كان ميتًا بابتعاده عن الطاعات ﴿فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ﴾ نور التضرع والاعتذار.

وقال بعضهم: ﴿مَيْتًا﴾ برؤية الأفعال ﴿فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ برؤية الافتقار.

قال القاسم: أحيا أولياءه بنور الانتباه كما أحيى الأجساد بالأرواح.

وقال سهل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالجهل ﴿فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ بالعلم.

وقال ابن عطاء: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا﴾ بالانقطاع عنا ﴿فَأَحْيَيْنَـٰهُ﴾ بالاتصال بنا ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ أيضًا، لا كمَنْ تركناه في ظلمة الانقطاع.

وقال الأستاذ: الإيمان عند هؤلاء القوم حياة القلب بالله، وأهل الغفلة إذ أُلهموا الذكر، فقد صاروا أحياء بعدما كانوا أمواتًا، وأرباب الذكر لو اعتراهم نسيان، فقد ماتوا بعد الحياة، والذي هو في أنوار القرب، وتحت شعاع العرفان، وفي روح الاستبصار لا بدَّ أنه من هو في أسرار الظلمات، ولا يساويه مَنْ هو رهين الآفات.

وقد وجد خاطري خاصية لطيفة في حقيقة تفسير الآية: إن المراد بالميت: الفاني في عالم نكرة التوحيد؛ حيث بدت له صواعق سطوات الكبرياء والعظمة، فأحياه بروح بقائه ومشاهدة أبديته، حيث ينتعش من بيداء النكرة بأنوار المعرفة، يمشي بالأسرار والأرواح في أنوار البقاء، لا يحتجب عن أنوار جمال وجهه أبدًا، فيحيي به كل قلبٍ ميتٍ، وتطمئن برؤيته كل نفسٍ مفترةٍ عن طاعة ربها، مفتونة بظلمات شهواتها، ولمّا استأثر إحياء ميته وإعطاء نوره لنفسه ومدحه بذلك وبيَّن مزيته على المدبرين حصَّن نفسه بالعلم الإلهي بوضع ولايته ورسالته في الأماكن المستعدة بقبول نوره وهدايته بقوله: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾، بيَّن أنه يعلم من بطنان صميم الفؤاد والأرواح والأسرار، وخزائن مواهبه السنية من النبوة الولاية والرسالة والمحبة والمعرفة، ونبَّهنا بأنه أراد في الأزل وضع ودائع أسراره في ملكوت القلوب، فنظر من نفسه إلى نفسه، فأشرق نور صفاته وذاته، وسطع ضياء مشاهدته، ثم عكس ذلك إلى غيب غيبه، فأظهر منه أرواح القدسية الملكوتية اللاهوتية، فوضع في نفوسها أنوار الولاية والرسالة والنبوة، وأفردها بتلك الخاصية عن جميع الخلائق تفضلاً وكرمًا، ما اعترته في ذلك عِلَّة الحوائج، لكن جعلهم سبل الخلق والمناهج، بهم يهتدون إلى عبودية خالقهم وعرفان ربوبية سيدهم، ومَنْ خصَّه الله بذلك لا يضرُّه حسد الحاسدين ولا كيد الكائدين، بل يزيد شرفه أبد الآبدين، والحمد لله الذي خصَّ نبينا ﷺ بذلك صلى الله عليه وآله وسلم، إرغامًا لأنوف عواديه، وانتصارًا لمواليه.

وقال النصرآبادي: الله تعالى يعلم الأوعية التي تصلح لسره ومنازلاته ومكاشفاته، فيرنيها بخواص الأنوار، ويلطفها بلطائف الاطلاع.

قال أبو بكر الوراق: كما أن الملوك يعلمون مواضع جواهرهم وخزائنهم، ويجعلونها في أشرف الأماكن وأروحها وأخصها، فالله يعلم حيث يجعل ويضع نبوته ورسالته وولايته، ثم إن الله سبحانه إذا أراد أن يضع جوهر معرفته في وعاء قلب عبده يفسحه نور تجليه، ويكسيه لباس نور كسوة ربوبيته؛ ليطيق حمل أثقال أمانته من المعرفة والمحبة والولاية؛ ليسهل عليه حمل عظيم ودائع أسراره، وفوائد طوارق أنواره، بقوله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: مَنْ يرد الله أن يهديه إلى نفسه ويعرفه صفاته، ويريه جلال ذاته، يوسع صدره بلطيف أنوار قربه وحلاوة خطابه حتى يعرّفه به لا بسواه، ويراه بنوره لا بنفسه.

قال النهرجوري: صفة المراد خلوةٌ ممّا له وقبوله ممّا عليه، وسعة صدره بمراد الحق عليه، قال الله: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾.

يُقال في هذه الآية: نورٌ في البداية هو نور العقل، ونورٌ في الوسائط هو نور العلم، ونورٌ في النهاية هو نور العرفان، فصاحب العقل مع البرهان، وصاحب العلم مع البيان، وصاحب المعرفة في حكم العيان.

وفي تفسير هذه الآية أخبر نبينا ﷺ من كيفيته وأماراته فيما روي ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، قالوا: يا رسول الله ما هذا الشرح؟ قال: نورٌ يُقذف في القلب، فيفسح له القلب. فقيل: هل لذلك من أمارة يعرف بها؟ قال: نعم. قيل: وما هي؟ قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل النزول»[1].

بيَّن ﷺ بوقوع نور التجلي في القلب فسحته بانتشار سناه فيه بعدما خلا بالله من بوادي أسراره، وإلباسه ضياء قربه ووصاله، وذلك محض الجذب بنعت العناية إلى مشاهدته، فنعته في ذلك التسارع في عبوديته، وسرعة القيادة لظهور ربوبيته، وغلبة شوق جماله عليه عند تجافيه عن كل مألوفٍ ومحبوبٍ، وهذا أحسن الصراط إلى الله، المستقيم عن الاضطراب من جهة النفس والاعوجاج، بإلقاء العدو بقوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ الصراط المستقيم بالحقيقة طريق الصفات إلى الذات بنعت المعارف والكواشف.

---

(١) ذكره ابن كثير في التفسير (٢/ ١٧٥).

والإشارة: في قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ دليلٌ قوليٌّ؛ لأن هذا إشارةٌ إلى القرآن، والقرآن صفته القديم، وهو طريق إلى ذلك القديم بنعت مباشرة التجلّي ووجدانه بوصف المحبة والمعرفة.

قال ابن مسعود ﷺ: صراط ربك هو القرآن؛ لذلك ارتضى لنفسه؛ لأنه صفته وهو صراط ممهدٌ لسير الأرواح من معادن الأشباح إلى عالم الأفراح، مستقيمٌ لقوامه بذاته القديم، لا ينقطع المعتصم بحبله والمقتدي بأسوته.

وأيضًا فيه نكتةٌ شريفةٌ وهي: أن قوله: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ خصَّه لنفسه، أي: هو يأتي بنعت تجلّيه وظهور الصفات والذات بهذا الطريق إلى أصفيائه وأوليائه وأحبائه، لم يقل: هذا صراطكم إليّ، بل قال: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ الذي أكشف فيه نقاب الحشمة عن جمال وجهي، حتى ينظر إليَّ مَنْ يتمسك بحبلي، والمقبل إليّ بصراطي.

قال أبو عثمان: أهدى الطرق وأقومها طريق المتابعة، وأهدى السبل وأضلها طرق الدعاوى بالمخالفة.

قال سهل: التوحيد والإسلام صراط ربك مستقيمًا، ولمّا هداهم إلى صراطه المستقيم، ومنهجه القويم الذي ينكشف جلاله وجماله لسالكه، الذي لم يكن لإقباله إدبار، ولم يكن لهفواته إصرار، وصفهم بالسلامة في دار رضوانه ومربع غفرانه، وجعل لهم هناك منازل الرفاهية، وفتح فيها عليهم روازن العافية، التي هي مشاهدته بلا حجابٍ بقوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾.

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُم دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ دار السلام: ساحة جلاله

وحظائر قدس صفاته، ومساقط وقوع أنوار الجلال، التي هي منزَّهةٌ عن خطر الحجاب وعلّة العتاب وظرفان العذاب، حاشا منها عند الكريم الوهاب، الذي هو وليهم بنعت رعايتهم، وكشف جماله لهم بالعوافي الأبدية والسلامة السرمدية.

وأيضًا: ﴿ٱلسَّلَٰمِ﴾ هو الله سبحانه الذي وصف نفسه بالسلام؛ لئلا يفرق منه قلوب العارفين، ولا يفزع من جماله أرواح المحبين، ولا يخاف من جلاله أسرار الواصلين؛ لأنه معدن سلامة المقبلين إليه بنعت المحبة، وداره قلوب عشاقه التي هي محل كنوز أسراره ومواهب أنواره، ومعدن أنبائه العجيبة، ولطائفه الغريبة، وفواتح لوامع سبحاته الأزلية، وهي بتقلبه في أنوار الصفات والذات بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡ﴾، ولقول صفيه ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلِّبُها كيف يشاءُ»[1]، وهو وليُّهم تعالى بحفظها ورعايتها؛ حتى لا يدخلها هواجس النفسانية، وغمرات وساوس الشيطانية، ما أحسن مناظرها! وما ألطف مطالعها! وما أكرم لطائفها! وما أنعم بهجتها! وما أطيب حلاوة محبتها!.

وأيضًا: علَّقهم بالدار الكرامة الجار، ولو علَّقهم بالجار لم يبق في البين؛ لحديث الدار، لكن بقي في القوم بعض إزاغة أبصارهم بنعت الالتفات عند الامتحان إلى غير وجه الرحمن من النعيم والجنان، فعلَّقهم بها لوقوع علَّة الحدثان، لكن بفضله ما خلاهم فيها حين قال: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُم﴾ يعني: يرفعهم عن رؤية الغير في البين، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ أي: كل حادثٍ مُضْمَحِلٌ عند انكشاف وجه القدم.

وإذا كان تعالى بنفسه دعاهم فإن جميع المنازل طابت، إما في الدنيا، وإما في الآخرة؛ لأن بحفظه طابت الأكوان، وبحسن جواره تلذذت الحدثان، وأنشد في معناه:

سَلامٌ علَى سَلمَى وإنْ شَطَّ دَارُهَا ... سلامٌ علَى الأرضِ قديمٌ بِهَا العهدُ

سَلامٌ علَى جَارَاتِهَا لجِوارِهَا ... سلامٌ حزينٌ وامقٌ شفَّهُ الصَّدُّ

إذَا نَزلَتْ سَلمَى بِوادٍ فَمَاؤهَا ... زُلالٌ وسلسالٌ وتِيجَانهَا وَردُ

يا عارفُ لو تراه في وسط النار بردًا وسلامًا ... وتكون جمراتها وردًا وريحانًا

ألا ترى إلى قوله سبحانه في وصف خليله ﷺ حين أدخله في دار سلامته، ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدًا وَسَلَٰمًا﴾ [الأنبياء:٦٩].

انظر إلى شأن البدوي العاشق كيف يقول في حال حبيبه:

يكونُ أُجَاجًا دونَكمُ فإذَا انتهَى ... إليكمُ تلقَّى طِيبكمْ فيَطيبُ

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ١٠١).

وَمَـا ذاكَ إِلَّا حَـيثُ أَيقَـنتُ أَنَّـهُ يَمُـرُّ بِـوادٍ أَنـتِ مِـنهُ قَـريبُ

وأيضًا:

أهـوَى هَـواهَا لمـنْ كَـانَ سَـاكنهَا ولـيسَ بالـدَّارِ لِي هَـمٌّ ولاَ حظـرُ

وأيضًا:

إنِّي لأحـسدُ جَـارَكمْ بجـوَارِكمُ طُوبَـى لمـنْ أضْـحَى لـدارِكِ جَـارَا

يَـا لـيتَ جَـارَكَ بَاعنِـي مِـنْ دَارهِ شِـبرًا فَأعطـيهِ بِـشبرهِ دَارَا

قال سهل: دار السلام هو الذي يسلم فيه من هواجس نفسه ووساوس عدوه.

قال بعضهم: دار السلام هو محل السلامة من القطيعة.

قال بعضهم: دار السلام هو الذي يكرمهم الله فيه بالسلام عليهم، وهو قوله ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ [الرعد:٢٤].

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرۡهُمۡ وَمَا يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿١٣٩﴾ قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ أخبر تعالى عن الصفتين القديمتين الصادرتين من الأزل للعموم والخصوص من الحدثان، بفنائه استغنى عن طاعة المطيعين، وبرحمته رحم كل العاصين، حين لا ينفعه طاعة المطيعين، ولا يضره عصيان العاصين، ملابسة أقطار الحدثان من لطائف الإنعام من بحار رحمته مطر لطفه على الأنعام، غناه أغنى العارفين عن الكونين، ورحمته شملت كل العالمين، فقال: سماع غناه يوجب محوهم، وسماع رحمته يوجب صحوهم.

وقال الأستاذ: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ يشير إلى غيره، والرحمة تشير إلى لطفه، أخبرهم بقوله: ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾ عن جلاله، وبقوله: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ عن أفضاله، فبجلاله يكاشفهم فيفنيهم، وبأفضاله يلاطفهم فيحييهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ﴾ إن الله سبحانه في قلوب العارفين جنان ورد المشاهدات وعبر المكاشفات، وزهر الجمال، ونور الوصال وياسمين المودة، ورياحين الزلفى، فبعضها معروشاتٌ بكرم حقائق معاملاتها وحالاتها، بحيث تلاصق ثمراتها إلى حضرة القديم، وأنوار معارفها تسطع إلى سماء اليقين؛ لقوله سبحانه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]، وذلك من جذب الله صميمها وأغصان أنوارها إلى قربه بقوة أزلية في إرفاعها إليه، ويضع ثمراتها غير معروشة لبقائها على أشجار الهموم والفهوم؛ ليتناولها كل طالبٍ وكل مريدٍ صادقٍ، تحلها هو الإيمان الثابت في أرض القلب، وفرعها في عالم الملكوت، قال تعالى: ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وزروعها تُنبت فيها من بذر المحبة، وهي مختلفة ثمراتها، فمنها الأُنس، ومنها القدس، ومنها الشوق، ومنها العشق، ومنها الخوف، ومنها الرجاء، ومنها العصمة، ومنها المعرفة، ومنها التوحيد، ومنها التجريد، وزيتونها إخلاصها، تُنبت من أنس الوصال بدهن نور الجمال، وصبغ صبح الجلال متشابهًا في لباس الالتباس، منبتها في منظر نور التجلي.

قال تعالى في وصفها: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ﴾ [النور: ٥٣]. ووصفها أيضًا بقوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، ومن هاهنا خاطب كليمه بقوله: ﴿نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، ورُمانها شجرة الإلهام الذي ثمره

حكمة الحقائق ولطائف الدقائق.

﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ مقاماتها بعضها متدانيةٌ من بعضها، وبعضها متباعدةٌ من بعضها؛ لأن بعضها معاملاتٌ وبعضها حالات وارداتٍ، وبعضها مكاشفاتٌ، وبعضها أسرارٌ، وبعضها أنوارٌ، فخاطبهم رب هذه البساتين بأن يستمتعوا بثمراتها ومنافعها لزيادة قوة الإيقان ونور الإيمان بقوله: ﴿كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ﴾.

ثم أمرهم بأن يعطوا زكاة هذه النعم المتواترة إلى المريدين الطالبين بإخراج لطائفها بنعت البيان على لسان العلم، ونشر فضائل المقامات والحالات بقوله: ﴿وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ أي: يوم أكملت الأحوال، واستقيمت الأعمال بنعت التمكين والاستقامة.

ثم أمرهم بألا يبخلوا، ولا يكتموا عن أهلها هذه النعم الغيبية المستفادة من لطف الله العزيز بقوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ فإن كتمانهم عن أهلها ظلم وإسراف ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[1] يعني: من كتمانها يكون محتجبًا بعدها، ما هذه البساتين، ما أطيب ثمراتها! وما ألطف زهراتها! وما أعذب أنهارها! وما أشرق شموسها! وما أنور أقمارها! وما أزهر خضرتها! وما أكرم نضرتها! وما أحلى أصوات ألحان بلابل أشجارها حين ترنّمت بسبحاتي: وأنا الحق.

قال الأستاذ في تفسير هذه الآية: بساتين القلوب أتمُّ من جنان الظاهر، فأزهار القلوب مونقةٌ، وشموس الأسرار مشرقةٌ، وأنهار المعرفة زاخرةٌ.

وقال: أما إخراج البعض فبيانه على لسان العلم وشهود المُنعم في عين النعمة أتمُّ من الشكر على وجود النعمة.

﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ

---

(١) الإسراف: ما تناولته لَكَ، ولو بقدر سمسمة، ويقال: الإسراف هوالتعدي عن حدِّ الاضطرار فيما يتضمن نصيبًا لك أو حظًّا بأي وجهٍ كان [تفسير القشيري (٢/ ٣٦٣)].

ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ أي: من قوى الإنسانية ما لا يحمل أثقال المجاهدات، ومنها ما يحمل أثقال وقار الامتحانات، فما يحمل الإنسانية يضعف تحت امتحان الله، وما يحمل بقوى الربانية يكون مطية حمل أمانة المعرفة، قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ألا ترى قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرَّم الله وجهه-: «والله ما قلعتُ بابَ خيبرَ بقوةٍ جسمانيةٍ، وإنما قلعتُها بقوةٍ ربانيةٍ».

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ للأشباح رزقٌ، وللأرواح رزقٌ، وللقلوب رزقٌ، وللعقول رزقٌ، وللأسرار رزقٌ، وأما رزق الأشباح فما استطابته من عالم الفعل بما وافقه العلم، وأما رزق الأرواح فمشاهدة تجلي الصفات، وأما رزق القلوب فما ينكشف لها من أنوار الغيوب، وأما رزق العقول فما يلوح لها من سنا الآيات، وأما رزق الأسرار فما تجلّى فيها من مكنون علوم الخاص في رؤية الذات.

قال الأستاذ: الرزق ما يحصل به الانتفاع، وينقسم إلى رزق الظواهر والسرائر، فهذا وجود النعم، وذاك شهود الكرم، بل الجمود في وجود العدم، وللقلب رزقٌ، وهو التحقيق من حيث العرفان، وللروح رزقٌ، وهو المحبة بصدق التجرد عن الأكوان، وللسر رزقٌ، وهو الشهود، والذي قرينه العيان.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَـٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ فيه تسليةٌ لقلب نبيه ﷺ وأطماعه من الله سبحانه في إرجاع من سبق له في الأزل حسن عنايته إلى باب كرمه وعفوه وإن كان في صورة الامتحان، أي: هو واسع الرحمة على الأكوان وأهلها، يتحمل جفاء المدبرين ويواسيهم بما يصلح لأبدانهم من المعاش، ويقبل على المقبلين، فيربِّي قلوبهم بلطائف خطابه وأنوار جماله.

وأيضًا: رغَّب الجمهور مع ما هم فيه إلى سواحل بحار لطفه، وساحة جلال كرمه؛ شوقًا منه إلى وصول مصنوعاته من الأرواح والأشباح إليه، وفيه مواساة قلب النبي ﷺ، أي: فإن جفوك فقل: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ بتخليصي وتخليص أوليائه عن جواركم إلى جواره الكريم.

قال سهل: قيل للنبي ﷺ: مَنْ أعرض عنك فرغِّبه فيَّ، فإنه من رغب فينا ففيك رغب لا غير، قال الله: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ﴾ أطمعهم في الرحمة، ولا تقطع قلبك عنهم.

قال الأستاذ: الإشارة فيه بيان تخصيصه الأولياء بالرحمة، وتخصيص الأعداء بالطرد واللعنة، فالصورة الإنسانية جامعةٌ لهم، والقسمة الأزلية فاصلةٌ بينهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَـٰلِغَةُ﴾ بيّن سبحانه أن ألسنة الإسرار وإن كانت فصيحةً ناطقةً بحجج الحكمة المستفادة المتلقفة من فلق إلهام الغيب عند مسامرتها مع الحق في الشهود، فخرس عند بوادي حجج العدم، ومناقشته عند لطائف العتاب، أي: له حجةٌ كاملةٌ قاطعةٌ ألسنة الخواطر عند وضوح بيان إشاراته في الإسرار، وهذا المعنى لا يعرفه إلا أصحاب مسامرة ومحاضرة، الذي خرج من نعوت الإنسانية عند شهود الغيب.

قال النصرابادي: الخلق كلهم منعتهم شدة الحاجة عن معاني رؤية الحجة، ولو أسقط عنهم الحاجات لكشف لهم براهين الحجة.

قال الحسين: لكل حجةٍ حكمٌ وأمرٌ ونهيٌ، وبيانٌ وسرٌّ، وعلمٌ ومعرفةٌ ومشيئةٌ، فاعرفوا الله في كل مقام يتعرف إليكم في كل ساعةٍ.

وقال الجنيد: آثار مشيئة الهداية تنبيهٌ عند أهل الهدى.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أضاف علم البيان وهداية العرفان إلى مشيئته الأزلية، يختص بعلم الإلهام والحجة والبرهان مَنْ يشاء من أهل الإيقان، ومَنْ لم يكن له استعداد رؤيته ومحبته وصلته لم يكن له حجج في أجوبته أهل الحقائق عند مجازاة الدقائق ونشر علوم الغيبة، تظهر لأجنانه حجته ويُبْهِم حجته، ويُبْهِم على قلوب المتكلفين إلهامه

وبيانه.

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾، ﴿ٱلْفَوَٰحِشَ﴾ عرائس الدنيا، ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ زينتها وخضرتها، ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ حب الرياسة والجاه.

قال المحاسبي: الفواحش ما أريد بها غير الله.

قال بعضهم: ما ظهر من الفواحش في الأفعال هو الوفاء، وما بطن منها الدعاوي الكاذبة.

﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ (١٥٧) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ (١٥٩)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا﴾ إذا ادَّعيتم مقام الولاية فاصدقوا بإلقاء نفوسكم إلى قناطر البلايا؛ فإن الولاية مقرونةٌ بالبلية.

وأيضًا: إذا أخبرتم مني باللسان فكونوا حاضرين عندي بالجنان، وإذا ذكرتموني بالظاهر فكونوا شاهدين مشاهدتي في الباطن، وإذا شهدتم على معائب عبادي حين تعرفهم شأنها إياهم، لا تفرغوا في الأمر بالمعروف، ولا تخافوا عن لومة اللائمين بالنهي عن المنكر، وكونوا عادلين فيه، ولا تجاوزوا عن الحدود التي رسمتها في شرائعي.

قال أبو سليمان في هذه الآية: إذا تكلَّمتم فتكلَّموا بذكره.

وقال محمد بن حامد: العدل من الكلام ما لا يكون على صاحبه في ذلك بلغة، عاجلاً وآجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا﴾ الوفاء بالعهد إقبال القلب إلى الله بلا إدبارٍ بنعت المحبة والشوق حتى يصل إليه، ولا يحتجب بشيء دونه، ولا يختار عليه غيره.

قال الجوزجاني: العهود كثيرةٌ، وأحق العهود بالوفاء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تأمر نفسك بالمعروف، فإن قبلت منك وإلا رضّها بالجوع والسهر وكثرة الذكر ومجالسة الصالحين؛ لترغّب في المعروف غيرك، وتنهي نفسك عن المنكر، فإن قبلت وإلا فأدبها بالسياحة والتقطع والعزلة وقلّة الكلام وملازمته لتنتهي، فإذا انتهيت فانهِ الناس عن المنكر.

لما شرع الله سبحانه شوارع الحقيقة ونصَّب في سبيل معرفته الربوبية وصى عباده باللزوم فيها بنعت الصبر والرضا عند تحمل العناء والسياحة في بحر البلاء للوجدان والتزّين بلباس البقاء، وكذا عقد الحقيقة عليهم، وحجَّ عليهم؛ تمهيدًا للعبودية؛ وعرفانًا للربوبية بقوله: ﴿هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ صراطه المستقيم متابعة إلهامه وكلامه والشروع في عبوديته لغفرانه وطلب مشاهداته عند تقديس الخاطر عن غيره.

قال جعفر بن محمد: السلام طريقٌ من القلب إلى الله بالإعراض عما سواه، وأراد بالسبل هاهنا سبل الخطرات المذمومة والهوام النفسانية والوساوس الشيطانية؛ فإنها مظلمةٌ مفاوزها قاطعةٌ لطريق المريدين، وسبيله سبيل الهدى وضوح شموس الصفات في جلال الآيات للعقول الصافية عن أكدار الخليفة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي: أعطى موسى ما خصَّ به في المناجاة؛ حيث يزيد كلامه القديم الذي بيَّن له طريق معارف القدم

وكواشف الذات والصفات حين تجلّى له، ثم أعطى النور للعموم شريعة وبيانًا بالمناهج العبودية؛ لأنهم عند مشاهدة الجلال وسمع الخاص عند كلام الخاص بمعزلٍ.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ وصف المفترين والمائلين عن الطريقة حقها على المريدين بذل النفوس وأمانتها بالمجاهدات والرياضات بأنهم لمّا فارقوا سبيل الحق وقعوا في أودية الباطل، فصاروا فرق الدعاوى الهالكة، فبعضهم زراقون، وبعضهم طرارون، وبعضهم متشابهةٌ بزي الرجال، وبعضهم متلبسون بقول الإبطال.

قال فارس: لم يستقيموا لله على وتيرةٍ واحدةٍ.

﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ مَنْ بقي على رؤية الأعمال فأجره بحسابٍ؛ لأن أجره من عالم الحدثان من نعيم الجنان، ومَنْ رفع بصره عن أعماله بنعت الخجل عند رؤية الرحمن أجره بغير حسابٍ؛ لأنه لطائف العرفان وموائد الإيقان، وأصل الحسنة إخلاص العبودية عند ظهور الربوبية، لذلك قال ﷺ «الإحسانُ أنْ تعبدَ الله كأنَّك تراه»[1]، هذا إحسان العارفين الذين أجرهم مشاهدة الله بلا نهاية.

قال بعضهم: مَنْ لاحظها من نفسه فعشر أمثالها، ومَنْ لاحظها من مواصلة الحق فهو الذي يصلي عليكم وملائكته والله يضاعف لمَنْ يشاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ الصراط المستقيم هاهنا أغرب طريقٍ في المعارف والكواشف، هداه به نبيه إلى نفسه؛ لأنه خاصٌّ بذلك من جميع الخلائق.

ألا ترى إلى قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ﴾ كيف خصَّ هداية نفسه بالرب، وذلك وقوع الأسرار في منازل الأنوار وطيران روحه في الملكوت والجبروت حين شاهده نور دنو الدنو بوصف الرؤية الكبرى وسامرات الأعلى بقوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ

(١) تقدم تخريجه.

أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم: ٨، ٩، ١٠، ١١] ما رأى ما جاز عن سبيل القدم بعلّة الحدث؛ لأنه كان محفوظًا برعاية الأزلية وعناية الأبدية، بلغ إلى أقوام الطرق في مشاعر الصفات ومشاعر الذات.

ألا ترى إلى قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ مستقيمًا له منزّهًا عن اعوجاج البشرية وطوارق التلوين؛ لأنه بحجة المحبة وصراط النِخْلَة التي سبلها جذبات الأزل ومكاشفات الأبد؛ لقوله تعالى: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ يعني طريق محبة ملَّة إبراهيم ﷺ في خلته، وإن كان هو مخصوصًا بأغرب طريق المعارف من جميع الخلائق، وصفه بالحنيفية المائلة في طريق المحبة عن غير الحبيب من تلك سبيله وصل إلى حبيبه؛ لأنه مقدَّسٌ من شوك الشرك وغبار القطيعة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ طريق المحبة والخلة واحدٌ في نفس الاقتداء؛ لأن معدنها عين القدم المنزَّه عن كل علَّةٍ.

قال أبو عثمان: الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع، وترك الهوى والابتداع، ألا تراه يقول: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾﴾ [النجم:٣].

وقيل في قوله: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي: سليمًا من الاعوجاج وهواجس النفس، ووجود لذّة المراد فيه، ولمّا وصفه ﷺ باهتداء إلى جلاله وجمال وصفه بتنزيهه عن رؤية جميع الخلائق في عبادة خالقه، أمره بتعريف حاله، وقدس سنائه عن الإذاعة في الحدثان بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ صلواته وصلةٌ، وسجوده قربةٌ، وشهوده مشاهدةٌ، وركوعه وجدٌ، وقيامه حيرةٌ؛ لذلك قال ﷺ: «قرَّةُ عيني في الصلاة»(١)؛ لأن قرة عينه ظهور مشاهدة الله في صلواته، ولذلك أزه واردات تجلّي الجلال والجمال، حتى قيل: كان يصلي ولحوقه أزيز كأزيز المرجل، أي: هذه الصلاة لله لأنها مقدسةٌ من رؤية غير الله فيها، ومن مثابتها كانت لله خاصةٌ لخصوصية صاحبها وشرفها على جميع الخلائق، ولأن الصلاة عبادة، والجهود كانت بالعرض إلا هذه الصلاة؛ لأنها كانت فناء الحدث في القدم، وقربان منهم روح الأول على باب الأزل بسيف المحبة والعشق شوقًا إلى معدنه، وهذا معنى قوله: ﴿نُسُكِى﴾ فإذا جعل وجوده قربان الأزل حيى بحياة القديم، ثم فني في ظهور سطوات العزَّة به، كانت حياته ومماته ومثل هذه الحياة والمات والنسك والصلاة أن يكون لله رب العالمين لقدسها عن علة حظ الحدثان، وخطرات علة النسيان.

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٥/ ٢٨٠).

قال الواسطي: بيان هذه الآية في قوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٣١]، فمَنْ لاحظها من نفسه قصمته، ومَنْ تبرَّأ منها عصمته، كيف يجوز الوجدان بلا حظٍّ فضلاً.

قيل: مَنْ علم أنه بالله علم أن لله، فإن علم نفس لمْ يبق فيه نصيبٌ لغير الله، فهو مستسلمٌ لحكم الله غير معترضٍ على تقدير الله، ولمّا كان ﷺ بوصف ما ذكر حيث انفرد بفردانية الله أفرد نفسه لله بحيث لا يرى غير الله بقوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ أي: لا رؤية للغير في البين في ظهور شمس جلاله من مطلع القلب.

قوله تعالى: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي: هو يستحق لإفراد قدمه عن الحدوث، ولا يستحق ذلك لغيره، وما دام شأنه ذلك خصَّ الله جوهره بأول الفطرة التي انقادت لعزته عند ظهور تجلي هيبته الأزلية لها.

قال سبحانه عقيب قوله: ﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إشارةٌ إلى تقدم روحه وجوهره على جميع الكون وأهله في الحضرة حين خاطبه بالرسالة والولاية والمحبة والخلة، فانقاد في أول الأول الأزلي الأبدي، تعالى الله عما يقولون الظالمون علوًّا كبيرًا.

وأشار إلى ما ذكرنا قوله ﷺ: «**كنتُ نبيًّا وآدم بين الماء والطين**»[1]، وقوله ﷺ: «**أول ما خلق الله نوري**»[2].

وقيل في قوله: ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: أسلمت لتصاريف قدرته متبرئًا من حولي وقوتي، مع أن التسليم في الحقيقة علّةٌ، ولمّا كان سابقًا على جميع الخلائق في حضرة العزّة بنعت الانقياد بعز ربوبيته، ومعرفته بجلال ديموميته، أمره تعالى بأن يعرِّف نفسه الشريفة المبرّأة عن علّة الحدثان لجميع الخلائق؛ ليعرفه كل صادقٍ، ويطيعه كل محبٍّ موافقٍ بقوله: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا﴾ أي: أنا في مشاهدة قدم الله أبغي ستائر على مشاهدته سواه، حاشا من عظم شأنه أن يكون عوضًا لجماله من العرش إلى الثرى.

قال الجوزجاني: أسواه أطلب حافظًا وراعيًا ووكيلاً، وهو الذي كفاني الهم وألهمني الرشد!

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

(١) ذكره المناوي في فيض القدير (٥/ ٥٤).

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/ ٣١١).

جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ أي: ما عملت النفوس إلا ما ألزمت عليها في الأزل، فإذا عملت ترجع إليها؛ لأن خالقها منزَّهٌ عنها.

قال بعضهم: لا تكسب من خيرٍ وشرٍّ كل نفس إلا عليها، أما الشرُّ فهو مأخوذٌ به، وأما الخير فهو مطلوبٌ منه صحة قصده، وخلوه من الرياء والعجب، ورؤيته من نفسه والتزين به، والافتخار به، والاعتماد عليه، والإحسان فيه، فإذا حصلته وجدته عليه، لا إله إلا أن يعفو الله ﷻ.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي: جعلتكم خزائن جودي من المعرفة والمحبة والولاية، خلفاء العالم بعد مضي دهر الدهار، وتقلب الفلك الدوار، والقرون الماضية ممَّنْ قسم له الرسالة والنبوة والملك والشرف، وما كان لهم في السبق السابق، وأول الأول، ويكون لكم يا خلفاء الأنبياء والصديقين، هو الذي جعلكم خلفاء في أرضه كآدم ﵇، ونوح ﵇، وإبراهيم ﵇، وموسى ﵇، وعيسى﵇، وزاد شرفكم بشرف نبيكم على الجمهور، وقال ﷺ: «نحن الآخرون السابقون»[1].

وبيّن تعالى هذه الآية أن النجباء والأولياء والأصفياء والأتقياء والأخيار والأوتاد والخلفاء يختلف بعضهم بعضًا، كما وصف ﷺ الأبدال والأولياء في حديثٍ مرويٍّ بقوله: «إذا مات واحدٌ منهم أبدل الله مكانه واحدًا»[2]، وصرَّح بخطابه أن درجاتهم متفاوتة بقوله: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ لاقتداء البعض بالبعض، وبقية أمانته وأمانه وحجته وبرهانه في العالمين للعاملين درجة بعضهم المعاملات، ودرجة بعضهم الحالات، ودرجة بعضهم المقامات، ودرجة بعضهم المكاشفات، ودرجة بعضهم المشاهدات، ودرجة بعضهم الفراسات، ودرجة بعضهم الكرامات، ودرجة بعضهم المواجيد والواردات، ودرجة بعضهم الحكميات، ودرجة بعضهم الدنيات، ودرجة بعضهم المعرفة، ودرجة بعضهم التوحيد، ودرجة بعضهم التلوين، ودرجة بعضهم التمكين، ودرجة بعضهم اليقين، ودرجة بعضهم الفناء، ودرجة بعضهم البقاء، ودرجة بعضهم الحيرة، ودرجة بعضهم الوله والغيبة، ودرجة بعضهم السكر، ودرجة بعضهم الصحو، ودرجة بعضهم الاتصاف، ودرجة بعضهم الاتحاد،

---

(١) رواه البخاري (١/ ٩٤)، ومسلم (٢/ ٥٨٦).

(٢) رواه أحمد في مسنده (١/ ١١٢).

ودرجة بعضهم الربوبية، ودرجة بعضهم المعبودية، وعلم العام وعلم الخاص، وعلم العلم، ومعرفة العلم والسر، ومعرفة السرِّ والخير، ومعرفة الخير والعلم المجهول، وما فوق ذلك إلا رسومٌ مندرسةٌ وطرقٌ منطمسةٌ؛ لأن هناك ظهور كنه القدم، ولا يبقى مع القدم إلا القدم، ابتلاهم بهذه المقامات لفناء علَّة الحدث في القدم، ومَنْ خرج بنعوت الربوبية منها ويدعي بها يضرب ويصلب ويقتل ويحرق، كما فعل بحسين بن منصور -قدَّس الله روحه- ومن خرج منها بنعت العبودية وبقي بنعت الاستقامة كالنبي ﷺ، حيث قال: «أنا العبد، لا إله إلا الله»[(١)] عُصم من فورة السكر، وغفر له خطراتها في أثناء الطريق، وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قال بعضهم: مخلف الولي وليٌّ، والصديق صديقٌ، ويرفع درجات البعض على البعض، ودرجات البعض بالبعض؛ لئلا تخلو الأرض من حجة الله وأمانه.

قال بعضهم: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ﴾[(٢)]: ليقتدي الأدنى بالأعلى، ويتبع المريد درجة المراد؛ ليصل إليه، والله أعلم.

سورة الأعراف

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ۝١ كِتَـٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ۝٣ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَـٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ۝٤ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ۝٥﴾.

(١) سبق تخريجه.

(٢) قال ابن عجيبة: من شرف هذا الآدمي أن جعله خليفة عنه في ملكه، يتصرف فيه بنيابته عنه، ثم إن هذا التصرف يتفاوت على قدر الهمم، فبقدر ما ترتفع الهمة عن هذا العالم يقع للروح التصرف في هذا الوجود، فالعوام إنها يتصرفون فيما ملَّكهم الله من الأملاك الحسية، والخواص يتصرفون بالهمة في الوجود بأسره، وخواص الخواص يتصرفُون بالله، أمرُهم بأمر الله، إن قالوا لشيء: كن يكون بإذن الله، مع إرادة الله وسابق علمه وقدره، وإلا فالهمم لا تخرق أسوار الأقدار.

والحاصل: إن من بقي مع الأكوان شهودًا وافتقارًا، كان محبوسًا معها، ومن كان مع المكون كانت الأكوان معه، يتصرف فيها بإذن الله، خليفة عنه فيها، وهم متفاوتون في ذلك [البحر المديد (٢/ ٢٢٩)].

﴿ الٓمٓصٓ ﴾ كان الله سبحانه إذا أرد أن يتكلم مع نبيه محمد ﷺ بقصص الأنبياء، وما جرى عليهم في الدهور والإعصار، وشأنه معهم في الأسرار والحقائق والشرائع، وأراد أن يخصه ﷺ بشريعته، وما يكون من طريقته الخاصة إلى حضرته، وتحيّره ممّا كان وما يكون إشارة إلى هذه الأشياء له بحروف التهجي، وأعلم سر ذلك محض الإشارة ولطيف الخطاب، وعلم تعالى أنه ﷺ يعرف بتلك الإشارة مراده من علم سابق ونبأ طارق، وعلم تعالى أن عموم أمته لا تعرف تلك الإشارة فعبّر عنها بسورة طويلة من القرآن؛ ليعرفوا مراده سبحانه من خطابه وخواص أمته، ربما يطلع على سر بعضها كالصحابة والتابعين والمتقدمين من الأولياء والعلماء.

كانت حروف المقطعات رموز معاني سور القرآن لا يعرف تلك الرموز إلا الربانيون والأحبار من الصديقين، فهذا الألف إشارة إلى آدم ﷺ، ألا ترى أن أول اسم آدم ﷺ ألف إشارة، الألف إلى حاله وقصته وبدو أمره وخلقته، وعرضه على الملائكة ودخوله الجنة وخروجه منها، وكان هو أصل الفطرة، ومَنْ تشعب منه فهو تابع له في الذكر، وإشارة الألف إلى علم الأسماء بقوله: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ﴾ التي فيها أنباء جميع الذات والصفات والنعوت والأفعال، وعلم ما كان وما سيكون عرَّف نبيه محمد ﷺ ما عرف آدم ﷺ بجميع الأسماء بحروف الألف؛ لأنه كان ﷺ ألطف الأولين والآخرين وأكرمهم على الله، وعلى قدر قربه إشارة ألطف وأخفى وأخبر باللام، هاهنا تعالى حبيبه قصة تجلاه لموسى ﷺ والجبل، وعرف بها تلك الأحوال الماضية.

ألا ترى إلى حرف اللام في التجلّي، وعرَّف بحروف الميم شأن موسى ﷺ وقصته من أوله إلى آخره، ألا ترى إلى حرف الميم مراسم موسى ﷺ، وعرف بحرف صاد هاهنا قصص نوح وهود ﷺ وصالح ﷺ وشعيب ﷺ ولوط ﷺ وجميع ما جرى عليهم من بدئهم إلى آخر أعمارهم، وأخبر بحرف صاد صبرهم، وتحملهم في بلائه وصدق محبتهم بالوفاء والصدق بالأعمال والأقوال، وتصديق ذلك وهو أن تحت الحروف جميع الكتب مندرجة ما روي في الحديث عن قول النبي ﷺ: «إن الله سبحانه أعطى آدم ﷺ حروف التهجي، وكان كل حروف كتابًا من الله تعالى إليه»[1].

وأيضًا أخبر سبحانه بحرف الألف نبيه ﷺ عن عين القدم ووحدانية نفسه المنـزَّه عن الاجتماع والافتراق، وإصدار جميع المخلوقات منه؛ لأنه تعالى مصدر جميع الوجود، كما أن الألف مصدر جميع الحروف، وأخبر بالألف سر الأسرار وصرف الأنوار، وما كان في جميع الحروف من علم الأولين والآخرين، وهذا أدق إشاراته إلى نبيه ﷺ ثم زاد وضوحه بحرف

---

(١) ذكره ابن طاهر في «تذكرة الموضوعات» (ص١٦٨).

اللام لترقيه خاطره وزيادة إدراكه، ثم صرح الخطاب بحرف الميم وبيّن له بحرف الصاد ما كان في الأحرف الخاص؛ لأن بحرف الصاد صفا جميع علومها له، ثم عمّ العبارة للخلق بالسورة لقلة إدراكهم لعزّ الأسرار ولطائف ضمائر الإضمار، وأيضًا أخبره بلام ألف سر أوليَّته، وما في بحار أزليته.

ألا ترى كيف شقّ الألف من اللام لإخفاء الإشارة حتى لمْ يبق حديث العدم في القدم، وكيف يكون لها من لام وألف ومعناها العدم، فشقَّ أحدهما عن الآخر حتى لا يكون حديث النفي؛ لأن النفي علَّة يقع على الحدثين، وليس ذكر الحدثان في القدم أخبر بالألف عن أحدية الأولية، وباللام عن الأزلية السرمدية، وبالميم عن محبته القدمية، وبالصاد عن صفاتِهِ القائمة بذاته الأبدي، أخبر بالألف عن الذات؛ لأنها عين الواحد، ثم أخبر باللام والميم والصاد عن شمول صفاته القديمة، الألف من الذات، واللام من صفة الأزل، والميم من صفة المحبة، والصاد خير جميع الصفات.

قال محمد بن عيسى الهاشمي: سمعت من ابن عطاء أنه قال: لمّا خلق الله الأحرف جعل لها سرًّا، فلمّا خلق آدم ﷺ بث فيه ذلك السر ولم يبثه في الملائكة، فجرت الأحرف على لسان آدم ﷺ بفنون الجريان وفنون اللغات جعله الله صوره لها.

وقال الحسين: الألف ألف المألوف، واللام لام الآلاء، والميم ميم الملك، والصياد صاد الصدق.

وقال: في القرآن علم كل شيء، وعلم القرآن في الأحرف التي في أوائل السور، وعلم الحروف في لام ألف، وعلم لام تلك في الألف، وعلم الألف في النقطة، وعلم النقطة في المعرفة الأصلية، وعلم المعرفة الأصلية في الأزل، وعلم الأزل في المشيئة، وعلم المشيئة في غيب الهُو، وغيبه الهو ليس كمثله شيء.

وقال أبو محمد الجريري: أن لكل لفظ وحرف من الحروف مشرب فهم غير الأخر.

ومن شرَّاح ذلك حين سمعه يقول: ﴿الٓمٓصٓ﴾ للألف عندهم فهم، وللفهم في محضرهم استماع إلى حسن مخرج وطعم عذب موجود نظر إلى المتكلم، وكذلك اللام حسن استماع ومخرج غير الألف وطعم فهم موجود، وكذلك للميم حسن استماع من مخرج غير اللام وطعم فهم موجود، والصاد حسن استماع إلى حسن مخرج وطعم فهم موجود غير الميم فممزوج ذلك كله بالملاحظة للمتكلم.

وقال الحسين: الألف ألف الأزل، واللام لام الأبد، والميم ما بينهما، والصاد اتصال مَنْ اتصل به، وانفصال مَنْ انفصل عنه، وفي الحقيقة الاتصال والانفصال، وهذه ألفاظ تجري

على حسب العبارات ومعادن الحق مصونة عن الألفاظ والعبارات.

وقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ ذكرت إن حروف الأسرار كتاب وتصديق ذلك قوله تعالى بعد قوله: ﴿الٓمٓصٓ﴾، ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: هذه الحروف ﴿الٓمٓصٓ﴾ كتاب الأسرار أنزل إليك، ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي: لا يكون في صدرك حرج نكرتها وقلّة إدراكها، أي: فلا تخف أنك لا تعرف إشارتنا فيها؛ فإنك مخصوص بعلم لطائفها، وحقائقها وصدرك محل البسط بفسخه نور تجلّي جمالي، فلا يكون فيه خرج القبض[1]، وتصديق ذلك قوله: ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: لهذه الأسرار لا يحتمل غيرك أنها لك وأن لك استعداد فهمها، فلا يكون في صدرك همّ لأجلها، فإنها تسهل فهمها عليك.

قال ابن عطاء في ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾: عهد خُصصت به من بين الأنبياء أنك خاتم الرسل وعهدك خاتم العهود؛ لتشرح به صدرك، وتقربه عينًا.

وقال الجنيد: فلا يكن في صدرك حرج منه لا يضيقن قلبك بحمله وثقله، فإن حمل الصفات ثقيلة إلا على مَنْ يؤيد بقول المشاهدة.

وقال النوري: إن أنوار الحقائق إذا وردت على السر ضاق عن حملها كالشمس يمنع شعاعها عن إدراك نهايتها.

قال القرشي: لّما قصَّ الله في هذه السورة قصة الكليم علم أن قلب النبي ﷺ يتحرك، لذلك قال: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ لأنه كُلّم على الطور وكُلّمت وراء الصور، ومنع المشاهدة ورُزِقْتَها.

وقال الأستاذ: كتاب الأحباب تحفة الوقت وشفاء عمّا يقاسيه من ألم البعد.

وقال في قوله: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾: إشارة إلى حفظ قلبه عن كل قبض، وقال: ﴿فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ ولم يقل قلبك فإن قلبه ﷺ في تجلّي الشهود ولذلك قال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]، ولم يقل قلبك، ولذلك قال موسى ﵇: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾ [طه:٢٥]، وقال له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:١]، فإن القلب في محل الشهود، وهو أبدًا بدوم الأنس والقرب،

---

(١) أي: ضيق وثقل من أجل تبليغه لمن يُكذب به، مخافة أن تكذّب فيه، أو مخافة أن تقصر على القيام بتبليغه، أو بحقوقه، وتوجيه النهي إلى الحرج للمبالغة. البحر المديد (٢/ ٢٣١).

قال ﷺ: «تنام عيناي ولا ينام قلبي»(١)، وقال: «أسألك لذَّة النظر»(٢).

وصاحب اللذَّة لا يكون له حرج.

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي: يسأل عن الأمة فهم الخطاب وقبوله بشرط الحرمة واستعماله بوصف المتابعة، ونسأل الرسل أداء الرسالة في صورة كلام على قدر عقول الخلق شفقة على الأمة.

قال أبو حفص: لنسألن الذين أُرسل عليهم سؤال تعنيف وتعذيب ولنسألنَّ المرسلين سؤال الشريف وتقريب قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾(٣) أي: لتخبرنهم حال المشتاقين إلى لقائنا، وشأن المدبرين عن ساحة كبريائنا.

وأيضًا: لتخبرنهم ما جرى عليهم، وهم كانوا لا يعرفون حقائقه من آثار القهريات واللطفيات والموجودات والمعدومات.

﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ عن شهود المشتاقين، وزفرات العارفين، وعبرات العاشقين، وجفاء المتكبرين، فإنا قد علمنا في القدم ما كان في العدم.

قال ابن عطاء في قوله: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ﴾: أي في حال عدمهم ووجودهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ للحق سبحانه وتعالى موازين يزن بها الأحوال والأعمال، يزن بميزان الإخلاص المعاملات، ويزن بميزان الصدق الحالات، فكل عَمَلٍ عُمِلَ برؤية الأعواض ورؤية العمل والالتفاف فيه إلى غير الله، فهو ساقط عن محل القبول، وكل حالة صاحبها موجب بها فهي ساقطة عن درجة الوصول، فالنيات موازين المعاملات والصدق ميزان الحالات، فمَنْ هاهنا يزن نفسه بميزان الرياضات والمجاهدات، ويزن قلبه بميزان المراقبات، ويزن عقله بميزان الاعتبارات، ويزن روحه بميزان المقامات، ويزن سرَّه بميزان المحاضرات ومطالعه الغيبيات، ويزن صوره بميزان المعاملات، الذي كفتاه الحقيقة

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٠٨).

(٢) رواه النسائي (٣/ ٥٤).

(٣) أي: عنهم في حال من الأحوال فيخفى علينا شيء من أعمالهم وأحوالهم.

والطريقة ولسانه الشريعة وعموده العدل والإنصاف يوزن نفسه يوم القيامة بميزان الشرف، ويوزن قلبه بميزان اللطف، ويوزن عقله بميزان النور، ويوزن روحه بميزان السرور، ويوزن سره بميزان الوصول، ويوزن صورته بميزان القبول، فإذا ثَقُلَت موازينه بما ذكرنا فجزاء نفسه الأمن من الفراق، وجزاء قلبه مشاهدة مشوق في الأشواق، وجزاء عقله مطالعات الصفات، وجزاء روحه كشف أنور الذات، وجزاء سره إدراك أسرار القدميات، وجزاء صورته الجلوس في مجالس وصال الأبديات.

وأيضًا هاهنا لأهل الحق موازين، ميزان الإرادة، وميزان المحبة، وميزان الشوق، وميزان العشق، وميزان المعرفة، وميزان اليقين، وميزان التوحيد، فهذه سبعة موازين فينبغي أن يزن المريد نفسه في كل نفس بميزان الإرادة، ويزن المُحب قلبه في كل نفس بميزان المحبة، ويزن المشتاقين عقله في كل نفس بميزان الشوق، ويزن العاشق روحه في كل نفس بميزان العشق، ويزان العارف سره في كل نفس بميزان المعرفة، ويزن الموقن أنفاسه في كل نفس بميزان اليقين، ويزن الموجد جميع وجوده بميزان التوحيد، فيستوفي المريد بميزان إرادته عن نفسه انقيادها للحق عند جريان القضاء والقدر عليها، ويستوفي المُحب بميزان محبته عن قلبه شهوده في الحضرة بلا خطرات المذمومة، والالتفاتات المشوبة بنعت النيات الصافية، ويستوفي المشتاق بميزان شوقه من عقله جولانه في الشواهدات لطلب عرفان المشاهدات بلا فترة ولا رعونة، ويستوفي العاشق بميزان عشقه من روحه طيرانها في الملكوت لطلب الجبروت، ويستوفي العارف بميزان معرفته من سره إصغاء بنعت الشهود؛ لكشوف أنوار الغيب، وغوصه في بحر الهموم لطلب جوهر الإلهام، ويستوفي الموقن بميزان اليقين من أنفاسه صعودها عند تنفسها إلى معارف القرب بلا هواجس اليقين وغبار الوسواس، ويستوفي الموحد بميزان توحيده من جميع وجوده اضمحلاله في أنوار كبريائه القديم، وفنائه في سبحات الأبد، فمَنْ ثقلت هذه الموازين أفلح عن حجبة الامتحانات، وتُثَقِّل موازين الحضرة غدًا بفيض أنوار صفات الحق، ولطائف ذاته وكرامات قربته له، فيفلح هناك بالله عن غير الله ويصير أهلاً لله؛ لأنه خرج عن موازين صفاته وأنوار ذاته بنعت المعرفة والتوحيد والمحبة، فطُوْبَى لهذا المحاسب طُوْبَى له وحسن مآب.

قال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في تفسير هذه الآية: ومَنْ وزن نفسه بميزان العدل كان من المحبين، ومَنْ وزن خطراته وأنفاسه بميزان الحق اكتفى بمشاهدته، والموازين مختلفة، ميزان للنفس والروح، وميزان للقلب والعقل، وميزان للمعرفة والسرّ، فميزان النفس والروح الأمر والنهي وكفتاه الكتاب والسُّنة، وميزان القلب والعقل والثواب والعقاب وكفتاه الوعد والوعيد، وميزان المعرفة والسرّ الرضا والسخط وكفتاه الهرب والطلب.

وقال الأستاذ: يوزن أعمالهم بميزان الإخلاص وأحوالهم بميزان الصدق، فمَنْ كانت أعماله بالرياء مصحوبة لم يقبل أعماله، ومَنْ كانت أحواله بالإعجاب مشوبة لم يرفع أحواله، وافهم يا صاحبي أن حكمة وزن الأعمال يوم القيامة للعباد أن الله يبيّن لهم ما كان مكتوبًا في اللوح المحفوظ قبل الخلق مما يجري عليهم من القضاء والقدر، والرضا والسخط، والشقاوة والسعادة، مقابلة بما جرى عليهم في الدنيا الذي في أوراق الحساب التي في أيدي الملائكة ليزيدهم برهانًا وعيانًا وعلمًا بعلمه المحيط على كل شيء، وليكون حجة عليهم، خرّج أعمالهم على وفق ما كان مكتوبًا عليهم، وافهم يا صاحبي أن الأعمال أعراض كيف تكون موزونة ليس هذا في علم الخلق أن ميزانه الحقيقي رده وقبوله، وهو قادر أن يخرج الأعراض بصور الجواهر فيزن بميزانه الذي يظهره لهم يوم القيامة، وذلك على لسان الشرع يوجب الإيمان به.

قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان، فأما المؤمن يؤتى بعمله في أحسن صورة فيوضع في كفة الميزان وهو الحق فيثقل حسناته على سيئاته، فيوضع عمله في الجنة، فيعرفها بعمله.

فذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٨]، وهم أعرف بمنازلهم في الجنة إذا انصرفوا إليها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم، وأما الكفار فيؤتى بأعمالهم في أقبح صورة فتوضع في كفة الميزان وهي الباطل؛ فيخُف وزنه حتى تضع في النار، ثم يقال للكافر: الحق بعملك.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ مَنَّ الله على عباده بتمكينهم في الأرض بنعت لتسهيل عبادته، حيث يسّر لهم عبوديته بقدرة خلقها فيهم بعد أن كلفهم ذلك، وجعل فيها لأبدانهم معايش الغذاء،

ولقلوبهم معايش الذكر، ولعقولهم معايش التفكر، ولأرواحهم معايش روح رؤية ظهور جلاله في ملكوت الأرض من كل زهرة وحضرة؛ لعرفان المنعم القديم بنعت عجزهم في شكره، ثم زاد امتنانه عليهم بأنه تعالى أجادهم بأظرف الخلق وألطفه وأحسن الصور وأكرمها، بقوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ﴾ أي: خلقنا أشباحكم جمعًا في آدم ﷺ ثم صورناكم في حواء، وأيضًا خلقنكم هياكل وصورناكم أرواحًا، وأيضًا خلقناكم بالأفعال وصورناكم بالصفات، وأيضًا خلقناكم خلقكم بالأمر، ثم صورناكم بظهور تجلي الصفات لكم، فوقع الخلق بوقوع الأمر وترتيب الصور بوقوع تجلي بروز الصفات، فتكونت الصور بنعوت الصفات، وتكونت الهياكل بنعوت الأفعال، وتكونت الأرواح من تجلّي الذات، فيكون الجميع صادرة من العدم بنعت القدم.

ألا ترى كيف أشار ﷺ فيه إلى سر المتشابهات حيث قال: «خلق الله آدم على صورته»[1]، فجعل للأشباح طريق العبودية، وجعل للأرواح طريق عرفان الربوبية، وجعل للعقول طريق الملكوت، وجعل للقلوب طريق الجبروت، وجعل للأسرار طريق القدم والبقاء.

قال بعضهم: أبدع الله الهياكل وأظهرها على أخلاق شتى، وصور مختلفة، وجعل لكل شيء منها عيشًا، فعيش القلوب في الشهود، وعيش النفوس في الوجود، وعيش العبد معبوده، وعيش الحواس الإخلاص، وعيش الآخرة العلم، وعيش الدنيا الجهل والإمارة والاغترار بها.

ولمّا صور الجميع في آدم ﷺ بصورة آدم ﷺ وصور آدم ﷺ بصورة الصفات المنزّهة عن المشابهة بالحدثين هاهنا علمًا لا رسمًا، وهاهنا عشقًا لأشباهها أحدية وتوحيد وجمعًا، وتفرقة لا تشبيهًا ولا تعطيلاً، زينة بنور الصفات ونعت الأفعال، ثم كساه أنوار الذات، ثم قال للملائكة: اسجدوا له، بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾؛ لأنه قبلة تجلّي الصفات والذات، وهو مصور بصورة الملك في الملكوت قبل موضع استواء أنوار الذات، وصورته موضع استواء أنوار الصفات، وهيكله موضع استواء أنوار الأفعال، وروحه موضع استواء أنوار المحبة، وسره موضع استواء أنوار العلم والمعرفة.

﴿ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ﴾ فإنه لكم واسطة في العبودية لا معرفة الربوبية واسطة في العبادة، فإنه يليق بكم، فإن في عبادتي لا يليق الكون ومن فيه، وما فيه أظهر استغناؤه عن عبودية

---

(١) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، ومسلم (١/ ١٩٩).

الخلـق، لكن أدخل عشاق الملائكة في مقام المحبة والعشق فتجلّى لهم بنور جماله من مرآة وجه آدم ﷺ؛ ليفـتر قلوبهم بلذَّة المحبة والعشق، ولو أبرز لهم أنوار صفاته وذاته صرفًا احترقوا في أول مـا بـدا مـن نـور الأُلوهـية، ولمْ يـسجد إبليس لأنه كان محجوبًا من ذلك الجلال والجمال بنظرة إلى نفسه وقياسه بجهله، وكذا من نظر من الحق إلى النفس احتجب بها عن رب النفس.

قوله: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ لَمۡ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ﴾ أي: لم يكن من أهل شهود الصفات ورؤية جلال الذات.

قال أبو حفص: عرف الملائكة استغناءه عن عبادتهم، قال: ﴿ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ﴾، ولو كان سجودهم يزن عنده مثقال ذرة لِمَا أمرهم بذلك ولا صرف وجوههم إلى آدم ﷺ، قال: سجود الملائكة وجميع خلقه لا يزيد في ملكه؛ لأنه عزيز قبل أن خلقهم، وعزيز بعد أن يفنيهم، وعزيز حين يبعثهم، ثم عيّر إبليس بامتناعه عن السجود لآدم ﷺ وقلّة عرفانه، شرفه بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَ﴾ أي: أي شيء يمنعك من متابعة أمري، ولمْ يبق في البين غيري، أي: يمنعك من ذلك قهر سابق مني عليك، وخذلان وارد في المشيئة عليك، وإلا فمن الحدثان بامتناعها عن متابعة أمري، وليس لها قدرة ولا مشيئة، وكلها عاجزة في قبضة قهري، ومَنْ سبق له الشفاء لا يسبق بالمراد، وإن كان جميع عبادة الثقلين مصحوبًا معه في استباقه إلى الحضرة.

قـال الواسطي: مَنْ استصحب كل نسك في الدنيا والآخرة والجهل فطنه، والاعتراض عرضـه، والبعد من الله سببه، لا يقرب منه؛ لأن العبادات تقطع عن الرعايات ورؤية النسك رؤيـة الأفعـال والـنفوس، ولا مـتوثب على الله أشد ممّنْ طالع نفسه بعين الرضا، فلمّا كلم الله إبلـيس بكلام التعبير وقهر السلطنة ألبسه من خطابه قدرة في الجواب، ولولا إلباس الحق إياه لكـان مـبهوتًا عـند وارد قهـر الخطـاب علـيه، ولمْ ينطق بجواب الأمر ولكن أجابه إجبارًا لا اختـيارًا، وذلـك قـوله تعـالى: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾. لمّـا رأى المعلـون لـباس قهـر خطاب الحق عليه قال بقوته: ﴿أَنَا۠﴾، ولولا ذلك لما قال: ﴿أَنَا۠﴾، وأين أنائيـته وكـان هـباء في أنائية الحق، نظر المعلون إلى جوهر النار الصادر من قهر العدم فانتسب إلى قهـر القـدم، قـال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ولم ينظر بنظر المعرفة إلى الطين الذي صدر من لطف القـدم ورحمـة الأزلية، النار من غضبه، والطين من رحمته، والرحمة سابقة على الغضب؛ لقوله سبحانه: «سبقت رحمتي غضبي»[1].

---

(١) أي: يد تنـزيه وتشبيه، وإن شئت قلت يد وجوب وإمكان، أو يد بخلاف سائر العالم مُلكًا وفلكًا.

نظر إلى صفة واحدة ولم ينظر إلى صفة أخرى؛ فاحتجب بالصفة عن الصفة فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾، ولو رأى مصدر جميع الصفات لذاب تحت رؤية الكبرياء وأنوار العظمة، ولم يكن بعد فنائه أبدًا؛ لأن مَنْ عرف وصف القدم صار عدمًا في القدم، ولو رأى الملعون من وجه آدم ﷺ ما رأى الملائكة ما قال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ كان جاهلاً به والملائكة كانوا عاشقين به، غلط في قياسه ورؤيته إلى نفسه، وأين النار من الطين الذي يقبض قبض ألطاف العزّة ومخلوق يد الصفة الخاصة بقوله: ﴿خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [ص:٧٥] (١)، وسقط الأرواح التي صدرت من تجلّي القدس بقوله: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، وذلك محل التواضع والعبودية الخالصة ومَنْبِتُ أجسام الأنبياء والرسلَ والأولياء والصديقين، ومَنْبِتُ أغذية الخلائق ومرجع الكل، وهو بريقة الأجسام والأرواح في العالم ليخرج منه سبائك القدس لمجالس الأنس، والنار عذاب قهره مجازٍ بها من خلقه ناريًا كإبليس وجنوده، قوته من أصله الذي كان منه، كان من نار اللعنة فعداه باللعنة، قال: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ﴾ [الحجر: ٣٥]، كل شيء يرجع إلى أصله، كان جاهلاً بظاهر العلم بعد أن كان جاهلاً بباطن العلم ولولا ذلك لم يسلك طريق القياس عند وقوع النص، والنص غالب على القياس من جميع الجهات.

قال بعضهم: لمّا نظر إلى الجوهر والعبادة توهم المسكين أنه خير، فسبب فساد النفوس من رؤية الطاعة.

وقيل: توهم أن الجواهر من الكون على مثله وشكله في الخلقة فضل من جهة الخلقة والجوهرية، ولمْ يعلم ولم يتيقن أن الفضل من المتفضل دون الجوهرية.

وقال الواسطي: من لبس قميص النسك خامره أنا لذلك، قال إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ [ص: ٧٦]، ولو لَمْ يقل خير منه لأهلكه قوله في المقابلة أنا.

قال ابن عطاء: حجب إبليس برؤية الفخر بنفسه عن التعظيم، ولو رأى تعظيم الحق لمْ يعظم غيره؛ لأن الحق إذا استولى على سرّ قهره فلمْ يترك فيه فضلاً لغيره، ولمّا رأى الملعون فضل آدم ﷺ وذريته بالعلم الأسمائي وعرفان الصفاتي، والمسابقة على الكل بعنايته الأزلية حسد عليهم وخرج على عدواتهم بعد طرده من باب الرحمة، وتجاسر بجهله في مقابلة الحضرة بالمخاطبة بقوله: ﴿فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ هاهنا قسم، أي:

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٤٢).

بإرادتك السابقة في غوائك، أي: لأقعدن لهم صراطك المستقيم كما قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ﴾ [ص: ٨٢]، أي: بما ألبستني لباس قهرك في الأزل أقدر أن أقعد في طريقهم المستقيم، وإلا فلا أقدر أن آمر بهم في وراء العالم بقوة قهرك في الأزل، أوسوس في صدورهم التي هي طريقك المستقيم الذي يسألك فيه عساكر أنوار تجلاك.

في قوله: ﴿لَهُمْ﴾ نكتة عجيبة، أي: لأقعدن لهم لا عليهم، فإن وسوستي لهم تزيد شرًّا فهم عند إحساني عن صدورهم بنعت إياسي عن الظفر بهم، ويتمازج هناك إيمانهم وإيقانهم عن نعوت الاضطراب وطوارق الوسواس وغبار الشك.

ألا ترى إلى قوله ﷺ حين شكاه أصحابه عمّا وجدوا في صدورهم من الوسوسة، فأشار ﷺ بقوله: «ذاك صريح الإيمان»[1].

قال محمد بن عيسى الهاشمي: لو نجا إبليس بشيء لنجا برؤيته القدرة عليه والإقرار على نفسه بقوله: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الحجر: ٣٩]، ثم زاد الجرأة بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ أي: من بين أيديهم من جهة النفس والهوى، ومن خلفهم من جهة الشهوة والمنى، وعن أيمانهم من طريق الدعوى، وعن شمائلهم من طريق إظهارهم الشكوى في البلوى.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق الطاعات، ومن خلفهم من طريق رؤية الأعواض، وعن أيمانهم من طريق العلم، وعن شمائلهم من طريق الجهل.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق القلب، ومن خلفهم من طريق العقل، وعن أيمانهم من طريق الروح، وعن شمائلهم من طريق الصورة والنفس.

وأيضًا: من بين أيديهم من طريق الإسلام، ومن خلفهم من طريق الإيمان، وعن أيمانهم من طريق العرفان، وعن شمائلهم من طريق الإيقان، ولمْ يذكر الفوق والتحت؛ لأن التحت موضع الفناء في العبودية عند السجود الذي يوجب القربة، وذلك السجود شهود والشهود محل رعاية الحق، ولا يقدر أن تمر على باب رعايته أحد دونه، والفرق محل الكشف، والمشاهدة وارد التجلي وظهور سبحات وجه القدم، ولو دنا منه جميع الشياطين من العرش إلى الثرى بقدر رأس إبرة لاحترقوا في أقل لمحة.

قال أبو عثمان المغربي: إن الشيطان يأتي الإنسان عن يمين الطاعات من بين يدي الأماني والكرامات، ومن خلفه بالضلالات والبدع، ومن يساره بالشرك، فإذا جرى بعبد

---

(١) رواه مسلم (١/ ١١٩).

سعادة قبل منهم ما يأمرونه من الطاعات، فإذا أراد أن يهلكوه بطاعته رد إلى السعادة التي جرت له؛ فيكون ذلك ربحًا وزيادة، ألا تراه بقوله: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ الآية.

قال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧]، فالأكثر من هلك بطاعته والأقل من أدركته السعادة فنجا.

قال الشبلي: لم يقل من فوقهم ولا من تحتهم؛ لأن الفَوق موضع نظر الملك إلى قلوب العارفين، والتحت مواضع الساجدين، وموضع نظره وموضع عبادتهم، لا يكون للشيطان هناك موضع ولا فيه طريق.

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا﴾ جعل الله سكونهما إلى الجنة وشغلها بأكل ثمارها، ووعد العيش فيها، وأخفى في عيشهما كدر الامتحان بأكل الشجرة وجعلها فتنة لهما، ولو جعل سكونهما بجماله وحسن وصاله لم يدخل فيهما قهر الامتحان؛ لأن حضرته تعالى مقدسة عن رحمة الحدثان.

﴿وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ دلالة إشارة، والإجرار إلى الفتنة بنعت الخدعة، وكيف لم يقرباها وهو تعالى تجلّى فيهما لهما بنعت الجمال ليعشقهما بجماله، فخامرهما سرّ الأسرار من لطائف الأقدار فاشتاقا إليها عشق نظر، فلمّا قربا منها غلب شهوة العشق على حقيقة العشق؛ فأكلا منها وباشراها فعلما علم سر الأسرار وعلم لطيف الأقدار، فامتلأ ولم يحتملها الجنة لثقل أنوار الأسرار، ورزانة قوة الربوبية لذلك قال: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بدخلوكما في حمى الربوبية واقتباسكما أسرار الألوهية، ولولا أن الله حبس لسانهما عن كشف الأسرار لملأ الأقطار من علم الأقدار.

ولذلك قال بعض المسرفين: إن تلك الشجرة شجرة علم القضاء والقدر، ومن علم، علم ما كتم الله فيها وصل إلى عزّ المُلك والخلد بوصف الربوبية والحرية.

ولذلك حكى الله عن الملعون بقوله: ﴿هَلۡ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلۡخُلۡدِ وَمُلۡكٖ لَّا يَبۡلَىٰ﴾ [طه:١٢٠]، علم الملعون أنها شجرة الخلد والمُلك وحرم عنهما، فأراد مباشرتها لينازع الربوبية بقوتها، ولم يقدر بأن ليس له استعداد ذلك؛ فتحسّر في نفسه ورأى كنوز الغيب مملوءة

فيها مثمرة، فدلَّ آدم ﷺ إليها ليكون بتلك النعمة متمتعًا أحد من خلقة، لكن مزج بالإرادة الحسد على آدم ﷺ فأوقعه فيها؛ لأنه علم أنها موضع خطر فعصمها الله من ذلك الخطر، فلمّا أكلا وجد ذلك في نفسها فزمّ الله وجهها وقلبها زمام قهر سلطنته فلمّا رأى أنفسهما ساقطين عن محل الربوبية عرفا عجزها وضعفهما وعبوديتهما فقالا: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣]، وأراد الملعون أنهما لمّا أكلا من الشجرة أن يظهرا تلك الأسرار التي لو عرفها أحد يكون عيارًا سكرانًا، والهامد هوسًا خارجًا من قبول أحكام الشرائع في العبودية، ولا يكون في العالم حجة الله، فقصدهما بذلك لسقوطهما عن درجة الرسالة والنبوة والولاية التي هناك ظهور العبودية لمّا يبدو لهما من عورات الأسرار المكنونة والأقدار المختومة بقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾(١) إذا أراد سبحانه أن يظهر لعبده سرًا من أسراره أعزى إبليس بوسوسة سبب ينكشف به تلك الأسرار له، فيرتفع بعلمها درجاته، فيرجع ضررها إلى إبليس، ورجع منفعتها إلى عبده العارف كحال آدم ﷺ وعدوه، أراد العدو أن يسقطه من درجته فزاد شرفه على شرفه وقد سقط هو من رتبته بالحسد عليه وصار مطرود الأبد وصار آدم ﷺ مقبول الأزل والأبد لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ [فاطر: ٤٣].

وقال تعالى في حق آدم ﷺ: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]، وقال في حق داود ﷺ: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]، ولمّا بدا لهما تلك الأسرار كتماها في نفسهما باستعداداتهما إلى أشجار الرعاية بقوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢].

قال أبو سليمان الداراني: وسوس لهما الشيطان لإرادة الشر بهما فكان ذلك سببًا لعلو آدم ﷺ وبلوغه إلى أعلى الرتب، وذاك أن آدم ﷺ ما عمل عملاً قط أتمّ له من الخطيئة التي هي أدبته وأقامته مقام الحقائق، وأسقط عنه ما لعله خامر سرّه من سجود الملائكة له، ورده إلى بركة الأولى من التخصيص في الخلقة باليد حتى رجع إلى ربه بقوله: ﴿ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ مادام مآل أمر آدم ﷺ يئول

---

(١) قال التستري (١/ ١٥٤): الوسوسة ذكر الطبع، ثم النفس، ثم الهم والتدبير، ووسواس العدو على ثلاث مقامات: فالأول يدعوه ويوسوس له، والثاني يأمن إذا علم أنه يقبل، والثالث ليس له إلاَّ الانتظار والطمع، وهو للصديقين.

إلى زيادة الزلفة كأنه صدق الملعون في حلفه؛ لأنه رأى تلك الزيادة له بسبب أكل الشجرة، لكن لم تكن نصيحته بالإخلاص؛ لأنه خامر الحسد بالنصيحة فصار من الخائنين، ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف:٥٢].

قال أبو بكر الوراق: لا تقبل النصيحة إلا ممَّنْ تعتمد دينه وأمانته، ولا تكن له حظًا في نصيحته إياك، فإن العدو أظهر لآدم عليه السلام النصيحة وأضمر الخيانة، قال الله: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ﴾.

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾[1] خادعهما حين أخبرهما أن في الشجرة أسرار الربوبية فدلهما إلى غرور الاطلاع على أسرار القدم؛ ليكونا أقرب من المقربين الذين هم سفر الملكوت، وخزان خزائن الجبروت، وغرور ذلك أوقعهما في بلاء أسفار القدم والبقاء التي تأتي لهما لكل لحظة ببلايا لا تقوم بها السماوات، وهكذا شأن العشاق من شوقهم إلى وجه معشوقهم يسمعون حديث كل بر وفاجر لعلهم يصلون إلى شيء من قريب حبيبهم.

أُذَلُّ لِآلِ لَيلي في هَواهَا ... وَأَقبلُ لِلأَكابِرِ وَالصِغارِ

قيل: غرَّهما بالله ولولا ذاك ما اغترَّا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ ذكرت سر بدو السوءة، وهاهنا لطيفة إشارته إلى أن تلك السوءة التي هي أسرار القدم لمْ تبد لغيرهما بدت لهما خاصة من جميع الكروبيين والروحانيين، والحمد لله الذي عصم سوأتهما عن نظر الأغيار؛ لأنهما محلا الكرامة والأمانة والرسالة والنبوة والولاية، جردهما الحق عن الجنة وما فيها لكونهما في تجريد التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، فأين الجنة في طريق العارفين إلى الله أفردهما عن الجنة

---

(١) أي: بسبب تغريره إياهما باليمين بالله كاذبا وكان العين أول من حلف بالله كاذبًا، وظن آدم أن أحدا لا يحلف بالله كاذبا فاغتربه، فإن شأن المؤمن أن يعتقد بصدق من حلف بالله لتمكن عظمة اسم الله تعالى في قلبه، تفسير حقي (٤/ ١٢١).

لعظمها في المعرفة ولقدسهما عن حظوظ البشرية؛ لأن حظ البشرية في المشاهدة، فلمّا ذاقا ذوق شجر العشق انفرد عن الكل بالكل، فصار عورة الحق في العالم فكشف عنهما غرائب علم الأقدار بخروج جميع الأشباح والأرواح منها.

وسُئل الواسطي: ما بال الأنبياء العقوبة إليهم أسرع؟ إن إبليس وآدم عليه السلام في مخالفة واحدة، قيل: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾.

قال: سوء الأدب في القرب ليس كسوء الأدب في البعد.

قيل: يطالب الأنبياء بمثاقيل الذَّر، ولا يطالب العامة بذلك؛ لبعدهم عن مصادر السرِّ.

وقال بعضهم: بدت لهما سوأتهما ولم تبد لغيرهما هتك عنهما سر العصمة، ولم يبد ذلك لغيرهما.

قال الواسطي: سلبه ما ألبسه وكساه كسوة الذل حتى عرفه أراذل قدرة فانيته نفسه عن نفسه بنفسه، فأيقن أنه لا ينال شيئًا من ربه إلا بربه، وانقطع به إليه مغيبًا عن حضوره، ومأخوذًا بحظه عن حظ غيره، فلمّا بلغا إلى رأس كنوز علم الغيب، وصارا متحيرين في مهمهة الامتحان من رؤية عن النكرات لاطفهما الحق بمناداته وخطابه وعتابه ليجرهما من فقار الديمومية إلى مهد طريق الشريعة بقوله: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ النداء نداء المآب، والقول قول العقاب، ذكر لهما تلك الشجرة المنهية لموقعها في شوق تلك الأسرار؛ لأنهما في البعد من تلك المزار.

قال القرشي: قيل لآدم عليه السلام أدخل الجنة ولا تأكل من الشجرة، فلمّا أكلا نادهما ربهما والقول على معنى القرب والنداء على حد البعد، فلمّا أعلمنا أنهما أخطآ حين باشرا الشجرة من جهد شهوة العشق، والحق هناك رؤية ما ظهر في الشجرة من حسن تجلّي الحق، وليس استيفاء خط البشرية بمباشرة الشجرة من حق المقام أضافا الظلم إلى أنفسهما بقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ الظلم هاهنا الجهل بحقائق المقام وطلب حظ النفس في مقام مشاهدة الحق أقرا بالجهل، وكانا في ذلك الوقت في مقام التلوين ولو كانا في محل تجريد التوحيد لم يذكر النفس ولم يلوما أنفسهما؛ لأن رؤية النفس وقدرتها في شيء في مقام التوحيد شرك؛ ألا ترى إلى قول الأستاذ حين قال: مَنْ لام نفسه فقد أشرك.

قال الحسين: الظلم هو الاشتغال بغيره عنه.

وقال ابن عطاء: ظلمنا أنفسنا باشتغالنا بالجنة وطيبها عنك.

قال الشبلي: ذنوب الأنبياء تؤديهم إلى الكرامات والرتب، كما أن ذنب آدم عليه السلام أدى إلى

الاجتباء والاصطفاء، وذنوب الأولياء تؤديهم إلى الكفارة، وذنوب العامة تؤديهم إلى الإهانة.

قال الواسطي: لم تكن له في حال طينته خواطر غير الحق، فلمّا أحضره في حضوره غاب عن حضوره فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ما ورد عليه من ربه عن غيره، وهل لا قطعه باتصاله في اتصاله عن اتصاله، وهل لا عيّنه ما عليه في نفسه عن نفسه، فزاد الله حرقته وهيجانه حين أردف شوقه داء الفراق من مقام الميثاق ليستوعب حقائق البلاء في سفر العشق بقوله سبحانه: ﴿ٱهْبِطُوا﴾ أرسله من مقام البهجة إلى عالم المحنة بين أهل العداوة ومقاساة الفرقة بعد ذوق الوصلة؛ لأن في مقام العشق الوصال والفراق تؤمان كان في عيش الوصال مع الحبيب صافي الحال بلا كدورة الجفاء ولا رحمة الفراق؛ ففتح عساكر الامتحان عليه أيدي الفرقة من ممكن الغيرة وكدرت له مشرب الوصال في أيام الصفاء كقول القائل:

وكَانَ لِي مَشربٌ يَصفُو بِرُؤيَتكمُ ... فَكدَّرتهُ يَدُ الأيامِ حِينَ صَفَا

وأنشد بعض المتأخرين:

وَبِتنَا عَلى رُغمِ الحَسُودِ وَبَينَنا ... حَديثٌ كَريحِ المِسكِ شِيبَ بِهِ الخَمرُ

حَديثٌ لَوَ أنَّ المَيتَ يَحيا بِبَعضِهِ ... لَأَصبَحَ حَيًّا بَعدَ مَا ضَمَّهُ القَبرُ

فَوَسَّدتُهُ كَفي وَبِتُّ ضَجيعَهُ ... وَقُلتُ لِلَيلي طُل فَقَد رَقَدَ البَدرُ

فَلَمّا أَضاءَ الصُبحُ فَرَّقَ بَينَنا ... وَأَيُّ نَعيمٍ لاَ يُكَدِّرُهُ الدَهرُ

لم يكن آدم عليه السلام وحواء في قيد الجنة إنما طمعًا في الخلد ببقائهما مع الحبيب أبدًا لكن صال عليهما عسكر غيرة القدم، وأخرجهما من ساحة الكبرياء حتى لا يكون مع الله غير الله، أصابتهما عن غيرة الأزل في معناه، قال الشاعر:

إنْ تكُنْ عينٌ أصَابَتك فلَا ... زَالتْ العينُ تصيبُ الحسْنَا

لم يهبطا من الدرجات الكرامات وإن أخرجا من بقاع الجنات قيل: لم يخرج آدم عليه السلام عن رتبة الفضيلة، وإن أخرج عن دار الكرامة، فلذلك قال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَـٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢]، ولمّا حجبهما عن مقام الوصال وأدخلهما دار الفراق أخبرهما أنهما يحيان في الأرض بروح المعرفة ورزق المشاهدة ويموتان في حجر الشفقة عن صولة الحال والمكاشفة فيخرجان منها بنعت التوحيد والمحبة.

﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا

لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ فيها تحيون بالله وتموتون في الله ويخرجون بنعت الله.

قال بعضهم: فيها تحيون بالمعرفة، وفيها تموتون بالجهل، ومنها تخرجون ممّا أنتم فيه من التقدير والتدبير إلى سوابق القدر عليكم وجرى الأحكام فيكم.

ولمّا أعزى آدم ﷺ وحواء من لباس الجنة غوّص بنوه بذلك ألبسة شتي من حضرته الكريمة بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا﴾ لكل طائفة لباس للعارفين لباس المعرفة، وللمحبين لباس المحبة، وللمشتاقين لباس الشوق، وللموحدين لباس التوحيد، وللزاهدين لباس الزهد، وللمتقين لباس التقوى، وللأولياء لباس الولية، وللأنبياء لباس النبوة، وللمرسلين لباس الرسالة، ولكل واحد منها ظاهر وباطن زينة الباطن لنظر الحق وزينة الظاهر لموقع الشريعة وتلك الزينة ما قال تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ وتلك الزينة أنوار القرب مرخص بها صار بين الخلق مهينًا.

وقوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ لأن كل لباس فيه حظ العباد وليس في لباس التقوى حظ النفس، وهذه الملابس هي كثرة العموم ولباس الله لمَنْ فنيَّ في الله واتصف بصفات الله، فكل لباس يفني في لباس الله من خرج بلباس الله صار قبلة الله للعالمين، مَنْ نظر إليه يرى الله، ولهذا أشار ﷺ إلى مقام اتصافه بصفات الله واكتسائه بكسوة أنوار الله بقوله: «مَنْ رآني فقد رأى الحق»(١).

---

(١) رواه مسلم (٤/ ١٧٧٥)، والترمذي (٤/ ٣٥٣).

وقوله تعالى: ﴿يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ﴾ أي: كلكم عريان من أنوار القدم بادي سوءة الحدث؛ فينبغي أن تستروا بلباس القدم سوءة الحديث، وبلباس العلم سوءة الجهل، وبلباس الربوبية سوءة العبودية.

قال الواسطي: السوءة الجهل، وأزين الزينة أن يزين العبد بالتقوى، ولباس التقوى وقاية لا يخرقها كيد حاسد، والتقوى لباس القلب علامتها الورع، والتقوى الأدب مع الله، وهو ألا يرى مع الله غير الله فانظر، أي: القميص لبس قميص الصدق أو قميص الفسق أو قميص النسك.

وقال النصر آبادي: للباس كلها ملك الحق ولباس التقوى لباس الحق قال الله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ واللباس الذي يواري السوءة لباس الكرامة، ولباس التقوى لباس الإيمان وهو أشرف.

وقال بعضهم: لباس الهداية للعوام، ولباس التقوى للخواص، ولباس الهيبة للعارفين، ولباس الزينة لأهل الدنيا، ولباس اللقاء والمشاهدة للأولياء، ولباس الحضرة للأنبياء.

وقال الأستاذ: للقلب لباس التقوى وهو صدق القصد بنفي الطمع، وللروح لباس أمن التقديس وهو ترك العلائق وحذف العوائق، وللسر لباس من التقوى وهو نفي المساكنات والتصاون من الملاحظات[1].

ثم إن الله سبحانه حذر بني آدم بما حذر آدم عليه السلام من متابعة الشهوات وطلب المألوفات بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي بطول الأمل والطمع في البلوغ إلى كبر السن ورغد العيش في المال والجاه.

كما طمع آدم عليه السلام في الخلد والإقامة في الجنة؛ لأنها تخرج العبد من مقام القدس والأنس إلى عالم الكدورة والوحشة، كما كان حال آدم عليه السلام، وأن هذه الأشياء ينزع كسوة الأنوار عن سرِّه وتصيره عريانًا من لباس التقوى الذي ذكره الله.

هاهنا ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ إذا كان العبد متابعًا للهوى نفسه وهوى شيطانه لشهوته، وطلب حظه ينزع عنه لباس صفاء العبادة ويجرّد من نور الحضرة، ويبدو له علل الإنسانية بنعت غلبتها عليه فإنها طوارق ليلة الهجران فيرى فيها تلك السوءة أضاف نزع لباسهما وإخراجهما من الجنة إلى العدو وفي الحقيقة هو واسطة القهر إذا يرى

---

(١) انظر: تفسير القشيري (٢/ ٣٥٩).

طوارق القهر في ليلي امتحان العبد يتبعها بوسوسة وإلقاء مزخرفاته إليه، والأفاني له القدرة على إغواء العباد وليس إليه الضلال وفي كل موضع يرى أنوار العناية ونيران المحبة نحسًا من هناك خوفًا من احتراقه في تلك النيران والأنوار.

سُئل بعضهم: ما الذي قطع الخلق عن الحق بعد إذ عرفوه؟ فقال: الذي أخرج إياهم من الجنة اتباع النفس والهوى والشيطان.

قال ابن عطاء: خروج آدم ﷺ من الجنة وكثرة بكائه وافتقاره، وخروج الأنبياء من صلبه خير له من الجنة والتنعيم والتلذذ بنعيمها.

وقيل في قوله: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾: هو أنوار القرب ولعان العزة.

قال أبو سعيد الخراز: هو النور الذي شملهما في القرب.

قال النصر آبادي: أحسن اللبسة ما ألبس الصفي في الحضرة فلمّا بدت منه لمخالفة نزع عنه.

لذلك قال بعض السلف: مَنْ تهاون سر الله عليه أنطقه الله بعيوب نفسه.

قال الأستاذ[1]: مَنْ أطغى على وسواس نفسه بإسراع الهوى وحد الشكلية بين وساوس الشيطان وهواجس النفس، فيتناصر الوسواس والهواجس وتصير خواطر القلب، وزواجر العلم معمورة مقهورة، فعن قريب تشتمل تلك الوساوس صاحبها وينخرط من سلك موافقة الهوى فيسقط في مهواة الزلة، فإذا لم يحصل تدارك يوشك التوبة صارت الحالة قسوة والقلب إذا قسا فارقته الحياة وتم له البلاء.

وزاد تعالى تحذيره من الشيطان، وبيّن أنه يسترق من حيث لا يراه الإنسان بعقيب بقوله الآية: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أراد أن الشياطين ينظرون إلى العبد من حيث يأتي عليه مقادير المشيئة بنعت الامتحان، فإذا يرون قضاء عليه يتبعونه بقصد الإغواء والعبد لا يرى ذلك ما دام وراء حجب شهوته، ولا يرى الشياطين ما دام في ظلمات طبعه؛ فيفعل به ما كان من صنيعهم فإذا خرج من ظلمة النفس والهوى إلى ساحة الحضرة وينظر إلى أسماء الغيب ويلتجئ إلى قرب مولاه من شر نفسه وشياطينه يبصره الله الشياطين ومكائدهم فيلقي إليهم من قارورة الاستعاذة ميزان المحنة؛ فيحرقهم جميعًا بتأييد الله قال تعالى في ذلك من نيرات كتابه آيتين واضحتين الأولى في وصف رؤيتهم مواقع حيلهم وأشكالهم، الأولى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ

(١) في تفسيره (٢/ ٣٥٠).

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾، والأخرى قوله: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾.

قال ذو النون المصري: إن كان هو يراك من حيث لا يراه فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه، فإن كيد الشيطان كان ضعيفًا وبكرمه وفضله صرف الشيطان عن أوليائه وجعلهم أحباء أعدائه وحث الأولياء بعداوتهم جميعًا بقوله: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أضاف الكل إلى نفسه جعل ألفة الأولياء في قلوب المؤمنين وجعل ألفة الفساق في قلوب المفسدين فلا تضر عداوتهم أولياءه؛ لأنهم في عين رعاية الأزل من شرهم.

قال ابن عطاء: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾، ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ فالحقيقة منها ما أضاف إلى نفسه والمعارف ما أضاف إليهم، كذلك خطابه في جمع القرآن ولمّا انصرف القوم عن طريق العدل والإحسان ومتابعة الحق في طلب الغفران وتابعوا سلاك الضلال، أمر الله صفيه عليه ﷺ أن يظهر لهم ما يليق بحضرته تعالى من العدل والإخلاص والتوحيد والتوجه من كل شيء دونه بقوله: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ [1] القسط استواء السرِّ بنعت التجريد، والتقديس عن الحدث في رؤية القدم بحيث لا يكون في البين من حظ النفس شيء؛ لأن هناك حظ النفس وجد أن حلاوة برد المشاهدة وحظ الله هناك احتراق النفس في نيران التوحيد حين أبرز الحق للسرّ أنوار عزّة الأزل فيستوي بنعت الاستقامة على وصف صفات الأزلية.

ألا ترى كيف فتح أبواب الإحلال في كشف الجلال لأهل شهود الغيب ودعاهم إليها بنعت الانقطاع عن الالتفات إلى الحدثين بقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أي: حيث يبرز لكم أنوار القدرة وسنا المشاهدة ضعوا وجوهكم على تراب فناء العزّة على وصف رفع الأغيار من ساحة الأنوار عند التضرع والدعاء؛ فإن الدعاء شوق القلب إلى لقاء الرب بحيث لا يرى في البين غير الرب بإشارته، ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ صافين عن كدورة الحدث والنظر إلى الغير، فإذا تم هذه الصفات تم حقائق العبودية التي سماها الله

---

(١) القِسط العدل، ويقع ذلك في حق الله تعالى، وفي حق الخلْق، وفي حق نفسك؛ فالعدلُ في حقِّ الله الوقوفُ على حدِّ الأمر من غير تقصير في المأمور بِهِ أو إقدام على المنهيِّ عنه، ثم ألا تدخِّر عنه شيئاً مما خوَّلك، ثم لا تُؤثِرَ عليه شيئاً فيها أحلَّ لك، وأمَّا العدل معَ الخلْق - فعلى لسان العلم - بذلُ الإنصاف، وعلى موجِب الفتوة ترك الانتصاف. وأمَّا العدل في حق نَفْسِك فإدخال العتق عليها، وسدُّ أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال في كل نَفَس. تفسير القشيري (٢/ ٣٦٢).

الدين أي مثل هذه الطريقة له.

قال الجنيد: في هذه الآية أمر بحفظ السر وعلو الهمة وأن يرضى بالله عوضًا مما سواه.

وقال رويم: خلاص الدعاء أن ترفع رؤيتك عن أفعالك.

وقال حارث المحاسبي: وإخلاص الدعاء إخراج الخلق من معاملة الله.

وقال أبو عثمان: الإخلاص لسان رؤية الخلق لدوام النظر إلى الخالق.

وقال بعضهم: الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾: الإشارة منه إلى استدامة شهوده في كل حالة وألا ينساه لحظة في كل ما يأتيه فنذره ويقدمه ويؤخره.

ولمَّا أمر الكل بالعبودية الخاصة وخاطبهم بالوسائط بعد خروجهم من كتم العدم إلى ساحة الوجود على سمات القضاء والقدرة والشقاوة والسعادة والهداية والضلالة، فأحالهم على سابق المشيئة.

أي: ليس كل مَنْ أقبل إلى العبودية فهو من أهل الوصال، وليس كل مَنْ فرّ من مقام العبودية وأماته النفس في الطاعة إلى كدورة حظوظ البشرية فهو من أهل الفراق.

فإن الطاعة والمعصية خاصّان في البين، ومن كانت فطرته فطرة المقبولين يكون مقبولاً بأي صفة كان، ومَنْ كانت فطرته فطرة المطرودين يكون من المطرودين بأي صفة كان بقوله: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ بدأ الكل بسمتين سمة اللطف وسمة القهر، فمَنْ صحبة سمة لطفه لا يضره تصاريف التلوين، ومَنْ صحبة قهره لا ينفعه ظاهرة التمكين، فيكونان بعد خروجهما من محل الامتحان على نعت فطرة الأزل فريقًا في أنوار المعرفة وفريقًا في ظلمة الطبيعة.

قال النوري: يجري عليكم في الأبد ما قضينا عليكم في الأزل.

وقال الحسين: لا تغتروا بما أجرى عليه من الأعمال؛ لأن الأعمال قد توافق الخلقة وتخالف.

قال بعضهم: يعودون منه إليه أفقدهم لذّة الأشياء لوجوده، وأخلصهم بعلمه عن علم من سواه، وأعتقهم بإرادته عن إرادة الأغيار.

ولي هاهنا نكتة كما بدأكم بعضًا في رؤية الجمال وقعوا في المعرفة، وبعضًا في رؤية الجلال وقعوا في النكرة، أبواب عين نفس القدم، وهناك تقصير الأفهام عن الإدراك بقيت في ضلال النكرة، فريق بقي في نكرة النكرة أبدًا، وفريق بقي في معرفة المعرفة أبدًا، ولمَّا ذكر سبحانه إقامة الوجوه بنعت العبودية في مساجد الشهود أمرهم بأخذ زينتها في مواقف

المراقبات بقوله: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ زينة العبد لباس العبودية الذي طرازها التواضع، وسداه الاستقامة، ولحمته الإخلاص قطع ذيله من الحدثين، وقصر كمه من الأكوان، وجيبه خشوع وعطفه خضوع وصاحبه منور بنور المآب مشرف بحسن الثواب، فزينة التائبين الحُرقة والبكاء، وزينة الورعين التضرع والثناء، وزينة الزاهدين سمات نور السجود على وجوههم، وزينة العابدين سطوع نور الغيب من عيونهم، وزينة المحبين الوله والهيجان، وزينة المشتاقين الزفرة والهيمان، وزينة العاشقين الوجد والغليان، وزينة المستأنسين السكينة والوقار، وزينة العارفين الهيبة والإجلال، وزينة الموحدين الحيرة والفناء، دانيهم في العبودية وعاليهم في الربوبية، مَنْ أتى بالعبودية فلباسه لباس الأفعال، ومَنْ أتى بالربوبية فلباسه لباس الصفات، ومَنْ أتى بنعت القناعة مقبلاً إلى قبلته القدم، فلباسه لباس الذات فشتان بين الأحوال، وشتان بين اللباس، وشتان بين العباد

تَزَيَّنَ النَّاسُ يومَ العيدِ للعيدِ ... وقدْ لبستُ ثيابَ الزرقِ والسودِ

أصبحتُ في تَرحٍ والناسُ في فَرحٍ ... شَتَّانَ بيني وبينَ الناسِ فِي العيدِ

قال الواسطي: ﴿يَابَنِي ءَادَمَ﴾ تغيّر كأنه يقول: يا بني النقص والعيب، يرد ذلك عليهم حتى لا ينظروا إلى أنفسهم، ولا يلتفتوا إليها.

وقال الأستاذ: على موجب الإشارة زينة العبد بحضور الحضرة ولزوم السدة والاستدامة لشهود الحقيقة.

ويقال: زينة نفوس العابدين آثار السجود، وزينة قلوب العارفين أنوار الوجود، فالعابد على الباب بنعت العبودية، والعارف على البساط بحكم الحرمة، فشتان بين عبدٍ وبين عبدٍ.

وقال: زينة النفوس مدار الخدمة، وزينة القلوب حفظ الحرمة، وزينة الأرواح الإطراق بالحضرة باستدامة الهيبة والحشمة.

ويقال: زينة اللسان الذكر، وزينة القلب الفكر.

ويقال: زينة الظاهر السجود، وزينة الباطن الشهود.

ويقال: زينة النفوس حسن المعاملة من حيث المجاهدات، وزينة القلوب دوام المواصلات من حيث المشاهدات، وأذكر هذه الزينة التي هي آثار قربة على أهل محبته الذين يلبسون لباس أهل البسط والأنس والانبساط من لبن الحب الذي لا يليق إلا بعشاق الله وعرائس بساط الله، ويأكل أكل الحنانيين من أطيب المباحات في مقام الرفاهية غير بعد ذلك أهل إنكارهم الذين ينكرون أولياء الله بلبس الفاخرات، وأكل الطيبات في مقام المشاهدات

التي هي أعياد العارفين والموحدين بقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾(١) الخطاب يحتلم الغضب على الأعداء والتفضل على الأولياء مَنْ اجترئ أن ينكر على أحبائي الذين هم ملوك حظائر قدسي وعرائس مجالس أنسي باكتسائهم بزينة العاشقين، ويتناولهم من طعام المستأنسين، وأعلم أنها خارجة عن كسب الخلق حيث أضاف إخراجها إلى نفسه، بقوله: ﴿زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾ أي: هي زينة أخرجها لقاصديه وعاشقيه، أخرجها مَنْ تكلف الخلق حين أخص نفسه بإخراجها لهم، وهي التي ما جرت عليها حيل الخلائق بقدسه عن غبار العلائق حلالاً على أهل الحق، حيث لا يدخل فيها خيانة الخائنين، ولا كسب البطالين مباحًا لأهل الأنس بحيث جاءت من عنده بلا علّة ولا كلفة، يأكلونها بالتوكل ويلبسونها بالرضا والمحبة على عادية على الأعداء باقية على الأولياء بقوله: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. وأيضًا: في الحقيقة نور جماله وجلاله الذي ظهر من بشرة العارفين والطيبات من الرزق، هي موائد الأنس على خوان القدس، وإثمار التجلي من أشجار التدلي.

قال بعضهم: الزينة التي أخرج الله لعباده هي المباحات في البوادي، والكسب الحلال في الحضر، والطيبات من الرزق هي الغنائم.

وقال أبو عمرو الدمشقي: مَنْ حرَّم التزين بها يبدو على الأولياء من المعونات والكرامات التي أخرجها لعباده المخلصين والطيبات من الرزق كسر الفقراء الذين يأخذونها عن ضرورة وفاقة.

وقال الأستاذ: الطيبات من الرزق أرزاق النفوس بحكم أفضاله سبحانه، وأرزاق القلوب بموجب إقباله تعالى.

ويقال: أرزاق المعبدين إلهام ذكر الله، وأرزاق العارفين الإكرام بنسيان ما سوي الله.

ولما ذكر تفضله تعالى على الموقنين العارفين بأن رزقهم من مدخور ما عنده في خزائن جوده من الزينة والطيبات التي قويت بها أبدان الصديقين، وحرمت عن لذتها أجساد المفلسين الذين يتركونها رياءً وسمعةً وتزهدًا وتقشفًا وسالوسًا وناموسًا، ويقولون إنها محرمة على أولياء الله جهلاً بالشريعة وإنكارًا على أهل الحقيقة، بيّن أن ما حرم الله ليس هي إنما حرَّم سمعة الظاهر ورياء الباطن وأمر نبيه ﷺ بجواب الراجعين عن طريق الحق بقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا

---

(١) عطف على زينة الله أي من حرم أيضًا المستلذات من المآكل والمشارب كاللحوم والدسوم والألبان، تفسير حقي (٤/ ١٣٦).

حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1] فحش الظاهر مباشرة ما يشغله عن العبادة الخالصة، وما بطن ما يجري على القلب من الوسواس الذي يكون حجابًا بينه وبين مشاهدة الحق، وأيضًا ما ظهر منها من الفواحش، هو ما يجرى في صورة الفعل بالمعصية، وما بطن فيها ما يبقى في النفس من حلاوة مباشرتها، وزاد ذكر ما أنكره تعالى بقوله: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ﴾ الاسم ظاهرًا الإنكار على الأولياء، والبغي الحسد في الباطن عليهم.

﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: امتنع بجلاله وعلو كبريائه في القدم من أن يكون معه في الألوهية ضد الشرك رؤية الغير في البين، ثم ألقى الرغام على أنوف المدعين الذين يدعون علوم اللّدنيات بقوله: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال سهل: أن يكلم عن الله بغير إذن على غير سبيل الحرمة وحفظ الأدب، فقد هتك ستره وغدا طوره، وقد حذر الله تعالى أن يقول أحد عليه ما لا يعلم ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

قال أبو عثمان في قوله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾: ما تريد لغير الله من الطاعات.

وقال بعضهم: ما ظهر من الفواحش هو الكذب والغيبة والبهتان، وما بطن الغل والغش والحقد والحسد.

وقال الأستاذ: ما ظهر منها الذلّة، وما بطن الغفلة.

ويقال: فاحشة الأحباب الصبر عن المحبوب.

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ

---

(١) مَا أحدٌ أغيرَ مِنَ الله، ولذلكَ حرَّم الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنهَا وما بَطَنَ، وما أحدٌ أحبَّ إليهِ المدحُ من الله، ولذلكَ مدَحَ نفسَهُ، وما أَحَدٌ أحبَّ إليهِ العذرُ مِنَ الله تعالى، ولذلِكَ أرسَلَ الرّسلِ وأنزَلَ الكُتبَ». البحر المديد (٢/ ٢٠).

بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُواْ نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ﴾ أي: مَنْ تقدس عن ما دون الله في رؤية إجلال الله وعظمته، وأصلح ما بينه وبين الله من أنفاس بنفسها في غير الشوق إلى الله، وغير ملاحظة جماله وجلاله؛ لأن كل نفس يخرج من العبد بغير هذه الأوصاف فاسد وإصلاحه على العبد واجب بالمراقبة والرعاية والمحافظة عن جميع الخواطر، ومَنْ كان بهذه الصفة لم يبق عليه من جنايات النفس شيء فلا خوف عليه من فوت المقامات، ولا له حزن من احتجابه عن المشاهدات بقوله سبحانه: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

قال بعضهم: مَنْ اتقى في ظاهرة عن تناول الشبهات، وأصلح باطنه بدوام مراقبة الله تعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ في الدنيا ولا حزن عليهم في الآخرة، ثم إن الله سبحانه وصف هؤلاء المقدسين بقدس خواطرهم من علل الإنسانية وغل الشيطانية، ووصفهم بصدق الآخرة، وجلوسهم على أسرار العناية في الحضرة بنعت الألفة والزلفة في مشاهدته، حيث

رفع الله الحجب وسقاهم من تسنيم شراب الوصال في كشوف الجمال بقوله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾.

أثبت سبحانه وبيّن أن صدروًا أهل الولاية، وأهل بساط القرب مع إنها مكان نور الإسلام واليقين فائضًا فيها أماكن علل الإنسانية من الغلّ والغشّ، ولا يخرج الأولياء من هذه العلل، وعن حد البشرية حتى لا يظن ظانّ أنهم خلقوا مقدسين، وإذا كان كما توهموا فأين محل الامتنان عليهم بإضافة تقديس صدورهم بتفضله، ونزعه عن أسرارهم كل خاطر لا يليق بحضرته وتصديق ذلك قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب -كرم الله وجهه- قال: «فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] »[١].

وأيضًا: يحتمل أن هذا النزع إشارة إلى أن قلوبهم خُلقت مقدسة عن هذه الشوائب؛ لأنها محل نظر الله، وفي هذه العلّة تجري على صدورهم الخارجة عن القلوب؛ لأنها موضع وسوسة الشيطان بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي يُوَسۡوِسُ فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس:٥] والعلّة إذا لم تدخل القلب فهي طارئة لا يثبت أثرها، فعلّة الأولياء في الصدور، وعلّة العموم في القلوب.

قيل: هو التحاسد والتباغض والتدابر الذي نهى رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم- عنها.

وقال بعضهم: مَنْ تحظّى بساط القرب سقط عنه رعونات النفس وحظوظ الشيطان، قال الله: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ وعندي والله أعلم ألا يبلغ أحد إلى درجة الولاية.

وقيل: ذلك قدّس الله صدره عن جميع العلّة وتصديق ذلك قول النبي ﷺ حيث وصفهم بسلامة صدورهم والنصيحة للأمة، وذلك حين وصفهم عند أصحابه بسني الدرجات ورفيع الكرامات، فقيل: يا رسول الله، بم نالوا؟ قال: «بسلامة صدورهم والنصيحة للأمة»[٢].

ثم أثنى الله عليهم عقب الآية بأنهم عرفوا فضل الله عليهم في قديم إحسانه ولطيف إنعامه الذي لا تدخل فيه علّة الاكتساب، ولا رحمة الاجتهاد بقوله حكاية عنهم حين تجدون

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٢/ ٤٥٠).

(٢) رواه البيهقي في الشعب (٧/ ٤٣٠).

المُنعم مفضلاً عليهم بكشف النقاب ورفع الحجاب: ﴿وَقَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ أي: هدانا بنفسه إلى نفسه بسبق عنايته لنا في أزلة.

قيل: فيه دلّنا على توحيده، وجعلنا في سابق علمه من خواص عباده، واختار لنا أعز الأديان، ولو وكلنا إلى اختيارنا لضللنا في أول لحظة.

وقال بعضهم في هذه الآية: رؤية الهيبة توقع قبضًا في الأحوال وربما تورث بسطًا والعبد متردد فيما بينهما من قبض وبسط، وحال البسط أورث قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾.

وقال ابن عطاء: لمّا نظروا إلى هداية الحق إياهم نسوا أفعالهم وطاعاتهم وعرفوا المنّة عليهم فقاموا مقام الشكر.

﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ﴾ إن لله عبادًا في الدنيا قلوبهم تطير في الملكوت، وأرواحهم تطير في أنوار الجبروت، وعقولهم تستشرق على الأسرار، وأسرارهم تطلع على الأنوار، فيرون بنور الله بالله من العرش إلى الثرى، ويعرفون جميع الخلائق بسمات البعد والقرب التي تظهر من وجوههم، وهي منقوش خاتم السعادة والشقاوة الذي لا يقرأه إلا عارف رباني، ولهذا أشار ﷺ بقوله: «اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»[١].

وهـؤلاء عـلى أعراف ذروة شرفات الحضرة يوم القيامة، مطلعون على أحوال الدارين

---

(١) رواه الترمذي (٥/ ٢٩٨).

ينظر إليهم أهل الجحيم فيحتملون برؤيتهم أثقال العذاب، وينظر إليهم أهل الجنة فيستزيدون من وجوههم سرور العيش، وهم يشفعون على كل مقصر، وينعمون على كل متوفر والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ السلام منهم عليهم زيادة قربه أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ يعني أهل الأعراف من أعظم شأنهم عند الله في حضرته وقفوا شفاعة الخلق، وهم يطمعون أن يدخلوا الجنة، ويعيشون مع عوام الجنة كالملوك يجلسون مع أهل الدناءة، لتطييب قلوبهم، والفرح بملكهم.

روى أبو الحسن الفارسي عن سهل بن عبد الله يقول: أهل المعرفة هم أصحاب الأعراف قال الله: ﴿يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ﴾[1] أقاموهم لإشرافهم على الدارين وأهلها، يعرفهم الملكين كما أشرفهم على أسرار العباد في الدنيا وأحوالهم.

ويقال: عرفوهم غدًا بسيماهم التي وجدوهم عليها في دنياهم، فأقوم موسومين بأنوار القرب وآخرون موسومون بآثار الرد والحجب.

وقال الأستاذ: هؤلاء أصحاب الأشراف خصوا بأنوار البصائر اليوم، وأشرفوا على مقادير الخلق بأسرارهم، وأشرفوا غدًا على مقامات الكل وطبقات الجميع بأبصارهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ إن من لطف الله وكرمه على خلقه أن رفع الحجاب من الجنة لأهل النار حتى يحتملوا آلام العذاب برؤية الجنان وأهلها، وهذا من ألطافه الخفية.

ألا ترى إلى عاشق ينظر إلى وجه معشوقه، وهو في وسط الثلج والزمهر فلا يجد آلامه لما وجد من حلاوة مشاهدة معشوقه، اذكر شأن صويحبات يوسف عليه السلام كيف قطعن أيديهن في مشاهدة يوسف عليه السلام، وما شعرن في مشاهدته آلام القطع سمعت أن بعضًا من المشايخ مضي إلى مسجده بقرب داره بين المغرب والعشاء، وكان ينزل الثلج فرأى شابًا تحت منظر يتكلم مع معشوقه على المنظر، وهما غائبان في حديثهما عن رؤية الشيخ حتى صلى ورجع، فلما حان وقت الصبح ومضى إلى قربهما فرآهما واقفين بين الثلج، والثلج بلغ إلى وسطهما ومع شيخ سراج، فقالت المعشوقة لعاشقها: مر يا حبيبي، فإن الشيخ يمضي إلى صلاة العتمة

---

(١) يعنى أصحاب الأعراف يعرفون أهل الجنة والنار بما يتوسمون في سيماهم من آثار نور القلب وظلمته وسيمت الأعراف أعرافًا لأنها مواطن أهل المعرفة، وإنما سمى الله أهل المعرفة رجالا لأنهم بالرجولية يتصرفون فيها سوى الله تصرف الرجال في النساء ولا يتصرف فيهم شيء منه، تفسير حقي (٤/ ١٥٥).

وأنشد في هذا المعنى:

شهورٌ يَنْقَضِين ومَا شَعَرْنَا   بأنْصَافٍ لهنْ ولا سِرَارِي

فصاح الشيخ صيحة وخرّ مغشيًا عليه، ثم قام بعد ذلك وتأوه ومزق قميصه، وقال: واويلاه أن آدميين لم يعلما في عشقهما ومشاهدتهما العتمة من الصباح، ولم يشعر آلام الثلج في البرد، وأنا أدعي حب خالق الخلق، وأكون بهذه الصفة غافلاً، أنشد الحلاج في بلائه حين رؤية مبليه.

وحرمه الود الذي لم يكن   يطمع في إفساده الدهر

ما نالني عند نزول البلاء   بؤس ولا مسني الضر

وقولهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ لأن الماء ضد النار، أي: يا أهل القدرة في الحضرة أفيضوا علينا من مياه الشفقة، وما رزقكم الله من مقام الشفاعة.

قال بعضهم: ﴿أَفِيضُواْ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ أي: ماء الرحمة أو ممّا رزقكم الله من القربة.

وقال الأستاذ: لا يسقيهم قطرة مع استغنائه عن تعذيبهم وقدرته على أن يعطيهم ما يريدون، ولكن قهر الربوبية وعزّ الأحدية وأنه فعّال لما يريد لم يرزقهم اليوم من عرفانه ذرة لا يستقيم غدًا في تلك الأحوال قطرة، في معناه أنشدوا:

وأقسمن لا يسقينا أمر شربه   ولو زخرت من أرضهن بحور

وقال: إنما يطلبون الماء ليبكوا به لأنه نفذت دموعهم كما قال لهم:

يا نازحًا نزحت دمعي قطيعته   هب لي من الدمع ما أبكي عليك به

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

ذكر سبحانه امتنانه على المؤمنين بما خاطبهم بمجموع كلامه القديم الذي أبنا ما عنده لهم من مذخور السعادات، وسني الكرامات، وعظيم الدرجات، ودعاهم به إلى أعمال ذكية، وأحوال شريفة، ومقامات عزيزة، وعرّفهم به بأسمائه ونعوته وصفاته وذاته تعالى وأفعاله في انتظام صنائعه، وإعلام قدرته وبدّلهم به إلى المعرفة كل صفة من صفاته القديمة التي معرفتها معرفة ذاته تعالى، عرّف نفسه به للعارفين، وفتح بمفاتيحه كنوز غيبه للروحنيين، وكشف قناع الجهل بأنواره عن قلوب الغافلين والعالمين، وجذب بلطائفه قلوب المحبين والمشتاقين والعاشقين إلى مشاهدته ووصاله، ورتّب فيه مقامات العبودية ومعارف الربوبية، وذلك صدر منه بسابق علمه وقديم حكمه، ويهدي به إلى نفسه قلوب المؤمنين به، وذلك منه رحمة كافية للعموم والخصوص، وكان رحمته سبقت في الأزل لَمنْ خاطبه سبحانه بنعمة هدايته به إليه، وأي نعمة أعظم من إنزاله كلامه إلينا الذي يعتقنا من رق النفوسية، ويخلصنا من شهوات الشيطانية، ويهدينا بنور إلى أنوار الربانية، والحمد لله الذي أمنن علينا بفواتح أنعامه ولطائف إكرامه واصطفانا بخطابه، وجعل استماعنا محل استماع كلامه وقلوبنا أوطان بيانه وأسرارنا أوعية أنوار سلطانه وأرواحنا خزائن عرفانه، وعقولنا مشاهد برهانه وأبداننا مساقط شرائعه من قرآنه.

قال بعضهم: أنزل الله كتابًا فيه هدى من الضلالة، ورحمة من العذاب، وفرقانًا بين العدو والولي، لا يعلم معانيها إلا المؤمنين بمتشابهه والعاملون بأحكامه والتالون به أناء الليل والنهار فيه الفلاح لَمنْ طلب الفلاح، والنجاة لَمنْ رام النجاة، لا يهلك عليه إلا هالك ولا ينجو به إلا ناجي، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم﴾[1] ولمّا عرّف نفسه بخطابه للعارفين، عرّف نفسه أيضًا لهم بأفعاله النورية، وبرهانه القدرتية، وآياته الصفاتية، وأعلامه الذاتية، بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾.

فقد نبّه عن عين الأُلوهية صريحًا حين قال: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ﴾ خاطبهم بالتربية؛ لجذب قلوبهم بالمحبة ثم أشار إليهم بالأُلوهية لفناء الحدث في القدم ثم صرفهم من المحو إلى الصمود، ومن الحضور إلى الغيبة، بقوله الذي أشارة ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ عبارة الأولى للبسط، والثاني للقبض، ثم صرفهم من الصفات إلى الأفعال كما صرفهم من الذات إلى الصفات كي

---

(١) أي: بيَّنا معانيه من العقائد والأحكام والمواعظ، مفصلةً (على علم) أي: عالمين بوجه تفصيله حتى جاء في غاية الإتقان. البحر المديد (٢/ ٢٥٤).

لا تحرقوا في نور الألوهية، الأول خطاب القلب، والثاني خطاب الروح، والثالث خطاب العقل الأول وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ﴾ قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿ٱلَّذِى﴾ ثم أنزلهم من الشهود إلى الشواهد، وخاطبهم على قدر عقولهم حيث أحالهم من القدم إلى الحدث لعلمه لضعفهم عن حمل بوادي طارقات سطوات الوحدانية، قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ جعل الآيات مرآة الصفات لأهل المشاهدات خلقها في ستة أيام، أيام الله قضاء الله وقدره، احضرها بأيام مخصوصة وهي الستة، وكل يوم من أيامه ظهور صفة من صفاته، من مطلع القدم طلعت للعدم لكون الحدث، وهذه الأيام الستة ظهور ست صفات من صفاته، أولها العلم، والثاني القدرة، والثالث السمع، والرابع البصر، والخامس الكلام، والسادس الإرادة، كَمُلَت الأشياء بظهور أنوار الصفات الستة، ولما أتمّها صارت الحدثان كجسد آدم بلا روح من صفاته السابعة، وهي حياته القديمة الأزلية الباقية المنزّهة عن همهمة الأنفاس، والمشابهة والقياس، فقامت الأشياء بصفاته القائمة بذاته، ويكون الأبد لحياتها بروح حياته المقدسة عن الاتصال والانفصال، وفي أدق الإشارة السماوات الرواح، والأرض الأشباح، والعرش القلوب.

بدأ بكشف الصفات للأرواح، وبدأ بكشف الأفعال الأشباح، ثم بدأ بكشف الذات للقلوب؛ لأن مناظر القلوب محل الغيوب، والغيوب من القلوب محل تجلّي استواء القدم استويَّ قهر القدم بنعت الظهور للعدم، ثم استويَّ تجلّي الصفات على الأفعال، واستويَّ تجلّي الذات على الصفات، فاستويَّ بنفسه لنفسه على نفسه المنزّهة عن المباشرة بالحدثان والاتصال والانفصال عن الأكوان وبالأكوان، الاستواء صفة ذاتية خارجة عن مطالعة الخليفة خصَّ السماوات والأرض بتجلّي الصفات، وخصَّ العرش بتجلّي الذات السموات والأرض، جسّد العالم والعرش قلب العالم والكرسي دماغ العالم، خصَّ الجميع بالأفعال والصفات، وخصَّ العرش بظهور الذات لأنه قلب الكل، وهو غيب الرحمن وعلمه وحكمته، رأيته في المكاشفة أنوار شعشعانية بلا جسم ولا مكان ولا صورة يتلألأ، فسألت عن ذلك، فقيل لي: هذا عالم يسمى عرشًا.

قيل في التفسير: عرشه علمه، كقول ابن عباس في تفسير قوله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، أي: وسع علمه، ثم رجع إلى ذكر الأفعال لبقاء الأرواح والأشباح بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ بدأ بذكر الليل لأنه ستر الأولياء، وحجال الأصفياء، وملجأ النقباء، وخيام عرائس أهل المناجاة بلبس القبض البسط؛ لأنها ضدان ويقبض ويبسط الليل قبض العارفين، والنهار بسط المشاهدين

يكون أحدهما طالب الأخر لأن وصفه الحضور والغيبة من خفاء التجلّي، وبدأ به الليل النفس، والنهار القلب، والشمس الروح، والقمر العقل، والنجوم المعلوم مسخرات في أسماء الملكوت، وهو الجبروت بأمره بقدرته الكاملة وعزّته الشاملة ومحبته القديمة التي تؤلف أرواح القدسية إلى مشاهد الأزلية، ثم أن الله سبحانه أضاف الكل إلى أمر مشيئته ونفاذ قدرته وأخرج الجميع من تكلف الحدثان وعلمه الأكوان بقوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ الخلق فعله، والأمر صفته الخلق في الأشباح، والأمر في الأرواح بنور الخلق سبب العقول وحيرها من أدرك كنه الآيات، ويتجلّى الأمر جذب القلوب إلى عالم الصفات وعشقها بجمال الذات، ثم أثنى على نفسه حيث تقتصر الإفهام عن وصف صفاته، وتقصر الألسن عن البلوغ إلى مدح ذاته بقوله: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ أي: تقدس عن كل ما يجري على خواطر خلقه رب العالمين رب الجميع بظهور صفته في خلقه، ورب العارفين بظهور ذاته في صفته.

قال الأستاذ: في هذه الآية تعرف إلى الخلق بآياته الظاهرة الدالة على قدرته وهي أفعاله وتعرف إلى الخواص منهم بآياته الدالة على نصرته التي هي أفضاله وإقباله، وظهر لأسرار خواص الخاص بنعوته الذاتية التي هي جماله وجلاله، فشتان بين قوم وبين قوم.

قال الواسطي في قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾: والأمر إذا كان له فمنه وبه وإليه؛ لأن الأمر صفة الأمر، ولما عرفهم إعلام الربوبية أمرهم بخالص العبودية، وأدبهم فيها بأحسن التأديب بقولها: ﴿ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ فإذا عرفتم نعوت الكبرياء وجلال العظمة وعزّ القدم والبقاء، كونوا في رؤية هذه الصفات عند احتياجكم إلينا بنعت الفناء بحيث لا طلع على أسراركم نفوسكم، فإن دعوة المضطر تقع على سامع الغيوب حين هاجت بوصف اللطف من لسان القلوب، وأن أصفى الوقت في التضرع ودعوة الخفية وذكر الخفي الذي وصفه ﷺ بالخيرية، حيث قال: «خير الذكر الخفي»[1].

وقال أبو عثمان: التضرع في الدعاء أن لا تقدم إليه أفعالك وصلواتك وصيامك وقراءاتك، ثم تدعو على أثره إنما التضرع أن تقدم افتقارك وعجزك وضرورتك وفاقتك وقلّة حيلتك ثم تدعو بلا علّة ولا سبب فترفع دعاءك.

وقال الواسطي: تضرعًا بذل العبودية وخلع الاستطالة خفية، أي: أخف ذكرى صيانة عن غيري، ألا تراه بقول: «خير الذكر الخفي»[2].

---

(١) رواه ابن حبان (٣/ ٩١).

(٢) تقدم في سابقه.

وأفهم أن الدعاء مقامات، فبعضهم يدعوه بلسان الظاهر، وبعضهم يدعوه بلسان الباطن، وبعضهم يدعوه بإشارة العقل، وبعضهم يدعوه بإشارة القلب، وبعضهم يدعوه بإشارة الروح، وبعضهم يدعوه بإشارة السر، نعت أهل الظاهر التضرع، ونعت أهل الباطن الافتقار والتخشع، ونعت أهل العقل الفكر، ونعت أهل القلب الذكر، ونعت أهل الروح الشوق، ونعت أهل السرِّ الفناء، يدعونه بالإذن ولا يكون الإذن في الدعاء إلا في مقامين مقام القبض ومقام البسط، الدعاء في مقام القبض بنعت العبودية، والدعاء في مقام البسط الحكم والانبساط من إدراك مباشرة صولة الربوبية، ولا بدّ للعارفين من هذين المقامين، والدعاء على أحوال شيء، دعاء أهل البلاء لكشف الهموم، ودعاء أهل النعمة لكشف الوجود، ودعاء المحبين لتسلّي القلوب، ودعاء المشتاقين للبلوغ إلى الوصول، ودعاء العاشقين لنيل المأمول، ودعاء العارفين لوجدان البقاء، ودعاء الموحدين لمحوهم في الفناء، وفيه أنس المستأنسين وتضرع العارفين وبهاء المحبين وزيادة قرة عيون الموحدين، ما أطيب ألحانهم في السجود لكشف مشاهدة الموجود، وما أحلى روح طيب مناجاتهم بالعبرات وحركات ضمائرهم بالزفرات.

قال الأستاذ: ما أخلص عبد في دعائه إلا روح الله سبحانه في الوقت قلبه، ثم حذرهم عن الرجوع من الأعلى إلى الأدنى، ومن متابعة الحق إلى متابعة النفس من تخريب أرض القلب بمسحاة الهوى بعد إصلاحها بصفاء المراقبة والحضور والمشاهدة بقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

قال الأستاذ: إهمال النفس عن المجاهدات والرجوع إلى الحظوظ بعد القيام بالحقوق، فساد الأرض بعد إصلاحها فيه، ثم زاد سبحانه في آداب الدعاء وقرن بالتواضع والإخلاص فيه مقام الخوف والرجاء بقوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: أدعوه بوصف الإجلال في رؤية جلاله، وبنعت البسط في رؤية جماله فإن حقيقة الدعاء في الشهود الرجل في العبودية لمعرفة الربوبية، والسرور من رجاء الوصول إلى المقصود.

وأيضًا: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا﴾ من إطلاعه على جريان كل مأمول سواه في القلب، أي خافوا من طيران ذكر الحدث في رؤية القدم، ﴿وَطَمَعًا﴾ معناه الطمع في مقام من قربه أشرف من مقام الدعاء؛ لأن الدعاء وسيلة؛ فإذا حصل الوصول انقطع الوسيلة، وأيضًا خوفًا من رد الدعاء، وطمعًا في استجابة الدعاء، وبيّن تعالى أن مَنْ كان هذا وصفه يكون من المحسنين

الذين يقربون منه بقوله: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

قيل في قوله: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي: خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه.

وقيل: خوفًا من بعده وطمعًا في قربه.

وقيل: خوفًا من أعراضه وطمعًا في إقباله.

وقيل: خوفًا منه وطمعًا فيه.

قيل: المحسن مَنْ كان حاضر بقلبه غير لاهٍ عن ربه ولا ناس لحقه.

ثم وصف الله نفسه بإنشاء مبشرات قربه من بطنان غيبة لوصول النسائم ورد مشاهدته إلى مشام أرواح عاشقيه، وأفئدة مشتاقيه، وأسرار وصليه، وقلوب محبيه، والباب مريديه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ﴾ يُرسل نسيم وصاله في أسحار أصباح طلوع جلاله إلى مشام المستأنسين بشهوده في سجودهم لزيادة عطش شوقهم إلى وابل بحر مشاهدته من سحائب قربته وزلفته قدام ظهور سحاب صفاته التي تتجلّى من بحر ذاته للأرواح العاشقة، وتسقيها من بروق الوداد ما لا يستقر بشربها الأرواح في الأكوان والحدثان، بل تطير في فضاء البقاء وهواء القدم بأجنحة الآزال والآباد أظهر بلطفه ومحبته رياح تجلّي الصفات قبل ظهور تجلّي الذات؛ لإعلام قوانيط القبض ببروز

(١) مصدران في موقع الحال أي خائفين من الرد لقصور أعمالكم وعدم استحقاقكم وطامعين في إجابته تفضلا وإحسانا لفرط رحمته. تفسير حقي (٤/ ١٦٩).

سحاب تجلي الذات لأحياء بلادة قلوبهم الميتة بجذب كشف القدم بقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابًا ثِقَالًا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ لا يستقل حمل أثقال تجلّي الذات إلا رياح تجلّي الصفات، ولا يقدر سوق أنوار القدم إلا القدم، ولا يقدر سقي زلال بحر الآزال إلى عطاش شراب الحيرة إلا الأزل، ولا يقدر أن يخرج من بلاد القلوب ثمار أشجار الغيوب إلا علام الغيوب بقوله: ﴿فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ثمرات المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات.

أَلَا يَا صَبَا نَجدٍ متَى هِجتَ مِنْ نَجْدٍ ... لقَدْ زَادنِي مَسرَاكَ وَجدًا علَىَ وَجدِ

قال بعضهم: كل ريح تنسم نوعًا من الرحمة؛ فريح التوبة تنشر على القلب رحمة المحبة، وريح الخوف تنشر رحمة الهيبة، وريح الرجاء تنشر رحمته الأنس، وريح القرب تنشر برحمته الشوق، وريح الشوق تنشر نيران القلق والوله، قال الله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦ﴾.

قال الأستاذ: تباشر التقرب بتقديم فينادي نسيمه إلى مشام الأسرار.

قال قائلهم:

ولَقَدْ تَنسمتُ الرياحَ لحاجَتِي ... فإذَا لَهَا مِنْ رَاحتيكِ نَسيمُ

وقال الأستاذ في قوله حتى إذا قُلت: ﴿سَحَابًا ثِقَالًا﴾ الإشارة تحصل لمهجور تمادى به الصد وبرح به الوجد وأنحل جسمه، بل أبطل كله البعد فيأتيه بشير القرب فيعود عودًا ووصله بعد الذبول طريًا وبصيرًا وأرس حاله عقب السقوط قويًا كما قال قائلهم:

كنَّا كَمَنْ أُلبِسَ أكفَانَهُ ... وَقُرب النَّعش مِنَ الملحدِ

فحالَ ماءُ الروحِ فِي جسمِهِ ... فَردَّهُ الأصلُ إلىَ المولِدِ

تبارك الله سبحانه ماكرهم هو بالسرمد، وذكر سبحانه القلب الذي هو بلد الله الذي مطر عليه من بحر امتنانه، ويخرج منه نبات ألوان الحالات والمقامات، ويذكر ما هو بخلافه الذي فيه سجة الشهوات وشوك حظوظ البشريات بقوله: ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ إلا يا أخي أرض القلوب تُنبِتَ أزهار المواجيد ورياحين المواريد بقدر كشوف أنوار الصفات والذات، فكل قلب بذرة المحبة فنباته المشاهدة، وكل قلب بذرة الشوق فنباته الأنس والوصال، وكل قلب بذرة العشق ونباته كشوف الجلال والجمال، وكل قلب بذرة الهوى فنباته الشهوات؛ فالقلب المنور يظهر على الجوارح آثار المحبة وهي الموافقة، وكل قلب مظلم يظهر بالظاهر آثاره وهي المخالفة.

ثـم أشـار تعـالى إلى تـبديل الأخلاق ونشر الأفضال وثبوت المقامات وطيران الأحوال بـالإرادة السـابقة والمشيئة الأزلية المنزّهة عن التغاير في التدبير، بل هو موصوف بأصل التقدير بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ﴾ لقوم يعرفون المشكور قبل وجود الآلاء والنعماء، يجدونه شاكر أنعامه بنفسه فيخجلون عن شكره بعرفانهم بعجزهم عن محل شكره.

قال أبو عثمان: أسعد الطيب مثل قلب المؤمن التقي يخرج نباته بإذن ربه يظهر على الجوارح أنوار الطاعات والزينة بالإخلاص والذي خبث قلب الكافر لا يظهر منه إلا النكد والشؤم والظلمات على الجوارح من إظهار المخالفات.

وقال الواسطي: البلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه أي بتوليه، والذي خبث لا يخرج إلا نكدًا حجب عن التجلّي والخطاب كذلك نصرف الآيات، كذلك تحرق الشمس طوائف من النبات وتنبتها وتغذي طوائف من النبات وتطيبها، وذلك على قدر جوهرها، كما أن بإرادة واحدة ظهرت المخالفات والموافقات.

قال بعضهم: البلد الطيب الذي طيبها بدوام الأمن وعدل السلطان.

ويقال: النسيم الساطع يدل إلى الجوهر اللازم، إن خبث الجوهر لم يطلب ما لم يحل منه وإن طاب العنصر، فالحر يحاكي أصله، والأسرة تدل على السريرة، فمَنْ صفا ساكن قلبه زكي ظاهر فعله، ومَنْ كان بالعكس فحاله بالصد.

وقال الأستاذ: وإذا زكى الأصل بهاء الفرع.

قال بعضهم: هو قلب المؤمن الذي طهره الله وطيبه طهر الله الروح بهاء القربة، وطيبه بطيب الكرامة، وطهر القلب بهاء العلم، وطيب السرَّ بنور المعرفة، وطهر اللسان بالصدق والذكر، وطهر الجوارح بهاء العظمة وطيبتها بنور التوفيق.

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ أعرّفكم طريق عرفان ربكم وأرشدكم إلى مشاهدة ربكم وتعطفه ولعلمه على عباده.

واعلم من الله من لطائف بره وجميل عطفه وكشوف صفاته وجمال ذاته وحلاوة مشاهدته، ولذيذ خطابه ما لا تعرفونها، ما وصل إليه يكون في ملك لا يبلى وسعادة لا تفنى، ومَنْ حرم من الوصول إليه يكون في بلاء وحجاب وضلال، لا ينقضي محبها أبدًا.

قال بعضهم: أنصح لكم أدلكم على طريق رشدكم، واعلم من الله ما لا تعلمون من سعة رحمته قبول التوبة لمَنْ رجع إليه بالإخلاص.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ۝٦٤ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ

غَيْرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾[1] أي: محجوبين عن مشاهدة الله ومبعدين عن ذوق محبة الله غير مبصرين ببصائر الأسرار أنوار صفات الله وذاته التي يظهر من كل ذرة سطوعها.

قال ابن عطاء: ضالين عن طريق الحق.

وقال بعضهم: متثاقلين في القيام إلى الطاعات.

وقال بعضهم: عُميت أبصارهم عن النظر إلى الكون برؤية الاعتبار ونظرهم نظر مراد وشهوة.

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةًۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَاۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَاۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًاۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ

---

(١) أصله عميين جمع عم، وأصله عمى على وزن خضر فأعل كإعلال قاض. قال أهل اللغة: يقال رجل عم في البصيرة وأعمى في البصر والمعنى عمين قلوبهم عن معرفة التوحيد والنبوة والمعاد غير مستبصرين وهذا العمى مانع عن رؤية الآيات ومشاهدة البينات. تفسير حقي (٤/ ١٧٩).

قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخۡرِجُوهُم مِّن قَرۡيَتِكُمۡۖ إِنَّهُمۡ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفۡتَرَيۡنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنۡ عُدۡنَا فِي مِلَّتِكُم بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡنَاۚ رَبَّنَا ٱفۡتَحۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيۡبٗا كَانُواْ هُمُ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰقَوۡمِ لَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحۡتُ لَكُمۡۖ فَكَيۡفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوۡمٖ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ

لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي: فاذكر نعم الله في اصطناعه في حسن تصويركم وإلباسكم جمال فعله حتى تكونوا في أحسن خلق وأظرف نعت وظهره لكم بأوضح الآيات وأنوار علاماته الدالة إلى وجوده لعلكم تفوزون من بعده، وتظفرون بقربه وأفهم أن رؤية النعمة يوجب الشكر، ورؤية الآلاء توجب الذكر، ورؤية المذكور والمُنعم توجب المحبة.

قال الواسطي: العامة تحبه على النعماء ذلك في قوله: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:١١]، والخاصة تحبه على الآلاء، وذلك في قوله: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والأكابر تحبه على الإيثار والربوبية، ولكل علامة فعلامة الأولى دوام الذكر له والفرج به، والثانية الاستئناس به لرؤية ما أبعده منه، والثالثة الاشتغال به أن كل قاطع يقطع عنه.

وقال ابن عطاء: إذا ذكرت آلائه ونعمائه أحببته، وإذا أحببته قصدته، وإذا قصدته وجدته، وإذا وجدته انقطعت إليه، ونقول عند المشايخ لو أن القوم من أهل خالصة محبته ما أحالهم إلى رؤية الآلاء بل خاطبهم برؤية الذات والصفات.

ألا ترى كيف خصَّ خواص المحبين بخطاب رؤيته وإصرافه إلى مشاهدته بقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الفرقان:٤٥] لأن محبة الآلائية والنعمائية محبة معلولة كونية، إذ كونها بسبب حدثي وخالص المحبة ما تصدر من مشاهدة جلاله وجماله، وكيف يصل إليه من كان سبب حاله ومعرفته ومحبته رؤية الآلاء والنعماء أوقعهم في بداية الذكر.

قال: فأذكر وأجعل لقاءهم منتهى وهو درجة النجاة من العذاب، ولو كانوا محققين ما خاطبهم بذكر غيره وصفه أفعاله.

وقوله: ﴿وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [1] أي: أنا بعد أن خرجت من حظوظ نفسي وخصني الله برسالة، وطهرني من شوائب الطبيعة، وعرفني طريق محبته وخدمته، وأعرفكم تلك الطريق المباركة شفقة ونصيحة وأنا أمين فيها؛ حيث لا سبيل للشيطان في نصيحتي بالتهمة

---

(١) قال سهل: ومن لم ينصح الله في نفسه ولم ينصحه في خلقه هلك ، ونصيحة الخلق أشد من النفس ، وأدنى نصيحة النفس الشكر ، وهو ألا يعصى الله تعالى بنعمه . وقال أيضًا: النصيحة ألا تدخل في شيء لا تملك صلاحه . تفسير التستري (١/ ١٦٢).

التي هي من صفات مَنْ يميل قلبه إلى غير الله.

قال أبو حفص: الناصح الأمين الذي لا يكون له في نصيحته حظ لنفسه ولا طلب جاهه وإنما يكون مراده منه قبول النصيحة والنجاة بها.

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ولو أنهم شاهدوا ملكوتي واتقوا سوى جبروتي لتفتح على أرض قلوبهم أنوار مشاهدة صفاتي وذاتي حتى يروني في ملكوت الأرض والسماء بصفة اللطف والجمال، وتنبت في صحاري قلوبهم رياحين الزلفة والقربة والشوق والعشق والمحبة واليقين والتجريد والمعرفة.

قيل: معناه لو أنهم صدقوا وعدي واتقوا مخالفتي؛ لنورت قلوبهم بمشاهدتي وهي بركة السماء، وزينت جوارحهم بخدمتي وهي بركة الأرض وقوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ لله بكل قوم مكر، فمكره بالعموم ممزوج بالقهر، وهو أن يعطيهم أسباب العبودية، ولم يوفقهم بها ويعطيهم لسان الشكر، ولا يعرفهم حقائق استدراجه بسلب النعمة عنهم وأخلاهم بلا نعمة ولا شكر، ومكره بالخصوص أن يلذّذ ما وجدوا منه في قلوبهم، ويحجبهم بتلك الحلاوة عن إدراك ما فوق مقاماتهم من مكاشفة الغيوب في القلوب، ومكره بالمحبين والعاشقين ظهور الصفات في الآيات وهو مقام الالتباس، ومكره بالعارفين والموحدين أن يريهم نفسه على قدر قوة المعرفة والتوحيد، ولا

يعرفهم مكان المكر هناك بأن يعملوا أن ما وجدوا منه عندما لم يجدوا منه كقطرة في بحار، وذلك من حلاوة مباشرة أنوار القدم والبقاء في أسرار أرواحهم وقلوبهم وعقولهم، ولو أطلعوا على حقائق مكره، حيث حجبهم به عنه لذابوا من الحياء تحت أنوار سلطان كبريائه وعظمته، ومكره بأهل الاتحاد أن يريهم جلاله وجماله في مرآة قلوبهم، فيرونه بحسن الأزل وجمال الأبد بنعت فنائهم فيه، فيبقيهم به من حد الفناء، فيرون أنفسهم كأنهم هو من حدة مباشرة الصفة بالفعل، فيتحجب عليهم ويبقيهم في حلاوة تأثير أنوار الصفات فيرون أنفسهم في محل الربوبية فيدعون هناك بالأنائية (كالحسين بن منصور) و(أبي يزيد) -قدس الله روحهما- فهناك أخفى المكر وألطف الاستدراج، ولولا فضله وكرامته عليهم لأبقاهم فيما هم فيه ولكن بلطفه الخفي وإنعامه الجلّي أخرجهم من ذلك، وأغرقهم في بحار عظمته حتى أقروا بأنهم ليسوا على شيء منه، وأنهم في أول درجة من عبوديته.

ألا ترى إلى قول أبي يزيد في آخر عمره حيث قال: ما ذكرتك إلا عن غفلة، ولا عبدتك إلا عن فترة.

وإلى قول حسين بن منصور في وقت قتله قال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، وهذا لطف الله نبينا ﷺ حيث حرسه من هذا المكر الخفي في مقام رؤية الأعلى وشهود قاب قوسين وأدنى بقوله: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[١]، ذوّقه طعم الربوبية وأوقفه في مقام العبودية، حتى افتخر بعبوديته بعد وجدان ربوبيته بقوله: «أنا العبد لا إله إلا الله»[٢]، وكل صنيع منه لطيف بأوليائه أن مكر بهم وأن لم يمكر بهم، ومَنْ نجا من مكره والكل في قبضة العزّة متحيرون، وكيف يأمن به منه مَنْ يعرفه بالربوبية ويعرف نفسه بالعبودية.

حُكِي أن رجلاً سأل الشبلي عن معنى مكر الله، فأنشد الشبلي بقوله:

أحـــبُّكَ لَا ببعـــضِي بَـــلْ بِكُـــلِّي ... وإنْ لَمْ يُـــبقِ حـــبُّكَ بِي حِـــرَاكَا

ويـــسمجُ مـــنْ سـِوَاكَ الـشيءُ عـــندِي ... فـــتفعلهُ فيحـــسنُ مِـــنْكَ ذَاكَـــا

فقال سائل: أسأل عن آيات من كتاب الله، وتجيبني ببيت شعر فعلم الشبلي إنه لم يفطن ما قال.

فقال: يا هذا مكره بهم تركه إياهم على ما هم فيه.

قال الحسين: لا يأمن من المكر إلا مَنْ هو غريق في المكر، فلا يرى المكر به مكرًا، وأما

---

(١) رواه مسلم (١/ ٣٥٨).

(٢) تقدم تخريجه.

أهل اليقظة فإنهم يخافون المكر في جميع الأحوال إذ السوابق جارية والعواقب خفية.

وقال أيضًا: مَنْ لا يرى الكل تلبيسًا كان المكر منه قريبًا.

قال أبو الخير الديلمي: كنت يومًا عند الجنيد فارتعدت فرائصه، وتغير لونه وبكى، وقال: ما أخوفني أن يأخذني الله، قال له بعض أصحابنا: نتكلم في درجات الراضين وأحوال المشتاقين، قال: يا بني إياك أن تأمن مكر الله، فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

قال سهل: المكر تدبير الله بسابق العلم فلا ينبغي لأحد أن يأمن مكره، وذلك أن مَنْ يأمن مكر الله بدفع القدرة، ولا يجوز أن يخرج نفسه من قدرة الله عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ كأن هذه الآية أُنزلت في شأننا مع هؤلاء البطالين الذين سلكوا الطريقة وأخطأوا بها وجدوا فيها من الجاه والمال، ونقضوا عهد الإرادة واشتغلوا بالرياسة وخانوا في الطريقة وأنكروا على المشايخ، أعمى الله قلوبهم ما أشد إنكارهم على أهل الحق وما أشد خروجهم عن طريق الحق، جمعهم الله في الاستدراج وطردتهم عن أنوار المنهاج كأنه تعالى عاتب الجهور حيث لم يفوا عهد الأزل، حيث وقف الكل على ما وجدوا، وهكذا شأن ما ألتفت في مشاهدة المحبوب إلى غير المحبوب، ولكن هم معذورون لأن الحدثان لا يستثقل أثقال محامل الكبرياء ومطايا القدم، والبقاء في أودية الفناء.

قال الجنيد: أحسن العباد حالاً مَنْ وقف مع الله على حفظ الحدود، والوفاء بالعهود. وقال الله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾[1].

قال الأستاذ: نجم في العذر طارقهم، وأقل من سماء الوفاء شارقهم فعدم أكثرهم رعاية العهد وحق لهم من الحق قسمة الرد والصد.

ويقال: شكا عن أكثرهم إلى أقلهم، فالأكثرون من رده القسمة، والأقلون من قبلتهم الوصلة.

﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾

---

(١) وذكر في أول التي تليها تنازعهم في الأنفال تحذيرًا لهم من أن يكونوا من الأكثر المذمومين في هذه، هذا بخلاف المقصود من سياق قصص بني إسرائيل في البقرة، فإنه هناك للاستجلاب للإيمان بالتذكير بالنعم، لأن ذلك في سياق خطابة سبحانه لجميع الناس بقوله: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَـٰكُمْ﴾ [البقرة:٢٨] وما شاكله من الاستعطاف بتعداد النعم ودفع النقم والله أعلم. نظم الدرر (٣/ ٢٦٥).

فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ لما تعاين معجزته وثبت سلطانه تكلم بالانبساط وتلفظ بالهيبة وادعى بالحقيقة؛ لأنه كان في مشهد القرب والمشاهدة، وأخبر أنه ينطق بالحق للحق في الحق مع الحق؛ لأن الحق كان ينطق بلسانه وما نطق إلا بما يليق بالحق، ومَنْ بلغ مقام الحقيقة فيظهر الحق منه، للحق فجميع حركاته وسكونه ونطقه وسكوته قام بالحق بوصف المشاهدة لا بوصف الغيبة.

قال ابن عطاء: مَنْ تحقق بالحق؛ فإنه لا يقول على الحق إلا بما يليق بالحق.

وقال الخراز: سبيل الواصلين إلى الله لا يتكلم إلا عن الحق، ولا يسمع إلا من الحق ولا ينطق إلا بحق، فإن حقائق الحق إذا استولت على أسرار المتحققين أسقطت عنهم سوى الحق ولا يبلغ أحد من هذه الدرجات شيئًا حتى يستوفي الحق أوقاته عليه ومنه فيبقى ولا وقت له ولا حال حينئذٍ، والله أعلم.

وقال الأستاذ: مَنْ إذا لم يصح له أن يقول على الحق إلا الحق والخلق محو فيما هو الموجود الأزلي، فأي سلطان لآثار التفرقة في حقائق الجميع.

قوله تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ﴾ ظهر سبحانه بصفات الفعلي عن العصا وألبسها بعد قلبها لباس فعل العظمة لتخويف الكفرة، وهرب السحرة، وأكل المخابيل، وظهر بنور الصفة من يد موسى عليه السلام لفتح أبصار الإيقان والإيمان بأنوار صفاته في إظهار البرهان؛ لأن الجماد محل تصرف فعل العام من طريق الأمر القائم به، والحيوان محل تصرف فعل الخاص القائم بالصفة لأنه معدان أرواح الطباعية، والإنسان محل تصرف الصفة القائمة بذاته الأزلي؛ لأنه أشرف المواضع من العرش إلى الثرى لمحله من العقل القدسي، والقلب الملكوتي، والروح القدسية، ظهر بالفعل عن العصا للعموم وظهر بالصفة عن موسى عليه السلام للخصوص، وعرف موسى عليه السلام عجزه في قدرته، حيث انقلب عصاه بغير اختياره، وخرجت يده نورانية بغير اختياره، وكان ذلك أعظم في صدق معجزته حيث لا اختيار له فيه.

﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ

ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ فِرۡعَوۡنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكۡرٞ مَّكَرۡتُمُوهُ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لِتُخۡرِجُواْ مِنۡهَآ أَهۡلَهَاۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ إن الله سبحانه ألبس أولياءه لباس أعدائه امتحانًا لهم ولغيرهم، فأرشدهم بقهره إلى لطفه؛ إذ الأصل فيهم سبق اصطفائيتهم في الأزل، كانوا ممتحنين محجوبين من رؤية اللطف بحجاب القهر، فلمّا أتوا بالسحرية آلوا التقرب من فرعون من رأس الطبيعة وجرى في الأزل قربهم من رؤية الحق سبحانه، فنطق الله على لسان عدوه إخبارًا عن سابق العناية للسحرة بقوله: ﴿نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ﴾ المنطق بالخبر هو الله سبحانه وإن لم يعرفوا مكان الخطاب، ولكن جرى على وفق العناية خبر الغيب علمهم، وفرعون في البين واسطة، وحقيقة الخطاب من الله سبحانه.

قال بعضهم: دعا فرعون السحرة إلى القرب منه، وجرى لهم في الأزل مقام القرب من الحق.

قال فرعون: إنكم لَمن المقربين إلى منازل الأبرار وبعد وأمن قرب الأشقياء.

قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ السحر الحقيقي من عالم الفعل بواسطة الكسب البشري، والمعجزة من عالم القدرة القديمة، ولمّا ظهرت الصفة تلاشت معالم الاكتساب وغابت تواثير الفعلية.

قال السوسي: أظهر الحق لطيفة من صنعه في خشية عجز السحرة عنها، وجعلها سببًا لنجاتهم، فقال: ﴿فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ﴾ بإظهار القدر في جماد وبطل ما كانوا يعملون من الأباطيل، ولمّا ظهر قهر القدم بلباس العظمة من عصا موسى ﷺ، وانهزموا من سطوات العظمة ويا ليتهم لو ثبتوا ورأوا مشاهدة جلاله من لباس عظمته الذي تجلّى من العصا يكون حالهم كحال السحرة، لكن غابوا في بحر ضلال الأزل ولم يوقفوا بها وفق السحرة عندما كوشف لهم وجه جلال القدم، فرأوه بلا حجاب فألقوا أنفسهم بنعت الإذعان له عشقًا ومحبة وشوقًا إلى تلك المشاهدة بها أخبر الله عن شأنهم بقوله: ﴿فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ وَأُلۡقِيَ

ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ﴾[1] أي: صدقنا ما أخبر لنا بلسان موسى ﷺ وهارون ﷺ، وشاهدنا مشاهدته عيانًا، بحيث لم يبق فينا معارضة الإنسانية، وخطرات الشيطانية.

قال الواسطي: أدركهم سابق ما جرى لهم في الأزل من السعادة، فأظهر منهم السجود.

وقال جعفر: وجدوا نسيم رياح العناية القديمة بهم فالتجاء وإلى السجود شكر وقالوا آمنا برب العالمين.

وقال أبو سعيد القرشي: نازع موسى ﷺ مع فرعون طول عمره وقد قال الله إنه ليس من أهل الإسلام، ولكن منازعة موسى ﷺ مع فرعون كانت سبب نجاة السحرة حتى قالوا آمنا برب العالمين رب موسى ﷺ وهارون ﷺ.

قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ هددهم فرعون بالبلاء ولم يعلم أنهم غرقوا في بحار رؤية المُبلي متحملين بلاياه برؤية جماله ولولا ذلك ما قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاضٍ.

قال سمنون: يحمل الهياكل من البلايا على المشاهدة ما لا يحمله في حال الغيبة، ألا ترى كيف لم يبال سحرة فرعون بما هددكم به من قوله:﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾.

﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ

---

(١) أي: فسجدوا بسرعة عظيمة حتى كأن ملقياً ألقاهم بغير اختيارهم من قوة إسراعهم، علماً منهم بأن هذا من عند الله، فأمسوا أتقياء بررة، بعد ما جاؤوا في صبح ذلك اليوم سحرة. نظم الدرر للبقاعي (٦/ ٦٣).

سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ أجابوا فرعون بعد تهديده لهم بالبلاء بهذه الآية، أي نحن ذاهبون بنعت الشوق والمحبة إلى مشاهدة ربنا، ولا نخاف من جميع البلاء لأن من عانيته لا يوثر فيه آلام البلاء ولا يحجبه عن رؤية المُبلي.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ﴾ انظر إلى أدب موسى ﷺ كيف علّم قومه معاملة طريق الله أمرهم بالالتجاء إليه والاستعاذة به والاستغاثة به في تحمل مشقة الصبر ووجدان حسن الرضا في البلاء، وأخبرهم أن مَنْ كان بالله صبر يكون مظفرًا على جميع المراد ويكون خليفة الله في أرضه.

قال أبو عثمان: مَنْ استعان بالله في أموره، وصبر على ما يلحقه في مسالك الاستعانة، أتاه الفرج من الله، قال الله استعينوا بالله واصبروا.

قال سهل: أُمروا أن يستغيثوا بالله على أمر الله، وأن يصبروا على أدب الله، ولمّا أمرهم بالاستعانة والصبر شكوا عن عقوبة الأعداء لهم بقوله: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾، فأجابهم بقوله: ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

أي: لو يصبرون على مخالفة نفوسكم ودفع شهواتكم وترك حظوظكم الدنيا وبه يذهب الله عن ساح قلوبكم التي هي مواضع المشاهدة غبار الهواجس النفسانية، ويجعلكم خلفاء الله في أرضه وبلاده.

قال بعضهم: أعدى عدوك نفسك عسى الله أن يمكنك من قيامها، ويفني عنها أهواءها ومراداتها الباطلة، ويجعلك خليفة على جوارحك وقلبك أميرًا عليك، فتقهر النفس بما فيها وتستولي عليها وعلى مخالفتها، فينظر كيف يعملون كيف معرفتك بشكر ما أنعم عليك.

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ

كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿١٤١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ﴾ أخبر الله سبحانه عن نقض عهد المفسدين بعد رؤيتهم وضوح الآيات، وظهور المعجزات، ونيرات الكرامات، وذوقهم طعم العذاب في البليات جحودًا وإنكارًا بعد علمهم بصدق الرسالة والنبوة والولاية، لمّا وقعوا في ورطة الهلاك التجئوا إلى نبي الله ﷺ بعد جفائهم به، فلم ينفع التجاؤهم وتوبتهم لمّا سبق لهم في قديم العلم من الشقاوة، ولأنفذ فيهم سهام الهمة النبوية، وهكذا شأن مَنْ جفا المشايخ برعوناتهم وسوء آدابهم لا ينفعهم استعانتهم بالقوم.

قال القاسم: مَنْ لا يراع أسرار الأولياء في الأوقات لا ينفعه اللجوء إليهم في أوقات البلاء، ألا ترى كيف لم يوثر على أصحاب فرعون اللجوء إلى موسى ﷺ في اعتقاد المخالفة.

قال الله: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ﴾ معنى الآية في وارد الحكم أن الكلمة صفته الأزلية، وهي ذكر الله إياهم في سابق العلم بالتوفيق في عبوديته الخالصة، وقبولهم امتحانه وبلاه بنعت الصبر والرضا، وذلك عطاء محض، حيث تمت تلك النعمة منه تعالى في الأزل لهم.

قيل: وقوع الفعل والجزاء والصبر والرضا فإن من تمام النعمة أن سبقت كلمة الله بنعت إتمام الدرجات لهم قبل وجودهم؛ فالكلمة تمت بإعطائهم المعرفة والتوفيق في الطاعة، ليس عناية الله الأزلية متعلقة بصبرهم واحتمالهم الجفاء، فإنها ميراث كلمة الحسنى التي سبقت بالعناية لهم ولولا ذلك لما صبروا؛ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧]، أي: بالله تصبر وقوله:﴿وَتَمَّتۡ﴾، أي: تمت العناية بلا علّة الاكتساب

وصفاته الأزلية لا تحتاج إلى علّة الحدث، فإن اصطفائية الله منزّهة عن خلل الحدثان وأفعالها.

قال الجنيد: طالبوا تمام الكلمات بوجود النعمة والمواظبة على الصبر فاستشعروا التثبت بحبائل الوفاء عند مَنْ أبلاهم، ليتم عليهم كلمة الحسنى بجميل الثناء على الصبر الذي ضمن لهم إتمامها بالوفاء.

قال أبو سعيد الخراز: طالبوا تمام النعمة بالمواظبة على الصبر واستشعروا وعده الذي ضمن لهم إنما يكون عند القيام بما ألزمهم من شرائط الصبر؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بصبرهم في بلائه وإعطائهم مواريث الأرض من الملكين، ملك الدنيا وملك العقبى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ ردَّ الله بلسان نبيه ﷺ قول الجهل عند قولهم: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، وعرّفهم مكان العقل في الإنسانية وتفضيل الآدمية على الحيوانية، واختيار الله إياهم التوحيد والشريعة، أي تطلبون غيره وهو بكرمه ورحمته أعطاكم العقل الذي لا يقبل في العبودية غير الله؛ لأنه يفرد القدم من الحدوث يعلم من الله معه، وصوركم بأحسن الصورة التي لو اعتبرتم بها يعرفون أن صانعها الله لا شريك له في ملكه ولا ضد له في سلطانه، فضلكم على العالمين بإرسالي إليكم، فإني أتم نعمت الله عليكم.

قال أبو عثمان: أتطلب غيره وهو فضلك على ما سواك من جميع ذوات الأرواح والجماد فتذل وتخضع لغيره، وهو فضلك عليه ذلّ لَمِنْ يذلّ له لتستوي معه فتنال معه به العزَّ الأوفر.

﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟

سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ أي: من سنة الله سبحانه إذا أراد أن يشرف عبدًا من عباده بمقام لم يكن له ذلك وقربه منه وناجاه وأظهر عليه عجائب ملكه وملكوته، يصفيه عن كل كدورة، ويخلصه عن كل همه، ويروضه بأنواع مجاهدة، ويخلي بطنه عن الطعام والشراب إلا ما يقوى به صلبه ليحرق بنيران الجوع غواشي قلبه، وتقدس من قلبه مكان نظره، ويغسل بمياه المجاهدة جوارحه، ويزويه في الخلوات، ويشوقه بلطائف المناجاة إلى المشاهدات وله أوقات وساعات لفتح أذان قلوب أوليائه وأبصار أرواح أصفيائه؛ ليسمعها كلامه ويبصرها جماله وجلاله، وتلك أوقات تضوع عطر مشاهدته لأهل خلواته ومناجاته لا يستنشق تلك الروائح إلا المعترضون لها في المراقبات والرعايات، وأخبر من تلك الأسرار سيد أهل الأنوار ﷺ بقوله: «إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لنفحات الله»[1]، ومن تلك الأربعين صارت الأربعين سنة لأولياء الله في بداية أمرهم في الخلوة والرياضة بخلوص نياتهم مع الله سبحانه؛ لوجدان حكمته الأزلية وأبنائه العجيبة، ومكاشفته البديعة؛ لأنها عرائس الله لا تنكشف إلا المتفرد عن غير الله، وأخبر بشرائف ذلك النبي ﷺ بقوله: «مَنْ أخلص الله أربعين صباحًا ظهرت ينابيع الحكمة من قبله على لسانه»[2]، ما طاب زمان الوصال ومواعيد كشف الجمال لمّا طاب وقت كليم الله في مناجاته حبيبه بعد تمام ثلثين ليلة لم يستوف وطره من لذيذ خطابه ولطف جماله؛ فعلل بالسؤال ليستزيد المقام في شهود العين، فعلم تعالى حرق شوقه ولهيب حزنه وزيادة عشقه ومحبته، فزاد على أوقات الوصال بقوله: ﴿وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ﴾، وقال: ﴿فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، ومراده بالأربعين تواتر الحالات والاستقامة في الواردات؛ ليحتمل بعد ذلك بها أوقات بديهات الكشوف وبروز أنوار القدم ذكر الليالي لخلو الأسرار عن نظر الأغيار وصفاء المواصلة عن غبار المخالفة، فيالها من سماع ما أطيبه ومن خطاب ما ألذّه من جمال ما أشهاه ومن قرب ما ألطفه.

فكَانَ بالعراق لنَا لَيالٍ سَلبناهُنَّ مِنْ ريبِ الزمَانِ

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/ ١١١).

(٢) رواه هناد في الزهد (٦٧٠) بتحقيقنا.

جعلـــــناهنَّ تـــــاريخَ اللـــــيَالِي   وعـــــنوانَ المـــــسرَّةِ والأمــــانِ

وعده وجعل الأيام الخطاب ميقاتًا لمزيد شوقه وزيادة خوفه وهيجاته.

قيل لأبي بكر بن طاهر: ما بال موسى ﷺ لم يجع حين أراد أن يكلم ربه وجاع في نصف يوم حين أراد أن يلقي الخضر، فقال: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف:٦٢]، فقال لأنه في الأول أنساه هيبة الموقف الذي ينتظره الطعام والشراب، والثاني كان سفر التأديب، فزد البلاد على البلاء حتى جاع في أقل من نصف يوم، والأول كان أوقات الكرامة ولمّا أراد المسير إلى الله والذهاب إلى مواعد قربه ومناجاته جعل أتيته هارون ﷺ خليفته في قومه غيره على وقته وعلى محبوبه لئلا يكون معه غيره في سماع أسرار الأزل والأبد بقوله: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾.

استخلف لهارون ﷺ بالشريعة وانفرد عنه في مقام الحقيقة؛ لأن الحقيقة لا تقبل الغير في البين ولا يكون العشق بالشركة؛ لأن العشق يغير عن العاشق دون معشوقه، وكان لهارون ﷺ علم غيرة أخيه فاستقبل الخلافة ولم يعارضه، وإن كان ميل قلبه بصاحبته في الحضرة، ولكن تحمل من حلمه أثقال الفراق لصحة المؤاخاة، وصدق الإرادة.

وقال الأستاذ: لما كان المرور إلى فرعون استصحب موسى ﷺ هارون ﷺ، فقال الله سبحانه: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ [طه:٣٢]، ولمّا كان المرور إلى سماع الخطاب أفرده عن نفسه، فقال: ﴿ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى﴾ ولهذا غاية الحلم من هارون ﷺ ونهاية الرضا، وهذه من شديدات بلاء الأحباب وفى قريب منه أنشد قال لي مراحب:

والبـين قـد جـد ودمعي موافق الشهيقي   مــا تــرى في الطــريق تــصنع بعــدي

قلت أبكي عليك طوال الطريق

وفي الآية دليل أن للأولياء خلفاء ونجباء ونقباء يستنون بسنتهم ويقتدون بأسوتهم ويبلغون الى درجاتهم بصدق إرادتهم.

قال محمد بن حامد: لم يزل الأنبياء والأولياء خلفاء يخلفهم في مَنْ بعدهم من أمتهم وأصحابهم ويكون هداهم على هداهم، يحفظون على أمتهم ما يضيعونه من سنتهم وأن أبا بكر كان هو القائم بهذا المقام بعد النبي ﷺ، ولو لمْ يقم لهؤلاء يثبت سنين منها محاربة أهل الردّة وغير ذلك، ولما خرج من أوطان البشرية وترك علّة الرفقة واستقام في الشوق إلى المشاهدة، وهرب إلى الخالق من الخليفة، أخبر الله سبحانه عن ذهاب كليمه إليه وإلى ميقات قربه وصاله بوعده بقوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ كيف له ميقات وليس عنده مساء

ولا صباح أزله أبده وأبده أزله، أراد انفراده عن كل مراده وبلوغه إلى كمال تربيته ليقوي أن يقف على مسيل قلزم القدم وعلى مصب طوفان الأزل وعلى مهب صرصر العظمة.

ولولا أنه تعالى أكساه أنوار قربه لذاب في ميقات ربه وقته وقتاله معينًا النيل مراده وذلك علّة البقاء البشرية وإلا لكل نفسه له فيه وقت وكشف وخطاب جاء لميقاتنا واحتجب عنا بالميقات، ولو جاء لنا صرفًا ما احتجت عنا أسرى حبيبة إلى الملكوت بالبديهة إلا بالميقات وسرى به، إليه ولمْ يبق في همته ذكر الزمان والمكان من استغراقه في بحر هموم طلبه رؤية القدم بلا سؤال ولا حركة ولا إشارة ولا عبارة ولا جرم، لم يبق بينه وبين الله وقت ولا زمان ولا مكان، وأراه بعين وهيها له منه وأسمع كلامه بسمع أعطاه إياه منه خص في الأزل كليمه بسماع كلامه.

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ لمّا لم يجد في مسامع أسراره مسامع حديث النفس والوسواس، ألبس سمعه لباسًا من سمعه، فأسمع كلامه بسمعه، ولولا ذلك كيف يسمع كلام القديم بسمع المحدث؟

وفي قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ إشارة إلى تفضله لموسى ﷺ لما جاء بنعت الشوق والهيمان والعشق والهيجان بخطرات الواهين إلى موعد رب العالمين، وصار موسى ﷺ فانيًا عن موسى ﷺ ولمْ يبق في موسى ﷺ إرادة موسى ﷺ بنعت التحيّر في موقف الفناء على جناب القدم والبقاء، ولمْ يعلم من تحيره أين هو؟ وأين يطلب؟ وأين يفرّ؟ حيث لا حيث علم سبحانه أنه في ذهاب الذهاب، فكلمه بالبداهة فطار سرَّ موسى ﷺ في هواء الهوية، وطار روح موسى ﷺ في سماء الديمومية، وطار عقل موسى ﷺ في فقار الأحدية، وطار قلبه في أنوار الوحدانية، وكان كلا شيء الأول كلام التعظيم والهيبة والآخرة كلام اللطف والبسط ففنا في الأول وبقي في الثاني، ولولا لطفه وكرمه بكليمه كان يتلاشى في أول خطاب، ولكن من عطفه ورحمته أسمع عجائب كلامه كليمه؛ ليعرفه بكلامه لأن كلامه مفاتيح لكنوز الصفات والذات.

ولولا اصطفائيته الأزلية لموسى ﷺ واختياره بالتكليم معه، وأنه لم يخل في طول عمره عن كلامه ووحيه وإلهامه في كل نفس لمْ يبق في الميقات عند بداهة خطابه أثره وبصفه لذة كلامه وحلاوة خطابه يا ليتني لو أن لي لسانا أزليًا من ألسنة القدم، لأصف به تلك الحلاوة؛ لكن لا يفهم مَنْ لَمْ يذق طعمه، ولمّا طاب ذقته من لذيذ خطابه سكر من شراب بحر وصاله، هاج شوقه إلى طلب مزيد القربة وكشف المشاهدة؛ فأطلق لسان البسط وخطا خطوات الانبساط وهتك ستر الحياء عن وجه المحبة، وغاص في بحر الجرأة، حتى كان حاله ما أخبر

الله سبحانه عند بقوله: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾.

غلب عليه مواجيد الوصالية فخرج من مشيمة الأمر وأُسقط في مقام العشق والسكر رسوم الأدب فسكره استنطقه بطلب دنو الدنو وشهوده عين العين؛ لأن نسيم برد المشاهدة يحويه بلطائف الوصلة، فلمْ يبق له قرار ولم يجد من ساكن السكر مفرّا، وكيف يكون السكون للعاشق عن طلب مشاهدة المعشوق في فنائه؟ حيث دنا الشائق من المشوق وأنشد في معناه:

وأبرحُ مَا يكونُ الشوقُ يَوْمًا ... إذَا دَنتِ الخيامُ منَ الخيامِ

والله لولا موسى ﷺ أي جمال الحق في كشوفات الغيبية بفنون ألوان قمص الصفاتية وبروز سبحات الذاتية، ولولا أن رآه في مقام الالتباس في رؤية كل ذرة من العقل إلى الثرى من مرآة الوجود لم يجد إلى طلب مشاهدة الصرف سبيله؛ لذلك وجبت الرؤية ولولا أن الرؤية حق الإبصار، نظر المعرفة ما سأل كليم الله ما خفي عن الخليقة، فلولا رجاء الوصل ما عشت ساعة، ولولا مكان الطيف لما تهجع لم يذق الله طعم وصاله، مَنْ له منية غير لقائه.

مُنَايَ منَ الدنْيَا لقاؤكَ مَرةً ... فإنْ نُلتهَا استوفَيت كُل مُنَايَا

سَلبتَ فؤَادِي كَيْ تَكونَ مَكَانه ... فكوني أوْ فَارددْ عليَّ فؤَادِيا

قال جعفر الصادق: أسمع الحق عبده موسى ﷺ كلامه بلسان الرحمة والعطف أولاً؛ لأنه مردود بنفسه إلى الله، ثم أسمعه بلسان جوده وكرمه ثانيًا، وهو أيضًا مردود إلى نفسه .

قال أبو سعيد الخراز: من غيرة الله تعالى أنه لم يكلم موسى ﷺ إلا جوف الليل وغيبه عن كل ذي حس حتى لم يحضر كلامه معه سواه وكذلك محادثته مع الأنبياء.

وقال القرشي: إنما كلم الله موسى ﷺ بإياه، ولو كلم على حد العظمة لذاب وصار لا شيء.

قال جعفر: سمع كلامه خارجًا عن بشريته وأضاف الكلام إليه وكلمه من نفسية موسى ﷺ وعبوديته فغاب موسى ﷺ عن نفسه وفنيّ عن صفاته وكلمه ربه من حقائق معانيه فسمع موسى ﷺ صفة موسى ﷺ من ربه ومحمد ﷺ سمع من ربه صفة ربه، فكان أحمد المحمودين عند ربه ومن هذا كان مقام محمد المنتهي، ومقام موسى ﷺ الطور ومُذ كلم الله موسى ﷺ على الطور أفنى صفتها، فلم يظهر فيها الثبات ولا تمكين لأحد عليها.

قال الحسين: في هذه الآية قال أزال عنه التوقيف والترتيب، وجاء إلى الله لله على ما دعاه إليه وأراده له واجده عليه وأوجده منه وأظهره عليه، ببذل الجهد والطاقات وركوب الصعب والمشقات، فلمّا لَمْ يبق عليه باقية بها يمتنع أقيم مقام المواجهة والمخاطبة، وأطلق مضغة لسان المراجعة والمطالبة، أما سمعت قوله قبل هذا الحال طالبًا منه لَّما طولع بحال

الربوبية، وكوشف بمقام الأُلوهية سائلاً حل عقدة من لسانه؛ ليكون إذا كان ذلك مالكًا لنطقه وبيانه.

وقيل: لَّا سأل ملكيه شرح صدره، ثم نظر إلى أليق الأحوال به، فإذا هو تيسر أمره فسأل ذلك على التمام ليترقى به حاله إلى أرفع المقام وهي المجيء إلى الله بالله، لّما علم أن مَنْ وصل إليه لم يعرض عليه عارضة، حينئذ صلح المجيء إلى الله وحده بلا شريك ولا نظير، وكان مَمْنْ وفيَّ المواقيت حقها غابت عنه الأحوال فلم يرها وذهبت عن غيبه ظهوره وما عداها إلا ما كان للحق منه ومعه، حتى تحقق بقوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَـٰمُوسَىٰ﴾ [طه:٣٦]، ولقد مننا عليك مرة أخرى فهذا حال لمجيء، وهذا معنى قوله: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا﴾، وقوله:﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾، أنه انفرد بكلامه لأنه كان قبل ذلك مُكلمًا بالسرّ والسفراء والوسائط.

فلمّا أتى الله تعالى به إلى المقام الأجل وحققه بالحال الأعظم الأرفع خاطبه مكلمًا على الكشف وغيبته عن كل عين رائية ومرئية، وكل صورة مكونة ومنشأة إلا ما كان من الكليم والمكلم، وأفرد الله عنده بالشرف الأعظم فسمع خطابًا لا كالمخاطبات فاهتاج منه وله عند ذلك طالبًا لا كالمطالبات واقتضى من الله ما لم يكن قبل يقتضيه، فلذلك سأل النظر إليه إذا رجع إلى حقيقة، فرأى الله في كل منظور له ومنصور، فلمّا تحققت له هذه الأحوال، قال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾، فإن في كل مرئي أرجع إليك، أي أرني ما شئت فلست أرى غيرك مقابلي إذا تحققت بها حققتني به، إنك غير مسائلي، ألم يدلك على ذلك خطابه ورجعته إليه إذ ذاك جوابه أرني فإليك أنظر وأحضراني ما شئت فلست غيرك أحضر بعد أن تحققت منك بحال يوجب لي منك ذاك، وحق لَمْنْ تحقق بهذا أوتمكن فيه أن ينفرد بسؤال لا يشارك فيه بالحقيقة.

ويقال: صار موسى ﷺ عند سماع الخطاب بعين السكر، فنطق بها نطق والسكران لا يؤخذ بقوله، ألا ترى أنه ليس في نص الكتاب معه عتاب بحرف.

ويقال: أخذته عزة السماع فخرج لسانه عن طاعته جريًا على مقتضى ما صحبه من الأريحية وبسط الوصلة.

ويقال في القصص: إنه كان يحتمل في الوعد كلمات الخلق.

ويقول: لمعارفه لكم كلام معه، ولكم حاجة إلى الله فإني أريد أن أمضي إلى مناجاته، ثم أنه لّما جاء وسمع الخطاب لم يذكر ما دبره في نفسه، وتحمله من قومه وجمعه في قلبه سينا ولا حرفًا، بل أنطق بما صار في الوقت غالب قلبه، فقال: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ وفي معناه

أنشدوا :

فبالـــيلِ كَـــمْ مِـــنْ حَاجـــةٍ لِي مُهمَـــة   إِذَا جِئـــتكمُ لمْ أَدرِ باللـــيلِ مَاهِـــيَا

ويقال: أشد الخلق شوقًا إلى الحبيب أقربهم من الحبيب، لهذا موسى عليه السلام كان غريق الوصلة واقفًا في محل المناجاة محدقًا به التولي غالبًا له بذهاب الوجود في عين ذلك، كان يقول: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ كأنه غائب عن الحقيقة لا ولكن ما إذا أزداد القوم شربًا إلا ازدادوا عطشًا ولا ازدادوا قربا إلا ازدادوا أشوقًا؛ لأنه لا سبيل إلى الوصال بالكمال والحق سبحانه لقبول أسرار أصفياه عن مداخل الملال.

ويقال: فمال موسى عليه السلام بلسان الافتقار فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ فلا أقل من نظرة، والعبد قتيل هذه القصة هو بل بالرد، وقال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ فكذا قهر الأحباب.

ولذلك قال قائلهم:

جـــورُ الهـــوَى أحـــسنُ مِـــنْ عَدلـــهِ   وبُخلـــهُ أظـــرفُ مِـــنْ بَذلـــهِ

ويقال: لمّا سمعت همته إذا أسنى الطلبات، وهي الرؤية قوبل بلن، فلمّا رجع إلى الخلق قال: للخضر هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا.

قال الخضر له: لن تستطيع معي صبرًا قابله بلن، فصار الرد موقوفًا على موسى عليه السلام من الحق ومن الخلق، ليكون موسى عليه السلام بلا موسى عليه السلام صافيًا عذوبًا عن كل نصيب لموسى عليه السلام من موسى عليه السلام، وفي قريب منه أنشدوا:

أننـــي أبِيـــنَا نحـــنُ أهـــلُ مَـــنازلٍ   أبـــدًا غُـــرابُ البـــينِ فِـــيهَا يَـــنعقُ

ويقال: طلب موسى عليه السلام الرؤية وهو بوصف التفرق، فقال:

﴿أَرِنِىٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾[1]، فأجيب بـ ﴿لَن﴾ عين الجمع أتم من عين التفرقة فزع موسى عليه السلام حتى خرّ صعقًا، والجبل يصير دكًا، ثم الروح بعد وقوع الصعقة على القالب يكاشف بما هو حقائق الأحدية، وكون الحق لموسى عليه السلام بعد إمحاء معالم موسى عليه السلام، خير لموسى عليه السلام من بقاء موسى عليه السلام لموسى عليه السلام فإن على التحقيق شهود الحق بالحق أتم من بقاء الخلق بالخلق؛ لذا قال قائلهم لوجهها من وجهها قمر، ولعينها من عينها كحل.

---

(١) إشارة لها أرق من هذه ، وعلى التوفية في الأمور كلها؛ لأن الصوفي من أهل الصفاء والوفاء، وعلى الصدق في الأقوال والأفعال والأحوال. وعلى الوفاء بالعهد، وأعظمها عهد الشيوخ المُربين، وعلى اتباع طريق السلوك الموصلة للحضرة وهي ما عينه الشيوخ للمريدين، فلا يتعدى نظرهم ولو لحظة. وبالله التوفيق، البحر المديد (٢/ ٢٢١).

ولي هنا لطيفة في قوله: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أضاف رؤيته إلى الله لا إلى نفسه حيث قال: ﴿أَرِنِيٓ﴾، إذا ترني جمالك أطيق أن أنظر إليك وإلا فلا فإنه كان لي عالمًا بعين حديثه لا تحصل رؤية القدم، فسأل منه تعالى عينًا من عيونه يراه بها، وبها يرى عين العين وكنه الكنه، وقدم القدم، وسرّ الذات، وحقيقة الحقيقة؛ لأنه لم يره؛ لأن جميع ذرات موسى ﷺ يرى الله، فلمّا غلب سكره وزاد شوقه سقط عنه رسوم العلم وبقي معه صرف العشق فتحرك لسان البسط بطلب الإطلاع على الحقيقة، فأجابه الحق سبحانه فقال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لن تدركني كما أنا، فإن معك في البين واسطة الحدث وإن كان معك مني عيون الأزلية وأبصار الأبدية، فأحاله إلى واسطة بقوله: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾.

وأيضًا: ليس قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ نفي الرؤية عن موسى ﷺ وغيره من المؤمنين؛ لأن قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أي: لن تراني بإياك ولكن تراني بإياي، وصدق الله بهذا الخطاب وكيف يراه بين محجوبة بعوارض البشرية رآه به لا بالغير، فإذا رآه به رأى الحق لموسى ﷺ، ورؤية الله مشاهدته، وجلاله لموسى ﷺ أعظم من رؤية موسى ﷺ لموسى ﷺ.

وأيضًا: لن تراني من حيث أنت إذا أنت لن تراني بوصف القدم والبقاء وسطوات العظمة والكبرياء ما دام أنت أنت، انظر إلى مثلك في الحدوثية وهو الجبل، انظر إلى الجبل فإن فيك علّة الحدث ولا تريني إلا بواسطة الحدث، فجعل الجبل مرآة من فعله فتجلّى من صفته لفعله الخاص ثم للجبل، فرأى موسى ﷺ جمال القدم في مرآة الجبل فخرَّ؛ لأنه وصل إلى مقصوده على قدر حاله، ولو تجلّى لموسى ﷺ صرفًا لصار موسى ﷺ هباءً، ولو تجلّى للجبل صرفًا لاحترق الجبل إلى الأرض السابعة؛ لأنه تعالى تجلّى للجبل من عين العظمة وسبحات الأزلية.

ولذلك قال ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»[1].

وقال ﷺ: «إذا تجلى الحق بشيءٍ خضع له»[2].

قال تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾، قال: وهب أمر الله أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة، قال: أروه، فلما بدا نور العرش انفرج الجبل من عظمة الرب، ورفعت ملائكة السماوات أصواتهم جميعًا فارتج الجبل واندك، وكل شجرة كانت فيه، وخرَّ العبد

---

(١) رواه مسلم (١/ ١٦١).

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف (٣/ ١٠٥).

الضعيف موسى ﷺ صعقًا على وجهه، ليس معه روحه، فقلب الله الحجر الذي كان عليه موسى ﷺ وجعله كهيئة القبة لئلا يحترق موسى ﷺ؛ ولذلك قال له سبحانه في تعريفه عظمته وجلاله وغلبته قهر سلطان كبريائه على كل شيء، قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾ أي: أنا أتجلَّى من نور عظمتي للجبل لك، ولاستقر الجبل لتجلائي مع عظيم أجزائه وصلابة وجوده، فكيف تحمل صورتك الضعيفة أثقال عزتي؟! لو تريد أن تراني انظر إليَّ بعين روحك وقلبك، فإني أتجلَّى لهما بحسن جمالي ولطف جلالي، وقلبك يسع ذلك التجلِّي، لأنه خلق من نور ملكوتي، ورقمته بنور جبروتي، وفي ذلك نطق على لسان نبيه ﷺ حيث حكى عنه تعالى بقوله: «لم يسعني السماوات والأرض ويسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

وأيضًا: طلب موسى ﷺ رؤية الحق بعين الظاهر، وهناك عينه محجوبة عن فؤاده، فاحتجب عن رؤيته، وكان فؤاد محمد ﷺ في عينه حين شاهد جمال الحق سبحانه، فرآه بالفؤاد وبالعين.

قال تعالى في وصفه: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، قيل: ما كذب فؤاده ما رأت عينه، تصديق ذلك قوله ﷺ في مراتب معراجه: «رأيت ربي بعيني وبقلبي»[2].

ومَنْ دخل فؤاده الملكوتي في عينه وقت تجلِّي الجلال وكشف الجمال يراه كفاحًا بلا حجاب، فإن لله عبادًا كسا نور جماله أفئدتهم، وكمل أبصار أسرارهم بكمل الملكوت والجبروت، فتدخل القلوب بنور الغيوب في عيونهم فلا يرون شيئًا من العرش إلى الثرى إلا ويرون جلال الله تعالى فيها.

كما قال بعض العاشقين: ما نظرت إلى شيء إلا ورأيت الله فيه، كان موسى ﷺ غائبًا في بحر صفات الحق ومستغرقًا فيها ولم يعلم أين هو، ظن أنه غائب من دوام شهوده مشاهدته عنه، فسأل الرؤية فقيل له: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ كأنه استفهم، أين أنت حيث أنا أنت وأنت أنا، وأنشد في معناه بعض الشعراء:

كَبُرَ العيانُ عليَّ حَتى أنَّهُ ... صَارَ اليقينُ منَ العيَانِ تَوهُّمَا

فلما رآه غائبًا أراد أن يعرف مكانه فأحاله إلى الواسطة؛ ليعرف قدر الوصل في البين، وتعرف مكانه من المشاهدة.

﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ﴾ عرف الجبل أن التجلي له عارية، وبينه وبين التجلِّي حجاب امتناع

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) سبقت الإشارة إليه، وهو من الأحاديث التي ذكرها المصنف بكتبه.

الأحدية عن مباشرة الخليقة، اندك من حسرة فوت التجلِّي، فلمَّا رأى موسى ﷺ تجلِّي الحق بالواسطة عرف أنه سقط من مقام الاتحاد وغيبوبته في الصفات، وارتهن بعلَّة بسؤاله بالواسطة، فخرَّ صعقًا من حسرة فوت المقام.

أنشد الحسين في هذاالمعنى:

مَـا لِي جُفِـيتُ وَكُـنتُ لاَ أُجفَـى ودلائـلُ الهجـرَانِ لاَ تَخفَـى
وأَراكَ تَمزجُنِـي وتـشرَبُنِي ولقَـدْ عَهِـدتُكَ شَـارِبِي صِرفِـا

هذا معنى قوله تعالى: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ فأدركه لطف الباري سبحانه وأحياه بروح المشاهدة، فلمَّا أفاق علم أنه مقصر من معرفة المقام وما كان فيه فاعتذر، وقال: ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأيضًا: كان في بحر الصفات على محل شهود نعوت الأزلية فتقاضى سره إدراك حقائق الذات بعد فنائه في الصفات، فأسقط عن مقامه غير ذات الأزلي حتى صيرته بنعت البشرية وردته إلى مقام البداية، فعلم في الصحوة ما أخطأ في السكر من طلب الاطلاع على كنه القدم، فقال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ من إدراك الحدث قدمك وجلال أزليتك.

﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ ممّا طلبت فأنا أول المقربين بأن لأثبت أقدام الحدثان على صفوان الأزل، ولا تستقر حثالة الخليقة عند هبوب عواصف القدمية عنها، لَمَّا رجع صار في مقام «لا أحصي عليك»[١].

علم السيد ﷺ هذا المقام في أول شهوده عين الكل، فقال: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[٢].

قيل: علَّة الفناء والامتحان، وعلم موسى ﷺ هذا المقام بعد الامتحان والفناء، ولو علم في الأول إدراك ما أدرك النبي ﷺ تاب موسى ﷺ مرة من هذا المقام، وتاب الحبيب ﷺ من هذا المقام في كل يوم سبعين مرة.

قال ﷺ: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة»[٣].

كان عينه نكرة القدم فتاب من تقصيره عن معرفة حقائقه، فرعاه الحق برعاية الكرم وعفاه عن إدراكه كنه القدم بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم كسابقه.

(٣) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

[الفتح: ٢] أي: من تقصير إدراكك كنه القدم، وما تقصر إدراكك كنه القدم، وما تقصر إدراك كنه أبد الأبد.

وأيضًا: تاب كليم الله من تلوينه في مقام العشق والشوق إلى جمال القدم حيث أحاله بعد سؤاله كشف جماله إلى رؤية الوسائط بقوله: ﴿ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ أي: تبت من دعوى عشقك والشوق إلى جمالك بالحقيقة، فلو كنت متحققًا في جبل لم ألتفت إلى غيرك بسؤاله في مقام السكر، لذلك نطق بلسان السكارى.

فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ فلمَّا سمع ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ صار صاحيًا لم ينطق بلسان البسط بعد ذلك، فصرفه بالنظر إلى الجبل فتابع أمر قوله: ﴿ٱنظُرۡ﴾ فأمتثل الأمر، وما كان في محل السكر ما نظر إلى الغير ولمْ يكن مأخوذًا بجرأته وانبساطه، فلمَّا رجع من السكر إلى الصحو، ورجع من الحقيقة إلى الشريعة احتمل الجنايات، واعترف بتقصيره بنظره إلى غيره، قال: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾.

وأيضًا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ أي: من أن يكون لك في مواهبك له علَّة الاكتساب، ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من قولي: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾ بعد قولي: ﴿أَرِنِيٓ﴾ ولو اكتفيت بـ﴿أَرِنِيٓ﴾ ما احتجت إلى التوبة ولكن لمّا ذكرت فعل عيني بقولي: ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾، ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾، فأين الحدث من استجلاب القدم إليه وأدق الإشارة.

أي: ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ من إشارتي إلى نفسي في سؤالي بقولي: ﴿أَرِنِيٓ﴾، ومن أنا حتى ﴿أَنظُرۡ إِلَيۡكَ﴾، الآن ﴿تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ لأراك بك لا بي، بعد أن فنيت فيك

فترى عينك جمالك لي لا بي ... بيني وبينك أن ينازعني

فأرفع بأنك أنني من البين؛ ولذلك غار عليه ملائكة الملكوت حين صُعق.

روي في بعض الكتب: «إن ملائكة السماوات أتوا موسى ﷺ وهو مغشي عليه، فجعلوا يركلونه بأرجلهم ويقولون: يا ابن النساء الحيض، أطمعت في رؤية رب العزة؟»(١).

كان الملائكة معذورين فإنهم ممنوعون من قوام القرب بمقرعة خوف العظمة، ولَمْ يعلموا أن هذه القصة وقعت على العاشقين الذين اصطفاهم الله في الأزل بمحبته وعشقهم في أزله بعشقه وشوقه عشقهم به، وشوقهم إلى جماله، وبانبساطه معهم كما جعلهم منبسطين إليه حتى سألوا ما لمْ يطمع فيه الكروبيون والروحانيون، ولمْ يعلموا أن موسى ﷺ رأى مُناه

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية (٧/ ٧٦).

كما أراد في زمان الصحو عند سؤاله وجوابه، ووجده في غيبته وسكره، وحال صعقته لّما غاب وسكر استغراق في بحار الأزل والآباد، وانكشف له سرّ الأسرار، فالملائكة عدوًا من وراء حجاب الفعل في مقام الشريعة، وكان موسى ﷺ في حجر الوصلة غائبًا عن الخليقة، ولو شاهدت الملائكة ذرة من حاله لصعقوا واحترقوا جميعًا، والحمد لله الذي خصَّ بديع فطرته وذريته بهذه المثابة دون غيرهم.

وأيضًا: لي نكتة عجيبة، لّما وجد حلاوة خطاب الأزل واستحلاه طمع في الرؤية لزيادة حلاوته، ووجدان لذته، فأصعقته غيرة الأزل من سكوته عنه به وعمًّا وجد من برد نسيم وصلته فلمَّا أفاق بعد انقطاعه من حلاوته واحتراقه بنيران غيرة توحيده ووحدانيته قال: ﴿سُبْحَـٰنَكَ﴾ من أن يطلبك أحد بحظه ولحظه، ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ ألا أسالك إلا لك فرد بفرد فإن حلاوة المشاهدة حجاب المشاهدة، ألا ترى إلى قول بعض الموحدين في وصف موحده حيث وصفه فقال سبحانه: «من حسنة حجاب حسنه»[1].

قال بعضهم في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ﴾ فهو أشد منك جسدًا، وأعظم منك خلقًا، وأهيب منك منظرًا، فإن ثبت لرؤيتي تثبت، ولا يحملني ولا يصبر على مشاهدتي شيء إلا قلوب العارفين التي زيّنتها بمعرفتي، وأيدتها بأنواع كراماتي، وقدستها بنظري، ونورتها بنوري، فإن حملني شيء فصير لمشاهدتي في تلك القلوب دون غيرها؛ لذلك قال المصطفى ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه كل شيءٍ أدركه بصره»[2].

ثم إذا حملني فتلك القلوب وصبرت لمشاهدتي وأنا حاملي لا غير إذ بي حملني وبإياي صبر لمشاهدتي، فلا مشاهد للحق سواه، جلَّ ربنا وتعالى.

وقال ابن عطاء: شغله بالجبل ثم تجلَّى، ولو لم يشغله بالجبل لمات وقت التجلِّي.

وقال الحسين في قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ لو ترك على ذلك ليقطع شوقًا ولكن سكنه بقوله: ﴿وَلَـٰكِنِ﴾.

وقال ابن عطاء: انبسط إلى ربه في معاني الرؤية لّما ظهر عليه عن الكلام ولمْ ينطق بإياه، ألا تراه أنه لما رجع إلى وصفه رجع إلى أوائل المقامات، فقال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾.

قال النصرآبادي: ما قطع موسى ﷺ عن الرؤية إلى نظره إلى الجبل، ولو تحقق بسؤال الرؤية لّما كان يرجع منه إلى شيءٍ سواه.

---

(١) هكذا في الأصل، ولم أجد له أثر فيمن خرجه.

(٢) تقدم تخريجه.

قال الواسطي: ﴿لَن﴾ إلى وقتٍ ولا على الأبد.

قال جعفر: شغله بالجبل ثم تجلّى، ولولا ما كان من اشتغاله بالجبل لمات موسى ﷺ صعقًا.

وقال الواسطي في قوله: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ صار الجبل كأن لم يكن قط، ولا عجب لهيبة ما ورد عليه.

قال أبو سعيد القرشي: الجمال والكرم يبقيان، والهيبة والإجلال يفنيان، كمّا أن الله كلم موسى ﷺ بصفة الهيبة وتجلّى للجبل، فصار الجبل دكًا وخرَّ موسى ﷺ صعقًا، وكان آخر عهده بالنساء، ولم يتهيأ لأحد أن ينظر في وجهه.

قال الواسطي: وصل إلى الخلق من صفاته ونعوته على مقاديرهم لا بكلية الصفات، كما أن التجلّي لَمْ يكن بكلية الذات.

وقال أيضًا: قالوا إليَّ نقيت التجلِّي، والله يقول: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ﴾، وقال النبي ﷺ: «إن الله إذا تجلى لشيءٍ خشع له»[1].

قلت: ذلك على التعارف ومقادير الطاقات، أليس بمستحيل أن يقال: تجلّى الهواء لذرة واحدة، ولو احتجب لساوتها، ولو تجلّى لقاء ربها، وهو أجل من أن يخفى ويستر وأعزّ من أن يرى ويتجلّى إلى وقت الميعاد، تنزّه عن أن يقع عليه إلا للحظ بمعانيها، أو تقع تحت الألسنة بأماليها.

قال: وقُرِئَ بين يدي الجنيد ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فصاح، وقال: بالجهل صار دكًا لا بالتجلّي؛ إذ لو وقع عليه آثار التجلي أفناه بكيف التجلّي.

وقال شيخنا وسيدنا محمد بن خفيف -قدس الله روحه- في قوله: ﴿قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ لمّا قال: ﴿فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى﴾، قال: ﴿تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ من ألا أصدقك بكل ما ورد منك وأطالبك بالعلامات، وذلك لمّا قال: ﴿أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ لمْ يكفه حتى نظر إلى الجبل، فلمّا لَمْ يقل موسى ﷺ كفاني قولك: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ حتى نظر إلى الجبل، فالتوبة من هذا.

وقال بعضهم: ﴿سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ أن أسالك خطابي؛ إذ لا يحيط بك أحد ولا يشهدك غيرك.

---

(١) تقدم تخريجه.

وقال الواسطي: لَمْ يزال المقصود ممتنعًا من الاستغراق، ألا ترى إلى قول موسى ﷺ ﴿سُبۡحَـٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ﴾ قيل معناه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ بالسؤال والدعاء، وإنها تراني بالنوال والعطاء؛ لأنه لو أعطاه إياه لسؤاله لكانت الرؤية مكافأة السؤال، ويجوز أن يكون فعله مكافأة فعل عبده، ولا يجوز أن يكون هو مكافأة فعل عبده.

قال بعضهم: برق برقة من النور فصاحت الجبال وانقطعت وغارت البحار، وانخمدت النيران، وانكشفت الشمس؛ فصعق موسى ﷺ، فكيف كان يطيق موسى ﷺ ويثبت لَمّا لَمْ يثبت لها الجبال الرواسي، وإنها كانت برقة.

روى أنس ﷺ عن النبي ﷺ أنه قرأ هذه الآية فقال: «هكذا، ووضع الإبهام على مفصل الأعلى من الخنصر فصاح الجبل»[1].

قال أبو سعيد الخراز: إن الله لا يتجلَّى بالكشف فمَنْ يقوم له؛ لذلك تقطع الجبل حين تجلَّى له، وخرَّ موسى ﷺ صعقًا، فإنها نظر إلى أوليائه بالخصوصية من وراء الحجاب إذ أقبل عليهم بالرحمة والمحبة، فهناك يصل إليهم العلم الكثير والفوائد.

قال علي عن أبيه عن جعفر قال: لَمّا سمع الكليم الكلام، واستولى على ذلك المقام سمع كلام الملك العلام، قال بلسان الدلال على بساط الوصال تحت ظلال الجلال: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ فإني بين يديك، فأجابه ربه: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ الآن في غير الوقت، بل تراني ببرهاني وشواهدي فإنك الآن لا تحتمل نور جلالي وسلطاني.

﴿وَلَـٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ لترى عجائب قدرتي، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ فصار بأربع قطع، وتبددت في أربع مواطن، فتقطع قلب موسى ﷺ بأربع قطع، قطعة سقطت في بحر الهيبة، وقطعه سقطت في روضة المحبة، وقطعة سقطت في بساتين رؤية المنَّة، وقطعة سقطت في أودية القدرة.

﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ خرج عن الشدة وصاح إليه بالتعظيم، بلسان الحياء ﴿تُبۡتُ﴾ أن أسألك سؤال المحال في غير الوقت.

وقال ابن عطاء: علم الله تعالى منه عجزه عن إقامة حق إرادته وما طلبه، فقال سبحانه: ﴿لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ﴾ فلَمّا رأى الجبل قد صار دكًا صُعق، ولو صحت منه تلك الإرادة، وذلك السؤال لما كان تردعه عن ذلك ألف صعقة، بل كان يقوم على مراده وسؤاله وطلبته.

---

(١) لم أقف عليه.

سُئل الحسين بن منصور: لِمَ طبع موسى ﷺ في الرؤية وسألها قال: لأنه انفرد للحق فانفرد الحق في جميع معانيه وصار الحق مواجهه في كل منظور إليه ومقابلة دون كل محظور لديه على الكشف الظاهر إليه لا على التغيب، فذلك الذي حمله على سؤال الرؤية لا غير.

قال أبو عثمان المغربي: لمّا قال موسى ﷺ: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، قال الله: يا موسى ﷺ اضرب بعصاك الجبل، فضرب عصاه الجبل فظهر سبعون ألف بحر، في كل بحر سبعون ألف جبل، على كل جبل ألف موسى ﷺ عليهم الكساء وبأيديهم العصا، يقولون كلهم: ﴿أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾، فلمّا رأى ذلك ﴿خَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أيطمع في ليلي، وتعلم أنها تقطع أعناق الرجال المطامع.

ثم إن الله سبحانه لمّا أبقى موسى ﷺ في درك حيرة رؤية الأزل، واستغراقه في بحار الشوق إلى وجهه، تلطف عليه وتسلّى قلبه بتعريف منّته الشاملة عليه ليكون شاكرًا لأنعامه، ومتسليًا بتدارك قلبه بإكرامه، فقال: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ أي: سبقت لك في الأزل اصطفائيتك المقدسة عن علّة الحدث برسالتك مني إلى أحبائي، وتلك الرسالة شاملة لجميع ما يتوقع فيه الأولون والآخرون من الدنو ودنو الدنو، والقرب، وقرب القرب، والوصال وكشف الجمال؛ لأنها محل الاستقامة ووجدان جميع المنية.

وأيضًا: سبقت لك الاصطفائية بأن تسمع مني كلامي بلا واسطة، وتعلم منه أسرار ملكي وملكوتي، ألبستك من فعلي لباس الرسالة، ومن أنوار كلامي وصفتي لباس الربوبية؛ فصرت موصوفًا بصفتي حين اصطفيتك، فوقعت في نور فعلي، ثم وقعت في نور صفتي، حتى صرت في معنى الإنصاف مشاهدًا لذاتي، ولا تخلو شعرة من جسدك إلا ولها عين من عيوني فتراني بتلك العيون، فإيش تطلب مني، بقولك: ﴿أَرِنِيٓ﴾ كنْ من الشاكرين فيما أعطيناك من هذه المنازل السنية والمراتب الرفيعة، ولا تكن مهتمًا من قلّة إدراكك غوامض بطون قدمي وأزلي.

وقال بعضهم: الاصطفائية أورثت التكليم والكلام لا التكليم أورث الاصطفائية.

وقيل في قوله: ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾ من عطائي، ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لا مَنْ المدعين المختارين، فما سبق مني إليك أكثر ممّا اخترته لنفسك.

وقال بعضهم: لمّا قال: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾[1] أورث الاصطناع والاصطفائية،

---

(١) أي ربيتك بصنائع المعروف تربية من يتكلف تكوين المربى على طريقة من الطرائق (لنفسي) أي لتفعل =

وكنت مصطفًا على الخلق لا بسابقة سبقت لك إليّ، بل بسابقة مني إليك.

وأيضًا: كنْ مَنْ العارفين بمشكورك، فإن المعرفة بالمشكور هو الشكر لا غير.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إشارة لطيفة، قال: لا تكن منْ الشاكين ولا ممَنْ يشكو، يعني: أن منعتك عن سؤالك، ولم أعطك مطلوبك، لا تشتكي إذا انصرفت، وأنشد في معناه:

إن أعرضوا فهم الذين تعطفوا كم ... قد وفّوا فأصبر لهم إن خلفوا

ثم إن الله ذكر زيادة نعمه عليه بأن عرفه مواضع حقائق علومه الغيبية وأسراره العجيبة، وأنبائه الغريبة الأزلية بقوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾.

في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ﴾ إشارة عجيبة، أي: كتبنا أسرارنا له لأنه أهلها، عارف بها وغيره مقلده؛ لأن أسرار الخطاب إشارات الأزلية إلى حكم الأبدية ولا يعرفها إلا مَنْ كان مصطفى ومصطنعًا لها؛ ولذلك قال: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ و﴿ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً﴾ إشارة إلى ألواح الصفات والذات، كقوله: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ التي خصصناه بها في علومنا الأزلية في الأزل.

وأيضًا: أي كتبنا في ألواح أنوار قلبه من نقوش حروف أسرار الوحدانية، ومن كل شيء إشارة إلى علوم الذات والصفات والأفعال؛ لأنه تعالى شيء الأشياء، أي: علمناه علم ما كان وما سيكون من العرش إلى الثرى، موعظة بلسانه للعارفين والعاشقين والمشتاقين الذين يتعرفون طرق وصالنا.

﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: مبيّن غوامض بطون الأشياء، ومفسر إشارات السرمدية الأزلية، فلمّا أعظم أقدار كلامه في قلبه وعينه، وعرّفهما مكان شكره فيه أمره أن يقبل إليه به لا بنفسه؛ ليعرف به لا بنفسه، ويعمل به لا بنفسه بقوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: هذه أثقال الربوبية ومرجى أمر الأزلية.

=

من مرضاتي في تمهيد شرائعي وإنفاذ أوامري ما يفعله من يصنع للنفس من غير مشارك، فهو تمثيل لما حوله من منزلة التقريب والتكريم، نظم الدرر (٥/ ٢٤٢).

﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ من قواي حين تفرّ من نفسك ومن غيري إليّ بالاستعانة بي، واقتباسك قوة ونصرة مني، فخذها بتلك القوة الإلهية لا بقوة نفسك، فإن قوة نفسك حدثية، ولا تحمل أثقال الربوبية إلا بقوة الإلهية، فإذا صرت مطيتها وحملت تلك الأمانة من قومك.

﴿ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ﴾ أي: بأسهلها عليهم من الأوامر والنواهي؛ لأن حقائقها لا تليق إلا بك وبمثلك.

وأيضًا: يأخذوا بأبينها لهم، وهي المحكمات التي توجب العبودية ويأخذون متشابهها، التي هي وصف الصفات بحسن الاعتقاد والتسليم فيها؛ لأن علومها وحقائقها لا تنكشف إلا للربانيين، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

قال بعضهم في قوله: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ سر الله عند عباده ولأهل خصوصيته لا يحمله منهم إلا الأقوياء بأبدانهم وقلوبهم، ألا ترى الله يقول لكليمه ﷺ: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ والقوة هو الثقة بالله والاعتماد على الله؛ ولذلك قال بعضهم: عطاياه لا يحمل إلا مطاياه.

وقيل في قوله: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذها بي ولا تأخذها بنفسك، فالقوي مَنْ لا حول له ولا قوة، ويكون حوله وقوته بالقوي.

قال الأستاذ: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ فرق بين ما أمر به موسى ﷺ من الأخذ، وبين ما أمر أن يأمر به قومه من الأخذ، أخذ موسى ﷺ أخذًا من الحق على وجه تحقيق الزلفة وتأكيد الوصلة، وأخذهم أخذ قبول من حيث التزام الطاعة، وشتان ما بينهما.

ثم إن الله سبحانه ذكر أن عرائس خطابه ولطائف كلامه لا تتكشف لَمنْ رأى قيمة نفسه في جنات الأزلية وميادين الربوبية بقول: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: ما منع المدعين المعجبين بشأنهم ومزخرفاتهم بمجازاتهم كلام الدعاوي الباطلة.

﴿بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ عن إدراك حقائق خطابي، وفهم لطائف معاني كلامهم؛ لأنهم منكرو كرامات أوليائي وآيات أصفيائي، بوصفه حالهم في تضاعيف الآيات بقوله: ﴿وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا﴾ ثم زاد مباعدتهم من باب التوفيق ووجدان رشد الطريق بقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ﴾

لو تبيّن ألف طريق من طرق الأولياء إلى الله لا يتبعوها لحرمانهم عن مصادقة الحق، وإن ظهر لهم طريق الدعاوي في متابعة الشهوات، اتبعوه وجعلوه سبيل الحق، لأن سجيتهم سجية الضلال، والمتكبر لو عرف التكبر الذي هو كبرياء القدم ما تكبر فإن جميع تكبر الحدثان من جهلهم بكبرياء الحق، وفي كل موضع تبدو سطوات كبريائه، يتلاشى فيها كل شيء، وكل تكبر غير تكبر الله تعالى باطل، إلا مَنْ تكبر بكبريائه حين اتصف بكبريائه، وذلك من إلباس الله إياه نور عظمته وهيبته وكبريائه، فينطق بالحق ويفعل بالحق، ويظهر منه الحق بوصف الكبرياء، علامته أن يخضع له كل شيء سوى الله، وهذا معنى قوله ﷺ: «من خضع لله خضع له كل شيء»[1].

قال بعضهم: التكبر تكبران: تكبر بحق، وتكبر بغير حق؛ فالتكبر بالحق تكبر الفقراء على الأغنياء استغناء بالله ممّا في أيديهم، والتكبر بغير حق تكبر الأغنياء على الفقراء ازدراء لما هم فيه من فقرهم.

قال الواسطي: التكبر بالحق هو التكبر على الأغنياء والفسقة وعلى الكفار وأهل البدع؛ لأنه روي في الأثر: «القوا أهل المعاصي بوجوه مكفهرة»[2].

وقال سهل في قوله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ﴾ أي: هو أن يحرمهم فهم القرآن والاقتداء بالرسول ﷺ.

قال ابن عطاء: سأمنع قلوبهم وأسرارهم وأرواحهم عن الجولان في ملكوت القدس.

وقال ذو النون: أبى الله أن يكرم قلوب البطالين بمكنون حكمة القرآن.

﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ كان

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (١/ ٢٦٥).

(٢) رواه الديلمي في الفردوس (٢/ ٥٦).

القوم في طلب الحق غلب عليهم رعونات الطبيعة من جهة ما شموا بعض روائح القرب، فصار في قلوبهم حلاوة فباشرت تلك الحلاوة قلوبهم، ولم يكن غالبًا يفني صفات الإنسانية منها، فاختلط ذلك الحظ بحظوظ البشرية، فلمّا هاجت حلاوة البشرية غابت حلاوة القرب، وعشقه في عشق الإنسانية وحظ البشرية، فطلبت القلوب المطلوب بعد ذلك في كل منظور من الحدثان على صورة المخاييل، لأن حظوظ بشريتهم أورثت في قلوبهم الخيالات المختلفة فسقطوا عن رؤية التوحيد وإفراد القدم عن الحدوث، وبقوا في طلب الخيال وبحثه عن كل شيء، فكل متحرك يتحرك لهم قبلوه بالمعبود من قصورهم عن كمال العشق وحقائق التوحيد، فكسا الحق سبحانه العجل كسوة من قهر ربوبيته امتحانًا للقوم، فوقعوا في حسن اللباس واحتشموه، واحتجبوا من رؤية القهر والامتحان، ولو خرجوا من أوائل الالتباس لأحرقوه كما أحرقه موسى ﷺ، وكذا حال مَنْ لم يبلغ إلى درجة التوحيد، وبقى في رعونة العشق حتى يؤول حلاله إلى حد غار عليه التوحيد والجاه إلى القتل؛ لأنه بقى في رؤية غير الله، والمشرك في التوحيد وجب قتله في طريق المعرفة، ألا ترى أن الله سبحانه أمرهم بقتل أنفسهم بقوله: ﴿فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾.

قال سهل: عجل كل إنسان ما أقبل عليه وأعرض به عن الله من أهل وولد، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد فناء جميع حظوظه من أسبابه، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا من بعد قتلهم أنفسهم.

وقال الأستاذ: لم يظهر قلوبهم في ابتداء أحوالهم عن توهم الظنون، ولم يتحققوا بخصائص القدم وشروط الحدوث، فعثروا عن أقدام ذكرهم في وهاد المغاليط.

ويقال: إن أقوامًا رضوا بالعجل أن يكون معبودهم، شمت أسرارهم نسيم التوحيد، هيهات لا ولا من لاحظ جبرائيل أو ميكائيل أو العرش والثرى أو الخلق والورى.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا﴾ وصل إلى كليم الله المضرب قهر ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾، ورجع غضبانًا منه عليه، من غلبة انبساطه وشربه كأس سم أفاعي الفراق، أسفًا ممّا فات من وصول الوصول، ورجع إلى قومه مع شريعة العبودية في تلك الحالة، ورأى عبدة العجل صار كأسود الجياع مع قومه وأخيه، فإن الكليم رجع من باب الأزل الذي كان الحدثان هناك بأسرها أقل من ذرة، فرأى دناءة همم القوم حين اختاروا مصنوعهم بالإلهية، وأين العقل والفهم والعلم والإنسانية هناك؟

والعقل لا يقبل من وصفه التغير والأصوات والخوار، والمشابهة، والجسدية والمماثلة بالإلوهية المنزَّهة عن المتشابه بأشكال الحدثان.

ألا ترى أن الله ﷻ وصف العجل بالعرض والجوهر حيث قال: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾ ووصفه بأنه لا يكلمهم من عجزة عن إبداع الكلام، ولا يهديهم إلى سبيل نجاتهم من قهر ربوبية الأزل، وليس مَنْ يقدر بالكلام فهو إله إرادته، لا يكلمهم مثل كلام الأزلي الذي يكلمهم الله الذي من وصفه أنه صفة الأزل المنزَّه عن الخوار والأصوات والهمهمة والأنفاس والحروف والقياس.

قيل: ﴿أَسِفًا﴾ على ما فاته من مخاطبة الحق إلى مخاطبة مَنْ لا أوزان لهم، فرده من شوقه إلى مشاهده؛ لئلا يقطعه، وحال شوقه ومن بقية سكره وغضبه من فوت مكالمة الحق، وأسفه على فوت مشاهدته.

﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ إن الله سبحانه علم شوق موسى ﵇ إلى جماله وعشقه بوجهه فأراه كل وقت ما أغاره عليه؛ لزيادة حرقه، وهيجانه أغضبه؛ لأن الله أحب غضب كليمه، وهكذا عادة الأحباب فأبرز من أول اللوح نعوت نبينا ﷺ فلمّا رأى بينه وبين حبيبه مَنْ أقرب منه إليه غضب من غيرة العشق، وهكذا شأن العاشقين.

وأيضًا: ذكر أيام الوصال وطيب المناجاة بغير واسطة الألواح، فإلجاء فوت تلك المقامات إلى كسر الألواح فألقى الألواح؛ لأنها عارضة بينه وبين خطاب محبوبه صرفًا بلا واسطة، وجرَّ أخيه إليه؛ لأنه رآه في مقام الشريعة مشغولاً عن تلك المواقف القدسية التي خرج منها.

قال أبو سعيد القرشي: مَنْ تحرك غيرة للحق فإن الحق يحفظ عليه حدوده لئلا تخرجه الحركة إلى شيء مذموم كموسى ﵇ لّما ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره، لّما رأى قومه يعبدون العجل، فلمْ يعاتبه الله على ذلك، ولو باشر أحد من الكسر والأخذ ما باشر موسى ﵇ كان ملومًا، ولكن حركة موسى ﵇ كانت ملاحظ لموسى ﵇ فيه، بل قام غيرة لله وانتقاله، فلمْ يزدد بذلك من الله إلا قربًا.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا

وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ لمّا أخطاؤا طريق طلب الحق واقتدوا بمَنْ لا يعرف الله أبقاهم الله في شره شرب حب العجل، وصاروا بين الموحدين والعارفين أذلاء، وكذا حال كل مخطئ في الطريق ومبطل في الاقتداء، بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ الذين يدعون ما لمْ يجدوا من المقامات والأحوال، لكن من فضله ورحمته عرفهم موقع الخطأ حين قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ ندموا على تقصيرهم رؤية الحقيقة.

﴿وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟﴾ عن طريق المعرفة، ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا﴾ بأن تقبلنا بشركنا في التوحيد حتى نجدك بدرجة الشهادة، ﴿وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ بأن تخرجنا من رؤية غيرك إليك، ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ الذين فارقوا حظ مشاهدتك بغيرك.

قال أبو عثمان: مَنْ أقبل على الله فلينتظر الراحة والزلفة والقبول، ومَنْ أعرض عنه فلينتظر الذل والسخط والبغضة مع غضب الله في الآخرة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ الآية.

قال الحسين بن الفضل: لا ترى مبتدعًا إلا ذليلاً؛ لأن الله يقول: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا﴾ اختار موسى عليه السلام من شربه في الولاية شربه في النبوة من أولياء أمته، ألا ترى قوهم لمّا سمعوا خطاب الحق بلا

واسطة واستلذّوه، وسكروا بطيب الخطاب كيف قالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وكيف أحرقتهم الصعقة؛ لأنهم ضعفاء في الحقائق، اختار منهم سبعين؛ لأن في كل أمة سبعين من البدلاء والأولياء والنجباء، وكذا في أمة محمد ﷺ.

قال بعضهم: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ﴾ على عدد الأولياء في الأمم السالفة وفي أمته، وهم السبعون الذين إليهم يفرغ الخلق وبهم يحفظون، ثم لمّا وصل إلى القوم ما وصل إلى موسى ﷺ صعقوا وفنوا تحت الصعقة؛ لضعف قلوبهم عمَنْ حمل سطوات العظمة، اشتد على كليم الله وهاج سره بالانبساط لقوله: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ﴾ أهلكتهم بنظرهم إلى العجل بين بني إسرائيل وإياي في صعقتي.

﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾ تؤاخذنا بتقصير عبدة العجل، وهذا عادة الملوك إذا جنوا أخذوا أعيانهم، ويمكن أن قوله: ﴿بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ إشارة إلى الغائبين في سكرهم بلذّة خطاب الحق حين سمعوه وقالوا: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ وهم ضعفاء الحالات، أي: تهلكنا بقول السكارى.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ أطلق لسان الانبساط، وخرج من سجف الاحتشام من بقايا خمار تلك الشربات في وقت التجلي، أي: ما هي الصعقة إلا امتحانك لعشاقك من عشقك لهم في الأزل، وهذا من صنيعك بمحبتك ألا ترفع محبك عن المشتاقين إليك.

إلىَ مَتَى تَحتَجب مِنَّا ... أَمَا آنَ للهجرانِ أَنْ يَنصَرِمَا
والغصنُ غُصنُ البَانِ أَنْ يَتَبَسَمَا ... والعاشِقُ الصبُّ الذِي ذابَ وانحَنى

وفي هذا المعنى أنشد حسين بن منصور حين أرادوا قتله كان يتبختر ويقول:

نَديمِي غَيرُ منسوبٍ ... إلىَ شيءٍ مِنَ الحيفِ
سَقَاني مِثلَ مَا شربَ ... فعلَ الضيفِ بالضيفِ
فلمَّا دَارَتِ الكَأسُ ... دَعَا بالنطعِ والسيفِ
كذَا مَنْ يَشربُ الرَّاحَ ... معَ التنينِ فِي الصيفِ

فلمّا سكن موسى من حدة الانبساط رجع إلى مقام التوحيد وقطع الأسباب في العبودية وقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا﴾ أي: تضل وتحجب بامتحانك واختيارك، ﴿مَن تَشَآءُ﴾ مشاهدتك، ﴿وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾ إلى وصالك، فمنَّا مَنْ بقي في الصعقة عن المشاهدة، ومنَّا مَنْ وصل بك إليك في الصعقة، وذلك فرق بين مراتب النبوة والولاية، ثم نظر إلى كلائته

أنبيائه وأوليائه في مقام امتحانه فقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ أنت حافظنا منك فيك ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا﴾ جناية انبساطنا في مقام رؤية هيبتك ﴿وَٱرْحَمْنَا﴾ بكشف مشاهدتك لنا بلا امتحان ولا واسطة الحيل، ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ﴾ لأنك قديم ومغفرتك صفتك شاملة على جميع الجنايات منزّهة عن خلل الحدثان.

﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ اجعل نصيبًا منك في الدنيا مشاهدتك، ومعرفتك بالعافية عن قهرك وامتحانك، ﴿وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ بغير واسطة الجنة وما فيها، ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ رجعنا مِنا إليك، وفررنا منك إليك.

قال ابن عطاء: أقبلنا بالكلية عليك.

ويقال: إن موسى ﷺ جاهر الحق بنعت التحقيق وفارق الحشمة، فقال صريحًا: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾[1]، ثم وكل الحكم إليه فقال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ﴾، ثم عقبة ببيان التضرع فقال: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾.

قال الأستاذ في قوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ﴾ مِلنا إلى دينك وصرنا لك بالكلية من غير أن نترك لأنفسنا بقية، فلمّا سأل موسى ﷺ وقاية الحق من الحق لئلا تدخل في مربع الأنس واللطف زحمة القهر واستوفى منه حظ مشاهدته بلا كدورة الحجاب، فرارًا من قهره إلى لطفه ومنه إليه إجابة الحق، أن لطف القديم مع قهر القديم بظهور فوقية قهر القدم على الحدث، وإدخال إعتاق الخليفة تحت إقدام الهيبة بقوله: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ أي: عذاب فراقي وامتناعي من مطالعة أرواح القلوب على نعت السرمدية، وأوصل إلى من شاء من العارفين والمحبين، تربية وامتحانًا لهم في العبودية، وصل عذابه بالمشيئة، وهو موضع رجاء وخوف لأهل الإيمان، ثم عمَّ الكل برحمته الواسعة الأزلية الشاملة على كل ذرة بقوله: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ جميع الخلائق مستغرقون في بحار رحمته؛ لأن إيجاد الحق إياهم على أي وصف كانوا عين رحمته، حيث جعلوا تحت نظره وسلطانه وربوبيته ومباشرة قدرته فيهم، ثم إن الخلق بالتفاوت في الرحمة، فالجمادات مستغرقة في نور فعله وهي الرحمة الفعلية

---

(١) أي: محنتك وابتلاؤك حيث أسمعتهم كلامك فافتتنوا بذلك ولم يثبتوا فطمعوا في الرؤية.

يقول الفقير: هذا يدل على أنهم سمعوا كلامه تعالى على وجه الامتحان والابتلاء لا على وجه التكرمة والإجلال وذلك لا يقدح في كون موسى ﷺ مصطفى بالرسالة والكلام مع أنه فرق كثير بين سماعهم وسماعه ﷺ والله أعلم. تفسير حقي (٤/ ٢٨٧).

والحيوانات مستغرقة في نور صفته، وهي الرحمة الصفاتية والعقلاء من الجن والأنس والملائكة مستغرقون في فوز ذاته وهي الرحمة الذاتية القديمة من جهة تعريفهم وربوبيته ووحدانيته، وهم من جهة الأجسام وما يجري عليها في الرحمة العامة، ومن جهة الأرواح وما يجرى عليها في الرحمة الخاصة وهم فيها بالتفاوت، فبعضهم في رؤية العظمة ذابوا، وبعضهم في رؤية القدم والبقاء تاهوا، وبعضهم في رؤية الجلال والجمال عشقوا فطاشوا، ومَنْ خرج من مقام الرحمة إلى أصل الصفة، ومن الصفة إلى أصل الذات استغرق في الراحم وفني عن الرحمة فصار رحمته للعالمين، وهذا وصف نبينا محمد ﷺ، لأنه وصل بالكل إلى الكل، فوصفه برحمة الكل بقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم خصَّ رحمة الخاص الصفاتية بعد أن عمَّ الكل برحمته العامة للمتفردين بالله عن غير الله، الفانين بعظمته في عظمته، الذين بدلوا وجودهم لحق ربوبيته عليهم بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي: يتقون في محبة مشاهدته عن كل مألوف ومحظوظ دونه، ويؤتون الزكاة، يتقربون إليه بذبح نفوسهم لديه.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ يشاهدون مشاهدًا في رؤية آياتنا.

قال الواسطي في قوله: ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ ذلك في نفس العارف ما عرفه أحد إلا تكدر عيشه، وأرباب الحقائق ألا يعذبون في الدنيا إلا بتواتر نعم الله عليهم والتقرب، حتى يرد عليه ما منه بغيب من الصفات والنعوت، فيرتفع عنه سوء الأدب في السير.

وقال الكتاني رحمه الله: تسمع كل شيء، لكن خصَّ بها الأتقياء، قال الله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

وقال أبو عثمان: لا أعلم في القرآن أنه يقنط من قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ والناس يرونها أرجى آية، وذلك أن الله يقول: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ومَنْ يمكنه بصحيح التقوى فتكون بشرط الآية.

وقال بعضهم: وصف العذاب بصفة الخصوص مقرونًا بالمشيئة، وعمَّ الرحمة أنها تسع كل شيء، ثم وصف الله هؤلاء المتقين بالأسوة والقدوة والاقتداء في تقواهم بالنبي ﷺ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾.

وصف الله نبيه ﷺ بالأمية، كان ﷺ أميًا بأنه كان قبل الكون في بحر الوصلة ومهد القربة، شرب ألبان النبوة والرسالة والاصطفائية من ثدي مرضعة خاصة الأزل، كان أميًّا

كالولد العزيز في حِجْرِ أمه لا يجري عليه ما يؤذيه، كان في حِجْرِ الأزل رباه الله بلطفه وغذاء مشاهدته، وصيَّره مقدسًا في وقاية كرمه عن المكر والقهر.

ألا ترى كيف قال ﷺ: «اللهم واقية الواقية»[1].

الوليد وصفه، تقدس رسالته، ولطف نبوته عن جميع علَّة الاكتشاف، تلقف من فلق شرف العناية كلمات الأزلية بلا واسطة الحدث، لا يلتفت إلى علم المكتسب من الحدثان لاستغراقه في بحار علوم الرحمن.

قال ابن عطاء: الأمي هو الأعجمي، قال:يكون أعجميًّا عمَّا دوننا، عالمًا بنا وبما نزل عليه من كلامنا وحقائقنا.

وقال: الأمي مَنْ لَمْ يعلم من الدنيا شيئًا، ولا من الآخرة إلا ما علمه ربه، حالته مع الله حالة واحدة وهي الطهارة بالافتقار إليه، والاستغفار عمَّا سواه، وزاد الله في وصفه ﷺ في وضع أثقال الشرك والضلال وأغلال المخالفات عنهم في متابعته والاقتداء بسنته بقوله: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

كان القوم بقوا في أسر المجاهدات بلا مشاهدات، وأغلال الرياضات بلا مكاشفات، فلمَّا اتبعوه خرجوا من حدِّ الجهالة بطريق المعرفة واستنار لهم سبل الحقيقة ببركة السنة، فوجدوا بدائع ألطاف الغيبة بنعت الجذب والمواجيد البديهية، فيخفف عنهم ما عليهم من أثقال الرهبانية، وانحلَّ عن أسرارهم أغلال الشيطانية النفسية، وأيضًا لَّما رآهم ﷺ تحت قهر البعد وأغلال فقدان المعروف، حيث إنهم كانوا مطايا أثقال القهريات المسرورات بأسر الغضب القديم، فأبرز لهم أنوار النبوة من مصباح الرسالة ودعاهم من طريق الهوى والمنى إلى محجة التقوى، وسبيل الرضا ومشاهدة المولى؛ فأجابوا بنعت الاقتداء؛ فترفهوا من علَّة البدعة بروح السنة.

قال جعفر ﷺ : يضع عنهم أثقال المشرك وذل المخالفات وغل الإهمال.

وقال الأستاذ: لا شيء أثقل من كد التدبير، فمَنْ ثقل عن كد التدبير إلى روح شهود التقدير فقد وضع عنه المعرفة، واستنار لهم سبل الحقيقة ببركة السنة؛ فوجدوا بدائع ألطاف الغيبية بنعت الجذب والمواجيد البديهية، فيخفف عنهم ما عليهم من أثقال الرهبانية، وانحل عن أسرارهم أغلال الشيطانية النفسانية.

وأيضًا لما رآهم ﷺ تحت قهر البُعد، وأغلال فقدان المعروف حيث إنهم كانوا مطايا أثقال القهريات المأسورات بأسر الغضب القديم، فأبرز لهم أنوار النبوة من مصباح الرسالة،

---

(١) رواه القضاعي في الشهاب (٢/ ٣٣٩)، بنحوه.

ودعاهم من طريق الهوى والمنى إلى محجة التقوى، وسبيل الرضا، ومشاهدة المولى فأجابوا بنعت الاقتداء فترفهوا من علة البدعة بروح السنة.

قال جعفر ﷺ: يضع عنهم أثقال الشرك، وذل المخالفات، وغل الإهمال.

وقال الأستاذ: لا شيء أثقل من كد التدبير، فمن ثقل عن كد التدبير إلى روح شهود التقدير فقد وضع عنه كل إصر، وكُفِي كل وزر وأمر، والأغلال التي كانت عليهم ما ابتدعوه من قبل أنفسهم باختيارهم في التزام طاعات الله، لم يفرض عليهم.

ثم وصف هؤلاء بالإيمان والإيقان، وإعانة رسوله ونصرته ﷺ ومتابعة القرآن بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي: شاهدوا مقامات النبوة بنعت الولاية، وبذلوا مهجتهم في نصرته على أعداء الله، وسلكوا بنور القرآن طريق العرفان.

ثم وصفهم بالفوز والنجاة من أيدي الشياطين، وهواجس النفوس بنور القرآن والسنة، وظفروا بمشاهدة الحق وحلاوة محبته.

قيل: اتّبعوا سنّته؛ ليوصلهم اتّباع السنن إلى مبادئ الأحوال السنّيّة.

قال بعضهم: صدّقوا ما جاء به، وبذلوا المُهج بين يديه، ثم أمر نبيَّه ﷺ بإظهار ما أعطاه الله من رفيع درجاته، وسني معجزاته، ولطيف كراماته لمن له استعداد الإنسانية، وقبول الحقّ للعقل حجّةً للعالمين، وانفتاح أبصار الصدّيقين بأنوار جماله وسنا جلاله، بقوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي: مخبركم عن شوق الله في وجوه العارفين، وطبيب أمراض الخليقة، ودليلهم إلى طريق الحقيقة، ومنقذ العالمين من البدعة بأنوار الشريعة، وأمره بوصف جلاله وملكه على انتظام السماوات والأرض،وإيجاد الخلق وإفنائهم بالحقّ، بقوله: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾: نفى الأنداد والأضداد من ساحة الكبرياء، ووصفه بإحاطته على ملك السماوات والأرض بالعزّ والبقاء، وبأنه يُحيي قلوب العارفين بمشاهدته، ويُميت قلوب أعدائه بقهره.

ثُم أمره بأن يأمرهم بالإيمان به وبرسوله بنعت معرفته، وشهودهم مشاهدة نبوة نبيِّه.

ثم وصف رسوله بالأميّة عمّا دونه، وشهوده مشاهدة قدم به لا بنفسه، ورؤية ما أخبر عن أسرار ذاته وصفاته في كلامه، بقوله: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ أي: يؤمن بالله بنعت الرضا عنه فيما يجري عليه من قضائه وقدره، ووصف حضور قلبه بنعت الكشف بين يديه، ويوقن ما أخبر له من أسرار الآزال والآباد.

فلمّا كمل في ثنائه، ووصفه بأحسن الوصف، أمرَ الجمهور بمتابعته؛ ليجدوا بنوره مناهج معرفته، بقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: جعل متابعة نبيِّه مفاتيح فواتح خزائن كنوز معارف ذاته وصفاته، أي: اتبعوه بنعت المحبّة، ووصف الاقتداء بالسنَّة بغير المخالفة، لعلَّكم ترشدون مشاهد أنوار الذات في الصفات، ومساقط تجلِّي الصفات في الأفعال، وهذا وصف مَن تجانس له فطرة الولاية، فطرة النبوة والرسالة.

فإذا وصل نور الرسالة إلى نور الولاية، ظهرت طرق المعرفة لأهل الخالصة من المشاهدة ليس علَّة المعرفة المتابعة، ولكن علَّة المتابعة المعرفة؛ لأنَّ منها ينشعب جميع المعاملات السنيَّة، والحالات الشريفة، فالمتابعة تكليف، والمعرفة تشريف، التكليف للأشباح، والتشريف للأرواح.

قال الحسين بن منصور: إنَّ الحقَّ أورد تكليفه على ضربين: تكليفًا عن وسائط، وتكليفًا بحقائق، فتكليف الحقيقة بدت معارفه منه، وعادت إليه، وتكليف الوسائط بدت معارفه عمَّا دونه، فلم يصل إليه، فتناهى من معارفهم إلى نهايات معرفة أهل الوسائط، ولم يتناه معارف من أحدٍ معارفه عن شهود الحقِّ، كلُّ ذلك رفقًا من الحقِّ بالخلق؛ لعلمه بأنَّه لا يوصل إليه إلا بما منه.

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾ وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا

نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾: وصف الله قومًا من أمة كليمه ﷺ، الذين وصل إليهم ما مَنَّ الله على موسى بكشف الأنوار لأرواحهم، وفتح آذان قلوبهم لسماع خطابه، هم وجدوا الله بالله، واتّصفوا بصفاته، فأخبر الحقُّ عن اتِّصافهم بصفاته، حيث قال: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾: والهداية صفته، أي: يهدون بنور الله عباد الله إلى الله لا بهم، وهُم على الحقّ لا بصورة العماء والغلط والظنون والحظوظ، ﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: بعدله وباتّصافهم بعدله، يعدلون بين الحقِّ للحقِّ، لا لأنفسهم يتَّصفون بالله لله، لا يخافون لومة لائم: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

قيل: يدلون الخلق على طريق الحق، وإيّاه يسلكون، ثم وصف الله قوم موسى بأنهم على اثني عشر طريقًا من طرق المعارف، بقوله: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾[1].

وجعل ضرب موسى الحجر مثلًا لانفتاح قلوبهم مشارب الألوهية، بقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: ضرب يد الأحدية بعصا العناية صفوان الأزل، فظهر من عيون القِدم، وبحار الأولية لأرواح الموحّدين، وقلوب العارفين، وعقول العاشقين، وأسرار الشائقين، وهمم المحبِّين، وأفئدة الموقنين، وخواطر المكاشفين، وصدور المشاهدين، وعلوم السالكين، ونيَّات الصادقين، ومزار نور الراضين، ووجود المريدين ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾: من عيون الصفات الخاصة لعرفان أهل العيان.

منها: عين القدم، وهي مشرب أرواح الموحِّدين.

ومنها: عين البقاء، وهي مورد قلوب العارفين.

---

(١) قال ابن عجيبة: (أسباطًا): بدل لا تمييز؛ لأن تمييز العدد يكون مفردًا ، والتمييز محذوف ، أي: فرقة أسباطًا. وقال الزمخشري: يصح تمييزًا؛ لأن كل قبيلة أسباطٌ لا سبط، فكأنه قال: وقطعناهم اثنتي عشر سبطًا سبطا. والسبط في بني إسرائيل كالقبيلة عند العرب، و(أُممًا): بدل بعد بدل على الأول، وعلى الثاني بدل من أسباط. يقول الحقّ جلّ جلاله: (وقطَّعناهم) أي: بني إسرائيل: فرقناهم (اثنتي عشر أسباطًا)؛ اثني عشر سبطًا، (أُممًا): متميزة، كل سبط أمة مستقلة. البحر المديد (٢/ ٣٠١).

ومنها: عين الجمال، وهي مورد عقول العاشقين.

ومنها: عين تجلِّي الوجه الذي هو صفته الخاصة، وهي مشرب همم المحبِّين.

ومنها: عين القدرة، وهي مشرب أفئدة الموقنين.

ومنها: عين العلوم، وهي مشرب خواطر المكاشفين.

ومنها: عين صفة السمع، وهي مشرب صدور المشاهدين.

ومنها: عين صفة البصر، وهي مشرب علوم السالكين.

ومنها: عين الكلام الأزلي، وهي مشرب نيَّات الصادقين.

ومنها: عين الإرادة القديمة، وهي مشرب من أنوار الراضين.

ومنها: عين الحياة القديمة، وهي مشرب وجود المريدين.

أما انفجار عين القدم لأرواح الموحدين؛ لأن القدم أصل الأصل، وماهية عين الكل.

ومنها: انفتح أنوار التوحيد للموحِّدين، والموحِّد لم يبلغ إلى درجة حقائق التوحيد إلا بعد شربه زلال الحقيقة من بحار القِدم.

وذلك الشرب يكون للأرواح الطائرة بأجنحة القدم في القدم، وتلك الأرواح لاتبرح من تلك البحار؛ لأنها تعيش بها أبدًا، ولا ترجع منها إلى غيرها من الصفات إلا ما شاء الله.

وأما انفتاح عين البقاء لقلوب العارفين؛ لأنّها مصارف جميع الصفات، وهي أصلٌ ثانٍ.

ومنها: تنبت كشوف الصفات، وشهود أنوار الذَّات.

والعارف لا يبلغ إلى درجة المعرفة، إلَّا بعد أن يشرب منها شراب وصال البقاء بنعت السكر والصحو، ومن زاد سكره للبقاء زاد صحوه؛ لأن البقاء يوجب التمكين، وهم لا يلتفتون من ذلك المقام إلى مقام آخر؛ لأنَّ قلوبهم استغرقت في ذلك البحر.

وبحر البقاء باقٍ لها، ليس له ساحل، وهي لزيادة العطش.

وأما انبجاس عين الجمال لعقول العاشقين؛ لأن الجمال يوجب العشق للعاشقين، ولا يكون العاشق عاشقًا إلا بعد رؤيته جمال الحقِّ سبحانه، وتلك العقول هائمة في ذلك لا تسكن عنها أبدًا، ولا ترجع إلى مقام آخر من استلذاذها حلاوة الجمال.

وأما انفتاح عين تجلِّي الوجه لأسرار الشائقين؛ لأنها سبب سكر العشاق، سكرت تلك الأسرار برؤية تلك الأنوار، وهي هائمة أبدًا، لا يرجع منها إلى غيرها من المقامات والحالات؛ لأنَّ الشوق ألذُّ الأحوال، ولا يبلغ الشائق إلى درجة الشوق إلا بعد كشف تجلِّي الوجه له.

وأما انفتاح عين الجلال لهمم المحبِّين؛ لأن الجلال مشرب تلك الهمم يوقعها إلى

البحرين بحر الهيبة، وبحر الإجلال، والإجلال يورِّث لها الخوف، والهيبة تورث لها الحياء وهما أخصُّ صفات المحبِّين، وصفة الجلال شاملة لصفة الجمال، والجمال يظهرها في الجلال؛ لذلك استروحت تلك الهمم في أوقات عن برحاء الجلال، وكلُّ محبٍّ لم يبلغ مشاهدة الجلال لم يبلغ إلى درجة المحبّة بالكمال.

وتلك الهمة تنصرف بذاتها عن ذلك المقام تارة إلى محلِّ الجمال؛ لاقتباس نور الشوق والعشق؛ لأن الجلال والجمال مصدرهما عين واحد، وإن كان تأثيرهما في التجلِّي والمباشرة مختلفًا.

وأما انفتاح عين القدرة لأفئدة الموقنين، وهي بكشوفها تزيد أنوار الإيقان للموقنين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥].

ومشربها تجري على سوابق الآيات، والأفعال في حدود الالتباس، ونحلت نفس الصفة صرفًا بغير رؤية الآيات إذا كان صرفًا، فهي توجب العرفان، وإذا لم تكن صرفًا توجب الإيقان، وكيف يكون الموقن موقنًا، ولم يشرب فؤاده من هذين السقيين، وأفئدة الموقنين هامت من سكرها من شرب سلسبيل عين القدرة، ولا يرجع منها إلا بعد الاستيفاء منها إلى أعلى المقامات من شهود العين، ورؤية جميع الصفات، فهي على نعت الترقِّي؛ لأنّ تأثير القدرة في الأشياء على نعوت التغاير، وإن كانت عينها مقدسة من علَّة التلوين.

وأما انفتاح عين العلوم الأزلية اللدنية لخواطر المكاشفين، وذلك أن عرائس الغيوب بلباس المعلوم تنكشف لخواطر المكاشفين، وهي تورِّث لعيونها مشاهدة الصفات والذات، وتورث من فوائد وجدان نضارتها وبهجة سناها علوم المعارف الإلهية، كلُّ كشفٍ بغير علمٍ لا يكون على حد الكمال والعلم إلا تفارق الكشف؛ لأن الكشف محلّ الخطاب، والخطابُ يوجب العلم، لكن ربما تلوح بوادي الكشوف لضعفاء الطريق بالبديهة، ولا يفهمون عنها أنباء العجيبة الإلهية.

وكلُّ خاطرٍ لم يشرف على هذين المنزلين، فهو ناقص عن محلِّ الربانيَّة، وتلك الخواطر معادنها علوم الأزلية، مستلذة دقائق العلوم من حيث حلاوة الكشف، وحلاوة الخطاب.

وأما انفتاح عين السمع لصدور المشاهدين يوجب لها أسماع الإلهية التي تسمع لها أصوات جريان أقلام القضاء والقدر من العرش إلى الثرى، وتسمع من الحق بسمع الحق ما يقول الحق، قال تعالى: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧].

وتلك الصدور حاضرة الغيب، لا تُحس لهواجس النفوس، واصطكاك غيوم ظلام

الشياطين.

ومَن لم يبلغ إلى وجدان تلك الصفة في صدوره، لم يكن من السامعين أصوات جرس الوصلة.

وأما انفتاح عين البصر لعلوم السالكين، وذلك أن أنوارها تُبيِّن لعلومهم طرائق الغيب، وأحكام المتشابهات، ومغيَّبات الحكم، ومَن لم يبلغ إلى ذلك المقام، ولم يشرب من شربه لم يكن من المتفرِّسين في القلوب، ولم يكن من المشاهدين في الغيوب.

وأما انفتاح عين الكلام الأزلي لنيَّات الصادقين، وذلك المشرب مخبر مشارب جميع الصفات؛ لأنه من كلِّ صفةٍ فراج، فكلُّ صادقٍ يتكلم الحق معه بكلام القديم، يصير بنوره مطلقًا على جميع الصفات، عالمًا بأسمائها ونعوتها، مشاهدًا للذات مع جميع الصفات وتكون نيَّته معلَّقة بجريان خطاب الأزل، يجري بجريانه حيث يجري، ويدور حيث يدور، ولذلك هي محفوظة من خطرات الشك والريب، مرقومة بنور الإخلاص، ومَن لم يذق طعم ذلك المشرب ليس بصادقٍ في المعرفة؛ لأنه لم يكن معه مفاتيح كنوز الذات والصفات من الكلام.

وأما انفتاح عين الإرادة القديمة لمراد نور الراضين، وذلك أن الرضا بالإرادة يكون من نور الإرادة، مُزيلًا كلّ إرادة غير إرادة الله، فإذا زالت الإرادات عن قرار نور أهل الرضا بقيت إرادة الله فيه، فتكسبه سناها حتى تصير إرادة الراضي إرادة الحق، فإذا كانت الإرادة إرادة فردة، ولم يبق غيرها، أورثت له حُسن الرضا، وذلك الرضا من رضوان الله، فصارا متَّصفين، يورثان من معدن الأصل الرضا للراضي، فحينئذٍ إرادة الله، ورضي برضا الله، قال الله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: ١١٩].

وكل ذلك جرى له في سابق الحكم والعلم، فباشر حين وقع تجلِّيه على قلب الراضي بغير علة اكتسابه، ولا بحوله وقوته.

وأما انفتاح عين الحياة الأزلية لوجود المريدين، وذلك أن المريد ميِّت عن حياتها لمعرفةٍ، فيحييه الله بشربات ماء حياته، فلا يموت بعد ذلك أبدًا.

قيل: العرفاء لا يموتون، فإذا شرب المريد من عين حياة الأزلية يستقيم بها في رؤية جميع الصفات؛ لأن الحياة أصل جميع الصفات، وجميع الصفات كأنه قائمة بها، ومن لم يشرب من ذلك المشرب شربة الحياة لم يقدر أن يسبح بهمّيته في بحار الملكوت والجبروت، ولم يرَ جواهر الصفات، ولآلئ الحكم والعلم في بحر البقاء والأزل، ولهؤلاء الطيَّارين في هواء الهويب، والسيَّارين على مراكب الجود في ميادين الأحدية طيرانًا وسيرًا بقوة الشرب من مشارب الغيب، والترقِّي في المقامات والدرجات إلى أعلى معالي درجاتهم من القرب

والوصال.

وكل طائفة منهم عرفوا مشاربهم، قال الله تعالى في تمام الآية: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ [البقرة: ٦٠].

لكلٍّ واحدٍ منهم أعلام طريقة إلى الله من سلب المواجيد، وحركات الجذب، وظهور الصفة، وإلقاء السمع، واستماع الخطاب، ويعرف منتهاه، ويعلم مقصده، وزيادة طلبه من قرب الحق ووصاله.

حكي عن الرضا عن أبيه، عن جعفر بن محمد في هذه الآية قال: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ من المعرفة: ﴿ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ يشرب كل أهل مرتبة في مقام من عين من تلك العيون، على قدرها[1]، «فأول عين» منها: عين التوحيد.

و«الثانية»: عين العبودية، والسرور بها.

و«الثالثة»: عين الإخلاص.

و«الرابعة»: عين الصدق.

و«الخامسة»: عين التواضع.

و«السادسة»: عين الرضا، والتفويض.

و«السابعة»: عين السكينة، والوقار.

و«الثامنة»: عين السخاء، والثقة بالله.

و«التاسعة»: عين اليقين.

و«العاشرة»: عين الفعل.

و«الحادية عشرة»: عين المحبّة.

و«الثانية عشرة»: عين الأنس والخلوة، وهي عين المعرفة بنفسها.

ومنها تنفجر هذه العيون، من شرب من عينٍ منها يجد طلاوتها، ويطمع في العين التي هي أرفع منها، من عين إلى عين حتى يصل إلى الأصل، فإذا وصل إلى الأصل تحقق بالحق.

وقال بعضهم في قوله: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾: ظهر لكل سالك سلوكه، وآثار برهانه، وبركات سعيه، وأنوار حقائقه.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ

---

(١) قال الحدادي: الانبجاس خروج الماء قليلا والانفجار خروجه واسعا وإنما قال فانبجست لأن الماء كان يخرج من الحجر في الابتداء قليلاً يتسع فاجتمع فيه صفة الانبجاس والانفجار.

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: تتابع الاستتار والتجلّي في أقلّ لمحة، أحدهما يتابع الآخر لبدا قهر القديم، ولطف القديم، وخفائهما من معدن الأصل توجبان القبض والبسط، والكشف والحجاب.

قال بعضهم: ما كان في القرآن من قوله: ﴿لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾: فإنها عقوبة الحجاب عنه.

قوله تعالى ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾: فوق الأولياء والأعداء في الأرض؛ ليعيش كل طائفة بما خلق لها من الطاعة والمعصية. ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ :خلفاء الأنبياء.

﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ﴾ يعني: المستبدّين بآرائهم غير مقتدين بالأولياء والصدّيقين.

﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾: جعلناهم جميعًا في درك الامتحان؛ لأن المولى مقهور القهر، ومعطوف اللطف، فقهره يورث المعصية والحجاب، ولطفه يورث الطاعة والكشف، ففي العقوبة مطالبون بالصبر، وفي النعمة مطالبون بالشكر، فالصبر منهم محال إلا بمعرفة الله، والشكر منهم محال إلا بكشف جمال الله لهم.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: من البلاء إلى مُبليهم.

قيل: اختبرناهم بالنعم طلبًا للشكر، واختبرناهم بالمحن طلبًا للصبر، فأبى الجميع، فلا هُم عند النعم شاكرون، ولاهم عن المحن صابرون.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾: لما ادّعوا قرب الله، والانبساط بين يديه، وأنه تعالى لا يؤاخذهم بما كسبوا فضحهم الله بإظهاره

كذبهم بما قالوا على الله ما لم يعرفوا منه.

وكذا حال المدَّعين إلى يوم القيامة، وثق الحق سبحانه في كلامه على الصدِّيقين، ألا يقولوا على الله إلَّا ما وصف به نفسه من التنزيه والتقديس من أوصاف الحدثان، وأن من العرش إلى الثرى تجري على مقاديره السابقة، ومشيئته القديمة.

قيل: ألم يبيَّن لهم على لسان الوسائط، وفي الكتب المنزلة ألا يصفوا الحق إلا بنفاذ المشيئة وعلو القدرة، ثم بيَّن سبحانه أنهم علموا بميثاق الله في كتاب الله، وتركوا ما ندبوا إليه من سني المعاملات، ورفيع المقامات، بقوله: ﴿وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ﴾[1]: درسوا، وما عرفوا حقائقه، ولو ذاقوا طعم الخطاب تابعوه ببذل المهجة.

قال سهل: تركوا العمل به.

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

أخبر سبحانه عن سرِّ تقدير الأزل الذي في نفسه في أول الأول، قبل كل قبل، بلا تغاير الزمان وتواتر الملوان، وذلك إرادة سابقة أزلية ذاتية صفاتية أحدية، تكون بوجود إيجاده بظهور وجوده تعالى له، فتقاضت الإرادة من العلم، والعلم من القدرة، والقدرة من جميع الصفات، والصفات من الذات بغير تفرقةٍ، ولا جمع بل الوحدانية، فأجابت الصفات للذات، والذات للصفات من غير حاجة، ولا وحشة، ولا أنس بالحدثان، بل الموجود أهل العرفان، فمضت أدهار الأزلية بلا زمان ولا مكان، بل قدم في القدم، وأزل في ا لأزل أخبر عن علم القديم، لا من الوقت ألا ترى قوله: ﴿وَإِذْ﴾، وليس عنده صباح ومساء لما تم أدهار الأولية، التي هي دهر الدهار المنزَّهة عن المكان والزمان، وتمامها وقت إيجاد الأكوان والحدثان، وإبراز أهل العرفان من معدن العيان تجلَّت أنوار الذات لأنوار الصفات، وتجلَّت

---

(١) يعني تحققوا بمضمون الكتاب ثم جحدوا بعد لوح البيان وظهور البرهان، يعني التعرضُ لنفحات فضله - سبحانه - خيرٌ لمن أمَّلَ جودَه من مقاساة التعب ممن بَذَلَ - في تحصيل هواه - مجهودَه، تفسير القشيري (٢/ ٤٦١).

أنوار الصفات لأنوار الذات، ثم تجلَّت الذات بجميعها للإرادة والمحبَّة، ثم تجلت الإرادة والمحبة لفعل الخاص، ثم تجلى فعل الخاص لفعل العام، ثم تجلى الفعل للعدم، وأخرج من مكمن الغيب الأرواح بنعت إيجادها فأجادها برؤية تجلي الفعل العام، ثم كساها نور فعل الخاص، ثم أحضرها مشارب المحبّة والإرادة، فسقاها من عين المحبة شراب العشق، ومن عين الإرادة شراب التوحيد، فاشتاقت من شراب المحبة، وسكرت من هذا العشق، وبهجت إلى معدن الصفة، وطارت بأجنحة التوحيد في أنوار الصفات، ثم طارت بنور الصفات في أنوار الذات، ففنيت في القدم برؤية القدم، وبقيت في البقاء برؤية البقاء، فترفرفت كل واحدة على مورد من موارد الصفات، وسكنت في العيون الصفات الأرواح، فبعضها في عين العظمة، وبعضها في عين الجلال، وبعضها في عين الجمال، وبعضها في عين الكبرياء، وبعضها في عين القدم، وبعضها في عين البقاء، وبعضها في عين البهاء، وبعضها في عين الحسن، وبعضها في عين القدس، وبعضها في نور الأنس، وبعضها في سناه، وبعضها في نور الأسماء والنعوت، وبعضها في عين الحياة، وبعضها في نور السمع، وبعضها في نور البصر، وبعضها في نور الكلام، وبعضها في نور الوجه، وبعضها في نور القدرة، وبعضها في نور العلم، وبعضها في نور المشيئة والإرادة، وبعضها في صفات الخاصة من الاستواء وغيره من الصفات، وبعضها في نور العطاء، وبعضها في نور اللطف، وبعضها في عين القهر، وكل واحدة منها قويت لسجية موردها، وقوة شربها.

وكل واحدة اشتاقت فيها إلى معدنها؛ لذلك طباعها مختلفة في المقامات والحالات والمكاشفات والمشاهدات، فوقعت أهل الألطاف في عيون المعرفة، فبقيت في المعرفة أبدًا، ووقعت أهل القهريات في النكرة، فبقيت في النكرة أبدًا.

ألا ترى إلى مناهجها من الكفر والإيمان، فلمّا أراد سبحانه عبوديتها أخرجها من الغيب إلى صورة البشرية بنعت الامتحان والعبودية، وكساها لباس الصلصالية، بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ : أخرجهم جميعًا بظهور وجوده لهم، فخرجوا جميعًا بنور ظهوره، وتجلّي صفاته وذاته، أخذهم بمباشرة الصفة في الفعل، فوصل بركة أخذه إلى أهل معرفته؛ لأن أخذه لهم أخذ لطف ووصل، وقهر أخذه إلى أهل النكرة؛ لأنهم أهل قهر، فَمن خرج بلباس اللطف شاهد الحق مشاهدة عيان، ومَن خرج بنعت القهر، شاهد قهر الحق مشاهدة امتناع وحجاب؛ لذلك بعضهم جحدوه، أشهدهم على أنفسهم ليغيبوا عن مشاهدته، ولو أشهدهم مشاهدته ما احتاجوا إلى تعريف الخطاب، بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ : كانوا في الأول شاهدين، ثم كانوا غائبين، فلمّا صاروا غائبين عرَّفهم تلك

الموارد والمشارب في زمان الأول حين خرجوا من العدم بنور القدم.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ : خطاب تعريف وتذكير معاهد الأولية، وأنشد في معناه:

سقيًا لعهدكِ الذِي لوْ لمْ يكنْ ... مَا كانَ قَلبِي للصبابةِ معهدَا

سقَى اللهُ أيامًا لنَا وليالِيَ مَضَتْ ... فَجرتْ مِنْ ذكرهنَّ دمُوعُ

فيَا هَلْ لَهَا يومًا مِنَ الدهرِ أوبةٌ ... وهلْ لِي إلَى أرضِ الحبيبِ رجوعُ

سلامٌ علَى سَلمىَ وإنْ شَطَّ دارُهَا ... سلامٌ علَى أرضٍ قديمٌ بهَا العهدُ

في الأول كانوا غائبين عنه، فأدركهم نور محبَّته، فأولهم قبل ظهورهم في لباس آدم، فلمّا عرّفهم تلك الجِلاوة ذكروا ما وجدوا، وأنشدوا:

أتَاني هوَاهَا قبلَ أنْ أعرفَ الهوَى ... فصَادفَ صَبًّا فَارِغًا فتمكَّنَا

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ : لأهل اللطف خطاب تعطف، ولأهل القهر خطاب تعظم، خاطب العارفين بتعريف المشاهدات، وخاطب الجاهلين بالقهر والامتحانات، فاعترفوا جميعًا بوحدانيته طوعًا وكرهًا، طوعًا لأهل العرفان، وكرهًا لأهل العماء والطغيان.

ولولا خطابه وإنطاقه بالقدرة الأزلية ما قالوا جميعهم بني إلا أهل شهود جماله، فلما خاطبهم فرح أهل محبته، فطاروا بأجنحة توحيده في هواء وحدانيته فرحًا وسرورًا بجماله، وتحيّر أهل الحجاب، فبهتوا وتاهوا في أودية قهره، ثم عظّم ميثاقه تعالى معهم بشهوده إيّاهم بقوله: ﴿شَهِدْنَا﴾ : أخبر عن كشف نقاب الأزلية عن وجه السرمدية لأهل المعرفة؛ لئلا ينسوه طرفة عين إلى أبد الآبدين، وإن كانوا في حجب الامتحان؛ لأن العاشق يرى معشوقه في رؤية جميع البلاء، وكيف يحتجب المحبّ عن محبوبه، ومحبته محيطة بجميع وجوده:

أريدُ لأنسىَ ذكرَهَا فكَأنمَا ... تمثَّلُ لِي ليلَى بكلِّ سبيلِ

قال أبو سعيد الخرّاز في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ﴾ : ترابًا لأهل الإيمان بالسكون، فعرفوه، وسكنوا واطمأنوا، وترابًا لأهل الكفر بالتعظيم، فطاشت عقولهم، فتفرقوا عنه.

وقال يوسف: قد أخبر أنه خاطبهم ربهم، وهم غير موجودين إلّا بإيجاده لهم إذا كانوا واجدين الحق من غير وجودهم لأنفسهم، كان الحق بالحق في ذلك موجودًا بالمعنى الذي لا يعلمه غيره، ولا يجده سواه.

قال بعضهم في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قالوا: بلى من غير مشاهدة، ثم كوشفوا، فشهدوا ما خوطبوا به، قالوا شهدنا أي: شهدنا حقائق حقك.

وقال الحسين: الحق أنطق الذر بالإيمان طوعًا وكرهًا، أنطقهم بركة الأخذ أخذهم عنهم وأنطقهم لا بهم، بل أخذهم عنهم، ثم أشهدهم حقيقة، فأنطقت عنهم القدرة من غير شركة كانت لهم فيه.

قال النصرآبادي: في هذه الآيات موئل الأكبر، وما ألف الأعظم معافون من السلالة والطين، وما بعده من النطف والمضغ، فأنتم في جملة أخذ الأول أو مردودون إلى معتاد الأخذ في السلالات والنطف، فإن أخذ الأول أول بأول الأول، وهو بأول الأول أول.

قال النصر آبادي: أخذ ربك تلطُّفًا وتكرُّمًا، بل أخذه إجلالاً وعظمة، بل أخذه عز واستغناء.

وقال أيضًا: أخذ لا للحاجة بل للحجة، فمنع الخلق حاجتهم أن يروا ذرة من معاني الحجة.

وقال: أخذ ربك من معدن إلى معدن، ومن معدن لمعدن.

قال الجريري في قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [1]قال: تعرّف إلى كلّ طائفةٍ من الطوائف، وبما منحها من معرفته، فقالت: بلى وكلٌّ أقر بما منح، ثم أخرجهم من صلب آدم، فقال الله: ﴿ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾.

وقال لنبيّه: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣].

وقال بعضهم: خاطب منصوب القدرة في عين القِدم.

وسُئل عبد الرحيم عن قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ قال: كانوا موجودين في القدرة، مغيّبين في شهود الوجود.

وقال الواسطي في قوله: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ قال: هو تقرير في صورة السؤال.

وقال بعضهم: القدرة أجابت عن القدرة.

وقيل في قوله: ﴿ قَالُوا بَلَىٰ﴾:سمعوا كلامه أن ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وخلق حياتهم من ذلك النور، وجعل قوام جميعهم بتلك الكلمة، وأنشد:

---

(١) سُئل شخصٌ مِن العارفين، كأنّه ذو النون قُدِّس سرُّه عن علم الميثاق قوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فقال: كأنّه في أُذني الآن.

وآخر قال حين سُئل عنه: سمعت سبعًا من المواثيق.

وآخر قال: إنّه صدق في كليات المواثيق أنّها سبعة، وأما جزئياتها فغير متناهية، فأنا مؤمن بذلك كله.

لـوْ يـسمَعونَ كـمَا سـمعتُ كلامَهَـا خَـرُّوا لعَـزَّةِ رُكَّعًـا وسُـجُودَا

قال ابن بنان: خالصة من خَلقه انتخبهم للولاية، واستخلصهم للكرامة، وأفردهم به، فجعل أجسادهم دنياوية، وأرواحهم نورانية، وأذهانهم روحانية، وأوطان أرواحهم غيبية، وجعلهم فسوحًا في غوامض غيوب الملكوت للذين أوجدهم لديه في كون الأزل، ثم دعاهم فأجابوا سراعًا، أجاب تركيبهم حين أوجدهم بعد الدعوة منه، وعرَّفهم نفسه حين لم يكونوا في صورة الأنسية، ثم أخرجهم بمشيئته خلقًا، فأودعهم صلب آدم، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾: فأخبر أنه خاطبهم، وهم غير موجودين إلا بإيجاده لهم، إذ كانوا واجدين للحق في عين وجودهم لأنفسهم، وكان الحق بالحق في ذلك موجودًا.

قال الأستاذ: أخبر بهذه الآية عن سابق عهده، وصادق عقده، وتأكيده ودّه بتعريف عبده، وفي معناه أنشدوا:

سـقْيا للـيلَى والليـالِي التِـي كُـنَّا بلـيلىَ نلتقِـى فـيهَا

أفـديكِ في أيـامِ دهـرِي كلِّهَـا يفـدينَ أيامًـا عـرفتُكِ فـيهَا

ويقال: جمعهم في الخطاب، لكنه فرَّقهم في الحال، فطائفة خاطبهم بوصف القربة، فعرَّفهم نفس ما خاطبهم، وفِرقة أبقاهم في أوطان الغيبة، فأقصاهم عن نعت العرفان، وحجبهم.

ويقال: أقوام لاطفهم في عين ما كاشفهم، فأقرُّوا بنعت التوحيد، وآخرون أبعدهم في نفس ما أشهدهم، فأقرّوا عن ناس الجمود.

ويقال: تجلَّى لقلوب قومٍ، فتولى تعريفهم، فقالوا: بلى عن حاصل اليقين، وتعزز على الآخرين، فأثبتهم في أوطان الحجة، فقالوا: بلى عن ظنٍّ وتخمين.

ويقال: جمع المؤمنين في السماع، ولكن غاير بينهم في الرتب، فجذب قلوب قوم إلى الإقرار بما أطمعها فيه من المبار، وأنطق آخرين بصدق الإقرار بما أشهدهم من العيان، كاشفهم به من الأسرار.

ويقال: فرقة ردَّهم إلى الهيبة فهاموا، وفرقة لاطفهم بالقُربة فاستقاموا.

ويقال: كاشف قومًا في حال الخطاب بجماله، فطوَّحهم في هيجان حبِّه، فأسكنت محابهم في كوامن أسرارهم، فإذا سمعوا اليوم سماعًا، تجدَّدت لهم تلك الأحوال، والانزعاج الذي يظهر فيهم، لتذكر ما سلف لهم من العهد المتقدم.

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ

كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[1].

خوّف الله أهل ولايته من ضربة مقرعة قهر الأزل بنعت الغيرة على أعناق مَن رأى قيمة نفسه في جلال عظمة القِدم من حيث صنيعه ببلعام؛ ليمتنع المسررون بما وجدوا من سني الكرامات، ورفيع الآيات من النظر إلى مقاماتهم ومعاملاتهم، فإنه تعالى شغل عنه من نظر إلى غيره بغيره ونفسه، فإنَّ مكره قديم.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾: ذكر أنه تعالى أتاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهداته ما سلخ منه؛ لأنَّ من رآه أحبّه، ومَنْ أحبّه اشتاق إليه، ومَنْ اشتاق إليه عشقه، ومَنْ عشقه استأنس به، واستوحش مما سواه.

فمن ذلك تبيّن أنه كان مستدرجًا بوجدان آياته، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه، واشتغاله بهواه، وعداوة كليمه، بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾.

ولو ذاق طعم حبّه لم يلتفت إلى غيره مكر به في الأزل، فكان مكره مستندًا ما إلى الأبد، فالكرامات الظاهرة له عارضة الامتحان بين الأزل والأبد، وعند الأصل القديم لا يعتبر بالعارض الطارئ.

قال ابن عطاء: سوابق الأزل تؤثّر على انتهاء الأبد، قال الله: ﴿ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا﴾.

---

(١) ذكر أنه تعالى أعطاه آياته، ولو أعطاه قرب مشاهدته ما انسلخ منه، لأن من رآه أحبه، ومن أحب استأنس به واستوحش مما سواه، فمن ذلك تبين أنه كان مستدرجًا بوجدان آياته ، وتصديق ذلك ما أخبر سبحانه من ارتداده عن دينه ، واشتغاله بهواه وعداوة كليمه. البحر المديد (٢/ ٣١٢).

قال الأستاذ: يظهر الأعداء في صدِّ الخلّة، ثم بردِّهم إلى سوابق القسمة، ويبرز الأولياء بنعت الخلاف والزلّة، ثم يغلب عليهم مقسومات الوصلة.

ويقال: أقامه في حجال القُربة، ثم أبرز له من مكامن المكر ما أعدّ له من سابق التقدير، فأصبح والكل دون رتبته، وأمسى والكلب فوقه مع خساسته، وفي معناه أنشدوا:

فبتنَا بخيرٍ والدُّنَا مطمئنّةٌ ... وأصبحتُ يومًا والزمانُ تقلّبَا

ثُمّ إنَّ الله سبحانه علّق ضلالته بالقسمة السابقة، والمشيئة الأزلية التي لا تتأثر بتأثير الاكتساب بقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا﴾.

أي: ولو شئنا في الأزل اصطفائيته لولايتنا لم يؤثر فيها مخالفة الظاهر؛ لأنَّ قسمة الأزل تقصم تواترات الطبيعة، وتتّصل بالعناية الأبدية، والرعاية السرمدية، وليس تقاعده عن طاعة مولاه علّة المشيئة، بل المشيئة علة عصيانه.

قال ابن عطاء: ولو جرى له في حكم الأزل السعادة، لأثر ذلك عليه في عواقب سعيه وكدحه في أواخر أحواله.

وقال الأستاذ: لو ساعدته المشيئة بالسعادة الأزلية لم تلحقه الشقاوة الأبدية، ولكن من قصمته السوابق لم تسعفه اللواحق، وصدق سبحانه بآية أخرى ما ذكرنا في الآية، بقوله:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ أي: من اجتباه الله بقُربه ومعرفته في الأزل، فجميع أمره على نظام تلك الاجتبائية.

قال بعضهم: ليس الناجي من سعى، وأحسن السعي، إنما الناجي من سبقت له الهداية من الهادي.

قال الله: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى﴾، ثم وصف الخاسرين بأنهم محجوبون عن ساحة كبريائه، ورؤية جلاله، بقوله: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ﴾ أي: قلوبهم محجوبة عن مشاهدة الغيوب، ولو أدركت تلك المشاهد لذاقت طعم الوصال، وفهمت حقائق معالي النوال، وعيونهم في غواشي الشهوات، ولو خرجت منها لأبصرت أنوار الصفات، وما التفتت منها إلى جميع المرادات، وآذانهم في أثقال الغفلات، ولو خرجت من تحتها لسمعت أصوات الوصلة، وألحان هواتف بلابل القربة، وطابت بسماعها وصاعت من جميع الملاهي.

قيل: لهم قلوب لا يفقهون بها شواهد الحق، ولهم أعين لا يبصرون بها دلائل الحق، ولهم آذان لا يسمعون بها دعوة الحق، ثم وصفهم بأنهم أغفل من البهائم في الضلالة؛ لأن للبهائم استعداد قبول التأديب فيقبلون التأديب، ولهم أيضًا استعداد قبول التأديب، ولا

يقبلون التأديب.

قيل: الأنعام والبهائم لا يحسّون بالاستتار والتجلّي، والأرواح نعيمها في التجلّي، وعذابها في الاستتار، قال الله تعالى: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾[١].

قال ابن عطاء: لهم قلوب لا يفقهون بها معاني الخطاب، ولهم آذان لا يسمعون بها حلاوة الخطاب، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد الحق.

وقال الأستاذ: لا يفقهون معاني الخطاب كما يفهمه المحدثون، وليس لهم تمييز بين خواطر القلب، وهواجس النفس، ووساوس الشيطان، ولهم أعين لا يبصرون بها شواهد التوحيد وعلامات اليقين، ولا ينظرون إلا من حيث العقل، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا من سلك ركوب الشهوة، ثم وصف نفسه تعالى بأن له الأسماء الذاتية والأسماء الصفاتية، والأسماء الفعلية، والأسماء الخاصة المنبِّئة لقلوب العارفين عن عجائب صفاته الأزلية، والتي مصدرها ذاته القديم تعالى بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾: خبّر الخلق في طلب تلك الأسماء العظام، ولا ينالونها إلا بكشوفها، ولا تنكشف لهم تلك الأسماء إلا بكشوف صفات الخاصة، التي تلك الأسماء مفاتيح خزانتها، ولا تنكشف تلك الصفات ألا بكشف الذات، فمن خُصَّ بهذه المكاشفات يهتدي إلى اسمه الأعظم، ويهتدي بنوره إلى معاني الصفات وأنوار الذات، إذا دعا به أجيب، ويكون قوله في مراده: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾، فكل اسم مخبر عن صفة، والصفة مخبرة عن الذات.

ولكلّ اسم للعارفين فيه مقام، وهُم في الأسماء على مراتبها في معرفة الصفات، ومشاهدة الذات في بعضهم، كل اسم من أسمائه يبلغك مرتبة من المراتب، واسمه الله يبلغك إلى الوله في حبّه، والرحمن الرحيم يبلغانك إلى رحمته، كذلك جميع أسمائه إذا دعوته عن خلوص ضمير، وصفاء عقيدة.

قال بعضهم: إنَّ وراء الأسماء والصفات صفات لا تخرقها الأفهام؛ لأنَّ الحقّ نار

---

(١) في عدم الفقه والإبصار للاعتبار والاستماع للتدبر أو في أن مشاعرهم وقواهم متوجهة إلى أسباب لتعيش مقصورة عليها. والأنعام جمع نعم بالتحريك وقد يسكن عينه وهى الإبل والشاة أو خاص بالإبل كذا في القاموس (بل هم أضل) بل للإضراب وليس إبطالا بل هو انتقال من حكم وهو التشبيه بالأنعام إلى حكم وهو كونهم أضل من الأنعام طريقا فإنها تدرك ما يمكن لها أن تدرك من المنافع والمضار وتجهد في جلبها ودعها غاية جهدها وهو ليسوا كذلك وهى بمعزل من الخلود وهم يتركون النعيم المقيم ويقدمون على العذاب الخالد وقيل لأنها لا تعرف صاحبها وتذكره وتطيعه وهؤلاء لا يعرفون ربهم ولا يذكرونه ولا يطيعونه.

يتضرم لا سبيل إليه، ولا بدّ من الاقتحام فيه.

وقال بعضهم: أبدى أسماءه للدعاء لا يطلب الموقوف عليها، وأنّى يقف على صفاته أحد.

وقيل: فادعوه بها أي: قفوا معها عن إدراك حقيقتها، حكي الإسناد عن بعضهم أن الله سبحانه وقف الخلق بأسمائه، فهم يذكرونها.

قال: وتعزَّز بذاته، فالعقول وإن صفت لا تهجم علي حقائق الإشراف؛ إذ الإدراك لا يجوز على الحق، فالعقول عند بوادىء الحقائق منقبة بنقاب الحيرة عن التعرض للإحاطة، والمعارف تائهة عند قصد الإشراف على حقيقة الذات، والإبصار حيرة عند طلب الإدراك في أحوال الرؤية، والحقّ سبحانه عزيز باستحقاق نعوت التعالي منفردًا، ومثل هذا ذكره الأستاذ.

﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: من كاشفنا له أحكام القدرة الغيبية المخبرة عن حوادث المقدرة، التي تنكشف بعد الواقعة ظاهرة في مرآة قلبه، فكذّبها بمعارضة النفس، وشك الطبيعة مشتركة في ذلك، ولا نكشف له بعد ذلك أسرار الملك والملكوت.

وهو بما استبدأ من صنيعه في العبادات الظاهرة يفرح، ولا يعرف احتجابه عن رؤية الغيب، وأيضًا من الكذب آيات أوليائي، وهو يترسّم سلوك طريقهم، وهو معجب بذلك لا يبلغه إلى درجة القوم، وتركه في عزّته وغروره ومحاله.

وأيضًا من أنعم عليه بتيسير الطاعات، ويقف معها ولا يطلب ما وراءها من القربات نحجبه بها عنا، وهو لا يعلم، ومثل ما ذكرنا صورة من لم يسبق في مقاديره السابقة العناية له بالاصطفائية في البلوغ إلى درجة الولاية.

ومَن خُصّ بتلك العناية، كيف يلحقه الاستدراج، وهو محفوظ بعين رعاية الأزل؟

قال سهل: يمدُّهم بالنعم، وينسيهم الشكر عليها، فإذا تمكّنوا إلى النعمة، وحُجبوا عن المُنعم أُخذوا.

قال: الاستدراج أن يلقي في أوهامهم أنهم من أهل الوصلة والحقيقة، السابق لهم من القسمة حقائق الفرقة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾: مَن لم يكن من نظّار الحقائق، والمكاشفين أسرار الجبروت في الملكوت من أهل الدقائق، كيف ينظر إلى مرآة الصفات، التي تبرز فيها أنوار الذات، نَدَبَهم الحق إلى طلب مشاهدته وقربه، وإلى النظر من القلوب إلى الغيوب؛ ليدركوا بصفاء العقول، وأبصار الأرواح، وعيون الفؤاد، ما لم يدركوا بجميع العبادات؛ لأنَّ النظر يورِّث الفكرة، والفكرة تورِّث الذكر، والذكر يورث المعرفة، والمعرفة تورث الحكمة، والحكمة تورث المحبّة، والمحبة تورث الشوق، والشوق تورث العشق، والعشق يورث الأنس، والأنس يورث الانفراد، والانفراد يورث التوحيد، والتوحيد يورث الفناء، والفناء يورث البقاء، والبقاء يورث رؤية الأزل، ورؤية الأزل تورث رؤية الأبد، والعبد هناك يطير بهذه الأجنحة من الآزال إلى الآباد، ومن الآباد إلى الآزال.

ولو كان القوم أهل مناهج كبرى من المشاهدات أحالهم الحق بالنظر إليه، لا إلى الملك والملكوت، فإن النظر منه إلى غيره شرك في التوحيد، وهؤلاء ضعفاء مسالك المعرفة.

قال بعضهم: النظر في الملكوت يورث الاعتبار، والنظر إلى المالك يسقط منك الاشتغال بسواه.

وقال بعضهم: النظر إلى الملكوت على مراتب ثلاث:

«أولها»: النظر بعين العبرة لا بعين الشهوة، و«الثانية»: النظر بعين اليقين إلى قدر القادر، و«الثالثة»: النظر بعين المعرفة من المُلك إلى المالك.

فأمَّا الناظر بعين العبرة، فإنه يجد حقيقة التوحيد، والناظر بعين اليقين يجد حقيقة الإخلاص، والناظر بعين المعرفة يجد حقيقة المعرفة.

قال الأستاذ: أطلع الله سبحانه أقمار الآيات، وأماط بضيائها سحاب الشبهات، فمَن استضاء بها ترقّى إلى شهود القدرة.

ويقال: ألاح الله لقلوب الناظرين بعيون الفكر حقائق التحصيل، فمَنْ لم يعرج في أوطان التقصير أنزلته مراكب السير بمباحات التحقيق.

﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: لمّا أفرد ساحة الكبرياء من تكلّف الاكتساب، وألحق المشيئة والقدرة بالأفعال إلى الأزل.

أي: لا أملك لنفسي قرب الله ولا بعده، إنّما القرب والبعد منه، ولو علمت سرّ المقادير الغيبية، لكنت قادرًا بوصف الربوبيّة على نفع نفسي ودفع الضر، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾.

قال أبو عثمان: عجز الخلق عن إيصال النفع إلى نفسه، أو دفعه عنها عاجلاً، فكيف يثق بإيمانه، وكيف يعتمد بطاعته؟

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾.

وقال بعضهم: لو كنت أملك الغيب، أو أقدر عليه، لما مسّني السوء، ولكن طويت الغيوب عنا، وألزمت الملامة علينا.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ لم يجد آدم في الجنّة إلا سنا تجلّي الحق، فكاد يضمحل بنور التجلي لتراكمه عليه، فعلم الله سبحانه أنه لا يحتمل أثقال التجلي، وعرف أنه يذوب في حسنه، وكلّ ما في الجنة مستغرق في ذلك النور، فيزيد عليه ضوء الجبروت والملكوت، فخلق منه حواء ليسكن إليها، ويستوحش بها سويعات عن سطوات

التجلي، لذلك قال ﷺ لعائشة- رضي الله عنها-: «كلميني يا حميراء»(١).

وفي أدنى العبارة هي كانت امتحانه، لشغل بها عن الحق، ليقع في فجِّ البلاء بها.

قال بعضهم: خلقها ليسكن آدم إليها، فلمّا سكن إليها، غفل عن مخاطبات الحقيقة بسكونه إليها، فوقع فيما وقع من تناول الشجرة.

قال الواسطي: أكبر محنة آدم ﷺ خلق حواء من بدنه، قطعه بها عن نفسه، بقوله: ﴿ لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾، والسكون إلى غير الله محنة.

﴿ إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّـۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: أثبت محبّة الأزلية، ورعاية الأبدية لحبيبه ﷺ في هذه الآية تولاه بعين الأزل، ورعاه بكفاية الأبدية، ونزل عليه من بحار خطابه قطرات وابل جواهر كلامه الأبديّ الأزليّ، وبيَّن أنه تعالى كما ألحق إلى نفسه تولية حبيبه، فأيضًا ألحق إلى نفسه تولية الصدِّيقين، ومحافظته للعارفين، يتولى الأنبياء بنقاب أنوار الذات، ويتولى الأولياء بسجوف أنوار الصفات، ويتولى العالمين بقوام أنوار الأفعال.

فالعموم في نور الآيات معصومون عن الزلّات، والخصوص في نور الصفات معصومون عن الخطرات، وخصوص الخصوص في أنوار الذات معصومون عن المكر والقهريات.

قال بعضهم: لاحظَ الأولياء بعين اللطف، ولاحظ العباد بعين البر، ولاحظ الأنبياء بعين التولي.

قيل في قوله: ﴿يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: عن دعوته البشرية تولّيًا،وأصلح الخواص بصحة المقصود، والإفراد بالإخلاص للمعبود، وأصلح العوام بصحة الأوقات.

وسُئل جعفر عن الحكمة في قوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾، ونحن نعلم أنه يتولى العالمين.

فقال: التولية على وجهين: تولية إقامة أبدًا، وتولية عناية ورعاية الإقامة الحق.

وقال الواسطي: يتولى الصالحين بالكفاية، ويتولى الفاسقين بالغواية.

---

(١) ذكره حقي في تفسيره (٦/ ٣٨).

وقال أيضًا: أصلح الأئمة بإصلاح سرائرهم عن دعوة البشرية تولّيًا، وأصلح الخاصة بصحة المقصود، وأصلح العامة بالإثبات.

وقال الأستاذ: مَنْ قام بحق الله تولى الله أموره على وجه الكفاية، فلا يحوجه إلى أمثاله، ولا يدع شيئًا من أحواله إلا أجراه على ما يريد بحسن أفضاله، فإنْ لم يفضّل ما يريده، جعل العبد راضيًا بما يفعله، وروح الرضاء على الأسرار، أتمَّ من راحة العطاء على القلوب.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾: نفى الله سبحانه سمع الخاص، ونظر الخاص عن أهل الغفلة، إذ أسماعهم وعيونهم محجوبة بعوارض الضلالة وغواشي الغفلة، لا يسمعون بآذان قلوبهم نداء الغيب، ولا يبصرون بأبصار قلوبهم مشاهدة الحق في الشواهد، وذلك من ردّ الله إيّاهم عن شهودهم بنعت إلقاء سماعهم في محاضر المراقبات، وترائيهم بعيون قلوبهم أهلّة الجلال في سماوات اليقين، ولو شاء لأسمعهم وأراهم جلاله، ولكن منعهم قهرالأزلية وخذلان الأبدية.

كان ﷺ مصبوغًا بصبغ الألوهية في مجامع شريعة بحار القدس، مزيّنًا بزينة نور المشاهدة، مخبّرًا بسنا لباس القدرة، موشّحًا بوشاح الرسالة، متوّجًا بتيجان الملكوت، راكبًا على مركب النبوة في ميادين الجبروت، وكان مرآة مشاهدة الله بين عباد الله، يتجلى الحق منه للعالمين، ولكن ما أبصره إلا من له منه بصر بصيرة، لذلك قال ﷺ في بعض إشارته في الحقيقة والاتصال قال: «من رآني فقد رأى الحق»[1].

فلمّا رأى الناظر إليه بنظر الحقيقة إلى أين بلغ من رتبة القربة، قال: «طوبى لمن رآني وطوبى لمن رأى من رآني»[2].

لأنّ من تزوّد من جماله نورًا وبهاء، يفيض ذلك النور في جميع وجوده، ويتلألأ منه لعيون الناظرين:

أدِرْ كـأسَ الـسرورِ عـلَى أُنـاسٍ لقَـاؤكَ عـندَهمْ كُـلُّ الأمَـانِي

إذَا اكـتَحلوُا بـوجهكَ لمْ يَـزالُوا مِـنَ الخـيرَاتِ فِي نعـمٍ حِـسَانِ

قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْ﴾: كيف يسمع الدعاء من أصمّه الداعي عن الدعوة إليه؟ ولا يسمع نداء الحق إلا من أسمعه الحق، وبإسماعه يسمع لا بسمعه، ولا باستماعه.

---

(١) رواه البخاري (٦/ ٢٥٦٨)، ومسلم (٤/ ١٧٧٦).

(٢) رواه ابن حبان (١٦/ ٢١٥).

وقيل في قوله: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف:١٩٨]: بأنفسهم ينظرون إليك، ولا يبصرون خصائص ما أودعناه فيك، وبركات ما أجريناه في الخليقة بك.

وكذا من نظر بنفسه إلى الرسول ﷺ، حُجب عن إدراك معانيه حتى ينظر ببركة الرسول ﷺ إلى الرسول، بل هو أيضًا قاصر البصر حتى ينظر بالحق إليه، ومن الحق إذ ذلك يتبيّن له شرف ما خصّ به.

وقال سهل: هي القلوب التي لم تزيّنها أنوار القُرب، فهي عمياء عن درك الحقائق، ورؤية الأكابر.

وقال أيضًا: ينظرون إليك بأعين لم تكحل بنور التوفيق، فلا يعرفون حقك، وينظرون إليك بالقلوب التي لم يثبتها بنور هدايته شيئًا.

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

ويقال: رؤية الأكابر ليست بشهود أشخاصهم، لكن بما يحصل للقلوب من مكاشفات الغيب، وذلك على مقادير الاحترام، وحصول الإيمان، ولما عظم شأنه ﷺ، وعزّ عن إدراك ناظريه، وعن أن يطّلع على ما في جلاله وجماله من أنوار الصفات، وبرجاء سنا الذات، وعَلِم الحقّ سبحانه عجز الخلق عن أداء حقه واحترامه بحد حقيقة أمره ﷺ بالعفو والكرم عند قصورهم عن رؤية ما كان من سطوع أنوار الرسالة والنبوّة من وجهه، بقوله ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ أي: فاعف عنهم من قلّة عرفانهم حقك.

﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي: بلطف عليهم في أمرك ونهيك بهم؛ فإنهم ضعفاء عن حمل وارد أحكام شرائعك وحقائقك.

﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ الذين ليس لهم استعداد النظر إليك، ولا يعرفون حقوقك، فإن منكر كرامات أوليائي، ومعجزات أنبيائي لا يبلغ إلى درجة القوم.

قال بعض المشايخ حين ذكر أهل الظاهر قال: دع ذكر هؤلاء الثقلاء، ثمّ إنه سبحانه ألبس حبيبه ﷺ أخلاق القِدم بالتجلّي، والكشف والمباشرة بالفعل، ثُمّ أراد أن يلبسه خلقه بالأمر القديم، والكلام الكريم؛ ليكون متّصفًا بجميع معانيه بجميع صفاته، متخلّقًا بجميع

أخلاقه حتى عظم الأمر عنده في ذلك، وأفاض لطفه على الجمهور، فأمر أمته بها أمر الله بقوله: «تخلقوا بأخلاق الله»[١].

قال بعضهم: أمر النبي ﷺ بمكارم الأخلاق ظاهرًا وباطنًا، وهو الصفح عن زلّات الخلائق، والأمر بمكارم الأخلاق.

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ أي: أعرض عن المعرضين عنّا، فهم الجهّال.

روي أن النبي ﷺ سأل جبريل صلوات الله عليه عن تفسير هذه الآية، فقال:

«تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، وتحسن إلى من أساء إليك»[٢].

قال ابن عطاء: خذ ما صفا، ودع ما كدر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾.

الشيطان كلب قهر القدم، فإذا نبح وراء ساحة القلب في جانب النفس، ففر من قهرنا إلى لطفنا، ومننا إليك؛ لذلك قال: «أعوذ بك منك»[٣].

فإذا كانت ساحة القلب مستضاءة بنور التجلّي يفر الشيطان من نواحيه؛ لأنه لو يدنوا منه بقدر رأس إبرة تحترق.

قال الجريري: من أعقل السلاح، أسره الشيطان في أول لحظة.

وقال الأستاذ: إن سنح في باطنك من الوسواس أثر، فاستعذ بالله يدركك بحسن التوفيق، وإن هجس في صدرك من الحظوظ، فاستعذ بالله يدركك بإدامة التأييد، وإن اعتراك في الترقّي أن محل الوصول وقفه، فاستعذ بالله يدركك بإدامة التحقيق، وإن تقاصر عنك في خصائص القرب صيانة لك عن شهود المحلّ، فاستعذ بالله تثبتك له به لا لك بك.

ثم وصف سبحانه أهل التقوى من أهل الولاية أنهم ممتحنون بهواجس النفوس، ووساوس الشياطين، واستغاثتهم بالله، وذكره عن شرّهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾.

حسدة الشياطين يراقبون من البعد أولياء الله؛ ليرموهم بنيران الوسواس من قوارير الحسد حين تقاصروا عن مشاهدة الذكر والمذكور، وغفلوا لحظة عن مراقبتهم، ولو استقاموا على شريطة حضور مشاهدة الملكوت، لم يقدروا أن يمسّهم من ألف فرسخ.

---

(١) ذكره الشيخ حقي في تفسيره (٤/ ٣٣٠).

(٢) رواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٧٨).

(٣) رواه النسائي في الكبرى (١/ ٤٥٢).

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ [الصافات: ١٠].

قال تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: فإذا وصل إليهم نار الوسواس، وأوجسوا في أنفسهم غبار سنابك، خيول الشيطان التجأوا بتراكب الذكر إلى جناب الأزل، فإذا هم يرون ما أفسد الشيطان من محافل الأنس، ومجالس القدس في قلوبهم، ويرون طيف الشيطان أيضًا بنور العرفان، فيرمونهم بسهام الذكر، ونيران المحبّة من قارورة الشوق فتحرقهم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾.

رأى الجنيد في المنام إبليس، فقال: هل تقدر أن تمرّ على مجالس أهل الذكر؟ فقال: كما أن أحدًا منّا يمر على أحد منكم، ويمسّه،ويصير مجنونًا ومصروعًا، فمنا من يمر على مجلس الذكر يصير مصروعًا، ونسمّيه بيننا مأنوسًا، كما تقولون مصروعًا منكم مجنون.

قال بعضهم: من حال سرّه في ميادين الأنس والقربة،وحجر نفسه عن طوارق الفتنة وطوائف الشيطان، هم الذين قال الله:﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ﴾.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

ندب الحق سبحانه الجميع أن يسمعوا القرآن بقلوب حاضرة، ونيّات صادقة،وأسرار ظاهرة عند سكونهم عن الفضولات لوقار القرآن، فإذا رآهم الحق في منازل مقال الخطاب وحرمات الأمر، يتفضّل عليهم بكشف أسراره لقلوبهم،ويذوق طعم خطابه أسرارهم،ويعرفهم نكات إشاراته اللطيفة،وأنبائه العجيبة،والحكمة الغريبة، فمَن يرى مواقع أسراره بأنواره، ويسمع بالله كلام الله صار القرآن بصائره، يرى به جميع الصفات ومشاهدة الذات قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾[1]. فلعلّ ههنا توجيهًا للمستمعين، كلامه بالأدب والسكون أي: إذا كنتم كذلك؛ لعلّكم تكاشفون بأسراره وأنواره ومواجيده.

قيل فيه: استمعوا له بآذانكم؛لعلّكم تسمعون بقلوبكم، وتفهمون مراد مخاطبة الحقّ

---

(١) أي: براهين توحيده، ودلائل معرفته، حاصلةً من ربكم، تنفتح بها البصائر، وتبصر بها أنوار قدسه. البحر المديد (٢ / ١٨٦).

إيّاكم، وتتأدبون بلطائف مواعظه،فيوصلكم حُسن أدب الاستماع، وبركة الخطاب إلى رحمته، وهو أن يرزقكم آداب خدمته،كما رزقكم سنن شريعته، وأجلّ رحمة، رحم الله بها عباده آداب العبودية التي خصّ بها الأكابر من الأصفياء، والسادات من الأولياء.

قال الأستاذ: الإنصات في الظاهر من آداب أهل الباب، والإنصات بالسرائر من آداب أهل البساط، ثُمّ أمر نبيّه ﷺ بأن يذكره بجلاله وعظمته في نفسه، بقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ حتى تفنى نفسك في نفسي، ولا يبقي فيك إلا نفسي، لإذعانك بنعت العبودية في ساحة كبريائي، وبنعت رؤية جلالي، حيث لا ترى غيري، هذا معنى قوله: ﴿تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ .

وأيضًا واذكر ربك بأوصافه في نفسك، كأنّها تحمل أثقال أسرار قِدمي، لا غيرها من النفوس.

وأيضًا أوصل الذكر بالنفس؛ لأن القلب موضع المذكور.

وقال الحسين في هذه الآية: لا تظهر ذكرك لنفسك، فتطلب به عوضًا، وأشرف الذكر ما لا يشرف عليه إلا الحقّ، وما خفي من الأذكار أشرف مما ظهر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ﴾ أي: لا تكن مشغولًا بنا عنا، ولا عمّن بقي في رؤية العطاء عن المُعطي.

أمر تعالى نبيّه ﷺ بحفظ الأنفاس عن خطرات الوسواس، وجمع الهمّة عن طارق الغفلة، أي: اذكرني بي، لا بك، فإنّ من ذكرني بنفسه غفل عني، ومن ذكرني بي آخذه من الذكر والفكر، وأكشف جمالي له حتى يصل بي إليَّ.

قال سهل: ما من أحد ذهب منه نفس واحد بغير ذكر، إلّا وهو غافل.

وقيل: «الغافل»: من غفل عن مراد الله فيه.

وقيل: «الغافل»: الذي غفل عن درك حقائق الأمور.

قال الأستاذ في معنى التضرّع والخيفة: «التضرع»: إذا كوشف بوصف الكمال في أواني البسط.

و«الخيفة»: إذا كوشف بنعت الجلال في أحوال الهيبة، وهذا للأكابر، فأمّا من دونهم فتتنوع أحوالهم من حيث الخوف والرجاء بالرغبة والرهبة، ومن فوق الجمع فأصحاب البقاء والفناء والصحو والمحو، ووراءهم أرباب الحقائق مثبتون في أوطان التمكين، فلا تُلوّن لهم، ولا تخنس لقيامهم بالحق، وامتحانهم عن شواهدهم.

ثم وصف الله كرام العارفين من الكروبيين، والمقرّبين أنهم في محلّ العندية مقدّسون

عن شوائب نعوت الزائغين، وصفات المتكبّرين، بل هم موسومون بسيماء العبودية في محاضر الربوبيّة، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾: هم في نعوت العبودية عند بروز سطوات العظمة والفناء، بشرط التنزيه في ظهور قدس القِدم يتملّقون بنعت البهتة في كشوف جماله الأزليّ، سبحان الذي حجبهم به عنهم، ولولا ذلك؛ لاحترقوا به فيه.

سورة الأنفال

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾: لكلّ طائفة في طريق المجاهدة والقتال مع النفس فتح وغنيمة، فغنيمة المريدين صفاء المعاملات، وغنيمة المحبّين ذوق الحالات، وغنيمة العارفين كشف المشاهدات، والسؤال عن ذلك اقتباس نور الشريعة من مشكاة النبوّة، واستعلام الأدب في طريق المعرفة لله، هذه الكرامة لا بالاكتساب يؤتيه من يشاء.

﴿وَٱلرَّسُولِ﴾:الحكم فيه لجهة تربية الأمّة، وأن الله تعالى مستغنٍ عن الخليقة، ورسوله يظهر في أداء رسالته عن حظوظ نفسه.

ثم حذّرهم بنفسه عن نفسه في طريقه، ومواساة عباده، بقوله: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: اتقوا الله في طلبه، ولا تلتفتوا إلى غيره، وأسوأ قلوب إخوانكم يُبذّل مُهجتكم إليهم في مؤاخاتكم، ومصادقتكم لله وفي الله.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ في الحقيقة، ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في الشريعة.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم صادقين في دعوى المحبّة.

قال سهل: «التقوى»: ترك كلّ شيءٍ يقع عليه الذمّ.

وقال الأستاذ: «التقوى»: إيثار رضا الحق على مراد النفس، ثم وصف المؤمنين بالعلامات الصحيحة الدّالة على صدقهم التي إذا رأيتها لا تشك في إيمانهم، وذلك تأثير وارد أنوار الغيب التي تَرِد على قلوبهم، فتظهر علاماتها في وجوههم، بقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾.

وصف السامعين من أهل الإيمان والإيقان عند جريان ذكره، وسماع خطابه، وتلاوة كتابه بالوجل، الذي يكون عند سماع الذكر من رؤية جلال الله وعظمته، تجلّاها يزيد لإيمانهم نور الغيب، ولإيقانهم سنا القرب، ولحسن رضاهم في طاعته روح الأنس، حتى يصيروا خائفين من عظمته، عارفين بربوبيّته، متوكّلين بكفايته[1].

قال شيخنا وسيدنا أبو عبد الله بن خفيف- قدّس الله روحه- في ذكر الوجل في هذه الآية قال: واعلم أن أحكام الوجل إنّما تصح للوجلين عند تكشُّف أستار ألوان، وذهاب حجب الغفلات من القلوب، فيشهد بقوة علمه، وصفاء يقينه سطوات الخوف، فداخله لطيف الوجل برقّة الإشفاق، وذلك مما جلى عن القلوب بعزّ جنابه وتعظيمه وترهيبه كلّ ساترٍ.

قال أبو سعيد الخرَّاز: هل رأيت ذلك الوَجَل عند سماع الذكر، أو عند سماع كتابه وخطابه، هل أخرسك سماع ذلك الذكر حتى لم تنطق إلا به؟ وهل أصمَّك حتى لم تسمع إلّا به منه، هيهات.

وقال سهل في قوله تعالى: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: هاجت من خشية الفراق، فخشعت الجوارح لله بالخدمة.

(١) الأنفال ها هنا ما آل إلى المسلمين من أموال المشركين، وكان سؤالهم عن حكمها، فقال الله تعالى: قُلْ لهم إنها لله مِلْكًا، ولرسوله ﷺ الحُكْمُ فيها بما يقضي به أمرًا وشرعًا. قوله جلّ ذكره: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي: أجيبوا لأمر الله، ولا تطيعوا دَوَاعِيَ مناكم والحكمَ بمقتضى أحوالهم، وابتغوا إيثارَ رضاء الحقِّ على مراد النَّفْس، وأصلحوا ذات بَيْنِكم، وذلك بالانسلاخ عن شُحِّ النَّفْس، وإيثار حقِّ الغير على مَالَكُم من النصيب والحظِّ، وتنقية القلوب عن خفايا الحَسَد والحقد.

وقال الواسطي: الوجل على مقدار المطالعة، ربما يريه مواضع السطوة، وربما يريه مواضع المودّة والمحبّة، وربما يريه التقريب والتبعيد.

وقال الجنيد: وجِلَت قلوبهم من فوات الحقّ.

وقال بعضهم: الوجل على مقدار المطالعات، فإن طالع السطوة هاب به، وإن طالع ودّه وجِلَ عليه مخافة فوته، ومن جملة ذلك من طالع التقريب بالتأديب وجَلَ،ومن طالع التهديد بالتبعيد وجَل، ومن طالعه مغيّبًا عن شاهده، قائمًا بسرمده، خاليًا من أزله وأبده، فلا وَجَلَ حينئذ ولا اضطراب، ولا تباعد، ولا اقتراب، فإنّه محقق بالذات، ونسي الصفات، وفني عن الذات بالذات، كما هرب رسول الله ﷺ من الصفات إلى الذات، فقال: «أعوذ بك منك »[1].

قال الجنيد في قوله تعالى:﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ : إنَّ لا وصول إلى الله إلا بالله.

قال الأستاذ: يُخرجهم الوجل من أوطان الغفلة، ويُزعجهم عن مساكن الغيبة، وإذا انفصلوا عن أودية التفرقة، وجاءوا إلى مشاهدة الذكر، نالوا السكون إلى الله، فيزيدهم ما يتلى عليهم من آياته تصديقًا على تصديق، وتحقيقًا على تحقيق إذا طالعوا جلال قدره، وأيقنوا قصورهم عن إدراكه، توكّلوا عليه في إمدادهم برعايته في نهايتهم، كما استخلصهم بعنايته في بدايتهم.

ويقال: سنّة الحق سبحانه مع أهل العرفان، أن يودَّهم بين كشف جلاله ولطف جماله، فإذا كاشفهم بجلاله، وجِلت قلوبهم، وإذا لاطفهم بجماله، سكنت قلوبهم، قال الله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٨].

ويقال: وجِلت قلوبهم لخوف فراقه، ثم تطمئن وتسكن أرواحهم بروح وصاله، فذكر الفراق يُفنيهم، وذكر الوصال يصحبهم ويُحييهم.

ثُمّ إن الله سبحانه زاد في وصفهم بالعبودية، وبذل المهجة في الطريق، بقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾، ثم وصفهم باستكمال إيمانهم، بقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ : فشرط حقيقة الإيمان بهذه الخصال التي ذكرها في الآيتين اللتين في صدر السورة، كان من لم يتحلَّ بهذه الخصال المذكورة لم يتحقَّق في إيمانه، وهي التقوى والإصلاح بين المؤمنين، وذلك محل صحبتهم، وهو نوع من التمكين والانقياد

---

(١) تقدم تخريجه.

عند أمر الله ورسوله، بالإخلاص ووجَل القلب عند سماع الذكر والقرآن ومزيد اليقين، وترك التدبير في استقبال التقدير، ومقام المناجاة من الصلاة، والانقطاع عن الاشتغال بالدنيا، وإيثار حقوق الإخوان على نفسه، فإذا استكمل هذه الخِلال، وتمّ اسم تحقيق الإيمان عليه، لقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾.

ويستحقّ بعد هذا الثناء ما وعده الله المتحقّقين في إيمانه من المغفرة التامة، حيث لم يلتفت بفضله إلى خطراتهم، ويشرفهم إلى علي الدرجات، ويسقيهم شراب الوصال عند كشوف المشاهدات، بقوله تعالى: ﴿لَّهُمْ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: بيّن أن حقيقة الإيمان مكاشفة الغيب، وظهور ما وعد الله لهم، وتصديق ذلك سؤال النبي ﷺ عن الحارثة فقال: «يا حارثة، لكل حق حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ قال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون، وإلى أهل النار يتعاوذون، فقال ﷺ: عرفت فالزم»(١).

فصحَّ في الآية والحديث أن حقيقة الإيمان رؤية الغيب بالغيب، وثمرتها ما ذكره الله في الآية من المعاملات السنيَّة، والحالات الشريفة.

قيل: اجتمعت فيه أشياء حقَّق بها إيمانهم؛ لتعظيم الذكر والوجل عند سماعه، وإظهار الزيادة عليهم عند تلاوة الذكر وسماعه، وحقيقة التوكُّل على الله، والقيام بشروط العبودية على حدّ الوفاء، وأكملت أوصافهم في حقيقة الحقائق، فصاروا محقّقين بالإيمان.

قال الجنيد: حقًّا إنه سبقت لهم من الله السعادة.

قال أبو بكر بن طاهر: حقيقة الإيمان بخمسة أشياء: باليقين، والإخلاص، والخوف، والرجاء، والمحبّة، فباليقين يخرج من الشك، وبالإخلاص يخرج من الرياء، وبالخوف يخرج من المكر، وبالرجاء يخرج من القنوط، وبالمحبّة يخرج من الوحشة والحيرة.

وقال الأستاذ في قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: أنّ الحقّ سبحانه يُسِرُّ مثالب العاصين، ولا يفضحهم؛ لئلا يحجبوا عن مأمول أفضاهم، ويستر مناقب العارفين عليهم لئلا يعجبوا بأعمالهم وأحوالهم، والرزق للأسرار مما يكون استقلالها من المكاشفات، ثم بيّن تعالى أنّ لأهل حقائق الإيمان بعض طباع البشرية، وحركات الأنفس الأمّارة عند وقوع أمر الله، ولا ينقلب ذلك بمنقصتهم، بل بفضله ورحمته اصطفاهم بهذه الكرامات قبل وجودهم في الأزل بخاصية اجتبائه بغير علّة اكتسابهم، وبيّن أن الوليَّ الصادق وإن بلغ درجة الولاية لم

(١) رواه ابن المبارك في الزهد (ص١٠٦).

يخلُ من بعض خطرات النفس، ولم يكن ذلك لنقصانه، بل بيان اختصاصه باختصاصه القديم في سابق حكمه لهم، حتى لا يظن الظَّان أن الوليّ لم يبلغ درجة الولاية إلا بأداء جميع حقوق العبودية، فإنّ محل النبوّة لا يخلو من الخطرات، فكيف بمحل الولاية، وجملة ذلك قوله سبحانه لنبيّه ﷺ : ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾.

ثم زاد في وصف طباعهم النفسانية، بقوله تعالى: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾.

سبحانه من خصّ هؤلاء بهذه الصفات بحقائق الإيمان ودرجاتها وأنوارها ومكاشفاتها، ولم ينل بتلك الصفات؛ ليُعلم الخلق أن فضله سابق عليهم، وعنايته لهم قديمة.

ومعنى الآية أن وضع قسمة الغنائم بقسمة الأزل، كما أرادت نفوسهم ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ﴾ من بيتك لقتال العدو، وهم في ذلك كارهون، أي: كراهتهم في القتال لكراهتهم في قسمة الغنائم، وتلك الكراهة من قبل النفس، وطبع البشرية لا من قبل الإنكار في قلوبهم لأمر الله ورسوله؛ فإنهم موقنون بقول الله ورسوله.

وكذا حال جميع السالكين لم تفر نفوسهم من أوطان قلوبهم في جميع الأنفاس، إلا عند كشوف مشاهدة الحق سبحانه، فهناك لا يبقى على وجه أرض القلوب إلا إشراق أنوار الغيوب.

قيل: أن النفس لا تألف الحق أبدًا، جدالهم مع النبي ﷺ من جهة، لانبساطهم أطفال حجر الوصلة، وجدالهم كجدال الخليل ﷺ من رأس الخلّة والانبساط.

قال تعالى: ﴿يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤] والفرار ليلًا قبل وقوع المشاهدة، فإذا وقع الحق، ورفع الحجاب لم يبق من آثار النفوس ذرّة، فالقوم كانوا في ذلك الوقت في مقام الغيبة، فلمّا انكشف لهم مأمولهم، بذلوا مهجتهم بطيب نفوسهم، حيث اختاروا الشهادة في الأحد، وإن من سنّة الله لأهل السلوك إخراجه إياهم من أوطانهم؛ ليذوقوا مرارة الفرقة في الغربة، ولا يبقي عليهم مألوفات البشرية؛ لذلك قال تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ . فالحقيقة في ذلك خروج الرجال من أوطان النفوس إلى فضاء المشاهدة، حتى لا يبقى معك غيره.

قال أبو يزيد- قدّس الله روحه-: سألت الوصلة، فقال لي: دَع نفسك وتعالَ.

قال ابن عطاء: أخرجك من بلدتك؛ ليُحيي بك قلوبًا عمياء عن الحقّ.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ : مفارقة أوطانهم، ولا تتم لعبدٍ حقيقة الصحبة والنصيحة، إلّا بعد هجران أقاربه ومفارقة أوطانه، أخرجهم من تلك البلدة حتى ألفوا غيرها من البلاد، ولم يبقَ عليهم مطالبة لها، فردَّهم إليها؛ لئلا يملكنهم سوى الحق شيء.

وقال بعضهم في هذه الآية: أفناك عن أوصافك، ومواضع سكونك واعتمادك، وما كان يميل إليه قلبك؛ لئلّا تلاحظ محلًّا، ولا تسكن إلى مألوف، فأخرجك من المألوفات؛ ليكون بالحق قيامك، وعليه اعتمادك.

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ :ظاهر روحك ومفارقتك أوطانك، ولا يعلمون أن خروجك منها الخروج عن جميع الرسوم المألوفة، والطبائع المعهودة، وأنك بمفارقة هذا الوطن المعتاد، يصير الحق وطنك.

ثم زاد سبحانه في وصف القوم في طلب ماهيتهم، بقوله تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾[1]: سنّة الله التي قد جرت في الأزل أن عند كلّ مشاهدة مجاهدة، وأن عند كل نعمة بلا ظهور فضل الربوبيّة، وإذعان الخليقة لأمر القدم بنعت العبودية.

قال بعضهم: مَن ظنّ أنه يصل إلى الحقّ بالجهد فمتعن، ومَن ظن أنه يصل إليه بغير الجهد فهن.

قوله تعالى: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ : تعيّن بلطفه، وإبراز كرمه، وظهور جلاله لأهله، وبيَّن الصادق في محبّته، والمدَّعي بكراماته.

وأيضًا ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ :الإيمان والصدق ببذل مهجتهم لله مما يجري على أوصافهم من خطور النفسانية.

وأيضًا: ﴿لِيُحِق ٱلْحَقَّ﴾ :حق المشاهدة المحبّة في قلوبهم، ويُبطل الهواجس في نفوسهم.

قال بعضهم:﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالإقبال عليه و﴿يُبْطِل ٱلْبَٰطِلَ﴾ بالإعراض عنه.

---

(١) أي: ذات الحرب (تكونُ لكم) وهي العير، فإنها لم يكن فيها إلا أربعون رجلاً، وتكرهون ملاقاة النفير لكثرة عَدَدِهِمْ وعُددهم، ﴿ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ ﴾ أي: يظهر الحق، وهو الإسلام، بقتل الكفار وهلاكهم في تلك الغزوة، (بكلماته) أي: بإظهار كلماته العليا، أو بكلماته التي أوحى بها في هذه الحال، أو بأوامره للملائكة بالأمداد، أو بنفود كلماته الصادقة بهلاكهم، ﴿ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي: يستأصلهم ويقطع شوكتهم. البحر المديد (٢/ ٣٣٦).

وقال الواسطي: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بتجلّيه، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ باستتاره.

وقال بعضهم: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالكشف، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالستر.

وقال بعضهم: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالرضا، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالسخط.

وقيل: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ للأولياء و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ للأعداء.

وقيل: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالخدمة، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالصرف.

وقيل: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ بالبراهين، و ﴿يُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ﴾ بالدعاوى.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَـٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾: الاستغاثة مقام الشكوى والتواضع في الانبساط والفناء في رؤية البقاء، فمَن تعرّض له حال الاستغاثة، فيفر منه إليه ويطلب هو منه يغيثه به لا منه، فإنّ القوم طلبوا منه بالاستغاثة المعونة على مأمولهم من النصر، ونيْل الغنيمة، فأغاثهم بإمداد الملائكة، ثم صرفهم عن رؤية الغير.

بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: إجابتهم بالسرعة من صدق لجوئهم إليه، وكمال الإجابة، استغراقهم في بحار شهود سنا جماله، وأنوار جلاله.

قال بعضهم: من صدق اللجوء والاستغاثة، أجيب في الوقت.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾.

قال النصرآبادي: استغاثة منه، واستغاثة إليه، الاستغاثة منه لا يجاب صاحبها بجواب، بل يكون أبدًا معلّقًا بتلك الاستغاثة، والاستغاثة إليه، فذلك الذي يجاب إليه الأنبياء والأولياء والأصفياء.

قال أيضًا: النفس تستغيث بطلب حظّها من البقاء، ودوام العافية فيها، والقلب يستغيث من خوف التقليب، قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[1].

والروح تستغيث بطلب الرواح، والسرّ يستغيث لإطّلاعه على الخفيّات، قال تعالى:

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٥).

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

قال الأستاذ: الاستغاثة على حسب شهود الفاقة، وعدم المنّة والطاقة، والتحقُّق بانفراد الحق بالقدرة على إزالة الشكاية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ إمداد الملائكة بشارة لصدق مواعيده، ولطمأنة قلوب عباده بأنوار بقائه، وصورة البرهان يكون لضعف الإيقان، ولو كان الإيقان على حد الاستكمال بالعرفان، لم تتعلّق الطمأنينة بالبرهان.

فلما عَزّ في جلاله وكبريائه، صَرَف عيون القوم عن الوسائط إلى عِزّ جلاله، بقوله: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: «النصرة»: كشف أنوار مشاهدته للأرواح السكرى بشراب شوقه، يظفرها بوصله؛ لانهزام جنود قهرياته من ساحات لطفه.

قيل: بَيّن الله آثار النصرة، وبدو السلامة، فمن لم يطلب النصرة والسلامة بالذلّة والافتقار إليه لا ينالها؛ لأن طلب النصرة بالقوة والقدرة منازعة للربوبيّة، ومن نازع المولى قهره.

ثم تعزَّز بعزته في نصرة أوليائه عند تبرّيهم من حولهم وقوتهم، بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾: «عزيز»: بامتناعه عن مطالعة خلقه جلاله وجماله بعلّة من العلل، «حكيم»: باختصاصه مقام مشاهدته، وكشف قربه لهم.

قال الواسطي: «العزيز»: الذي لا يدركه طالبوه، ولو أدركوه لذلَّ.

وقال الأستاذ في قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾: فالطالب واجد، لكن بعطائه، والراغب واصل، ولكن إلى مباره، والسبيل سهل، ولكن إلى وجدان لطفه.

فأما الحقّ سبحانه، فهو عزيز وراء كل وصل وفصل، وقرب وبعد، ما وصل إلى نصيبه، وما بقي أحدٌ إلا عن حظٍّ، وأنشد:

وقلوبُنَا نحنُ الأهلّةَ إنَّما تُضِيءُ لمنْ يَسرِي بليلٍ ولاَ نقرَى
فلَا بذلَ إلّا مَا تزَوَّد نَاظِري ولاَ وصلَ إلّا بالخيالِ الذِي سَرَى

ثم وصف سبحانه زيادة امتنانه عليهم بعد نصرهم ونيْلهم مرادهم، بعد أن أراح أبدانهم من وجع الآلام، وقلوبهم عن كدّ القبض بإنزاله عليهم النعاس، بقوله تعالى: ﴿يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾.

«النعاس»: ارتفاع بخار الدم من حرقة القلب إلى الدماغ في أصل الحكمة؛ لاستراحة أعصاب الدماغ وقت استرخائها من حدّة مشاغل تنفُّس أنفاس الدموية المختلطة برطوبات

صفاء البلغمية، وليس ذلك يقوى.

فإذا هاج ذلك الدم من أصل الكبد والقلب، ومشرعه المعدة، وارتفع إلى الدماغ يختلط هناك برطوبات الدماغ، فيصير ثقيلًا، فيسقط ثقله إلى القلب، ويصير الدماغ والقلب ثقيلين، ويجري ذلك الثقل في جميع العروق، فتصير جميع الأعضاء مسترخية من غشيان ذلك الدم، ويغلب على العقل والحواس، فيسمى ذلك بعينه النوم وهذه الصفات صفات حيوانية إنسانية، نفى الله تلك الصفة عن جلال ذاته، حيث وصف نفسه بالتنزيه والتقديس عن علّة الحدثان، بقوله تعالى: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، ومن فضلة وكرمه على أوليائه إذا أراد أن يروِّح أبدان الصدِّيقين من ثِقَل العبادات يغشي دماغهم بغفوة النعاس؛ ليستريحوا من عناء القبض، ويسكنوا بروح البسط.

ثم النعاس موضع ظهور أوائل أشكال المكاشفات، واشتهال هواتف الغيبية من عالم الملكوت، يرون بقلوبهم بين النعاس والنوم واليقظة، أشياءً بديهية غيبية، تورث السكينة والطمأنينة والأمن، بقوله تعالى: ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي: أمنًا منه من زيادة الامتحان، وغلبة النفس والشيطان.

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «النعاس في القتال أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان»، وكان النبي ﷺ نومه نعاسًا، لذلك قال ﷺ: «تنام عيناي ولا ينام قلبي»[1]؛لأنّ القلب إذا نام لم يرَ من عالم الملكوت شيئًا، وهكذا حال الأولياء قلوبهم في جميع الأوقات يقظى، ونومهم ليس بكثير، وكلّ قلب يرى في نومه شيئًا من الغيب لم يكن في ذلك الوقت إلا نعاس.

قال سهل: «النعاس»: ينزل من الدماغ والقلب، والنوم محلٌّ بالقلب من الظاهر، وهو حكم النوم، وحكم النعاس حكم الروح، وفائدة النعاس هاهنا إعلام الله إيّاهم أن فيض كرمه ليس باكتسابهم، أفناهم عن نفسه، ثم أظهر فضله عليهم بأن يهزم عدوّهم بإلقائه عساكر الرعب في قلوبهم، قال ﷺ: «نصرت بالرعب»[2].

وإذا بَرِء العبد من حوله وقوته، يجيء نصر الله له، فيظفر بجميع مراده، ثم مَنَّ الله عليهم بإنزاله رحمته من السماء عليه، بقوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ الماء الطاهر يطهر الأشباح، وماء المعرفة يطهر الأرواح، ويعرفها مكان كل حقيقة من عين الفعل والصفة، فإذا عُرفت الأفعال والصفات عُرفت الذات، فمثالها مثال الأصداف في

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٣٠٨).

(٢) رواه البخاري (١/ ١٢٨)، ومسلم (١/ ٣٧٢).

البحار.

فالأرواح أصداف، بحار الأفعال تتلقف قطرات عرفان الصفات من بحار الذّات، كما تتلقف الأصداف في البحار من قطر الأمطار، فتصير القطرة في أجوافها دُرًّا، فكذلك قطرة المعرفة في جوف الأرواح، تصير دُرَّة الحقيقة، والحكمة الإلهية الأزلية.

قال بعضهم: ماء اليقين إذا نزل على الأسرار، أسقط عنها الاختلاج والشكّ.

قال الله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ مِن كل ما تدنَّستم به من أنواع المخالفات، ثم وصف ذلك الماء الحقيقي بأنه يربط به قلوبهم في معرفة العبودية والربوبية، وهو ماء اليقين الذي يقوِّي القلوب في معرفة الله، ويثبِّتها بوصف التمكين والاستقامة في سيرها في المقامات، بقوله:

﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾: نفَّس عن قلوبهم وَحْشة الفُرقة، وأثبتها في رؤية الوصلة، وتجلّي القُربة بربط أبدانهم بالطاعات، وربط عقولهم بالآيات، وربط قلوبهم بأنوار الصفات، وربط أرواحهم في سطوات الذات، وربط أسرارهم بعلوم الآزال والآباد.

ثم أخذ أيديهم عن استغراقهم فيه بنعت الفناء، وثبَّتهم به في مقام البقاء، ولولا تثبيته إيّاهم، لفنوا في أول بادٍ بدا من ربوبيته، وأول ظهور سطوة من سطوات عظمته كانوا يحتملون به، ومشاهدته قهر سلطان عزّته.

قال بعضهم: ربط على قلوب أوليائه، لتَلْقي البلاء بالمحبّة والصبر، وربط على قلوب العارفين، لثبات الأسرار في مشاهدة ما يبدو لهم من الغيوب، ويثبِّت أقدام أهل الاستقامة، فاستقاموا له على جميع الأحوال، ولم يزالوا.

قال بعضهم: القلوب ثلاثة: قلبٌ مربوطٌ بالأكوان، وقلب مربوط بالأسماء والصفات، وقلب مربوط بالحق.

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ

وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾: افهم أن في هذه الآية للعارفين موضع الاتّحاد، ولهم في الاتحاد مقامات اتّحادٍ بالأفعال، واتحاد بالصفات، واتحاد بالذات، وهاهنا إشارة اتحاد الأفعال، واتحاد الصفات، فإضافة فعل القوم إلى نفسه بالقتل اتحاد الفعل.

وذلك مقام جمع وتفرقة، ولهم تفرقة في الجمع، إذ ذكر ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾، نفي فعلًا بعد إثباته لهم، فإذا باشروا القتل كانوا في محلّ تفرقةٍ، وإذا أضاف القتل إلى نفسه كانوا في محل جمعٍ، فالتفرقة عالم الصورة ورسم الخليقة، إذ كانوا في الخليقة معارفين من مصدر خاصية فعله تعالى، ومِن حيث إنهم قائمون في جميع الذرّات بفعله الخاص المتعلّق بالقدرة، كانت عينهم عين الفعل، خاصةً أنه تعالى تجلّى من فعله الخاص لهم بنعت القهر للمقتولين، فهُم مع فعله عين أخذ، فإذا كان كذلك، والإضافة إلى نفسه إضافة حقيقة، إذ لا يبقى في البيْن غير فعله من جميع الوجوه، وهكذا أحكام الخلق من العرش إلى الثرى في جميع الأوقات من جهة الفعلية والخلقية.

لكن إذا لم يكن وقت المباشرة تجلّي الفعل إلى الفعل، لم يكن هناك خاصية اتّحاد الأفعال، كانوا كسيفٍ على يد ضاربٍ، بل السيف واليد واحد بالمراتب والترقّي، وإذا كان المصدر مصدرًا واحدًا، لم يكن في البيْن من العرش إلى الثرى غير الله.

وللنبي ﷺ ههنا خاصيّة اتّحاد الصفة، حيث اتّصف بصفته حين عاينه بنعت كشف تجلّي صفته تعالى في قلبه وروحه وعقله، وسرّه وظاهره وباطنه وصورته، فيصير جميع وجوده مستغرقًا في نور الصفة، فعله أضاف إلى صفته لا إلى فعله؛ لأن القوم كانوا في رؤية أنوار آياته، وكان ﷺ في رؤية أنوار صفاته، وخاصية اتّحاد الذات بعد مروره بالآيات، وسباحته في بحر الصفات، وقع بعد مباشرة المقامين، واتّصافه بالصفتين صفة الفعل، وصفة الخاص إدراكه جلال الذات، وفناؤه فيه، وبقاؤه به معه، واستغراقه في آزاله وآباده، وخروجه من بحر الأوّلية والآخرية بنعت الصفة، وسنا الذات، حتى صار مرآةً للذات والصفات والفعل، فأبرزه الله للعالمين؛ لتعريف نفسه به إيّاهم، كإخراجه خليفته آدم ﷺ بعرفان الملائكة، وكان متّصفًا بالصفة، متّحدًا بها، والنبي ﷺ كان متّحدًا بنور الذات بعد اتحاده بنور الذات والصفات، بعد اتحاده بنور الصفات، وكان فوق آدم باتحاد أنوار الذات، فلمّا كمل في اتّحاده عرف الله مكانه في تمام الخلق، بقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء:٨٠] لم

يبقَ في تجلّي علمه وصفته وذاته من وصف الحدوثية شيءٌ.

لذلك قال ﷺ: «من رآني فقد رأى الحق، ومن عرفني فقد عرف الحق»[١]

كأن تفرقته في عين الفعل جمعًا، وجمعه في الصفة جمع الجمع في عين الذات، وفي عين الذات من حيث الألوهية جمع بغير تفرقة، ومن حيث الخليقة تفرقة وجمع.

ذكرت نبذة من مقام الاتّحاد والاتّصاف بالجمع، والتفرقة في هذه الآية لا يَعرف معناها إلا صاحب رجاء العشق، وبسط المحبّة، وروح الشوق، وأنس المشاهدة، وانبساط المعرفة، وفناء المعرفة والتوحيد، والبقاء والاتصاف، وإدراك علم الله في المجهول عند علوم العلماء، وفهوم الفقهاء.

وما ذكر المشايخ في الآية قول فارس: ما كنت راميًا إلا بنا، ولا مُصيبًا إلا بمعونتنا، وإمدادنا إيّاك بالقوة.

قال بعضهم: ما رميت، ولكن رُميت بسهام الجمع، فغيبك عنك، فرميت، وكنّا رامين عنك؛ لأنّ المباشرة لك، والحقيقة كنّا إذ لم يفترق.

وقال الأستاذ: ﴿إِذْ رَمَيْتَ﴾ فرقًا، ولكن الله رمى جمعًا، والفرق صفة العبودية، والجمع نعت الربوبيّة، ثُمّ عرّف موضع نعمته برميه بنفسه، وصرف قهره عنهم، بقوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ كما باشر بأنوار صفته قلب نبيّه ﷺ في الرمي وأسرارهم في القتل، باشر بها قلوبهم بحسن تجلّيها؛ ليعرفوا بها نفسه، واتجاه إيّاهم من مكره وقهره، والبلاء الحَسن وقوع محبّته في قلوب أوليائه، وكشف جماله لأصفيائه، وإسماع خطابه لنجبائه.

سُئل الجنيد عن قوله: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾.

قال: «البلاءُ الحَسن»: أن يثبته عند الأمر، ويحفظه عند الأمر، ويفرده به عند مشاهدة الفر.

قال رويم: «البلاء الحسن»: أن تكون رؤية الحقّ أسبق إليه من نزول البلاء، فيمر به البلاء، وهو لا يشعر؛ لاستغراقه في رؤية الحق.

وقال أبو عثمان: «البلاء الحسن»: ما يورّثك الصبر عليه، والرضا به.

وقال علي بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جعفر بن محمد قال: أن يُفنيهم عن نفوسهم، فإذا أفناهم عن نفوسهم، كان هو عوضًا لهم عن نفوسهم.

---

(١) تقدم تخريجه.

قال الأستاذ: «البلاء الحسن»: توفيق الشكر في المنحة، وتحقيق الصبر في المحنة.

ويقال: «البلاء الحسن»: أن يشهد المبلي في عين البلاء، ثُمّ روح قلوب المحتملين بلاء محبّته، وأثقال شوقه، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿سَمِيعٌ﴾: أنين أهل الشكوى في شوقه، ﴿عَلِيمٌ﴾: ألم فقدانه في قلوب أهل محبّته.

قال الأستاذ: تنفيسٌ لقومٍ، وتهديدٌ لقومٍ، أصحاب الرفق يقول لهم: إن الله سميع لأنينكم، فيتروّح عليهم بهذا وقتهم، ويحمل عنهم بلاءهم، وأنشد في هذا المعنى:

إذَا مَا تمنَّى النَاسُ روحًا وراحةً ... تمنيتُ أنْ أشكُو إليهِ فيسمعُ

﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾: حذّر الله الصادقين عن الدعاوى الباطلة، التي لم يكن معها المعنى، فإنّ سماع الظاهر بغير فَهمٍ، ومتابعة أمر، فهو سماع غفلة.

ثم وصف هؤلاء المدّعين بأنهم أغفل من الحيوان، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾: «الصمُّ»: عن استماع هواتف الغيب، و«البكم»: عن نشر فضائل المعرفة، ووصف المعروف بنشاط المعرفة ورؤية المشاهدة، وذلك ميراث جهالتهم بأنفسهم، ومعرفة صانعهم عن طريق العقل والعلم في كلّ موضع.

العقل هناك أمير البدن، لا يقبل عن صاحبه إلا النظر إلى الحقّ، والسماع من الحق، والقول بالحق.

قال بعضهم: من سمع، ولم يؤثر عليه فوائد السماع وزوائده في أحواله، فهو غير مستمع، ولا سامع، والمستمع على الحقيقة من يرجع من حال السماع بزيادة فائدة، أو بزيادة حالٍ، ومن حضر مجالس السماع، ولم يرجع بزيادة، فإنما يرجع بنقصان.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

وقال بعضهم: «الصمُّ»: عن سماع الذكر، وفَهم معانيه، و«البكم»: عن مداومة تلاوة الذكر وطلب الزيادة منه، الذين لا يعقلون ما خوطبوا به، وما خُلقوا له، وما هم صائرون إليه في المآب.

وقال الأستاذ: مَن صمَّ عن إدراك ما خوطب به وبسرِّه، وعمي عن شهود ما كوشف به قلبه، وخرس عن إجابة ما أرشد إليه من حجة فهمه وعقله، فدون رتبة البهائم قدره، وفوق كلّ خسيسٍ من حكم الله ذّله وصغّره، ثم أنّ الله سبحانه أضاف حرمانهم من فهم الخطاب، وإدراكه حقائقه، ومتابعة أمره إلى قسمة أزله، ومشيئة سابق حكمه[1]، بقوله:

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي: لو علمَ الله في قلوبهم خير اصطفائيته الأزليّة، لأسمعهم حقيقة خطابه، وعرّفهم مكان مراده فيه، ولكن ماداموا لم يكونوا مصطفين في أزل الخيرية الاصطفائية، ما أسمعهم لطائف كلامه، وما عرّفهم مواضع أنبائه العجيبة، وحقائق حكمه الغريبة، وبيَّن أنه تعالى لو أسمعهم خطابه بنعت ما وصفنا لم يدركوه، وهم معرضون عن متابعة أمره؛ لأنّهم محرومون في الأزل من رؤية حُسن حضرته، وإدراك اجتبائه.

قال يحيى بن معاذ: إنّ هذا العلم الذي تسمعونه، إنّما تسمعون ألفاظه من العلماء، ومعانيها من الله بآذان قلوبكم، فاعملوا وتعقّلوا ما تسمعون، فإنْ لم تعلموا كان ضره أقرب إليكم من نفعه.

قال بعضهم: علامة الخير في السماع لمن سمعه فناء أوصافه ونعوته وسمعه بحقٍّ من حقّ.

وقال الأستاذ: من أقصته سوابق القسمة لم يدنه لواحق الخدمة، ولها وصف حرمان الزائغين عن الحق وعي، فإن الخطاب خطاب أهل إرادة المحبّة، ودعاهم إلى مشاهدته وقربه، وطلب منهم إجابة دعوته بنعت متابعته، ومتابعة رسوله، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

طيّب أرواحهم بنسيم روائح قدس ندائه، وفتح آذان قلوبهم لحلاوة دعائه، وشوق أسرارهم بلذيذ خطابه، وجعلهم مستبشرين بلطيف حكمه، وعلى وجدانهم أنوار قربه.

ألا ترى كيف قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾: دعاءه

---

(١) انظر: تفسير القشيري (٣/ ١٢).

لا لأنفسكم وحظوظكم، وطلب أعواض أعمالكم.

﴿ٱسْتَجِيبُوا﴾ : ببذل أرواحكم وأشباحكم لداعية الأزل، حيث دعاكم منه إليه قبل وقوع حدّ وثبتكم، دعاكم بوصف السرمدية من محبّته لكم، وشوقه إليكم، فأحبّوه واشتاقوا إليه بمحبّته وشوقه، واستجيبوا للرسول بمتابعة أمره، فإنه روح الصغرى من عالم الملكوت أدرك من روح الكبرى، وهي نعوت الجبروت حياة القِدم.

﴿يُحْيِيكُمْ﴾ : بروح الصغرى والكبرى.

وأيضًا ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: مشاهدة الأزليّة، وقربته الأبدية، ومحبّته الصفاتية، ومعرفته الذاتية.

قال الجنيد في هذه الآية: قرعَ أسماعهم، فيُسمعهم حلاوة الدعوة، فيتنسموا روح ما أدّته إليهم الفهوم الطاهرة من الأدناس.

فأسرعوا إلى حذف العلائق المشغِلة قلوب الموافقين ومَنْعها، وهجموا بالنفوس على معانقة الحذر، وتجرّعوا مرارة المكابدة، وصدَقوا الله في المعاملة، وحُسن الأدب فيما توجهوا إليه، وهانت عليهم المصيبات، وعرفوا قدر ما يطلبون، واغتنموا سلامة الأوقات، وسجنوا هومهم عن التقلّب إلى مذكورٍ سوى وليّهم، فحيوا حياة الأبد بالحي الذي لم يزل ولا يزال، فهذا معنى قوله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ .

وقال الواسطي في قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ :حياة تصفيتها من كلّ معلولٍ لفظًا وفعلًا.

وقال جعفر: أجيبوه إلى الطاعة؛ ليُحيي بها قلوبكم.

وقال أيضًا: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ : «الحياة»: هي الحياة بالله، وهي المعرفة، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧].

وقال بعضهم: استجيبوا لله بسرائركم، وللرسول بظواهركم إذا دعاكم إلى ما يُحييكم.

فحياة النفوس بمتابعة الرسول، وحياة القلب بمشاهدة الغيوب، وهو الحياء من الله برؤية التقصير.

وقال جعفر الصادق: حياة القلوب في المعاشرة، وحياة الأرواح في المحبّة، وحياة النفوس في المتابعة، ولما دعاهم إلى مشاهدته بنعت الشوق، عرّفهم أن قلوبهم مسلوبة منهم بكشف جماله، وإلقاء محبّته ومعرفته فيها، بقوله:

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: قلوبكم معي فاتّبعوا أثرها،

واطلبوها منّي حتى أطهّرها لكم، متقلبات في بحر الصفات والذات، حائرات في المشاهدات، ساكرات بشراب القربات، دانيات منّي، فانيات فيَّ، باقيات معي، لو تعرفونها تعرفوني، لذاك قال ﷺ: «من عرف نفسه فقد عرف ربه»[1]؛ لأنه نفس النفس، وقلب القلب، وروح الروح، وعقل العقل، وحياة الحياة.

ثُمّ وصف ﷺ تقلّبها في عيون الصفات بنعت البقاء، وسباحتها في بحار الذات بنعت الفناء، بقوله ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»[2].

قيل: أنّ الله أشار إلى قلوب أحبابه بأنه يأخذها منهم، ويجمعها ويقلبها بصفاته، كما قال النبي ﷺ: «قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»[3]، فيختمها بخاتم المعرفة، ويطبعها بطابع الشوق.

وقيل: ﴿يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ أي: عقله وفهمه عن الله خطابه.

وقيل: يحول بين المؤمن والإيمان، وبين الكافر والكفر، ويردّهما إلى الذي سبق لهم منه في الأزل.

ويقال: حال بينهم وبين قلوبهم؛ لئلا يكون لهم رجوع إلا إلى الله.

﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾: حذّر الله أهل القصة من الدعاوى الكاذبة، وهي التي لم يبلغ صاحبها إلى ما تدّعي من المقامات، فيفتتن بها هو وغيره من المريدين، فإنّ من أظهر شيئًا من نفسه، ولم يكن أهل ذلك، فهو يحتجب به عن كلّ مقصودٍ.

ويُضل من يقتدي به ممن لا يعرف الحقّ من الباطل، قال ﷺ: «المتبع بما لم يعط كلابس ثوبي زورًا»[4].

قال أبو عثمان: اكتساب المال من الحرام من الفتن التي تصيب بغير مباشرة.

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) رواه ابن حبان (١٣/ ٤٩).

وقال الأستاذ: الإشارة إذا باشر زلّة بنفسه، عاد إلى القلب منه الفتنة، وهي القسوة المعجد، وتصيب النفس من الفتنة العقوبة، والقلب إذا حصل منه زلّة، وهو فيها لا يجوز يتأدى فتنته إلى السرّ، وهي الحُجبة.

ويقال: أنّ الزاهد إذا انحط إلى رخص الشرع في أخذ الزيادة من الدنيا ما فوق الكفاية، وإن كان من وجه الحلال تعدى فتنته إلى مَن تخرج به من المبتدئين، فيحمله على ما رأى منه على الرغبة في الدنيا وترك التقلُّل، فتؤدّيه إلى الانهماك في أودية الغفْلة من الانشغال بالدنيا عن ربّه.

والعابد إذا جنح إلى ترك الأوراد، تعدّى في ذلك إلى من كان يبسط في المجاهدة، فيستوطن الكسل، ثُمّ يحمله الفراغ، وترك المجاهدة على اتّباع الشهوات فيصير كما قيل: أن الفراغ والشباب والحدّة مفسدة للمرء، أي مفسدة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ : مَنَّ الله على أوليائه بأنه وإن كان عددهم قليلًا، فهو عند الله عظيم، فأكثرهم بالإخوان من العارفين حين كانوا عند الأعداء خائفين من شرّهم، ومِن شرّ معصيتهم وقلّة احترامهم، بقوله: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ ؛لأنهم في منادى الأحوال، فلمّا آواهم الله إلى مقام مشاهدته، وألبسهم لباس أنوار هيبته، وسقاهم شراب وصلته، غلبوا بنصرة الله على أعداء الله، وصاروا صاغرين عند هؤلاء الأولياء،وذلك قوله تعالى: ﴿فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ : آواهم من قهره إلى لطفه، ووسّمهم بسمات قدرته، وأطعمهم من موائد قُربته.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ : تعرفون مشكوركم حين تعجزون عن أداء شكر معرفته.

قال الأستاذ: رزق الأشباح من طيّبات الغذاء، ورزق الأرواح والسرائر من صنوف الضياء، فلمّا وفّقهم بعوالي تلك الدرجات، حذّرهم الله عن الخيانة في الطريق، بقوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ : إذ عرّفكم الله معالم الربوبيّة، وحقائق العبوديّة، وأعلمكم علوم حكم المعرفة لا تكتموها عن أهلها من المريدين الصادقين، وما وجدتم من ذلك من شرائع رسولي، وعلمه المأثور منه لا تمنعوا منه مَن يقتبس منكم، قال ﷺ: «بلغوا عني ولو آية»[1]

وإذا عرفتم ذلك اعملوا به، ولا تخونوا في تلك الأمانة التي أودعها الله قلوبكم بترك رعايتها بنعت العمل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك قوله:﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ﴾ ،

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢٧٥).

وأنتم تعلمون أنكم خائنون في تضييعكم، ومَنَّ الله عليكم من علمه الذي علّمكم.

وأيضًا من عرف الله والتفت سرّه إلى شيءٍ غير الله، فقد خان الله في محبّته وأمانته، وودائع معرفته في صدور عباده التي توجب انفراد خواطرهم من كلّ العوارض النفسانية والشيطانية.

قال أبو عثمان: من خان الله في السرّ، هتك ستره في العلانية.

وقال بعضهم: خيانة الله في الأسرار من حبّ الدنيا، وحب الرئاسة، والإظهار خلاف الإضمار، وخيانة الرسول في آداب الشريعة، وترك السنن والتهاون بها، وخيانات الأمانات في المعاملات والأخلاق، ومعاشرة المؤمنين في ترك النصيحة لهم.

﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾: بيَّن سبحانه أن من اتّكل إلى المال في معيشته، وتولّى إلى أولاده في طلب نصرته، فقد افتتن في طريق الله بغير الله.

قال بعضهم: «أموالكم»: فتنةٌ إن جمعها وأمسكها، ونعمةٌ إذا أنفقتم، وبذلتم في وجوه الخيرات.

وقال بعضهم: «المال»: فتنة لمن طلب الفتنة، ونعمة لمن كان خازنًا لله فيه يأخذه بأمره، ويخرجه بأمره إلى أربابه.

وقال أبو الحسين الورّاق: ما اعتمدت سوى الله من الدنيا والآخرة، فهو فتنة حتى تعرض عن الجميع، وتُقبل على مولاك، وتعتمد عليه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾: بيّن سبحانه مَن مُخرج بسرّه من جبّ شيءٍ سوى الله من المال والولد والدنيا والآخرة، يسرج الله في قلبه في مسرجة التقوى مصباح أنوار الغيب، تُضيء الأبصار أسراره ما في خزائن ملك الملكوت، ويفرّق بسناها بين المكاشفات والمخاييل.

قال سهل: نورًا يفرق به بين الحق والباطل.

وقال الجنيد: إذا اتّقى العبد ربه جعل له تبيانًا يتبيّن به الحقّ من الباطل، وهذه نتيجة التقوى.

فقيل له: أليست التقوى فرقانًا؟ قال: بلى، الأول: بداية من الله، والثاني: اكتساب، فإذا اتقى الله، اكتسب بتقواه معرفة التفرقة بين الحق والباطل، فيتبيّن هذا من هذا.

وقال الأستاذ: «الفرقان»: ما يفرّقون به بين الحق والباطل، مِن علمٍ وافر، وإلهامٍ قاهر، فالعلماء فرقانهم محبوب برهانهم، والعارفون فرقانهم موهوب عرفانهم، فهؤلاء مع مجهود نفسهم، وهؤلاء لمقتضى جود ربهم، فالعرفان تعريف من الله، والتكفير تخفيف من الله، والغفران تشريف للعبد من الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ وصف تعالى نفسه بالمكر، ومكره منزّهٌ عن الحيل والمخاييل والأباطيل.

«مكره»: سخطه السابق، الذي ظهر سماته للعبد على وجوه المطرودين، وسوابق المشيئة الأزليّة، وامتناع جماله بعزّته عن مطالعة غير العاشقين به، فأخرجهم بصورة المقبولين، وكانوا في الأزل من المطرودين، فما عرّفهم مكان قهره.

ومكره بهم وعليهم، فأبرز لهم أنوار السعادة، وأزّمهم في ورطات قهرياته بأزمة الشقاوة، فما رأوا على أنفسهم حلي الطاعات، وغفلوا عن ظلمات بواطنهم؛ لأنهم مطموسون بطمس مكر الأزل.

قال تعالى في وصفهم: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤]، هذا وصف مكر البعد منه، فالمكر في الأولياء مكر انبساط وقرب، وهو من علم المجهول، وذلك مقام الالتباس حيث ظهر عين الصفة في عين الفعل على حدّ الجمع والتفرقة، وتلك لطائف مشاهدة المتشابهات من الاستواء والنزول، وغيرهما من الصفات، وما ذكرنا بمجموعه، فيكون في إشارته ﷺ حين عاين العدم في مرآة الحدث، بقوله ﷺ: «رأيت ربي في أحسن صورة»[1].

وهذا محلُّ العشق والبسط والانبساط، والأنس والشوق.

قال الشبْليّ: المكر في النعم الباطنة، والاستدراج في النعم الظاهرة.

وقيل: «المكر» مكران: مكر تلبيس، ومكر هلاك.

---

(١) رواه الترمذي (٣/ ٥٦٥).

وقال الأستاذ: من جملة مكره اغترار قوم بما يرزقهم من الطيّبات الجميلة، وأجرّ كثير الطاعات عليهم، مع شرب لهم من قبول الناس إيّاهم، ثم أسرارهم تكون بالأغيار منوّطة، وهم عند الله غافلون، وعند الناس أنهم عند الله مكرّمون، وفي معناه قيل:

وقــدْ حــسدُونِي قُــربَ دَارِي مــنهمُ فكَــمْ مِــنْ قــريبِ الــدَّارِ وهــوَ بَعــيدُ

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[1]: كان ﷺ رحمةً تامة للجمهور حياة ومماتًا، صرف الله عذابه المستأصل عمّن كان على رأس المخالفة، ونبيّه ﷺ بين أظهرهم؛ لأنّ كلّ عينٍ نظرته، واقتبست نوره، لم يكن مستأصلًا من أصلها، وإن كانت محجوبة عن رؤية مراتبه، وشرف منازله؛ لأن مكثه وظله ﷺ كنف رحمة الله، ومن يدرك في نفسه قارعة لتنبهه من غفلته، وتخلصه من عذاب الله.

وأيضًا ما كان الله ليعذِّب قومك بعذاب البُعد، وأنت قريبٌ منهم، فإن من رآك رآني، لا يحتجب منا ما دام ينظر إليك[2].

---

(١) المراد بالتعذيب الأول هو: التعذيب الدنيوي؛ لأن وجود النبي ﷺ أمان للمذنبين، وعبارة الخطاب له ﷺ، وإشارة لاصطفاء أمته؛ فيكون كقوله: «لولاك لولاك لما خلقت الأفلاك»؛ فإن المراد به: لولاك ولولا ما هو شعبة من شعب أنوارك لما خلقت العالم من العرش، والكرسي وغيرهما.

(٢) فانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ﴾ إلخ، كيف جُعل الوجود النبوي، وحصول الاستغفار سببًا لارتفاع العذاب، وباعثًا على الأمان؟ فالأول: من الأسباب الآفاقية، والثاني: من الأسباب الأنفسية، فكما أن الورثة خلفاء الرسول ﷺ ونوابه، وبهم يحصل من الأمان ما يحصل به، وإن كان دونه؛ فكذا القلب بمنزلة الوجود المحمَّدي في عالم الوجود بشرط أن يظهر على الصفة النبوية من التوجه إلى الله =

قال أبو بكر الورَّاق: ما كان الله ليُظهر فيهم البدع، وأنت فيهم، وما كان الله ليأخذهم بذنوبهم، وهم يستغفرون.

قال بعضهم: الرسول ﷺ هو الأمان الأعظم، ما عاش وما دامت سنّته باقية فهو باقٍ، وإذا أميتت سنّته، فلينتظروا البلاء والفتن.

وقال الأستاذ: وما كان الله ليعذّب أسلافهم، وأنت في أصلابهم، وليس يعذبهم اليوم، وأنت فيما بينهم إجلالًا لقدرك، وإكرامًا لمحلّك، وإذا خرجت من بينهم، فلا يعذّبهم وفيهم خدمك، الذين يستغفرون.

ويقال للجوّاد: حرمت فجاد الكرام في ظلّ أنعامهم، والكفار إن تمتعوا بقرب الرسول ﷺ، فقد اندفع العذاب بمجاورته عليهم، وأنشد في هذا المعنى:

وأحبُّهَا وأُحبُّ منزلَهَا الذِي ... حلَّتْ بهِ وأحبُّ أهلَ المنزلِ

ثُم إن الله سبحانه ذكر أنه يُعذّب من يعادي نبيّه ﷺ في الدنيا بالسيف، ولا يعذّبهم عذاب الاستئصال إلا في الآخرة، بقوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ﴾: لحرمة نبيّه ﷺ وإن المؤمن الصادق في إيمانه لا يعذبه الله في الآخرة؛ لأن نبيّه يكون فيهم يوم القيامة، وبشّرنا سبحانه أنه لا يعذب أمته ما دام هو فيهم، فيكون في الآخرة هو فيما بين المؤمنين، فيدخل المؤمن النار؛ لتحلة قسمه، وبأن يُطفيء بنوره ناره، وذلك قوله ﷺ: «جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك ناري»[1].

يدخل المؤمن والكافر في النار، فيبقي الكفار في النار، والمؤمنون يمرون على الصراط كالبرق الخاطف.

فإن وصلت النار إلى المجرمين من أمّته، لا تصل إليهم لجهة الخلود، بل لجهة الخلوص، وفي هذا المعني قيل:

إذَا سَلِمَ العهدُ الذِي كَانَ بينَنَا ... فَوُدِّي وإنْ شَطَّ المزَارِ سليمُ

وهكذا قال الأستاذ- رحمةُ الله عليه- ثم بيّن سبب إيصال العذاب إلى الكافرين، بقوله تعالى: ﴿أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا

=

تعالى، والتبتُّل إليه، فإذا بالإنسان الكامل وبظاهره يحصل الأمان لظاهر العالم وصورته، وبقلب الإنسان الكامل ونفسه؛ يحصل الأمان لنفسه، فهو أمان مطلق من الله تعالى في حق نفسه، وفي حق غيره.

(١) هو من الأحاديث التي تفرد بذكرها المصنف في كتبه.

ٱلۡمُتَّقُونَ﴾: كانوا يعملون شيئًا ليس لهم، فإنهم ليسوا من أهل الحرم مع جهلهم بالله، وهم لا يعلمون أن ليس لهم صد المؤمنين عنه، فإن أحبّاء الكعبة، هم الذين قدّسوا أعينهم من النظر إلى ما سوى الله غير الكعبة، التي هي مرآة تجلّي صفاته، بقوله تعالى: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾.

إنّ الله سبحانه أراد بحشر الخلق يوم القيامة أن يزيد أشواق المحبّين والعارفين والمشتاقين، بكشف جماله، وحسن جلاله، وتمييزهم من المدّعين الكاذبين، الذين يدّعون في الدنيا معرفته ومحبّته وولايته؛ وليريح أصفياءه من صحبة هؤلاء الكَفرة الضالين، الذين صرفوا وجوههم من الحقّ إلى الخلق بالرياء والسمعة، وطلب الجاه والمنزلة.

وأيضًا يُخلِّص أحباءه من مناهضة هواجس النفس الأمّارة، وخطرات الشيطانية، ويُقدّس قلوبهم وأرواحهم وعقولهم من هجوم طوارق القهريات، التي يأتي عليها بالابتلاء والامتحان.

قيل: المخلص مِن المرائي، والمؤمن من الكافر، والمطيع من العاصي.

﴿وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ (٤٠) ۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَـٰدِ وَلَـٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا كَانَ مَفۡعُولًا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرًا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَـٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٤٣) وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرًا كَانَ مَفۡعُولًاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٤٤) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ (٤٥)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾: الإشارة إلى كفرة النفوس الأمّارة بسوء أي: جاهدوها، وأميتوها حتى تتقدّس مزارع أنوار اليقين،

ومرا بع سنا الإسلام والدين، ويتفرد القلب بنور الموحّد والتوحيد من كلّ خاطرٍ غير خاطر الحقّ، ويكون القلب كلّه مستغرقًا في بحار محبّته، والروح هائمة في أودية هويته، والعقل تائهًا في صحاري أزله وأبده، ولا يكون منها جميعًا نظرٌ إلى غيره.

فإن النفس حجاب القهر بينها وبين بارئها، الذي هو منعم عليها بإلقاء محبّة وجهه فيها، ونصرها على نفوسها وهواها، وفي ذلك مدح نفسه تعالى، بقوله: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾: نِعم المولى لأوليائه، ونعم النصير لعمّاله، أنعم بسبق ولايته ومحبّته على المحبين في أزله، وعلى المجاهدين له هواهم ونفوسهم؛ بنصرته لهم إلى أبد أبده.

قال بعضهم: نعم المولى لمن والاه، ونعم النصير لمن استنصره.

وقيل: نعم المولى لأهل الولاية، ونعم النصير لأهل الإرادة.

يقال: نعم المولى بالتعريف.

وقيل التكليف، ونعم الناصر لك بالتخفيف والتضعيف يضعف الحسنات، ويخفّف عنكم السيئات، فأنشد:

هَـــوَاكَ أولُ مَـــا عَـــرفتُ مِـــنَ الهَـــوَى والقلـــبُ لاَ ينـــسَى الحبـــيبَ الأَزَلا

قوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: نفي التدبير عن ساحة التقدير، ويُخرج ما في المشيئة الأزلية على لباس الأمر بنقض العقود والعزائم التي اجتمعت عموم الخلق عليها.

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ: عرفتُ الله بنقض العزائم، وفسخ الهمم.

قال جعفر: ما قضى في الأزل يظهره في الحين والوقت بعد الوقت.

وقال بعضهم: ليكشف عن سوابق علمه في غيبه، باتّصال كلّ من الفريقين إلى ما سبق له منه في أزله، ثم صرف الخلق من ديمومة المشيئة، إلى صورة الأحكام، لعلمه بقلّة إدراكهم سوابق القسمة في الأزل، بقوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ : قدّر في الأول، ونصب أعلام القهر واللطف في الطريقة في الآخر، فيرجع الآخر بما يبدو منه إلى مصدر تقدير الأول، وبيّن أنه منزّهٌ عن الجهل والظلم، نصب الأدلّة لبيان حكمته، وإثبات حجته.

﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ : أمره السابق، وإرادته القائمة.

﴿وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ﴾ :بتلك البيّنات.

﴿مَنْ هَلَكَ﴾: بهواه ما هلك إلا بإهلاكه إيّاه في الأزل.

و﴿مَنْ حَيَّ﴾: بمناه من مشاهدته ومعرفته، ما حيا إلا بإحيائه في الأزل إظهار الشريعة، وإبراز الأدلّة حكم في محلّ الامتحان، وقضية الأزل غالبة على صورة الأمر.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾.

قال بعضهم: أظهر للخلق الآيات، ونصب لهم الأعلام، وفتح أعين القوم لرؤيتها، وأعمى قومًا دونها، وبعث إليهم الوسائط بالبراهين الصادقة، والأنوار النيّرة، ولكن ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾.

وقدّم هذه المقدمة: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾.

قال بعضهم: لا خير إلّا لمن حيا بذكره وأنس بقُربه، والخلق كلّهم متحركون في أسبابهم، والحيّ منهم مَن تكون حياته، بالحيّ الذي لا يموت.

قال الأستاذ: الهالك من عمي في أودية التفرقة، والحيّ من حيا بنور التعريف.

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أول الصبر التصبُّر، وهو مقام التكليف، والبصر مقام التشريف، الأول: مجاهدة، والآخر: مشاهدة، أي: اصبر بأنّي في لوعَات شوقكم، إنّي أشتاق إليكم، واصبر كما يصبرون، فهذا معنى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وأيضًا اصبروا في بلاء محبّتي، وانظروا إلى مقام البلاء حتى تروني، فإنّ التجلّي للصابرين في مكان صبرهم في.

وأيضًا اصبروا لي، فإن الصبر معي يوجب مراد الصابرين في نُصرتهم على عدوّهم من النفوس والشياطين.

سُئل محمد بن موسى الواسطيّ عن ماهية الصبر، وحقيقة الذي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ قال: هو سؤال التولّي قبل مخامرة المحنة، وإذا صادقت المحبّة التولّي حملها بلا كلفة، هذا صفة من كان الله معه في صبره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾: حذرًا وإباءة عن المشابهة بهؤلاء المرائين، الذين يخرجون من دورهم، وزواياهم الخبيثة بألوان زى السالوسين، ويتبخترون فيها من فرحهم بالجاه عند الظالمين، الذين لا يعرفون الهر من البر، وهم كالأنعام بل هم أضلّ، ويتّبعون أهل الإرادة من صحبة الأولياء؛ لتسعير أسواقهم وترويج نفاقهم، حتى يجتمعوا عليهم، ويجلّوهم في أعين الخلق، أهلكهم الله في أودية قهره.

ثم وصفهم بأن الشياطين تزيّن قبائح أعمالهم في أعينهم، بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾: يُريهم أعمالهم الفاسدة بصورةٍ حسنة، وهم بها يغترّون.

قال بعضهم: عظّم طاعاتهم في أعينهم، وصغّر نعم الله عندهم.

وقال الأستاذ: الشيطان إذا زيّن للإنسان يوسوسه أمرًا، والنفس إذا استولت له شيئًا عميت بصائر أرباب الغفلة عن شهود صواب الرشد، فينخرّ الغافل معه في قياد وسواسه، ثم يمحقه هو بهم التقدير وكوامن المكر من حيث لا يرتقب، فلا الشيطان يفي له بما يعده ولا النفس شيئًا مما يتمنّاه تجده، وهو كما قال القائل:

وسَاءلتكَ الليالِي فاغتررتَ بهَا ... وعندَ صفوِ الليالِي يحدثُ الكدرُ

وذكر الله سبحانه فعل ذلك الشيطان بعد تزيينه مخاييله لهم بقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ﴾: بيّن تعالى أن الشيطان زيّن للمريدين شيئًا من الأمل، ويدليه بخيال المنية في ورطة الغفلة؛ ليغويه عن طريق قُربة الله، ويحجبه عن مشاهدته، ويعده بالكرامات ووجدان الآيات، فلما أيّده الله بجذبه، ووارد وجده نكص العدو على عقبيه، واحترز من احتراقه بنيران مواجيده، ويبقى المريد بلا خيال في مشاهدة الجمال، فتقول نفسه لشيطانه: أين أنت من الوسوسة؟

فيقول: إني أرى ما لا يرون من عجائب مكاشفة الملكوت له، وأخاف الله أن يجعلني في جنس مجاهدته أسيرًا بأسر هيبته، وأيضًا يوسوس نفس الولي بأنها تغلب بشهواتها عليه بإعانته.

فلمّا رأى صوْلة جَدِّه، واستعانته بربه، ورميه إليها بأنفاس محبّته يَفر منه، ويترك النفس أسيرة في يده، ويقول: إني بريءٌ منكم، إني أرى ما لا ترون أي: أخاف الله.

بيّن الله سبحانه أن الشيطان يرى ما لا يرى الآدمي من أحكام الملكوت بعد ظهورها في هذا العالم، وذلك أنه رأى قبل هذا العالم عجائب الملكوت، ويُريه الله أنوار المؤمنين بتفريقه عنهم، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ﴾ أي: إني أخاف عذاب الله، وذلك بعد رؤية البأس، ولا ينفع ذلك، ولو كان متحقّقًا في خوفه ما عصى الله طرفة عين.

قال الواسطيّ: ترْك الذنوب على ضروب، منهم من تركها حياءً من نعمه كيوسف ﷺ، ومنهم من تركها خوفًا كإبليس، حين قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[1].

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ۝ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ۝ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ۝ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ۝ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ۝﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

أخبر سبحانه عن مقام امتحان القوم حيث أراهم مقامات رفيعة، وبلّغهم إلى بعضها، ولم يعرّفهم حقائقها، ولم يوفّقهم لأداء حقوقها، وشكر مراتبها، وأبقاهم في ذلك برهة من الدهر، ثم حجبهم عنها قليلًا بنعت الاستدراج، فبقوا مغيّبين عن ملابس أنوار الملكوت،

---

(١) أي: إلى عالم الزور والتفت إلى ما سوى الحق وجعل سعيه هباءً منثورًا.

وآثار الجبروت، وهذا إذا كانوا غير مصطفين في الأزل بالولاية السابقة في مشيئة الحكم، بل هم مخذولون بحرمانهم الأزليّ عن كمال البلوغ إلى معالي درجات المعرفة مثل بلعام وبرصيصا وإبليس، وحاشا من كرم الله العميم، وأفضاله القديمة أنه سلب أولياءه أنوار الولاية، الذين سبقت لهم اصطفائيته، بحسن عنايته في أزله، وكنايته إلى أبده.

قال جعفر: ما دام العبد يعرف نعم الله عنده، فإنّ الله لا ينزع عنه نعمه، حتى إذا جهل النعمة، ولم يشكر الله عليها إذ ذاك جُزي بأن تُنزع منه.

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾: أعلم الله المؤمنين والعارفين الاستعداد لقتال أعداء الله، وسمّى آلة القتال القوة، وتلك القوة قوة الإلهية، التي لا ينالها العارف من الله إلا بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يُلبسه الله لباسًا من الله بخضوعه بين يديه بنعت الفناء في جلاله، فإذا كان كذلك يلبسه الله لباس عظمته، ونور كبريائه وهيبته، ويغريه إلى الدعاء عليهم، ويجعله منبسطًا، حتى يقول في همّته وسرّه: إلهي خذهم، فيأخذهم بلحظة، ويُسقطهم صرعى بين يديه بعونه وكرمه، ويسلّي قلب وليّه، ويريحه من شرور معارضيه ومنكريه، وذلك سهمٌ رُمي بقوس الهمّة عن كنانة الغيرة، كما رمى نبي الله ﷺ إلى منكريه، حين قال: «شاهت الوجوه»[1].

وهذا الوحي من الله بقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾.

سمعت أن ذا النون كان في غزوٍ، وغلب المشركون على المؤمنين، فقيل له: لو دعوت

(١) رواه مسلم (٣/ ١٤٠٢).

الله، فنزله عن دابته وسجد، فهُزم الكفار في لحظة، وأُخذوا جميعًا، وأُسروا وقُتلوا.

وأيضًا اقتبسوا من الله قوة عن قوى صفاته لنفوسكم؛ حتى تقوّيكم في محاربتها وجهادها.

قال أبو علي الروذباري: «القوة»: هي الثقة بالله.

قيل: ظاهر الآية أنه الرمي بسهام القسي، وفي الحقيقة رمي سهام الليالي في الغيب بالخضوع والاستكانة، ورمي القلب إلى الحقّ، معتمدًا عليه، راجعًا عمّا سواه.

ثم بيَّن أن المعول على الله ونصرته، لا على السلاح والآلات، بقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: قوّاك بقوته الأزليّة، ونصرك بنصرته الأبدية، ووفق المؤمنين بإعانتك على عدوك.

قال الواسطيّ: قوّاك به، وقوّى المؤمنين بك، بل أيدك به، وأيّد المؤمنين بنصرك، ثم بيَّن سبحانه أن نصرة المؤمنين لم تكن إلا بتأليفه بين قلوبهم، وجمعها على محبّة الله، ومحبّة رسوله بعد تباينها بتفرقة الهموم في أودية الامتحان، بقوله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي: جمع أرواحها في بدء الأمر على موارد شريعة المشاهدة، ومشارع الحقيقة، فائتلفت بعضها بعضًا في الحضرة القديمة عند مشاهدة الجليل جلّ جلاله، فارتفعت من بينهم المناكرة، وبقيت بينهم المصادقة والمحبّة والموافقة.

ثم تأكّد ذلك الائتلاف بأنه لا يكون من صنيع الخلق، ويكلّف الاكتساب، بل من إلقائه نور الإسلام في قلوبهم، وجمعه إيّاهم على متابعة نبيّه بنظره ولطفه، بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾: ألّف بين الأشكال بالتجانس والاستئناس؛ لأنّها من مصدر فطرته.

قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص:٧٥] وألّف بين الأرواح بالتجانس والاستئناس من جهة الفطرة الخاصة من قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص:٧٢]، وألّف بين القلوب بمعاينة الصفة لها بإشارة قوله ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»[١].

وألّف بين العقول بتجانسها، وأصل فطرتها التي قيل فيها: العقل أوّل ما صدر من البارئ، وذلك قوله ﷺ: «أول ما خلق الله العقل»[٢]

انصرف من مصدر الأزليّة، وألّف بين الأسرار بمطالعتها الأنوار، واتّصال الأنوار بها

(١) تقدم تخريجه.

(٢) رواه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٨٣).

من الغيب، بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة:٣].

قيل: أي يشاهدون أنوار الغيب، فموافقة الأشباح من حيث تجانس مقاماتها في الطاعات، ورؤية الآيات، والظفر بالكرامات، وموافقة الأرواح بابتلائها من مجانسة مقاماتها في المشاهدات، وسلوكها في مسالك المراقبات والمحاضرات، وموافقة القلوب من تجانس سيْرها في الصفات.

فمَنْ شاهد القدرة يأتلف بمن شاهد بقاءه في القدرة، وكذلك مقام رؤية جميع الصفات؛ لأن سيرها في أنوار الصفات، وموافقتها العقول من تجانس إدراك أنوار الأفعال، وتحصيلها سنا الحكميات من أصول الآيات، وتدبّرها وتذكّرها فيها بأنوار الهدايات، وموافقة الأسرار من تجانس مشاربها من مشاهدة القِدم، ومطالعة الأبد، وكلّ سرّ يردُّ مشرب المعرفة، أو المحبّة والشوق، أو التوحيد، أو الفناء، أو السكر، أو الصحو يستأنس بمن يكون شربه من مقامه من الأسرار، فسبحان الذي ألّف بين كلّ جنسٍ مع جنس، رحمةً منه وتلطُّفًا.

قال ﷺ في بيان ما شرحنا من ائتلاف هذه المؤتلفات، واستئناس هذه المستأنسات في مقام القُربات قال: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف»[1]، فائتلاف المريدين في الإرادة، وائتلاف المحبّين في المحبّة، وائتلاف المشتاقين في الشوق، وائتلاف العاشقين في العشق، وائتلاف المستأنسين في الأنس، وائتلاف العارفين في المعرفة، وائتلاف الموحدين في التوحيد، وائتلاف المكاشفين في الكشف، وائتلاف المشاهدين في المشاهدة، وائتلاف المخاطبين في سماع الخطاب، وائتلاف الواجدين في الوجد، وائتلاف المتفرّسين في الفِراسة، وائتلاف المتعبّدين في العبودية، وائتلاف الأولياء في الولاية، وائتلاف الأنبياء في النبوّة، وائتلاف المرسلين في الرسالة، فكل جنس يستأنس بجنسه، ويلحق بمن يليه في مقامه.

قال بعضهم: ألّف بين قلوب المرسلين بالرسالة، وقلوب الأنبياء بالنبوة، وقلوب الصدّيقين بالصدق، وقلوب الشهداء بالمشاهدة، وقلوب الصالحين بالخدمة، وقلوب عامة المؤمنين بالهداية، فجعل المرسلين رحمةً على الأنبياء، وجعل الأنبياء رحمة على الصدّيقين، وجعل الصدّيقين رحمةً على الشهداء، وجعل الشهداء رحمةً على الصالحين،وجعل الصالحين رحمة على عامة عباده المؤمنين، وجعل المؤمنين رحمة على الكافرين.

وقال أبو سعيد الخرّاز: ألّف بين الأشكال، وغيّر الرسوم لمقامٍ آخر، فكلٌّ مربوطٌ بمنحته، ومستأنسٌ في أهل نحلته.

---

(١) رواه البخاري (٣/ ١٢١٣)، ومسلم (٤/ ٢٠٣١).

وهذا معنى قول النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة»[1].

ثم أنَّ الله سبحانه امتنَّ على نبيّه بأنه حسبه في كلّ مرادٍ له منه، وحسب المؤمنين بما يريدون منه، وأفرد النبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين؛ لتبرّيهم من حولهم وقوتهم، حيث ضمن دفع العدوان عنهم بنصرته وأزليته، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ .

أولها مننتُ عليك بائتلاف قلوب المؤمنين في نصرتك، فلا تلتفت إليهم في محلّ التوحيد، فإنّي حسبك وحدي بغير معاونة الخَلق، فينبغي أن تفرد القِدم عن الحدوث في سيرك مني إليَّ، وأنا حسب المؤمنين عن كلّ ما دوني، وإن كان ملكًا مقرّبًا، أو نبيًّا مرسلاً، ولا ينبغي في حقيقة التوحيد النظر إلى غيري، وإن كان مني، وفي هذه الإشارة قد أشار بقوله سبحانه في وصف كبرياء مجالسه من المقرّبين، بقوله: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٥٢].

قال الواسطي: حسبك بالله وليًّا وحافظًا وناصرًا، ومن اتّبعك من المؤمنين، فالله حسبهم.

﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِائَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾: كلّ مسامحةٍ من الله في المجاهدة تكون من كشف المشاهدة.

فالمستأنس بالله يكون خفيف القلب، خفيف البدن، خفيف الحِل، شريف الهمّة، لا يحتمل مع أنوار مشاهدته كثرة أثقال العبودية، فيخفّف الله بأوليائه رحمةً عليهم، وتلطّفًا منه عليهم؛ ليزيد روح قلوبهم من المراقبة والاستئناس من المحاضرة، ولذلك أكرم نبيّه ﷺ بأن رفع مشقة كثرة العبودية عنه حين تورمت قدماه من كثرة العبادة، بقوله تعالى: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾ [طه:١، ٢]، بعد أن كان في البداية قد أقامه في أجواف الليالي لخدمته، بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [المزمل:١، ٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

ثم مَنَّ على أصحابه حين بلغوا هذه الرتبة، بقوله تعالى: ﴿ٱلۡـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ﴾ أي: ما تفعلون بقوّتكم في المجاهدات والجهاد، فأنصُركم بقوّتي، وأريحكم بكشف مشاهداتي عن مشقّة المجاهدة، وما أفعل لكم خير مما تفعلون لأنفسكم.

قال ابن عطاء: ما في السماء لا يوجد إلا بالافتقار، وما في الأرض لا يوجد إلا بالاضطرار.

وقال النصرآبادي: هذا التخفيف كان للأمّة دون الرسول ﷺ، ومن لا تثقله حمل أمانة النبوّة كيف يخاطب بتخفيف اللقاء للامتداد، وكيف يخاطب به الرسول ﷺ، وهو الذي يقول: «بك أصول وبك أجول»[1].

ومَن كان به كيف يخفِّف عنه، أو يثقل عليه؟

قوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾.

أخبرَ سبحانه عن سرّ فطرة النفس الأمّارة التي من حيلة ما إن تميل في أكثر الأوقات إلى شهواتها، وذلك ميلان النفس، لا ميلان القلب.

أخبر عن الخطرات دون الوطنات، وحاشا أنهم يريدون عرض الدنيا، ولا يريدون مشاهدة الحقّ، ولقاء الآخرة لكن ما مسامحهم الله في حرمان تلك الخواطر لقدس أسرارهم، وطهارة نيّاتهم في معرفته وخدمته، ألا ترى كيف حذّر نبيّه ﷺ مع جلالته عن النظر إلى عرض الدنيا، بقوله: ﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ [الكهف:٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيۡنَيۡكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعۡنَا بِهِۦٓ﴾ [طه:١٣١] أي: تريدون الرفاهية في المجاهدة من قبيل خاطر النفس، وأنا أريد بكم كشف مشاهدة الآخرة، ووصولكم إلى مقام القربة والمشاهدة.

قال جعفر: ما يريد الله لكم خير مما تريدون لأنفسكم.

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٦٩ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٧٠ وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدۡ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبۡلُ فَأَمۡكَنَ مِنۡهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٧١ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ

(١) ذكره القشيري (٣/ ٥٣).

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴿٧٣﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾: أمرَ الله سبحانه بأكل الحلال الطيب، الذي يتولّد من كشف الحلال مثل الجهاد، وذلك أن لقمة الحلال معجونة بنظر لطفه، تقوّي أبدان الصدّيقين، وقلوب المقرّبين، وأرواح المحبّين، ولا يتولد منه الأمان فيها معجونًا، وهو لطف الباري سبحانه، ويهيجه إلى طهارة القلب من الوسواس؛ لأن الحرام ميراث الشيطان، وهم يتبعون ميراثهم، ويطلبون عوضه حال الصادق وإيمانه.

قال جعفر: «الحلال»: ما لا يُعصى الله فيه، و«الطيّب»: ما لا يُنسى الله فيه.

وقال بعضهم: «الحلال»: ما أخذته عن ضرورة، و«الطيّب»: من الحلال ما أثرت به مع الحاجة والفاقة.

وقال بعضهم: «الحلال»: ما يظهر لك من غير سببٍ، و«الطيّب»: ما يبدو لك من السبب، وما أرى من الفرق بين الحلال والطيّب أن الحلال ما تأكل في المجاهدة، والطيب ما تأكل في المشاهدة، وأيضًا الحلال ما لم يحك الصدر، والطيب ما يروح القلب.

قال ﷺ في هذه الإشارة: «دع ما يريبك إلى مالا يريبك، واستفت قلبك ولو أفتاك المفتون»[1].

وقال ﷺ: «الإثم ما حاك صدرك»[2]

وأيضًا «الحلال»: ما يتعرّض لك من الغيب بمراقبتك وانتظارك، و«الطيّب»: ما يبدو لك من الغيب بغير مراقبتك، واستشراف نفسك.

وقال الأستاذ: «الحلال»: ما كان مأذونًا فيه، و«الحلال الطيّب»: أن تعلم أن ذلك من قِبَل الله فضل لك من قِبَله، لا استحقاق.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَـٰبِ

(١) رواه الترمذي (٤/ ٦٦٨).

(٢) رواه مسلم (٤/ ١٩٨٠).

﴿ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الذين شاهدوا بأرواحهم مشاهدة الأزل، حين عرّف سبحانه نفسه لها بتحقيق الخطاب، بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢].

قالوا: بلى، فصحبتها أنوار مشاهدته من الأزل إلى الأبد بنعت المعاينة، وحلاوة السماع، ومواجيد وارادت القُرب، مع اتّصال نور الغيب على السرمدية، وهاجروا عن حظوظ طباعها من الأكوان والحدثان، وجاهدوا في مكابدتها في محلّ الامتحان مع النفس، والشيطان لرضا الرحمن، وخوف الهجران، فلما اتّصفوا بهذه الأوصاف حصل لهم حقائق الإيمان والعرفان، وسمّاهم محقّقين في الإيقان، بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

ثم ذكر امتنانه عليهم بغفرانه حركات ضمائرهم في وقت الامتحان، وتقصيرهم في حقيقة العرفان، وكشف جماله لهم في مرآة البرهان، بقوله: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾: سترهم عن عين القهر، حتى لا تصل إليهم ضرب عين القهريات، ورزقهم رزق قُربه بكشف المواصلات.

قال أبو يزيد: جهاد النفس في هجرانها نزعها عن المألوفات، وإجراؤها على سبيل الله بإسقاط العلائق عن المال والأهل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟﴾.

وقال بعضهم: أي: فارقوا قرناء السوء، والأعمال القبيحة، والدعاوى الباطلة.

قال بعضهم: آمنوا ببذل القلوب لله، وهاجروا ببذل الأملاك لله، وجاهدوا، وابذلوا الروح لله في سبيل الله، فمن بذل قلبه لمحبّته، وبذل ملكه لرضاه، وبذل نفسه وروحه لإعزاز دينه كان محبًّا حقيقة، ومن كان محبًّا حقيقة كان مؤمنًا حقًّا.

قال أبو بكر الوراق: فضّل أصحاب النبي ﷺ بشيئين: بصُحبتهم مع النبي ﷺ والمجاهدة معه، وهجرانهم إلى الله بالسرائر، وغُربتهم مع أنفسهم.

ألا ترى الله تعالى يقول: الذين أمِنوا من طوارق الخذلان، وهاجروا بقلوبهم في ملكوت الغيوب، وجاهدوا أنفسهم على طاعة رسوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، حقيقة إيمانهم ما قدم من الثناء عليهم، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾.

بيّن سبحانه أن ميراث الأولياء والصدّيقين من العلوم الغيبيّة، والحِكَم الغريبة،

والأنباء العجيبة، وبيان المكاشفات والمشاهدات، وأسرار الجذبات، وأحكام المواجيد والواردات، ولطائف المقامات، والسير في المجاهدات لا يصل إلا إلى المريدين الصادقين، والطالبين الموفّقين، والقاصدين المودين، والمحبّين، والمستغرقين في أنوار الأذكار، والطيّارين من المشتاقين بأجنحة الأفكار؛ لأنهم في محاضر الولايات خرجوا برسم الأرواح جميعًا من معادن الأفراح، وأظهروا من أرحام العدم بتجلّي القِدم، ومَن لم يكن عنهم من أهل الدعاوي والمترسِّمين، لم يصل إليه ميراث بلابل بساتين الملكوت، وعنادل رياض الجبروت.

ولا يعرف ألحان تلك الأطيار إلا طير يطير بجناح الرسالة والمحبّة، والنبوُة، والولاية الأذى كيف وصف الله سبحانه خليفة ملكه سليمان صلوات الله عليه، حيث نشر فضائل ما مَنَّ الله عليه، بقوله: ﴿عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل:١٦].

نُسب إليهم بطريق من هذه الطرق، فهو نسبهم في الولاية، وله منهم ميراث علوم الحقيقة، وأنّ الله سبحانه بيَّن في كتاب الأزل، بقوله في كتاب الله قُسّمت أرباب هذه المواريث.

قال ﷺ في هذه الإشارة: «العلماء ورثة الأنبياء»[1]، ورثوا علومهم بقدر حواصلهم وفهومهم وأحوالهم، وسرعة سيْرهم في الملكوت، واقتباسهم أنوار الجبروت، أولئك هم إلهيون، ورثوا نعيم مشاهدته، وهم فيها خالدون، ثم أثنى على نفسه أنه كان عالمًا في الأزل باختياره هؤلاء الصدِّيقين بهذه الكرامات، محيطًا بعلمه على اصطلاحهم بعد إيجاده إيّاهم بوصف قبولهم هذه الكرامات، بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الدخان:٣٢]، وبقوله في تمام السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: «عليم»: بما أبدى لهم من الاصطفائية الأزليّة، وما يبدو منهم من سنيّات طاعته، والزفرات في شوقهم إلى لقائه إلى الأبد ، والله أعلم.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثاني، وأوّله:

سورة التوبة

❁❁❁

(١) رواه الترمذي (/ ٢٤٠).

فهرس المحتويات

التقديم ٣

ترجمة الشيخ المصنف ٥

نماذج من صور المخطوط ٩

مقدمة المصنف ١١

سورة فاتحة الكتاب.. ١٥

سورة البقرة.. ٢٧

سورة آل عمران.. ١٢٣

سورة النساء ٢٢٧

سورة المائدة.. ٢٩٢

سورة الأنعام.. ٣٤٣

سورة الأعراف.. ٤١١

سورة الأنفال ٥٠٨

فهرس المحتويات ٥٤٢